تاريخ إسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية

(٧١١-١٠٣١)



ليفى بروفنسال

ـه إلى الإسبانية:
جارثيا جومث

ـه إلى العربية:
عبد الرءوف البمبى
إبرهيم المنوفى
عبد الظاهر عبد الله

ـعة: صلاح فضل

2



المشروع القومى للترجمة

تاريخ أسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية

(٧١١ - ١٠٣١م)

بقلم

ليڤى بروڤنسال

ترجمه إلى الإسبانية

إميليو جارثيا جومث

ترجمه إلى اللغة العربية

على عبد الرءوف البمبى   علـى إبراهـيم منوفـى

السيد عبد الظاهر عبد الله

مراجعة

صلاح فضل



٢٠٠٠

هذه هى الترجمة الكاملة لمجلد

تاريخ أسبانيا الإسلامية
من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية
(٧١١ - ١٠٣١)

ESPASA CALPE, S. A.
Madrid,1967

(الطبعة الثالثة)

تنويه

ترجم أ.د. على عبد الرءوف اليمبى المقدمة والفصلين الأول والثانى مع حواشيهما،
وترجم د. على إبراهيم منوفى الفصل الثالث والسادس والسابع مع حواشيهم،
وترجم د. السيد عبد الظاهر عبد الله الفصلين الرابع والخامس مع حواشيهما،

وقام أ. د. صلاح فضل بمراجعة الكتاب كله.





تاريخ أسبانيا الإسلامية

مقدمة

الأمويون وحضارة قرطبه

إميليو جارثيا جومث



عندما كلفني أستاذنا «رامون مينندث پيدال» - بصفتي مترجم هذا المجلد - بالمهمة الشاقة المتمثلة فى كتابة تقديم له، قمت - كما يقتضى الحال - بمراجعة المجلدات السابقة ومقدماتها، وبعد مقارنة محتواها بمحتوى هذا المجلّد انتابنى إحساس كبير «بالدهشة». ولاغرو فى هذا إن علمنا أنه لايوجد على مدار تاريخ أسبانيا المضطرب تحوّل أشد حدّة ولا أعمق تأثيرا من الفتح العربي .. ولازلت أذكر أننى فى شبابي قلت لنفسى ذات مرة بأسلوبى المضمخ - وقتها - بالصور البيانية : «لقد ظللت تزجي أوقات فراغك بحياكة أخبار العالم القديم - من المغرب إلى الهند - بمخايط من مآذن حتى علقت أسبانيا صدفة بإحدى عراها».

وقبل العودة للحديث عن «مفاجأة» الفتح هذه، يجدر بى أن أجتلى الطريق بالتعريج الموجز على أخريات تنتظر القارئ ولاتندرج فقط تحت غرابة أسماء وأشكال ودين وعادات الممثلين الجدد الذين جاء دورهم ليعتلوا خشبة المسرح التاريخى لوطننا ويشغلوا مساحة كبيرة منها.

ومن تلك «المفاجآت» التى أقصدها أن أكون المعنى بكتابة هذه الصفحات وليس الأستاذ رامون مينندث پيدال نفسه [وهذا أمر مقبول فى النهاية نظرا للمسئوليات الباهظة التى تستولى على الوقت الثمين لأستاذنا المسنّ، ولأنها - أى الصفحات - تتعلق بموضوع وإن لم يكن غريبا على اهتماماته فإنه بعيد بعض الشئ عنها]؛ وأن تكون المادة العلمية التاريخية لكاتب أجنبى مرموق (تُرجمت كل أعماله إلى الأسبانية) وليس لكاتب من أبناء جلدتنا حتى الآن. ولذا أعتقد أن من المناسب التوقف - ولو قليلا - عند هذه النقطة الأخيرة.

إنه لمن دواعى الأسف فعلا أن يكون معظم المهتمين حاليا - إن لم نقل كلهم - بحقل الدراسات التاريخية الأسبانية في العصر الوسيط يجهلون (أجانب وأسبان، سواء بسواء) اللغة العربية بالرغم من علوّ كعب الكثيرين منهم وتميز البعض وريادته.. ومن هنا فليس بمقدورهم التعامل المباشر مع المصادر العربية، وهى كثيرة ومستفيضة وفريدة فى بابها فيما يخص التعرف على ماكان يجرى هناك داخل أسبانيا المسلمة أو

على حدودها أو مع جيرانها؛ وحتى لو أسقطنا – فى بعض الأحيان – صفة التفرّد عن هذه المصادر العربية القديمة فإنها مع هذا تظل الأكثر تفصيلا مقارنة بمثيلاتها المسيحية.

ولهذا يمكن القول أنه بدون المعرفة المقبولة – على الأقل – للغة العربية سيظل جزء من تاريخ عصرنا الوسيط مطموراً وسيبقى ماظهر منه مشوّها. ومن العجيب أن هؤلاء المؤرخين يبدون وكأنهم لايعيرون هذه الحقيقة التفاتا [هل لأنها واضحة كالشمس؟]، وإذا انتبهوا إليها فإنهم يسارعون بإلقاء التبعة على كاهل الآخرين، مرددين فيما بينهم : «لقد اكتفى المستشرقون الأسبان بتسلية أنفسهم بتوافه المسائل الفلسفية واللاهوتية والتشريعية أو الشعرية وتناسوا التاريخ، ولو ترجموا لنا تلك الحوليات التى نحن فى أمسّ الحاجة إليها لشيدنا صرْحا علميا شامخا».. ومن غير المفيد إبراز غرابة هذا الادعاء. فالمستشرق لايجب أن يكون بالضرورة مؤرخا ولا ماهو أدنى من ذلك : أى مجرد مورِّد لترجمات تحتاجها أعمال الآخرين. والمستشرقون الأسبان لديهم أقسام اللغة العربية مفتوحة على مصراعيها أمام من يريد، ومن يدرس فيها بإمكانه التخصص فى الدراسات التى تهمه – سواء كانت فلسفية أو أدبية أو تاريخية. أما خارج هذه الأقسام فلأساتذتها – كما هو الحال بالنسبة للغويين الذين لايفرض عليهم أحد التزاما بعينه – حرية اختيار المواد العلمية التى تناسب ميولهم وقدراتهم. لقد انطوت منذ أمد بعيد سيرة مدرسة مترجمى طليطلة، وبالتالى فإن مؤرخى العصور الوسطى لو كانوا يحتاجون فى عملهم للغة العربية فعليهم أن يتعلموها دون انتظار لمساعدة غيرهم. وسيأتى يوم يتحقق فيه هذا، لكن من الآن وحتى ذلك اليوم الموعود لن يستطع مؤرخو العصور الوسطى المتخصصون كتابة تاريخ إسبانيا الإسلامية وسيظل المستشرقون وحدهم القادرين على القيام بهذه المهمة بالرغم من عدم تخصصهم فى التاريخ.

وبعد هذا التنويه ندلف إلى شق آخر من القضية يتعلق بقلة عدد المستشرقين وعزلتهم عن الاهتمام العام بسبب غرابة الموضوعات التى يعالجونها. ولشدة وعى المستشرقين بهذه المشكلة فقد سعوا إلى التواصل مع المهتمين خارج حدودهم بالإنسانيات الأوربية والتكاتف معهم من خلال تكوين جمعية صداقة عالمية توزع فيها الأدوار. ولحسن الحظ فقد استمرت هذه الشراكة فى تأدية دورها بالرغم من مكدرات الأيام.. وهكذا، فقد انتقلت – على سبيل المثال – الريادة فى مجال تاريخ الغرب الإسلامى من الأسبانى «كوندى» إلى الهولندى «دوزى» (إمام المستشرقين الأوربيين)

ثم إلى الأسباني «كوديرا» الذى استطاع أن يخلّد ذكراه بالأعمال الكثيرة التى خلّفها وبالمدرسة العلمية التى وُفّق فى تأسيسها وبشفافيته التى أنارت قفارا وإن لم يستطع سبْر أغوارها .. أما بالنسبة لرسوّ هذه الزعامة اليوم على الفرنسي ليڤى بروڤنسال – مؤلف هذا المجلد – فهذا مما لايستطيع أحد المزايدة عليه. فأستاذ السوربون الأمجد هو الخليفة الحقيقى لدوزى العظيم، وهو الذى ينفذ المشروعات التى حلم بها «كوديرا»، كما أن حياته العلمية الشديدة الخصوبة مخصصة كلها تقريبا لدراسة الغرب الإسلامي، ومن بين الأمور التى أهّلته لتولى زعامة الدراسات الأسبانية – العربية دون منازع، نذكر : اكتشافاته المدهشة التى قاده إليها حسن الطّالع؛ حيازته للعديد من الوثائق الجديدة والثمينة؛ والكمّ الهائل من الطبعات والترجمات والدراسات القصيرة والطويلة التى تُوشي ببراعة وثقة لانظير لهما. ويستحق مجلده الأول من «تاريخ أسبانيا الإسلامية» (الذى يعتبر تتويجا لنشاط علمي غير عادى) الحفاوة الحارة التى قوبل بها فى أوساط النقد العالمية. فلقد استطاع فيه – ولم يكن هذا بالأمر الهيّن – التفوق على «دوزى»، نظرا لسوْقه الكثير من النصوص والملاحظات التى لم ترد من قبل، ولتصحيحه الأخطاء القديمة، وتحديثه للقضايا المطروحة وعرض أخريات جديدة، ولأسلوبه الفعّال الحاسم الذى لم يضعف أمام المغريات والزخارف الأدبية .. وعلى هذا فقد أصبح العصر الأول لأسبانيا الإسلامية يتمتع من الآن – بعد فترة الركود التى ألَمّت به بعد المشكور «دوزى» – بقاعدة جديدة ستظل لسنوات مديدة أساسا للانطلاقات العلمية المستمرة وهدفا للمداخلات الدائمة.

وبعد كتابة ليڤى بروڤنسال للعديد من المؤلفات عن تاريخنا وظهور هذا المجلد مؤخرا حدثتنى نفسى قائلة : ماذا سيفعل المستشرقون الأسبان وليس بينهم اليوم مؤرخون متخصصون؟ هل سيتجهون لإعداد تاريخ جديد، علما بأنه موجود بالفعل، يلجأون فيه لإضافة بعض الملاحظات الهامشية بالرغم من عدم امتلاكهم للنصوص الهامة التى يقبض العالم الفرنسى على ناصيتها وحده؟ هل بإمكانهم تجاوز هذا العمل بآخر يحتوى على بعض المستحدثات؟

وللإجابة على هذه الطروحات لامفر من الاعتراف بأنها غير منطقية لسببين : لأن الوقت الذى سيستغرقه مثل هذا المشروع من الأفضل توجيهه إلى أعمال أخرى، هذا بالإضافة إلى الوعى المهنى بعدم جدوى هذه المهمة. ولذلك فالحل الأمثل هو الذى اخترته : أى ترجمة هذا العمل خاصة وأن مؤلفه صديق عظيم لأسبانيا وقد وجّه كل جهده للتنقيب فى ماضينا الإسلامى ولم يكتب سطرا واحدا يجرح شعورنا، هذا

بالإضافة إلى أنه قد أجاز لنا تغيير مانعتقده مناسبا. ومن هذا المنطلق شرعت في ترجمة هذا العمل إلى الأسبانية ولم أضف إليه سوى بعض التنقيحات الطفيفة.

والآن، وبعد الإفصاح الواجب عن تلك الخواطر يأتى دور التعريج على «المفاجأة» التي يمثلها الغزو العربى بالنسبة لتاريخنا. إذا كانت الغارة الجرمانية لم تستطع قبل عدة قرون سوى مداعبة هدفها بعد مشوار طويل من الجهد والعنت وتمخضت عن فتّ عضد المنتصرين وذوبانهم في شخصية المهزومين بفضل الصلات الوثيقة بينهم فإن الغزو العربى خرّ على الشعوب المحتلة فى لمح البصر قادما من بلاد لايعرفون عنها سوى القليل (حتى لانقول أنها كانت مجهولة تماما لهم) لدرجة أنه – وليس الغزو الجرمانى، طبقا لنظرية «هنرى بيرن» الصائبة – أصبح يمثل الحد الفاصل والحقيقى بين العصر القديم والعصر الوسيط. ومن دواعى العجب أنه كلما كثرت الدراسات حول مايمكن تسميته «بالمعجزة العربية» كلما زادت الحيرة، ونحن لانعلم الآن مقدار ماكان يعرفه أو يفكر فيه بلاط طليطلة بالنسبة للتوسع الإسلامى فى شمال أفريقيا. لكن بإمكاننا – فى المقابل – أن نعترف بأن الأمر كان بمثابة مفاجأة غير عادية، وبأن تلك المفاجأة قد أحدثت نوعا غريبا من البُهْت، ولأن علامة البُهت تتمثل فى الصمت يمكننا القول أنه لايكاد يوجد فى التاريخ الإنسانى صمت أكثر اتساعا وأشد رجفة من الصمت الذى يغلّف دخول المسلمين أسبانيا. وكل مانعرفه الآن عن الاحتلال وعن المراحل الزمنية المتقدمة للوضع الجديد يرجع لمصادر متأخرة بعض الشئ تحاول إلقاء الضوء – دون حيدة أو نزاهة تامة – على فترة مطبقة الظلام، ولذا فإنها حافلة بتلك الأساطير التى تنبت عادة – مثل زهرة شيطانية – فى تلافيف التاريخ المعتمة.. ومع هذا فإن تلك المصادر المتأخرة تحدثنا فقط وبشكل غامض عن الإعداد للغزو وعن الجيش الغازى المكون من العرب والبربر وعن احتلال المدن (الذى يصل لحد الخيال، كما هو الحال بالنسبة لقرطبة، نظرا لأهميتها اللاحقة) وعن المعارك التى جرت والنظام الذى خضعت له الأراضى الشاسعة الواقعة تحت نير الاحتلال، وكلها موضوعات يحكمها جدل واسع بين المؤرخين الذين يعتمدون عادة – ولافرق بينهم فى هذا وبين المصادر المشار إليها – على مجرد التكهن والتخمين. وفى المقابل، لايوجد أمامنا سوى ثُلْمة مرعبة نطل من خلالها للتعرف على حقيقة ماحدث وعلى ردّ «فعل المسيحيين الذين غرقوا فى طوفان لم يشاهدوه من قبل». ولانجد ومضات من الضوء إلا حين يصرخ بعض المسيحيين المحتمين بالجبال الشمالية أثناء مطاردة العرب لهم بغاراتهم المدوّية، أو حينما ينقلب العرب على بعضهم لإطفاء جذوة ثاراتهم الجاهلية؛ لكن القسط الأعظم

من التاريخ قد تطاير دون ضجيج وغرق في صمت كثيف تحت بحر متلاطم لايكاد يرى منه بعد ذلك سوى جزر صغيرة لمستعمرات أو رهبان مستعربين.

في الحوليات العربية يصمت المسيحيون ويتحدث الغزاة، وإن كنت أعتقد أنه للمرة الأولى ومنذ عهد الرومانيين يتجدد استماعنا - من خلال هذه الحوليات - لحوارات فوق أرض أسبانيا. ومن خلال سياحتي بصفحات «أخبار مجموعة» المركزة لفتت انتباهي شخصية الصميل (Sumayl) الغريبة : فهو رجل محارب، أديب وذكي، يتحرك مثل مكّوك على ظهر بغلته من مكان لآخر، يبرم المواثيق، ينقض مابرم، يكيد، يعد ويخلف، مخلص وخائن في آن واحد وكأنه أنموذج لذلك «الحلم» العربي الذي أخنى عليه الزمان، خليط من الصفات المتناقضة التي تشكل الملامح النفسية الخاصة بالشخصية العربية. ومن اللقاء الذي تم بين الصميل هذا وبين أرطباس (ARTOBÁS) ابن غيطشة (WITIZA) وعرضه علينا ابن القوطية بشئ من الرضا، يتضح لنا أننا أمام شخصيتين متناقضتين تماما، إحداهما قُدّت من معدن والثانية من معدن آخر ذي مكونات مبهمة ومتباينة.

ياترى ماذا كان سيحدث لجماعات الغزاة الرُّحل لو استمرت الخلافة الأموية في الشرق : لهؤلاء العرب المغامرين الأشاوس (مثل حجارة قذف بها مقلاع قصيّ وفي وثبتها الأخيرة) وللبربر المغاوير، قاطني الجبال وأصحاب القطعان، المتحمسين للدين الجديد؟ ماذا كانوا سيصنعون ولما يأتلف بعد نسيجهم في تلك الأراضي البعيدة الذاهلة، وهم بين شقّي رحى امبراطورية متهالكة وقد قاسوا الجوع والجفاف، وحولتهم الإحن القبلية القديمة إلى شراذم يترصد بعضها بعضا في مذابح دامية؟ السلطة العليا بعيدة ومشغولة؛ الرباط الواهن بشمال أفريقيا دائما في خطر؛ الفوضى سائدة والحكام يتسلقون ويهوون في إيقاع يثير الدّوار؛ المقاومة المسيحية تستأسد في الجبال وفي بلاط الشهداء يتوقف مدّ الرحلة الطويلة المدهشة. هل كان كل هذا سيصبح مجرد كابوس مخيف ألمّ بأسبانيا ولم يطل؟.. وهنا يتدخل الحظ من جديد وتعود المفاجأة لتطّل برأسها : فبعد أن لفظت الخلافة الأموية أنفاسها في دمشق، وأعمل السيف في رقاب ذكور العائلة البدوية الكبيرة التي كانت تحكم، استطاع فرد واحد أن ينجو بنفسه من المذبحة وأن يتخطى آلاف العقبات والأخطار - في مشاهد تفوق أكثر أفلام المغامرات إثارة - ليصل سليما معافى إلى شاطئ «المُنكّب» (ALMUÑECAR).

تسترعي انتباهنا في مقدمة ابن خلدون - المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ - ومضة عبقرية لنظرية الأجيال الحديثة، وطبقا لرأيه فإن المسيرة المحتومة

للامبراطوريات تمر بثلاثة أطوار أوأجيال : جيل التأسيس، جيل المحافظة ثم جيل الهدْم. وإذا كان من غير الممكن تطبيق هذه النظرية (التى نبعت من دقة ملاحظة المفكر العبقرى أو تفتقت عنها خبرته الطويلة) بحذافيرها الآن على التاريخ الحديث فإنها، فى المقابل، ملائمة تماما لتفسير تاريخ أسبانيا الإسلامية بكامله، حيث نجد أن الأسر الحاكمة تتألف عادة من ثلاثة حكام أوسلسلة من المجموعات فى كل منها حكام ثلاثة ينطبق عليهم نفس المعيار الذى حدده المؤرخ العربى. وأعتقد أن هذا التوالى الثلاثى لم يظهر فى أى حقبة تاريخية بأوضح مما ظهر عليه خلال حكم المسلمين لأسبانيا، فهو لم يتحقق فقط فى أغلب أسر الطوائف الحاكمة بل أيضا فى المرابطين والموحدين وفى الناصريين حكام غرناطة – بشكل أو بآخر –، وبالطبع فى الخلافة القرطبية. ففى خلافة قرطبة الأموية نستطيع التمييز بين مجموعات ثلاثة، تشتمل كل مجموعة منها على ثلاثة أجيال يأتى فى مقدمتها دائما حاكم يسمى عبد الرحمن يليه عاهل يعضد ويدعم بنيانه ثم يأتى ثالث تعانى الدولة على يديه من أزمات خطيرة. وتتألف المجموعة الأولى من العبقرى عبد الرحمن الأول يليه السمح الوديع هشام الأول ثم الغضوب النزق الحكم الأول. وتتألف المجموعة الثانية كذلك من ثلاثة أجيال : عبد الرحمن الثانى، محمد الأول والأخوان المنذر وعبد الله. ونفس ماتقدم نجده فى المجموعة الثالثة (أى فترة الخلفاء السابقين لعهد الفتنة) : عبد الرحمن الثالث (الناصر)، الحكم الثانى (المستنصر)، هشام الثانى (المؤيد). ونلاحظ أيضا أن الأمراء المستبدين كانوا أيضا ثلاثة بالرغم من تواجد جيلين فقط منهم : المنصور، المظفر و«شنجول» (SANCHUELO)، وبعدهم تأتى الفترة المضطربة لسقوط الخلافة. ومن الغريب أن هذه العصور الأربعة التى يتألف كل منها من ثلاثية تتوازى مع الأربع مراحل لبناء المسجد الجامع بقرطبة، فالثلاثة الأولى منها (التى قام بها الأمويون) زادت من رونق المسجد وبهائه بينما كانت إضافة المنصور غير متناسقة وأقل عناية.

وإذا كانت الدولة الأموية قد قطعت منذ تأسيسها كل الصلات السياسية التى تربطها بالخلافة العباسية المتأججة، فإنها لم تستطع فعل نفس الشئ مع الروافد الثقافية، ولايرجع هذا لقدرية آلية التاريخ فقط بل، أيضا، بدافع المنفعة الذاتية. فلقد كانت الأندلس آنذاك هى الأشد فقرا فى مجال الحضارة العربية والتى تعتمد فيها على أفريقيا أولا ثم على بغداد. واعتمادها عليهما لم يكن هينا، إنه يماثل اعتماد الشعوب الأوربية فى الأدب والرسم والتصوير على إيطاليا خلال عصر النهضة. أو يشبه إلى حد كبير تشبّع دويلات العالم الجديد برحيق أسبانيا الثقافى. ولقد توافرت عدة عوامل أدت جميعها فى النهاية إلى تعزيز هذا التواصل الحضارى بشكل متفرد :

توحيد العقيدة الإسلامية لشعوبها بغض النظر عن السياسة (وهى وحدة تفوق بكثير نظيرتها بين الدول المسيحية قديما وحديثا)؛ عدم تشبث العربى – سليل آبائه الرّحالة – بالبيئة الجغرافية التى يعيش فيها واعتزازه لدرجة التعصب بالروابط القبلية والدينية، وتعلق قلوب المسلمين بالأماكن المقدسة مما يحفزهم دائما على القيام بالرحلات الطويلة من أجل الحج المقترن بجلب المنافع التجارية والعلمية. ومع ذلك، فإن الفضل الأكبر لإمارة قرطبة الأموية يرجع إلى حسن اهتدائها لتوظيف هذه الرغبة العارمة فى الوقت المناسب. فمن أجل الحد من هذه الرغبة أو توظيفها لم تستخدم فقط ويمهارة الحاجز السياسى المناوئ لمنافسيها فى بغداد، بل استعانت أيضا بحليف ساقته العناية الإلهية لها : ونقصد به تطبيق مذهب إمام المدينة المنورة مالك بن أنس فى إسبانيا، والذى استتب فيها منذ أميرها الثانى الوديع التقى هشام الأول. فلقد استأثرت المالكية – التى يساندها البلاط الأموى – بنصيب الأسد من بين المدارس الفقهية الأخرى إلى أن أزاحتها فى النهاية، وسرعان ما انتصبت كقوة سياسية / دينية جبارة تحمى العقيدة السلفية التى تناوشتها الأهواء. وسيكون لدينا متسع من الوقت لإبراز قوة الفقهاء الأندلسيين والتى ترمز لها خلال عصور ملوك الطوائف الأولى شخصية أبو إسحاق الإلبيرى التى قمت بتحليلها بالتفصيل فى مكان آخر. وفى هذا المقام يكفى أن أشير – فى غير قليل من الدهشة – إلى أن هذه الخاصية الأساسية للدولة الأموية قد لازمت كل فترات التاريخ الأسبانى المضطرب. فبمثل الحماسة والحميّة التى كان على أسبان العصر الذهبى الاستعانة بهما للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقات اللوتيرانية (نسبة إلى «لوتيرو») قام المسلمون الأيبيريون المتشبثون بالتراث بالدفاع عن عقيدتهم السلفية ضد البدع والزندقات التى تفشت فى أوصال الامبراطورية العباسية.

ومن مطالعة الصفحات المشرقة التى كتبها أستاذى «آسين پلاثيوس» عن ابن مسرّة يتضح لنا وجود مارقين فطناء وحتى مؤثرين فى الأندلس، لكن تأثيرهم كان هامشيا ولم يخدش القاعدة الصلبة للدين المشترك ... وكما حدث فى إسبانيا المتأخرة فإن القوى الروحية عندما لم تتمكن من النَّيْل علانية من استحكامات المالكية فقد آل بها الحال إما إلى التحلل فى مستنقعات التحرر الآسنة أو إلى التبخر فى سماء التصوف الرّاقى.

ومن خلال المسام الضيقة لهاتين المصفاتين – التراث الدمشقى والمالكية – كم وكم تسللت من إضافات شرقية فى مختلف المجالات! ونظرة واحدة على تاريخ الأدب

العربى الأندلسى – وهو جدير بهذه التسمية – تدلنا على كيفية الامتلاء المطرد للإناء الفارغ : كتب، موسيقى، أخبار، عادات، معتقدات، أغان، سلوكيات، أفكار، تقليعات أدبية وكل مايشكل لُحمة الحضارة من عناصر متنوعة لانهائية كان يَعْبُر الشِّباك الضيقة ليروى حينذاك ظمأ أرض أسبانيا الإسلامية الجرداء ويتفاعل معها.

بالرغم من جفاف مجموعات «السير الذاتية» التى لاتحصى، فإنها فى منتهى الدقة ويستطيع من يجوس خلالها أن يعد قائمة طويلة بالكثير من هذه الواردات الحضارية. ومن ألوان الأدب الأخرى نستطيع أن نتعرف على مدى التطور الذى حدث، ففي الشعر – على سبيل المثال – نعجب أشد العجب لذلك التلميذ الصغير الذى لم يكن قد تلقى إلا مبادئ الكتابة ويهبط عليه الإلهام فى يوم سعْد فيترك أدوات لهوه ويتصدى لقرض الشعر و فى لحظات معينة تنفتح أمام أعيننا صناديق ضخمة محملَّة بالمفاجآت مثل تلك التى تخص وصول زرياب إلى أسبانيا حاملا معه الألحان، مجلات الأزياء الحديثة، طرق تصفيف الشعر، وصفات المأكولات وفن الإتيكيت. وقد قام خوليان ريبيرا برسم ملامح هذه الشخصية، والآن يستكملها ليفى بروفنسال فى ضوء الوثائق الجديدة ويجعلها علامة مميزة لبلاط عبد الرحمن الثانى والبداية التاريخية لتلوّن الدولة الأموية بالصبغة العراقية. نعم، لقد أوشك الإناء الفارغ على الامتلاء.

عندما زار أسبانيا – أيام الناصر – العالم المشرقى أبو على القالى كان يظن أنه ذاهب إلى بلد بربرى يحتاج لمنقذ، لكنه فوجئ بصبى شاعر يدعى «أبوثنيثا» (أو أبو الرَّماد) (ABUCENIZA) يستقبله بقصيدة عصماء تضارع أروع مافى الشرق من شعر. فى تلك الفترة كان ابن عبد ربه قد انتهى من تأليف كتابه الشهير «العقد الفريد» ولما لم ينل الحفاوة المستحقة اتُّخذ كمثال على عدم اهتمام الأسبان الأندلسيين بما يخصهم من درر (وهذا مادعى الصاحب بن عباد لأن يقول : هذه بضاعتنا رُدت إلينا)، لكن هذا الكتاب قد تحول اليوم إلى مصدر لاغنى عنه للتعرف على حضارة وتاريخ مسلمى العصور الأولى.

ولنا الآن أن نتساءل : ماهو الانطباع الذى أحدثه هذا المدّ المتزايد للثقافة العربية بين أوساط المستعربين المسيحيين فى أسبانيا؟ .. إنه مزيج من التقدير والحسد والنفور. وهذه المشاعر الثلاثة تعكسها الشكوى المريرة والشهيرة التى أطلقها ألبارو القرطبى، المتحدث الرسمي باسم الأقلية المستعربة التى لم تفقد هويتها. فبعد إظهار إعجابه بهذه الحضارة الوافدة يبدى ألمه للآثار المخيفة للسم العربى فى الحياة الروحية والأخلاقية للطائفة المسيحية التى يكفى اسمها الجديد للتدليل على واقعها الأليم (حيث

أن كلمة مستعرب تعني من يتحول عربيا أو يتعرب). وبالفعل، فإن جاذبية الثقافة الإسلامية وحياة المسلمين بعامة – إضافة إلى الزيجات الحتمية التي جمعت المسيحيات بالعرب – قد جعلت المسيحيين يتبنون العادات الوافدة (فقد كان منهم من يختتنون) ويقلدون الأدب العربي (كان المسيحيون يتعلمون العربية ويؤلفون بها الأشعار بينما أخذت اللاتينية في التلاشي حتى بين الرهبان أنفسهم، ولذا كان من الضروري ترجمة الإنجيل والقوانين الكنسية إلى العربية)، لدرجة أنهم تبعوهم في الهرطقة والمروق. وقد أدت هذه الظروف إلى تفجّر أزمة المستعربين التي اختلفت حولها الآراء وتناولها الكثيرون من منطلق العاطفة فتضخمت واحتلت مساحة بأكثر مما تستحق، وقد آن الأوان لردها إلى حجمها الحقيقي كما فعل الأستاذ ليڤي بروڤنسال (الذي يبدو أنه لم يطلع على كتاب «ت. و. أرنولد» «التبشير في الإسلام – لندن ١٩٣٥، الطبعة الثالثة»، ولو فعل لاستفاد كثيرا).

وتتلخص أحداث تلك الأزمة في الحُكم – خلال الفترة من ٨٥٠ إلى ٨٥٩ – بمدينة قرطبة على أربعين مستعربا بالإعدام عقابا على سبّهم رسول الإسلام علانية.

ألهذا يمكن الحديث عن اضطهاد؟.. كلا وألف كلا، لأن الدولة الإسلامية – وخاصة أثناء حكم الأمويين – كانت، على خلاف مايعتقد غير العارفين، في منتهى التسامح مع المسيحيين واليهود؛ ولقد دان المستعربون للفاتحين نتيجة لهذا التعايش الإيجابي وهذا ما أثار حفيظة المشتغلين منهم بالسياسة. فعلاوة على إبراز الوثائق التاريخية الكثيرة التي خلفها المستعربون لهذا التسامح [يعترف «سان أولوخيو» نفسه بأنه «لايشعر بين المسلمين بالدّونية أو المضايقة»، كما يشير آخر وهو «خوان دي جورز» إلى أن «المسيحي يمارس شعائره بحرية تامة في عهد عبد الرحمن الثالث»] فلم يكن المسيحيون يرتدون لباسا خاصا ولايحملون شارة مُهينة تميزهم، وكانوا في كثير من الأحيان يرتقون إلى أعلى المناصب المدنية أو العسكرية، وكان القساوسة يغشون الأماكن العامة بزيهم التقليدي، كما كان من الممكن في بعض الأحيان تشييد كنائس جديدة.

واعتمادا على ماسبق ذكره نقول أنه لو وجدت حينذاك محاولة تبشيرية سلمية تهدف إلى تآلف النسيج الاجتماعي فليس من حقنا تاريخيا أن ندينها. لكن لكل تسامح حدوده، ومن غير المعقول أن نطلب من المسلمين التساهل إلى الحد الذي يغضون فيه الطرف عن إهانة وسبّ المسيحيين لرسولهم علانية في نفس الوقت الذي لايُسمح فيه لأحد بالتعريض بالعقيدة المسيحية. والقانون القرآني ينص على إنزال أقصى العقوبة

بمن يقترف هذا الجرم، وهذا ماتم تطبيقه بالفعل ودون زيادة على الذين تطاولوا علانية على شخص رسول المسلمين.. هل علينا إذن غضّ الطرف عن القضية؟ لو فعلنا نكون قد انتقصنا من هذه الحقيقة التاريخية الموجعة ولم نوفيها حقها من الاحترام. ولذا فمن واجبنا النظر إليها باعتبار أنها عمل بطولي ضحى فيه المستعربون بذواتهم من أجل قيمة سامية كان الإحساس بها يتعاظم كلما ازداد تهديد الحضارة الوافدة لها. وهذا ماوعاه الضمير المسيحى على مر العصور والدليل عليه تلك الحماسة التى دفعت رهبان أوربا للذهاب إلى الأندلس لحمل رفات شهداء قرطبة. وبالرغم من أهمية واقعة الشهداء، ومشكلة المستعربين بصفة عامة، وما أثير حولها من جدل جعلنا نتوقف عندها أكثر من اللازم، فإنها لاتمثل إلا نقطة يسيرة فى لُحمة تاريخ المجتمع الأندلسى الذى كان يتألف معظم نسيجه - بالإضافة إلى هذه الأقلية التى استمسكت بدين أجدادها - من مسيحيين قدماء ينتمون لجميع الطبقات استبدلوا عقيدتهم القديمة بدين الغزاة الجديد. ومن الصعب حساب عددهم الآن وإن كان من الممكن التكهن به فى ضوء البيانات المتأخرة مثل التى أوردها «سيمونت» (SIMONET) فى كتابه «المستعربون، ص ٧٨٨»، ومن إحداها ندرك أن قرطبة كان يعيش بها عام ١٣١١ حوالى ٢٠٠ ٠٠٠ مسلم من بينهم خمسمائة فقط ينحدرون من أصول عربية خالصة. وهذه العجينة الهائلة التى تضخمت دون هوادة بفعل التكاثر الطبيعي من خلال الزيجات التى شملت كل الطوائف والسلالات حتى العائلة المالكة نفسها؛ هذه الجموع الغفيرة من المسلمين الأنقياء [وغالبيتهم من أصل أسباني، ولذا يتمتعون بمكونات نفسية وغرائزية خاصة جعلتهم فى كثير من الأحيان يختلفون مع الغزاة]؛ هذا الشعب المبهم الذى تشكل فى تلافيف الصمت المتقدم ووعى أخيرا دوره، هو الوجه الحقيقى لأسبانيا المسلمة والذى علينا أن نكتشفه فى مختبر أحد فروع العلم الحديثة المشوقة وتحت صبغة الإسلام الموحِّدة لكل الآفاق التاريخية التى أشرفت عليها .. ومع هذا توجد قسمات وملامح عميقة تجاوب الحظ فى الإفصاح عنها. ولقد كان «خوليان ريبيرا» بعبقريته المعهودة، هو الذى أبرز - معتمدا على سوابق لاقيمة لها - أشياء جديدة وأمورا «تعتبر استمرارا للروح الغربية داخل الأندلس» ومن أهمها الاستخدام المزدوج للغة. لقد ساق «ريبيرا» بعضا من الأملوحات التى تبين أن كافة أفراد المجتمع الأندلسى - سواء العامة أو الأمراء أنفسهم - كانوا يستخدمون الرومانثية فى حديثهم واستنتج من هذا أنها كانت اللغة الشائعة بين المسلمين الأسبان، ولم يكتف بهذا بل ساق فقرة هامة من «جمهرة» ابن حزم [ص ٤١٥ من طبعة ليڤى بروڤنسال الجديدة] تعتبر مايلى حالة شاذة واستثنائية : وهو أن العرب البلويين، المقيمين فيما يسمى الآن بـ «أجيلار»

[بلاى] و«مورون» [مَوْرُور] «كانوا لايتحدثون اللغة اللاتينية (الرومانثية) بل العربية فقط».. ودراسة المفردات الرومانثية المستخدمة فى الأدب والأعلام الجغرافية تقدمت منذ «سيمونت» (SIMONET) – الذى كان يظن أن استخدامها حكر على المستعربين – واليوم أصبحت تحتل ركنا هاما من كتاب «أصول اللغة الأسبانية» للعالم الفذ «مينندث بيدال».

وفى هذا السياق نذكر – علاوة على ماتقدم – جهود «خوليان ريبيرا» ونظريته حول نسبة اختراع الموشحات والأزجال للأسبان (وهذا الفن الشعرى منسوب لشاعر من قَبْرة – من أعمال قرطبة – كان يعيش فى أواخر عهد الإمارة القرطبية)، ومن حسن الحظ أن الاكتشاف الحديث والمدهش لخرجات رومانثية فى نهاية موشحات عربية وعبرية قد أماط اللثام – من جهة – عن وجود تراث أدبى أسبانى متقدم في الزمن على هذا الفن الشعرى، وعزّز – من جهة أخرى – نبوءة «ريبيرا» بوجود «أدب أندلسى رومانثى».. وقد تمخضت دراسة هذه الخرجات الأعجمية – التى تعتبر الآن أقدم الوثائق الشعرية فى كل الآداب الرومانية – عن نتائج مدهشة. ونسوق فيما يلى أنموذجين، مختارين من طبعة «ستيرن» و«كنتيرا» كان يُتغنى بهما قبل ظهور «أغانى الصديق» الجاليقية / البرتغالية :

– ماذا سأفعل وماذا سيكون مصيرى ؟

ياحبيبى ،

لاتذهب وتتركنى وحيدة.

– أمّاه، ما العمل؟

وحبيبى بالباب ينتظر.

يالها من أصوات شعرية رائعة، تلك التى تصلنا من الأندلس العتيقة المسلمة، فتهز مشاعرنا الكامنة.

لقد حبّرنا الكثير من الصفحات ولم نتحدث إلى الآن عن الممالك المسيحية في شمال أسبانيا؛ وهذا الموضوع لايتصل حقيقة بمادة هذا المجلد المخصص بكامله لأسبانيا المسلمة، ولذا فمن الممكن فقط العناية بنقاط الاحتكاك بالدولة الإسلامية ولما كان «ليڤى بروڤنسال» قد أوفاها حقها من الدراسة فلا داعى إذن لأن نكرر ماذكره هنا. إن «حرب الاسترداد» (ولنا الحق بهذه المناسبة تكرار السؤال الذى طرحه «أورتيجا إى جاست» :

هل من الممكن إطلاق «حرب الاسترداد على شئ استمر ثمانية قرون؟) لم تكن قد اختمرت بعد فى ذلك الحين، ولم يكن لها بالتالى أثر جلىّ فعّال. لقد كان هناك حائل قوى وفاصل واضح المعالم بين الإمارة القرطبية والممالك المسيحية، يتواجهان أحيانا، وأحيانا أخرى يتعايشان كجيران طيبين لكن دون أن يدور بخلد الإمارة احتلال البلد بكامله أو يتجاسر المسيحيون على رد ماضاع منهم بل فقط تعزيز ملكهم وترسيخه وتقليد حضارة الخصم مع مراقبة نقاط ضعفه للانقضاض عليه فى الوقت المناسب، وهذا مافعله بمهارة فائقة ألفونسو الثالث (الرائد الحقيقى لحرب الاسترداد الفعلية). وفى مناسبات عابرة ومتباعدة يشن كل منهما على الآخر غارة تنتهى بالاستيلاء على مدينة أو حرق حصون وقلاع أو أسر رجال ونهب ممتلكات ثم لاتلبث أن تعود إلى نقطة البداية. أما المواجهات الكبيرة والحاسمة فلم يكن قد آن أوانها بعد. فالملوك المسلمون لم يقرروا أبدا – على خلاف المنطق – وضع أيديهم على شبه الجزيرة بكاملها.

وهذا لايعنى أنهم لو حاولوا لظفروا ببغيتهم لأنهم كانوا على الدوام مشغولين بالقضاء على حركات التمرد والعصيان الداخلية. وهى حركات على كل لون وجنس، وتكرارها الرتيب كفيل بتشتيت ذهن القارئ غير المتخصص وإثارة ضجره: الصراعات الأبدية على السلطة نظرا لنظام توريث العرش ومايصحبه من تغيير النمط الطبيعى لتوالى الأجيال وإضعاف الروابط الأخوية؛ نزاعات بين العرب تثير جذوتها الإحن القبلية القديمة؛ حركات تمرد بربرية؛ مواجهات بين العرب الخُلّص والمولدين؛ عصيان المولدين؛ ثورات أهلية مثل ثورة الرّبض الشهيرة بقرطبة والتى أجبرت الكثيرين من الأسبان المسلمين على الرحيل إلى أراض بعيدة حيث ذهب بعضهم ليقطن «الشاطئ الأندلسى» فى فاس بينما أسس آخرون مملكة فى جزيرة كريت؛ وكل هذا دون أن نعد المصائب التى لم تكن فى الحسبان – وكأنها هبطت من السماء – مثل إغارة النورمانديين على الأندلس وتخريبهم لمدينة أشبيلية.. كما أن الحركات الانفصالية هبّت فى غير هوادة مثل ريح السموم على شبه الجزيرة طوال عهد الإمارة القرطبية. فهذه هى الثغور الثلاثة الحدودية تتنصل على التوالى من السلطة المركزية مثل إقطاعيات مستقلة منبئة عما سيكون عليه الحال فى عصر الطوائف القادم : فثغر «أرغن» (ARAGON) بقى فى أيدى سلالة «بنى قاسى (BANU QASI) ونصفه مسيحى والآخر مسلم؛ وثغر «ماردَة» (MERIDA) حكمه ابن مروان ومن بعده ذريته؛ وطليطلة

(TOLEDO) – المدينة المشئومة المتمردة على الأمويين دائما بالرغم من عمليات القمع القاسية – سارت على نفس الدرب. بل إن أشبيلية ذاتها تحولت إلى إمارة مستقلة، و«بَجّانة» (PECHINA) الصغيرة غدت تحكم نفسها تحت سيطرة فيدراليتها البحرية وأصبحت أنموذجا منظما لخلايا قرصانية عديدة تعمل لحسابها الخاص..

لاشك أننا نعرف أشياء كثيرة عن أسبانيا المسلمة، وأشياء أكثر عن ممالك الشمال المسيحية، لكن لازلنا بالرغم من هذا نتطلع لمعرفة الأحوال الاقتصادية لهذا المجتمع المتعدد الأجناس والطوائف وللبواعث النفسية التى كانت تحرك هذه الكائنات المميزة.

يمكننا فى نهاية المطاف أن نستوعب فكرة نزوع الأرض التى تحدها موانع طبيعية إلى العزلة والحكم الذاتي؛ لكن ماظننا بالفرد الذى يعلن عصيانه وتمرده هكذا دون سبب واضح لأيدولوجية أوقيمة معينة ولاحتى لإسقاط النظام الحاكم، ويكون كل همّه الحفاظ على الحياة السيئة التى يحياها خائفا مطاردا ومحاصرا بين جدران أربعة لقصبة أو حصن ريفى!! لا أدرى إذا كان يوجد فى أى لغة أخرى الفعل الأسبانى ذوالضميرين «تحصّن» الذى نستخدمه اليوم دون أن نعى تداعياته القديمة. لكن تلك الأراضى الخارجة على سلطة الدولة والتى يسيطر عليها هؤلاء «المتحصنون» كانت بمثابة خلايا سرطانية تفتك بصحة النسيج السلطوى! فقد كانت تقطع وسائل الاتصال وتعوق الإمدادات وتوقف تحصيل الخراج، إضافة إلى الفوضى التى كانت تسببها أو الأنموذج السيئ الذى تمثله. ومن جهة أخرى، فقد كان الاستيلاء عليها فى غاية الصعوبة. ففى عصر متأخر وظروف مختلفة تماما يقص علينا ملك غرناطة «عبد الله» من خلال «مذكراته» خبرته الشخصية بالنسبة لحصن «بيليّوس» (BELILLOS) : «لو قُدِّر لأمير مثلى الاستيلاء على حصن بحد السيف لاعتبر هذا شيئا عظيما بالتأكيد؛ لكن الذى يحدث أن محاولة اقتحامه لاتجدى نظرالدفاعاته المضادة وللاستحكامات القوية بداخله؛ كما لايجدى أيضا العمل على تطويقه وحصاره حتى تنفد مؤنه وذخائره ذلك لأن المساعدات تتسلل باستمرار إلى العدو مما يضطرنا فى النهاية لرفع الحصار».

ومما لاجدال فيه أن زعيم هؤلاء «المتحصنين» هو الملك المولَّد «عمر بن حفصون» الذى لايزال حصنه إلى اليوم فى «بُبشتر» (BOBASTRO) – بعد تنقيب علماء الآثار عنه – قلعة منيعة من الصعب الوصول إليها. وكما حدث آنفا بالنسبة للشهداء

المستعربين فقد تضاربت الآراء أيضا حول شخصية هذا الزعيم. فهل كان أنموذجا لقطاع الطرق الكرماء ورائدا فيما بعد لأمثالهم من الرومانسيين؟ أم أنه على خلاف هذا، أى كان تجسيدا لروح أسبانيا المسيحية المتمردة - منذ موقعة «أبييدو» (COVADONGA) - على الغزاة؟ من الصعب إثبات أحد الاحتمالين لأن المعلومات التاريخية التى أوجزها وصنّفها بإتقان «ليڤى بروڤنسال» تنمّ عن شخصية متناقضة غير محددة المعالم، انتهازية ودون مبادئ ثابتة، جذابة لكن متذبذبة : فإذا كان قد تحول إلى المسيحية واستشهدت إحدى بناته من أجلها، فإنه لم يتردد قبلها بقليل فى إعلان اتهامه لمعتقدات الفاطميين بالمروق عن تعاليم الإسلام الصحيحة.. لكن، يجب أن نعترف أن المعلومات الواردة عنه مصدرها أعداؤه. ويحق لنا، بالتالى، أن نتساءل : لماذا لانقرّ له بالبعد المزدوج الذى يتمتع به أبطال التاريخ الآخرون؟ وعلى هذا، فلتظل أسطورته الجميلة باقية؛ لكن بشرط أن ندرك أن الحقائق التاريخية التى نحن بصددها تضطرنا لرسم أبعاد لشخصيته قد تبتعد كثيراعن مواصفات الأسطورة.

فالفوضى الاجتماعية واقتطاع الثغور والخوف من «المتحصنين» - وعلى رأسهم الآن عمر بن حفصون - كانت كلها عوامل تقرض عظام إمارة قرطبة منذ تأسيسها حتى وصلت إلى ذروتها فى عهد الأمير عبد الله (آخر أمراء قرطبة). ولدينا أخبار مستفيضة عن هذا الأمير أوردها ابن حيان فى كتابه «المقتبس». وتبعا لتلك الأخبار فإنه كان رجلا فى منتهى التعقيد وأنموذجا أصليا لكافة المتناقضات التى يتآلف منها «الحلْم» العربى : فهو دمويّ وبشوش، أب قاس مع أبنائه وجد حنون مع أحفاده، بخيل وديمقراطى، وفى كل الأحوال فطن وماهر. ومن أهم مآثره العظيمة إنقاذ قارب الإمارة الضعيف المتهالك من الغرق. لقد استطاع - من خلال مناورات لاتحصى - أن يصل لنهاية أيامه وهو محتفظ بقرطبة (التى بقت بأعجوبة فى أيدى الأمويين حتى تاريخه) : تلك المدينة، بوتقة الأجناس والسلالات والتى جمع الخشنى (JUSHANI) كثيرا من أخبارها فى كتابه «تاريخ قضاة قرطبة».

وبسرعة تنشق الأرض مرة أخرى عن المعجزة. ومثلما بزغت شمس أسبانيا الآمنة المتماسكة سريعا فى عهد الملكين الكاثوليكيين من رحم فوضى وخراب زمن «إنريكى» الرابع، تلملمت كذلك - طواعية - أشلاء أندلس عبد الله على يد حفيده الأثير لديه : العاهل الفذ عبد الرحمن الثالث. إنها أشياء لايفصح لنا عنها التاريخ بالكامل .. هل

يعود استرداد النظام لعافيته للظروف المواتية، أم للعناية الإلهية، أم لحنكة الوريث الشاب وعبقريته الغير عادية؟ مانعرفه فقط هو أنه نجح فيما فشل فيه كبراؤه؛ أن الصدامات كانت تتوارى مع طلعته، وأن أحدا – على خلاف العادة – لم ينازعه الملك : المتمردون يستسلمون الواحد بعد الآخر، والثغور العصيّة تعود مختارة لترسف فى الأغلال. لقد كانت الأندلس فى مسيس الحاجة وقتها لهذا التجاوب لأنه، علاوة على الخطر المسيحى، كان شمال أفريقيا قد أفرز خصما جديدا، متمثلا فى الخلافة الفاطمية، يتربص بها الدوائر. ولمواجهة هذا الخصم العنيد لجأ عبد الرحمن الثالث – بعد أن استتب له الأمر بالقضاء على الخصومات ودحْر ابن حفصون – إلى تدبير حاسم : سيترك هو أيضا لقبه المتواضع [أمير، سليل الخلفاء] الذى قنع به أسلافه فى أسبانيا وينفض الغبار عن الألقاب القديمة لأجداده فى الشام، سيجعل من نفسه خليفة وأميرا للمؤمنين حتى لايكون أقلّ من غريمه على الشاطئ الآخر. وفى عام ٩٢٩ يبدأ عصر الخلافة القرطبية ويتخذ العاهل لنفسه لقب «الناصر لدين الله».. ومرة أخرى، فإن اتخاذ العاهل المسلم لهذا اللقب يجعلنا نستحضر مافعله الملكان الكاثوليكيان لأنه نسخة طبق الأصل منه.

الآن، بعد أن أصبح العاهل خليفة لم يعد باستطاعته الاختلاط برعاياه مثلما كان يفعل أسلافه، بل كان لزاما عليه التحوّل إلى كائن نصف مقدس، حاكم بأمره، ويحتجب عن أعين العامة. ومن مكانته الجديدة، الأعلى من كافة أتباعه وشيعته، تخلص من تبعة الإحساس بالولاء للأرستقراطية العربية، فلم تكن فى نهاية المطاف سوى عنصر واحد من عناصر المجتمع الذى تتعايش فى توازن صعب منذ الأيام الأولى للذرية الحاكمة : الآن يفتح عبد الرحمن الثالث الباب أمام المولدين واللاطينيين ليرتقوا سلم المناصب العليا فى الدولة (مع الصمت المكفهر للسلالات القديمة، كما يتضح من عبارة وردت فى «أخبار مجموعة») ويستكثر من الصقالبة [وهم عبيد أوربيون – خصيان وغير خصيان – جُلبوا من أماكن بعيدة] ويوزع بينهم الدرجات والمناصب الجمّة التى تمخض عنها النظام المعقد والجديد لشئون القصر والخلافة..

وتعاونت الشّارة الامبراطورية مع السلام الداخلى فى تحريك العاهل لإلقاء مراسيه فى الأراضى المسيحية، حاصدا الانتصارات [التى لم تخل من هزيمة مدوية]، وللتدخل فى الشاطئ الآخر من المضيق ليحتل سبتة (قاعدة العمليات الهامة) لتبدأ معها

السياسة الشائكة لشمال أفريقيا [وتأطيرها وتحليلها يعتبران من أهم المستجدات فى كتاب ليفى بروفنسال الحالى].

وتستدعى هذه المآثر القيصرية الضخمة توسيع المقر الخلافى الذى لم يعد يناسبه قصر قرطبة القديم. وتبزغ حينئذ، بين غابات السنديان تحت أقدام سلسلة جبال «الشّارات» مدينة الزهراء، المدينة الساحرة «مثل آنسة بيضاء رائعة الجمال بين ذراعى حبشى حالك السواد» .. وكانت إحدى محظيات الخليفة قد قامت بجمع أموال لافتداء أسرى المسلمين، ولما لم يُعثر عليهم خُصص المال المجموع للشروع فى تشييد المدينة التى حملت اسم محظية أخرى.

وحكاية المدينة تبدو وكأنها أسطورة شرقية لو لم تبرهن الأخبار الثابتة على صدق أدق تفصيلاتها ولو لم يعرض علينا علماء الآثار ماتبقى من كنوزها. وتكشف التنقيبات الجارية عن مدينة الزهراء - بالرغم من أنها لاتزال فى البداية وبالرغم من نهب أطلالها خلال فترة طويلة من الزمن - مدى عظمة وضخامة تلك المدينة (التى تضارع الإسكوريال أو فرساى) التى اعتمد بناؤها على الحجارة المشغولة، وكل مافيها جدير بتزيين قاعات أى متحف : ألواح مرمرية كبيرة، تيجان أعمدة على شكل أعشاش الزنابير، زخارف كلسية، توريقات أنيقة، تماثيل لحيوانات صغيرة مصنوعة من البرونز... الخ.

وفى تلك اللوحة الرائعة احتجب الخليفة ليخفى ضجر أبهته المُذَهَّب، أو - على خلاف هذا - ليبهر به السفارات التى ترد إليه من ألمانيا وبيزنطة. ومع أن بداية العلاقات بالامبراطورية البيزنطية تعود لأيام عبد الرحمن الثانى إلا أنها تتوطد الآن وتزداد عمقا.. يقال أن تاريخ الأمويين القديم [ولنسجل هنا أن أول اتصال بين القسطنطينية والإسلام كان عن طريق دمشق] قد ساعد على صبغة قرطبة باللون البيزنطى، وفى هذا الاتجاه يعمل الباحثون بدأب لتتبع أشكال هذا التأثير فى شئون البروتوكول وفى النظام الإدارى والفنون (وعما قريب سيتآخى الموزايكو المتعدد الألوان مع الأقواس والعقود العربية فى المحراب الجديد والمدهش لمسجد قرطبة الكبير). وأبلغ دليل على هذا التأثير المخطوط الذى أهداه امبراطور الشرق المسيحى لخليفة قرطبة والذى بمجرد أن ترجمه الراهب البيزنطى نيقولاس أصبح الأساس للازدهار التالى الرائع فى مجالى النبات والصيدلة الأندلسيين.

أسيكون عمر الخلافة مثل زهرة رقيقة قصيرة الأمد ؟

كان من الضرورى انتظار نتيجة الاختبار، وقد أُجرى بنجاح مع الخليفة الثانى الحكم المستنصر الذى اعتلى العرش وهو فى قمة نضجه لطول فترة حكم أبيه الرائعة والتى امتدت لنصف قرن. وخلال عهد المستنصر الذى استمر خمسة عشر عاما توطدت أركان الخلافة وعم الاستقرار والهدوء فى الداخل. وتخبرنا باستفاضة «حوليات قصور الحكم الثانى» – التى كتبها عيسى الرّازى واحتفظ بها ابن حيّان فى «المقتبس» [وأنا أضع الآن اللمسات الأخيرة لترجمة وطبع هذه الحوليات التى قد تُعدُّ أروع وأكمل وثيقة عن عصرنا الوسيط](*)- بما كان عليه أمر الحياة اليومية فى قرطبة خلال تلك السنوات الوادعة.

وطبقا لسنّة التاريخ وديدنه فإن العاهل القيصرى يخلفه عادة آخر مثقف : وعلى هذا فقد خلف الحكم عبد الرحمن مثلما خلف «ألفونسو العالم» «سان فرناندو» أو مثلما أتى فيليب الثانى بعد الأمبراطور كارلوس الخامس. والحكم يشبه فيليب الثانى إلى حد كبير : فهو مثله لايذهب إلى المعارك بل يظل قابعا فى قصوره، غيور على التقاليد الملكية، لايترك شأنا من الشئون دون دراسة، دقيق، إدارىّ ويقضى أوقاتا طويلة بين الأوراق، خجول، شكّاك، متردد، بطيئ فى تكوين رأى؛ وكثيرا مايغير رأيه، لكنه – وفى هذا أيضا يشبه فيليب الثانى – إذا اتخذ فى النهاية قرارا فمن المستحيل عدوله عنه. وهو لم يتشبث بأمر مثل تشبثه باتباع سياسة والده المناوئه للفاطميين. ولم تؤثر الغارة النورماندية الجديدة فى استتباب النظام الداخلى، كما لم يجرؤ المسيحيون على رفع هاماتهم وكانت وفودهم العالية المستوى تترى على مدينة الزهراء للإعراب عن التقدير والاحترام. لكنهم انتهزوا أخيرا – ولمرة واحدة – فرصة غياب معظم الجيش الإسلامى فى شمال أفريقيا وغامروا بحصار «غُرماج» (GORMAZ) ولم تفلح المغامرة لأن الخليفة قضى عليها سريعا.. لقد استطاع الخليفة، فى نهاية المطاف، أن يصرف كل همه لحملاته الأفريقية، وتصميمه عليها وشعوره بالواجب نحوها يثيران الإعجاب والتقدير. وعندما نتمكن من الدراسة التفصيلية لما جاء «بالحوليات» عن الحملة الريفية الموجهة

(*) ترجم العلامة جارثيا جومث الجزء الخاص بالحكم المستنصر، ونشره فى مدريد عام١٩٧٢م تحت عنوان: "Anales palatinos de Al-Hakam II".

ضد الإدريسيين المتمردين المتذبذبين عقائديا (وهى حملة تحرك فى الوعى الأسبانى ذكريات ليست ببعيدة تعتبر شاهدا لامراء فيه على قدرية سنة التاريخ) سندرك إلى أى مدى كان صبره على الكوارث، وإلى أى مدى وصلت إليه روحه المعنوية العالية التى أشاعت الحماسة فى السيف المتلجلج – أحيانا – لقائده غالب لكى ينتزع النصر فى النهاية.. وهنا نكاد نلمس بأيدينا مرة أخرى الأعماق الغائرة للروح الأيبيرية ونستحضر شخصية فيليب الثانى. فبمثل الحمّية التى دافع بها هذا عن الكاثوليكية ضد اللوتيريين والأتراك انتصب الحكم الثانى– يؤيده شعبه – كحام للسلفية الإسلامية ضد الشيعة، ويومها حلم الشعر السياسى لبلاطه (كما سبق وأشرت فى مؤتمر الاستشراق الدولى الحادى والعشرين) ببرامج لم تتحقق أبدا مثل التوسع العالمى وتوحيد شعوب العالم الإسلامى تحت لواء العقيدة السلفية التى بُعثت من جديد:

شواهده تبقى بِحَمْل لوائه
إلى بابلٍ بعد المرور بيثربا
(ابن شخيص – عن «المقتبس» لابن حيان)

قد قَدَّر الله أن تحوى كتائبه
مُلْكَ العراق ومُلْك الشام والحرمِ
(عبد القدوس بن عبد الوهاب–المرجع السابق)

لقد طلعت بالغرب شمس خلافة
أضاء لها فى المشرقين شروقُ
ليجلوَ عنها ظُلْمةَ الكُفْرِ بالهدى
إمام على الدين الحنيف شفيقُ
(عبد العزيز بن حسين القروى–المصدر السابق)

ياناصر الدين إذا لم يكن
له على الدنيا ولىٌّ نصيرُ
(يعلى بن أحمد بن يعلى – المصدر السابق)

عَلَمُ الهدى ومنارةُ بها قاطنٌ
فعلى ذراك لهَدْيه أعلامُ
(أحمد بن سليمان – المصدر السابق)

لقد كانت الخلافة القرطبية بناءً هائلا لم يولد صدفة لأنه أتى ليتوج فترة طويلة من التشكّل ومن السعى لتحقيق التوازن والتآلف بين السلالات والعناصر المختلفة للمجتمع. فقد قامت على هدف وغاية سامية وتشبعت بالتراث وكان لها فن مميز، وكانت – فى الأدب – على وشك أن تتحدث بلسانها الخاص. كان لديها نظم إدارية فعّالة وفى خدمتها عائلات متمرسة لعدة أجيال على السياسة. واقتصادها – حسبما نعلم – كان ينعم بالازدهار والصحة، والدليل أن الحكم الثانى قام، قبل موته بقليل، بتخفيف الأعباء الضريبية عن رعاياه. لقد كانت – باختصار – دولة قوية ومتحضرة، لامنافس لها على الإطلاق فى عالم الغرب ويمكن مقارنتها فقط ببغداد وبيزنطة وإن كانت أقل خبرة من كليهما لحداثة مولدها، لكنها للسبب ذاته كانت مفعمة بآمال عريضة وأقلّ مشاكل. كانت تتمتع بهالة مزعجة من الحداثة. وإليكم نتفا قصيرة من بين حشايا «الحوليات» :

«ذهب الخليفة الحكم يوم السبت الموافق ٢٤ذو الحجة من العام الجارى [٣٦١هـ = ٦ سبتمبر ٩٧٢م] إلى باب السُّدة بقصد زيارته. ثم اضطرد الإذن بالوصول إلى من حضر من أَفْناء الناس، فتقدمت فى أوائلهم رجالات قريش ثم الموالى ثم الحكام وقضاة الكُوَر ثم الفقهاء وأهلُ الشورى وغيرهم والعدولُ ثم صنوف الحشود والوفود». يبدو أننا نقرأ خبرا قصيرا فى جريدة معاصرة. وشئ مماثل يمكن تأكيده بالنسبة للتقريظات المسهبة فى حفلا ت الاستقبال بالقصر الخلافى : إنها صورة طبق الأصل لحفل تشريفات يجرى حاليا فى «قصر الشرق» بمدريد. وبالرغم من كل هذا، فإن تلك الدولة القوية الزاهرة المؤهلة للاستمرار قرونا عديدة لم تدم أكثر من مائة سنة وماتت فجأة – دون شيخوخة – بعد احتضار سريع ومأساوى. أين يكمن الخلل؟ اعتاد المؤرخون على سوْق الأحداث بدلا من الأسباب. والسبب الرئيسى، من وجهة نظرى، يكمن فى ضعف القوة العسكرية للنظام الأموى.

لقد أبدى ابن حوقل (الجغرافى المشرقى الذى زار أسبانيا خلال عهد عبد الرحمن الثالث) دهشته، فى مواضع كثيرة من كتابه، من بقاء الأندلس فى يد عاهلها «بالرغم من افتقار أهلها للشجاعة ولروح الفروسية والبطولة اللازمة لمجابهة الخطوب ومقارعة الفرسان ... الخ». ويعتقد البعض (كانْراد) فى تحيز هذه الشهادة لأن ابن حوقل – وربما يكون هذا صحيحا – كان جاسوسا فاطميا ورأيه هذا «كان مُعدا سلفا ويمثل

جانبا من الحرب النفسية الدعائية».. وحتى لو ثبت أن ابن حوقل كان جاسوسا فلا يعنى هذا التشكيك فى شهادته لأن الجواسيس غالبا مايذكرون الحقيقة التى تعتبر أساس عملهم. ومن جهة أخرى، فهناك كمّ كبير من الأحداث الصغيرة (يستحيل سردها هنا) يؤكد صدق ماكتبه الجغرافى المشرقى.

لقد أشرنا مرات عديدة إلى عدم وجود مشروعات عسكرية تهدف لاحتلال شبه الجزيرة بالكامل، وإلى أن مواجهة المسيحيين اقتصرت على غارات تأديبية فى فترات متباعدة. لقد زعم البعض أن سرّ هذا يكمن فى كثرة الاضطرابات الداخلية وبوسعنا تفنيد ماذهبوا إليه قائلين أن الحكم الثانى - طبقا للحوليات - كان يتمنى دعم جيشه النظامى بمتطوعين وكثيرا ما استحث لهذا الغرض المتثاقلين والمتمارضين. نعم؛ كانت الأندلس عازفة عن القتال؛ وعليه فإن هناك أسطورة من الأساطير الكثيرة التى نسجت حول المسلمين يجب أن تُحال إلى التقاعد ألا وهى أنهم وفى كل الأحوال شجعان. لقد كان كذلك بالفعل العرب الرُّحل الذين غادروا الصحراء فى البداية، على الأقل بفعل قوة دفع الانطلاقة الأولى والسرعة الخاطفة؛ لكن المسلم الداجن أو الأهلى - وفى الإسلام الأسبانى تفيض الأمثلة - كان يركن، كما هو منطقى، لحياة البذخ والدّعة.

لقد دفعتنى للتدبر والتأمل كثيرا هذه الكلمات التى قرأتها لـ «ج. إى. ڤون جيرونيبوم» والتى تبرز تدهور روح القتال لدى العرب الذين خلفوا آباءهم الفاتحين: «يركن الإسلام إلى التمركز فى المدن حيث يستطيع التاجر ممارسة مهنته المفضلة. والتوطن فى المدن يجعل القلم مقدما على السيف، والعالم على الجندى، والتاجر على المزارع».

قبل أن يكتمل القرن على سقوط الخلافة يقول لنا عنها آخر الزيريين الذين حكموا غرناطة (عبد الله) فى الجزء الذى لم يطبع إلى الآن من «مذكراته» (وعما قريب سأقوم بالتعاون مع ليڤى بروڤنسال بنشرها بالكامل)(*): «أعلن رعايا الأندلس عدم قدرتهم على الاشتراك فى الحملات الحربية ... متعللين بأنهم لم يتدربوا على فنون القتال وبأن اشتراكهم سيمنعهم من فلاحة الأرض. لم يكونوا، بالفعل، رجال حرب ... لقد كانت الأندلس، قديما وحديثا، بلد العلماء والفقهاء ورجال الدين ...». ثم يتحدث بعد ذلك عن

(*) انفرد المستشرق الفرنسى «ليڤى بروڤنال» بنشر هذه المذكرات فى «دار المعارف المصرية» عام١٩٥٥م؛ وقام جارثيا جومث بترجمتها بعد ذلك إلى الإسبانية.

سكان «إلبيرة» (ELVIRA) فيقول :«لايريدون الخضوع لأحد ولاتقبّل أوامر حاكم؛ ومع ذلك فهم أجبن أناس على ظهر الأرض، لايقدرون على قتال مخلوق حتى ولو كان ذبابا إلا إذا وافتهم الكتائب الأجنبية كي تدافع عنهم وتحميهم».

وهنا تكمن المشكلة المأساوية بجميع أبعادها. فالدولة لكي تستقر وتستمر لابد لها من امتلاك المعدات العسكرية الكافية والوقوف على أحدث فنون القتال. وفي زمن الخلافة كان هذان الأمران يتمثلان في عدد الجنود ومهارتهم التكتيكية والتدريب الجيد على امتطاء الخيل واستخدام القوس والرمح والسيف. وتبرهن الشواهد على أن الخلافة الأموية كانت تعاني من نقص عدد المحاربين ومن سوء إعدادهم للحروب. والأغرب من هذا أن الدولة كانت كلما زادت نماءً وازدهارا واشتدت حاجتها، بالتالي، إلى زيادة عدد المقاتلين، كان الكسل وعدم الفاعلية يشيعان أكبر بين صفوف الأندلسيين.

أكان عليهم، إذن، البحث في مكان آخر عمن يدافعون عنهم؟ أين؟ أثمرت الحروب الأفريقية عن اكتشاف منجم من المحاربين البربر (أحفاد الفرسان القدامى قبل أن يتأسبنوا على أرضنا)، لم يوهنهم التحضر ويواجهون الخطوب ببأس عانت منه الأمرّين كتائب جيش الخلافة الخاصة. وفي هذا الشأن يوجد نص ثمين لابن حيان (أمطت اللثام عنه منذ فترة وجيزة) يوضح لنا مراحل الاستعانة بهؤلاء البربر الجدد.

لقد تدخل عبد الرحمن الثالث في أفريقيا تحدوه أطماع سياسية ودبلوماسية؛ لكنه كان يتحاشى البربر دائما .. وفي البداية سار ابنه الحكم على نفس النهج لحد الصرامة، فقد وجد ذات يوم أحد غلمانه راكبا على سَرْج بربري، وعندها لم يكتف بتعنيفه بل وجه اللوم كذلك لكبير وزرائه وأمر بإحراق السَّرج الدخيل أمام الجميع في المعسكر.

بعد أن تقدمت السن بالخليفة وتوالت حملاته الأفريقية لابد وأن يكون قد رأى بعيني رأسه مانحسبه اليوم : الفرق بين جنوده الكرتون – أو عساكر الشيكولاته، طبقا لتعليق «كانراد» على أخبار ابن حوقل – المغرمين بزي الاستعراضات الجميل وبين مقاتلي الجانب الآخر من العدوة .. في يوم من أيام مرضه، صعد الخليفة إلى إحدى شرفات القصر ليشاهد عرضا للجنود البربر الذين تجمعوا لاستلام رواتبهم :«انظروا – قال لمن كانوا يحيطون به – إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله :

فكأنما وُلدت قياما تحتهم
وكأنهم وُلدوا على صَهَوتها(*)

ما أعجب انقيادها لهم، كأنها تفهم كلامهم!». ومن هذه الثَّلْمة - يختم ابن حيان كلامه - لابد وأن تمرق كل مصائب الأندلس (مثلما قضى الأتراك، فى ظروف مشابهة، على خلافة بغداد). لكن علينا ألا نسبق الأحداث.

بعد موت الحكم الثانى دخلت الخلافة جيلها الثالث الخطر، المتمثل الآن فى فتى تالف غضّ الإهاب جاء إلى الدنيا وقد تقدمت السن بأبيه ولم تعد قدراته الجنسية محل ثقة، إنه هشام الثانى أحد النماذج الأبلغ تعبيرا لما يسميهم التاريخ «بالملوك الكسالى». وبالطبع فقد كان متوقعا أن تحيط به كل ألوان المكائد والدسائس التى تحيكها النساء والخصيان والوزراء والقادة العسكريون الطامعون فى السلطة. لكنها - أى الدسائس - لم تكد تجد وقتا لتبدأ لأن رجلا جسورا شق لنفسه طريقا بينهم ولم يتأخر فى إخضاعهم وإلغائهم والتنكيل بهم. من كان هذا الرجل؟ إنه عربى شريف الأصل والمحتد يدعى محمد بن أبى عامر، الفقيه المهنة والمحارب غير المحترف ودون جوان بلاط الخلفاء التى ساعدته حماية البشكنسية «صبح» - محظية الحكم وأم هشام وصاحبة العلاقة العاطفية شبه المؤكدة به - على تسلق درج المجد بسرعة تفوق الوصف.

أيكون هو ذلك الرجل المسمى ابن أبى عامر الذى ورد ذكره فى «طوق الحمامة» ويقول عنه ابن حزم أن الناس كانت تصطف على الجانبين حينما يخرج إلى الشارع كى تتملى جماله الفتّان، وأنه كان يشعر بالضجر من كل شئ حوله - حتى من اسمه - ويبدل الأصدقاء والعشيقات والملابس كما تبدل السحالى لونها؟ أتمنى لو كان هو. على أية حال، مايهمنا أنه كان على نقيض هشام الثانى العاجز. لقد تحول فى لمح البصر إلى السيد المطلق لأسبانيا المسلمة وإلى مرعب المسيحية؛ تصرّف على هواه فى موارد الدولة؛ شيد القصور التى تضارع قصور الخليفة الملغى، وأحاط نفسه بالحاشية والشعراء المادحين؛ جلب إلى مخدعه بنات أعدائه بما فيهن الأميرات المسيحيات، وذاع اسمه فى العالمين : المنصور. ومما لاشك فيه أن الأطماع اللامحدودة تحكمت فى زمام مشواره؛ لكن، أيمكننا تفريغ السياسة من الأطماع؟ وهل عمل على تحقيقها بوسائل مشروعة أو غير مشروعة؟ من كلا النوعين توجد أصناف متعددة.

(*) الشاعر هو المتنبى، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران الأنطاكى -[المراجع].

وبعد قليل انقلب من مساعد للعاهل على مهامه الثِّقال إلى غاصب للمُلك ولكى يغطى تماما على اختطافه للشرعية استعان بوسائل شتى محمودة ومرزولة، ومما يؤخذ عليه تسليمه قسم الكتب العلمية فى مكتبة الحكم الثانى الكبرى للفقهاء الرجعيين لكى ينظروا فيه ويحرقوا منه ما أرادوا. ومما يحسب له المجد الحربى الذى بلغته دولته، وحسب علمنا، فلا يوجد مخدر (أفيون) لتسكين الوجع الشعبى أفضل من انتصارات صاعقة على المسيحيين اشتاق الناس كثيرا إليها، وقد فعلها المنصور بحملاته الخمسين التى لانعرف سوى القليل منها. ومع هذا، فنحن نعرف أنه طاف بكل شمال شبه الجزيرة، من برشلونة إلى «شنت ياقب» (SANTIAGO)، ولم يترك صومعة قائمة ولامعبدا دون تدنيس ولامكانا مقدسا إلا وانتهك حرمته حتى مقام الحوارى يعقوب (سنتياجو) لم يسلم من العبث به.. لقد كان سوطا حقيقيا للرب. ولأجل هذا زاد الضرائب وأعاد تنظيم الجيش، مطعِّما إياه بأعداد لاتحصى من البربر الجدد جعلها – بحنكة ومهارة – تندمج فيه وتؤدى دورها باقتدار ..

لانستطيع إنكار هذه النجاحات لكن علينا ألا ننخدع بها لأنها كانت – من جهة. أعمالا مظهرية تفتقر إلى التأثير العميق، فهى لم تكن إلابمثابة تكثيف لما عرف من قبل بالغارات التأديبية ولم تنطلق من خطة استراتيجية واعية ولم يدخل حتى فى روعها تحقيق الحلم القديم باحتلال أسبانيا بالكامل. ومن وجهة أخرى، فإنها أذكت من جديد روح المقاومة لدى الممالك المسيحية، وخاصة مملكة قشتالة التى ولدت على مقاس الملحمة والمغامرة [عثر ميننديث بيدال على الوثائق الخاصة بأسطورة أمراء «لارا» ويرجع تاريخها إلى ماقبل انتفاضة الممالك المسيحية بقليل : أى فى السنوات الأخيرة لعهد الحكم الثانى]. ونضيف، أخيرا، أن المسيحيين لم يصبهم الذعر تماما وأنهم فى «ثيربيرا» (CERVERA)، مثلا، ضيقوا الخناق على الدكتاتور المسلم الذى أنزل فيما بعد عقوبات صارمة مستحقة على جيشه لتذبذبه فى المعركة. ومن هنا ولدت بالتأكيد أسطورة هزيمة قلعة النسور، وهى وإن لم تكن صادقة تماما فإنها على الأقل رمزية وموحية.

يالها من شخصية مثيرة للشجن تلك التى تخص ذلك الأندلسى الدون جوانى، الذى تحول إلى شعاع لحرب التهمته فى النهاية، وأثناء احتضاره – فى القفار البعيدة عن قرطبة – يملى وصيته على وقع خطوات النقّالة المرتجفة التى تحمله ليدفن فى ثرى

مدينة الزهراء البارد! وعلى ضفاف نهر الوادى الكبير – تقول الأسطورة – كان يظهر كل ليلة شبح فى هيئة راعٍ، أو ربما الشيطان متنكرا، ويختفى بمجرد اقتراب الناس منه لكى يعاود الظهور بعيدا وهو يردد بصوت حدادى بين نشيج وعويل مطلع الأغنية المشهور :

فى قلعة النسور
ضاع الطنبور
من المنصور.

عندما مات المنصور كان هشام الثانى لايزال حيا لكنه لم يستطع إرث من حرمه الملك، وخلف المظفر أباه؛ صحيح أن الابن لم يكن يطاول الأب، لكنه كان جديرا بالانتساب إليه.. وأسكرت الانتصارات قرطبة وظنت أنها تعيش «شهر عسل» مع الدكتاتور الثانى، ولم يكن هذا غير وهم لأن المظفر مات قبل الأوان فى الثالثة والثلاثين. وتولى السلطة بعده الرقم الثالث المشئوم أو أخوه الغرّ «عبد الرحمن شنجول» (SANCHUELO) [و«سانشو أباركا»، ملك «بنبلونة»، هو جده من جهة أمه «عَبْدة»] وعلى يديه انتهى كل شئ. عندما اقترف حماقة حَمْل هشام الثانى على توليته وريثا للعرش – بغرض الانتساب للسلالة الملكية – تمرد عليه ضمير الشرعية وضحّى به. وتبدأ الدوامة – التى صوّرها ليفى بروفنسال أبدع تصوير – أو مباراة الشطرنج الفوضوية المأساوية بين البربر (المجلوبين فى ساعة نحس) والحمّوديين وطلاّب العائلة الملكية، إضافة إلى تدخل المسيحيين بدافع الانتقام والإثارة. (حاولت فى عمل مستقل جلاء بعض النقاط حول خراب قرطبة الأموية متتبعا انهيارها السريع المخيف). اليوم يمكننا ملاحظة تسلسل الأحداث وتطورها المؤسف من البداية إلى النهاية؛ لكن بالنسبة لمن عاصروها فى حينها، ألم يكونوا يأملون فى ظهور منقذ لما نراه الآن كارثة؟.. ألم يكونوا يتوقعون أن تمتد يد قَيَّضتها العناية الإلهية لتعيد النظام من جديد لهذه الفوضى مثلما حدث فى مواقف تاريخية سابقة ؟

لكن القدر إذا كان يمد يده – مرات – لينتشل الغريق، فإنه فى مرات أخرى يمد نفس اليد لكن ليهوى به إلى الأعماق .. لقد حانت ساعة الخلافة قبل موعدها، وأصبحت قرطبة تنزف وتتحلل وهى تنتقل بسرعة من سيد سيئ إلى آخر أسوأ، بينما تجتز ريح المحلية العاصف من جذعها إقليما بعد آخر؛ إلى أن جاء يوم وجدت فيه

حاضرة الأمويين الكبرى نفسها وحيدة، دون أمل على الإطلاق، تلعب بها أمواج بحر عاصف.

عندما ماتت قرطبة كان يُشرق عليها - في فترة السكون التي تشيّع الامبراطوريات الزائلة - أدب شهي، طازج وبكر، لم يلبث أن تجمد في شرنقته.

كان الحس المرهف للأندلسيين يرشح في مصفاته المستجدات الثقافية التي ترد من الشرق - والمتمثلة الآن في شعر «المحدثين» - لينتقي منها مايتواءم معه. لم يكن الرجل الأندلسي ميالا أبدا (وربما مثل الأسباني بعامة) للميتافيزيقا والأفكار العميقة، ولذا فمن المؤكد أنه لم يكن ليستسيغ طعم الشعر البدوي القديم التي تصرّ رمال الصحراء بين حصوات أبياته. وما أتى من بغداد مؤخرا يمكن هضمه. فهذا، من جهة، ديوان المتنبي الذي بعد أن قلّب فيه الأسبان غضوا الطرف عن أعماقه المشاكسة المفزّعة والمتشائمة لكي يتشبثوا بلحائه الموسيقي المعقد المثقل بالزخارف اللفظية والصور الجريئة (وهذه الأشياء كان من الضروري أن تلاقي الاستحسان في وطن «جونجرا» القادم) والذي يجد صداه في شعر ابن دراج القسطلي.

ومن جهة أخرى، فقد وفدت كذلك من الشرق تقليعة القصيدة الخفيفة، القصيدة المجنحة، التي تتحدث بلغة رقيقة تتملق الأحاسيس والمشاعر واستعارات ومجازات متكلفة، عن الزهور والثمار ومشاهد الطبيعة أو دقائق الحياة اليومية. يبدو وكأن هذا النوع من القصائد المتأنقة، الوصفية الموجزة، قد اخترع من أجل الأندلسيين لأنه بالفعل لاقى رواجا منقطع النظير في دوائر المنصور الأدبية وتمخض عن «النوريات» التي احتفظت لنا بها كتب كثيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشعر لم يكن حكرا على البلاط ورواده، بل كان أيضا - على الأقل منذ عهد الحكم الثاني (وتوجد شواهد معبرة عن ذلك لم يتيسر نشرها بعد) - غذاء الأوساط الشعبية في قرطبة. فالشعر لايقتصر الآن على أولئك المتدثرين بأبهى الحلل، موظفي القصور، الذين يلقون بعظاتهم المصمتة المقَفّاة في الاحتفالات الرسمية، بل أصبح يوجد غيرهم من شذّاذ الآفاق والملاعين والفُسّاق الذين يرتادون الحانات ويطلون - مدفوعين بحب الاستطلاع - على كنائس المستعربين.. أكان هذا بسبب عدوى الشعر الغنائي الرومانثي الذي نظن أنه بلغ مداه وقتها؟ من المحتمل جدا أن تكون تقليعة (موضة) بغداد قد تكيفت تماما مع الأنواق المحلية. وبالإمكان أن نرمز

لهذا النوع الجديد من الشعر بشخصية الرمادى (RAMADI) [الذى أفكر فى تأليف كتاب كامل عنه فى المستقبل القريب](*): فهو شاعر عظيم فى اللغتين (العربية والرومانثية)؛ لعّان للخليفة الذى اضطر إلى سجنه؛ أرستقراطى فى بلاط المنصور؛ عندليب الشارع وبطل أروع قصة حب عربية أندلسية، ذوّاقة نهم لمباهج الحياة فى قرطبة (المزدوجة اللغة وثلاثية الدين) وعلى أهبة الاستعداد دائما للمشاركة فى أى حفل «بقلوب في الدين مختلفات». وبعيدا عن البلاط وقريبا جدا من العامة أخذت تتشكل أيضا فى قرطبة أقلية من فتيان مرهفى الحس وشعراء يطاردون قبل الأوان أنموذج الحركة الإنسانية لعصر النهضة. ويمثل هؤلاء خير تمثيل ابن شهيد وابن رشد، وكلاهما ينتسب لعائلة من كبار موظفى الدولة.. أما ثقافتهما فكانت من النوع الراقى، لكن أصالتهما تكمن فى أنهما بعد أن درسا طويلا فى الكتب عرفا كيف يغلقونها فى الوقت المناسب حتى يستطيعا التفكير بحرية. وكلاهما كان يعرف تمام المعرفة أدب المشرق لكنهما هذباه بما يتناسب مع زمانهما وظروفهما [وقد رفضا – على سبيل المثال – النثر المسجوع الذى انساق وراءه دون بصيرة أدباء الدولة المحترفون]، بل ورفعا راية العصيان ضده.

وندين لابن شهيد [الشاعر الرقيق مؤلف الهزليات التى تُعرِّض بالنحاة وأصحاب الأدب الماجن] بالخيال الجامح المتمثل فى تخيله – ربما لأول مرة فى تاريخ العالم – القيام برحلة إلى جنبات العالم الآخر يتحدث فيها مع الأطياف أو العباقرة المُلْهمين للشعراء الكبار، مقارنا – فى اعتداد أسبانى بالنفس – إنتاجهم الشعرى بإنتاج الأقدمين. ويمتاز موجز «الكوميديا الإلهية» هذا (المتقدم فى الزمن على أبى العلاء المعرّى ودانتى – ولا أقول أنه كان مصدرا لهما –، والذى لم يُقَدَّر لأستاذى «آسين پلاثيوس» التعرف عليه قبل الموت) بالدعابة والخيال اللذين يمرحان بين صفحاته، كما يمتاز بالدقة المتناهة فى رسم الصور الدقيقة لأشباح العالم الآخر.

أما بالنسبة لابن حزم فالكل يعرف أننا مدينون – على وجه الخصوص – لعمله الرائع «طوق الحمامة» (وهو الآن فى متناول كل الأوربيين) : إنه أول تنظير شعرى للحب الأفلاطونى ظهر فى أوربا؛ أجمل باقة لحكايات الغرام فى العصور الوسطى؛ المرآة الصادقة لنظرية وممارسة العشق فى قرطبة الأرستقراطية، ولحياة عشاقها

الرقيقة ولحفلاتها داخل البيوتات والقصور أو للحفلات الموسيقية الراقصة فى البرارى خارج أسوار المدينة.

ومما لاشك فيه أن هذا الكتاب (الذى نضعه دون مواربة فى مصاف أجمل ماكتب فى أوربا عن الحب – من «أفلاطون» حتى «ستندال»، ومرورا بأوفيد و«دانتى» و«بترارك» و«ليون إيبريو» وآخرين غيرهم) قد استلهم الكثير من «كتاب الزهرة» لابن داوود الأصفهاني؛ وإن كان مؤلفه يقول لنا فى نهاية مقدمته مايلى :

«دعنى من أخبار العرب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، ومامذهبى أن أنضى مطية سواى، ولا أتحلى بحلى مستعار».

كما نقرأ فى ثنايا كتابه هذا البيت المعبر :

وياجوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

شئ لايصدق : بينما تغط أوربا فى سباتها العميق تفرخ أجواء قرطبة الثقافية (فى نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر) أعمالا بهذا الشكل لثلة من الفتيان اتخذناهم كمجرد نماذج .. ومن الممكن أن ننسج من وحى الخيال صورة لهؤلاء الفتيان : يرتدون الملابس البيضاء، يتبادلون أطراف الحديث بين الأروقة البيضاء لمدينة الزهراء (وكأنهم مغرمون بالأوز العراقى)، عاشقون للشقراوات وأتباع خلصاء لخلفاء معظمهم أيضا لونه أشقر.. ألا يبدو أننا نتحدث عن امبراطورية متخيلة؟ منفصلة عن مسيحيى الشمال وصلة الدم تربط كثيرا منهم بها؛ غريبة فى ذات الوقت عن شعوب الشرق الذين تربطهم بها صلات الدم والثقافة والدين. تبدو أمام أعيننا مملكة الجنوب الكبيرة وكأنها جسر معلق فى الهواء أو نجم شارد يدور فلكه بطريقة عكسية.

لاتوجد كلمات تعبر عن روح أسبانيا المسلمة وتعكس القدر الحزين لشعبها أبلغ مما قاله ابن حزم – فى كبرياء ومرارة – عن نفسه :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

بالرغم من أن قرطبة الأموية [التى اغتيلت ولم تمت من الشيخوخة] عاشت ثلاثة قرون قصيرة إلا أن عصارتها هى التى غذت القرون الخمسة المتبقية للأندلس. يروى لنا ابن حيان فى فقرة شهيرة احتفظت بها «الذخيرة» كيف أن رجلا ضئيل الحجم، زرىّ الهيئة، يدعى ابن باشا (أو ابن باسّو) – من العاملين بقصور الخلافة – كان يبيع (فى زمن ابن السّقا) ماتبقى من حاجياته لأحد المزايدين المعروفين «وهو يتشبث بتلك

الحاجيات تشبث النار بالهشيم». ويتعجب المؤرخ من «تبديد الرجل لما كان فى حوزته – رخام نفيس، أعمدة غالية، نحاس خالص، أخشاب قيّمة، حديد ورصاص من أنقى العينات – من أجل الحصول على المال».

لقد كانت بالفعل تيجان أعمدة الزهراء المنقوشة متناثرة، مثل بقية الأشياء، هنا وهناك. ومعظم ماجرى ثقافيا بعد ذلك فى أسبانيا الإسلامية كان من آثار الخلافة ومن إنتاج مصنعها وثمرة للبذور التى كانت كامنة فيها. لقد نُسخت أنظمتها وقلّد بروتوكولها ولم تستمر الحياة إلا بما يتفق فيها من دمائها. ولو أحصينا مادتين به الممالك المسيحية نفسها للخلافة القرطبية لهالنا مدى خضوع الأولى لهيمنة الثانية. ولقد أوعز «ليڤى بروڤنسال» – ورأيه، من وجهة نظرى، جدير بالاعتبار – بأن استخدام المسيحيين المتأخر للقب الامبراطور جاء متأثرا باللقب الأعظم الذى اتخذه الأمويون ابتداء من عبد الرحمن الناصر. وستستمر الواردات الثقافية من الشرق – لكن دون ترشيح ونخْل مثلما كان يحدث فى عهد الأمويين – إلى أن ينشق العالم الإسلامى إلى نصفين. وسيستمر، لبعض الوقت، تعايش الأجناس والسلالات المختلفة (أحد أمجاد قرطبة الأموية) إلى أن يطمسه التعصب الأفريقى. بل وستظل آثار من قرطبة الأموية ماثلة فى أدب مملكة غرناطة المتأخرة ونظامها الأرستقراطى .. لكن هناك أشياء ماتت إلى الأبد منذ اللحظة الأولى : الامبراطورية والاستقلال السياسى، والهيكل المحكم والدقيق لبنية مؤسساتها.

وبعد أن أصبحت الأندلس محافظة تابعة لأفريقيا ولم تعد تملك مصيرها، تدفق الشوق والحنين إلى قرطبة.. تلك المدينة المتشحة بالسواد حدادا على ملوكها الكبار، الساهرة على حراسة الأمجاد القديمة والأطياف المهيبة التى تجتاز إلى يومنا هذا قنطرتها الشامخة وظلال مسجدها الجامع :

رومية ومسلمة، قرطبة الصامتة.

كثيرا ما أثير الجدل، وسيظل يثار، عما إذا كان الوجود الإسلامى فى أسبانيا قد أفاد تطورها القومى أو ألحق به الضرر، وعن الحالة التى كان من الممكن أن يكون عليها هذا التطور لو لم يتخلله الإسلام .. لكن إذا كان التاريخ الفعلى «لما كان» لابد وأن يتأثر ببعدى الزمان والمكان اللذين يلفّان راصده، فما بالنا إذن بكم الشطحات التى ستصاحب التاريخ الخيالى «لما كان يمكن أن يكون»!! أهلا ومرحبا بألعاب

العبقرية التي يمكن أن تكون موحية أو حتى خصبة؛ لكن على ألا يُطلب منا الاشتراك فيها اليوم أو الجلوس على مقاعد قاعات تُدرس فيها احتمالات تاريخ العالم منذ كليوباترا.

علينا أن نكتفي بما كان فعلا. ربما تكون الصدفة (لو كان التاريخ يؤمن بالمصادفات) هي التي جعلت الإسلام يدخل أسبانيا، أو - على الأصح - أن يدخل كثير من الأسبان في الإسلام الذي ربطت الأندلس بماضيه السحيق (الشرق القديم) صلات طويلة وخصبة (حملات هانيبال، مثلا).

وطبقا لما تعترف به كتب المستشرقين والدارسين البعيدين عن مجال الاستشراق فإن الإسلام كان لجسد الأمة الأسبانية بمثابة غذاء ومطهّر في آن واحد. (ومن هذه الكتب نذكر «أسبانيا في تاريخها» لـ «أميريكو كاسترو»، لأهميته وقرب العهد بصدوره). وهذه المؤلفات تعكس تباين وجهات النظر حول القضية المطروحة، وتشير إلى أنه عندما تخلى المستشرقون مؤقتا عن نظريات المقارنة بين الإسلام والمسيحية قام علماء أجلاّء بحمل لوائها وإبرازها بعد أن كانوا عازفين عنها (حتى لانقول ضدها). وفي إيجاز شديد يمكن القول بأننا لانضيف شيئا سواء اعتبرنا التدخل الإسلامي في تاريخ وحياة أسبانيا هبة إلهية، أو قدرا محتوما أو كارثة لأنه سيظل برغم الصفات التي نخلعها عليه «واقعا» أبديا. وهذا «الواقع» يمكن أن يكون قد حوى آثارا سلبية، لكن يجب الاعتراف بشجاعة بأنه اشتمل في ذات الوقت على أخرى إيجابية. فبفضل الخلافة الأموية تمكنت أسبانيا من إضافة صفحات مشرقة ناصعة لتاريخها الجامد الجاف؛ وأمكنها التعرف على ثقافة رفيعة لانظير لها في عالم الغرب قبل عصر النهضة؛ كما أنها تحولت، بفضلها، إلى رباط يصل مابين الحضارتين الكبيرتين للعصور الوسطى، وإلى جسر عبر فوقه القسط الأعظم من العوامل التي أهلت أوربا لتولي زمام الحركة الإنسانية.

ومن جهة أخرى، (وبالرغم من أن هذا الحق لم ينازعنا فيه أحد)، لايستطيع كائن من كان إنكار أحقية «هذا الواقع» بالدراسة والتأمل ... ولبدء الدراسة لاتوجد قاعدة في وقتنا الراهن أصلب من كتاب الأستاذ «ليفي بروفنسال» الذي ينتظر القارئ بفارغ الصبر خلف صفحات هذه المقدمة التي قد تكون غير مناسبة.



تمهيد المؤلف

ليڤى بروڤنسال

يتمتع كتاب المستشرق الهولندي «رينهارت دوزي»، الذي صدر في ليدن عام ١٨٦١ تحت عنوان «تاريخ مسلمي أسبانيا»، بأهمية مطلقة. ومن المعروف أن هذا المؤلَّف، الذي قمت بإعادة طبعه عام ١٩٣٢، يتوقف عند تاريخ وصول المرابطين في السنوات الأولى للقرن الثاني عشر. ومن ثم فإن القرون التالية حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ (أو بالأحرى حتى طرد الموريسكيين نهائيا من شبه جزيرة أيبيريا) لايوجد عنها سوى بعض الفصول المبثوثة هنا وهناك في أعمال «التاميرا» (ALTAMIRA) و«بايستيروس» (BALLESTEROS) وتفتقر، بالتالي، إلى دراسة شاملة تراعي فيها قواعد النقد الحديث.

أما بالنسبة لكتاب «خ. كوندي» فإنه غير مناسب ولم يعد أحد يفكر اليوم بالرجوع إليه – برغم التعديلات التي شهدها – خاصة بعد الهجوم الذي شنه «دوزي» عليه .. أما ماكتبه «جونثالث بالنثيا» عن تاريخ أسبانيا المسلمة، وبرغم مصداقيته، فلا يعتبر سوى نظرة سريعة مكثفة لاتشفي غليل الدارس المتفحص. ومن جهة أخرى، فإن تاريخ «دوزي» – بالرغم من جدارته غير القابلة للنقاش وتماسك ومصداقية معلوماته – قد أصابته الشيخوخة التي لامفر منها لقدم العهد به؛ كما أن خطته غير منطقية تماما حيث أنه يتوسع في دراسة بعض الفترات الثانوية ويجمل – مع كثرة مالديه من وثائق – فترات أخرى غاية في الأهمية. وبالإضافة إلى ماتقدم، فإنه غالبا مايغالي في حشو عرضه التاريخي بالحوارات والنوادر والنصوص الشعرية.

ومع كل ماسبق فإن تاريخ «دوزي»، لو كان كاملا حتى نهاية القرن الخامس عشر، لظل لسنوات طويلة قادمة المرجع الأساسي لكل المهتمين بدراسة العصور الأوربية الوسيطة لو لم تمدنا الاكتشافات السعيدة – منذ خمس عشرة سنة – بفيض من الوثائق الجديدة عن الإسلام في الأندلس. ومن الوثائق العديدة التي أعانني الحظ في العثور عليها – خاصة في المغرب – أذكر فقط أهمها : فصول جديدة من مجموعة أخبار ابن عذاري عن ملوك الطوائف والمرابطين؛ مذكرات ملك غرناطة (عبد الله) والموحدي «البيدق» (زميل المهدي بن تومرت)؛ أجزاء لم تستثمر بعد من المختارات

التاريخية لابن بسام ومن تاريخ القرطبى ابن حيان؛ نصوص ترجمت بعضها ونشرته والبعض الآخر فى سبيله إلى ذلك مستقبلا.

وعندما قمت بمضاهاة هذه المواد المكتشفة حديثا بالمعروفة قديما - والتى استعان بها «دوزى» بشكل مستفيض - تمثلت لى ضرورة التقييم الشامل للموضوع ثانية، سواء بالنسبة لعصر الإمارة والخلافة القرطبية أو للعهود اللاحقة. ولما كنت معنيا بحصر النتائج التى يتمخض عنها هذا التقييم استبعدت فكرة اللجوء إلى المقالات المتفرقة وعمدت إلى كتابة «تاريخ أسبانيا المسلمة» من جديد ولقد شرعت - مستغلا فترة ابتعادى عن العمل الأكاديمى - فى كتابة المجلد الأول (الذى يغطى القرون الثلاثة الممتدة من دخول الإسلام شبه جزيرة أيبريا إلى سقوط الحكم الأموى) فى خريف ١٩٤٠ لأنتهى منه فى ١٩٤٢. وخلال مهمة رسمية لى بالقاهرة طلب منى صديقى «شارل كينتز» المخطوط كى يسلمه إلى المعهد الفرنسى لدراسة الآثار الشرقية، وقد قام المعهد بنشره مسبوقا بتقديم لاغبار عليه عام ١٩٤٤. وهذه الطبعة - القليلة النسخ - مهداة إلى الجنرالين : «شارل جول»، «چورچ كاتروكس».. وبعد ظهور هذه الطبعة بقليل طلب منى زميلى وصديقى العزيز «إميليو جارثيا جومث» التصريح له بترجمة المجلد وضمه إلى سلسلة «تاريخ أسبانيا» التى تصدرها فى مدريد دار نشر «إسپاسا كالپى» (ESPASA-CALPE) تحت إشراف الأستاذ : رامون مينندث پيدال.

ولم يسعنى إلا تلبية طلبه، شاكرا ممتنا، مع التصريح له بتعديل مايراه مناسبا حتى يصبح كتابى فى متناول القراء، سواء فى دول العالم المتحدثة بالأسبانية أو فى أسبانيا التى قضيت معظم حياتى فى دراسة حضارتها وتاريخها المجيد.

وفى الوقت الحالى أقوم بإعداد طبعة جديدة لهذا المجلد عن الأصل الفرنسى، وفى نيتى إلحاق مجلدين آخرين به : يتناول الأول منهما الخلافة القرطبية (مقوماتها التأسيسية، إضافة إلى الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية والفنية) والممالك الأندلسية فى القرن الحادى عشر؛ بينما يحتوى الثانى على أسبانيا التابعة للمغرب تحت حكم المرابطين والموحدين، وعلى عرض موجز للمراحل الحاسمة فى حرب الاسترداد.

وعندما أنتهى من هذين المجلدين سيكون من دواعى سرورى كذلك العمل على إيصالهما دون إبطاء- بشكل أو بآخر- إلى يدى القارئ الأسبانى.

الجزء الأول

فتح أسبانيا والإمارة الأموية

(٧١٠ - ٩١٢م)



الفصل الأول

فتح أسبانيا ودخولها الإسلام

(٧١٠ - ٧٥٦ م)

عناوين الفصل الأول :

١- أسبانيا القوطية قبل الفتح العربي :

انهيار الدولة القوطية فى نهاية القرن السابع الميلادى - غيطشة ولذريق.

٢- حملات طارق بن زياد وموسى بن نصير (٧١٠ - ٧١٦م) :

فتح المغرب (موسى بن نصير) - الكونت يوليان - طريف، وحملة طارق - موقعة نهر بَرْباط وفتح طليطلة - حملات موسى بن نصير فى أسبانيا - عبد العزيز بن موسى.

٣- حكام أسبانيا التابعون لخلفاء دمشق (٧١٦ - ٧٥٨ م) :

الخصومات العشائرية العربية فى الشرق وصداها فى أسبانيا - حكام أسبانيا العرب حتى ٧٣٢م - التمرد البربرى فى شمال أفريقيا وصداه فى أسبانيا - قدوم «بلج» و«الجند» السوريين - خلفاء بلج وهيمنة القيسيين - عهد يوسف الفهرى ونشاط الصميل.

٤- الحملات الإسلامية فى بلاد الغال، وبداية «حرب الاسترداد» الأسبانية :

المسلمون فى بلاد الغال حتى موقعة «بلاط الشهداء» - معركة بواتييه «بلاط الشهداء» - المقاومة المسيحية فى أشتوريش، بلايو، الصخرة - ألفونسو الأول وبداية «حرب الاسترداد».

٥- إسلام الأندلس، وسكانها العرب والبربر خلال القرن الثامن من الميلادى :

الأندلس - اعتناق سكان أسبانيا الإسلام - المجتمعات المسيحية واليهودية فى الأندلس - عرب أسبانيا : الداخلون - البربر فى أسبانيا.

٢- أسبانيا القوطية قبل الفتح العربى[١]

انهيار الدولة القوطية فى نهاية القرن السابع الميلادى:

يتميز الفتح العربى لأسبانيا - من بين كل الفتوحات التى قام بها العرب فى نهاية القرن السابع الميلادى وأوائل الثامن بعيدا عن البحر الأحمر والخليج الفارسى - بالسرعة والجرأة والسهولة : فقد أتيح للمسلمين بموجبه الاستيلاء على أغنى أرض حلموا بها فى نهاية مشوارهم تجاه غرب البحر الأبيض المتوسط. كما أن اقتحامهم غير المتوقع لشبه جزيرة أيبيريا - من أعمدة هرقل حتى حائط جبال البرانس - قد أثار دهشة وفزع العالم المسيحى الغربى، وتحير مؤرخو العصور الوسطى فى تحديد الظروف التى هيأت له.

وإلى يومنا هذا لازال بعض المتخصصين يعتبرون كارثة استيلاء الإسلام على جزء، لاينتسب لأفريقيا أو آسيا، بل من القارة الأوربية ذاتها حدثا غريبا وظاهرة بعيدة عن المنطق الطبيعى للأشياء، ولذا يلجأون إلى وضعه تحت بند «المعجزة التاريخية»[٢].

ويرغم كل هذا، لايوجد مثال واحد فى التاريخ يخبرنا بأن دولة منظمة قد تركت فى استكانة أراضيها تُغتصب من قبل بعض فصائل الفرسان الشجاعة، لو كانت تنعم بالصحة وهيكلها سليم معافى ولحكامها الهيبة والطاعة. فالفتوحات الكبرى قد صادفت دائما تحللا سياسيا واجتماعيا للأمم التى هبطت فوقها .. وهذا ماحدث بالفعل لأسبانيا القوطية.

إذا كان الحظ قد حالف المسلمين فى عدم تكبدهم سوى القليل من المشقة وفى ضآلة الأخطار التى واجهوها من أجل الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا، فمن قبيل المؤكد كذلك أن يُسر مهمتهم يرجع لضعف الملكية القوطية ولرد الفعل الخجول لمجمل سكانها. كان من الممكن التفكير فى فشل محاولة العرب - أو على الأقل فى جعلها أكثر صعوبة - لو لم تكن بوادر الضعف قد أمسكت بتلابيب مملكة طليطلة حتى أنهكتها فى النهاية.

وبالرغم من الظلام التاريخى الذى يلف الثلاثين سنة الأخيرة من حكم القوط، إلا أنها تبدو فى غاية الاضطراب والغموض. فهذه الفترة القصيرة التى استهلها اعتزال الملك «وامبا» (WAMBA) عام ٦٨٠م مليئة بشتى ألوان الفوضى : صدامات دموية بين الطامعين فى العرش؛ تمرد المحافظات المختلفة؛ مؤامرات النبلاء ورجال

الإكليروس من أجل زيادة مكاسبهم السياسية. وكلها مؤشرات لالَّبْس فيها على أن الأراضى الأيبيرية كانت فى مطلع القرن الثامن فريسة سهلة لأى غاز سواء أتى من الشمال أو الجنوب .. وبما أن العرب – وكأنهم على موعد – كانوا متواجدين هناك على الشاطئ الآخر من المضيق فقد استولوا عليها دون جهد بعد إجهازهم على حكم القوط بضربة واحدة.

توجد عدة تواريخ تعتبر بمثابة معالم بارزة فى حياة هذه المملكة خلال القرن السابع : فى عام ٥٨٠م استطاع الملك «ريكاريدو» (RECAREDO) تحقيق وحدة أسبانيا الدينية بإحلال الكاثوليكية محل الكنيسة الآريوسّية الملغاة. ومع هذا، فالقضاء على الازدواجية الدينية، الذى أثار وقتها كثيرا من الشّغب، لم يشف الغليل لفترة طويلة لأنه أمدّ رجال الدين بالقوة وحولّهم إلى مشاركين فى ممارسة السلطة. لقد أصبحوا، بالإضافة إلى النبلاء، يملون وجهات نظرهم وقراراتهم على الأمراء الحاكمين، وأصبحت اجتماعات المجامع الكنسية – التى كانت تعقد بصفة دورية فى طليطلة – تضارع المجالس الملكية.

كما توجد بؤرة أخرى للصراع لاتقل شؤما على حسن سير دفة الأمور فى المملكة ألا وهى المتمثلة فى الأخذ (عام ٦٣٣م) بمبدأ الاختيار لتعيين الملوك. لكن أغلبية هؤلاء كان يخرج على النظام المعمول به بعد أن يصل إلى السلطة ويحاول تعيين أحد أبنائه أو أقاربه خليفة له. وبالرغم من هذا فقد كانت هناك شخصيات عظيمة ومنها شخصية الملك «ريثيسبنتو» (RECESVINTO) الذى بقى حاكما فترة طويلة (٦٥٣ – ٦٧٢م)، ومن أهم مايُنسب لعهده إعداد «مجموعة القوانين» التى ظلت سارية المفعول بين مسيحى أسبانيا من يوم وضعها حتى قرون طويلة لاحقة[٣]. ثم أتى بعده أمير شجاع وإدارى ماهر هو «وامبا» (WAMBA) الذى استمر حكمه ثمانى سنوات لكن الظروف أجبرته على التخلى عن العرش والاعتزال فى أحد الأديرة. ويخلفه «إيربيخيو» (ERVIGIO) الذى أخفق فى الحصول على النتائج المرجوة من الاجتماع الثالث عشر للمجلس الطليطلى عام ٦٨٣م. وبعده تولى «إخيكا» (EGICA) السلطة عام ٦٨٧م واحتفظ بها حتى مطلع القرن الثامن، وفى عهده اجتمع مجلس البلاط ثلاث مرات : فى ٦٨٨، ٦٩٣، ٦٩٤. كان هدف الاجتماع الأول حل مشكلة الصراع على السلطة بين العاهل وورثة سلفه. وخصص الثانى لمحاكمة المطران الطليطلى «سيسبرتو» (SISBERTO) لتواطؤه فى مؤامرة مع الجيش. أما الثالث فكان لمحاكمة اليهود الأسبان الذين اتصلوا بأبناء عمومتهم فى شمال أفريقيا، ومن يومها لم يكفوا عن حضّ العرب

على دخول شبه جزيرة أيبيريا. وفي تلك المحاكمة صدرت ضد اليهود عقوبات صارمة للغاية: حكم عليهم بالتحول إلى الرّق وبمصادرة ممتلكاتهم وبانتزاع أولادهم منهم عند إكمالهم السبع سنوات. ولم يستثن من هذه الأحكام سوى يهود «سبتمانيا» (SEPTIMANIA). وتجدر الإشارة – في هذا المقام – إلى أن الجاليات اليهودية في أسبانيا كانت مُطاردة من النظام القوطي منذ أمد بعيد[٤]. ولنا عودة للحديث عن الدور الذي لعبوه في الغزو الإسلامي وعن مساندتهم للمحتلين الجدد.

غيطشة (WITIZA)، لذريق (RODRIGO):

في عام ٦٩٣م أشرك «إخيكا» ابنه «غيطشة» في الحكم معه، وبعد خمس سنوات أصبح «غيطشة» الحاكم الفعلي للبلاد حتى وفاة والده عام ٧٠٢م. وظل يحكم بعد هذا التاريخ دون أن يكلف نفسه عناء الخضوع لمبدأ الاختيار الشرعي. وأثناء فترة حكمه عقد مجلسا البلاط لكن محاضره ضاعت ولم تصل إلينا. ولما كان متقدما في السن فقد عمل جاهدا على توفير كافة الضمانات لانتقال السلطة بعده إلى ابنه المفضل «أخيلا» (AKHILA) ومنحها تعيينه واليا على كل من «طرّكونة» (TARRAGONA) و«أربونة» (NARBONA). وكما كان متوقعا فإن هذه التدابير أثارت سخط وجهاء القوط، وأدت إلى تآمر البعض لكن جميع المؤامرات اكتشفت وعوقب مدبروها بشدة. وزادت موجة السخط بين النبلاء والطبقة العليا لرجال الكهنوت عندما عمل الملك بنصيحة مستشاره «سينديريدو» (SINDEREDO) وخفف من صرامة القواعد التي تحكم حياة اليهود الأسبان.

وبهذا الشكل، تأزمت الأمور من جديد في شبه الجزيرة بعد موت غيطشة نهاية عام ٧٠٨ أو بداية ٧٠٩. فقد استمر ابنه «أخيلا» في مقر حكمه بالشمال وضرب عملة تحمل اسمه في «طركونة» و«أربونة» ولم يبدر بخلده – وهو الوريث المفترض لوالده – الذهاب إلى طليطلة ليجلس على عرشها. وما زاد الطين بلّة أن والدته وأخويه «أولمندو» (OLMONDO) و«أردابستو» (ARDABASTO) وعمه المطران «أوباس» (OPPAS) وبقية إخوته تركوا العاصمة وفروا هاربين إلى «جليقية» (GALICIA).

وبمرور بعض الوقت اجتمعت جبهة المعارضة في طليطلة وقررت اختيار الدوق «لذريق» – الذي كان يقيم بقرطبة – لتولي شئون الحكم. وبعد أن تولى السلطة صيف ٧١٠م أرسل «أخيلا» جيشا تحت قيادة معلمه «ركيسيندو» (REQUESINDO) لمحاربة

ملك طليطلة الجديد، لكن الجيش هُزِم وقتل قائده. ويقول البعض أن أبناء «غيطشة» بعد هزيمة قوات أخيهم فروا هاربين إلى شمال أفريقيا، لكن الرواية الأكثر احتمالا تفيد بأنهم تصالحوا مع الملك الجديد وأصبحوا قوادا في جيشه.

وبالرغم من أن ماحوته الحوليات العربية عن فترة حكم «لذريق» أقل وفاء من المصادر اللاتينية، إلا أن أخبار كليهما مشكوك فيها لأنها دونت في فترة متأخرة جدا عن القرن الثامن. فالأسطورة قد تمكنت من «لذريق» وحوّلته إلى شخص غارق حتى أذنيه في النزوات الغرامية، ولا مفر من أخذ هذه النقطة في الاعتبار برغم مايكتنفها من شكوك، إذ لايوجد دخان بلا نار : أي أن لها أساساً من الصحة. وتتحدث المصادر العربية عن فتح «لذريق» لدار طليطلة المغلقة وعن اغتصابه لابنة الكونت «يوليان»(٥). مايهمنا الآن معرفة أن أسبانيا فقدت وحدتها السياسية خلال عهده القصير : فالفصائل المختلفة كانت في صراع دائم مما سهل - دون شك - مهمة العرب الفاتحين.

٢- حملات طارق بن زياد وموسى بن نصير (٧١٠ - ٧١٦م)(٦)

فتح المغرب - موسى بن نصير :

في الوقت الذي خلف فيه «لذريق» «غيطشة» كان العرب قد ثبتوا أقدامهم في شمال المغرب وانتهوا من احتلال منطقته الوسطى. ولم يقف حائلا في وجهة انطلاقهم الشرس والعنيد سوى المحيط الأطلنطي.. كان بوسعهم توجيه الدفة صوب الجنوب وتجاوز جبال الأطلس دون عوائق لاحتلال الصحراء والبلاد السوداء ومساحات صحراوية شاسعة ألفوا مثلها، لكن أنظارهم - على خلاف المتوقع - اتجهت إلى شبه جزيرة أيبيريا، وكأنما استهوتهم الأراضي الخصبة وثراء المدن العتيقة، ولذا كان من الضروري اتخاذ القرار بمهاجمة أسبانيا.

ومع هذا، فقرارهم لم يخل - بالتأكيد - من بعض التردد وربما النفور. فهناك عائق لم يعتادوا عليه قد جعلهم يمعنون التفكير : الحاجز البحري، بالرغم من قصره، سيفصل بينهم وبين قواعد الانطلاق وسيجعل الاتصال بالمقر الرئيسي للامبراطورية العربية محفوفا أكثر بالمخاطر لاتساع هوّة المسافة. لم تكن المهمة سهلة، ويغلب الظن بأن الملابسات التي أحاطت اتخاذ القرار وقتها كانت : الخوف من المجهول والثقة الزائدة بالنفس، إضافة إلى تأكيدات من معسكر الخصم بحسن الاستقبال. ومن

المحتمل أيضا أن العرب لم يكن ليفكروا بهذه السرعة مهاجمة أسبانيا لو لم تحفزهم بعض الدعوات الداخلية ولو لم يؤازرهم البربر (رعاياهم الأفارقة الجدد الذين دخلوا الإسلام حديثا). فلم يكن قد استقر بعد احتلالهم الحديث للمغرب، ولم تسفر غاراتهم على بعض مراكز المغرب الأقصى عن نتائج حاسمة.

من الصعب تحديد تاريخ مؤكد للمحاولات الأولى لأسْلَمَة المغرب نظرا لظاهرة المد والجزر التى صاحبت عمليات العرب العسكرية فى شمال أفريقيا خلال الربع الأخير من القرن السابع ولردود أفعال البربر المستمرة. ومع هذا، يبدو أن عقبة بن نافع – فى الفترة من ٦٨١ – ٦٨٢ – قد توغل حتى طنجة، وشن منها غارات شجاعة على قلب المغرب ذاته حملته إلى «ولبلة» ثم إلى «وادى درعة» وتخوم الأطلس الكبير، وإلى السهول الواقعة بالقرب من الأطلنطى، لكن مرور عقبة الخاطف بتلك الأماكن لايضمن ولاء الكتل البربرية من الوهلة الأولى ولاصدق تحولها إلى الإسلام. وكان على القواد العرب الذين أرسلهم بعد ذلك الخلفاء الأمويون إلى شمال أفريقيا قمع حركات التمرد البربرية والقضاء على زعمائها وخاصة «كسيلة» و«الكاهنة». بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان وتولية ابنه الوليد عام ٧٠٥م تجدد العزم على إتمام فتح المغرب، وأسندت المهمة إلى موسى بن نصير(٨). ومثل معظم قادة العرب العسكريين فى تلك الفترة، فإن موسى بن نصير هذا (الذى احتفظ له المجد مع طارق بن زياد بشرف فتح أسبانيا) كان قائدا حربيا من الطراز الأول وسياسيا بارعا (ولنذكر بأنه اشتغل بالسياسة – قبل تعيينه حاكما على شمال أفريقيا – فى الشرق تحت إمرة والى مصر فى البداية ثم خليفة دمشق بعد ذلك). وحققت حملة موسى إلى المغرب نجاحا منقطع النظير : فقد اتجه بجيشه أولا إلى «سيشيلماسا» (SICHILMASA)، ثم إلى ضفاف نهر «مولوية» (MULUYA)، بينما نجح أحد أبنائه فى إخضاع بربر «المصمودة» فى الأطلس الكبير. وأعاد موسى فتح «طنجة» لكنه أرجأ لبعض الوقت الاستيلاء على «سبتة» البيزنطية. ولكى يوطد فتوحاته أخذ رهائن من القبائل الخاضعة له بغرض تعليمهم الدين الجديد ولتحويلهم بعد ذلك إلى دعاة متحمسين للإسلام. وبعد أن تم له كل هذا، عاد إلى أفريقيا تاركا على المغرب نوابا عنه من العرب أو من البربر الذين يدينون له بالولاء. ومن هؤلاء طارق بن زياد الذى تولى حكم طنجة(٩).

الكونت يوليان (EL CONDE JULIAN) :

سنتحدث تحت هذا العنوان عن التدخل الحاسم لشخصية مسيحية تجمع الحوليات العربية على إطلاق اسم «الكونت يوليان» عليها(١٠).

ثارت أقاويل عديدة حول شخصية «يوليان» حاكم سبته الذى ارتبط مع عقبة بن نافع – منذ حملاته الأولى – بمعاهدة تنص على التبعية للقائد العربى مع الاستمرار أميرا مستقلا على مدينته.

حاول بعض المؤرخين المعاصرين إثبات أنه كان أحد وجهاء مملكة القوط، أو أنه كان زعيما بربريا مسيحيا ينتسب لقبيلة «غمارة» (GUMARA)، واسمه الأصلى يوليان (بالباء). لكن الأكثر احتمالا أنه كان واليا بيزنطيا تابعا لامبراطورية القسطنطينية ظل محتفظا لبضع سنوات بولايته على سبتة كآخر معقل بيزنطى فى الأراضى الأفريقية[١١]. ولم يكن بوسع هذا الوالى البيزنطى التخلى عن علاقة حسن الجوار أو تبادل المصالح ليس فقط مع شعوب البربر المحيطة به بل أيضا مع كبار رجال الدولة القوطية القريبة. ومن الطبيعى أيضا أن يكون قد تعاطف مع ابن غيطشة بعد أن سلبه لذريق ملكه، وأن يكون قد آوى إليه عددا غير قليل من الساخطين أو المغضوب عليهم فى شبه جزيرة أيبيريا.

ولمعرفة البواعث التى حدت بـ «يوليان» التحالف مع المسلمين لامفر من الرجوع إلى الحكايات التى أوردتها المصادر العربية، علما بأن الأدب المسيحى المتأخر قد فنّد منحاها الأسطورى. ومع هذا، لانستطيع أن نمر مرور الكرام على تلك الأقاصيص برغم مايكتنفها من شكوك.

وطبقا للمصادر العربية فإن الكونت يوليان كانت له ابنة (تدعى «إلكافا» أو «فلورندا») وأرسلها – تمشيا مع تقاليد ذلك العصر – إلى البلاط الطليطلى لكى تتربى تربية الأميرات. وذات يوم رآها الملك لذريق فأسره جمالها ولم يتورع عن سلب عفافها. ولما علم يوليان بالأمر ذهب على وجه السرعة إلى طليطلة، متجشما سوء الأحوال الجوية فى هذا الفصل من السنة، وأعاد ابنته إلى أفريقيا وأقسم برد الإهانة.

وعلى هذا، فإن مسئولية الأحداث الجسام التى هبطت على أسبانيا منذ اليوم الأول لسقوطها فى أيدى المسلمين لابد وأن تتحملها – إلى الأبد – تلك الفتاة المسكينة التى تحولت إلى مادة خصبة لكل الأجناس الأدبية : فأقاصيص العصور المتأخرة – حتى مجموعات «الرومانث» – لاتمل من الحديث عن تلك الفتاة التى شاهدها لذريق وهى تستحم فى نهر التاجة المار بطليطلة، ولاتتردد فى وصفها بالعاهرة[١٢].

ولم يكد يوليان يرجع إلى سبتة حتى شد الرِّحال من جديد مجتازا أفريقيا فى طريقه للقاء حاكمها موسى بن نصير، وفى اللقاء زيَّن له الاستيلاء على شبه جزيرة

أيبيريا حيث أنه لن يكلف المسلمين سوى القليل وسيعود عليهم بالخير العميم. وقبل موسى عرض يوليان التعاون معه، وكلفه بمهمة تفقد واستطلاع الشاطئ الأسباني. بمجرد عودته إلى سبتة جهز قوة بحرية صغيرة وأغار بها على خليج «الجزيرة الخضراء» (ALGECIRAS) فأصاب الكثير من الغنائم والأسرى وقفل عائداً إلى مدينته. وقعت هذه الغارة، التي بهرت مسلمي شمال المغرب، في أكتوبر أو نوفمبر عام ٧٠٩م (٩٠هـ).

يقول المؤرخون العرب أن سخونة الأحداث أقنعت موسى بن نصير بإمكانية إعداد حملة ضد أسبانيا، لكن كان عليه الحصول على موافقة الخليفة. في المرة الأولى لم يعط الوليد بن عبد الملك التصريح الذي طُلب منه؛ وفي الثانية طلب من حاكمه على أفريقيا الاقتصار على الاستكشاف بفصائل من الفرسان لاختيار صمود القوط والتعرف على حقيقة الأوضاع السياسية للبلاد «حذار – أضاف الخليفة – من التغرير بالمسلمين في بحر شديد الأهوال[١٣]».

طريف، وحملة طارق:

في يوليو عام ٧١٠م (رمضان ٩١هـ) وطئت أقدام أربعمائة مقاتل مسلم، منهم مائة من الفرسان، تحت إمرة البربري طريف بن مالك[١٤] أرض شبه جزيرة أيبيريا. اجتازت القوة المضيق في أربعة سفن زودها بها الكونت يوليان، ونزلت في بقعة عرفت فيما بعد برأس طريف (نسبة إلى قائد الحملة). ومن هناك قام المسلمون بشن عدة غارات ناجحة على شاطئ مضيق جبل طارق وعادوا محملين بالأسلاب والغنائم، وخاصة بأسيرات أسبانيات فائقات الجمال.

وبعد أن تلقى موسى بن نصير في مقره بالقيروان حصته من الغنائم وبها جملة من الفاتنات المسيحيات أمر بإعداد الحملة.

لايوجد – حقيقة – دليل قاطع على أن الأمور سارت على هذا النحو؛ ومع هذا فكل مامضى يحتمل التصديق حتى مع التسليم بما افترضه «ساقدرا»[١٥] من أن الإبرار الأول للكونت يوليان لم يتم بناء على رغبة موسى بن نصير بل كان تلبية للنجدة التي طلبها الملك المخلوع «أخيلا» (AKHILA) من الحاكم البيزنطي. ولم يكتف المؤرخ بهذا بل ذهب في افتراضه إلى ماهو أبعد حينما نوه بإمكانية أن يكون «أخيلا» والأمراء المشايعون له قد عقدوا اجتماعا مع طارق بن زياد «حاكم طنجة» ليطلبوا منه العون؛ وهذا من قبيل تحميل النصوص مالا تحتمل. لكن لايوجد مايمنعنا من الظن بأن

ممثلى السلطة العربية فى شمال المغرب قبل أن يحزموا أمرهم كانوا مرتبطين – بفضل المساعى الحميدة للكونت يوليان – باتفاقيات مع أنصار «أخيلا»؛ وبدون هذه الاتفاقيات لايمكن تفسير تواضع إمكانات الحملة ولا النجاح الساحق الذى حققته.

وتولى قيادة الحملة حاكم طنجة طارق بن زياد الذى لم يتفق المؤرخون على تحديد أصله : فبينما نسبه البعض إلى البربر تحدث آخرون عن أصله الفارسي. ومن المرجح قيام الكونت يوليان بمرافقة الحملة كمستشار سياسى للقائد المسلم. ومرة ثانية – بعد نقل طريف من قبل – سيقوم أسطول يوليان الصغير بسفنه الأربع بشق عباب المضيق دون هوادة جيئة وذهابا فى نفس الوقت الذى شرع فيه ببناء معدِّيات جديدة لنقل العون والمدد حينما تستدعى الضرورة. كانت الظروف مواتية لانشغال «لذريق» بصد هجوم معادٍ على إقليم «بنبلونة» (PAMPLONA) فى شمال مملكته. وفى بداية فصل الربيع (شهر أبريل أو مايو ٧١١م، الموافق رجب أو شعبان ٩٢هـ) عبر طارق المضيق بصحبة طلائع الجيش المسلم وخندق فى سفح جبل «كالبى» (CALPE) – جبل طارق، فيما بعد – لانتظار عبور بقية جنوده.

لم تكن القوات التى جمعها طارق – عملا بتوجيهات موسى بن نصير – كثيرة العدد. وفى هذا الشأن يمكن أن تخامر الذهن فكرة تعمد المؤرخين العرب خفض تعداد الحملة لإبراز نتائجها بصورة جلية، لكن يجب الأخذ فى الاعتبار بأن العرب فى ذلك الوقت لم يكونوا مؤهلين بدرجة كافية لنقل جيش ضخم عن طريق البحر. على أية حال، فقد كان جيش طارق مؤلفا من حوالى سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر بالإضافة إلى عدد يسير من العرب الخلّص. وبمجرد اكتمال الجيش توجه صوب مدينة «كارتيا» (CARTEYA)(١٦)، الواقعة على خليج جبل طارق عند مصب جدول صغير يدعى «جوادارّ انكى» (GUADARRANQUE). وانطلق بعد ذلك صوب الغرب، وفى مقابل جزيرة صغيرة أسس قاعدة حربية تحمى جيوشه فى حالة الاضطرار إلى الانسحاب أو التقهقر (وعلى نفس مكان القاعدة ستظهر فيما بعد مدينة جديدة تحمل اسم «الجزيرة الخضراء» (ALGECIRAS)، وتكفل الكونت يوليان بمهمة الإشراف على هذا الاستحكام العسكرى والدفاع عنه إذا لزم الأمر.

موقعة نهر بَرْباط (BARBATE) وفتح طليطلة :

لم تتأخر الأخبار فى الوصول إلى لذريق فعاد سريعا إلى قرطبة حيث جمع ماليه من قوات نظامية. وعندما علم طارق بهذه التحركات ارتبك بعض الشئ. استبعد

– وقتها – فكرته السابقة بالسير قدما نحو العاصمة، وطلب تعزيزات من أفريقيا فأمدته بخمسة آلاف أخرى من البربر. بلغ مجموع قواته اثنى عشر ألف محارب، دون حساب أتباع «أخيلا» الذين انضموا إليه. وبعد استشارة مجلسه العسكرى – بما فيهم الكونت يوليان – قرر طارق البقاء فى إقليم «الجزيرة الخضراء» وانتظار غريمه القوطى. وهكذا سار بحذر تجاه غرب «رأس طريف» حتى وصل إلى بحيرة ضحلة موازية للساحل تسمى «خاندا» (JANDA) يربطها بالبحر جدول صغير يدعى «نهر بَرْباط». ظهر جيش لذريق فى إقليم «شذونة» (MEDINA SIDONIA) بالقرب من الضفة اليمنى للجدول المذكور.

علم طارق – عن طريق جواسيسه – باقتراب لذريق على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل (من الواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه)، وفى ١٩ يوليو ٧١١م (٢٨ رمضان ٩٢هـ) التقى الجمعان.

وطبقا للمصادر العربية فإن جناحى الجيش القوطى كانا تحت إمرة مؤيدى «أخيلا» – وربما تحت إمرة إخوة هذا الأمير –، وبمجرد أن بدأت المعركة ولّى قادة الجناحين مع جنودهم الأدبار، وحاول لذريق الثبات بقلب جيشه، لكنه لم يجد فى النهاية بُداً من التقهقر أمام ضغط المسلمين الذين تعقبوه وأنزلوا به خسائر فادحة(١٧).

لقد حدد هذا النصر المباغت للمسلمين على ضفاف نهر بَرْباط(١٨) (أو وادى لكة، طبقا لتسمية المؤرخين العرب) مصير أسبانيا. واستطاع لذريق الفرار بأعجوبة من مطارديه الذين استولوا على عتاد جيشه وعادوا محملين بالأسلاب والغنائم إلى معسكرهم.

أما عن تفاصيل الأحداث التى تلت المعركة فقد تضاربت فيها الأقوال حتى إن المصادر العربية لم تتفق فيها على رأى.

وبعد انتصار نهر برباط الكبير تفتحت أمام طارق بن زياد أبواب الأندلس على مصراعيها. ولو انصاع للأوامر التى تلقاها قبل رحيله وعاد بموجبها إلى أفريقيا أو قبع فى مكانه لإعلام أولى الأمر بما حدث وانتظار تعليماتهم الجديدة لكان قد ارتكب خطأ جسيما. لكن حماسه الحربى ونشوة النصر بددا شكوكه ومخاوفه وجعلاه – بالإضافة إلى تحميس كل من الكونت يوليان وأنصار ابن غيطشة – يتخذ القرار بالمضى قدما إلى الأمام. كان هدفه الأول قرطبة، على نهر الوادى الكبير؛ وللوصول إليها كان عليه عبور نهر «شَنيل» (GENIL)، والاستيلاء بالقوة على مدينة إسْتِجّة

(ECIJA) التى اعتصمت بها فلول القوط الهاربة. وبالقرب من هذه المدينة حقق طارق نصرا جديدا، وانضم إليه جمع غفير من الساخطين على النظام القوطى وممن فضلوا التحالف مع المنتصر على نير العبودية. ومن جهة أخرى، فقد قدّم له يهود جنوب أسبانيا مابوسعهم من عون.

وعلى ضوء ما استجد من ظروف فضل طارق السير بغالبية الجيش نحو طليطلة، وترك لعدد من قواده القوات اللازمة لدحر أية محاولة قوطية لعرقلة تقدمه. وفى هذه الأثناء قام المولى «مغيث»(١٩) بمهاجمة قرطبة والاستيلاء عليها فى أكتوبر ٧١١م (مطلع عام ٩٣هـ).

وبالرغم مما يقوله بعض المحللين فإن فتح المسلمين للمدن الواقعة أقصى شرق الأندلس (مثل غرناطة ومالقة وإقليم مرسية) لم يتم إلا بعد هذا التاريخ بكثير.

أما بالنسبة لطليطلة – عاصمة الملك لذريق – فإنها لم تبد أية مقاومة، ووجدها الغزاة شبه خالية من السكان. فبينما كان طارق يقترب منها غادرها على عجل أسقف الكنيسة الأسبانية (سيندريدو) متجها إلى روما، وحذا حذوه فى الفرار غالبية السكان. وفى الحاضرة القوطية – التى تعج بالكنائس والقصور – وضع طارق يده على ثروات لاحصر لها، وفى تقديرها ذهب خيال المؤرخين العرب كل مذهب(٢٠).

ويبدو أن طارق لم يلبث طويلا بطليطلة بل غادرها وواصل تقدمه فى الاتجاه الشمالى الغربى حتى وصل إلى وادى الحجارة (GUADALAJARA) بعد اجتيازه لسلسلة جبلية لم يتحدد اسمها. لكن «ساڤدرا» يقول أنه لم يتجاوز «قلعة هنارس» (ALCALA DE HENARES) وعاد لتمضية الشتاء فى طليطلة. وفى حملة ثانية وصل إلى «أمايا» (AMAYA) بمحافظة «برغش» (BURGOS).

حملات موسى بن نصير فى أسبانيا :

يذكر المؤرخون أن موسى بن نصير بدلا من ابتهاجه بالنجاح الساحق الذى أحرزه طارق، وتهنئته على ماقدمه للإسلام من فتوحات، تملكه الحقد واستبد به الغضب. ولم لا! وهو يرى خيانة الحظ له – وهو القائد الذى لايُشق له غبار – ومساعدته لمجرد معتوق مجهول الأصل من أتباعه ومع هذا، فليس من الإنصاف فى شئ الاعتقاد بأن الحقد وحده هو الذى دفع موسى للذهاب بنفسه إلى أسبانيا. يمكن الظن بأن طارق خاف – أو على الأقل، انزعج – من اتساع وهشاشة فتوحاته السريعة، ومن ثمّ فقد طلب من رئيسه إرسال مدد لتعزيز قواته ولتأمين المدن التى

سقطت في يده. على أية حال، فقد وجد موسى بن نصير جيشا قوامه ١٨٠٠٠ رجل في انتظاره على الساحل الأفريقي لمضيق جبل طارق. كان معظمهم هذه المرة من العرب : بينهم كثيرون من التابعين (ممثلي الأرستقراطية الجديدة) وزعماء قيسيون ويمنيون. اجتاز بهم موسى المضيق وألقى مراسيه في الجزيرة الخضراء في يونيو ٧١٢م (رمضان ٩٣هـ). وبدلا من أن يتجه إلى طليطلة ليتحد هناك مع طارق فضّل العمل لحسابه الخاص. استولى أولا على شَذونة (مدينة ابن السليم)، ثم اتجه نحو الشمال (جهة إشبيلية التي لم تكن قد فتحت بعد) ليحتل ثغرى «قرمونة» (CARMONA) و«قلعة جابر» (ALCALA DE GUADAIRA)، ليأتي الدور بعد ذلك على إشبيلية ذاتها. بالرغم من أن بعض المؤرخين يتحدث عن حصار لإشبيلية دام عدة أشهر إلا أن الأكثر احتمالا أن المدينة لم تقاوم مقاومة شديدة لأن الحامية القوطية كانت قد تركتها وهربت صوب الشمال، في اتجاه «لبلة» (NIEBLA).

بعد سقوط إشبيلية قرر موسى الاستيلاء على «ماردة» (MERIDA) التي تجمع فيها حلفاء «لذريق» الأساسيون. فاقت مقاومة هذه المدينة توقعات المسلمين. ظل الثغر محاصرا طيلة الشتاء التالي ولم يسقط إلا في ٣٠ يونيو عام ٧١٣ (١ شوال ٩٤هـ). غنم منه موسى ثروات لاتحصى(٢١) ثم واصل تقدمه نحو طليطلة وأرسل إلى طارق ليكون في استقباله. وفي نفس الوقت أرسل ابنه عبد العزيز لإخماد التمرد الذي اندلع حديثا بإشبيلية، وللاستيلاء – أيضا – على «لبلة»، باجة (BAJA) و«أكشونبة» (OCSONOBA).

خرج طارق لاستقبال رئيسه والتقى به عند «طلبيرة» (الثغر الأوسط) (TALAVERA). يذكر المؤرخون العرب أن اللقاء لم يكن وديا ولا حميما لأن موسى وبخه فيه وضربه بالسوط.

وطبقا «لساڤدرا» فإن موسى اتجه – بعد لقائه بطارق في طلبيرة – صوب جبل فرنسا (ومكانه الحالي محافظة شلمنقة SALAMANCA) لتعقب الملك المخلوع (لذريق) الذي احتمى به؛ وأسفرت المطاردة عن قتل آخر ملك قوطي في نهاية صيف ٧١٣م بالقرب من محلّة «سيجويلا دي لوس كورنيخوس» (SIGOYUELA DE LOS CORNE-JOS) الواقعة شمال قرية «تمامس» (TAMAMES)(٢٢).

وأغلب الظن أن موسى انطلق من طلبيرة إلى طليطلة حيث سلمه طارق الكنوز الملكية ونفائس الكنائس التي غنمها، وطاب له المقام – في هالة ملك حقيقي – بحاضرة

القوط القديمة. واستخدم الحاكم العربي دار سك العملة التي كانت تابعة لملوك القوط القدامى في سك عملة ذهبية نُقش على أحد وجهيها بحروف لاتينية «بسم الله، لا إله إلا الله»، وعلى الوجه الآخر نُقش «ضُرب في أسبانيا عام ... (مع ذكر العام الهجري ومايقابله بالميلادي)»[٢٣].

ومن الأرجح أن موسى أمضى شتاء ٧١٣ – ٧١٤م في طليطلة، وأرسل خلاله كلا من علي بن رباح ومغيث (الذي فتح قرطبة) إلى خليفة المسلمين بدمشق ليطلعاه على نتائج الغزو. وعندما تحسن الجو انطلق إلى سرقسطة ليفتحها عام ٧١٤م (لم يتمكن من تحديد اليوم والشهر)، وأبقى عليها التابعي «حنش الصنعاني» الذي أسس بها مسجداً كبيراً. ومن سرقسطة واصل موسى تقدمه نحو «لاردة» (الثغر الأعلى)، سالكا الطريق الروماني الذي يربط عاصمة «رغون» (ARAGON) ببرشلونة ويمتد بعد ذلك إلى «أربونة» (سبتمانيا) بحذاء البحر الأبيض المتوسط. فهل كان يفكر في مدّ فتوحاته إلى الجانب الآخر من البرانس؟ على أية حال، فقد توقف المشروع لعودة رسوله مغيث حاملا الأوامر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بضرورة مثول كل من موسى وطارق أمامه في دمشق ليطلعاه بنفسيهما على نتائج الحملات المتتالية.

تمهل موسى في الرحيل إلى الشرق لأنه لم يرد ترك شبه جزيرة أيبيريا قبل توطيد فتحه لـ «كنتبريا» (CANTABRIA) والأقاليم المتاخمة لسلاسلها الجبلية (ومن بين هذه الأقاليم المنطقة التي ستسمى فيما بعد بقشتالة العتيقة). وهكذا، فبينما أعطى أوامره لطارق بمواصلة السير في الطريق الروماني الذي يمتد من سرقسطة باتجاه وادي نهر «إبْرُه» (EBRO) ليتعطف بعد ذلك صوب «جليقية» (GALICIA)، قام هو بالاستيلاء على المنطقة الواقعة جنوب سلاسل «كنتبريا» الجبلية.

اتبع طارق خط سيره المحدد من قبل وخضع له «فرتون» (FORTUN)[٢٤]، زعيم «رغون» الذي تحول إلى الإسلام ليحتفظ بثرواته وأملاكه.

ثم واصل تقدمه إلى ثغر «أمايا» (AMAYA) فاستولى عليه، ومن بعده على «ليون» (LEON) و«أسْتُرْقه» (ASTORGA). وفي هذه الأثناء سار موسى بحذاء الضفة اليمنى لنهر «إبْرُه» وغير اتجاهه إلى «سورية» (SORIA) والوادي الأعلى لنهر الدويره» (EL DUERO)؛ وبعد ذلك اتحدت قواته بقوات طارق ليتجها نحو الشمال – المنطقة الممتدة من «أشتوريش» (ASTURIAS) إلى «أوبييدو» (OVIEDO) و«خيخون» (GIJON) – الذي انسحب سكانه إلى مرتفعات «قمة أوربا» ليختنقوا فيها.

وبعد هذه الإنجازات أحس موسى بأنه قد آن الأوان لتلبية نداء الخليفة فغادر أسبانيا في سبتمبر ٧١٤م (نهاية ٩٥هـ) بعد أن ترك عليها ابنه عبد العزيز. اتجه – ومعه طارق – إلى القيروان أولا ثم واصل السير بًرا إلى دمشق بصحبة كوكبة من الزعماء العرب والأسرى البربر والأسبان. وصل دمشق قبل موت الخليفة الوليد (٢٣ فبراير ٧١٥م) بقليل، ليكون هدفا بعد ذلك لأحقاد خليفته سليمان. مات موسى بن نصير في سورية عام ٧١٦ – ٧١٧م (٩٨هـ)، وماورد إلينا من أخبار عن الفترة الأخيرة من حياته به الكثير من الأساطير.. كما أمضى طارق – وفي غموض تام – بقية عمره في الشرق.

حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير لأسبانيا (٧١٤ – ٧١٦م) :

لايُعرف سوى القليل عن شخصية عبد العزيز، مقارنة بوالده. عندما رحل الأب لم تكن تركة الابن تتمثل فقط في استكمال فتح أسبانيا بل كان لزاما عليه أيضا توطيد التواجد العربي في تلك الأقاليم التي خضعت للإسلام وبقيت فيها – بالرغم من سلبية غالبية السكان وخاصة في المناطق الزراعية – جيوب للمقاومة تهدد سلامة الغزو، وقد ساهم بشكل مؤثر في إنجاز هذه المهمة توافد مسلمين جدد قادمين من شمال أفريقيا للاستيطان في شبه الجزيرة. لم يحكم عبد العزيز سوى فترة قصيرة لأنه اغتيل بعد سنتين من رحيل والده. وتعوزنا التفاصيل عن الحملة التي قادها عبد العزيز بنفسه، بعد توليه الحكم بقليل، في اتجاه البرتغال (حاليا) واستولى بها على كل من «يابُرة» (EVORA) و«شنترين» (SANTAREN) و«قُلُمْرية» (COIMBRA).

ونعتقد أنه تم خلال فترة حكمه – وبناء على تعليمات موسى لقادته قبل رحيله إلى الشرق– الاستيلاء على الأقاليم الواقعة جنوب جبال البرانس، ومن أهمها : «بنبلونة» (PAMPLONA)، «طركّونة»، برشلونة، «جيرونة» (GERONA)، «أربونة»(٢٥) (NARBONA).

ويبدو أن عبد العزيز قد احتفظ لنفسه بمهمة فتح شرق الأندلس وشماله، حيث استولى بالترتيب على «مالقة» (MALAGA)، «إلبيرة» (ELVIRA) – علما بأن بعض المؤرخين ينسبون فتح هذين الثغرين لطارق بن زياد –، ومنهما اتجه عبد العزيز إلى «مرسية» (MURCIA) التي كانت – بالرغم من تبعيتها لملكة طليطلة – إمارة شبه مستقلة، وكان يحكمها سيد قوطي يدعى «تيودومير» (TEODOMIRO) أو «تُدْمير» (طبقا للمراجع العربية).

عقد الحاكم المسلم صلحا مع هذا الأمير القوطى ينص على بقائه على رأس إمارته مقابل اعترافه بالتبعية للدولة الإسلامية فى الأندلس وتسديده للجزية وتسليمه سبعة ثغور منيعة، واحتفظ لنا بعض المؤرخين بنص هذا الاتفاق المبرم بين الطرفين(٢٦). ومصداقية النص فوق الشبهات إلا أن التاريخ المدون به محل نظر: فهو يُرجع تاريخ الاتفاقية إلى شهر رجب ٩٤هـ (أبريل ٧١٣م)، وهذا يعنى أنها أبرمت قبل رحيل موسى بن نصير إلى الشرق مما يعد مخالفة للحقيقة. على أية حال، علينا أن نعتاد من الآن فصاعدا على شيوع الأخطاء فى تحديد التواريخ.

ونقدم فيما يلى النص الكامل لهذه الاتفاقية الهامة التى تعتبر أول وثيقة دبلوماسية مدونة فى تاريخ أسبانيا الإسلامى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غَنْدَرِيسْ إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه ومابعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمدص ألاّ يُقدم له وألا يُؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لايُسْبَوْن ولايُفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولايُقتلون، ولاتُحرق كنائسهم، ولايُكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن : أورْيُولة، ومُولَة، ولُورْقة، وبَلَنْتَلَة، ولقنْت، وإيِهْ، وإلْش، وأنه لايدع حفظ العهد، ولايحل ما انعقد، ويصحح الذى فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولايكتمنا خبرا علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غُرم الجزية، من ذلك على كل حر : دينار، وأربعة أمداء من قمح، وأربعة أمداء من شعير، وأربعة أقساط خل، وقسطا عسل، وقسط زيت. وعلى كل عبد نصف هذا.

شهد على ذلك : عثمن بن عبيدة القرشى وحبيب بن أبى عبيدة القرشى وسعدان بن عبد الله الربعى وسليمان بن قيس التجيبى ويحيى بن يعمر السهمى وبشر بن قيس اللخمى ويعيش بن عبد الله الأزدى وأبو عاصم الهذلى وكتب فى رجب سنة أربع وتسعين».

وطبقا لما أورده بعض المؤرخين فإن عبد العزيز تزوج بأرملة الملك لذريق، التى تطلق عليها المصادر العربية «أيلة» بينما يسميها الأسبان «إيخيلونا» (EGILONA)، وقد دخلت الإسلام بعد ذلك وكنيت بأم عاصم نسبة إلى الطفل (عاصم) الذى أنجبته من زوجها الجديد. وأقام معها عبد العزيز معظم فترة حكمه القصير فى أشبيلية. وفى نفس تلك المدينة (مطلع رجب عام ٩٧هـ، الموافق مارس ٧٢٦م) وبأمر من الخليفة سليمان (لاعتقاده بأن حاكمه على أسبانيا قد استقل بها) اغتال زياد بن عزرة البلوى

بد العزيز أثناء تأديته الصلاة في كنيسة «سانتا روفينا» (SANTA RUFINA) التي حولت إلى مسجد. وقطعت رأس الحاكم وأُرسلت إلى دمشق.

وبعد مرور عدة أشهر غامضة اجتمع عرب أسبانيا واتفقوا على إسناد مهمة حكم لأيوب بن حبيب اللخمي (ابن عمة عبد العزيز) لحين ورود أمر الخليفة الأموي تعيين من يراه خلفا لعبد العزيز المقتول.

– حكام أسبانيا التابعون لخلفاء دمشق (٧١٦ – ٧٥٨)(٢٧)

الخصومات العشائرية العربية في الشرق وصداها في أسبانيا :

تعتبر فترة الأربعين سنة – من مقتل عبد العزيز حتى تأسيس إمارة قرطبة أموية على يد عبد الرحمن الداخل – من أسوأ العهود في تاريخ أسبانيا المسلمة. قبل فك طلاسم هذه الحقبة المظلمة، يتعين علينا إلقاء الضوء في إيجاز على حالة الخلافة الأموية في دمشق وخاصة فيما يتعلق بتفوذ العشائر العربية المتنافسة على قيادة الامبراطورية الجديدة وما اعترى هذا النفوذ خلال الفترات المتعاقبة لخلفاء بني أمية، لأن صراع تلك العشائر في الشرق سيمتد أثره إلى شمال أفريقيا وستصطلي أسبانيا بناره التي احتاجت لقرن كامل حتى تنطفئ جذوتها.

يحفل القرن الثامن الميلادي بمظاهر الخصومة بين ممثلي الطائفتين العربيتين الكبيرتين : القيسيين والكلبيين. ولم تكن الخصومة بينهما وليدة الساعة بل إنها تضرب جذورها في أعماق الماضي، وكانت موجودة في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. تتصل طائفة القيسيين (قيس عيلان) بفرع المضريين الذي يتفرع بدوره لعدة قبائل مثل ذبيان، كلاب، قصير.

في زمن الرسول (ص) كان القيسيون بدواً رُحَّلاً، يتنقلون بين شمال ووسط شبه الجزيرة العربية، من شاطئ البحر الأحمر حتى تخوم العراق. وأتاحت الفتوحات الإسلامية لمعظمهم (وقد شاركوا فيها بفاعلية) ترك ديارهم غير الصالحة للسكنى في شبه جزيرة العرب والاستيطان في كل أراضي الشام لدرجة أنهم أصبحوا يمثلون أكثرية سكان المدن العربية في العراق مثل الكوفة والبصرة. وبعد انتقال مقر الخلافة في دمشق (إلى قلب البلد الذي اختاروه طواعية للهجرة) تصاعد دورهم السياسي والعسكري بشكل ملموس.

أما الكلبيون فيتصلون بفرع قضاعة / قحطان، ويسمون باليمنيين بالرغم من أن هجرتهم من اليمن السعيد كان قد مضى عليها أمد بعيد.

ومن قديم الزمان والخصومة متأصلة فى أفراد كل عشيرة ولايمكن أن تتمحى بموجب أى التزام. وأسباب تلك الخصومة لاترجع فقط إلى اختلاف أصول هاتين الطائفتين بل إلى الشعور - اللاإرادى، لحد ما - بالسخط وعدم الارتياح الذى يحس به سكان المناطق الصحراوية القاحلة تجاه القادمين من الأراضى الخصبة. وهناك عامل آخر فى غاية الأهمية برغم تأخره ويتمثل فى الفضل الذى أنعم به الإسلام فى بدايته على القيسيين، مرجئا بذلك الكلبيين إلى مرتبة تالية.

وفى كل الأحوال، فإن الخصومة القائمة بين القيسيين والكلبيين - أو بين المضريين واليمنيين، بوجه عام - كانت فى نمو مطرد خلال الفترة الأولى من تاريخ الخلافة الأموية. ولم يتورع الخلفاء الأمويون عن إذكاء نار الصراع بين الطائفتين دون التحيز لأى منهما.

كان الأمويون يميلون تارة إلى القيسيين وإلى الكلبيين تارة أخرى طبقا لما تمليه روابط المصاهرة - من جهة نسائهم - بكلا الفريقين. فقد مال معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد إلى اليمنيين لأن أم يزيد كانت منهم. ولهذا السبب حاول القيسيون تفجير سلطة معاوية الثانى ومروان الأول عندما ساندوا عبد الله بن الزبير الذى تجرع - عام ٦٨٤ (٦٥هـ)، بالقرب من دمشق - كأس الهزيمة من القوات الكلبية الموالية لمروان الأول.

ومنذ تلك الواقعة تأججت نار الكراهية فى قلوب القيسيين، وأصبح كل فريق يتربص الدوائر بالآخر، فى تبادل مستمر للانتصارات والهزائم.

حاول الخليفة عبد الملك نزع فتيل الصراع باستمالة القيسيين إلى بلاطه وبالزواج منهم، كما انتهج فى نفس الوقت - وبإيعاز من بعض أمراء بنى أمية - سياسة تخدم تطلعاتهم. لكن محاولاته ضاعت سدى لأن الوضع الجديد للقيسيين أثار غضب اليمنيين فدبروا قتل يزيد الثانى وفرضوا تنصيب يزيد الثالث خلفا له. ولما جاء مروان الثانى (آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق) حاول التقرب من القيسيين، ومضى فى تلك السياسة المخالفة لنهج سلفه حتى أطاح به العباسيون. ومع هذا، لم تضع النهاية المأساوية لخلافة دمشق الأموية حدا للصراع بين العشيرتين الكبيرتين، وسيظل المؤرخون العرب يتحدثون عن الصدامات الدامية بينهما حتى نهاية القرن التاسع

الميلادى[٢٨]. ذكرنا من قبل أن موسى بن نصير عندما قدم إلى أسبانيا – عام ٧١٢م (٩٣هـ) – كان بصحبته جمع غفير من المقاتلين العرب. ومالم نذكره هو أن هؤلاء كانوا بين قيسيين ويمنيين، ومن البديهى أن تنتقل معهم ثاراتهم القديمة إلى أسبانيا مثلما رافقتهم فى الأمس القريب إلى شمال أفريقيا والمغرب. وهذا ماحدث بالفعل، إذ استجاب كل فريق لداعى العصبية القديم دون اعتبار للأبعاد السياسية المترتبة على الصراع. ومازاد الطين بلة على أرض أسبانيا نشوب صدام آخر بين العرب والبربر المغاربة بسبب تعالى العرب عليهم. ولما كانت طبيعة البربرى لاتقبل الاستكانة والذل فقد تحزّب البربر ضد العرب المتغطرسين.

إذا أخذنا فى الحسبان هذا الوضع المتفجر سهل علينا فهم الصدامات الدامية التى تفشت – بين القيسيين واليمنيين من جهة، وبين العرب والبربر من جهة أخرى – طيلة فترة الحكام السابقين على تأسيس إمارة قرطبة وامتدت إلى بدايتها.

حكام أسبانيا العرب حتى ٧٣٢م :

بعد مقتل عبد العزيز بن موسى تعاقب الحكام العرب على إدارة أسبانيا بسرعة تثير الدّوار. واحد منهم فقط استطاع أن يظل فى موقعه مدة تزيد عن الخمس سنوات؛ بينما لم تتجاوز مدة حكم البعض – طبقا للتواريخ المتناقضة التى أوردها المؤرخون العرب – الستة أشهر.

والآن هيا بنا نستعرض هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا سوى مُفَوَّضين من قبل والى القيروان الذى يتبع بدوره خليفة دمشق ويدير كل المحافظات الغربية للامبراطورية العربية بما فيها شبه جزيرة أيبيريا. عند شَغْل كل واحد من هؤلاء الحكام لموقعه كان يدرك تماما الخط السياسى الذى سينتهجه، والمتمثل فى توطيد الفتح وتثبيت دعائم الاستقرار والسِّلم. ونشاطه الحربى يكمن – لو أمهله القدر فى منصبه – فى بسط الهيمنة على الأقاليم التى لم تخضع بعد للدولة الإسلامية، وفى إخماد ريح التمرد التى يثيرها الأسبان المهزومون من حين لآخر، وأخيرا فى شن بعض الغارات فى عمق الأراضى الفرنسية على الجانب الآخر من جبال البرانس. وستكون لنا وقفة فيما بعد عند مبادرات هذه الحرب المقدسة فى ضوء المعلومات القليلة التى وصلت إلينا عنها؛ لكن قبل هذا علينا إماطة اللثام عن الصدامات التى جرت داخل أسبانيا بين حكامها الأول وبين أبناء جلدتهم من العرب، أو بينهم وبين رعاياهم من البربر. ذكرنا آنفا أن «أيوب بن حبيب اللخمى» قد تم اختياره داخليا لتولى السلطة بعد مقتل ابن عمته عبد

العزيز، وظل يمارس سلطاته من إشبيلية زهاء ستة أشهر حتى أرسل والى القيروان «الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى» برفقة أربعمائة من الشخصيات الأفريقية البارزة لكى يحل محله.

نقل الحرّ بن عبد الرحمن مقر الحكم إلى قرطبة لاعتقاده – دون شك – بأن إشبيلية تبتعد عن مركز أو قلب شبه الجزيرة.

واستمر الحرّ فى منصبه إلى أن أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز (فى مارس/أبريل ٧١٩م – رمضان ١٠٠هـ)(٢٩) «السمح بن مالك الخولانى» لكى يخلفه. جاء الوالى الجديد (السمح) وهو يحمل تعليمات محددة من العاهل الأموى بضرورة دراسة جغرافية شبه الجزيرة والتعرف على خطوط الملاحة البحرية الآمنة التى تربطها ببقية العالم الإسلامى. ويذكر المؤرخون العرب أن عمر بن عبد العزيز فكر فى الانسحاب من أسبانيا ولم يثنه عن عزمه سوى الصعوبات والمشاكل التى ينطوى عليها تنفيذ المشروع.

رمم السمح – الذى كان يتلقى الأوامر من الخليفة مباشرة – قنطرة قرطبة الرومانية على نهر الوادى الكبير، وبنى على الضفة الشمالية للنهر بالقرب من المدينة مقابر «الرّبض». واستشهد السمح خلال إحدى الحملات على أراضى غاليا (جنوب فرنسا) فى ١٠ يونيو ٧٢١م (٩ ذو الحجة ١٠٢هـ) ليخلفه الكلبى عنبسة بن سحيم الذى ترسم خطاه فى مواصلة الجهاد ومات ميتته فى ٧٢٦م (شعبان ١٠٦م).

شهدت الفترة القصيرة من ٧٢٦ إلى ٧٣٢ تعاقب ستة حكام، لم يتجاوز السنتين منهم سوى الأول والأخير، وهم كما يلى على الترتيب :

يحيى بن مسلمة الكلبى (من ٧٢٦ إلى ٧٢٨م –١٠٧/١١٠هـ)؛ حذيفة بن الأحوص القيسى (٧٢٨م –١١٠هـ)؛ عثمان الخثعمى (من ٧٢٨ إلى ٧٢٩م – ١١٠/١١١هـ)؛ الهيثم بن عُفير الكنانى (من ٧٢٩ إلى ٧٣٠م – ١١١هـ)؛ محمد بن عبد الله الأشجعى (٧٣٠م – نهاية ١١١هـ ومطلع ١١٢هـ)؛ وأخيرا، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى(٣٠) الذى استشهد فى معركة «بلاط الشهداء» فى أكتوبر ٧٣٢م (رمضان ١١٤هـ).

وهذه المجموعة من الحكام لم تقدم أنشطة ذات قيمة على المستوى الداخلى لأسبانيا المسلمة.

وكما لاحظنا فإن اثنين منهم كلبيان (عنبسة، يحيى بن سلامة)، كما يوجد قيسيان على الأقل (حذيفة، الهيثم)؛ ولقد نكل الهيثم باليمنيين فى أسبانيا مما أدى إلى مقتل عدد كبير من العشيرة الكلبية، ونتيجة لذلك قام الخليفة هشام بعزله ومعاقبته عقابا مهينا.

التمرد البربرى فى شمال أفريقيا وصداه فى أسبانيا (٧٥٠م) :

بعد موت عبد الرحمن الغافقى تولى «عبد الملك بن قطن الفهرى» حكم أسبانيا حتى ٧٣٤م (١١٦هـ)، ثم حل محله «عقبة بن الحشاش السلولى» بتعيين من القيسى القوى «عبيد الله بن الحبحاب» (الحاكم العام على مصر وشمال أفريقيا).

كان ابن الحبحاب قد أعطى أوامره لعماله على طنجة «وسوس» بعدم التهاون فى معاملة شعوب البربر وأخذهم بالشدة. وغالى عماله فى تطبيق أوامره لدرجة أنهم فرضوا الجزية على جميع أفراد البربر ولم تكن تُحَصلُ فى البداية إلا ممن لم يدخل منهم الإسلام، كما أجبروهم على تسليم فتيانهم وفتياتهم الجميلات لينضموا لحريم خليفة دمشق.

وكانت هذه السياسة بمثابة النفخ في جذوة تحت الرماد، فبمجرد أن ترك أحد عمال ابن الحبحاب موقعه للاشتراك فى الحملة المتجهة إلى صقلية اندلع التمرد العام فى المغرب الأقصى. أسلم البربر قياد حركتهم لواحد منهم يدعى «ميسرة»[٣١]، وساروا معه للاستيلاء على طنجة عام ٧٤٠م (١٢٢هـ).

لم يكن عصيان «ميسرة» ومن معه استجابة لدوافع سياسية بحتة، بل كان نتيجة للدعاية الإيجابية التى حظيت بها دعوة دينية قادمة من الشرق وجد فيها البربر مايشبع غريزة الديمقراطية فيهم. إنها نوع من «البروتستنتية» الإسلامية التى تنشد المساواة وعدم التفرقة بين أحد من أنصارها، ويسمى أصحابها بالخوارج.

إن الخوارج لايعترفون بحق علىّ وذريته أو معاوية وسلالته فى الإمامة، ولايقرون بالتحكيم الذى جرى بعد موقعة «صفين» عام ٦٥٧م، ويرون أن من حق كل مسلم – مالم تشب دينه وخلقه شائبة – التطلع لرئاسة المجتمع الإسلامى. كما طالبوا بالمساواة بين جميع المسلمين فى الدين بغض النظر عن معتقداتهم السابقة.

وصادفت دعوة الخوارج هوى فى نفوس بربر شمال أفريقيا إذ وصلت إليهم فى الوقت الذى تمادى فيه المحتلون فى إساءة معاملتهم. لم يفكر البربر فى التبرؤ من

عقيدتهم الإسلامية، لكن ساءهم تصرفات العرب باسم الدين والتى تتناقض مع روح ونصوص تعاليمه الأولى التى لقنها لهم الفاتحون عند وصولهم.

وبالرغم من النجاح الذى لاقته دعوة الخوارج بين مجتمع شمال أفريقيا البربرى وعظيم أثرها الذى انعكس على قيام إمارات مستقلة ومزدهرة فى هذا الركن من العالم الإسلامى إلا أنها لم تصادف نفس الحظ على أرض أسبانيا التى تعج بالبربر الذين توافدوا تباعا للاستقرار فيها.

عندما عرف حاكم أفريقيا بأمر استيلاء البربر المتمردين على طنجة طلب من واليه على أسبانيا (عقبة بن الحشاش) اجتياز المضيق بقوات من عنده لتخليص المدينة. أرسل عقبة فيلقا فهزمه البربر، وعندئذ اضطر للذهاب بنفسه وقتل منهم خلقا كثيرا لكنه لم يستطع اقتلاع جذور التمرد فى القطاع الموكل إليه.

أما «ميسرة» – زعيم المتمردين – فقد اغتاله بعد ذلك مشايعوه واختاروا «خالد بن حامد الزناتى» ليحل محله. وفى المعركة المسماة «واقعة الأشراف» (٧٤٠م – ١٢٣هـ) أنزل الزناتى بالعرب هزيمة قاسية فى «وادى الشليف». كان لهذه الأحداث[٣٢] وقع كبير على بربر أسبانيا بمجرد سريان أخبارها بينهم.

وفى تلك الأثناء كان عبد الملك بن قطن – الحاكم السابق لعقبة بن الحشاش – قد عاد ثانية لتقلد شئون الحكم فى قرطبة. ولما كان حاكم أسبانيا الجديد (عبد الملك بن قطن) من الحزب المدنى الذى يمقت السوريين منذ واقعة «الحرّة» الشهيرة (٦٨٣م – ٦٣هـ) التى قتل فيها الأمويون خلقا كثيرا من سكان مدينة الرسول (المدينة المنورة) فقد أدرك بجلاء مدى خطورة المصاعب التى تطوّق ممثلى الخلافة الدمشقية فى شمال أفريقيا، لكنه لم يكن يتخيل أن يصل شررها إلى عقر داره. وماحسبه بعيدا وقع بالفعل: فقد استقبل بربر أسبانيا – الذى قطن معظمهم المناطق الجبلية بعد تركهم السهول الخصبة للعرب – باهتمام وشغف أخبار إخوانهم فى المغرب، وراودتهم فكرة التحرر مثلهم من نير السلطة العربية. وعلى الفور اندلع تمردهم فى شمال غرب أسبانيا (جليقية) وفى المنحدر الجنوبى لسلاسل جبال «كنتبريا» وجبال «وادى الرملة» (GUADARRAMA). ثم تقدم البربر نحو الجنوب وأجبروا العرب الموجودين فى طريقهم على الفرار. فى ظل هذا التدهور السريع للأوضاع حاول عبد الملك بن قطن درء الخطر آمرا عرب معظم أقاليم الأندلس المتاخمة للبحر بالتجمع فى محافظة قرطبة؛ لكن هذا الجيش الذى تجمع على عجل لم يصمد فى أول لقاء مع البربر المتمردين. ومن جهة أخرى، فقد أثار تصاعد الأحداث الأفريقية قلق دمشق مما جعل الخليفة هشام يُقسم

بإخماد التمرد مهما كلفه من جنود. وتحرك طابور طويل من ثلاثين ألف مقاتل، وانضمت إليه أعداد أخرى فى مصر، ليصل بعد جهد جهيد إلى المغرب. لكن تلك القوات العربية – التى لم تكن، دون شك، تحت قيادة محنكة وتفتقر إلى كثير من الالتزام ـ تلقت (فى أكتوبر/ نوفمبر ٧٤١م– ذو الحجة ١٢٣هـ) هزيمة منكرة على ضفاف نهر «سبو» (SEBU) شمال المغرب. واستدعى الأمر إرسال حملة جديدة تحت قيادة حاكم مصر الذى سحق البربر فى موقعتين متتاليتين وأخمد نار التمرد فى النهاية.

قدوم بلج و«الجند» السوريين لأسبانيا (٧٤١م) :

بعد أن انفصلت طليعة الجيش المهزوم فى «سبو» عن بقية فلوله الهاربة لم تجد ملاذا لها من مطاردة الأعداء سوى اللجوء إلى سبتة التى سرعان ماطوّقها البربر وعزلوها عن ماحولها فيما عدا جهة البحر. كان على رأس هذه الطليعة – المؤلفة من سبعة آلاف من خيرة جند دمشق وفلسطين ومصر والأردن وحمص وقنسرين – قائد شجاع وأرستقراطى قيسى يُدعى بلج بن بشر القشيرى (وهو ابن عم كلثوم بن عياض القشيرى، القائد العام للجيش المهزوم فى «سبو»).

وبالرغم مما يعنيه – بالنسبة لعربى – التنازل وطلب النجدة من شخص لاينتسب لعشيرته، إلا أن بلج لم يجد بدا– نظرا للحصار الذى يطبق عليه الخناق– من الاتصال بحاكم أسبانيا طالبا منه التصريح بعبور المضيق وإرسال السفن اللازمة لذلك.

فى البداية، لم يلق عبد الملك بن قطن (الخصم اللدود للقسيين الذى يروقه التشفى من أعدائه) بالا لطلب النجدة، بل إنه أنزل العقاب بالعرب الذين لانت قلوبهم وأرسلوا المؤن من أسبانيا للمحاصرين فى سبته. لكنه سرعان ماكظم مقته ونفوره عندما أحس بخطورة التمرد البربرى الذى يوشك على الإطاحة به وطرده من مقره فى قرطبة، وفكر فى جدوى مساندة بلج له لو تركه ومن معه ينزلون شبه جزيرة أيبيريا . ومن ثمَّ فقد انصاع واستجاب لنداء الزعيم السورى. ولعدم ثقة كل منهما بالآخر فقد تعاهدا على مايلى : يلتزم بلج بمغادرة أسبانيا بمجرد التمكن من قمع التمرد البربرى، لضمان تنفيذه لهذا الالتزام يسلم لعبد الملك عددا من الرهائن. وفى المقابل، يتعهد حاكم أسبانيا بإعادة السوريين دفعة واحدة – وليس على دفعات حتى لايكونوا صيدا سهلا – إلى نقطة آمنة على الساحل المغربى تكون خاضعة لسيطرة العرب الفعلية.

لقد كان تدخل بلج حاسما. أثناء إخلائه مدينة سبتة وعبوره إلى «الجزيرة الخضراء»، كان البربر قد نظموا قواتهم في ثلاثة طوابير : كان أولها يهدد قرطبة مباشرة، بينما توغل الثاني في غرب الأندلس حتى وصل إلى «شذونة»، وأحكم الطابور الثالث حصار طليطلة. وبمجرد أن عبر بلج بقواته المضيق اتجه على وجه السرعة إلى «شذونة» وتمكن من هزيمة التجمع البربري الأول على ضفاف نهر «وادى لكة»، كما تمكن من تشتيت التجمع الثاني في إقليم قرطبة.

أما الطابور الثالث (الأكثر عددا) الذى يحاصر طليطلة، فقد خَفَّ للقاء القوات العربية التى أنزلت به هزيمة ساحقة في موقعة «وادى سليط» (بالقرب من الضفة اليسرى لنهر تاجه).

وسقطت في أيدى بلج ومن معه أسلاب وغنائم كثيرة من الانتصارات الثلاثة التى أحرزوها، بعد أن كانوا بالأمس القريب محرومين من كل شئ. وبهذا الشكل اقتلعت جذور العصيان البربرى من الأراضى الأسبانية، وبعدها لم يكن لعبد الملك بن قطن سوى أمنية واحدة : عودة من مدوا له يد العون إلى الساحل الأفريقي. لكنه كان رجلا سيئ النية : فبدلا من أن ينجز ماقطعه على نفسه مع بلج أخذ يحيك المؤامرات، ويفسر بنود الاتفاق على هواه لدرجة أنه عقد العزم على إعادتهم ثانية إلى سبتة. وقبل أن ينفذ تدبيره باغتت قوات بلج حامية قرطبة الضعيفة وطردت عبد الملك من قصره وعينت زعيمها مكانه. تم كل هذا خلال شهر سبتمبر ٧٤١م (الموافق لذى الحجة ١٢٣هـ).

بعد أن أصبح بلج حاكما على أسبانيا عمل - كما كان متوقعا - لصالح القيسيين، كما أثارت اعتداءاته المتكررة على حياة وممتلكات العرب المدنيين (نسبة إلى المدينة المنورة) غضب وحنق الكثيرين. ومازاد الطين بلة ارتكابه لحماقة إعدام سلفه (عبد الملك بن قطن) دون مراعاة لشيخوخته. وعلى إثر هذا فَرَّ أمية وقطن (ولدا الحاكم المقتول) إلى شمال البلاد وقاما بتنظيم حركة تمرد بالتحالف مع حاكم «أربونة» (عبد الرحمن بن علقمة) ومع عدو بلج التقليدى : عبد الرحمن بن حبيب، الذى كان يخطط للاستقلال بحكم أسبانيا. ونجح المتحالفون في تكوين جيش ضخم من العرب المناهضين للسوريين، وانضم إليهم عدد كبير من البربر الذين لم ينسوا لبلج تنكيله بهم في انتصاراته الثلاثة عليهم. والتقى الجمعان (في أغسطس ٧٤٢م - شوال ١٢٤هـ) على بعد عدة فراسخ من شمال قرطبة، وفي المعركة هُزم المتحالفون بالرغم من تمكن حاكم «أربونة» من جرح بلج جرحا مميتا. وعاد السوريون المنتصرون إلى العاصمة وهم يحملون زعيمهم المحتضر(٣٣).

خلفاء بلج، وهيمنة القيسيين على أسبانيا :

بعد موت بلج أخذ مكانه «ثعلبة بن سلمة»، وكان الخليفة هشام قد قام بتعيينه من قبل نائبا لقائد الطليعة السورية تحسبا لما يطرأ من أحوال. ووردت للحاكم المعين حديثا أنباء تجمع جديد للعرب المدنيين والبربر فى «ماردة» (MERIDA)، فهجم عليهم كالصاعقة وشتتهم ثم عاد إلى قرطبة وفى حوزته آلاف من الأسرى باعهم فى سوق الرقيق بمقابل مهين. وأثار تصرف ثعلبة (الذى قايض الأسير بكلب) حفيظة عدد غير قليل من العرب الذين اتصلوا بحاكم شمال أفريقيا الكلبى وطلبوا منه إرسال أحد من عنده ليأخذ مكان حاكمهم ثعلبة.

وفى ٧٤٣م (١٢٥هـ) وصل إلى أسبانيا كلبى آخر من الطبقة الأرستقراطية الدمشقية ليكون حاكما عليها، وهو «أبو الخطّار بن ضرار الكلبى». فرض الوالى الجديد شخصيته على السوريين، وكان أول ماقام به إعادة الحرية والكرامة لأسرى «ماردة»، ثم أصدر عفوا عاما عن متحالفى الشمال الذين كانوا بصدد التجمع من جديد بعد هزيمتهم السابقة على مقربة من شمال قرطبة. وبعد أن أيقن أبو الخطّار من أن الإبقاء على «الجند» السوريين فى قرطبة سيكون مثار قلق دائم، عرض عليهم الاستقرار فى إقطاعيات أو كُور بعيدا عن العاصمة(٣٤) يملكها لهم، بشرط أن يطيعوا أوامره ويلبوا نداءه العسكرى. وقبل رفقاء بلج المثيرون للقلاقل هذا العرض الذى يعيدهم لوضع مشابه لما كانوا عليه فى بلدهم الأصلى. وبهذا الشكل دخل أسبانيا النظام السورى المتمثل فى تكوين إقطاعيات عسكرية والمستقى – على مايبدو – من النظام البيزنطى. وعلى هذا فقد نزل أهل جند دمشق كورة «ألبيرة»؛ وأهل جند حمص كورة أشبيلية و«لبلة»؛ وجند قنسرين كورة «جيان»؛ وجند الأردن كورة «أرشُدُونة» و«مالقة»؛ وجند فلسطين شذونة (مدينة ابن السليم)؛ أما أهل مصر – الأكثر عددا – فاستقروا فى الغرب (إقليم «باجة»، أكشونبة، وجنوب البرتغال الحالية) وفى كورة «تدمير» التى تلاشت منها إمارة التابع القوطى «تيودمير».

ومع هذا، فإن تلك التدابير الحميدة التى اتخذها أبو الخطّار بمجرد وصوله لأسبانيا لم تدم سوى زمن قصير لأن ميله للكلبيين سرعان ما أودى بحنكته السياسية. فقد أثار تحيزه فى الحكم فى مسألة تورط فيها اثنان من الحزب المناوئ غضب الصميل بن حاتم(٣٥) (أحد الزعماء القيسيين المعروفين الذى جاء إلى أسبانيا فى معية بلج، والمنتمى لجند قنسرين) ولم يكن قد غادر قرطبة إلى كورة «جيّان» المخصصة له ولجنده.

ومنذ تلك اللحظة ونفوذ الصميل يتعاظم فى توجيه الدفة السياسية للحكومة ليضطلع بعد ذلك بعشر سنوات بدور هام عند تأسيس عبد الرحمن الداخل لإمارته الأموية بقرطبة.

لم يستسغ الحاكم الكلبى أبو الخطّار تدخل الزعيم القيسى (الصميل) واعتبره انتقاصا لكرامته، ولذا أعلن عليه حربا شعواء.

ولتأكد الصميل من أن قلة القيسيين العددية لن تظهره على الكلبيين، فقد فكر فى استمالة ممثلى قبيلتين عربيتين من أصل يمنى (لخم، جذام) كانت الروابط التى تصلهم بالقيسيين قد وهنت بعض الشئ. وبعد موافقة زملائه فى العشيرة على هذه المناورة الماكرة، قام الصميل بالطواف على مدن إقليم إشبيلية لجمع الأنصار : ذهب أولا إلى «إسْتجَّة» (ECIJA) ثم «مَوْرور» (MORON) حيث تحالف مع الزعيم الجذامى «ثوابة بن سلمة» وأسند إليه قيادة التحالف. تجمع المتمردون بإقليم «شذونة» فى إبريل ٧٤٣م (رجب ١٢٧هـ) والتقوا بعد ذلك بأبى الخطّار وجنوده على ضفاف نهر «وادى لكة» وأنزلوا بهم هزيمة فادحة ووقع أبو الخطّار فى الأسر. واصل ثوابة بن سلمة الجذامى زحفه نحو قرطبة وتولى حكم أسبانيا.

فك أتباع أبى الخطّار إساره بعد ذلك، وحاول جاهدا إعادة تجميع أنصاره، لكنه لم يستطع النيل ممن سلبوه حكمه.

دام حكم ثوابة مايزيد قليلا عن السنة، وكان موته فى سبتمبر/أكتوبر ٧٤٦م (محرم ١٢٩هـ) بمثابة الشرارة التى أدت إلى اندلاع نيران الصراعات الداخلية من جديد. فقد تنافس على الجلوس مكانه مرشحان : ابنه عمرو والجذامى يحيى بن حريث.

ولذكاء الصميل الشديد، فقد فضل ممارسة السلطة من وراء ستار على الزج بنفسه فى أتون طلب الولاية، ولذلك عمل على استبعاد المرشحين السابقين وفرض اختيار شخص آخر ذى أصل نبيل (من سلالة القائد العربى الأشهر عقبة بن نافع) ومتقدم فى السن حتى يسهل عليه قياده، ونعنى به يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى تولى حكم أسبانيا فى يناير ٧٤٧م (ربيع الثانى ١٢٩هـ).

عهد يوسف الفهرى (٧٤٧ – ٧٥٦م)، ونشاط الصميل :

يعتبر يوسف الفهرى آخر من حكم أسبانيا قبل تولى عبد الرحمن الأول مقاليد الأمور بها. والظروف التى أحاطت بترشيحه للحكم تظهر للعيان هشاشة تبعية أسبانيا

للمشرق العربى. صحيح أن الصلات بينهما كانت دائما مترهلة؛ لكنها الآن أصبحت مقطوعة تماما ولو أراد خليفة دمشق – المشغول وقتها بصراعه مع العباسيين – إعادتها لسابق عهدها لذهبت جهوده أدراج الرياح.

وكما كان منتظرا، فقد أوعز الصميل ليوسف بانتهاج سياسة ممالئة للقيسيين على حساب الكلبيين واليمنيين الآخرين.

ومن جهة أخرى، وعلى سبيل المكافأة، تولى يحيى بن حريث (أحد المرشحين المستبعدين عن حكم أسبانيا) السلطة على كورة «ريّة» (REYYO)، لكنه لم يكد يستقر بعاصمتها «أرشُذُونة» حتى وصله – دون سابق إنذار – خبر إقالته. وعلى إثر هذا استبد به الغضب وانضم بمن والاه من الكلبيين إلى أبى الخطّار. التقت قوات أبى الخطار ويحيى بن حريث بقوات يوسف الفهرى على مقربة من قرطبة – بقرية شقندة (SECUNDA) – حيث هُزم اليمنيون وكان نصيب قائديهما (أبو الخطار، يحيى) الأسر والإعدام بعد ذلك.

وطّد هذا الانتصار دعائم حكم يوسف الفهرى ورفع أسهمه الشخصية وجعله يفكر – فى ضوء المعطيات الجديدة – فى الانعتاق من وصاية الصميل بطريقة وديّة. عرض عليه حكم سرقسطة وأوعز إليه بأنه سيكون الآمر الناهى عليها.

وعلى خلاف ماكان يتوقع، فقد قبل الصميل العرض عن طيب خاطر، وتقلد منصبه الجديد عام ٧٥٠م (١٣٢هـ) مع بداية المجاعة الكبرى التى كانت تجلد بسياطها شمال أسبانيا وستظل مستحكمة فيه لمدة خمس سنوات. لم يدخر حاكم سرقسطة الجديد وسعا فى تقديم العون لمنكوبى مدينته لدرجة أنه تناسى – مؤقتا – الأحقاد العصبية ولم يفرق بين القيسيين واليمنيين عند توزيع المؤن الوفيرة والأموال التى كان يتطوع بها. لقد كانت فترة النضوب تلك بمثابة كارثة حلّت بأقاليم شبه الجزيرة الشمالية، وأجبرت آلافا من البربر على العودة إلى محالهم فى شمال أفريقيا[٣٦].

وبعد انقضاء سنتين أو ثلاثة على تلك الهدنة غير المعلنة بسبب الجوع والجفاف تأججت نار الفتنة فى النفوس مجددا. لم يستسغ اليمنيون، وهم أكثرية فى أسبانيا، هيمنة القيسيين والمعديين السياسية عليهم، ومن ثمّ فقد قرروا إقصاء الصميل عن سرقسطة. ومن جهة أخرى، فقد أخذ السأم يستبد بالأرستقراطية القرشية من طول استئثار يوسف الفهرى والصميل بإدارة البلاد. اجتمع زعيمان قيسيان (عامر بن عمر العبدرى، الحبحاب بن رواحة) بثغر «رغون» الأدنى وطلبا مساندة اليمنيين والبربر

للإطاحة بحاكم أسبانيا وصفيِّه بحجة أن خليفة المسلمين فى الشرق لم يصدق على تعيينهما، وبالتالى يفتقر حكمهما إلى الشرعية. فعل القيسيان هذا وهما يعلمان تمام العلم أن العباسيين قاب قوسين أو أدنى من السيطرة على سورية وأن السلطة الأموية أصبحت فى خبر كان.

حاصرت قوات التحالف اليمنى / البربرى سرقسطة، فطلب الصميل العون من قرطبة. ولما كان يوسف الفهرى لايمتلك الكثير من الأعوان حتى يمد حليفه ببعضهم، فقد بادر القيسيون بتجنيد متطوعين من الأندلس واتجهوا بهم إلى طليطلة حيث انضمت إليهم تعزيزات من المعديين، وتمكنوا من فك الحصار المضروب حول سرقسطة فى ٧٥٥م (١٣٧هـ). وفى صفوف هذا الجيش الذى خَفَّ لنجدة الصميل كان يوجد عدد كبير من الموالى الأمويين. وهؤلاء الموالى كانوا قد أتوا للتفاوض مع الزعيم القيسى لكى يسهل انتقال الأمير المروانى عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس.

٤- الحملات الإسلامية إلى بلاد الغال (فرنسا حاليا) خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى، وبداية «حرب الاسترداد» الأسبانية

المسلمون فى بلاد الغال (GALIA) حتى موقعة «بلاط الشهداء»:

شهدت الفترة القصيرة من فتح أسبانيا إلى تأسيس إمارة قرطبة المستقلة عددا من الحملات التى قام بها حكام أسبانيا العرب فى بلاد الغال[٣٧].

ولسوء الحظ لاتوجد سوى وثيقة واحدة - مختصرة وغير مضمونة - عن هذه الحملات، ولم يأت بعدها اكتشاف جديد يؤكد فحواها أو يستكمله. ولهذا السبب لم تتبع «مذكرة» «رينود» (REINAUD) القديمة، التى نشرت منذ أكثر من قرن، أية أعمال أو أبحاث تتناول محاولات غزو فرنسا من جانب المسلمين خلال القرن الثامن الميلادى.

من المعروف أن الحدود الشمالية لملكة أسبانيا خلال عهد القوط لم تكن تنتهى عند سلسلة جبال البرانس بل كانت تمتد - منذ بداية القرن الخامس - إلى الجانب الآخر لتلك السلسلة لتصل إلى «لنجدوك» (LANGUEDOC)، «روسيون» (ROSELLON)؛ وشمال غرب هذا الإقليم الأخير تقع سبتمانيا (SEPTIMANIA) أو «جوتيا» (GOTIA).

وكل هذه المناطق طافت بها الجيوش العربية بعد دخولها أسبانيا بوقت قصير. وطبقا للمؤرخ العربى ابن حيان[٣٨] فإن كتائب من القوات الغازية توغلت - بأمر من طارق بن زياد نفسه - فى بلاد الغال (بلاد الفرنجة)، ووصلت - بعد الاستيلاء على برشلونة و«أربونة» - إلى صخرة «أبِنْيون» (AVINON) ثم إلى حصن «ليون» (LYON) (أو «لودهون»). لكن «كارلو» (KARLO) («شارل مارتل» - CARLOS MARTEL، فيما بعد) استطاع صد زحف القوات العربية واضطرها للارتداد إلى «أربونة» (NARBONA) حيث أحكم عليها الحصار.

ونتيجة لهذه الغارة قام الفرنجة بإحكام تحصيناتهم فى كل وادى «رودُنة» (RODANO). يتحدث المؤرخون العرب بعد ذلك عن سقوط برشلونة و«جيرُندة» (GERONA) و«أربونة» فى أيدى المسلمين أثناء حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير.

فهل كانت قصيرة تلك الفترة التى ظلت فيها «أربونة» فى قبضة المسلمين بعد استرداد الفرنجة المحتمل لها؟ لا أحد يعرف.

كل مانعرفه أن السمح بن مالك الخولانى ذهب بمجرد توليه السلطة عام ٧١٩م (١٠٠هـ) على رأس حملة إلى إقليم «أربونة» واستولى (أواسترد) على عاصمته، واتجه بعدها إلى «طولوشة» (TOLOSA).

فى ذلك العصر كان ملكية بلاد الغال تحتضر، فبعد موت قهرمان القصر «بيبينو دى هيرستال» نهاية عام ٧١٤م عمت بالبلاد فوضى مماثلة لتلك التى حلّت قبل سنوات بمملكة القوط فى أسبانيا وجعلتها تنزلق إلى مهوى بلا قرار. كانت بلاد الغال أيضا فريسة لأى غاز، لكن بشرط أن يتمتع بالكثرة العددية التى تمكنه من تغطية أراضيها الشاسعة.

فهل فكر المسلمون فى التمركز فى بلاد غاليا (GALIA) والانطلاق منها صوب إيطاليا؟

إنه أمر بعيد الاحتمال، بالرغم من ورود بعض الإشارات التاريخية العربية المتناثرة هنا وهناك عن خطة لموسى بن نصير تهدف إلى عودة الجيش المنتصر إلى دمشق من جهة الشرق بعد اجتياز أوربا بكاملها.

ونقول إن هذا أمر مستبعد اعتمادا على مايلى :

أن العرب لم يكن لديهم فى ذلك العصر سوى معلومات مبهمة عن تلك البلاد الواقعة خلف جبال البرانس. كما أن بلاد غاليا (أو بلاد الفرنجة) كانت مجرد جزء من

الأرض التى أطلق عليها العرب إسم «الأرض الكبيرة»(٣٩)، وهى عبارة عن مساحات شاسعة مليئة بالغابات الكثيفة المناسبة لعمل الكمائن، ومن ثم يسهل على سكانها الدفاع المستميت عنها. وإضافة إلى ماتقدم، فقد كانت الخيرات والثروات الكثيرة التى وجدها العرب فى أسبانيا كفيلة بصرفهم عن التفكير والبحث عن المزيد.

لقد كانت دوافعهم فى شن الغارات على «غاليا» تكمن - بالتالى - فى الطموح وروح المغامرة، وعلى وجه الخصوص فى تنفيذ تعاليم الإسلام المتعلقة بالجهاد لنشر الدعوة بين صفوف الكفار.

ومما لاشك فيه أن حملة السمح كانت ستحدد - فى جميع الأحوال - مصير غاليا الجنوبية لو لم يتصد لزحفه دوق «أكيتانيا» (AQUITANIA) (الأمير «يودو» - أو «إودس» - EUDES) الذى خف لفك الحصار المضروب حول «طولوشة» (TOLOSA). فبعد لقاء حاسم جرت أحداثه فى يونيو ٧٢١م (٨ ذو الحجة ١٠٢هـ) هُزم المحاصرون وولوا الأدبار طريقهم لأسبانيا تاركين قائدهم طريحا فى أرض المعركة(٤٠).

ولم تكد تمضى أربع سنوات حتى قرر عنبسة بن سحيم الكلبى (خليفة السمح) العودة إلى غزو غاليا من جديد. بدأ بتوطيد فتوحات سلفه فى إقليم «أربونة»، ثم أخذ «قرقشونة» (CARCASONA) عنوة، وبعدها اقتحم «نيمة» (NIMES) فاستسلمت دون مقاومة ولضمان عدم تمردها أخذ منها عددا من الرهائن وأرسلهم إلى برشلونة.

وبعدها استولى عنبسة - فى حملة خاطفة ودون مقاومة تقريبا - على وادى «رودنة»، ثم على «بورجونيا» (BORGONA)، ثم «أوتان» (AUTUN) التى نهبها بالكامل - طبقا لحوليات دير «مويساك»(٤١) - فى ٢٢ أغسطس ٧٢٥م واستطاع العرب فى تلك الحملة الوصول إلى «لوكسيل» (LUXEUIL) قبل عودتهم المظفرة إلى شبه جزيرة أيبيريا.

معركة «بواتيه» (بلاط الشهداء) - أكتوبر ٧٣٢م(٤٢) :

بعد عدة سنوات قاد عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى حملة أخرى إلى أرض غاليا سارت فى طريق مغاير باتجاه «غسقونيا» (GASCUNA) و«تورين» (TURENA). وخطط عبد الرحمن لهذه الحملة بعناية شديدة : تجمع جيشه بمدينة «بنبلونة»، ثم اجتاز جبال البرانس عن طريق ممر «باب الشّزرى» (RONCESVALLES) واتجه مباشرة إلى «برديل» (بوردو BURDEOS). حاول «يودو» (أو «إودس») - دوق أكيتانيا

- التصدى للزحف لكنه هُزم على ضفاف نهر «دوردونيا» (DORDONA) ولم يفلح فى إنقاذ «برديل» من التعرض للسلب والنهب.

توغل فرسان المسلمين فى أقصى الشمال ووقعت فى أيديهم غنائم وأسلاب كثيرة من الأديرة والكنائس التى نهبوها. ولكثرة ماسمعوا عن كنوز كنيسة «سان مارتين» (SAN MARTIN) فى «تور» (TOURS)، استعدوا للتقدم نحو «اللوار» (LOIRA) لكن «شارل مارتل» (دوق الإفرنجة) أوقف زحفهم. كان الأمير «يودو» (دوق أكيتانيا) قد طلب - بعد هزيمته فى «دوردونيا» - من شارل مارتل المساعدة وحذره من مغبة التلكؤ فى درء الخطر الداهم الجديد الذى يحدق به. ويبدو أن «شارل مارتل» - الذى كان يعمل منذ سنوات بحماس وجد منقطعى النظير لإعادة الوحدة المفقودة لأرض غاليا - قد أدرك خطورة الموقف وأحس باقتراب النُّذر.

جمع جيشا كبيرا وسار به دون إبطاء لملاقاة قوات المسلمين التى يقودها عبد الرحمن الغافقى. وصل شارل مارتل إلى «تور» فى الوقت المناسب قبل أن تصاب بأذى، ثم تركها وانحرف صوب الجنوب ليلتقى بجيش الأعداء بالقرب من أحد الطرق الرومانية الذى يربط «شاتييرو» (CHATELLERAULT) بـ «بواتيه»، على بعد ٢٠ كيلومتر من شمال غرب المدينة الأخيرة.

لايوجد لدينا سوى القليل من التفاصيل حول ماجرى فى تلك الموقعة. الأخبار المسيحية القديمة تمجد القائد الفرنسى وتشيد بشجاعته وقوته الجسمانية الخارقة التى أثارت إعجاب أتباعه. لكن مانعرفه على وجه أشبه باليقين هو أن المسلمين نالوا هزيمة قاسية، وأنهم فقدوا قائدهم بالإضافة إلى عدد كبير من جنودهم، وأن الباقين منهم تقهقروا دون نظام فى اتجاه «أربونة»[٤٣].

وبالرغم من قلة المعلومات الواردة (فى الحوليات العربية أو اللاتينية) عن المعركة إلا أنها تتفق فى تحديد تاريخها : أكتوبر ٧٣٢ (رمضان ١١٤هـ). وبعد قيامنا بالمقارنة - حسب التقويم الجريجورى - بين بداية شهر رمضان ومايوافقه من الشهر الميلادى، نستطيع القول بأن اليوم الذى حدثت فيه المواجهة الحربية يقع مابين ٢٥، ٣١ أكتوبر لعام ٧٣٢م. ويطلق المؤرخون المسلمون إسم «بلاط الشهداء» على الميدان الذى جرت فيه المعركة.

قام «شارل مارتل» - بعد الانتصار المدوّى على القوات العربية - بتثبيت «يودو» (أو إودس) فى منصبه على مقاطعة «أكيتانيا»، وعهد إلى دوق طولوشة (تولوز) بمهمة الدفاع عن حدود مملكة الفرنجة مع المسلمين والتصدى لهجماتهم المحتملة.

هل فهم العرب بأنهم من الآن فصاعدا سيواجهون مقاومة منظمة على الجانب الآخر من البرانس ؟

مانعرفه هو أنهم ترددوا كثيرا خلال السنوات التالية فى شن حملات جديدة، وأن المدونات التاريخية الإسلامية لم تعد تتحدث عن أنشطة عسكرية فى بلاد الغال. وردت إلينا فقط عن طريق مدونة «مويساك» (MOISSAC) التاريخية مقتطفات عن هجوم جديد قام به حاكم «أربونة» (يوسف بن عبد الرحمن) عام ٧٣٤م (أى بعد مرور عامين على موقعة «بواتيه) فى وادى «الرّون» حيث اجتاز هذا النهر واستولى على «آرل» (ARLES) دون قتال، ثم على «سان ريمى» (SAINT-REMY) (فى بروڤانس)، ثم على صخرة «أبنْيون»، وتوغل بعد ذلك فى وادى «دورانس» (DURANCE). ومكث المسلمون فى «بروڤانس» مايقرب من الأربعة أعوام قبل عودتهم إلى القواعد التى انطلقوا منها. وجاء انسحابهم إثر تدخل جديد لشارل مارتل الذى قام على رأس جيش يتألف من فرنجة و«بورجونيين» باسترداد «أبنْيون» والتقدم لحصار استحكامات المسلمين فى «أربونة». عندما علم حاكم أسبانيا وقتها (عقبة بن الحشاش) بنبأ حصار شارل مارتل لأربونة، أرسل جيشا لفك الحصار المضروب حولها، وعندئذ تقدم شارل مارتل للقائه (عام ٧٣٧) وأنزل به الهزيمة على شاطئ جدول صغير جنوب «أربونة» يسمى «بيرِّى» (BERRE) قبل أن يلقى القائد الفرنسى حتفه فى هوْر «سيجو» (SIGEAU)[٤٤]. أما بالنسبة لأربونة نفسها فقد قاومت وانتصرت.

ولم تستمر سيطرة الإسلام الأسبانى على ثغوره فى أرض «سبتمانية» سوى وقت قصير لأن «بيبينو البريبى» (PIPINO EL BREVE) – ابن شارل مارتل الذى نجح فى انقلابه ضد سلالة «ميروبنْخيا» (أو الميروفنجية) (MEROVINGIA) المالكة[٤٥] – استردها جميعها عام ٧٥١م (١١٣هـ). وقد كان لسقوط هذه الثغور – قبل سنوات قليلة من تأسيس إمارة قرطبة الأموية – صدى عميقا فى العالم المسيحى وفى الغرب الإسلامى، على حد سواء.

فقد كانت – من جهة – بمثابة تحذير لأسبانيا الإسلامية من التفكير ثانية فى مدّ أطماعها التوسعية إلى الجانب الآخر من البرانس؛ كما كانت – من جهة أخرى – بمثابة درس تعلم منه الغاليون أن الحراسة المستمرة لحدودهم يمكن أن تدرأ الخطر الإسلامى عنهم.

وطبقا لبعض النظريات – التى تكاد تفتقر إلى التماسك وتعتمد فقط على معلومات قليلة مستمدة من الأعلام الجغرافية – فإن كثيرا من المسلمين الذين شاركوا

فى تلك الحملات قد بقوا فى أرض «غاليا» بعد رحيل رفقائهم فى السلاح وارتدوا عن الإسلام واعتنقوا الدين المسيحى. ومن هنا تكونت بعض الجاليات ذات الأصل «الإسلامى» وخاصة فى «أوبرينا» (AUVERINA) وفى جبال الألب البروفانسية. وسيحدث نفس الشئ - بعد قرنين من الزمان - مع مسلمى حصن «فراكسينيه» (جنوب فرنسا). لقد آثرنا الإشارة إلى تلك النظريات دون الخوض فيها لأنها تعالج أمرا مظنونا يفتقر إلى الوثائق المباشرة والصريحة.

المقاومة المسيحية فى أشتوريش بلايو، الصخرة (COVADONGA)(٤٦):

وكما رأينا فيما تقدم، فإن احتلال المسلمين لشبه جزيرة «أيبيريا» كان قد اكتمل بالفعل قبل اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٧١٦م (٩٧هـ). ومن المحتمل - برغم عدم ورود أخبار تاريخية صريحة بهذا الخصوص - قيام المسلمين منذ هذا التاريخ بعمل التحصينات فى الثغور الواقعة بين «سبتمانية» و«جليقية». كما يبدو أيضا أن القسط الأعظم من سكان البلاد ترك المسيحية طواعية وانضوى تحت لواء الإسلام لكى يتمتع بكافة مميزات المسلم وحقوقه. ولهذا فلم يبق للمقاومة سوى جيوب صغيرة لبعض وجهاء مملكة القوط الزائلة.

انضم هؤلاء النبلاء لأهالى «أشتوريش» الذين كانوا قد اعتصموا بالسلاسل الجبلية العالية (المسماة بالقمم الأوربية) عندما هاجم موسى بن نصير إقليمهم.

ومن المؤكد أن أهالى «أشتوريش» (ASTURIAS) قد عادوا تباعا إلى ديارهم بعد أن تبين لهم عدم جدوى المقاومة. ولذا فإن النبلاء القوط - المنفيين طواعية - هم الذين استمروا فى المنطقة الوعرة من «أشتوريش»، واختاروا من بينهم زعيما عليهم يدى «بلايو» (PELAYO) - وهو ابن «فافيلا» (FAFILA) أحد أشراف بلاط الملك القوطى «إخيكا» - اتخذ «بلايو» قرية متواضعة فى إقليم أشتوريش تسمى «كانجاس دى أنيس» (CANGAS DE ANIS) مقرا له.

أما عن الأحداث التى تلت ذلك فقد وصلت إلينا روايتان متناقضتان :

تقول الرواية المسيحية أن المسلمين عندما علموا بأخبار التمرد أرسلوا للقضاء عليه جيشا يقوده كل من علقمة و«أوبّاس» (OPPAS) (ابن أو أخ الملك غيطشة)، فاضطر «بلايو» للهرب إلى جبل «أوسيبا» (AUSEBA) والاحتماء بمغارة «سانتا ماريا»

(التى سيتحول اسمها فيما بعد إلى صخرة «أبييدو» – COVADONGA). حاول «أوبّاس» التفاهم مع المتمردين وزعيمهم لكن محاولته باءت بالفشل. وفى معجزة سماوية، انقض المتمردون تتقدمهم العذراء على الجيش المهاجم فقتلوا معظم رجاله وأجبروا الباقين على الفرار. وعندما علم موسى – حاكم إقليم أشتوريش المقيم فى خيخون (GIJON) – بأنباء الكارثة انتابه الهلع وأخلى قواته من الإقليم، لكنهم أخذوا يتساقطون صرعى الواحد بعد الآخر بما فيهم الحاكم نفسه.

أما الرواية العربية فتتحدث عن عدد ضئيل من المتمردين محاصرين من كل الجهات، يعتمدون فى عيشهم على عسل النحل البرى لانقطاع الزاد والمؤن عنهم ويزدرى المسلمون مجرد التفكير فى مهاجمتهم مفضلين تركهم لمواجهة الموت جوعا(٤٧).

ومع أن الراويتين محل شك وارتياب إلا أن المسيحية (لو استثنينا مبالغتها فى تقدير عدد المهاجمين وماتحتوى عليه من عناصر خيالية) تشتمل – طبقا لرأى «بارّوديهيجو» – على بيانات محتملة التصديق.

على أية حال، فإن التراث لم يحفظ لنا من مشروع مملكة «پلايو» سوى أحداث «صخرة أبييدو» التى جرت عام ٧١٨م، وإن كان «سانتشت ألبورنوس» (SANCHEZ ALBORNOZ) يرفض هذا التاريخ – فى دراسته عن أصول مملكة «أشتوريش» – ويرجئه لعهد عنبسة الذى تولى حكم أسبانيا فى الفترة من ٧٢١م إلى ٧٢٦م.

وإن كان من الصعب الانحياز لإحدى الروايتين السابقتين إلا أن الحق كل الحق مع الذين يضفون اليوم قيمة اعتبارية كبيرة على هذه المعركة النصف أسطورية ويعتبرونها أول تجسيد للشعور الوطنى على أرض أسبانيا المسيحية. وهى، بالإضافة إلى ماتقدم، بمثابة الشرارة الأولى لحرب استرداد أراضى شبه جزيرة أيبيريا التى ستستمر لنهاية القرن الخامس عشر بما يتخللها من فترات هدنة أو ركود.

ألفونسو الأول (ALFONSO-I) وبداية «حرب الاسترداد» :

بعد موت «پلايو» عام ٧٣٧م فى «كانجاس دى أنيس» خلفه ابنه «فافيلا» الذى لم يكن يفقه شيئا واستمر فى حكمه سنتين. مات «فافيلا» على إثر مهاجمة دبٍّ له،

ودفن – تمشيا مع التقاليد القديمة لهذا الإقليم – مع زوجته «فروليبا» (FROLEBA) – بإحدى كنائس العاصمة الصغيرة لأشتوريش. وبعد موته انتقلت مقاليد الأمور في الإمارة الصغيرة إلى ألفونسو الأول (ابن دوق «كنتبريا»، وزوج إحدى بنات «پلايو») الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لملكة «أشتوريش». «ومع هذا الأمير سيسدل الستار – طبقا لرأى «باروديهيجو» – على الحقبة نصف الأسطورية لتاريخ أشتوريش لتبدأ حقبة اتساع أراضي المملكة»، أى «حرب الاسترداد»(٤٨).

توجد معلومات محدودة عن طبيعة النشاط العسكرى لألفونسو الأول طوال الثمانية عشر عاما التى قضاها فى الحكم (٧٣٩ – ٧٥٧م). وبعض المؤرخين المعاصرين يعدونه مجرد زعيم عصابات لايهمه الاستيلاء على أرض بقدر ماتهمه الأسلاب والغنائم؛ بينما يُنَصِّبُه آخرون رائدا لحرب (الاسترداد) يخوضها وهو على وعى تام بأهمية الدور الذى يمثله.

وبغض النظر عن اختلاف الآراء فيه، فإنه من باب إحقاق الحق الإشارة إلى أن البلبلة التي كانت تخيم على أسبانيا الإسلامية قد خدمته كثيرا فى تحقيق طموحاته. فشغل الحكام العرب بتجييش الجيوش وإرسالها إلى الجانب الآخر من البرانس أدى إلى تراخى قبضتهم على شمال غرب شبه الجزيرة، كما أن فترة حكم ألفونسو الأول قد صادفت وتزامنت مع تمرد بربر أسبانيا المسلمين.

لقد استطاع البربر طرد العرب بسهولة من أقاليم كانوا يشكلون غالبية سكانها، لكنهم سرعان ماضعفوا نتيجة لهزائمهم المتتالية. وكما أشرنا كذلك من قبل، فإن الجوع والقحط اللذين ألهبا بسياطهما (مع بداية عام ٧٥٠م – ١٣٢هـ) شمال غرب أسبانيا قد أديا إلى هجرة البربر الجماعية لتلك الأقاليم والنزوح إلى المغرب. وبعد هجرتهم انفصلت «جليقية» تلقائيا عن أراضى الإسلام وانضمت لتويج «تصغير تاج» ملك«أشتوريش» الذى كان يضايق البربر النازحين بحروب العصابات المستمرة لكنه لم يستطع بذل المزيد من الجهد حتى تتسع رقعة مملكته على حساب الأراضى الإسلامية.

هبط ألفونسو الأول من معاقله الجبلية إلى سهول «ليون» ليستولى على «أسْتُرقة» (ASTORGA)، ثم استولى بعد ذلك فى زحفه المتواصل على مايلى : «جليقية» بكاملها، شمال مايعرف الآن بالبرتغال، المنحدر الجنوبى لسلسلة جبال كنتبريا، «باردوليا» (المسمى القديم لقشتالة العتيقة – CASTILLA LA VIEJA)، وعلى أراضى «ألبة» (ALAVA)، و«بوريبا»(٤٩) (BUREBA) و«لاريوخا» (LARIOJA).

ومن المحتمل أن يكون قد وصل وتمكن من إخضاع الإقليم الواقع بين وادى «الدويرُه» والسلاسل الجبلية لوسط أسبانيا . ومن بين الثغور القوية التى سقطت فى يده تشير المصادر المسيحية إلى مايلى على الترتيب :

«لُك» (LUGO)، «توى» (TUY)، «بورتو» (OPORTO)، «براجا» (BRAGA)، «بازو» (VISEO)، «أستورقة، ليون، أمايا» (AMAYA)، «سمّورة، سيمنكس» (SIMANCAS)، أشُونة» (OSUNA)، «شلمنقة»، «آيلة» (AVILA)، «شقوبية» (SEGOVIA)، «سيبولبيدا» (SEPULVEDA)[٥٠].

خلال تلك الفترة كان حاكم أسبانيا العربى (يوسف الفهرى) مشغولا بالنزاعات الداخلية ولم يتمكن من التصدى بفعالية لهذا الزحف القادم من الشمال، ولا إرسال الأندلسيين ليحلوا محل البربر النازحين لأفريقيا، ولذا لم تأت الحملة التى سيّرها عام ٧٧٥م (١٣٨هـ) إلى «جليقية» بالثمار المرجوة.

ومن جهة أخرى، فلم يكن لدى ألفونسو الأول أيضا القوات الكافية لشغل المناطق شبه الخالية بعد رحيل سكانها وانتقالها نظريا لسلطته.

وبهذا الشكل أصبح يفصل منذ ذلك الحين بين أسبانيا المسلمة ومملكة أشتوريش شريط من الأرض شبه خال من السكان، أو مايمكن تسميته «أرض بلا صاحب» يحدها من الشمال «الماركات» (Marcas) أو الثغور الأشتوريشية بينما تشكل الثغور الإسلامية حدّها الجنوبى. ومن الآن فصاعدا سيتحدث تاريخ شبه جزيرة «إيبيريا» باستمرار عن هذا الشريط الفاصل الذى سيكون مسرحا مفتوحا لمواجهات حربية يحاول فيها كل طرف وقف تقدّم الطرف الآخر[٥١]. عند وصول عبد الرحمن الأول كان الخط الحدودى للمسيحيين من الغرب إلى الشرق يتمثل فى مجرى «الدويرُه» من مصبه حتى مرتفعات «أوسْمه» (وخشمة – OSMA) لكى ينعطف بعدها نحو الشمال إلى أن يصل إلى «بَسْكونية» (VASCONIA). أما خط المسلمين الحدودى فكان يمر من شمال «قُلُمْرية» (COIMBRA) بقليل حتى طليطلة (TOLEDO) لكى يصعد بعدها نحو «وادى الحجارة» (GUADALAJARA) و«تُطيلة» (TUDELA) و«بنبلونة».

وستكون هذه الأرض التى استردها ألفونسو الأول وخلفه محور النزاع الدموى بين المسلمين والمسيحيين طيلة القرن السابق لعصر الهجمات الديكتاتورية العامرية زمن الخلافة القرطبية.

٥- إسلام الأندلس، وسكانها العرب والبربر خلال القرن الثامن(٥٢) الأندلس:

من المناسب التعريف أولا بمصطلح «الأندلس» الوارد فى العنوان السابق وبيان حدود استخدامه. يطلق المؤرخون المسيحيون لفظ «هسبانيا» (HISPANIA) أو «سبانيا» (SPANIA) ويريدون به مجموع أراضى شبه جزيرة أيبيريا - سواء الخاضع منها للسيطرة الإسلامية أو الأرض التى حررتها المسيحية الأسبانية قرنا بعد آخر- (٥٣).

أما المؤرخون العرب - باستثناء حالات نادرة - فيطلقون تعبير «بلاد الأندلس» على الأراضى الأسبانية الخاضعة للإسلام. ومن المعروف أن الرقعة الجغرافية التى يُطلق عليها هذا التعبير (الأندلس) كانت تتآكل بنفس المقدار الذى تتقدم به «حرب الاسترداد» المسيحية إلى أن أصبح يعنى فى القرن الرابع عشر والخامس عشر مملكة غرناطة الصغيرة فحسب.

وعلى خلاف هذا فمن النادر أن يقوم المؤرخون والجغرافيون المسلمون بإطلاق لفظ «إشبانيا» (ISHBANIYA)(٥٤) على أسبانيا المسلمة، وإذا فعلوا هذا فإنما يريدون به الأراضى التى تمثلها المناطق الآتية : البرتغال، قشتالة، نبرّة، رغون.

وإلى يومنا هذا لازلنا ننطلق من التكهنات للبحث عن أصل مصطلح «الأندلس». فالبعض يربطه باللفظ غير المؤكد «ڤانداليثيا» (VANDALICIA)، وهو الاسم الذى أطلقه «الوندال» (VANDALOS) على إقليم «لابيتيكا» (LA BETICA) عند اجتيازهم السريع له قبل استقرارهم النهائى فى شمال أفريقيا(٥٥).

على أية حال، فمن المؤكد أن الاصطلاح يعود استخدامه لبداية الفتح العربى ويشهد بهذا دينار مزدوج اللغة يرجع تاريخه لعام ٧١٦م، حيث نقش على أحد وجهيه باللاتينية : «ضُرب في أسبانيا»، وعلى الوجه الآخر نقش باللغة العربية «ضُرب فى الأندلس»(٥٦).

ومن جهة أخرى، فإن لفظ «الأندلس» لم يختف بانتهاء السيطرة الإسلامية بل ظل باقيا حتى الآن فى أسبانيا الحديثة وأصبح يطلق - بهذا الشكل : أندلوثية (ANDALUCIA) - على قسمها الجنوبى الذى يضم المحافظات التالية : غرناطة، مالقة، قرطبة، إشبيلية، ألمريّة، جيّان، وِلْبة، قادس.

مايهمنا التأكيد عليه فى هذا المقام هو أننا سنستخدم لفظى «الأندلس»، «الأندلسيين» كما فهمهما واستخدمهما المؤرخون العرب الذين يطلقون مسمى

«الأندلس» على الأراضى الواقعة تحت سيطرة المسلمين فقط وليس على الأرض المستردة منهم؛ ويطلقون لفظ «الأندلسيين» ويريدون به المسلمين الذين يعيشون فى أى بقعة من أرض أسبانيا سواء كانت فى الغرب أو «إكستريمادورا» (EXTREMADURA) أو «رغون» السفلى (ARAGON) أو «ليبانتى» (LEVANTE).

اعتناق سكان أسبانيا الإسلام :

بعد فتح العرب لأسبانيا لم يفكروا إطلاقا فى فرض عقيدتهم الإسلامية على الشعوب الخاضعة لهم، لأنها تنتسب لما يسميه المسلمون «بأهل الكتاب» : أى أصحاب نصوص نزل بها الوحى من السماء(٥٧). ولما كان الإسلام يمنح «أهل الكتاب» معاملة مفضلة، فقد كان من حق يهود أسبانيا ومسيحييها التمسك بدينهم وممارسة شعائره فى حرية تامة. ويكفى للتدليل على هذا بنص الصلح - الذى قدمناه آنفا - بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وبين الأمير القوطى «تُدْمير» عام ٧١٣م (٩٤هـ) والذى يضمن فيه عبد العزيز لتدمير ورعاياه عدم التعرض لممارسة شعائرهم الدينية أو المساس بدور عبادتهم. وعلى هذا الأساس، فقد كان من حق جميع الرعايا الجدد للمسلمين المتنصرين الاختيار بين : اعتناق الإسلام أو البقاء على ديانتهم الأصلية. بالاختيار الأول يتمتعون - سادة وعبيدا - بكل ما للمسلم الأصلى النشأة من حقوق وواجبات؛ وبالاختيار الثانى يتحولون إلى «ذميين» عليهم الوفاء ببعض الالتزامات ومنها سداد ضريبة سنوية (جزية).

وعلى ضوء هذا، اختار كثير من الأسبان دون تردد - وخاصة هؤلاء الذين كانوا يشعرون بغبن فى ظل النظام القوطى - الدخول فى الإسلام. ومن جانبنا، نظن أن المسلمين المنتصرين ربما لم يستهوهم هذا التحول الجماعى للإسلام من جانب سكان شبه جزيرة أيبيريا نظرا للعوائد الضريبية الكبيرة التى كانت ستحصل منهم لو استمر معظمهم على ديانته الأصلية(*). لكن علينا - فى ذات الوقت - أن نأخذ فى الحسبان أن دواعى الأمن والسياسة الفطنة لم يكن يناسبهما زيادة عدد «الذميين» على عدد المسلمين. على أية حال، فلم يكن دخول الرعايا الجدد فى الإسلام يمثل مشكلة فى الأندلس خلال القرن الثامن لأنه جاء نتيجة لاختيارهم الحر ولم يفرضه أحد عليهم(٥٨).

ومن الآن فصاعدا سيمثل هؤلاء الأسبان المتحولون إلى الإسلام غالبية الشعب الأندلسى المسلم وخاصة فى الأقاليم الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة. ولن يغادر معظم أحفادهم بعد عدة قرون - مثلهم فى هذا مثل أحفاد العرب والبربر المستقرين منذ زمن طويل - أرض أسبانيا عندما آلت بكاملها إلى المسيحية.

(*) نسى المؤلف أن المسلمين كانوا يؤدون الزكاة للدولة، وهى الضريبة التى كانت تقابل جزية الذميين. المراجع

وقد أطلق قديما على المسلمين الجدد لفظ «مُسالِمة» أو «مولَّدين» [مفردها «مولَّد»(٥٩)؛ وفي الأسباني القديم «مولادي» MULADI]؛ ويبدو أن كلمة «مسالمة» كانت تطلق على الأسبان المتحولين إلى الإسلام، أما الكلمة الثانية (مولدون) فكانت تطلق على ذراريهم (أبنائهم وحفدتهم).

كما يبدو أن تحول الأسبان الأوائل إلى الإسلام (أو المسلمون الجدد، الذين سنطلق عليهم من الآن لفظ «المولدين») قد تم سريعا وفي زمن قصير، وأنه بعد عدة أجيال كان من الصعب التمييز بين أحفادهم وأحفاد المسلمين القادمين من خارج شبه جزيرة ايبيريا. ومما لاشك فيه أن أعداد هؤلاء المسلمين الأسبان قد تضاعفت خلال القرن التاسع نظرا لتحول جماعات جديدة للإسلام نتيجة لحزم وصرامة بعض أمراء قرطبة الأموية ولتعصب الأقلية المستعربة النشطة.

وقد تلقب الكثيرون من المولدين الأحرار والعبيد، والمتبنين بألقاب أسيادهم ونسوا بالتدريج أصولهم؛ كما أصبح العديدون من المنحدرين عن هؤلاء المسلمين الجدد برجوازيين أثرياء بل وأعيان أقوياء جمعوا ثروات طائلة من الاشتغال بالتجارة أو الزراعة وتناسوا بمرور الزمن أن أسلافهم كانوا يقطنون أسبانيا قبل أن يدخلها الإسلام. وبعضهم الآخر اشترى بالذهب الانتساب لعائلات كريمة لكي يتمكن من التباهي بأصوله العربية. كما فضل البعض الاحتفاظ بأسماء عائلاتهم الرومانية للتميز عن غيرهم، مثل بنى «أنخيلينو»، بنى «ساباريكو»، بنو «لونجو»، بنى «كابتورنو» ...الخ. وكان ابن القوطية نفسه (وهو أحد المؤرخين العرب) يفتخر في القرن العاشر بأصوله التي تمتد لعائلة الملك غيطشة وبلقبه (القوطي) الذي يعكس هذا الانتساب. وبالإضافة إلى ماتقدم، فإن المصاهرة المستمرة بين المولدين والمسلمين «الداخلين» قد محت من ذاكرة هؤلاء المولدين أصولهم الأسبانية البعيدة. لقد حدث امتزاج قوي وسريع بين الشعوب الأندلسية يصعب من خلاله، وخاصة كلما طال الأمد، التمييز بين العناصر الوافدة وأبناء البلد الأصليين.

وبالرغم من هذا، فلم يفقد المولدون أبدا - دون بقية من ترك دين أسلافه وتبني النموذج الحياتي للمسلمين الداخلين وتقاليدهم - شخصيتهم الأسبانية. وبفضل هذا الامتزاج غير العادي تمتعت الأندلس بملامح ذاتية خاصة داخل العالم الإسلامي، سواء بالنسبة لحياتها السياسية أو وعيها الثقافي والحضاري.

ومن المهم ألا ننسى كذلك أن اللغة العربية لم تكن هي اللغة الوحيدة المستخدمة منذ القرن الثامن وحتى الخامس عشر، ذلك لأن عددا لابأس به من السكان كان

يستخدم أيضا فى الحديث اللهجات الرومانثية المشتقة أساسا من اللاتينية والمطعمة بمفردات عربية وأيبيرية. ولايوجد مايمنع من التأكيد بتفوق اللهجات الرومانثية - حتى عصر متأخر من تاريخ أسبانيا الإسلامية - على اللغة العربية (ومن باب أولى على اللغة البربرية) خاصة فى المناطق الريفية والزراعية.

المجتمعات المسيحية واليهودية فى الأندلس :

يطلق المسلمون أحيانا لفظ «العجم» على الأسبان المسيحيين الذين لم يتخلوا عن عقيدتهم وظلوا - طبقا للتعبير العربى - «بين ظهرانى المسلمين». وهذا اللفظ (العجم) كان يطلق فى بدايته على غير العرب، وفى الشرق كان يطلق بصفة خاصة على الفرس الذين دخلوا الإسلام.

أما التسمية التى غلبت ودامت فى أسبانيا فهى «المستعربون»(٦٠). ومن جهة أخرى، فإن المؤرخين العرب اعتادوا تسمية غير المسلمين فى أسبانيا «بالمعاهدين»(٦١)، أى المرتبطين بعهد يخول لهم الاستمتاع بعدد من الحقوق والالتزام ببعض الواجبات. إنه يساوى - باختصار - تعبير «أهل الذمة» الذى يطلق على دافعى الجزية من المسيحيين واليهود، لكن يبدو (وهذا خاص بأسبانيا الإسلامية فقط) أنه بمرور الزمن أصبح لفظ «المعاهد» يُطلق على المسيحى بينما اختص اليهودى بلفظ «الذمى».

كانت توجد، فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية، منذ منتصف القرن الثامن المجتمعات المستعربة الأكثر عددا وازدهارا. وظلت طليطلة (عاصمة القوط القديمة) محتفظة، تحت السيطرة الإسلامية، بمكانتها كحاضرة دينية، وكانت المقر الدائم - حتى القرن الحادى عشر - لمطران مسيحى الأندلس الذى كان لايتم تعيينه - مثله فى هذا مثل قساوسة قرطبة وغيرها من الأبرشيات - إلا بعد موافقة العاهل الأموى فى العاصمة قرطبة.

ولقد كان لمسيحى أسبانيا - بوجه عام - الحق فى الاحتفاظ بكنائسهم وممارسة شعائرهم الدينية فيها، لكن التصريح لهم ببناء كنائس جديدة لم يكن يتم إلا فى القليل النادر. ومن جهة أخرى، فقد تم تحويل عدد من الكنائس إلى المساجد، تمشيا مع التقليد المتبع منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب والذى يقضى بتقسيم كنائس المدن المستسلمة - ولو عن طريق الصلح - بين المسلمين والمسيحيين. ويبدو أن اتفاقا من هذا النوع قد وقع فى قرطبة (عاصمة الأندلس) واستمر لعدة عقود من الزمن، وبموجبه تحول نصف كنيسة «سان بيثنتى» (SAN VICENTE) إلى مسجد بينما ظل

النصف الباقى فى يد المستعربين. وبعد أن كثر عدد المسلمين فى العاصمة الأندلسية، أحس عبد الرحمن الأول بالحاجة لتوسيع المسجد فضم إليه الجزء المخصص للكنيسة، وصرح للمستعربين فى مقابل هذا ببناء كنائس جديدة فى الرّبض(٦٢).

لايمكننا الجزم بأن الأراضى التى استردها ألفونسو الأول ومن بعده «فرويلا الأول» فى منتصف القرن الثامن لم يبق فيها مسلم واحد. مانعرفه هو أن البربر نزحوا عن الأقاليم التى استردها هذان الملكان وتركوها شبه خالية، لكن الأعداد القليلة التى بقيت منهم ارتدت عن الإسلام وعادت لممارسة شعائر دينها القديم.

لقد تواجد المسيحيون فى أسبانيا خلال كل العصور؛ أما ملوك أسبانيا المُسْتَردَّة (المسيحية) فلم يسمحوا بتواجد جاليات مسلمة على أرضهم إلا بعد مرور ردح طويل من الزمن، ومن ثمّ فقد كان لزاما الانتظار حتى نهاية القرن الحادى عشر ومطلع الثانى عشر لتصلنا أول الأخبار عن تواجد بعض التجمعات الموريسكية فى الأراضى المسيحية. وعلى خلاف ماتقدم، فإن الجاليات اليهودية النشيطة والغنية كانت متواجدة باستمرار على هذا الجانب أو ذاك من الثغور الحدودية. لن نسترسل الآن فى الحديث عن تلك الجاليات اليهودية ولاعن مسيحيى الأندلس لأننا سنعود إليهما – وبالتفصيل – عند دراسة النسيج الاجتماعى لخلافة قرطبة والدور الذى لعبه كل فريق فى اقتصادها.

يعتقد – كما أشرنا آنفا – أن يهود أسبانيا لم يساوموا المسلمين على مساندتهم لهم فى دخول البلاد. فمنذ زمن طويل واليهود يعانون حقا من سوء معاملة واضطهاد القوط، وخاصة منذ العصر الذى بدأ فيه التحالف بين الكنيسة والدولة وأسفرت اجتماعاتهما المتتالية فى العاصمة طليطلة عن تقليص حقوق اليهودى الشخصية ثم الإطاحة بها. ففى عام ٦٥٤م اتخذ «ريثيسبنتو» (RECESVINTO) ضدهم مجموعة من القرارات الصارمة (استمر تطبيقها كذلك فى عهد «إيربيخيو») تضطرهم فى الواقع إما إلى الهجرة أو اعتناق المسيحية. ثم جاء «إخيكا» وحرم عليهم – عام ٦٩٣م – التعامل مع مسيحيى المملكة. وبالرغم من قسوة القرار الأخير إلا أنه من المستبعد التسليم بأنه كان سبب تآمرهم فى بداية القرن الثامن مع عرب شمال أفريقيا لطرد القوط من أسبانيا(٦٣). يكثر المؤرخون العرب من الإشارة إلى المساعدات التى قدمها يهود أسبانيا للعرب الفاتحين، ويبدو أنهم كانوا مكلفين – فى حالات معينة – بتأمين وحراسة المدن المفتوحة بعد ترك الجيوش العربية لها لمواصلة تقدمها. لقد تمتع اليهود، فى ظل الدولة الإسلامية، بحقوق المواطنة كاملة، وكانت لهم جاليات ذات أهمية

فى عدد من المراكز الحضارية. وعلاوة على هذا، أصبح اليهود يشكلون غالبية سكان بعض المدن لأزمان طويلة، ومنها على سبيل المثال : غرناطة القديمة أو مدينة «اللّسّانة» (LUCENA) الصغيرة. كما كان لليهود أيضا - مثل المستعربين - الحق فى ممارسة شعائرهم الدينية والتمتع بسائر حقوقهم المدنية مقابل دفع الجزية فقط.

وعلى مايبدو، فإن عدد المتحولين منهم إلى الإسلام لم يكن يشكل سوى نسبة ضئيلة للغاية.

وإذا استثنينا الحركات المحدودة والقليلة المناهضة لليهود والتى انبثقت أثناء حكم الزيديين لغرناطة فى القرن الحادى عشر، يمكننا القول بأن التاريخ لم يسجل أى قرار فيه اضطهاد ليهود أسبانيا المسلمة إلا بعد مرور عدة قرون، وبالتحديد فى عهد الموحدين.

ولقد اضطلع اليهود - كما سنرى فيما بعد - بدور هام فى اقتصاديات الممالك الأندلسية والمسيحية على حد سواء، كما عُهد إليهم بالعديد من المناصب فى إدارة الأموال وبالمهام الدبلوماسية العظيمة.

عرب أسبانيا : «الداخلون»(٦٤) :

لم يكن تعداد العرب بالوفرة التى يستطيعون بها شغل أراضى امبراطوريتهم الشاسعة التى فتحوها، ومن ثمّ فقد تصرفوا بحنكة عندما زودوا كل منطقة بالكوادر السياسية اللازمة. ولاتتجلى براعتهم فقط فى جعل كل المناطق التى دخولها تقبل على اعتناق دينهم بل، أيضا، فى فرض التعريب الاجتماعى على الكتل السكانية الخاضعة لسيطرتهم. ويغلب الظن بأن نسبة العرب الخلّص فى أسبانيا القرن الثامن كانت ضئيلة ومن أبرز ممثليها الأنصار والتابعون. وإذا كانت هذه النسبة قد تزايدت فيما بعد فالفضل يرجع لعودة حكم بنى أمية لتلك الأراضى البعيدة من الامبراطورية العربية وللمكانة الرفيعة التى احتلتها هذه المحافظة الإسلامية ذات الطبيعة الخلابة.

وكما لاحظنا من قبل، فإن عرب أسبانيا الخلّص القليلى العدد (مقارنة بالبربر أو المسلمين الجدد) عندما نقلوا معهم فى القرن الثامن إلى شبه جزيرة أيبيريا نزاعاتهم الطبقية وخصوماتهم العشائرية (بين القيسيين واليمنيين) فإنهم لم يسمحوا بذلك لإخوانهم الجدد فى الدين الاقتراب من مجال السياسة. لقد أصبح فى مقدورونا الآن - بفضل عناية المؤرخين العرب بإبراز هذه المسألة، وبفضل مدونة «جمهرة أنساب

العرب» التى كتبها ابن حزم الأندلسى فى القرن العاشر – التعرف بمزيد من الدقة على المجموعات العربية الرئيسية التى دخلت الأندلس، بل وتحديد الأماكن التى استقرت بها على الخريطة.

وفى هذا المقام يجب تكرار ما أشرنا إليه سابقا قائلين بأن هؤلاء العرب «الداخلين»، بالرغم من شدة اعتزازهم بأصولهم إلا أنهم لم يستطيعوا المحافظة طويلا على نقاء الدم والسلالة اللتين قدما بهما إلى أسبانيا نتيجة لشيوع مصاهرتهم للمولدين ولكثرة حالات التبنى واتخاذ الموالى.

وأقدم خلية عربية عرفتها الأندلس تتمثل فى القيسيين والكلبيين الذين قدموا مع موسى بن نصير إلى شبه جزيرة أيبيريا. وبعدها بقليل (فى ٧١٣م – ٩٤هـ) تبعتهم عدة مئات بصحبة الحاكم : الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى.

ونعتقد أن هجرات العرب إلى الأندلس قد استمرت بعد ذلك حتى منتصف القرن الثامن، لكننا لانستطيع تحديد أحجامها ولا أوقاتها لعدم ورود أخبار عنها، والخبر الوحيد الموثوق به عن هجرات هذه الفترة السابقة لولاية عبد الرحمن الأول يخص «الجند» السوريين الذين قدموا مع بلج القشيرى، وقد أشرنا من قبل إلى دورهم العسكرى وإلى استقرارهم فى «كوَر» جنوب وشرق الأندلس(٦٥).

وتجدر الإشارة إلى أن كتب التاريخ تطلق إسم «البلديين» على الداخلين الأوائل وأحفادهم (من قدموا مع موسى بن نصير ومع الحرّ)، بينما تطلق على من جاءوا بصحبة بلج «الشاميين» أو «السوريين».

ولقد استقر العرب – بوجه عام – فى المدن الواقعة فى السهول الخصبة. وهذا ينسحب بالتحديد على الأرستقراطية القرشية وعلى أرستقراطية أحفاد الأنصار. وفيما يخص المناطق التى استقر بها العرب فى الأندلس، نجد أن ممثلى العشيرة العدنانية / القيسية للفهريين قد تمركزا فيما يلى : الكنانيون حول طليطلة؛ الهذليون فى إقليم «أوربولة»؛ التميميون والقيسيون فى منطقتى إشبيلية وبلنسية. أما بالنسبة للعشيرة المناوئة (الخثعميون، اليمنيون) فقد كان الأزديون والحميريون (مواطنو حضر موت، جنوب شبه جزيرة العرب) موزعين بين قرطبة، بطليوس (BADAJOZ)، إشبيلية، إلبيرة، ومرسية.

وعلى هذا، فقد استأثرت الطلائع العربية و«جند» بلج السوريون بنصيب الأسد من الأراضى التى فتحها المسلمون فى القرن الثامن. ولانعرف سوى القليل عن كيفية

استفادتهم من طبيعة الأندلس الغنية. وبما أننا سنعود لهذا الموضوع بالتفصيل سنقتصر هنا على الإشارة إلى أنهم تبنوا – على الأرجح – نظام المزارعة والمشاركة في المواشي الذى كان معمولا به فى أفريقيا الرومانية والمستمد فى الغالب من نظام بربرى قديم.

اختار العرب الإقامة فى المدن للاشتغال بالوظائف أو بشئون الحكم، أو الإقامة فى بيوتات ريفية مريحة ومسلية كسادة إقطاعيين، وعهدوا بفلاحة ضياعهم إلى مولدين من العوام أو فلاحين مسيحيين مقابل إيجار معين أو المشاركة فى المحاصيل التى تغلّها الأرض.

ومن جهة أخرى، فقد ظهرت سريعا – وخاصة فى جنوب غرب أسبانيا – الأبعاديات الكبيرة التى تمتلكها بعض العائلات العربية، ومن أهمها العائلات المقيمة بمقاطعة إشبيلية.

البربر فى أسبانيا(٦٦):

ندين أيضا فى معرفتنا لأصول البربر وأماكن استقرارهم فى أسبانيا للمعلومات المسهبة والمحددة التى تركها لنا ابن حزم. عرفنا من قبل الدور الهام الذى اضطلع به البربر فى فتح أسبانيا، ونذكر الآن أن معظمهم قد ترك شمال شبه الجزيرة – دون نية فى الرجوع ثانية إليها – عائدا إلى المغرب إبّان فشل حركة تمردهم المتزامنة مع فترة القحط والجوع التى بدأت عام ٧٥٠م (١٣٢هـ). الذين بقوا منهم فى الأندلس وأصبحت لهم ذريات هم الذين صاهروا المولدين أو تزوجوا – فى حالات نادرة – من العائلات العربية.

ويغلب الظن بأن هجرات البربر – سواء كانت اختيارية أو تلبية لالتزامات معينة – من شمال أفريقيا إلى أسبانيا قد استمرت على فترات متباعدة منذ ذلك الحين حتى عصر الخلافة القرطبية على الأقل.

وإضافة إلى ماتقدم، فنحن نعرف أن بعض أمراء بنى أمية كانوا يضمون إلى الميليشيات التابعة لهم فى شمال أفريقيا مرتزقة من البربر(٦٧). ومع هذا، فعلينا الانتظار حتى النصف الثانى من القرن العاشر لكى نسجل مجيئ جماعات غفيرة من البربر للانخراط – كجنود نظاميين – فى صفوف الجيش الأموى بناء على طلب ملوك قرطبة والمنصور بن أبى عامر من بعدهم. وستشهد الأندلس – نتيجة لقدوم مجموعة

كبيرة من الزيريين فى ذلك العصر المتأخر - تجدد الصراع بين البربر الزناتيين والبربر الصنهاجيين(٦٨).

ويذكر المؤرخ العربى ابن خلدون أن التجمعات البربرية الرئيسية التى تكاثرت فى أسبانيا منذ عهد متقدم كانت أربعة : أهالى «متغرة» (MATGARA)؛ أهالى «مديونة» (MADYUNA)؛ أهالى «مكناسة»؛ أهالى «هوّارة». ومن بين الأقاليم التى كانت تسكنها هذه الجماعات فى المغرب خلال القرن الثامن نخص بالذكر : مناطق «الريف» الجبلية، ومناطق «جبيلة» (CHEBALA) القريبة من ساحل البحر المتوسط؛ ومن تلك المناطق جنّد طارق بن زياد العساكر اللازمة لحملته على أسبانيا.

أما ابن حزم فقد أضاف إلى القبائل الأربعة التى ذكرها ابن خلدون قبائل أخرى، مثل :«مغيلة» (MAGILA)، «ملزوزة» (MALZUZA)، «نفرة» (NAFZA)، «أوْرَبة» (AWRABA)، «مصمودة» (MASMUDA) الأطلس الكبير، و«كتامة».

ولقد استقر بربر «بنو رزين» فى إقليم «البرّازين» (وهو تحريف لإسم القبيلة المذكورة)؛ وبربر «ولهسة» (WALHASA) فى مقاطعة «رُندة»؛ و«بنو غزلون» فى «شاطبة»؛ و«بنو طريف» فى «أشونة» ومدينة سالم.

لكن مجموعات الهجرة الأكثر عددا تنتسب لقبائل «زناتة» المغرب وأفريقيا، ومنها : «بنو الخرّوبى» (BANU-L-JARRUBI)، و«بنو ليث» (BANU LAYTH)، «بنو بيرزال» (BANU BIRZAL)، «بنو ضَمَّار» (BANU DAMMAR)، «بنو خزر» (BANU JA-ZAR). ومن المحتمل أن هذه القبائل المنتسبة لزناته لم تأت للاستقرار فى أسبانيا إلا فى النصف الثانى من القرن العاشر بعد انتهاج الخليفة عبد الرحمن الثالث، والحكام من بعده، سياسة ممالئة للزنانيين فى شمال أفريقيا. واستوطن البربر - دون استثناء تقريبا - المناطق الجبلية المنتشرة فى سائر شبه جزيرة أيبيريا. والأسباب التى دعتهم للاستقرار فى تلك المناطق كثيرة ومتنوعة : وأولها، لأن العرب احتفظوا لأنفسهم بالأقاليم الغنية فى السهول وبالأراضى التى تعتمد على الرى فى الغوطات الأندلسية ولم يتركوا لهم، بالتالى، فرصة للاختيار. ومن جهة ثانية، فالغالبية العظمى من البربر كانت تقطن الأقاليم الجبلية قبل قدومهم إلى الأندلس، ومن ثمّ فقد كان بإمكانهم الاستقرار دون صعوبة فى قفار الهضبة الوسطى أو على سفوح الجبال وممارسة نشاطهم القديم فى تربية المواشى وزراعة الأشجار. والسبب الأخير يكمن فى أنهم حينما قبلوا العيش فى أقاليم صعبة المنال كانوا يدركون مقدما أن العرب سيحترمون

استقلاليتهم لما خبروه من براعتهم فى حرب العصابات. وبالفعل، فقد تجنب البربر بسكناهم المناطق المرتفعة المراقبة اللصيقة من جانب أولئك الذين تلقوا منهم يد العون لاحتلال المحافظة الإسلامية الغنية. ومنذ ذلك الحين ستواجه الإمارة القرطبية سيلا من التمردات البربرية المحدودة التى سيتكفل أمراء قرطبة بإخمادها دون مشاكل فى أغلب الأحيان.

على أية حال، يمكن القول بأن «حرب الاسترداد» عندما اندلعت فى الشمال وتقدمت نحو الجنوب (من سلسلة جبال «كنتبريا» حتى وادى الدويره) أجبرت مجموعات كبيرة من الفلاحين البربر على الانتشار فى بقية أنحاء شبه الجزيرة، وخاصة فى غرب الأندلس وفى مناطق «إكستريمادورا» الجبلية التى تمتد حتى وادى الرّملة (GUADARRAMA). وفيما يسمى حاليا بأندلوثية، استوطن كثير منهم المناطق الجبلية الآتية : جبال «قرمونة» و«شذونة»، جبال «رُنْدة» و«مالقة»، ومنحدرات جبال الثلج (SIERRA NEVADA). وبهذا الشكل توزعت أراضى أسبانيا الإسلامية بعد سنوات قليلة من فتحها على العرب الخلّص والبربر والمسلمين الجدد.

أما المدن فقد كان يسكنها – بالإضافة إلى السادة العرب والدهماء من المولدين – مسيحيون ويهود أسبان، مع نفر قليل من البربر فى بعض الأحيان. ومع أن هذا الخليط البشرى قد أضفى على أسبانيا المسلمة طابعا خاصا ومميزا إلا أنه ظل لفترة طويلة عقبة كؤودا فى طريق سلامتها ووحدتها. وسنتعرف فى الفصول التالية على مدى تحكم خطر تنوع الأجناس فى دفة التاريخ السياسى لإمارة قرطبة الأموية، وعلى تهديده لمصير أسبانيا المسلمة عندما تزامن مع المعاول الأولى لحرب الاسترداد التى استطاع المسلمون إسكاتها فى القرن العاشر لكنها نشطت من عقالها ثانية فى مطلع القرن الحادى عشر ومزقت الأندلس إلى أشلاء لم يلملمها إلا تدخل المرابطين.

هوامش الفصل الأول :

١) توجد «ببليوجرافيا» مفصلة عن أسبانيا القوطية في الكتاب التالى :

- las fuentes de la Historia Española, de Sánchez Alonso, Madrid, 1919, págs. 14-22 (nueva ed., Madrid, 1927, págs. 55-67).

والأعمال الأساسية الحديثة التى تضيفها إلى المصدر السابق هى :

- N. ABERG, Die Franken und Westgoten in der Völkerwanderungzeit, Uppsala, 1922.

- M. Torres, El Estado Visigótico : Algunos datos sabre su formación y principios fundamentales de su organización, en Anuario Hist. Der. esp., III, 1926, págs. 307 - 475.

- A. K. Ziegler, Church and State in visigothic Spain, Washington, 1930.

- H. Zeiss, Die Grabfunde aus dem Spanischen Westegoten-Reich, Berlin, 1934.

وخاصة المجلد الرابع من هذا الكتاب. (Madrid, 1940).

وبالنسبة للوضع السياسى فى أسبانيا خلال الفترة من ٦٨٥م إلى ٧١١م، أنظر :

- F. lot. Ch. Pfister y F. L. Ganshof, Les destinées de l'empire en Occident de 395 á 888 (Histoire du Moyen Age, de Glotz, t. I), París 1940, Páginas 233 - 253.

كما توجد قائمة بملوك القوط فى كتاب ابن خلدون :«العبر وديوان المبتدأ والخبر ...»، الجزء الرابع ص ٢٣٥، ٣٦.

٢) وكتاب «صبح الأعشى» للقلقشندى، الجزء الخامس، من ص ٢٢٨ إلى ص ٢٤٠.

2- F. lot, Les invasions barbares, París, 1937, pág. 14.

٣) عن التشريعات القوطية، أنظر :

- R. de Ureña, La legislación gótica - hispana : Estudio Crítico,Madrid, 1905, y el tomo III de esta Historia.

٤) انظر : - Ziegler, op. cit., págs. 121, 195 - 6.

٥) خصص «ميننديث بيدال» دراسة لهذه الأساطير تحت عنوان :

- Las leyendas del último Rey godo, en R. A. B. M. , T, V, VI, X, XII, XIII, XIV, XV; Madrid, 1901 - 6.

وله مقال آخر بعنوان :

- El Rey Rodrigo en la literatura, en Bol. de la Real Academia Española, 1924.

أما بالنسبة لأقاصيص وحكايات المدونات التاريخية العربية، أنظر :

- Lèvi - Provençal, La Péninsule ibérique, págs. 10-11.

٦) من المصادر العربية التى تتناول فتح أسبانيا ونشاط حكامها العرب قبل تأسيس إمارة قرطبة الأموية نشير إلى مايلى :

– «أخبار مجموعة»، من ص٢ إلى ٦٦؛ والترجمة الأسبانية من ص١٧ إلى ص ٧٠.

– ابن القوطية : «تاريخ افتتاح الأندلس»، من ص ٢ إلى ٢١؛ والترجمة الأسبانية من ١ إلى ١٦.

– ابن عبد الحكم :«فتوح مصر»، طبعة Torrey، من ٢٠٤ إلى ٢٢٥.

– ابن عذارى :«البيان ...» الجزء الثانى (من ص ٥ إلى ص ٤٩)؛ وفى الترجمة من ص ٥ إلى ص ٧٣.

– المقرى :«نفخ الطيب»، الجزء الأول من ص ١٥٦ إلى ١٧٥؛ الجزء الثانى من ص ٦ إلى ١٧.

– ابن الخطيب : «أعمال الأعلام...»، من ص ١ إلى ص ٦.

– ابن خلدون : «كتاب العبر»، الجزء الرابع من ١١٦ إلى ١٢٠.

– ابن الأبار :«الحلة السيراء»، من ٣٠ إلى ٣٢.

– ابن خلكان :«وفيات الأعيان»، الجزء الثالث، ص ٤٧٥.

– القلقشندى : «صبح الأعشى»، الجزء الخامس، من ٢٤١ إلى ٢٤٤.

– الحميرى : «الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس»

(Lèvi-Provençal, La Peninsule Ibérique, págs. 10-14).

كما يمكن الرجوع – لكن بحذر – إلى المصادر التالية :

– «فتح الأندلس»، النص العربى والترجمة الأسبانية لـ J. de González، الجزائر، ١٨٨٩.

– ابن قتيبة : «كتاب الإمامة والسياسة» (نشره وترجمه إلى الإسبانية خوليان ريبيرا فى ملحق طبعة «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية).

– القصة المنسوبة للمؤرخ ابن حبيب والتى أوردها دوزى فى Recherchés، الجزء الأول، من ص ٢٨ إلى ٣٦.

ومن المصادر اللاتينية نشير إلى مايلى :

- Dozy : Études sur la conquête de l'Espagne par les Arabes, en Recherches, pp. 1 - 83.

- E. Saavedra : Estudio sobre la invasión de los Árabes en España, Madrid, 1892.
- F. Codera : Conquista de Aragón y Cataluña por los Musulmanes, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 95 - 110.
- Fournel : Les Berbers, París, 1875, I, p. 237 y ss.
- A. Müller : Der Islam im Morgen - und Abendland, I, Berlin, 1885, pp. 421 - 33.
- Simonet : Historia de los Mozárabes, pp. 1 - 37.
- R. Dykes Shaw : The fall of the Visigothic power in Spain, en English historical Review, XXI, 1906, pp. 209 - 28.
- Barrac-Dihigo : Royaume asturien, pp. 107 - 14, 295 - 308.
- Y esta misma Historia, III (España visigoda), pp. LI - LIII, 137 - 9.

٧) تتحدث نفس المصادر العربية السابقة عن فتح المغرب، ونخص منها الفصل الذى ترجمه A. Gateau من كتاب ابن عبد الحكم تحت عنوان :

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne.

كما توجد ملخصات لفتح المغرب فى المصادر التالية :

- Fournel : Les berbers, I, págs, 231 y sigs.
- E. F. Gautier : Les siècles obscurs de Magreb, pp. 221 - 55.
- G. Marçais, en Hist. du Moyen Age de Glorz, III, pp. 206 - 7.
- G. Marçais, en L' Afrique du Mord française dans l'histoire, Lyon - París, 1937, pp. 131 - 42.

٨) عن موسى بن نصير، انظر :

- Lévi - Provençal, en la Enc. Isl., III, p. 790.

٩) عن طارق بن زياد، أنظر المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ٦٩٩، ٧٠٠.

١٠) بالإضافة إلى أعمال كل من مينندث پيدال، ساقدرا المشار إليها، أنظر :

- Dozy : Le comte Julien, en Rech., I, pp. 57 - 63.
- Codera : El llamado conde D. Julián, en Est. crit. hist. ar. es., VII, pp. 45- 94.

حاول «كوديرا» فى تلك الصفحات إثبات أن Julián كان يسمى Urbán أو Olbán، وأن الإسم الأول أطلق عليه فى نهاية القرن العاشر، وأنه ينتسب لقبيلة بربرية مغربية تدعى «غومارة» (Gumara). لكن هذه الافتراضات قد فندتها المصادر التالية:

- Saavedra, Invasión, p. 50, n. 2.

- Simonet, Hist. de los Mozárabes, p. 40 y notas 3 y 4.

- O. A. Machado, Los nombres del llamado conde Don Julián, en Cuadernos de Historia de España, Publicados por Inst. de Hist. de la Cultura española medieval y moderna de la Facultad de Filosofía y Letras de Buenos Aires, III, 1945, pp.166 y ss.

١١) انظر : - Diehl : Hist. du Moyen Age, de Glotz, III, p. 246.

وطبقا لشهادة Procopio فإن البيزنطيين عادوا إلى سبته بعد احتلال «الوندال» لها، وبنى فيها «خوستنيانو» (Justiniano) بعض التحصينات مما جعلها قلعة منيعة (أنظر : Diehl : L'Afrique byzantine, París, 1896, p. 171.(

١٢) انظر :

- A. Fernández Guerra : Don Rodrigo y la Cava, Madrid, 1877.

- J. Menéndez Pidal : Las leyendas del último Rey godo, en R. A. B. M., T, V, VI, X, XII, XIII, XIV, XV, Madrid, 1901 - 6.

وبالنسبة للحكايات العربية عن ابنة يوليان : أنظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule Ibèrique, pág. II y n. 1.

١٣) انظر : - Lévi- Provençal : La Péninsule Ibérique, p.12.

١٤) عن طريف، أنظر : - Lévi-Provençal en la Enc. Isl., IV, p. 699.

١٥) - Saavedra : Invasión, pp. 54 - 56.

٢٦) توجد أطلال هذه المدينة القديمة في مكان يدعى «روكادليو» (Rocadillo) أو «برج قرطاجنة». أنظر بصفة خاصة المصدر التالي :

- Lévi-Provençal : La Péninsule Ibèrique, p. 180 y n. 3.

١٧) ورد في «نفخ الطيب» للمقرى، الجزء الأول ص ١٦٣ (أنظر :

Lévi-Provençal : La Pénin. Ib., p. 204.) أن معركة برْباط استمرت أسبوعا (من ١٩ إلى ٢٦ يوليو، ٧١١ - ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال، ٩٢هـ) قبل أن تنتهى بهزيمة لذريق. وفى المعركة أسر المسلمون قوطا ينتسبون لجميع الطبقات الاجتماعية : نبلاء وعامة وعبيد، وقد أمكن التعرف عليهم وتمييزهم بالخواتم التى كانوا يضعونها فى أصابعهم : فخواتم النبلاء كانت من الذهب، وخواتم العامة من الفضة، أما العبيد فكانت خواتمهم من النحاس.

١٨) يرى المؤرخون الأسبان المعاصرون أن مسمى «وادى بكّة» (WADI BAKKA) أو «وادى لِكّة» (WADI LAKKO) الذى أطلقه المؤرخون والجغرافيون العرب على نهر بَرْباط يتناسب أكثر مع نهر

(GUADALETE) الأكثـر أهميـة وطولا والذى يمر بالقـرب من شَـريش (JEREZ). ومن هنا ينبع تضارب الأقوال فى تحديد مكان لقاء لذريق بطارق. وبهذا الخصوص نلفت النظر للمراجع التالية :

- Saavedra, Invasión, págs. 68 y sigs.

- J. y M. Oliver Hurtado : De la batalla de Vejer o del Lago de la Janda, Comúnmente llamada del Guadalete (Revista de España, IX, 1869, pp. 5-20).

- M. Manche~õ y Olivares :La batalla del Barbate, Arcos de la Frontera, 1899.

- S. de la Rosa y López : El lugar en que se dió la batalla del Guadalete, Sevilla, 1911.

١٩) عن مغيث هذا، أنظر: «نفخ الطيب» للمقرى، الجزء الثانى، من ص ٦ إلى ص ٨.

٢٠) انظر : - Lévi-Provençal : La Péninsule Ibèrique, pp. 158 - 60.

٢١) المرجع السابق، من ص ٢١٠ إلى ص ٢١٣.

٢٢) انظر : - Saavedra, Invasión, pp. 99-101.

- C. Sànchez-Albornoz : Dónde y cuándo murió Don Rodrigo, Último rey de los godos, en Cuadernos de Historia de España, publicadas por el Inst. de Hist. de la Cultura española medieval y moderna de la Facultad de Filosofía y Letras de Buenos Aires. II, 1945, p. 5 y sigs.

٢٣) انظر، للتعرف على عملات المسلمين القديمة، على المصادر التالية :

- H. Lavoix : Catalogue des monnaies musulmanes de (la Bibliothèque Nationale, Califes orientaux, p. XXXVII, y Espagne et Afrique, pp XIV - XVI).

- Al-Andalus (Unos datos y una pregunta), en Al-And., IV, 1936, p. 207, número 2. Cf. para Ifriqiya.

٢٤) هو ابن الكونت «قاسى» (QASI)، الذى ستنسب إليه بعد ذلك عائلة «بنو قاسى». وسنعود لتاريخ هذه العائلة عند حديثنا عن إمارة قرطبة الأموية.

٢٥) انظر :

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominación musulmana, en Est. Crit. hist. àr. esp. (VIII), p. 293.

- Soldevila : Hist. de Catalunya, I, p. 28.

٢٦) أنظر :

- Gaspar Remiro : Hist. de Murcia musulmana, pp. 11 - 27.

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xsiècle, p. 33 y n. I.

: La Péninsule ibèrique, pp. 78 - 9.

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. 52 - 7.

٢٧) بالإضافة إلى المراجع العربية المذكورة فى الهامش رقم ٦ نذكر مايلى :

- Simonet : Hist de los Mozárabes, pp. 134 - 236.

- Lafuente y Alcàntara : Cronología de los gobernadores de España, apènd. a su edición del Ajbar machmua, pp. 240 - 42.

- S. Vila : El nombramiento de los walíes de al-Andalůs, en Al-Andalus, IV, 1936, pp. 215-20.

- F. Cabrieli : Il califato di Hisham : Studi di storia omayyade, en Mém. de la Soc. Royale d'Archéologie d' Alexandríe, VII, 2, Alejandría,1935, pp. 104-19.

٢٨) يمكن الاطلاع على عرض مجمل لتلك الصراعات فى المصدر التالى :

- A. Fischer : Enc. Isl., II, pp. 692 - 8.

٢٩) نتبع فى ترتيب حكام أسبانيا العرب المصدر التالى :

- Lafuente Alcántara : op. cit., pp. 240 - 2.

٣٠) كان عبد الرحمن الغافقى تابعيا مشهورا بدماثة الخلق، وقبل أن يصبح حاكما رسميا على أسبانيا سبق له حكمها لمدة شهرين بعد مقتل السمح بن مالك عام ٧٢١ (١٠٢هـ). وقد أورد «الضبّى» فى كتابه «بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس» ترجمته.

٣١) عن «ميسرة»، انظر :

- Lévi - Provençal : Enc. Isl., III, pp. 163 - 4.

٣٢) عن تمرد بربر شمال أفريقيا، انظر :

- Fournel : Les Berbers, I, Passim.

- Gautier : Les siécles obscurs du Magreb, págs. 260 sigs.

- G. Marcais : Hist. du Moyen Age de Glotz, III, pp. 341 - 3.

- Gabrieli : Il califfato di Hisham, pp. 92 - 103.

- Lévi - Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, pp. 10-14.

٣٣) يمكن العثور فى المصدر التالى على تفاصيل هذه الأحداث :

- Gabrieli : Il califfato di Hisham, pp. 114 - 7.

٣٤) طبقا للمعلومات التى أوردها ابن حيان وضمنها ابن الخطيب كتابه «الإحاطة فى أخبار غرناطة» (طبعة القاهرة، الجزء الأول، ص ١٨، ١٩)، ولما جاء في كتاب «دوزى» (Rech3., I, pp. 79-80) وكتاب «سيمونيت» (Hist. de los Mozárabes, p. III y 197 -8)، فإن اتخاذ أبى الخطّار لهذا القرار قد جاء بناء على نصيحة «أردابستو» (Ardabasto)، ابن غيطشة، الذى كان يدير – فى ذلك الوقت – شئون الذميين في أسبانيا ويجمع منهم الجزية.

٣٥) عن الصميل بن حاتم، انظر :

- Lévi - Provençal : Enc. Isl., IV, pp. 575 - 6.

٣٦) لمعرفة المزيد عن هجرة البربر هذه، انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, pp. 14.

٣٧) جمع Lafuente Alcántara المصادر التى تتناول مباشرة الحملات الإسلامية فى بلاد الغال فى «الملحق» الذى أضافه لطبعة «أخبار مجموعة»، ومنها نذكر :

- M. Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, et de France en Savoie, en Pièmont et dans la Suisse, pendant les 8º-, 9º-, et 10º- siècles de norte ère, París, 1836.
- A. Moliné y H. Zotenberg : Invasion des Sarrazins dans le Languedoc d' après les historiens mussulmans, en Hist. génér. du languedoc de Devic y Vaissete, Toulouse, 1872, II, pp. 549 - 58.
- Codera : Limites probables de la conquista árabe en la cordillera pirenaica, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VIII) ; pp. 235 - 76.
- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominación musulmana, ibid, pp. 277 - 341.
- Codera : La dominacioón arábiga en la Frontera superior y en la Galia meridional, años 711 a 815 (discurso de recepción en la R. Acad. de la Historia), ibid, pp. 97 - 188.
- H. Pirenne : Mahomet et Charlemagne, Paris, Bruxelles, 1937, pp. 1350-6, 184-5.
- J. Calmette : L'effondremet d'un empire et la naissance d'une Europe, París, 1941, pp. 114 - 6.

٣٨) انظر «نفخ الطيب» للمقرى، الجزء الأول، ص ١٧٣.

٣٩) كان المسلمون يطلقون فى العصور الوسطي مسمى «الأرض الكبيرة» على أوربا. انظر، على سبيل المثال:

- Lévi - Provençal : La Peninsule ibèrique, p. 34.

كما سنجد فى الصفحتين ٣٢، ٣٣ من نفس المصدر فقرات شيقة للجغرافى الأندلسى «البكرى» عن فرنسا (بلاد الإفرنجة).

٤٠) انظر، على وجه الخصوص :

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona, op. cit., pp. 366 - 8.

وطبقا لابن عذارى فى كتابه «البيان ...»، الجزء الثالث (ص ٢٥ فى النص الأصلى، ص ٣٦ فى الترجمة) فإن السمح استشهد فى معركة مع المسيحيين عند «طُرْسونة» (Tarazona) جنوب «تُطيلة» (Tudela) بإقليم «رغون» (Aragón).

٤١) يمكن الاطلاع على حوليات «مويساك» (Crónica de Moissac) فى المراجع الثلاثة التالية:

- Monumenta geramaniae histórica, Scriptores, T. I y II de la ed. Pertz ; Recueil historiens de Gaules et de la France, tomo V de la ed. Bouquet ; y en la Patrología latina de Migne, T. XCVIII.

٤٢) كتب الكثيرون بعد «رينود» عن معركة «بواتيه»، وسنقتصر فقط على الإشارة إلى الأعمال التى قامت بالدراسة المقارنة بين المصادر العربية واللاتينية، وهي :

- Codera : op. cit. (VIII), pp. 512 - 9.

- Gabrieli : Il Califfato di Hisham, pp. 108 - 11.

- Lecointre : La bataille de Poitiers, en Bulletin Soc. Antiquaires de l'ouest, 1924.

كما نشير إلى مصدر آخر حديث، لكنه غير ذات قيمة كبيرة، وهو :

- M. Mercier y A. Séguin : La bataille de Poitiers (optiques interne et externe de l'Europe), en Revue Africaine, T. LXXXVII, 1943, pp. 33 - 92.

٤٣) يشير كل من Conde ; Reinaud ; Dozy y de Juargain (La Vasconie, París, 1898-1902) إلى صدق الحكاية التى تقول أن دوق «أكيتانيا» («يودو» أو «إودس») قد زوج ابنته «لامبيخيا» (LAMPEGIA) للزعيم البربرى «منوصة» (MUNUZA) المتمرد على حكم قرطبة؛ وأن حاكم قرطبة قضى على تمرده وقتله وأرسل زوجته (لامبيخيا) إلى خليفة المسلمين في دمشق.

وفى مقابل هذا، حاول Codera فى كتابه : (Munuza y el duque Eddón, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 140-169) إظهار الطابع الأسطورى لتلك الحكاية، وساق دليلا – غير متوقع – مفاده أن إسم «منوصه» هذا ليس إلا تحريف لإسم علم جغرافى يمكن أن يكون المقصود به – طبقا لرأيه – مايسمى حاليا بـ «منريصة» (MUNUZA). ومن غير المناسب الانسياق وراء افتراضات «كوديرا» حتى النهاية لأن اسم هذا الزعيم البربرى قد جاء ذكره فى كتاب ابن عذارى «البيان ...» (الجزء الثانى، ص ٢٧ فى الأصل، ص ٣٨ فى الترجمة) وفى كتاب المقرى «نفخ الطيب» (الجزء الأول، ص ١٤٥) بمناسبة المعركة التى واجه فيها حاكم أسبانيا (الهيثم بن عبيد الكنانى) عام ٧٢٩.

وفى كتاب (J. Calmette : L' effondrement d'un empire, pág. 114) لم ينكر المؤلف قيام تحالف بين دوق أكيتانيا (يودو) وبين زعيم بربرى متمرد، لكنه أسماه «عثمان». ويضيف المؤلف قائلا أن

البلاط الفرنسى ألصق صفة الخيانة بدوق «أكيتانيا» لموافقته على زواج ابنته من الزعيم البربرى، وأن الأسطورة «حولت «لامبيخيا» إلى ضحية وألصقت بها العديد من النكبات والمحن، وأصبحت فيما بعد مادة ثرية ينهل منها الأدب شعرا ونثرا».

ولمعرفة المزيد عن شخصية الكونت «يودو» انظر المرجع التالى :

- J. F. Bladé : Eudes, duc d'Aquitaine, en Annales du Midi, 1892.

٤٤) انظر :

- Annales del Pseudo-Fregedario (reproducido y traducido hace poco por J. Calmette y J. J. Gruber : Textes et documents d'histoire, II, Moyen âge, París, 1937, pp. 20-21).

- Codera : en Est. Crit. hist. ár. esp. (VIII), pp. 319-27.

- F. Lot : Les invasions barbares, pp. 79 - 80.

٤٥) تُرجع مدونة «مويساك» (Crónica de Moissac, ed. Pertz, I, pág. 294) تاريخ استرداد «بيبينو البريبى» لأربونة لعام ٧٥٩م.

ومع هذا فعلينا تقديم هذا التاريخ لعام ٧٥١م أو ٧٥٢م إذا أخذنا فى الاعتبار الخبر الذى ذكره مؤرخ أندلسى (الرازى، دون شك) وأورده كل من «المسعودى» فى كتابه «مروج الذهب» (طبعة باريس، الجزء الأول، ص ٣٦٣- ٣٦٤)، والمقرى فى «نفخ الطيب» (الجزء الثانى، ص ٦٧٢)، وعبد المنعم الحميرى فى «الروض المعطار» (Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, pp. 16-17)؛ وهذا الخبر يُرجع سقوط أربونة لعام ١٣٣هـ.

والتاريخ الهجرى المذكور يقربنا كثيرا من عام ٧٥٢م، وهو التاريخ الذى حددته حوليات «ميتز» (METZ) لاسترداد أربونة :

(T. I, p. 331, de la ed. Pertz de los Monumenta Germaniae historica, Script.).

٤٦)إلى أن يصدر العمل الذى أعلن عنه العلامة الأسبانى «سانتشث ألبورنوس» (Sánchez Albornoz)، سيظل العمل التالى هو الأفضل فى التعريف بشخصية «بلايو» :

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 114 - 36 y 308 -20.

فقد أورد هذا العمل كل النصوص – العربية واللاتينية – المتصلة بتمرد «بلايو»، كما درس كل الافتراضات التى تناولت هذه الحركة.

ويمكن أيضا الاطلاع فى هذا الشأن على مايلى :

- Saavedra : Pelayo, Madrid, 1900.

- Z. García Villada : Covadonga en la tradición y en la leyenda, Madrid, 1922.

٤٧) انظر «نفح الطيب» للمقرى، الجزء الثانى، ص ٩، ١٠.

٤٨) - Barrau - Dihigo : Royaume asturien, p. 136.

ويمكن معرفة المزيد عن فترة حكم ألفونسو الأول من المصدر التالي :

- Dozy : Rech3., I, pags. 116 sigs.

٤٩) شرحنا فى مكان آخر مايقصده مسلمى أسبانيا بتعبير «ألبة والقلاع» (Alava y los Castillos). أما بالنسبة لمسمى «بوريبا» (Bureba) فيقول ر. مينندث پيدال (R. Menéndez Pidal) فى كتابه : (La leyenda de los infantes de lara, p. 177) أن عرب أسبانيا كانوا يقصدون بها «إقليما كبيرا يبدأ من جبل «أونيا» (OÑA) وينتهى بعد منتصف مجرى نهر «أوكا» (OCA)؛ ويقع هذا الاقليم فيما يسمى حاليا بمحافظة «برغش» «Burgos».

٥٠) طبقا لمصدر عربى اعتمد عليه ابن خلدون («العبر»، الجزء الرابع، ص ١٢٢)، وأورده «المقرى» كذلك فى «نفح الطيب» (الجزء الأول، ص ٢٢٣) فإن فرويلا الأول (Fruela I) – وليس والده ألفونسو الأول – هو الذى أستولى على كل هذه الثغور.

٥١) انظر :

- W. Marçais : Le passé de l'Algérie musulmane, en Histoire et historiens de l'Algérie, París, 1931, pp. 141 - 2.

٥٢) العرض المجمل التالى نجده بتوسع فى المصدر التالى :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. Xº- siécle, cap. I, pp. 18 - 39.

أما بالنسبة لدخول سكان شبه الجزيرة الإسلام خلال سنوات الفتح الدولى، فلا يزال المصدر التالى هو العمدة فى هذه المسألة :

- T. W. Arnold : The preaching of Islam : a history of the propagation of the muslim faith, 3a- ed., Londres, 1935, pp. 130-44.

٥٣) عن أفريقيا ومنطقتها وحدودها، انظر :

- R. Brunschvig : La Berbérie orientale sous les Hafsides, I, p. I.

وعن مفهوم Hispania فى أسبانيا المسيحية خلال العصور الوسطى، انظر :

- R. Menéndez Pidal : España del Cid, pp. 72 - 3.

٥٤) عن اشتقاق كلمة Ishbaniya، انظر :

- Lévi - Provençal : La Péninsule ibérique, pp. 4, 8-9.

٥٥) انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. Xº- siécle, p. 5, y nota I.

٥٦) انظر :

- I. de Las Cagigas : Al - Andalus (unos datos y una pregunta), en Al-Andalus, IV, 1936, pp. 205 sigs.

٥٧) انظر، على وجه الخصوص، المقال التالى :

- "Ahl al-Kitab" de I. Goldziher, en la Enc. Isl., I, pp. 188-9.

٥٨) انظر : - Lévi - Provençal : Esp. mus. Xº- siécle, pp. 32-33.

نعتقد أن تحول الأسبان للإسلام قد استمر – برغم إيقاعه السريع – لبضعة عقود بعد الفتح.

٥٩) - Levi - Provençal : Esp. mus. Xº- siécle, cap. I, pp. 18-19.

- G. Cirot : Index onomastique et geographique de la "Chronique léonaise", en Bull. Hisp., XXXVI, 1934, p. 417, sub Mollitis.

٦٠) انظر المرجعين التاليين لمعرفة المزيد عن هذا الاصطلاح (المستعربون) :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. XI-XIII.

- R. Menendez Pidal : Orígenes del espñol, 2a- ed., Madrid, 1929, p. 434, nota I.

٦١) إذا أخذنا فى الاعتبار ماجاء فى (Vocabulista in arabico)،

(ed. de Schiaparelli, Florenca, 1871, pp. 190 y 613, S, V Tributarius)

فإن علينا أن نقرأ المعاهِدين (بكسر الهاء – إسم الفاعل) بدلا من قراءتها بفتح الهاء (كإسم مفعول). والمعنى يختلف في الحالتين : ففى الحالة الأولى (أى بكسر الهاء) يكون المراد «من أبرم اتفاقا يخول له عددا من الحقوق وعددا آخر من الواجبات»؛ أما المعاهَد (بفتح الهاء) فيعنى : «المقيَّد بعهد أو اتفاق».

٦٢) انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. Xº- siécle, pp. 211-2.

- N. Ocaña Jiménez : La Basílica de San Vicente y la gran Mezquita de Cárdoba, en Al-Andalus, VII, 1942, pp. 347 sigs.

٦٣) عن يهود أسبانيا القوطية، انظر :

- J. Juster: La condition légale des Juits sous les rois visigoths, en Études d' histoires juridique offertes á P. F. Girard, vol. II, París, 1913, pp. 273 - 335.

- J. M. Millás Vallicrosa : La poesía sagrada hebraicoespañola, Madrid, 1940, pp. 20-2.

- M. Torres : en esta Historia, III, pp. 179 - 84.

٦٤) عن عرب أسبانيا «الداخلين»، انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. Xº- siécle, pp. 18 sigs.

- M. Gaudifroy - Demombynes : Le monde byzantine et musulman jusqu' aux Croisades, p. 149.

٦٥) انظر المرجع السابق لـ (M. Gaudifroy)، ص ٣١.

٦٦) لمزيد من التفاصيل، راجع :

- Lévi - Provençal : Op. Cit., pp. 23 - 28.

والبحث التالى يتناول أماكن إقامة البربر فى أسبانيا، ويبين الأعلام الجغرافية الحالية (سواء الأسبانية أو البرتغالية) المشتقة من أسماء القبائل البربرية :

- C. E. Dubler : Über Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel, en Sach. Ort und Wort, Festchrift Jakob Jud, Romanica Helvetica, Band, 20 (1943), pp. 183-96.

كما يوجد تعليق على البحث السابق قام به (J. Oliver Asín) ونشر فى مجلة «الأندلس» (VIII, 1943, PP. 262-7.)

٦٧) سنعرف فيما بعد، أن مجموعات من المرتزقة البربر كانت تفد باستمرار – منذ عهد عبد الرحمن الأول – للخدمة فى الميشليات الأموية. وهؤلاء البربر المرتزقة كانوا مجلوبين إما من شمال المغرب، أو (بالرغم من الافتقار إلى برهان قاطع يثبت هذا) من مناطق نفوذ الأئمة الرستميين فى «تاهارت» (TAHART).

٦٨) لم يسجل التاريخ تجدد الصراع العنصرى القديم بين البربر على أرض أسبانيا إلا فى عهد الأمير «عبد الله». ففى عهد هذا الأمير اندلع الصراع بين البربر «البتر» (Butr) وبين البربر «البرانس» (Baranis).

[راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب].



الفصل الثانى

تأسيس إمارة قرطبة الأموية وأمراؤها الأول

(٧٥٦ - ٨٢٢ م)

عناوين الفصل الثانى :

١- رحلة عبد الرحمن بن معاوية فى الشرق وشمال أفريقيا، وتنصيبه حاكما على أسبانيا :

سقوط الخلافة الأموية ومطاردة الأمويين فى المشرق - مع عبد الرحمن فى رحلته من المشرق لأسبانيا (٧٥٠ - ٧٥٥م) - عبد الرحمن فى أسبانيا قبل توليه أمرها (٧٥٥ - ٧٥٦م).

٢- عهد عبد الرحمن الأول، وتأسيس الإمارة الأموية (٧٥٦ - ٧٨٨م) :

سياسة الاستمالة والصعوبات الأولى - الصراع مع متمردى الأندلس - العلاقات بين إمارة قرطبة ومملكة أشتوريش فى عهد عبد الرحمن الأول - حملات شرلمان على أسبانيا، دواعيها ونتائجها - إرساء عبد الرحمن لأسس الدولة القرطبية.

٣- هشام الأول، الحكم الأول (٧٨٨ - ٨٢٢م) وتثبيت دعائم الحكم الأموى فى الأندلس:

الجهاد ضد أشتوريش والفرنجة خلال عهد هشام الأول - المذهب المالكى فى أسبانيا - الحكم الأول وقمع حركات التمرد فى الثغور الحدودية - ثورات قرطبة - الصراع مع أشتوريش فى عهد الحكم الأول - الهجمات الفرنجية على برشلونة وطرطوشة - شخصية الحكم الأول وأعماله.

- رحلة عبد الرحمن بن معاوية الطويلة والمدهشة في الشرق وشمال أفريقيا، وتنصيبه حاكما على أسبانيا (٧٥٠-٧٥٦)(١)

سقوط الخلافة الأموية ومطاردة الأمويين في الشرق :

كان للأحداث التي جرت في الشرق في منتصف القرن الثامن أثرها في زيادة وهن روابط التبعية التي تربط الأندلس بخلافة دمشق العربية.

لايخصنا هنا سرد تفاصيل النكبات التي أدت إلى الضعف المتنامي لسلطة الأمويين في دمشق وإلى سقوطها الذريع وقيام الخلافة العباسية على أنقاضها؛ ومن ثمّ سنكتفي بالتذكير بالمراحل الحاسمة لهذا الضعف مع الاحالة إلى الدراسات المتخصصة في رصد تلك الفترة التي تعتبر بمثابة التحول الأساسي في دفة سير تاريخ الامبراطورية العربية(٢).

أشرنا من قبل إلى أن «حركة الخوارج» التي ظهرت في القرن السابع سرعان ماتحولت من مجرد حملة تشهير بالأمويين في الشرق إلى تمرد نشيط ضدهم. ومن جهة ثانية، فإن الشيعة لم يسرها استشهاد صهر الرسول على بن أبي طالب، وبعد مقتل الحسين في كربلاء عام ٦٨٠م (٦١هـ) أعلنت مواجهتها السافرة لدمشق وساندت - بعد قليل - عبد الله بن الزبير في ثورته على الخلافة الأموية.

وبهذا الشكل دخلت الإسلام الفُرقة التي تهدد وحدة عالمه، وأصبح المشايعون لعلي بن أبي طالب على استعداد للانضمام دون قيد أو شرط لأي حركة عصيان تندلع في أي ركن من أركان العالم الإسلامي.

كان أمر مواجهة الخوارج والشيعة في آن واحد والتصدي للحركات الانفصالية المحلية وللشعوبية الفارسية يتطلب خلفاء أقوياء نشطين وعلى وعي تام بحجم المخاطر التي تحدق بسلالتهم الحاكمة. توافرت هذه الصفات في مروان الأول (٦٨٤ - ٦٨٥م) وابنه عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥م) وحفيده الوليد (٧٠٥ - ٧١٥م)، لكن الخلفاء الذين أتوا بعدهم لم يظهروا قدرتهم على التصدي لتلك المهمة الثقيلة. فمعظم هؤلاء كان شغله الشاغل إشباع رغبته في التمتع بالملذات وتكديس الأموال التي لجأوا في جمعها لسياسة ضرائبية ظالمة أدّت في النهاية إلى إنحسار شعبيتهم وكراهية الناس لهم. ولم يرد هؤلاء الخلفاء - أو لم يستطيعوا - تضييق الهوّة التي تفصل بينهم وبين رعاياهم وتزداد يوما بعد أخر.

كان غالبية الرعايا من المسلمين الجدد الغرباء على الجنس العربي، وضايقتهم حذلقة أمرائهم المجوجة في دين دخلوه بإرادتهم. كما أخذوا عليهم احتكارهم للخلافة، وإيثارهم غير المحدود للعرب دون مراعاة للشعوب الأخرى. ومن الغريب أن هذا الإيثار الذى ضاق به المسلمون الجدد لم يعجب العرب أنفسهم عندما كان يخص به إحدى العشيرتين المتصارعتين (القيسية والكلبية) دون العشيرة الأخرى، ولم يدر بخلد خلفاء بنى أمية انتهاج سياسة منصفة ومتوازنة بينهما.

وفي ظل هذه الأوضاع، لم يكد ينتصف القرن الثامن حتى وصل غليان النفوس إلى أقصى مداه ودانت قطوفه. فها هى نيران التمرد التى اندلعت هنا وهناك فى معظم أرجاء الامبراطورية العربية تقريبا تمسك بتلابيب سورية ذاتها. وبعد المدة القصيرة لحكم الوليد الثانى (الذى اغتيل فى ٧٤٤م – ١٢٦هـ) نشبت حرب ضروس فى كل المحافظات السورية. وتفاقمت الأوضاع فى العهد الأشد قصرا ليزيد الثالث. وبعد قليل استطاع مروان الثانى (آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق) أن يسترد دمشق ويتوج فيها. لكن قدره كان ينتظره بمهمة جسيمة تفوق طاقة البشر : استرداد سورية أولا، وجنوب العراق بخوارجه الغلاة، ومحاولة التصدى للانقلاب المسلح الشامل الذى دبرته الشيعة فى خراسان وباقى المحافظات الواقعة على الجانب الآخر لنهر دجلة. وسرعان ما أحس مروان الثانى بعجزه التام. فقد انتفضت خراسان بكاملها تلبية لدعوة أبى مسلم (الخراسانى) وتساقطت على الغرب جيوش ضخمة مدربة شاكية السلاح فى انتظار قدوم «الإمام الغائب» الذى سيعيد للإسلام – طبقا لقولهم – مجده ونقاءه ويستأصل شأفة الأمويين البغضاء. وفى ٢ سبتمبر ٧٤٩ (١٤ محرم ١٣٢هـ) سقطت مدينة الكوفة العراقية فى أيدى المتمردين، وبعد أقل من ثلاثة أشهر كشف أبو العباس عبد الله (حفيد عبد الله بن العباس) عن شخصيته بصفته الإمام المنتظر، وتمت مبايعته خليفة للمسلمين فى مسجد الكوفة الجامع. كان أبو العباس قد رفع من قبل الراية السوداء فى خراسان وجعلها شعارا لدعوته، وبعد مبايعته بالخلافة بادر بإعلان برنامجه من على المنبر وكل مافيه من بنود يجعله أهلا للقب «السفاح» الذى ألصق به.

لم يضع أبو العباس الوقت وسار بجيوش الشيعة إلى سورية. حاول مروان الثانى – دون جدوى – وقف تقدمه عند تخوم العراق الصحراوية، لكن الخليفة الأموى تجرع كأس الهزيمة على ضفاف نهر «الزاب» (فى يناير ٧٥٠م – جمادى الثانى ١٣٢هـ) واضطر إلى الفرار والبحث عن مكان يختفى فيه. طاردته قوات الشيعة من

سورية إلى فلسطين ثم إلى مصر حيث ظفروا به عند قرية «بوصير» على مقربة من الجيزة (فى ٧ يوليو ٧٥٠م – ٢٧ ذو الحجة ١٣٢هـ) وقتلوه والسلاح فى يده.

ولم ينتظر الخليفة العباسى المنتصر الظفر بمروان الثانى لكى يعد العدة لاصطياد أمراء بني أمية الباقين. فمن عُثر عليه منهم فى أى مكان قُتل فى الحال وتُرك فى العراء دون دفن.

ولكي يوقع دون عناء بأكبر عدد ممكن من أفراد أسرة آخر خلفاء بنى أمية أعلن الأمان الكاذب لهم، ولما التقطوا الطعم وتجمعوا فى دير الجماجم (بفلسطين) قتلهم جميعا. راح فى هذه المذبحة، التى جرت قبل عدة أسابيع من النهاية البشعة لمروان الثاني، اثنان وسبعون أو ثمانون رجلا من البيت الأموى.

لم تكتب النجاة من مذبحة دير الجماجم إلا لعبد الرحمن بن معاوية وأخيه يحيى (حفيدى الخليفة هشام بن عبد الملك) لأنهما كانا أكثر حذرا من الآخرين وساورهما الشك فى أمر الأمان المزعوم ولم يحضرا إلى مكان المجزرة. وعبد الرحمن هذا هو الذى سيؤسس الحكم الأموى فى أسبانيا، وسنتابع فى العنوان التالى رحلته المثيرة من الشرق حتى نزوله بأرض شبه جزيرة أيبيريا.

مع عبد الرحمن فى رحلته من المشرق حتى أسبانيا (٧٥٠ – ٧٧٥م) :

ولد عبد الرحمن بن معاوية فى قصر بإحدى ضواحي دمشق[٣] عام ٧٣١م (١١٣هـ)، ولم يكن قد أتم العشرين ربيعا عندما اندلعت هذه الأحداث. كانت أمه أسيرة بربرية من قبيلة «نفزة» المغربية؛ وهذا يفسر لحد ما سر توجهه القريب إلى الغرب الإسلامى.

اختبأ عبد الرحمن وأخوه يحيى بعد مذبحة دير الجماجم، لكن يحيى قتل واستطاع عبد الرحمن الفرار بأختيه[٤] وأخ صغير وابنه سليمان (ذو الأربع سنوات) إلى قرية منعزلة على شاطئ نهر الفرات على أمل الهجرة إلى آسيا. لكن جنود العباسيين اكتشفوهم من جديد، ومرة أخرى حالف الحظ عبد الرحمن فى الفرار بعد أن عبر الفرات سباحة تاركا بين أمواجه أخاه الصغير الذى أدركته سهام العباسيين.

ومنذ هذه اللحظة يبدأ تدخل المولى «بدر» الذى ربط مصيره بمصير سيده الشاب وتفانى بلا حدود فى خدمته. وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أنه بجوار كل

مؤسسى الممالك فى المغرب الإسلامى يظهر دائما «خادم أمين يدير الأحداث ويعين المغامرين والأمراء المخلوعين فى بحثهم عن مملكة أو إمارة»(٥).

وسنشهد بعد ثلاثين سنة أمرا مشابها عندما تفانى المولى «رشيد» فى خدمة سيده «إدريس الأول» وأعانه بنجاح فى تحقيق طموحاته بتكوين إمارة بالمغرب.

حمل «بدر» بعضا من ثروة الهارب (أحجار كريمة وأموال) والتقى معه فى فلسطين وبصحبته مولى آخر يدعى «سليم»، لكن الأخير ترك عبد الرحمن بعد ذلك وعاد إلى سورية.

ومن فلسطين حث الثلاثة رواحلهم فى الطريق المتجه إلى أفريقيا عبر برزخ السويس، ووصلوا إلى غايتهم دون صعوبة تذكر. كانت تلك المنطقة - فى ذلك الحين - تابعة لسلطة عربى فهرىّ داعبه الأمل ذات يوم فى تولى حكم أسبانيا، ولما أخفق فى تحقيق حلمه عوضه القدر بحكم شمال أفريقيا : ونعنى به عبد الرحمن بن حبيب(٦)، قريب يوسف الفهرى والى الأندلس. وكان قد وصل إلى أفريقيا قبل عبد الرحمن بن معاوية عدد آخر من الأمويين الذين استطاعوا الفرار أيضا من النقمة العباسية.

ولأن عبد الرحمن بن حبيب - بالرغم من إعلان عصيانه للعباسيين - كان يفكر فى الاستفادة من تغيير النظام وتحويل محافظته إلى إمارة مستقلة، فإن القلق أخذ يساوره مع وصول هؤلاء الفارين إلى أرضه.

وعندما عرف الشاب المروانى المنفى بنوايا والى أفريقيا السيئة تجاهه، فكر فى الابتعاد عنه والاستقرار فى الأراضى البربرية التى تنتسب إليها والدته لو وافقت تلك القبائل على إجارته.

أمضى عبد الرحمن أربع سنوات كاملة فى تلك التنقلات، عاش فيها عيشة بائسة وغير آمنة. كانت هناك نبوءة(٧) تفيد بوصول الأمير الشاب يوما ما إلى العرش. وبالرغم من معرفة عبد الرحمن بفحوى هذه النبوءة إلا أنه بدأ ييأس من تحقيقها، لكن مولاه «بدر» كان يبث فيه دائما روح الأمل ويستحثه على الصبر فى انتظار الأيام الواعدة.

يختلف المؤرخون العرب فى تحديد الأقاليم التى نزل بها عبد الرحمن فى رحلته الطويلة المضنية بشمال أفريقيا. يقول البعض أنه استقر فترة طويلة فى برقة (ليبيا، حاليا)، ثم غادرها وبحث عن ملجأ أخر فى أفريقيا الوسطى حيث عاش لبعض الوقت فى «تاهرت» (TAHART) [أو - على الأرجح - بقرية فى هذا الإقليم لأن مدينة

«تاهرت» كانت مجرد أطلال خلال تلك الفترة ولم تشيد من جديد إلا عام ٧٧٧ – ٧٧٨م (١٦١هـ) على يد المولى الفارسي «عبد الرحمن بن رستم» الذى جعلها عاصمة لمملكة صغيرة للخوارج].

على أية حال، فقد كان حلول الأمير الأموى الشاب الباحث عن المغامرة بأى أرض يثير بسرعة قلق وشكوك مضيفيه. ولهذا السبب قام عبد الرحمن بالتوغل ناحية الغرب حيث لجأ لقبيلة «مكناسة» – المستقرة في المنطقة الواقعة بين «ملُوية» (MULUYA) والمصب الشرقى لمر «تازا» (TAZA) –؛ وبعد ذلك حملته أقدار حياته الهائمة للساحل المغربى على البحر المتوسط، بالقرب من مدينة ساحلية صغيرة تسمى «نَكُور» (NAKUR) للعيش فى قبيلة «نفزة» التى تنتسب إليها أمه.

ليس لدينا أى دليل على أن عبد الرحمن فكر فى الانتقال إلى أسبانيا قبل استقراره بين أهالى «نفزة». وعلى خلاف هذا، فمن المحتمل أنه كان يفضل تجربة حظه فى المغرب ذاته لو أعانته الظروف على تحقيق هذه التجربة؛ لكن تأخر الحظ فى الابتسام له وإحساسه بعدم جدوى الحيل والجهود التى سيقوم بها جعلاه يغض الطرف عن بلاد البربر التى يضيع فيها وقته، وعندها لم يجد مخرجا سوى التفكير فى أسبانيا القريبة. وشجعه أيضا على المضى قدما فى فكرته تواجد عدد لابأس به من موالى بنى أمية (حوالى خمسمائة من سلاح الفرسان السورى) على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق. وهؤلاء «الجند» كانوا ضمن القوات السورية التى حُوصرت فى سبتة وعبرت المضيق تحت قيادة بلج القشيرى لمساعدة حاكم أسبانيا فى إخماد ثورة البربر، ثم وُزِّعوا بعد ذلك على إقطاعيات أو كُوَر عسكرية. ولأن هؤلاء الخمسمائة كانوا مجندين أساسا من مدينتى دمشق وقنسرين فقد نزلوا جميعا فى كورة «جيان»، و«إلبيرة».

ومن البديهى أن يتجه عبد الرحمن إلى تلك الأرض الممهدة التى يمثلها هؤلاء «الجند» لكى يستطلع الرأى فى مشروعه، ولم ينس، فى ذات الوقت، إغراءهم بالمكافآت السخية والمناصب الرفيعة لو مكنوه من تولى أمر الأندلس.

وبالطبع كان «بدر» هو المكلف بجس نبض هؤلاء الموالى وإبلاغهم رسالة سيده. ومن أجل هذه المهمة عبر المضيق فى يونيو ٧٥٤م (١٣٦هـ) واتصل على الفور برؤساء جند دمشق الموالين لبنى أمية.

استمع عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد لعرض بدر باهتمام بالغ، وقررا إحاطة زعيم جند قنسرين (يوسف بن بخت) بالأمر. أعرب ثلاثتهم لبدر – من منطلق

وعيهم التام بما يقتضيه واجب الموالاة للأمير المنفى - عن رغبتهم فى تنفيذ طلبه؛ لكنهم رأوا - قبل الإقدام على تمهيد الطريق لعبد الرحمن ودعوته للانضمام إليهم - ضرورة استشارة الزعيم القيسي والسياسى الداهية «الصميل بن حاتم» الذى يدين بالكثير أيضا لبنى أمية. فى ذلك الوقت كان الصميل حاكما على سرقسطه وكانت مدينته محاصرة بقوات العرب الكلبيين وبربر شمال غرب أسبانيا. ولهذا السبب انخرط وفد من الموالى الأمويين ومعهم بدر فى صفوف الجيش القيسى الذى خف لنجدة حاكم سرقسطة؛ فقد أرادوا أن يساعدوا فى فك الحصار وتحين الفرصة لإبلاغ الصميل بتواجد عبد الرحمن فى المغرب، ومعرفة رأيه فى إمكانيات نجاح الأمير الشاب على أرض أسبانيا.

بعد فك الحصار عن سرقسطة، استقبل الصميل الموالى الأمويين بحفاوة بالغة، لكنه لم يعطهم جوابا شافيا. [كان الصميل، بالفعل، لغزا محيرا، ويحتاج الناس لعدة أشهر ليقفوا على حقيقة مايدور برأسه]. سافر الصميل إلى قرطبة ليعود بعد قليل إلى سرقسطة بصحبة حاكم أسبانيا يوسف الفهرى؛ لقد جاءا سويا بنية القضاء نهائيا على هؤلاء المتمردين الذين كانوا قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على عاصمة إقليم نهر «إبرُة» لولا تدخل القيسيين فى الوقت المناسب.

وفى الطريق - من قرطبة إلى طليطلة - اجتمع زعماء الموالى الأمويين مع الصميل للمرة الثانية وطلبا رأيه، فأجابهم بما سَرَّهم وفاق توقعاتهم؛ لكنه بعد أن خلا إلى نفسه أدرك أنه لو تم الأمر لعبد الرحمن فإنه سيستأثر بالسلطة وحده وفى ذلك وبال عليه وعلى غيره من رؤساء القبائل العربية، فاستدعى زعماء الموالى وسحب وعده لهم بطريقة جعلتهم يرتجفون رعبا(٨). ومنذ هذه اللحظة لم يبق أمام الموالى الأمويين سوى حل من اثنين : إما إقناع عبد الرحمن بالعدول عن فكرة تأسيس مملكته بأسبانيا، أو محاولة التحالف مع العشيرة اليمنية المناهضة للقيسيين. وفى نهاية المطاف اختاروا الحل الثاني.

ولما كانت نفوس اليمنيين مضطرمة بالحقد والمرارة والمهانة منذ هزيمتهم فى «شقندة» فقد تلقفوا بحماس دعوة الموالى الأمويين الذين قاموا على الفور - منتهزين فرصة ابتعاد يوسف الفهرى والصميل فى حملتهما بأراضى «رغون» - بشراء سفينة وتجهيزها بطاقم مكون من اثنى عشر رجلا على رأسهم «تمام بن علقمة الثقفى»(٩) ومعهم الوفى «بدر»، وشقت السفينة عباب البحر فى طريقها إلى المغرب لإحضار «العريس». كان مع العابرين خمسمائة دينار : خُصص جزء منها للأمير بقصد انتشاله

كاملين. ولما طال الحصار هبطت روح قوات العلاء المعنوية وانخذل عنه كثير من أنصاره فوجد عبد الرحمن الفرصة سانحة وانقض عليهم فى شجاعة منقطعة النظير فمزقهم شر ممزق، وقُتل العلاء وكبار قادته وقُطعت رؤوسهم في ميدان المعركة ثم حُملت إلى قرطبة لحفظها بالمستحضرات الطبية، وبعد ذلك لفت رأس العلاء فى اللواء العباسى ومعها شهادة بتنصيبه حاكما وسجلّ دونت فيه وقائع المعركة ووضعت فى سفط إلى جوار الرؤوس الأخرى، وكلف أحد التجار الذاهبين إلى القيروان بحمله؛ وفى جنح الظلام ترك التاجر حمولته البغيضة في سوق عاصمة أفريقيا.

ولنا أن نتخيل الأثر الذى أحدثه اكتشاف السَّفْط المعبأ بالرؤوس المجذوذة. عندما وصل الخبر للخليفة المنصور اشتد غيظه وقال فى تعجب ملئ بالحسرة : «الحمد لله الذى جعل بيننا وبين هذا الشيطان [يقصد عبد الرحمن] بحرا!».

وفى ٧٦٦م (١٤٩هـ) انفجر تمرد آخر لليمنيين «لم يشارك فيه العباسيون مباشرة) فى إقليم «لبلة» (NIEBLA) تحت قيادة «سعيد اليحصبى» الذى سار إلى إشبيلية واستولى عليها قسرا ثم نزل بقلعة «وادى أيْرة» (GUADAIRA) وتحصن بها. حاصره عبد الرحمن حصارا شديدا فاضطر إلى الخروج فى جماعة من أنصاره وعندها لقى مصرعه وقطعت رأسه؛ وبعد قتال شرس استسلمت قواته.

وفى نفس العام (١٤٩هـ) عاود اليمنيون الكَرَّة تحت قيادة «أبى الصباح بن يحيى اليحصبى» وحاولوا التخلص من ربْقة الحاكم الأموى. لجأ عبد الرحمن إلى الحيله معه: دعاه إلى قرطبه فلبى النداء، وكانت النتيجة ضرب عنقه فى حضرة الأمير.

وبمجرد أن سنحت الفرصة – لانشغال عبد الرحمن بإخماد ثورة أشعلها زعيم بربرى يدعى «شقيا بن عبد الواحد المكناسى»، وسنتحدث عنها فيما بعد – اندلع تمرد يمنى آخر بقيادة كل من عبد الغفار (ابن عم أبى الصباح بن يحيى اليحصبى) و«حيْوة بن ملامس» اللذين جمعا جيشا من سكان إشبيلية وحاولا الاستيلاء على قرطبة. عاد عبد الرحمن بسرعة لملاقاة هذا الجيش واستطاع ابن عمه (عبد الملك بن عمر) تشتيته ثم تعقب الزعيمين اليمنيين حتى جنوب «جبال الشّارات» (SIERRA MORENA) وتمكن من قتلهما والتنكيل بأعوانهما عند «وادى قيس» (مايسمى الآن بنهر «بمبيثار» (BEMBEZAR)[١٢] عام ٧٧٤م (١٥٧ أو ١٥٨هـ).

بعد أن تحدثنا عن حركات العصيان العربية ننتقل إلى أخطر وأطول تلك الحركات التى أدمت عهد عبد الرحمن الأول وهى ثورة البربر بقيادة «شقيا بن عبد

خرج وفد من العاصمة قرطبة متجها إلى «طرش» ليخبر عبد الرحمن أن يوسف يثني كثيرا على أصوله الشامخة وأن غاية رجائه أن تستقر الموادعة بينهما شريطة تخليه عن أى نشاط سياسى وألا ينازعه الإمارة، وأنه يعرض عليه القدوم إلى قرطبة لكي يزوجه ابنته(١٠). لكن محاولة الصلح فشلت، واندلعت الحرب بين الفريقين في نهاية شتاء ٧٥٦م (١٣٨هـ).

شرع عبد الرحمن بمساعدة «عبيد الله بن عثمان» فى تجنيد عساكر جدد؛ ولم يعجز فى هذا نتيجة لهرولة اليمنيين وبربر الأندلس لتلبية طلبه. ومن جهة أخرى، أمده الجندى القيسي «تمام بن علقمة» بأفراد من عشيرته. ولموقع «طرّش» المتطرف انتقل عبد الرحمن إلى الغرب : دخل أولا منطقة «ريّة» فانضم إليه جند الأردن وعندما وصل إلى عاصمتها «أرشذُونة» نصبه أهلها أميرا على الأندلس. ومن «أرشدونة» اتجه عبد الرحمن إلى مقاطعة شذونة (SIDONA)-كورة جند فلسطين- ثم دخل إشبيلية فى مارس ٧٥٦(شوال١٣٨هـ) بصحبة زعماء الإقليم اليمنيين، وفيها بايعه أهل الغرب كله.

بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد، أيقن يوسف الفهرى من اقتراب ساعة العمل الجاد، ولم يطل التفكير بل جمع جيشه على عجل وخرج به من قرطبة قاصدا إشبيليه، وسار بحذاء الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير. عندما علم عبد الرحمن تحرك في الاتجاه المضاد، وسار بحذاء الضفة اليسرى لنفس النهر قاصدا قرطبة. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كل جيش فى مواجهة الآخر لايفصل بينهما سوى مجرى النهر. ولما فطن يوسف لمناورة عبد الرحمن أمر جيشه بتغيير المسار والعودة إلى قرطبة، فأصبح الجيشان كفرسى رهان والنهر بينهما. وعلى مقربة من العاصمة وفى موضع يقال له «المصارة» (AL-MUSARA) توازى الجيشان. لجأ عبد الرحمن إلى الخديعة للإيقاع بخصمه : أرسل وفدا ليوسف الفهرى ليخبره بموافقته على شروط الصلح، وانتهز فرصة حلول الليل لينقل قواته إلى الشاطئ الذى يعسكر فيه جيش يوسف. وفى صباح اليوم التالى (١٥ مايو ٧٥٦م - ١٠ ذو الحجة ١٣٨هـ) اشتبك الفريقان، وكانت الغلبة لعبد الرحمن وفيالقه اليمنية. فقد يوسف فى المعركة أحد أبنائه، وكذلك الصميل، واضطر الاثنان إلى الهرب.

وبهذا الشكل انتقم اليمنيون لهزيمة «شقندة» بموقعة «المصارة» (أو «مرج راهط» الجديدة) واستولوا على غنائم وأسلاب كثيرة، ودخل عبد الرحمن قرطبة، ومن قصر الحاكم المهزوم أعلن حمايته لحريمه وأصدر قرارا بوقف عمليات نهب المدينة. اشتاط اليمنيون غضبا لمنعهم من العبث بالمدينة والاستيلاء على خيراتها وبيتوا بليل أمر التخلص من الأمير الجديد. وبمجرد أن علم عبد الرحمن بنواياهم اتخذ التدابير الحاسمة التى توقف أية محاولة للعصيان أو التمرد بين جنوده. وبعدها عاهده سكان

قرطبة على الطاعة وبويع أميرا على الأندلس فى المسجد الجامع لقرطبة ولم يكن قد أتم الستة والعشرين ربيعا.

٢- عهد عبد الرحمن الأول، وتأسيس الإمارة الأموية (٧٥٦ - ٧٨٨م)

سياسة الاستمالة والصعوبات الأولى:

نعتقد أن المدة التى قضاها عبد الرحمن فى الحكم (ثلث قرن تقريبا) كانت كافية ليقدم فيها كل ماعنده من إمكانيات ومواهب.

ونريد أن نلفت النظر بداية إلى أننا لن نستعرض فيما يلى أحداث الإمارة الأندلسية الجديدة أو أنشطة أميرها حسب تسلسلها التاريخى (مثلما فعلنا حتى الآن) لأنها متداخلة ومن الصعب ترتيبها: فهناك السياسة الخارجية والداخلية، والتنظيم المركزى، والثورات المستمرة، والمؤامرات المسيحية والفرنجية ... إلخ.

ويمكن القول بأن تاريخ الإمارة الأموية فى الأندلس - وخاصة فى بدايته - لايختلف كثيرا عن تاريخ الدول الإسلامية الأخرى أو الدول المسيحية فى العصر الوسيط. فالحاجة الملحة لمواجهة الأحداث غير المتوقعة وضرورة المبادرة بتحييد أثرها كثيرا ماكانت تعطل مشاريع الأمير وتعوق انتهاجه لسياسة مستمرة متماسكة.

بمجرد أن استوى عبد الرحمن على عرش إمارة قرطبة كان عليه القيام على وجه السرعة بما يلى : ترسيخ المكاسب التى حصل عليها؛ ثم القضاء نهائيا على مقاومة يوسف والصميل اللذين لم يفقدا الأمل فى استرجاع ماضاع برغم هزيمة «المصارة»؛ وأخيرا، محاولة وضع نهاية للصراعات الداخلية التى خربت الأندلس حتى تاريخه.

عمل أولا على تنظيم الجيش المهلهل الذى حمله إلى النصر بطرد العناصر المشكوك فيها، واختيار الجنود - من مرتزقة وغيرهم - الموثوق فيهم حتى يمكن الاعتماد عليهم، وشغْل القيادات العسكرية والمناصب المدنية برجال أكفاء يدينون له بالولاء. ولما كان هذا النوع من الرجال يندر وجوده فى أسبانيا فقد اتجه عبد الرحمن - بالرغم مما قد يجره عليه هذا التصرف من مخاطر فى المستقبل - بفتح أبواب شبه الجزيرة على مصراعيها للأمويين الذين هربوا من مطاردة السفاح وللموالى المروانيين. وكان لزاما عليه أيضا استرضاء المهزومين فى «المصارة» قبل الاضطرار إلى استخدام القوة معهم؛ أو بمعنى آخر: انتهاج - ولو على سبيل التجربة - سياسة المصالحة

والاستمالة لكى يقر فى روع الأندلسيين، على اختلاف مشاربهم، أن الأمير الجديد هو رمـز للرباط الروحى الذى يؤلف بينهم، وأن حـضـرته تكفى فى حـد ذاتهـا لفض الخصومات الحزبية وإحلال السلام.

أكان هذا برنامجا مثاليا حالما ؟ لقد كان - على أية حال - جديرا بالتجربة. آتت سياسة الجذب والاستمالة أولى ثمارها المتمثلة فى موجات الهجرة المتتالية لأسبانيا. لقد ذاعت أنباء انتصارات عبد الرحمن الأول فى شمال أفريقيا والشرق، وعلى إثرها عجّل الكثيرون من أفراد عائلته بعبور المضيق إلى شبه الجزيرة (أورد بعض المؤرخين أسماءهم بالكامل)، كما سيظل يفعل أمثالهم طوال فترة حكمه. استقبلهم العاهل بأسمى آيات التشريف والحفاوة. تمتع الوافدون الجدد - الأرستقراطية القرطبية ذات الدماء الملكية التى يطلق عليها المؤرخون «النبالة القرشية» - بالحصانة وبالإعفاءات الضريبية وبحق الصدارة فى الاحتفالات الرسمية، وخُصص لمعظمهم راتبا شهريا كبيرا. ومن أجل التشجيع على نزوح الأمويين ومواليهم إلى الأندلس وصل الأمر بعبد الرحمن لإرسال لجنة إلى الشرق على رأسها القاضى «معاوية بن صالح الحضرمى»[١١]، وكان من بين مهامها، التى لم يستطع القاضى إتمامها، إحضار أختى الأمير. فضلت الأختان البقاء فى موطنهما (سورية) على الذهاب إلى ملك أخيهما العريض فى أقصى غرب العالم الإسلامى لأنهما كانتا تنعمان بالثروات الطائلة وبالمعاملة الحسنة من جانب السلطات العباسية.

وبعد وقت قصير من تقلده أمور السلطة فى قرطبة أدرك عبد الرحمن أن ثمرة سياسة المصالحة مُرَّة المذاق، وأن ترك الحبل على الغارب للمتذمرين - من عرب وغيرهم - وللمغامرين الذين تغصّ بهم أسبانيا سيجر عليه عواقب وخيمة. ومع هذا، فمن المؤكد أنه كان يفضل عدم اللجوء إلى القوة مع يوسف الفهرى والصميل إلا إذا دفعاه إليها.

لم يقف يوسف والصميل بعد هزيمتهما مكتوفى الأيدى، بل ذهب الأول إلى طليطلة لتكوين جيش، وانطلق الثانى إلى إقليم «جيان» على أمل تجميع أنصاره من القيسيين.

وبعد أن اجتمع الاثنان خططا لاجتذاب عبد الرحمن بجزء من قواتهما بينما ينطلق الجزء الثانى صوب قرطبة ليباغتها ويستولى عليها. كانت الخطة على وشك النجاح، ودانت العاصمة لبعض الوقت لأبى زيد (أحد أبناء يوسف الفهرى)، لكنه لم يجرؤ على البقاء بها عندما علم بارتداد أميرها إليها.

وبعد أن خلّص عبد الرحمن العاصمة عاد لمطاردة يوسف حتى وصل إلى غوطة غرناطة. وعندئذ أرسل إليه يوسف والصميل يدعوانه إلى قبول تسليمهما له بالأمر بشرط أن يعفو عنهما ويؤمنهما على أموالهما وممتلكاتهما. تعجل الأمير بالموافقة على الصلح واكتفى بأخذ ولدين من أبناء يوسف كرهينة؛ ثم رجع إلى قرطبة (عام ١٣٩هـ) بصحبة الحاكم القديم والصميل. باستسلام يوسف اعتبر عبد الرحمن أن سلطته على أسبانيا لم تعد محل نزاع، ومن ثمّ فقد أصدر أوامره بلعن العباسيين على المنابر وعدم الإشارة في خطب الجمعة إلى خليفتهم في الشرق : أبو جعفر المنصور.

أما عن السنوات التي عاشها يوسف الفهري بعد ذلك حتى نهايته المأساوية فقد وردت عنها روايات مشوشة. يبدو أن يوسف والصميل أقاما في البداية بقرطبة حيث شملهما الأمير برعايته وكان يستشيرهما في بعض الأحيان ويأخذ برأيهما. لكن يوسف نكث العهد بعد ذلك، وفرّ إلى «ماردة» حيث رفع فيها راية العصيان ضد الأمير وجمع جيشا يناهز العشرين ألف مقاتل (معظمهم من البربر) وزحف به نحو قرطبة؛ لكن حكام عبد الرحمن الأوفياء على إشبيلية و«مورور» (MORON) هزموه في الطريق فاتجه إلى أراضي طليطلة وظل هائما فيها على وجهه عدة أشهر إلى أن ضاق به مشايعوه ذرعا فقتلوه (عام ٧٥٩ / ٧٦٠م – ١٤٢ هـ) وأرسلوا رأسه لعبد الرحمن.

بعد أن تخلص الأمير من خصمه الرئيسي، قرر التخلص أيضا من رأسه المدبر؛ وعليه فقد تم خنق الصميل في السجن الذي أودع فيه منذ فترة قصيرة.

الصراع مع متمردي الأندلس :

منذ هروب يوسف الفهري تبين للأمير عقم لغة التفاهم وسياسة اللين مع المتمردين وجدوى الاحتكام إلى السلاح. ولهذا السبب سيقوم عبد الرحمن خلال الثلاثين سنة المتبقية من حكمه بشن حرب لاهوادة فيها ضد خصومه، وفرض هيمنته بالقوة، والتنكيل بمن يخشونه، أي – باختصار ودون مواربة – ممارسة السلطة الاستبدادية انطلاقا من قناعته بأن أي تهاون، ولو بسيط، من جانبه سيستثمر ضده. وسيفهم العرب والبربر، حتى أقاربه الأمويون الذين نعموا وأترفوا على أرض الأندلس، أنّ من يجرؤ على إثارة غضب العاهل لن يفلت من العقاب.

ومن المؤامرات التي حاكها العرب ضد عبد الرحمن الأول قيامهم بتحريض أنصار الحاكم السابق وزعماء العشيرة اليمنية. انفجر التمرد الأول في طليطلة، بعد

ثلاث سنوات فقط من النهاية المأساوية لوالى الأندلس الأخير، ولم يخمد إلا فى ٧٦٤م (١٤٧هـ). قاد هذا التمرد الزعيم الفهرى «هشام بن عروة» وحكم طليطلة لحسابه إلى أن أعاد الجيش الأموى بقيادة «بدر» و«تمام بن علقمة» النظام لعاصمة القوط القديمة. لم يلق الجيش الأموى مقاومة تذكر، واقتاد قائداه إلى قرطبة رؤوس التمرد ليُطاف بها شوارع المدينة قبل أن تُعلَّق بالمسامير على الألواح الخشبية. ومن الغريب أن تستسلم طليطلة بهذه السهولة وهى المدينة التى ستطير النوم فيما بعد من عين الدولة القرطبية وتدوّخ أمراءها.

وفى أواخر عهد عبد الرحمن الأول قام الابن الوحيد الباقى من أولاد يوسف الفهرى (الأعمى : أبو العباس محمد) باتخاذ طليطلة أيضا مركزا لتمرده على السلطة المركزية؛ لكن الأمير هزمه فى ١١ سبتمبر ٧٨٥م (١ ربيع الأول ١٦٩هـ). ومن جهة أخرى، فقد شغل الصراع مع العرب اليمنيين جزءا كبيرا من تاريخ حكم الأمير الأموى. فهؤلاء الناس الذين بذلوا قصارى جهدهم وسلموا قرطبة هدية لعبد الرحمن سرعان ما أحسوا بالضيق لعدم استطاعتهم إملاء إرادتهم عليه وإخضاعه لوصايتهم، ولذلك شاركوا فى كل المؤامرات التى حيكت ضد النظام الأموى. وسنقتصر فيما يلى على الإشارة إلى أهم تلك المؤامرات والتى شارك فيها - علانية أو من وراء حجاب - رسل موفدون من قبل الخليفة العباسى.

أعلن الزعيم العربى «العلاء بن مغيث» (عام ٧٦٣م - ١٤٦هـ) فى إقليم «باجة» (BEJA) (جنوب البرتغال حاليا) تمرده على أمير قرطبة ورفع العلم الأسود، شعار العباسيين. جاء العلاء إلى أسبانيا المسلمة وهو يحمل تعليمات محددة من الخليفة أبى جعفر المنصور الذى أمده بالمال ووعده بتولى حكم البلاد إذا تمكن من خلْع الغاصب الأموى.

كفلت مسحة الشرعية للعلاء (بصفته مبعوث السلالة الجديدة الحاكمة فى الشرق) انضمام العرب الأندلسيين من كافة الطوائف إليه - سواء كانوا بلديين أو من الأجناد -، وهم دائما يتحينون الفرص لزيادة ثرواتهم وممارسة أعمال السلب والنهب وللأخذ بثاراتهم القديمة التى لاتنطفئ جذوتها أبدا. وكان اليمنيون يشكلون غالبية تلك الجموع العربية التى انضمت لحركة العلاء. أحس عبد الرحمن بمدى الخطورة التى يمثلها تواجد مندوب مأجور للعباسيين على أرض أسبانيا، وهذا شئ لم يحدث من قبل فى مملكته. اختار من بين قواته المقاتلين الأشد إخلاصا له وتحصن بهم فى ثغر «قرمونة» (CARMONA) المشهور بمنعته حيث حاصرهم المندوب العباسى شهرين

كاملين. ولما طال الحصار هبطت روح قوات العلاء المعنوية وانخذل عنه كثير من أنصاره فوجد عبد الرحمن الفرصة سانحة وانقض عليهم في شجاعة منقطعة النظير فمزقهم شر ممزق، وقُتل العلاء وكبار قادته وقُطعت رؤوسهم في ميدان المعركة ثم حُملت إلى قرطبة لحفظها بالمستحضرات الطبية، وبعد ذلك لفت رأس العلاء في اللواء العباسي ومعها شهادة بتنصيبه حاكما وسجلّ دونت فيه وقائع المعركة ووضعت في سفط إلى جوار الرؤوس الأخرى، وكلف أحد التجار الذاهبين إلى القيروان بحمله؛ وفي جنح الظلام ترك التاجر حمولته البغيضة في سوق عاصمة أفريقيا.

ولنا أن نتخيل الأثر الذي أحدثه اكتشاف السَّفْط المعبأ بالرؤوس المجذوذة. عندما وصل الخبر للخليفة المنصور اشتد غيظه وقال في تعجب ملئ بالحسرة : «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان [يقصد عبد الرحمن] بحرا!».

وفي ٧٦٦م (١٤٩هـ) انفجر تمرد آخر لليمنيين «لم يشارك فيه العباسيون مباشرة) في إقليم «لبلة» (NIEBLA) تحت قيادة «سعيد اليحصبي» الذي سار إلى إشبيلية واستولى عليها قسرا ثم نزل بقلعة «وادي أيْرة» (GUADAIRA) وتحصن بها. حاصره عبد الرحمن حصارا شديدا فاضطر إلى الخروج في جماعة من أنصاره وعندها لقي مصرعه وقطعت رأسه؛ وبعد قتال شرس استسلمت قواته.

وفي نفس العام (١٤٩هـ) عاود اليمنيون الكَرَّة تحت قيادة «أبي الصباح بن يحيي اليحصبي» وحاولوا التخلص من ربْقة الحاكم الأموي. لجأ عبد الرحمن إلى الحيله معه: دعاه إلى قرطبه فلبى النداء، وكانت النتيجة ضرب عنقه في حضرة الأمير.

وبمجرد أن سنحت الفرصة – لانشغال عبد الرحمن بإخماد ثورة أشعلها زعيم بربري يدعى «شقيا بن عبد الواحد المكناسي»، وسنتحدث عنها فيما بعد – اندلع تمرد يمني آخر بقيادة كل من عبد الغفار (ابن عم أبي الصباح بن يحيي اليحصبي) و«حيْوة بن ملامس» اللذين جمعا جيشا من سكان إشبيلية وحاولا الاستيلاء على قرطبة. عاد عبد الرحمن بسرعة لملاقاة هذا الجيش واستطاع ابن عمه (عبد الملك بن عمر) تشتيته ثم تعقب الزعيمين اليمنيين حتى جنوب «جبال الشّارات» (SIERRA MORENA) وتمكن من قتلهما والتنكيل بأعوانهما عند «وادي قيس» (مايسمى الآن بنهر «بمبيثار» (BEMBEZAR)[١٢] عام ٧٧٤م (١٥٧ أو ١٥٨هـ).

بعد أن تحدثنا عن حركات العصيان العربية ننتقل إلى أخطر وأطول تلك الحركات التي أدمت عهد عبد الرحمن الأول وهي ثورة البربر بقيادة «شقيا بن عبد

الواحد» وأصله من قبيلة مكناسة البربرية، كان معلما فى مدرسة بالمنطقة الواقعة شرق «شنتبرية» (SANTAVER)[١٣]، ودفعه الطمع – وربما أيضا الحماس الدينى المحض – لأن يدعى بين عامة مواطنيه البربر الأندلسيين ومعظمهم ضعيف العقيدة – انتسابه للرسول من جهة ابنته فاطمة زوجة على بن أبى طالب، وحيث أن أمه كانت تسمى أيضا فاطمة فقد ادعى أنه إمام فاطمى ساقته العناية الإلهية لتولى المهام الجسام[١٤]. وسرعان مالاقت دعوته – السياسية الدينية، فى آن واحد – نجاحا كبيرا بين صفوف البربر السذج. فى نفس هذا التوقيت التف حول دعوة الخوارج فى شمال أفريقيا عشرات الآلاف من قبائل «زناته»؛ وفى غرب المغرب ادعى النبوة بربرى آخر من أصل أسبانى يدعى «صالح بن طريف» وفرض محاكاة فظة للقرآن وتعاليم الإسلام على كونفدرالية «برغواطة» (BARGAWATA) الكبيرة التى استمرت فى هرطقتها لعدة قرون[١٥]. اندلع تمرد «شقيا» عام ٧٦٨م (١٥١هـ) ولم تفلح الحملات العديدة فى القضاء عليه إلا عام ٧٧٦/٧٧٧م (١٦٠هـ). لجأ الزعيم البربرى لتكتيك شائع بين بنى جنسه : عند اقتراب الجيش الأموى يفر بأتباعه إلى القمم الجبلية المنيعة، وعندما يولى الجيش ظهره ويبتعد يهبط ويهاجمه من الخلف ويستولى على الكثير من الغنائم. وبهذا الشكل استطاع «شقيا» الاستيلاء على كافة الإقليم الواقع بين «الوادى اليانع» (GUADIANA) وحوض نهر «التَّاجه»، ثم استولى بعد ذلك على استحكام «شنتبرية»، وعلى الثغور المنيعة لكل من «قورية» (CORIA) و«مدلين» (MADELLIN) و«ماردة»، واتخذ حصن «سوبيتران» (SOPETRAN) مركزا لقيادته العسكرية. أفاض المؤرخون فى الحديث عن عمليات عبد الرحمن العسكرية (سواء التى باشرها بنفسه أو عهد بها لقادته المحنكين) ضد «شقيا» طوال سنوات تمرده التسع. وفى النهاية تمكن عبد الرحمن من استمالة زعيم بربرى آخر يدعى «أبو زعبل» وإحداث انشقاق فى صفوفهم. وفى عام ٧٧٦م (١٦٠هـ) – أو بعده بقليل – سقط «شقيا» ضحية لخيانة اثنين من أتباعه.

لاشك أن قوة العزيمة وحسن الطالع قد جنبا عبد الرحمن الخور أمام هذا الكم الهائل من الصعاب. قد نتخيل فى وقتنا الراهن أن عبد الرحمن كان بإمكانه الثقة بأقربائه الذين احتفى بهم فى بلاطه منذ أن وطئت أقدامهم أرض أسبانيا، وخاصة بعدما باعه أتباعه مرارا وتكرارا. لكن مفهوم الواجب المترتب على القرابة لم يكن ذا بال فى ذلك العصر، وكان واجب الصداقة يفوقه فى الرابطة. ففى أحيان كثيرة لم يرع السادة المروانيون قواعد الضيافة التى وجدوها على أرض أسبانيا، وكشاهد على هذا

محاولة خلْع الأمير عام (١٦٣هـ) من جانب «عبيد الله بن حيان (ابن أخته) والأموى «عبد السلام بن يزيد»، وقد دفعا حياتهما ثمنا لها. وبعدها بأربع سنوات قام (ابن أخيه الوليد) ويدعى «المغيرة» بتدبير مؤامرة جديدة بالاتفاق مع ابن للصميل يسمى «هذيل»، وكان نصيبهما القتل أيضا.

بل يوجد ماهو أغرب : «بدر» نفسه، المولى الوفى للأمير الذى أصبح قائدا عاما للجيش وسجل فى صحيفة خدمته الكثير من الانتصارات، أسكره هو الآخر مايرفل فيه من نعيم ومكانة بسبب سيده وتطاول عليه. وعقابا له، صادر عبد الرحمن ممتلكاته ونفاه لبعض الوقت فى ثغر من الثغور الحدودية (عام ٧٧٢/ ٧٧٣م – ١٥٦هـ)، لكنه عفا عنه بعد ذلك وأعاد إليه منصبه وممتلكاته.

العلاقات بين إمارة قرطبة ومملكة أشتوريش فى عهد عبد الرحمن الأول :

استأثرت المعوقات والمشاكل الداخلية – التى أشرنا إليها فى عجالة – بمعظم وقت وجهد عبد الرحمن الأول ولم تمكنه، بالتالى، من العناية كما ينبغى بحدود مملكته مع مسيحيى الشمال. لقد اضطرته مراقبته المستمرة لأوضاع مملكته الداخلية وقمع الاضطرابات السياسية المستمرة من اتخاذ موقف سلبى إزاء الاعتداءات المتكررة لجيرانه المسيحيين وعدم الرد عليها بفاعلية. ويمكن القول بأن التهديد الأكثر قلقا خلال النصف الأول من عهده قد أتى من جانب مملكة أشتوريش واستوجب رد فعل الأمير عدة مرات.

أوجزنا فيما سبق النشاط الحربى للملك ألفونسو الأول وسياسته التوسعية التى أعانته عليها هجرة البربر الجماعية من الأقاليم الجبلية شمال غرب شبه جزيرة أيبيريا. بعد موت ألفونسو الأول عام ٧٥٧م (أى بعد سنة تقريبا من تولى عبد الرحمن الأول مقاليد السلطة فى الأندلس) خلفه ابنه «فرويلة الأول» وحقق – طبقا لما أوردته مدونات لاتينية(١٦) – سلسلة من الانتصارات خلال عهده الذى استمر حتى ٧٦٨م، من أهمها الانتصار المدوّى فى «بونتوبيوم» (PONTUVIUM)(١٧) بمقاطعة جليقية. فى هذا اللقاء الماحق – الذى صمتت عنه المدونات التاريخية العربية – فقد المسلمون آلافامؤلفة من جنودهم علاوة على أحد أبناء حاكم قرطبة (الأمير الشاب عمر) الذى أسر فى المعركة وضربت عنقه بعد ذلك بأمر من ملك أشتوريش. وفى مقابل هذا التزمت المدونات التاريخية المسيحية الصمت ولم تذكر كلمة واحدة عن الهجوم الذى شنته القوات الأموية (عام ٧٦٧م – ١٥٠هـ – أو العام السابق، طبقا للمصادر الإسلامية) بقيادة بدر

(مولى عبد الرحمن الأول) الذى أخذ رهائن من جميع الأقاليم التى اجتازها وفرض على سكانها الجزية. ترجع الإشارات المجملة التى وردت إلينا عن تلك الحملة (عام ٧٦٧م) إلى وثيقة احتفظ لنا بها الكتّاب العرب فى عصر متأخر، وهى منقولة - حسب قولهم - من مدونة الرازى التاريخية التى تعتبر المصدر الأكثر وفاء وقدما لتاريخ الدولة الأموية. تتضمن الوثيقة هدنة(١٨) لمدة خمس سنوات تبدأ فى يونيو ٧٥٩م (صفر ١٤٢هـ) منحها «الأمير الأكرم، الملك المعظم (عبد الرحمن الأول) للبطاركة والرهبان ولبقية سكان قشتالة وأعماله».

كما ورد فى نص المعاهدة - المذكور بالكامل - الالتزامات المفروضة على الجانب المسيحى وتتمثل فى تسليمه السنوى لإمارة قرطبة مايلى :

عشرة آلاف أوقية من الذهب، عشرة آلاف جنيه من الفضة، عشرة آلاف جواد ومثلها بغالا، ألف درع، ألف خوذه وألف حربة. من الصعب إبداء الرأى بشأن حقيقة هذه المعاهدة ذات الشروط المجحفة غير المتوقعة بالنسبة لملابسات عصرها، خاصة وأننا لانستطيع فى ذلك الوقت الموغل فى القدم تحديد المراد من كلمة «قشتالة» الواردة بنص هذه الهدنة : هل هى إحدى «الماركات» الدفاعية الواقعة جنوب سلسلة جبال «كنتبريا» بإقليم «أمايا» (AMAYA)، أو أن المراد بها المنطقة التى ستسمى فيما بعد بقشتالة القديمة؟(١٩).

أما خلفاء «فرويلة الأول» الذين حكموا فى الفترة من ٧٦٨م إلى ٧٨٨م، فكانوا على الترتيب كما يلى:«أوريليو» (AURELIO)، «سيلو» (SILO)، «موريجاتو» (MAURIGATO). ويبدو أن هؤلاء الأمراء الثلاثة لم يكن لهم نشاط حربى مع الإمارة القرطبية نظرا لعدم ورود أخبار - سواء فى المصادر العربية أو اللاتينية - عن حدوث أية مناوشة بين القوات الأموية و«الأشتوريشية» طيلة هذه الأعوام العشرين التى وافقت دون شك هدنة - صريحة أو ضمنية - لازلنا نجهل شروطها حتى يومنا هذا.

حملات «شرلمان» على أسبانيا (٧٧٨م). دواعيها ونتائجها :

قام «شرلمان» - خلال تلك الفترة التى توقفت فيها قعقعة السلاح فى شمال غرب أسبانيا - بحملته الشهيرة على سرقسطة عام ٧٧٨م (١٦١هـ)، والمشهد الأخير لتلك الحملة (أو كارثة ممر «باب الشّزرى» Roncesvalles) التى خلدتها «أنشودة رولان» (CHANSON DE ROLAND)، لايزال ماثلا بأذهان الجميع.

وبالرغم من هذا، فأقل وصف يمكن أن ننعت به الوثائق التى لدينا، عن الظروف التى أحاطت بمذبحة مؤخرة الجيش الفرنسي وخط سير الحملة ذهابا وإيابا فى حوض نهر «إبْرُه» والأسباب التى دفعت شرلمان للقيام بها، هو الزعزعة والاضطراب. فالمصادر الفرنسية - وكذلك العربية - عجفاء وغير دقيقة بالرغم من قيام الكثيرين منذ نصف قرن باستثمارها فى استخلاص نتائج تتباين أحيانا(٢٠).

فى الصفحات السابقة توقف حديثنا عن سرقسطة عند تولية يوسف الفهرى لابنه عبد الرحمن حاكما عليها عام ٧٥٣م (١٣٨هـ). وتجدر الإشارة إلى أن سرقسطة كانت مدينة زاهرة وثغرا قويا ذا موقع استراتيجى هام، نظرا لوقوعها وسط الأراضى الخصبة الغنية ولقربها من الأقاليم التى يقطنها البشكنس ومن الاستحكامات الفرنسية فى سبتمانيا. ونظرا لبعدها عن قرطبة فقد كان يتمتع من يحكمها - مثلها فى ذلك مثل برشلونة وبلنسية - بضرب من الاستقلالية. ومن بداية الفتح الإسلامى استوطن عدد كبير من العرب حوض نهر «إبْرُه» الذى تفوق على بقية المناطق الأسبانية من حيث كثرة الداخلين من سكانه فى الإسلام، وربما كان هذا نتيجة لجهود التابعى «حنش الصنعانى». وكثيرا ماكان الزعماء العرب، المقيمون فى سرقسطة أو الوديان المتقاطعة معها، يستغلون بعد المسافة عن حاكم قرطبة ويتصرفون بحرية تامة لدرجة التجاهل المطلق لسلطته. ومن البديهى ألا نعدم بين هؤلاء العرب المغامرين المعدومى الضمائر المستعدين لتنكب جميع الطرق لتحقيق مطامعهم الشخصية من يبيع دينه ويزين لشرلمان - من منطلق المنفعة الشخصية البحتة - سهولة الاستيلاء على شمال أسبانيا والفوائد الجمّة التى ستعود عليه من جرّاء هذا الاحتلال.

نقول هذا لأنه من غير المعقول قيام العاهل الفرنسى بحملة مثل تلك استجابة لفكرة عارضة روادته، خاصة وأن الخطر الإسلامى كان قد تم احتواؤه منذ منتصف القرن الثامن بعد استرداد «پيپينو ألبريبى» (PIPINO EL BREVE) «أربونة» حيث لم تسجل أية مدونة تاريخية بعد هذا التاريخ أى نشاط حربى على جانبى البرانس الشرقية سواء من جهة المسلمين أو الفرنسيين.

عندما خلف شرلمان والده «پيپينو» كانت تنتظره مهام أكثر إلحاحا من تأمين حدوده مع أسبانيا. ومع هذا لايوجد مايمنع من الظن بأن شرلمان قد حلم - بعد تنفيذه للمهام الملحة باستيلائه على جزء كبير من أوربا (حتى نهر الدانوب) وإخضاعه لسيطرته - بتحقيق مجد للمسيحية من خلال طرد الكفار من أسبانيا وضمها لامبراطوريته.

وبعيدا عن الافتراضات، فمن المؤكد أن شرلمان سرعان ماتخلى عن مشروعه المظنون بعد فشل حملته على سرقسطه، ولذلك فإنه لم يعاود الكَرَّة.

وردت فقرة هامة (ويبدو أن أحدا لم يتوقف عندها) فى المؤلف التاريخى الأدبى للمقرى[٢١]، وهى منقولة بالنص من مصادر الكاتب المعهودة (من ابن حيان، دون شك). تقول هذه الفقرة :«وخاطب عبد الرحمن قارله [كارل] ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرس به مدة، فأصابه صلُب المكسر، تام الرجولية، فمال معه إلى المداراة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم، ولم تتم المصاهرة».

مما لاشك فيه أن ماجاء بالفقرة السابقة ليس بكامله من نسج الخيال. وإذا كان القارئ يمكن أن تستولى عليه الدهشة من مشروع المصاهرة الذى يربط بين العائلة الشرلمانية والبيت الأموى إلا أن الواقع يجعله محتمل التصديق. أما مشروع السلام الوارد بالفقرة فيتفق مع الواقع التاريخى لأن حملة شرلمان التى جرت عام ٧٧٨م لم تُستتبع – قبل أخذ برشلونة فى ٨٠١م – بحملات فرنسية أخرى تخطت حاجز البرانس.

ويمكن الاعتراض على هذه الهدنة باتفاقات الصداقة التى عقدها الامبراطور الفرنسى مع الخليفة العباسى هارون الرشيد[٢٢] فى بداية القرن التاسع بهدف إثارة قلق الأمويين فى أسبانيا. لكن هذه الاتفاقات مشكوك فيها بدليل أن شرلمان فى أواخر عهده لم يأنف من بسط يد السلام لحفيد عبد الرحمن (الحكم الأول). ومن ثمّ فإننا نكرر هنا مقولة أحد المحللين العرب ومفادها : أن علماء التاريخ الفرنسى يخلطون الأوراق.

وقبل الانتقال للحديث عن مجريات حملة ٧٧٨م نرى من المناسب التوقف قليلا عند الزعيم العربى الذى اتصل بشرلمان وسيرته السابقة. ينتسب هذا الزعيم إلى العشيرة الكلبية، ويدعى «سليمان بن يقظان بن الأعرابى»، وصل سليمان لحكم سرقسطة فى ظروف لم يجتلى غموضها بعد، وقبل عام ٧٧٨م بقليل اتصل بمثير اضطرابات عربى قادم من أفريقيا يدعى «عبد الرحمن بن حبيب الفهرى». (علينا ألا نخلط بين عبد الرحمن هذا وبين آخر يتفق معه فى الاسم كان قد مكث فى أسبانيا لبعض الوقت ثم رحل إلى أفريقيا حيث حكم المنطقة التى تعرف الآن بتونس وتم اغتياله عام ٧٥٥م – ١٣٧هـ، أى قبل قليل من دخول عبد الرحمن الأول أسبانيا. ولكى يمكن التمييز بين الفهريين لُقب مانتحدث عنه هنا بالصقلبى نظرا لطوله الفارع وعينيه الزرقاوين وشعره الذهبى).

أوكل الخليفة الحاكم في الشرق (محمد المهدى) إلى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى مهمة مشابهة للمهمة التي كلف بها أبو جعفر المنصور «العلاء بن مغيث» عام ٧٦٣ (١٤٦هـ) : تشكيل حزب موالٍ للعباسيين، وتجنيد المتعاطفين معه من كل الطبقات الاجتماعية وخاصة من البربر لتكوين جيش قادر على إسقاط النظام الأموى.

بعد أن نزل «الصقلبى» بشاطئ مرسية تلقى وعدا من «سليمان بن يقظان بن الأعرابى» الذى كان وقتها فى برشلونة، بمساعدته فى مهمته. عندما كشف الصقلبى عن نواياه وأخذ يدعو للعباسيين تنكر له ابن الأعرابى واختلف معه (وربما وصل خلافهما لحد المواجهة العسكرية)؛ وعندها لم يجد الصقلبى بدا من الارتداد إلى منطقة بلنسية حيث طارده الجيش الأموى وأحرق سفنه. هرب الصقلبى، لكن بربريا مأجورا من عبد الرحمن الأول تعقبه وقطع رأسه وحملها إلى الأمير الأموى فى نهاية ٧٧٨م أو مطلع ٧٧٩م (١٦٢هـ).

بالرغم من اتفاق المؤرخين العرب على قصر المدة التى استغرقتها مهمة الصقلبى على أرض أسبانيا، إلا أن «دوزى» يرى أنه قام عام ٧٧٧م بزيارة شرلمان بصحبة ابن الأعرابى وشخص ثالث يدعى «أبو الأسود» (أحد أبناء يوسف الفهرى) كان عبد الرحمن الأول قد سجنه لكنه استطاع الفرار من السجن عندما خُففت عليه الحراسة بسبب ادعائه العمى.

وفى اللقاء مع شرلمان عرض الثلاثة عليه – طبقا لدوزى – التحالف لمهاجمة أمير قرطبة. لكن الرواية الواردة فى «أخبار مجموعة» وماذكرهْ المؤرخ المشرقى ابن الأثير يظهران – بالرغم من إيجازهما الذى لاينقع الغلّة – مجافاة ماذهب إليه «دوزى» لوجه الحقيقة.

وطبقا للمصدرين السابقين فإن ابن الأعرابى بعد أن تنصل من وعده لعبد الرحمن الصقلبى بالدعوة للعباسيين رجع إلى سرقسطة حيث تحالف مع مغامر عربى آخر يدعى «حسين بن يحيى الأنصارى» وأعلن تمرده على أمير الأندلس. أرسل عبد الرحمن قائده «ثعلبة بن عبيد» ليقضى على الثورة، لكنه وقع أسيرا بعد أيام قليلة من حصاره لسرقسطة عندما قامت قوة من حاميتها بهجوم خاطف على الجيش الأموى. اغتنم ابن الأعرابى فرصة وقوع الأسير فى يده وترك زميله «حسين بن يحيى» على المدينة لمواصلة المقاومة وشد الرحال ومعه ثعلبة (قائد الجيش الأموى الأسير) قاصدا بلاد الفرنجة. عبر بلاد «السكسون» (SAJONIA) ووصل إلى «پادربورن»

(PADERBORN) حيث التقى بملك فرنسا وسلمه الأسير وأخذ يستحثه على تسيير حملة إلى شمال أسبانيا.

من المحتمل مرافقة سيد عربي آخر كان يسيطر على إقليم «وشقة» (HUESCA) اسمه «أبو ثور» لابن الأعرابي في رحلته إلى «پادربورن». وقد استخلصنا هذه المعلومة من فقرة وردت في«حوليات ملكية»[٢٣]، تفيد بأن الملك الفرنسي أخذ عام ٧٧٨م رهائن من «أبي ثور» سيد «وشقة»، ومن «ابن الأعرابي» سيد برشلونة و«جيرندة» (GERONA).

وفي ربيع ٧٧٨م اتجه شرلمان على رأس قواته إلى البرانس وعبرها من ممر «باب الشزري» (RONCESVALLES) ووصل إلى «بنبلونة» حيث استسلم له البشكنس الذين كانوا يحتلونها[٢٤]. ثم اجتاز «وشقة» واتجه صوب سرقسطة التي ستستقبله بالأحضان كما سبق وأكّد له ابن الأعرابي. لكن «حسين بن يحيى» كان من طبعه القيادة ولايرضيه دور الإمَّعَة، ومن ثمّ فقد أغلق أبواب المدينة في وجه القادمين وتحصّن بها. اضطر شرلمان لتطويق المدينة بقواته، وكلما طال الحصار وتململ الفرنسي كان ابن الأعرابي لايدخر جهدا في نصحه بالتريث والصبر، مكررا على مسامعه قلة المؤن بداخل المدينة واستسلامها الوشيك. وبينما هما في ذلك، حمل البريد إلى شرلمان خبرا سيئا يفيد بحدوث اضطرابات في «السكسون». كان هذا الخبر كافيا لكي يعطي الملك أوامره برفع الحصار عن سرقسطه والعودة إلى فرنسا.

اتجه شرلمان إلى «بنبلونة» لاصطحاب قواته التي كان قد تركها هناك عقب استيلائه عليها، وفي انسحابه منها خرب أسوارها.

لم ينس شرلمان أن يأخذ معه عند عودته «سليمان بن يقظان» الذي عجز عن تحقيق وعده له وكان سببا في المشاكل التي هبطت على رأسه. في نفس اليوم الذي ترك فيه شرلمان «بنبلونة»، أو اليوم التالي، وقعت كارثة ممر «باب الشزري». وهنا نترك الكلمة للمؤرخ «إيخيناردو» (EGINARDO)[٢٥] ليقص علينا ماحدث :

«كان الجيش الفرنسي يسير ببطء وتثاقل في صفوف طويلة نظرا لضيق الممر، وهبط البشكنس الكامنون - والغابات الكثيفة التي تكثر بذلك المكان مناسبة لعمل الأكمنة - من القمم العالية وانقضوا على طوابير المؤخرة وعلى القوات التي تغطي انسحاب الجيش الضخم وقتلوهم عن بكرة أبيهم واستولوا على مهماتهم، ثم تفرقوا بسرعة البرق محتمين بستر الليل الذي أرخى على الأرض سدوله.

ساعد البشكنس، في تلك الموقعة، خفة السلاح الذى فى أيديهم وكشفهم للمكان؛ بينما أضار بالفرنسيين ثقل عتادهم وموقعهم أسفل الممر. مات فى تلك المعركة القهرمان «إيجيهاردو» (EGGIHARDO)، الكونت «أنسيلمو» (ANSELMO)، دوق «برجونة» (BORGONA) «رولان» (ROLANDO)، بالإضافة إلى كثيرين غيرهم.

ولم يستطع الفرنسيون الانتقام للكارثة لأن عدوهم بعد أن ضرب ضربته تفرق بسرعة مذهلة وكأن الأرض انشقت وابتلعته، ولم يعد بوسع أحد الاهتداء إلى المكان الذى توارى فيه».

ما رواه «إيخينياردو» هنا عن المعركة يأتى مطابقا للخبر القصير الوارد فى «حوليات ملكية»، وتتضح منه الرغبة فى التقليل بقدر الإمكان من حجم الهزيمة.

وبالرغم من أن كاتب سيرة شرلمان (إيخينياردو) هو الوحيد الذى ذكر لنا أسماء الأشراف الفرنسيين الثلاثة الذين سقطوا فى ممر «باب الشزرى»، إلا أنه لم يشر إلى مكان المعركة. حتى أن التاريخ المضبوط للواقعة كان سيظل مجهولا لو لم نعثر صدفة على النص المكتوب على شاهد قبر القهرمان «إيجيهاردو» والذى يحدد تاريخ موته بيوم ١٥ أغسطس عام ٧٧٨م[٢٦].

ومن جهة أخرى فإن الحوليات الفرنسية تنسب الهجوم على صفوف جيش شرلمان إلى عصابات بشكنسية؛ لكن حجم الخسائر فى المعركة يرجح اشتراك جماعات مسلمة لم يكن هدفها فقط نهب مهمات الجيش الفرنسى بل - أيضا - تحرير ابن الأعرابى من أسر ملك الفرنجة.

وردت إشارة فى حوليات ابن الأثير[٢٧] تفيد باشتراك ولدين لابن الأعرابى (هما : مطروح، عيشون) فى هجوم ممر «باب الشزرى» وبأنهما استطاعا تخليص والدهما من الأسر والعودة به إلى سرقسطة.

كان من الضرورى الانتظار لسنوات طويلة حتى تعود هذه المدينة من جديد إلى حظيرة الدولة الأموية. أما «ثعلبة بن عبيد» (قائد جيش عبد الرحمن الأول الذى سلمه ابن الأعرابى لشرلمان) فقد فُك إساره فى النهاية نتيجة لمفاوضات جرت بين أمير قرطبة وملك الإفرنج؛ إنها، بلا شك، الجولة الأولى فى سلسلة المفاوضات التى ستجرى بين العاهلين، إذا أخذنا فى الاعتبار الفقرة القصيرة التى أشرنا إليها آنفا ونسبناها لابن حيان. وبالنسبة لابن الأعرابى، فقد اغتاله حليفه القديم «حسين بن يحيى الأنصارى»، وبعدها قام عبد الرحمن الأول بحصار سرقسطه بنفسه وأجبر «حسين بن يحيى» على الاستسلام عام ٧٨١م (١٦٤هـ). وانتهز العاهل الأموى فرصة تواجده فى

إقليم «رغون» وسار بقواته حتى جبال البرانس الشرقية ووصل إلى «روسيون» (ROSELLON) وربما إلى «كويير» (COLLIOURE)(٢٨).

ونظرا لعدم توخي الحوليات العربية الدقة في تحديد الأعلام الجغرافية يمكن الظن بأن حملة عبد الرحمن هذه كان هدفها «شرْطانية» (CERDANA) وإقليم «بنبلونة». على أية حال، فقد كان إذعان سرقسطة مؤقتا لأن «حسين بن يحيى» عاد إلى التمرد فيها بعد بضعة أشهر مما دفع العاهل الأموى لحصارها من جديد فى صيف ٧٨٢م (١٦٦هـ). سقطت سرقسطة بحد السيف، ومات حسين ميتة بشعة : فقد قُطعت أطرافه قبل الإجهاز عليه، وكان نصيب السكان المعاملة القاسية والطرد من المدينة لبعض الوقت.

أصيب شرلمان بخيبة أمل مُرَّة بعد فشل حملته على أسبانيا، وأيقن من عدم جدوى التحالف مع الزعماء المسلمين فى شمال شبه الجزيرة. وسيتضح له من الآن فصاعدا أن الأجدى له لايكمن في مهاجمة الإسلام الأسباني، بل فى تأمين حدود «غاليا» الفرنسية وبقية الغرب المسيحى على طول جبال البرانس. ولهذا السبب، قرر فى نفس العام الذى فشلت فيه حملته على «رغون» وبلاد البشكنس اقتطاع جزء من امبراطوريته وتخصيصها لتأسيس إمارة تكون مهمتها الأساسية رصد نشاط الزعماء المسلمين على حدود البرانس – سواء كانوا تابعين لملكة قرطبة أو مستقلين عنها – والتدخل في الوقت المناسب لقمع تحركاتهم المريبة والرد عليها إذا اقتضى الأمر.

أطلق إسم «أكيتانيا» (AQUITANIA) على الإمارة الجديدة وخصص لها أراض شاسعة تشمل محافظات «بورجيس» (BURGES)، «بوردو» (BURDEOS)، «أوش» (AUCH) و«أربونة»؛ وجعل عليها ابنه الشاب «لويس» (لويس الرحيم، فيما بعد) الذى حمله معه إلى روما فى ١٥ إبريل ٧٨١م ليتم تتويجه أميرا على «أكيتانيا» على يد البابا «أدريانو الأول»؛ كما قام البابا فى نفس الوقت بتتويج الابن الثانى لشرلمان (پيپينو – PIPINO) ملكا على إيطاليا(٢٩).

وستظل إمارة «أكيتانيا» – وخاصة محافظتاها الجنوبيتان فى سبتمانيا، غسقونيا (GASCUÑA) – تقوم، وفى أصعب الظروف، بدور الحراسة المشددة اليقظة للمواقع الإسلامية حتى ٩٨٧م.

ونفس ما أشرنا إليه من قبل بالنسبة لوضع الحدود بين المسلمين والمسيحيين فى شمال غرب أسبانيا نجده هنا أيضا بين بلاد الفرنجة وأسبانيا المسلمة. وفى هذا المقام

نورد ملاحظة ل. أوثياس (L. AUZIAS) الصائبة[٣٠]: «فى نهاية القرن الثامن وبداية التاسع لم تكن توجد حدود مستقرة بين الطرفين، فالمنطقة الواقعة بين البرانس والإبرة كانت محل نزاع دائم ومن الصعب الفصل فى تبعيتها للفرنسيين أو المسلمين، ولذلك فإن السيطرة عليها كانت تتأرجح بينهما تبعا للظروف. ولهذا السبب لم تكن «أينة» (EINA) ولا «أربونة» بمنأى عن الغـزو الإسـلامى، كـمـا لم تكن كـذلك «طرطوشـة» ويرشلونة بالنسبة للهجمات الفرنسية.

وبالإضافة إلى ماتقدم فإن الحكام العرب للإقليم لم يكونوا تابعين فى الحقيقة للهيمنة الأموية ولا للملوك الفرنسيين بالرغم من تظاهرهم بموالاة هذا الطرف أو ذاك».

على أية حـال، فـقد تجـرع عبـد الرحـمن الأول الإهانة فى هذه المنطقـة المتنازع عليـها قـبل ثلاث سنوات من مـوته ولم يسـتطع الانتـقـام. فـفى عـام ٧٨٥م قـام سكان «جيرندة» (GERONA) بتسليم مدينتهم – نتيجة لحصارها أو بمبادرة من أهاليها – لممثلى السلطة الفرنسية.

وفى مقابل عدم ذكر الحوليات العربية لكلمة واحدة عن ضياع هذه المدينة من أيدى المسلمين، ينسب التراث المحلى – وهو بالتأكيد خاطئ – الفضل فى الاستيلاء على «جيرندة» لشرلمان نفسه[٣١]. لكن الشئ المؤكد هو أن هذا التوغل الفرنسى كان بمثابة فاتحة لصيد أثمن بكثير : ونعنى به سقوط برشلونة.

إرساء عبد الرحمن الأول لأسس الدولة القرطبية :

لم تمنع التزامات عبد الرحمن المستمرة فى توطيد حكمه ومجابهة الثورات العديدة ضده من العمل على تنظيم مملكته الوليدة وطبع المقومات التأسيسية الموجودة قبلا بطابعه الخاص.

لقد قام من سبقوه بنقل النظم الإدارية المتبعة فى سورية الأموية، وركزوا الخدمات الحكومية فى قرطبة. ومما لاشك فيه أن عبد الرحمن لم يقتصر فى هذا الشأن على تحسين النظام الموجود أو تكييفه لملاءمة الأحوال الجديدة لأن أسبانيا المسلمة التى كانت حتى ذلك الوقت مجرد محافظة من امبراطورية مترامية الأطراف قد ارتقت مع عهده إلى مرتبة الإمارة المستقلة التى تمسك بزمام مستقبلها. أما تقسيم البلاد إلى أقسام إدارية (كُوَر، مفردها كورة) على رأس كل منها حاكم (والى أو عامل)، ولكل مجموعة من الكُور عاصمة (قاعدة) فلم يكن من مستحدثات أو اختراع

الأمير المرواني. ونفس الشئ ينسحب على النظام العسكري (الذي سندرسه بالتفصيل في مكان آخر من الكتاب)، ومن ثمَّ سنكتفي هنا بالإشارة إلى اهتمام عبد الرحمن الكبير منذ منتصف ولايته على الأندلس بتكوين جيش محترف، وتجنيده - لهذا الغرض - مرتزقة بربرا ورقيقا من جنوب أوربا. ويقدر أحد المؤرخين عدد الميليشيات غير المسلمة (العجم) في جيش الأمير بما يزيد عن الأربعين ألفا[٣٢].

ومما لاشك فيه أن المؤرخين العرب قد التزموا الصمت الكامل إزاء الهيكل الإداري الذي ارتضاه عبد الرحمن لمملكته. وعلاوة على هذا فإنهم لم يذكروا لنا أسماء مستشاري القصر الذين لم يكونوا قد تلقبوا بعد بلقب وزير. كل مانعرفه يقتصر فقط على خمسة قضاة منهم بالإضافة إلى عدد آخر من الحُجَّاب (والحاجب في تلك الفترة لم يكن يعني - كما سيحدث فيما بعد - رئيس الوزراء، بل مشرفا مدنيا في قصر الإمارة أو شيئا مماثلا «لقهرمان القصر»).

كما أننا لانعلم الكثير عن النظام الضرائبي المتبع في أسبانيا المسلمة خلال ذلك العصر، ومع هذا فمن قبيل المؤكد احترام العاهل الأموي الأول لنظام الخلافة الأموية في الشرق والذي ترسم خطاه حكام أسبانيا السابقون عليه. ولذا فعلينا الانتظار حتى عهد عبد الرحمن الثاني لنسجل تسلل بعض القواعد والنظم السياسية من الخلافة العباسية في الشرق إلى الدولة القرطبية.

تعرفنا - فيما سبق - على الأسباب (سواء كانت واقعية أو عاطفية محضة) التي جعلت عبد الرحمن الأول يتصدى بحزم لتسلل أي عنصر به شبهة الانتساب لغاصبي ملك آبائه في الشرق. ومن هنا فلم يكن مسموحا على أرض أسبانيا إلا برفرفة العلم الأموي[٣٣]؛ أما الراية السوداء - شعار العباسيين - فقد كان مجرد التلويح بها يعني العصيان والتمرد؛ كما كان التصدي الحازم والشرس من نصيب أي فتنة يدعمها - مباشرة أو من وراء حجاب - الخلفاء العباسيون.

وصل الأمر ببعض المؤرخين للتحدث عن عزم عبد الرحمن الأول على إعداد جيش والسير به إلى دمشق لطرد العباسيين الغاصبين للخلافة الأموية. وطبقا لزعم هؤلاء فإن أمير قرطبة كان قد أعلن على الملأ نبأ حملته هذه عام ٧٨٠م (١٦٣هـ) لكن تمرد سرقسطة وضرورة القضاء السريع عليه حالا بينه وبين تنفيذ مشروعه[٣٤].

ومع هذا، وبرغم بغض وكراهية الأمير لقتلة أسرته إلا أنه لم يجرؤ في بداية عهده على حذف الإشارة إلى الخليفة العباسي من خطبة الجمعة في مسجد قرطبة

الجامع. فقد ظل الخطباء - خلال العام التالى لاستيلاء الأمير على قرطبة - يذكرون فى خطب الجمعة اسم الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور، ولم يقرر الأمير وضع اسمه مكانه إلا بعد إخضاعه ليوسف الفهرى واقتناعه برأى قريب له قادم من الشرق يدعى «عبد الملك بن عمر بن مروان».

ومع هذا، فلم يدر بخلد الأمير عبد الرحمن - على خلاف من أتوا بعده - اتخاذ لقب «أمير المؤمنين»، ولم تختمر فكرة اتخاذ هذا اللقب المهيب إلا بعد مرور وقت طويل عندما قام عبد الرحمن الثالث (عام ٩٢٩م - ٣١٦هـ)، ولأسباب سياسية بحتة، بالتخلى عن لقب أمير والترقى للقب «أمير المؤمنين»، منافسا بذلك الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى. مانود إثباته باختصار هنا هو أن عبد الرحمن الأول لم يلقب نفسه إلا بأمير أو ملك، واقتصر على إضافة «ابن الخلائف» إليهما. ويتضح احترام الأمراء الأمويون الأول للقب «الخليفة» وعدم اقترابهم منه من النقود التى ضربت فى أسبانيا خلال عهودهم(٣٥).

وبالرغم من تواضع الألقاب التى ارتضاها عبد الرحمن لنفسه إلا أن مضاء عزيمته وبسالته فى تأسيس مملكته الأموية فى الأندلس قد أثارا إعجاب العباسيين فى الشرق وتقديرهم له. وفى هذا الشأن يروى المؤرخون العديد من الحكايات ومنها إطلاق الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور لقب «صقر قريش» عليه. كما أطلق المؤرخون عليه أيضا لقب «الداخل» للتمييز بينه وبين عبد الرحمن الثانى (الملقب، أحيانا، بالأوسط) وبين الخليفة عبد الرحمن الثالث الذى اشتهر فى المدونات التاريخية الإسلامية بلقب «الناصر لدين الله»(٣٦).

وفى عهد «الداخل» هذا اكتست قرطبة بوشاح العاصمة الإسلامية وزاد تعداد سكانها زيادة كبيرة، وخاصة فى سنوات حكمة الأخيرة.

أشرنا سابقا إلى أن المسلمين عندما فتحوا قرطبة أخذوا نصف كنيسة «سان بيثنتى» (SAN VICENTE) وحولوه إلى مسجد، ولما ازداد عددهم وضاق مسطح بيت الصلاة عن الاتساع لجموعهم الكثيفة أخذوا يعلقون فيه سقائف خشبية. وعندما دخل عبد الرحمن قرطبة ووجد هذه المشكلة عزم على حلها عن طريق ضم نصف الكنيسة الباقى (الذى كان فى أيدى المستعربين) إلى الجامع فى بناء واحد كبير. وبمجرد أن حصل عبد الرحمن على موافقة المسيحيين أمر (فى ٧٨٥م - ١٦٩هـ) بهدم المبنى بكامله (المسجد القديم ونصف الكنيسة) وإقامة المسجد الجامع الذى استغرق بناؤه

حـوالى العـام. ويقـدر بعض المؤرخين تكلفـه البناء بثـمـانين أو بمائة ألـف دينار من الذهب (وهو مبلغ كبير بمـقاييس ذلك العصر). وبالرغم من هذه النفقات الطائلة إلا أن المصلى ظل متواضعا ومحدود المساحة بدليل أن معظم من تعاقبوا على الحكم بعد عبد الرحمن كان همهم الشاغل زيادة رقعة المسجد وتحسينه. ويذكر أحد المؤرخين أن عبد الرحمن قام فى نفس الوقت ببناء مساجد صغيرة فى جميع أحياء قرطبة. كما يعزى المؤرخون إليه بناء سور قرطبة (عام ٧٦٦م – ١٤٩هـ)، أو على الأقل ترميمه لأن الوالى «السمح بن مالك الخولانى» كان قد عمل فيه قبل نصف قرن تقريبا من هذا التاريخ.

جعل عبد الرحمن – فى البداية – «قصر الإمارة» مقرا للخدمات الإدارية، وهو نفس القصـر القديم الذى توارد عليه حكام منطقة «لابيتيكا» (LA BETICA) (جنوب أسبانيا) القوطيون وتبعهم فيه – مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة – الحكام العرب السابقون على الأمير الأموى. وبعد ذلك أنشأ عبد الرحمن على بعد ثلاثة كيلومترات من شمال شرق قرطبة قصرا فخما تحيط به حدائق زاهرة، وسمى تلك الضاحية الجديدة «الرصافة»، تخليدا لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشام(٣٧)، واتخذها مقاما له – فى حالة تواجده بقرطبة – ومركزا لإمارته. فهل وجد «الداخل» فى الرصافة القرطبية – حيث وقعت عينه ذات يوم أثناء تجواله بها على نخلة وحيدة منفردة وسط حديقتها(٣٨) – مايذكره برصافة الشام ؟ بالتأكيد، نعم، لأن قصره بها كان مقر إقامته المفضل بالرغم من بعده عن وسط المدينة. وبعد ذلك قام الحكام الأمويون بتوسيع وتجميل هذا المقر الذى ظل قائما حتى الأيام الأخيرة للعهد الأموى فى الأندلس، وعندما اتسعت قرطبة فى القرن التاسع أصبحت الرصافة من أكبر أحيائها(٣٩). ولازالت أطلال قصر الرصافة قائمة حتى يومنا هذا فى نفس البقعة عند سفح الجبل.

كما أكثر الأمويون من بناء البيوت الريفية (مُنْيات، مفردها : مُنْية) حول قرطبة وأطلقوا عليها أسماء مأخوذة من البادية السورية.

كل هذا يجعلنا نعتقد أن التقاليد السورية كانت ستتواجد على أرض أسبانيا خلال فترة طويلة من الزمن حتى ولو لم يأت أحد أفراد بنى أمية ويؤسس فيها مملكته. فالجنود السوريون الذين قدموا مع بلج القشيرى واستوطنوا جنوب شبه جزيرة أيبيريا – بالإضافة إلى أعداد غفيرة أخرى قادتهم حياتهم الهائمة إلى أسبانيا – قد احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم القديمة لسنوات مديدة. وساعد أيضا على شيوع التراث السورى توافد أعداد كبيرة من المهاجرين خلال عهد عبد الرحمن الأول. وبمضى الزمن – ومنذ بداية عهد عبد الرحمن الثانى، بوجه خاص – تدثرت هذه المؤثرات السورية بمكونات الحضارة العباسية فى بغداد. وعلى هذا يمكن القول بأن المظاهر الإدارية والاجتماعية

أسبانيا المسلمة كانت مطبوعة لأكثر من قرن من الزمان بالطابع الشرقى نتيجة لتأثيرات الدمشقية فى البداية، ثم البغدادية بعد ذلك(٤٠).

لم نتحدث فى هذه اللوحة التى رسمناها بإيجاز لعهد عبد الرحمن الأول عن غالبية سكان الأندلس المتمثلة فى المولدين؛ ويحتفظ لنا التاريخ بكلام كثير عنهم خلال القرن التاسع نظرا للمتاعب الجمّة – والخطيرة أحيانا – التى سببوها لمن تقلدوا السلطة بعد الأمير الأموى. ومن الصعب تحديد السياسة التى انتهجها عبد الرحمن الأول تجاه هؤلاء المولدين نتيجة لقلة الوثائق التاريخية؛ ومع هذا يغلب الظن بأن الفلاحين ودهماء المدينة كانوا يعيشون فى وئام وسلام مع السلطة المركزية خلال السنوات التى تلت الفتح لأن ذكريات ظلم وعسف النظام القوطى لم تكن قد انمحت من أذهانهم. وعلاوة على هذا، نعتقد بأن الفتن والاضطرابات المستمرة من جانب العرب والبربر قد دفعت الأمير إلى استمالتهم بالرغم من ازدرائه – شبه المؤكد – لهم(٤١).

مات عبد الرحمن الأول فى ٣٠ سبتمبر ٧٨٨م (٢٥ ربيع الثانى ١٧٢هـ)(٤٢) ولم يكمل الستين من عمره، ودفن فى جانب من قصره بالرصافة (روضة)، ومن يومها تحول القصر إلى مايشبه الإسكوريال : أى سكن ومثوى – فى آن واحد – للعائلة الملكية.

ويتفق المؤرخون العرب – مشارقة وأندلسيون – فى تمجيد شخصية مؤسس الحكم الأموى فى الغرب الإسلامى. فهذا الأمير السورى (الذى يصفه المؤرخون بأنه كان مديد القامة، ذهبى الشعر، ذا ضفيرتين، يؤثر لبس البياض – لون قصره –، بشوشا وصارما، خطيبا مفوّها وشاعرا مطبوعا، ولم يكن به عيب خِلْقى سوى فقدانه لإحدى عينيه) الذى واجه صعابا من كل لون وجنس، لم يفقد أبدا الأَمل فى المستقبل طوال سنوات حكمه الثلاث والثلاثين.

ترك عبد الرحمن لخلفه مملكة لم تنل منها الهجمات المسيحية إلا قليلا، ويحتاج الحفاظ عليها من أطماع رعاياه لقوة السلاح.

وبكل الجدارة والاستحقاق يمكن اعتبار عبد الرحمن الأول واحدا من أفضل من حكموا الأندلس؛ وكان بالإمكان جعله على رؤوسهم جميعا لو لم يَجُدْ الزمان بعده – فى القرنين التاسع والعاشر – بعبدين آخرين للرحمن (عبد الرحمن الثانى، عبد الرحمن الثالث) وخاصة عبد الرحمن الثانى.

٢- هشام الأول، الحكم الأول (٧٨٨ - ٨٢٢م)

وتثبيت دعائم الحكم الأموى فى الأندلس

هشام الأول (٧٨٨ - ٧٨٦م) :

لم يعين عبد الرحمن ابنه الأكبر سليمان لكى يخلفه فى الحكم، بل فضل عليه أخاه الأصغر هشام واختصه بالولاية.

ولد سليمان فى الشرق، وكان عمره أربع سنوات عندما اضطر والده للفرار على وجه السرعة من سورية (٧٥٠م - ١٣٢هـ)؛ وبعد وصول الوالد إلى حكم أسبانيا أرسل إلى الشرق من يبحث له عن ابنه، وفى عام ٧٦٣/٧٦٤م (١٤٧هـ) عاد الرسول إلى قرطبة ومعه سليمان. وعلى هذا، فقد كان سليمان يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاما عندما خلا عرش الإمارة. أما هشام (المولود فى قرطبة، ١ مارس ٧٥٧م - ٤ شوال ١٣٩هـ) فقد كان يبلغ وقتها الثلاثين عاما.

اهتم عبد الرحمن كثيرا بأمر تربية الأميرين دون تمييز بينهما، لكن هشام كان الأكثر استجابة واستفادة وظهر تفوقه فى الأدب والعلم والتدين وتمتع بالقبول من الناس مما جعله أهلا للقب «الرضا» الذى ألحق باسمه. أما سليمان فلم يزد كثيرا عن الجهل، وكان يظهر امتعاضه وازدراءه لماضى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ولبطولات وتاريخ أجداده. كان عبد الرحمن قد قام أثناء حياته - وبغرض تدريب ولديه على ممارسة شئون الحكم - بتولية سليمان على طليطلة وهشام على «ماردة». وعندما حضرته الوفاة كان الاثنان فى موقعيهما، بينما كان أخوهما الأصغر عبد الله (المعروف بالبلنسى فى قرطبة. وبناء على وصية الوالد قام عبد الله البلنسى بأخذ البيعة لأخيه هشام الذى عجل بالحضور إلى العاصمة وتسلم مقاليد الحكم فى ٧ أكتوبر عام ٧٨٨م (١ جمادى الأول ١٧٢هـ) ليحكم مدة قصيرة تزيد قليلا عن السبع سنوات، محققا بذلك نبوءة سابقة لأحد علماء الفلك (وهم يشكلون - كما سنرى فيما بعد - جزءا هاما من حاشية جميع أمراء بنى أمية فى الأندلس).

بدأ الأمير الجديد عهده بالصراع مع أخيه الأكبر الذى لم يرضه الحرمان من السلطة.

يقال أن عبد الرحمن تردد كثيرا فى نهاية حياته قبل الإقدام على تعيين هشام وليا للعهد، بل يُروى أنه أمر أثناء احتضاره ابنه عبد الله بتسليم السلطة لمن يصل من أخويه إلى قرطبة أولا :

«من سبق إليك من أخويك - يقول المحتضر لابنه عبد الله - فأبرأ إليه بالخاتم والأمر، فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب السوريين له»(٤٤).

على أية حال، فبمجرد تولية هشام ثار سليمان فى طليطلة وجمع جيشا واتجه به إلى قرطبة، لكنه هُزم فى أراضى «جيان» وقفل عائدا إلى طليطلة. وبعد قليل لحق عبد الله بأخيه سليمان، لأنه بالرغم من احترامه وصية والده لم يستسغ تولية هشام.

تردد هشام فى استخدام القوة ضد أخويه وأشفق عليهما، لكنه لم يجد فى النهاية بدا من ذلك حتى لاتتسع نيران التمرد، ومن ثم فقد عمد إلى حصار طليطلة عام ٧٨٩م (١٧٣هـ). استمر الحصار لأكثر من شهرين، استطاع سليمان الفرار إلى بلد تدمير (مرسية) وإضرام نيران الثورة بها. ولما اقتنع سليمان بعد سنة من عدم جدوى تمرده كتب لأخيه هشام يطلب الأمان فقبله هشام لكنه اشترط عليه الخروج من الأندلس وأعطاه سبعين ألف دينار تعويضا عن تركة والده، وغادر سليمان الأندلس إلى المغرب ليعيش فى ركن من أركان الأراضى البربرية. ومن جهة أخرى، طلب عبد الله العفو أيضا وهاجر إلى شمال أفريقيا ليعيش فيه حتى موت الأمير هشام الأول.

اتسمت السنوات القلائل التى حكمها هشام بالهدوء النسبى حيث لم يسجل المؤرخون إلا ثلاث ثورات علاوة على تمرد الأميرين المروانيين:

ففى عام ٧٨٨/٧٨٩م (١٧٢هـ) قام «سعيد بن الحسين الأنصارى» بثورة فى أراضى «طرطوشة» داعيا عشيرته اليمنية إلى صفوفه، لكنه هزم فى النهاية على يد «موسى بن فرتون بن قسى» (أحد قواد الأمير)(٤٥)، وهو أصلا من منطقة «أراجون» (أو «رغون»)؛ كما استطاع موسى استرداد سرقسطة.

وبعد قليل من الثورة السابقة عادت عاصمة إقليم «رغون» (ARAGON) للإفلات من ربقة السلطة الأموية عندما قاد أحد أبناء «سليمان بن يقظان الأعرابى» - حليف شرلمان القديم - حركة تمرد فى برشلونة واستولى على سرقسطة، «وشقة» (HUESCA)، لكن القائد المخلص «عبيد الله بن عثمان» هزمه وقتله.

وفى عام ٧٩٥/ ٧٩٦م (١٧٨هـ) جاء الدور أخيرا على البربر لكى يشقوا عصا الطاعة فى القسم الذى يعيشون فيه وحدهم تقريبا : فى «تاكرنا» (TAKORONNA)، أى فى المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة «رُندة» (RONDA). ولقد تم القضاء على عصيانهم بالحديد والنار، وبقيت منطقتهم تلك - طبقا للمصادر التاريخية - شاغرة من السكان لمدة سبع سنوات كاملة.

الجهاد ضد «أشتوريش» والفرنجة خلال عهد هشام الأول :

ساعد الهدوء النسبى فى الأندلس الأمير هشام - الفاضل الورع - على شن الحرب المقدسة، طوال سنى حكمه، على مملكة أشتوريش (ASTURIAS)، ليحقق بذلك الحلم الذى لم تمكن الظروف والده من تحقيقه فى كسر شوكة تلك الدولة التى أسسها «ألفونسو الأول».

تحدث المؤرخون العرب بالتفصيل عن الحملات (أو «الصائفات»، مفردها «صائفة») التى توالت على شمال غرب شبه جزيرة أيبيريا.

فى نفس العام الذى تولى فيه هشام الأول حكم الأندلس (٧٨٨م)، اعتلى «برمودو الأول» (BERMUDO, I) عرش مملكة أشتوريش. ولم تكد تمضى ثلاث سنوات حتى جهز المسلمون جيشين لمهاجمة المسيحيين : قاد الجيش الأول «عبيد الله بن عثمان» وانطلق به عبر وادى نهر «إبرُه» حتى وصل إلى «ألبه» (ALAVA)[٤٦] وأنزل بالمسيحيين هزيمة نكراء ودامية؛ بينما قاد الجيش الثانى «يوسف بن بخت» واتجه به ناحية الغرب حيث التقى بالجيش المسيحى بقيادة «برمودو الأول» وهزمه هزيمة ساحقة.

وفى العام التالى (٧٩٢م)، وقبل قليل من تولى «ألفونسو الثانى» السلطة خلفا لبرمودو الأول، استطاع «عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث» أن يجتاح «ألبه» من جديد وينتصر عليها.

أما الصائفة التى قام بها المسلمون عام ٧٩٤م (١٧٨هـ) فلم يقدر لها النجاح. فى تلك الغزوة جهز هشام جيشين (كما فعل فى الغزوة الأولى) وعهد بقيادتهما إلى الأخوين «عبد الكريم» و«عبد الملك بن مغيث». توجه الجيش الأول لمهاجمة منطقة «ألبه»، بينما سار الثانى إلى الجبهة الغربية ليهاجم «جليقية» (GALICIA). نجح الجيش الذى يقوده عبد الكريم فى هجومه الخاطف والسريع على «ألبه»؛ أما جيش عبد الملك فقد توغل فى أراضى أشتوريش ووصل إلى «أوبييدو» (OVIEDO) (العاصمة الجديدة التى نقل إليها ألفونسو الثانى مقر حكمه) وأعمل فيها التخريب واستولى على كثير من الأسلاب والغنائم، لكن المسيحيين انقضوا عليه بعد انسحابه عند منطقة تكثر بها المستنقعات وقتلوا معظم جنوده. لم يقتل القائد «عبد الملك بن مغيث» فى هذه الغزوة - كما يعتقد الكثيرون[٤٧] - لأننا نجده يظهر على مسرح الأحداث بعد تسع سنوات، أى فى عام ٨٠٣م (١٨٧هـ) ليقود حملة أموية جديدة ضد مملكة أشتوريش.

انتقم المسلمون لكارثة ٧٩٤م بعد عام واحد من حدوثها. فقد خرج من قرطبة (عام ١٧٩هـ) جيش تحت قيادة «عبد الكريم بن مغيث» ووصل إلى مدينة «أسترقة» (ASTORGA) واستولى عليها، ثم تقدم للقاء ألفونسو الثانى الذى لم يستطع التصدى للجيش المسلم وفر بعد معركة دامية صوب الشمال، وتعقبه أحد مساعدى القائد العربى ويدعى «فرج بن كنانة» حتى جبال أشتوريش واضطره إلى الهرب إلى حصن على نهر «نلون» (NALON) للاحتماء به. ولم ينسحب الجيش المسلم إلا بعد تحقيق الأهداف التى جاء من أجلها.

وفى نفس هذا العام (١٧٩هـ) خرج جيش آخر من قرطبة وسار فى اتجاه مغاير، وهاجم عددا من المدن والقرى المسيحية، لكن القوات المسيحية طاردته عند انسحابه وأنزلت به خسائر جسيمة فى الأرواح. وفى العام التالى مات هشام الأول، ولم يستغل خلفه حالة الاستقرار والهدوء الداخلى لمواصلة الجهاد ضد شمال غرب شبه الجزيرة إلا عام ٨٢٦م (٢٠٠هـ). وعلى هذا فقد استطاع المسيحيون التقاط أنفاسهم فى هذه السنوات العشرين التى استغلوها فى استرداد أراض جديدة.

قبل بضع سنوات من موت الأمير هشام، وفى الفترة التى تخللت الصائفتين ضد «ألبه»، تلقى القائد «عبد الملك بن مغيث» الأوامر بالسير على رأس حملة إلى منطقة «جيرندة» (GERONA) الفرنجية والوصول إلى «سبتمانيا».

ذكرنا آنفا أن «جيرندة» أصبحت منذ ٧٨٥م (١٦٩هـ) تمثل جزءا من مملكة «أكيتانيا». وطبقا للمصادر العربية، فإن «عبد الملك بن مغيث» حاصر تلك المدينة وقتل معظم رجالها وهدم أسوارها وأبراجها لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها. ثم زحف – دون مقاومة تذكر – حتى وصل إلى «أربونة» (NARBONA) فأحرق ضواحيها وخربها لكنه لم يستولِ أيضا عليها. فى تلك الأثناء كان لويس – ملك أكيتانيا – فى إيطاليا ومعه خيرة قواته، فقام «جيين» (GUILLEN) – دوق «تولوز» (TOLOSA) – بتجميع ما استطاع من قوات وحاول قطع الطريق على جيش المسلمين الذى كان يتهيأ للزحف على «قرقشونة» (CARCASONA). التقى الجمعان على ضفاف جدول صغير يدعى «أوربو» (ORBIEU) بالقرب من قرية «بييدين» (VILLEDAIGNE)[٤٨]، حيث هزم جيش الدوق «جيين» هزيمة ماحقة، ووقع الدوق – برغم بسالته – أسيرا فى أيدى المحاربين المسلمين. عاد الجيش المسلم مظفرا إلى قرطبة ومعه كثير من الأسلاب والأسرى. ويذكر أن خمس الغنائم المخصص للأمير هشام كان يضم خمسة وأربعين ألف أسير

دون حساب الكميات التى يصعب حصرها من الذهب والفضة[٤٩]. وبالتأكيد فإن هذه الأرقام بها كثير من المبالغة، ومن المنطقى قسمتها على عشرة، إن لم نقل على مائة.

العمل بالمذهب المالكى فى أسبانيا :

ينسب المؤرخون العرب لهشام الأول – وأحيانا لابنه وخليفته الحكم الأول – مبادرة نشر المذهب المالكى والتبنى الرسمى له فى أسبانيا. والحقيقة أن كلا العاهلين قد ساهم فى إدخال هذا المذهب، وأن الحكم هو الذى قرر – بعد موت أبيه بقليل – إسناد المناصب القضائية، والدينية بعامة، إلى العارفين بهذه المدرسة الشرعية الجديدة.

يمكن أن نكون قد لاحظنا أن رجال الدين والفقهاء والقضاة (ولم تكن توجد بينهم أية فروق فى المجتمع الإسلامى العربى حتى نهاية العصر الوسيط) لم يقوموا بدور ذى بال إلى جوار عبد الرحمن الأول الذى شغله تكريس همه فى تثبيت دعائم سلطانه عن التأثر برجال الدين أو انتظار مشورتهم بالرغم – وهذا شئ مؤكد – من صلابة إيمانه ورسوخ عقيدته.

لكن الأمور تغيرت مع قدوم هشام الأول بصلاحه وورعه وغيرته الدينية التى أجمع عليها المؤرخون وأشادوا بها. فينسب لهشام الأول عدد لايحصى من أعمال البر والمشروعات الخيرية التى قدمها طمعا فى مرضاة الله وابتغاء مثوبته فى اليوم الآخر، ومن هذه الأعمال : إعادة بناء قنطرة قرطبة الرومانية على نهر الوادى الكبير والتى صدّع فيضان النهر جزءا منها[٥٠]؛ بناء مئذنة لمسجد قرطبة الجامع وإضافة أشياء جديدة له لم تكن موجودة فى التخطيط الذى وضعه والده[٥١].

وأدت سماحة هشام وسعة ثقافته إلى اتصاله المستمر بفقهاء قرطبة وعلمائها، وإلى تشجيع رعاياه على الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وكان يتابع بنفسه الأخبار التى يحملها هؤلاء الحجاج عن تطور علوم الشريعة الإسلامية فى الشرق.

فى ذلك الوقت كان الإمام الشهير مالك بن أنس[٥٢] – الذى توفى بالمدينة المنورة عام ٧٩٥/٧٩٦م (١٧٩هـ) – يقوم بإلقاء دروسه الأخيرة على مجموعة كبيرة من تلامذته وأتباعه بالمدينة، والمتعلقة بالتطبيق العملى للمبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية كما حددتها السنة المحمدية.

وقام الإمام مالك بجمع الأحاديث النبوية فى كتابه المعروف «الموطأ» [أى : الطريق الممهد]، الذى أصبح بعد ذلك أساسا للمذهب المالكى (نسبة إلى الإمام مالك)

الذى انتشر على وجه الخصوص فى الغرب الإسلامى؛ أما الثلاثة مدارس الفقهية الأخرى – الشافعية، الحنفية، الحنبلية، نسبة إلى أصحابها – وهى لاتختلف عن المذهب المالكى إلا فى التفصيلات الدقيقة أو المنهجية، فقد انتشرت فيما بعد وعمل بها فى بقية أنحاء العالم الإسلامى.

وفى السنوات التى تلت موت مالك بن أنس بقيت فى المدينة جماعة من الفقهاء الأندلسيين لمواصلة دراسات هذا العالم، ومنهم : زياد بن عبد الرحمن شطون، يحيى بن مضر، عيسى بن دينار، والفقيه القرطبى ذو الأصل البربرى يحيى بن يحيى الليث. وقد قام هؤلاء الفقهاء أثناء دراستهم فى المدينة بتعريف معلمهم (الإمام مالك) بحسن شمائل وفضل أميرهم الذى يحكم الأندلس؛ وعندما عادوا إلى وطنهم قاموا بالدعوة للمذهب المالكى – بتشجيع ومباركة هشام الأول ومن بعده الحكم الأول(٥٣) – فى قرطبة والمدن الأندلسية الأخرى، وهكذا أخذ المذهب المالكى ينتشر بسرعة حتى غدا – فى عهد الحكم الأول – المذهب الرسمى للدولة الذى تصدر عنه جميع الفتاوى والأحكام الفقهية. ومن جهة أخرى، فإن دراسات المذهب المالكى فى أسبانيا قد تمخضت – منذ ذلك الحين وحتى الأيام الأخيرة لحرب الاسترداد – عن نتاج أدبى غزير وغير عادى.

قبل أن يدخل المذهب المالكى أسبانيا، كان المذهب المعمول به فيها هو مذهب الإمام السورى «الأوزاعى» (المتوفى عام ٧٧٤م – ١٥٧هـ)، وكان يقوم بتدريس ونشر مذهبه فى أسبانيا تلميذه «صعصعة بن سلام الشامى»، مفتى وإمام قرطبة الذى ينسب إليه غرس الأشجار فى صحن مسجدها الجامع.

ونظرا للامتياز الذى تمتع به مذهب الإمام مالك فى الأندلس وعاصمتها منذ عهد هشام الأول فقد بدأت تتشكل فى قرطبة منذ ذلك التاريخ مايمكن تسميته بالأرستقراطية الدينية الثقافية المؤلفة من الفقهاء وعلماء الدين المالكيين.

وكما كان متوقعا فإن هذه الطبقة المميزة سرعان ماتدخلت فى شئون السياسة، فهى تارة تحاول كسب ودّ الأمير بغرض التأثير فى قراراته والتدخل فى سياسة الدولة، وتنقلب تارة أخرى على الأمراء الذين يعرضون عنهم ولايهتمون بهم. وستكون لنا وقفة فيما بعد للتعرف فى القرن التاسع على ردود الأفعال التى أثارها التدخل الزائد عن الحدّ للفقهاء فى شئون الحكم؛ مثلما سنرى المعارضة التى تبناها بعضهم ضد النظام الحاكم. كما ستكون لنا وقفة فيما بعد نتناول فيها بالتحليل المكانة التى سيحتلها الفكر المالكى فى حياة الأندلس الثقافية.

لكن يهمنا من الآن لفت النظر إلى أن تبنى أسبانيا المبكر للمذهب المالكى – بصرامته وعداوته للتجديد – سيجنبها النزاعات الدينية التى بدأت تمزق بقية العالم الإسلامى. وبالطبع فإن الأندلس لن تكون البلد الوحيد الذى سيلجأ إلى الصرامة والشدة فى معاقبة حركات التمرد والزندقة؛ لكن هذا الإجراء سيتسم بطابع الفورية على الأراضى الأيبيرية ولن يثير أى احتجاج ولن يستثنى أية طبقة اجتماعية وذلك بفضل الوحدة العقائدية المفروضة على الجميع. والأحكام التى ستصدر بشأن مظاهر المروق ستكون مستندة على الموافقة الضمنية للأمير الذى لن يرضى عن التشدد بديلا حتى لايثير انتقادات الفقهاء وغضب العامة من رعاياه. وعلى هذا الأساس ستلعب دولة الإسلام فى الأندلس دور الناصر والراعى للسلفية المتشددة، وستظل سادرة فى احترامها الأعمى لفهم جامد للعقيدة، وستجهض دون رويّة أية محاولة – مهما كانت بسيطة – للاجتهاد والتأمل على أساس عقلانى(٥٤).

الحكم الأول [٧٩٦ – ٨٢٢م](٥٥)، وقمع حركات التمرد فى الثغور الحدودية :

قضى هشام الأول مايزيد قليلا عن سبع سنوات فى الحكم، ومات عن أربعين سنة فى ١٧ أبريل ٧٩٦م (٣ صفر ١٨٠هـ) بعد أن أوصى بتعيين ابنه الثانى «أبو العاص الحكم» خلفا له مفضلا إياه على ابنه الأكبر «عبد الملك».

كان عمر الحكم وقتها ستة وعشرين عاما، ولذا كانت تنتظره سنوات طويلة ليمضيها فى الحكم الذى لم نكن نعرف عنه الكثير لولا الاكتشاف الحديث لجزء من مدونة ابن حيان التاريخية يتعلق بعهده. ويوجد تفاوت كبير بين التفصيلات الكثيرة التى يقدمها لنا هذا الجزء من مدونة ابن حيان عن الحكم الأول وخلفه عبد الرحمن الثانى وبين الإشارات المقتضبة والجافة التى قدمتها عن هذين الأميرين المصادر التاريخية الأخرى. ونبدأ الحديث عن عهد الحكم الأول قائلين بأن الاستقرار شبه الكامل الذى شهدته أسبانيا المسلمة خلال العهد القصير لهشام الأول سيتلاشى على الفور بمجرد تولى ابنه الحكم السلطة. وبالرغم من السأم الذى يجلبه الحديث عن حركات التمرد والثورة المستمرة التى تحفل بها عهود معظم الحكام الأمويين إلا أن الواجب يقتضى ذكرها للأسباب التالية : لأنها تحدد إطار سياسة الأمراء الداخلية، وتحول بينهم وبين تنفيذ السياسات الخارجية المناسبة، وتجبرهم فى أحيان كثيرة على غض الطرف عن الرد على الهجمات التى يشنها عدوهم المسيحى على ثغورهم الحدودية، ولاتسمح لهم بالتقاط الأنفاس لكى ينظموا أنفسهم من الداخل ويتفرغوا للجهاد ضد «الماركات»

المسيحية في شمال شرق وشمال غرب شبه جزيرة أيبيريا. فمن المعروف أن النيران إذاأمسكت بالبيت لن يهتم أحد من ساكنيه بنهب الجيران لأسواره. ولاينسحب هذا المثل فقط على حال الأندلس الذي ستظل عليه حتى سقوطها المروع في نهاية القرن الخامس عشر، بل أيضا على بقية الغرب الإسلامي.

وكما هي العادة بدأ الحكم الأول عهده بنزاع أسرى، لكنه – على خلاف المتوقع – لم يكن مع أخيه الأكبر بل مع عميه اللذين نازعا أخيهما هشام الأول السلطة بمجرد انتقالها إليه، وبعد هزيمتهما اضطرا لعبور المضيق إلى شمال أفريقيا حيث استقر سليمان في طنجة بينما طاف عبد الله ببلاد البربر فزار «إبراهيم بن الأغلب» أمير القيروان كما زار «عبد الوهاب بن رستم» إمام «تاهرت» وهناك علم بموت أخيه هشام وتولية ابن أخيه الحكم فأسرع بالجواز إلى الأندلس، علّه يسبق أخاه الأكبر سليمان، فنزل بالثغر الأعلى (سرقسطة) عند «بهلول بن مرزوق» الثائر على الأمير الجديد، ولم تفلح محاولة تمرد عبد الله لأنه لم يجد هناك من يؤيده ويعترف بحقه في الولاية. ولما باءت محاولته بالفشل، توجه في العام التالي (٧٩٧م – ١٨١هـ) بصحبة ولديه «عبيد الله» و«عبد الملك» إلى بلاد الفرنجة لمقابلة شرلمان في مدينة «أكس جران» (AQUISGRAN) ليعرض عليه ماسنتحدث عنه فيما بعد.

وفي العام التالي جاء الدور على عم الحكم الأول (سليمان) الذي عاد إلى أسبانيا وجمع جيشا وتهيأ للزحف به على قرطبة مباشرة. وفي خلال عامين التقى ست مرات بقوات الأمير عند «إستجة» (ECIJA) ووادي «شنيل» (GENIL) والوادي الكبير، وانهزم في المرات الست وفي الأخيرة منها بصورة نهائية واضطر بعدها للارتداد إلى «ماردة» وحاول إضرام نار الفتنة بها لكن الزعيم البربري لهذه المدينة (إصبغ بن وانسوس) قبض عليه وقتله وأرسل رأسه إلى قرطبة فأمر الحكم بتعليقها على رمح والطواف بها في شوارع المدينة.، وبعد ذلك أمر – في لمحة كريمة منه – بدفنها في المدافن الملكية إلى جوار مقبرة عبد الرحمن الأول.

أما عبد الله، فقد استطاع بعد عودته من عند شرلمان الاستيلاء على «وشقة» عام ٨٠٠م (١٨٤هـ)، لكن بهلول بن مرزوق (الزعيم الأرجواني الذي سنتحدث عنه فيما بعد) أخرجه منها، فاتجه إلى «بلنسية» ليضرم نيران الثورة بها. وبعد أن خبت آماله في تحقيق مايصبو إليه عرض الصلح على ابن أخيه واستمرت المفاوضات بينهما مدة لاتقل عن ثلاث سنوات. وفي النهاية قبل الحكم الأول الصلح معه وأرسل إليه الفقيه «يحيى بن يحيى الليثي» ليخبره بعفو الأمير عنه بشرط البقاء في بلنسية وعدم

مغادرتها، وبالفعل أوفى عبد الله بالتزامه وظل بقية حياته حاكما شبه مستقل على «بلنسية»[٥٦] (حتى أنه عُرف بعبد الله البلنسي) وكان يتلقى راتبا شهريا من الأمير مقداره ألف دينار. واستقدم الحكم ولدى عمه عبد الله إلى قرطبة وزوجهما ببنتين من بناته وهما عزيزة وأم سلمى[٥٧]. وسينال أحد هذين الولدين، وهما عبيد الله بن عبد الله، شهرة واسعة ومجدا كبيرا لقيادته جيوش قرطبة بنجاح داخل البلاد المسيحية وسيطلق عليه «صاحب الصوائف».

وإذا تركنا جانبا ثورة عمى الأمير والانتفاضة الشعبية العارمة التى اندلعت فى قرطبة، سنجد أن الحكم الأول قد قضى سنى حكمه مشغولا بإخماد بُؤَر التمرد فى ثغور مملكته بكل من سرقسطة وطليطلة وماردة. لقد كانت سرقسطة مصدر صداع دائم لأمراء بنى أمية الأُوَل، وتسبب قربها من سبتمانيا الفرنجية وبلاد البشكنس (مملكة «نبرّة» فى المستقبل) فى إقامتها علاقات اقتصادية وسياسية مع تلك الأقاليم التى مر عليها الإسلام مرور الكرام ولم يمارس سلطته عليها إلا زمنا يسيرا.

أما مستعمرات البربر المتواجدة فى ذلك العصر بوادى نهر «إبرُه» فكانت كالجزر المنعزلة البعيدة، وكانت بوجه عام مطمعا للمغامرين العرب فى الإقليم ومعتنقى الإسلام من الأسبان (المولدين) الذين سيزداد نفوذهم مع الوقت لينتهى بتكوينهم فى «رغون» (أراجون – ARAGON) إقطاعية كبيرة – إن لم نقل إمارة – يتوارثها أفرادها، ونعنى بهم عائلة «بنى قسىّ». وطبقا لابن حزم فإن هذه الأسرة تنحدر من الكونت القوطى «قسى» الذى اعتنق الإسلام بمجرد وصول العرب، وتحمل عناء السفر إلى سورية ليعلن طاعته لخليفة دمشق. وقد قام «موسى بن فرتون» (الذى أشرنا إليه من قبل) حفيد هذا الكونت بمصاهرة «إنييجو أريستا» (IÑIGO ARISTA)[٥٨] (أول ملك بشكنسى لبنبلونة)، ولذا فإن أولاده وأحفاده تجمعهم الروابط الأسرية بأول سلالة حاكمة لإقليم «نبرّه»، وستقوم ذرية موسى هذا بدور سياسى هام فى الثغر الأعلى مع انتصاف القرن التاسع. لكن دور هذه الأسرة لم يكن قد برز كثيرا خلال عهد الحكم الأول، وكانت الشخصية المسيطرة فى أراضى سرقسطة هى شخصية مولد آخر من «وشقة» يدعى «عمروس بن يوسف». كان عمروس نصيرا وفيا لأمير قرطبة وساعده عام ٧٩٧م (١٨١هـ) فى القضاء على تمرد طليطلة – الذى سنتحدث عنه فيما بعد – ثم على ثورة سرقسطة وبقى حاكما على هذه المدينة حتى وفاته.

بعد قليل من تولى الحكم الأول للسلطة شق «بهلول بن مرزوق» عصا الطاعة وأعلن استقلاله بسرقسطة. ونتيجة لسوء تفاهم عارض مع أمير قرطبة الجديد، حاول

«عبد الكريم بن مغيث» وأخوه «عبد الملك» (القائدان الأثيران لدى هشام الأول) طرد بهلول من سرقسطة والاستيلاء عليها لحسابهما الخاص لكنهما لم يتمكنا من ذلك. أما الجيش الذى أرسله أمير قرطبة فقد حالفه التوفيق وتمكن من اقتحام المدينة التى فر منها بهلول إلى أعالى إقليم «رغون» (أراجون).

وفى عام ٨٠٠م (١٨٤هـ) ظهر بهلول على مسرح الأحداث من جديد باستيلائه على «وشقة»، وسجل نفس العام قيام أفراد من عائلة «بنى قسى» بعدد من حركات العصيان المتناثرة. فى تلك اللحظة قرر الحكم الأول نقل مساعده الأمين «عمروس» من طليطلة إلى سرقسطة وأعطاه السلطة المطلقة التى سمحت له بفرض النظام على الثغر الأعلى بكامله. وصل عمروس إلى سرقسطة عام ٨٠٢م (١٨٦هـ) فتعقب بهلول وقتله، ثم استولى على إقطاعية «بنى قسى» وعاقب مولدى «وشقة» عقابا صارما لما أبدوه من أمارات العصيان.

وفى نفس العام، وبهدف إيجاد نقطة ارتكاز حصينة على تخوم «رغون» (أراجون) و«بسكونية» (VASCONIA)، أنشأ عمروس على ضفة نهر «إبره» اليمنى (فى منتصف الطريق تقريبا بين سرقسطة وبنبلونة) ثغر «تطيلة» (TUDELA) المنيع وجعل عليه ابنه يوسف وأمده بحامية قوية. وقام عمروس فى نفس الوقت بتقوية استحكامات «وشقة» وولى ابن عمه «شبريت» (SHABRIT) أمرها. ومنذ هذه اللحظة وحتى موت عمروس (فى ٨١٢م – ١٩٦هـ) سيتخفف الحكم الأول من تبعة حفظ النظام فى منطقة سرقسطة وماحواليها؛ لكن الأمير أحس – قبل سنتين من موت عمروس – أن الأخير يعيش عيشة الأمراء فى قصره على ضفاف نهر «إبرُه» وأنه يتصرف باستقلالية تامة وخاصة بعدما دخل فى مفاوضات مع «لودوبيكو پيو» (LUDOVICO PIO) دون الرجوع إلى قرطبة. ولكى يعالج الأمير الأمور بحكمة دون تسميم علاقته بعمروس أمر قائده «عبد الكريم بن مغيث» بالسير على رأس جيش إلى الثغر الأعلى وأوصاه بعدم الدخول فى حرب مع عمروس إلا إذا بدرت منه وقاحة على الرسالة الودية التى يحملها إليه من سيده. لكن عمروس أبدى تأثره لما جاء فى الرسالة ولم يستنكف عن الذهاب إلى قرطبة ليبرهن على ولائه لسيده الحكم، وعندها أكرم الأمير وفادته بل إنه شرفه بلعب الكرة معه وأعاده إلى سرقسطة مصحوبا بالتبجيل والتكريم.

بعد موت عمروس، أسلم الحكم الأول قيادة الثغر الأعلى لابنه عبد الرحمن، ثم عهد بها بعد ذلك إلى ابن عمروس.

من المعروف أن غالبية سكان طليطلة كانوا من المولدين (مثلها فى هذا مثل سرقسطة) وقد ظلت حاضرة الثغر الأوسط تفيض بعوامل الهياج منذ الفتح الإسلامى، لها، وبعد سنة واحدة من تولى الحكم الأول السلطة عادت طليطلة إلى الثورة تحت قيادة ثائر متمرد يدعى «عبيد الله بن خمير»[٥٩] وشاعر قرطبى من أصل طليطلى يدعى «غريب بن عبد الله» كان قد اختلف مع العاهل الأموى ولجأ إلى مسقط رأسه حيث ساهم بأشعاره الجارحة فى إثارة الرأى العام وإذكاء روح التوتر والاضطراب. وأمام تلك الظروف أمر الحكم الأول عمروس – الذى كان وقتها حاكما على ثغر «وشقة» وفى مقتبل مشواره السياسى – بالتوجه إلى طليطلة وأعطاه كافة الصلاحيات لاختيار أنجع الوسائل للقضاء نهائيا على التمرد الطليطلى.

تخلص عمروس أولا من زعيم التمرد «عبيد الله بن خمير» بعد أن أوقعه فى كمين، ثم تفرغ لأعيان طليطلة ووجهائها واستطاع القضاء على معظمهم فى المجزرة الوحشية المعروفة «بواقعة الحفرة». ويرجع بعض المؤرخين العرب – وتبعهم «دوزى» فى ذلك – تاريخ هذه المذبحة لعام ٧٩٧م (١٨١هـ) وعلى هذا فهم يقدمونها عشر سنوات كاملة على تاريخها الحقيقى (٨٠٧م – ١٩١هـ)[٦٠].

وتفاصيل هذه المذبحة المروعة تقول أن عمروس بعد أن استقر بطليطلة وتمكن من القضاء على «ابن خمير» حاول كسب ثقة الطليطليين عن طريق تظاهره بالتعصب للجنس الأسبانى وإبداء كراهيته لبنى أمية وللعرب، وأخبرهم أن سبب عداوته للأمير هو تواجد جنوده بداخل المدينة وشغلهم لبيوت الطليطليين، ومن هنا فقد أقنع السكان بضرورة بناء حصن شمال غرب المدينة (بالقرب من قنطرة نهر تاجه) يكون مأوى له ولجنود الحامية. ولما انتهى من بناء الحصن أعلم عمروس الأمير بأنه أتمه وانتقل إليه مع جنوده، فأسرع الحكم – حسب الخطة الموضوعة – بأمر أحد قواده فى الثغور بأن يكتب إليه مدعيا أن حركة بدت من العدو – وذلك حيلة منه حتى يتمكن جيشه من الاقتراب من طليطلة دون إثارة ريبة أهلها–، ولما وصل كتاب القائد أمر الحكم بزحف الجيش وعلى رأسه ابنه عبد الرحمن (ولم يكن قد تجاوز وقتها الأربعة عشر عاما). عندما وصل الجيش إلى ضواحى طليطلة خرج عمروس وأعيان المدينة للقاء ولى العهد وطلبوا منه تشريف مدينتهم بالزيارة. وبعد إلحاحهم عليه قبل ولى العهد دعوتهم، وعندئذ وجه عمروس الدعوة لوجهاء المدينة لحضور حفل العشاء الكبير الذى أعده فى الحصن تكريما لابن الحكم. وعندما أقبل الأعيان (من المولدين) فى الموعد المحدد لم يؤذن لهم فى الدخول إلى الحصن إلا واحدا واحدا بحجة تفادى الزحام. وكان قد تم

لاستعداد داخل الحصن فحفرت حفرة كبيرة وعلى جانبيها عدد من الجلادين، وحينما يصل الواحد منهم – ومن خلال ممر ضيق – إلى تلك الحفرة يتلقونه بالسيوف ويلقونه فيها. ويحدد بعض المؤرخين عدد من قتلوا فى ذلك اليوم بخمسة آلاف بينما يجعلهم البعض الآخر سبعمائة (وهو رقم كبير فى جميع الأحوال).

ومن السهولة تخيل وقع المذبحة على من بقوا أحياء فى طليطلة وعلى المولدين فى بقية المدن الأندلسية.

كانت هذه المذبحة بمثابة ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعمائها وقضت لعدة سنوات على روح الثورة فيها حتى بعد خروج الداهية عمروس منها وذهابه لسرقسطة فى مهمة جديدة كلفه بها الأمير. ومع هذا تمكنت بمرور الوقت غريزة التمرد من نفوس الطليطليين مجددا ابتداء من عام ٨١١/ ٨١٢م (١٩٦هـ) وتكررت ثوراتهم فى الأعوام الثلاثة التالية لدرجة أن الأمير اضطر بعد ذلك (فى ٨١٨/ ٨١٩م – ٢٠٣هـ) لإرسال جيش لحصار حاضرة الثغر الأوسط لكن دون التوصل – كالعادة – لنتائج إيجابية.

وفى نفس ذلك الوقت شهد الثغر الأدنى صراعا مع المولدين والبربر المتمردين. اندلعت فى «ماردة» حركة التمرد التى ساهم فيها المستعربون وقادها الحليف القديم لقرطبة «إصبغ بن وانسوس»، واستمرت عملية قمعها، التى بدأها الحكم عام ٨٠٦م (١٩٠هـ)، سبع سنوات. مات الإصبغ عام ٨٠٧/٨٠٨م (١٩٢هـ) ولم تستسلم «ماردة» إلا عام ٨١٣ (١٩٧هـ)، لكنها عادت للتمرد عام ٨١٧م (٢٠١هـ) واضطر الحكم لإرسال ولده عبد الرحمن على رأس جيش إليها.

فى خلال تلك الفترة – وبالتحديد فى ٨٠٨/٨٠٩م (١٩٣هـ) – قاد مغامر آخر يدعى «توملوس» (TUMLUS) تمردا فى لشبونة، فأرسل الحكم إليها حملة يقودها ابن ثان له (الأمير هشام)، وتمكن هشام من قتل زعيم التمرد وإخضاع المنطقة الواقعة بين لشبونة و«قلمرية» (COIMBRA).

ثورات قرطبة : مؤامرة ٨٠٥م، وانتفاضة ٨١٨م :

علاوة على هذه القائمة العريضة للتمردات الرئيسية التى أنفق الحكم الأول القسط الأعظم من عهده في إخمادها، لازال يوجد حدثان خطيران – لايفصل بينهما سوى ثلاثة عشر عاما – أدميا قرطبة وكاد أحدهما – على الأقل – أن يتسبب فى

ضياع عرش الأمويين فى أسبانيا على يد أميرهم الثالث. ومن باب إحقاق الحق تجدر الإشارة إلى أن العباسيين لم يكن لهم يد - خفية أو ظاهرة - لافى هذين الحدثين ولا فى التمردات الأخرى لأنهم تخلوا منذ زمن عبد الرحمن الداخل عن فكرة السيطرة على الأندلس.

ويمكن القول كذلك بأن الحركات الدينية لم تجد فى أسبانيا خلال القرن التاسع - وقبل ظهور الدعوة الفاطمية - أرضا خصبة للانتشار (وهذا على عكس النجاح العريض الذى حققته فى بقية أنحاء العالم الإسلامى وأدى إلى حدوث انشقاقات وحالات مروق وهرطقة)، وكل مايمكن اكتشافه خلال عهد الحكم الأول ينحصر فى محاولتين ذات طابع سياسى من جانب البربر الخوارج فى منطقة «مورور» و«الجزيرة الخضراء»[٦١]؛ لكن العاهل الأموى أبطل مفعولهما فى الحال. وعلى هذا فإن دعوة الخوارج - الواسعة الانتشار فى شمال أفريقيا - لم تلق أبدا رواجا على الأرض الأسبانية، والدليل على هذا أن ابن حزم لن يشير - بعد قرنين من الزمان - إلا إلى مجموعة منعزلة من السكان تدين بهذه الدعوة وتعيش فى «بلفيق» (VELEFIQUE) بأراضى ألمرية[٦٢].

لاشك أن قرطبة كانت - فى العصر القوطى - مدينة هامة تعج بالسكان، لكن أهميتها زادت وتغيرت ملامحها كثيرا منذ عهد عبد الرحمن الأول؛ وبعد أن أصبحت عاصمة للإمارة الأموية فى الأندلس نزحت إليها جموع غفيرة من العرب القادمين من الشرق وأفريقيا بالإضافة إلى أعداد أخرى من المغاربة ذوى الأصول البربرية. وقد رأينا من قبل كيف لجأ عبد الرحمن الأول إلى زيادة رقعة مسجدها الجامع عام ٧٨٥م (١٦٩هـ) لمواجهة الزيادة المطردة فى أعداد المسلمين بها. ولما جاء هشام وأعاد بناء الجسر الرومانى القديم على نهر الوادى الكبير فى جنوب المدينة، كان من الطبيعى أن يمتد العمران إلى الضفة اليسرى للنهر والمواجهة للمدينة، وبهذا الشكل ظهر على هذه الضفة حىّ آهل بالسكان (الربض) يمتد من ضفة النهر حتى بلدة «شقندة» (SECUNDA) المجاورة. ولم تكن سكنى هذا الحى مقتصرة على دهماء قرطبة والحرفيين وصغار التجار من المولدين والمستعربين، بل إن قربه من مسجد قرطبة ومن قصر الإمارة ومن الشارع الحيوى المسمى «المحجة العظمى» الذى ينتهى عند القنطرة، قد جعل كثيرا من القرطبيين الذين يدرسون أو يعملون بالمسجد أو قصر الإمارة يفضلون سكنى هذا الحى. ومن ضمن هؤلاء نشير إلى غالبية تلاميذ أنس بن مالك الذين أصبحوا فقهاء مميزين ومؤثرين. ولم يلبث حى الربض طويلا حتى تحول إلى

مركز معارضة داخل قرطبة نتيجة لمخالطة الفقهاء لعناصر الشعب فى الطبقة الشعبية. ومن جهة أخرى، لاقت معارضة الحى تعاطفا ومؤازرة من سكان قرطبة ذاتها.

وإضافة إلى ماتقدم، فلم تكد تمضى عدة سنوات على ولاية الحكم الأول حتى سادت موجة من النفور والسخط بين جميع طبقات قرطبة الاجتماعية، وأخذ الناس ينعتونه بالطغيان وعدم الاكتراث بما يحصل منهم من ضرائب وبالانحراف عن الاعتدال والميل للعنف وبعده عن رعيته وإكثاره من المرتزقة الأجانب حوله.

وزادت حدة التوتر فى قرطبة عندما سرت الأنباء ذات يوم بإعدام الحكم الأول لاثنين وسبعين مواطنا - من بينهم شخصيات معروفة - وعزمه على صلبهم على الكورنيش الأيمن لنهر الوادى الكبير (المسمى بالرصيف) من باب القنطرة حتى «المصارة» (المكان الذى هزم فيه عبد الرحمن الأول يوسف الفهرى، وكان يوجد به مصلى غير مسقوف يستخدم فى صلاة العيدين)(٦٣).

وتفاصيل هذه الحادثة التى جرت فى مايو ٨٠٥م (جمادى الآخر ١٨٩هـ) كانت كالتالى : اجتمع عدد كبير من أعيان قرطبة وفقهائها وقرروا إقالة الحكم واستبداله بابن عمه «محمد بن القاسم»(٦٤). تظاهر الأموى بالقبول، لكنه أطلع الحكم على المؤامرة وأخبره بأسماء المتآمرين. وعلى الفور أمر الحكم فى نفس اليوم بالقبض عليهم وسلمهم للجلادين، كما أمر فى نفس الوقت باغتيال عمين آخرين له كان قد أودعهما السجن بعد ولايته ونعنى بهما : مسلمة (الملقب بكليب) وأمية (ابنا عبد الرحمن الداخل). كان من بين المصلوبين : ابن قاض قديم لقرطبة؛ مفتش أسواق المدينة (صاحب السوق) وتلميذ مالك بن أنس الفقيه يحيى بن مضر.

كان وقع هذا الإجراء الدموى شديدا على قرطبة وتعالت موجة السخط بها : فالهرج والمرج يسودان اللقاءات العامة، والمؤمرات تحاك فى المساجد، وفى كل مكان ينتشر الجواسيس والوشاة. وعلى الجانب الآخر، لم يقف الحكم مكتوف الأيدى بل أمر بترميم أسوار قرطبة وسد فجواتها، وحَفْر خندق حول السور، وتحصين أبواب قصره، وفتح «باب جديد» (بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لسور قرطبة» يؤدى إلى طريق يفضى إلى مخاضة بالنهر على مقربة من المدينة(٦٥). كما كَدّس قصره بالسلاح والعتاد، وجلب من خارج أسبانيا عبيدا جددا لحرسه الخاص الذى عهد بقيادته لزعيم الجالية المسيحية بقرطبة القومس (كونت) ربيع (ابن تيودولفو - TEODULFO).

وسجل العام التالى (٨٠٦م - ١٩٠هـ) حدوث شغب فى جنوب حى الربض عندما تطاول التجار على رئيس شرطة الأسواق وتظاهروا بأسلحتهم فى الشوارع.

كان الحكم يقود وقتها الحصار المضروب حول «ماردة» ولما علم بالحادث عاد على وجه السرعة إلى قرطبة «فى ثلاثة أيام فقط» ليحقق بنفسه فى الموضوع. قبض على المحرض الرئيسي للشغب، وهو تاجر بحى الربض. وعلى عدد آخر من المتورطين وتم قتلهم جميعا وصلبهم. وبالرغم من محدودية هذا الحادث إلا أنه يعتبر مؤشرا لحالة الغليان في المدينة ومقدمة للتمرد الخطير الذى سيحدث فى نفس الحى بعد اثنى عشر عاما.

فى خلال تلك الأعوام الاثنى عشر كانت حدة التوتر تزداد بين الجماهير، ولم يدخر الفقهاء (الغاضبون من إهمال الأمير لهم) وسعا فى استغلال تأثيرهم على العامة والنفخ فى النار المستكنة بين الجذوات.

وبالرغم من التورط السافر لكل من «يحيى بن يحيى الليثى» و«طالوت بن عبد الجبار» فى الانتفاضة الشعبية التى شهدتها العاصمة قرطبة فى ٢٥ مارس ٨١٨هـ (١٣ رمضان ٢٠٢هـ) وقمعها الأمير الأموى بشراسة غير مسبوقة، إلا أنه من قبيل المبالغة تحميل هذين الفقيهين مسئوليتها الكاملة(٦٦).

قبل العصيان العام بقليل كان الحكم قد فرض ضرائب استثنائية (مغارم) وعهد بتحصيلها للقومس ربيع (متولى المعاهدين بالأندلس من الأنصارى) فأضاف إلى استنكار الناس لهذه الضرائب نفورهم من أن يتولى جبايتها منهم نصراني. وعلى هذا فقد كانت تكفى مجرد شرارة لاندلاع النار فى الهشيم، وتمثلت هذه الشرارة فى حادث بسيط مفاده أن جنديا من حرس الأمير ذهب إلى حداد من الربض ليصلح له سيفه وعندما تباطأ الحداد فقد الجندى صبره وقتله.

فى نفس ذلك اليوم كان الحكم قد ذهب إلى الصيد فى جنوب العاصمة وعند عودته وعبوره حى الربض متجها إلى قصره تعرض له أهل الحى بالقول وصفقوا عليه بالأكف فقبض الحراس الذين كانوا فى معيته على عشرة منهم وصلبوهم فى الحال. لم يكد الأمير يدخل قصره حتى تعالت همهمات التمرد المخيفة على الجانب الآخر للنهر. أغلقت المحال والمتاجر وتوجه - فى جماعات - التجار والحرفيون وبقية العامة المسلحين بالسكاكين والفئوس والمطارق نحو قنطرة الوادى الكبير يريدون اقتحام أبواب قصر الأمير.

قام اثنان من حاشية الأمير - وهما حاجبه «عبد الكريم بن مغيث»، وسكرتيره «فطيس بن سليمان» - باتخاذ التدابير اللازمة. وبينما كانت الميليشيات تقوم بدوريات

لحفظ النظام في مدينة قرطبة، جمع عبد الكريم وفطيس ماوصلت إليه أيديهما من قوات وحاولا بها صد طوفان الثائرين الذي كان يتضخم دون هوادة، لكن مقاومتهما بدأت تضعف وتمكنت الجموع من اختراق صفوفهما ولم ينقذ الموقف إلا حيلة نفذها قائدان من قواد الحكم وهما عبيد الله (صاحب الصوائف وابن عبد الله البلنسي) والمرواني «إسحاق بن منذر». قام هذان القائدان بتجميع الفرسان النظاميين المنتشرين في قرطبة وتسللوا من «الباب الجديد» وأسرعوا بخيولهم في اتجاه مخاضة «الرملة» (RAMBLA) ثم عبروا النهر واستتروا بمرتفع صغير يسمى «دمنة الخشابين» حتى وصلوا إلى بيوت حي الربض.

تنبه الثائرون للتهديد القادم من الخلف، ولما رأى المدافعون عن القنطرة رفقاءهم الزاحفين من المؤخرة اندفعوا للهجوم فبات الثوار محصورين بين نارين وتشتت جموعهم. من تلك اللحظة أصيب التمرد بالشلل وبدأت المذبحة الجماعية. أرخى الحكم – الذي نجا بأعجوبة من غضب العامة – لجنوده العنان في إمعان القتل والتخريب. استمرت المذبحة وأعمال السلب والنهب، الغير مسبوقين، ثلاثة أيام، ولم ينج منهما شارع أو حارة أو بيت. ولو لم يصغ الحكم لغير سكرتيره «فطيس» لذبح أهل الحي عن بكرة أبيهم؛ لكن توسلات وزيره «ابن مغيث» جعلته يوقف المذبحة أخيرا وإن كان قد أمر بالاستيلاء على كل مخارج الحي من جهة الضفة اليسرى للنهر لحين النظر فيما سيفعله. وبعد أيام قلائل أعلن حكمه على الملأ :

إعدام وصلب ثلاثمائة من المتمردين الباقين على قيد الحياة؛ الإبقاء على حياة بقية أهل الحي بشرط مغادرتهم الفورية لقرطبة؛ تسوية الحي كله بالأرض وزراعته. ونُفذت الأوامر بحذافيرها، ولم يجرؤ أحد من خلفاء الحكم حتى نهاية القرن العاشر على مخالفة الحظر والبناء على أرض الحي القديم ولو بناية متواضعة.

أرهب هذا القمع الدموي سكان قرطبة لفترة طويلة، وبسببه التصق بفاعله (الحكم الأول) لقب «الربضي»، والمؤرخون المسلمون يميزونه بهذا اللقب عن الخليفة الثاني للأندلس : الحكم الثاني (الملقب بالمستنصر بالله).

بدأ نزوح جميع أهالي حي الربض – باستثناء الفقهاء وعائلاتهم الذين عفا عنهم الحكم – قبل نهاية نفس الشهر الذي شهد الانتفاضة (رمضان ٢٠٢هـ – النصف الأول من أبريل ٨١٨م). ويقدر بعض المؤرخين عدد العائلات التي رحلت عن الحي بما لايقل عن عشرين ألف عائلة. توجهت أعداد قليلة من الربضيين (وهذا اللقب قد التصق

بهم أيضا إلى طليطلة على أمل تعاطف أهالى تلك المدينة العاصية معهم، لكن غالبيتهم فضلوا ترك البلاد كلية وعبور البحر خوفا من أن يلحق بهم بطش الحكم فى أى مكان يحلون فيه بالأندلس. وفى الطريق إلى البحر المتوسط تعرضت قوافلهم المتواضعة لبعض المضايقات، وبعد عبورهم المضيق توجه معظمهم إلى المغرب حيث استقروا بين قبائل «الريف» وجبلة البربرية، وفى المدن القليلة الموجودة بالمنطقة.

فى ذلك الوقت كان الأمير إدريس الثانى يبحث عن سكان لعاصمته (مدينة فاس) التى أسسها والده إدريس الأول عام ٧٨٩م (١٧٢هـ). كما كانت لدى إدريس الثانى مدينة أخرى تسمى «عالية» كان قد انتهى من تشييدها وتعميرها بالمنشقين الأفارقة ومعظمهم من القيروان. أما مدينة إدريس الأول (فاس)، الواقعة على ضفة جدول صغير فى مواجهة «عالية»، فقد كان يسكنها البربر وحدهم. ولما كان إدريس الثانى مهتما بعدم جعل طابع مدينة أبيه وعاصمته بربريا خالصا فقد وجد فى هجرة الربضيين نجدة له، ومن ثمّ فقد عرض عليهم الإقامة بفاس وقدم لهم جميع التسهيلات الممكنة. واستجاب الأندلسيون لطلبه وأقامت بضعة آلاف منهم فى الحى الذى خصصه لهم فى مواجهة «عالية» (المسماة بمدينة القروانيين)، ولم يمض وقت طويل حتى سمى المكان الذى أقاموا فيه بمدينة الأندلسيين التى نقلوا إليها مظاهر الحياة الأندلسية الراقية خصوصا وأن معظمهم كان ممن يجيد الحرف والصناعات والزراعة وفنون العمارة وتنسيق الحدائق.

وطبقا للمؤخين العرب فإن مجموعة أخرى من الربضيين المنفيين كانت لديهم طموحات أكثر وبدلا من الاقتصار على العبور إلى أفريقيا قررت القيام بمغامرة فى وسط البحر المتوسط أو شرقه، وفى يوم موعود ألقت سفنهم مراسيها أمام مدينة الاسكندرية. وماتلى ذلك من أحداث رواها مؤرخو مصر الإسلامية بتواريخ تبدو وكأنها سليمة لكنها لاتكاد تسمح بمطابقة هؤلاء المغامرين الأسبان بالربضيين المنفيين عام ٨١٨م.

وإذا كان هؤلاء المؤرخون المصريون يتحدثون عن قرطبيين – وهذا شئ شبه مؤكد – فإن التاريخ الذى أثبتوه لهم يعنى أنهم خرجوا من أسبانيا قبل اندلاع ثورة حى الربض الشعبية، وسبب مغادرتهم أسبانيا فى هذه الحالة يمكن أن يكون نتيجة لاضطرابات سابقة أو لمبادرة خاصة أو تنفيذا لأمر معين صدر لهم. وفى جميع الأحوال فمن قبيل المؤكد أن هؤلاء القرطبيين لم يكونوا بحارة متمرسين ولذا يغلب الظن بأنهم استعانوا ببحارة من السواحل الأسبانية، ومن المعروف أن «أندلوثية»

(ANDALUCIA) و«ليبانتى» (LEVANTE) كان يكثر بهما فى ذلك العصر البحارة المهرة الذين لايخشون مهاجمة السفن التجارية فى عرض المتوسط والدليل على هذا أن أحد المؤرخين – وهو «إيخيناردو»[٦٧] – قد ذكر بأن شرلمان اضطر لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة أعمالهم القرصانية.

ومما تقدم يتضح أن المؤرخين المسلمين – غير المكترثين عادة بمشاكل التواريخ – قد استسهلوا مضاهاة قراصنة مطلع القرن التاسع الأندلسيين بمن بقوا على قيد الحياة من مذبحة الربض، وفى هذا يكمن سبب اضطرار بعضهم لتقديم تاريخ ثورة الربض أربع سنوات كاملة[٦٨].

على أية حال، فقد كانت مغامرة هؤلاء الأسبان فى الشرق فريدة بكل المقاييس، ولذا تستحق منا بعض الكلمات. حينما وصل هؤلاء الأندلسيون إلى السواحل المصرية، انتهزوا فرصة الاضطرابات الموجودة فيها نتيجة للخلاف بين الخلفاء العباسيين واستولوا على مدينة الإسكندرية وأسسوا فيها جمهورية صغيرة بمساعدة العرب اللخميين وبعض الطوائف الدينية. وفشلت محاولة قام بها السكندريون لطردهم واستمرت الجمهورية الأندلسية لمدة عشر سنوات إلى أن قام الحاكم «عبد الله بن طاهر»[٦٩] بحصارهم فى مايو ٨٢٧م (صفر ٢١٢هـ)، وبعد عدة أيام من الحصار استسلم الأندلسيون وتعهدوا بالجلاء عن الاسكندرية وترك مامعهم من عبيد وبعدم النزول من جديد بأى أرض تابعة للعباسيين. وهكذا أبحر الأندلسيون واتجهوا إلى جزيرة «كريت» (CRETA) التابعة فى ذلك الوقت للدولة البيزنطية واستولوا عليها تحت قيادة «أبى حفص عمر البلوطى» (نسبة إلى ناحية «فحص البلوط». واستمر حكم هذه الجزيرة فى ذرية «أبى حفص» إلى أن قام – عام ٩٦١م، وبعد محاولات سابقة فاشلة – القائد (والامبراطور فيما بعد) «يقفور فوكس» (NICEFORO FOCAS) باسترداد الجزيرة لحساب الامبراطور «رومانو الثانى» (ROMANO, II)[٧٠]. ومنذ استيلاء الأندلسيين على كريت وحتى تاريخ عودتها إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية – أى حوالى قرن ونصف تقريبا – تحولت الجزيرة إلى قاعدة بحرية هامة للأساطيل الإسلامية التى أخذت تُغير على جزر بحر «إيجة» (EGEO) وتهاجم السفن التجارية، وأصبحت مصدرا للرعب والذعر فى وسط وشرق البحر المتوسط.

الصراع مع مملكة «أشتوريش» فى عهد الحكم الأول :

بالرغم من أن عهد الحكم الأول امتد لأكثر من ربع قرن من الزمان إلا أن شغله الدائم بقمع الثورات داخل ثغور مملكته ومواجهة اضطرابات عاصمته لم يمكناه من

احتذاء سيرة والده هشام الأول فى مواصلة الجهاد وإرسال الحملات السنوية (المعروفة بالصوائف) إلى تخوم أسبانيا الإسلامية فى اتجاه أراضى «أشتوريش» أو «سبتمانيا» الفرنجية. ولهذا السبب شهدت فترة حكمه توغل مسيحيى شمال غرب وشمال شرق أسبانيا داخل أراضى الدولة الأموية؛ علاوة على تراجع عمليات المسلمين العسكرية فى إقليم البرانس وجبال «كنتبريا».

وتمدنا مدونة ابن حيان التاريخية ببعض المعلومات المفصلة عن الأنشطة العسكرية فى بداية عهد الحكم الأول ضد مملكة أشتوريش. وفى كثير من الأحيان لاتتفق هذه المعلومات (التى لم تنشر بعد) مع النتائج التى توصل إليها المؤرخون المحدثون – مثل «كوديرا» (CODERA)(٧١)، «بارو ديهيجو» (BARRAU-DIHIGO)(٧٢) – ولامع المصادر العربية أو اللاتينية الأخرى المتاحة حتى وقتنا الراهن.

وعلى سبيل المثال فقد تحدث ابن حيان عن تفاصيل أول حملة أعدها الحكم العام التالى لتوليه السلطة (٧٩٦م – ١٨٠هـ)، وكنا قبل اكتشاف الجزء المكمل لمدونته التاريخية لانعرف عنها سوى نتف من أخبار مجملة. كان هدف هذه الحملة – التى قادها عبد الكريم بنِ مغيث – الإقليم المعروف بالقلاع أو قشتالة القديمة. توغل القائد المسلم فى وادى «إبره» واستولى على ثغر «قَلَهُرَّة» (CALAHORRA) ومنه أرسل كوكبة من الفرسان لاستطلاع المنطقة الواقعة أقصى شماله الغربى؛ وبعد ذلك تبع فرقة الاستطلاع ببقية قواته واجتاز جميع الأراضى التى صادفته دون مقاومة حتى وصل لساحل «سانتندير» (SANTANDER)، ومن هناك أخذ طريق العودة إلى قرطبة «تعوق مسيرته – طبقا لابن حيان – كثرة الأسلاب والغنائم التى استولى عليها». وبعدها شُغَل الحكم بنزاعه مع عميه ولم يستطع لعدة سنوات إرسال صائفة جديدة لمملكة «أشتوريش».

وفى المقابل، انتهز ألفونسو الثانى الفرصة وهاجم لشبونة واستولى عليها عام ٧٩٨م (١٨٢هـ)، ثم أرسل سفراءه لشرلمان فى «أكس جران» ليزفوا إليه البشرى. لكن استيلاء ملك «أشتوريش» على لشبونة لم يدم طويلا لأن المسلمين استردوها منه عام ٨٠٩/٨٠٨م (١٩٣هـ) فى الحملة الى قادها ابن الحكم – وأشرنا إليها من قبل – ولم يكتف فيها باسترداد تلك المدينة الواقعة عند مصب نهر «تاجه» بل أخضع الإقليم الممتد شمالها حتى قُلُمْرِيَّة.

ويعتبر سقوط برشلونة فى أيدى الفرنجة عام ٨٠١م (١٨٥هـ) أهم الأحداث التى جرت فى عهد الحكم الأول على الإطلاق (وسنعود لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد).

أما الحملة التى أرسلها الأمير الأموى فى نفس العام تحت قيادة أخيه معاوية لى «ألبة» و«القلاع» فقد فشلت فشلا ذريعا. ويتفق مارواه ابن حيان عنها مع ماجاء ى مصدرها الوحيد حتى الآن وهو المصدر اللاتينى(٧٣). فى تلك الصائفة التى لاقى يها الجيش القرطبى خلال شهر رمضان (سبتمبر / أكتوبر) هزيمة نكراء بأحد ممرات سلسلة جبال كنتبريا(٧٤) فقد الأمير معاوية زهرة فرسانه وتمكن من الإفلات بصعوبة والعودة إلى قرطبة حيث مات كمدا وحزنا بعد أشهر قلائل.

وبعد مرور عامين على هذه الصائفة المشئومة - أى فى عام ٨٠٣م (١٨٧هـ) - توجه عبد الملك بن مغيث (الذى عاد للانضواء هو وأخوه عبد الكريم تحت لواء الحكم الأول بعد سوء تفاهم عارض معه) على رأس حملة صيفية جديدة إلى «ألبة» و«القلاع»، ثم عاد إلى قرطبة بعد جولة طويلة عرّج فيها على سرقسطة. وإشارة ابن حيان المقتضبة عن حملة عبد الملك بن مغيث هذه تجعلنا نظن بأن نتائجها كانت سلبية. ولم تسجل السنوات الخمس التالية أى نشاط حربى للمسلمين ضد مملكة أشتوريش؛ وفى عام ٨٠٨م (١٩٢هـ) نجد اشارة موجزة عن صائفة ضد «جليقية» كان على رأسها الأمير هشام (أحد أبناء الحكم الأول) واجتازت أراضى البرتغال الحالية ثم عادت مظفرة إلى قرطبة. وبعد هذه الصائفة مرت ثمانية أعوام أخرى توقف فيها الحديث عن حملات جديدة فى شمال غرب أسبانيا.

أما مملكة أشتوريش فقد استغلت فترات تعطل الجهاد الإسلامى وشنت غارات عديدة على الأراضى الإسلامية تأخر الرد عليها حتى عام ٨١٦م (٢٠٠هـ). فى هذا العام قرر الحكم الرد لاسترداد هيبة المسلمين فأرسل جيشا قويا بقيادة حاجبه «عبد الكريم بن مغيث» إلى قبائل البشكنس التى تحالفت مؤخرا مع ألفونسو الثانى. كانت «بنبلونة» عاصمة «بسكونية» (VASCONIA) - قد خرجت عن السيطرة الإسلامية عام ٧٩٨م (١٨٢هـ)(٧٥) بعد أن قتل أهلها العاهل الأموى «مطرف بن موسى بن قسى» واختاروا زعيما من بينهم يدعى «بلاسكو» (VELASCO). توجه جيش المسلمين نحو هدفه الرئيسى وهو «بلاسكو»، ثم إلى تخوم «ألبة» وواصل تقدمه بعد ذلك حتى بلغ إقليم القلاع «قشتالة القديمة» حيث التقى بقوات الملك ألفونسو الثانى ودارت المعارك بينهما ثلاثة أيام متواصلة فرّ بعدها جيش أشتوريش مخلفا وراءه كثيرا من القتلى، من بينهم - طبقا لابن حيان - خال ألفونسو الثانى المدعو «غرسيه بن لب» (وأمه أخت الملك برمودو الأول) وزعيم بشكنسى يسمى «شانجة» (SANCHO). حاول المسلمون تعقب الفارين لكنهم أسرعوا نحو ممر ضيق بين الجبال يجرى فيه تيار من الماء وسدوه

بجذوع الأشجار والحجارة، وكان هذا الحاجز الطبيعي سببا في وقف المطاردة وعودة القوات المسلمة إلى قواعدها في يونيو ٨١٦م (ذي الحجة ٢٠٠هـ).

تحدث عن هذه الحملة التي جرت وقائعها في صيف ٨١٦م، ولكن بتفاصيل أقل كثيرا، مؤرخون عرب آخرون، بالإضافة إلى مدونة «ناخيرنس» (NAJERENSE) اللاتينية. ولأن «دوزي» و«كوديرا» و«بارو ديهيجو» اعتمدوا على هذه المصادر المقتضبة فقد اعتقدوا بأن الحملة كانت موجهة إلى «جليقية» في حين أن هدفها - كما رأينا - كان بسكونية وقشتالة القديمة. وقد نتج عن خلطهم في تحديد هدف الحملة انحراف استنتاجاتهم عن وجه الحقيقة، وعلى سبيل المثال فقد حاولوا مضاهاة الاسم العربي للنهر الذي وقعت عنده المعركة (وادي أرون WADI ARUN) بنهر آخر وهو «نهارون» (NAHARON)، والمكان القريب من النهر بـ «نارون» (NARON) (وهي قرية جليقية بإقليم «فرّول» FERROL)[٧٦]. لكننا لو أردنا الاستدلال على مكان المعركة وعلى أعلامها الجغرافية فعلينا الاتجاه بالبحث ناحية أقصى الشمال، عند المنحدر الجنوبي لسلاسل جبال كنتبريا، بالقرب من أعالي وادي «إبرُه». وعلى هذا الأساس فمن المرجح أن الموقعة جرت عند قرية «أرون» (ORON)[٧٧] القريبة من «ميراندا» (MIRANDA) «إبرُه» ومن ممر «بانكوربو» (PANCORBO) الضيق الذي يجري فيه - أسفل الطريق والخط الحديدي اللذين يربطان «إيرون» (IRUN) بمدريد - التيار المائي المسمى «أورونثيو» (ORONCILLO). على أية حال، فقد كانت صائفة ٨١٦م هي آخر حملة يرسلها الحكم الأول إلى أراضي أشتوريش والبشكنس، ومرت الست سنوات الباقية من عهده دون القيام بأي نشاط حربي في شمال غرب أسبانيا[٧٨] وربما يكون هذا راجعا لعقد هدنة بين الطرفين. ومن جهة أخرى فقد شهد شمال شرق أسبانيا - في نفس الفترة - توقفا آخر للحرب بين الفرنجة والعاهل الأموي.

الهجمات الفرنجية على برشلونة وطرطوشة (TORTOSA)[٧٩]:

لم تكد تمضي خمس سنوات على ولاية الحكم الأول حتى سقطت برشلونة في أيدي الفرنسيين (عام ٨٠١م - ١٨٥هـ)، ولم تستطع أسبانيا الإسلامية مداواة جرحها العميق باسترداد هذاالثغر ثانية. ولهذا السبب يقتصر المؤرخون العرب - المجمعون هذه المرة على تحديد التاريخ - على الإشارة المجملة إلى سقوط عاصمة قطلونية دون عرض تفاصيل ماحدث.

وبالرغم من أن ابن حيان لم يقدم لنا في «المقتبس» التفاصيل التي كنا ننتظرها منه عن هذا الحدث الكبير إلا أنه يسوق بعض المعلومات التي لم نكن نعرف عنها شيئا إلا عن طريق المراجع المسيحية الخاصة بسيرة شرلمان مما يؤكد مصداقيتها.

وفيما يلى نقدم عرضا لما حدث طبقا للمصادر الإفرنجية التى يكمل بعضها بعضا :

فى نهاية القرن الثامن قام عبد الله البلنسى (عم الحكم الأول) بالذهاب إلى «أكس جران» ليحرض شرلمان على إرسال حملة تنطلق من «جيرندة» صوب برشلونة ودلتا نهر إبرُه. فى نفس الوقت أبدى ملك أشتوريش (ألفونسو الثانى) لامبراطور فرنسا استعداده لمساعدته والاعتراف بسيادته فى حالة قيامه بأى عمل عسكرى فى تلك المنطقة القريبة من البرانس. وبالإضافة إلى ماتقدم فقد قام حاكم برشلونة المسلم (ويدعى «زادو» **Zado**، أو «زاطو» **Zato**) بالذهاب هو الآخر إلى «أكس جران» ليعد شرلمان بتسليمه المدينة لأول فرقة فرنجية تظهر أمام أسوارها.

أيقظت هذه الوعود الوردية فى شرلمان ذكرى مغامرته الفاشلة على سرقسطة عام ٧٧٨م؛ لكنه وجدها فرصة للانتقام للهزيمة المرّة التى أنزلها المسلمون منذ أربع سنوات عند «أربيو» (**ORBIEU**) بعامله على «تولوشة» (**TOLOSA**)، الدوق «جيين». ونظرا للحيرة بين ذكرى سرقسطة الأليمة والانسياق لشهوة الانتقام أرجأ شرلمان اتخاذ القرار. لم يتخذ شرلمان قرار القيام بعمل عسكرى فى أراضى المسلمين إلا عام ٧٩٨م فى المجلس الذى عقده ابنه لويس بمدينة «تولوشة» وحضره ممثلون عن زعيم سرقسطة المتمرد «بهلول بن مرزوق». وفى حيطة تامة أعدت الحملة (وذكرها لم يرد فى أية مدونة عربية) التى اقتصر هدفها على احتلال المنطقة الجبلية الواقعة بين «جيرندة» وأعالى وادى «سيجرى» (**SEGRE**)، وتوجد بها الثغور المنيعة التالية : «أوسونا» (**AUSONA**)، «كسيرّاس» (**CASERRAS**) و«كردونا» (**CARDONA**). فى العام التالى (٧٩٩م) صحب «لودوبيكو» (**LUDOVICO**) والده شرلمان إلى «ساخونيا» (**SAJONIA**) ولم يعد لأكيتانيا إلا عام ٨٠٠م. وفى الفترة التى قام فيها شرلمان بالذهاب إلى روما لتتويجه امبراطورا أغار ابنه على «لاردة» (**LERIDA**) التى خربها وعلى «وشقة» التى كان بهلول قد استولى عليها لحسابه الخاص (متنكرا بهذا لوعوده للفرنجة) بعد طرده لعبد الله البلنسى منها.

لم يمنع تنكر «زادو» أو «زاطو» (عامل برشلونة المسلم) هو الآخر لوعوده السابقة مع الفرنجة اتخاذ شرلمان قرار مهاجمة عاصمة قطلونية عام ٨٠١م.

وبينما كانت قوات الفرنجة تجتاز أراضى الإقليم وتحرق المزروعات التى لم تحصد بعد، كانت فرقة قوطية تحت إمرة شخص يدعى «بيرا» (**BERA**) تطوق المدينة.

بعد عامين كاملين من الحصار أمر «لودوبيكو» (بموافقة شرلمان) بإرسال تعزيزات كثيفة من «أكيتانيا» و«غسقونيا» و«بروڤانس» و«بورجونيا»، وعلى رأسها قادة متمرسون مثل «روستانج» (ROSTAING) (دوق جيرندة) و«جيين» (دوق «تولوشة») بهدف تشديد الحصار وزيادة فاعليته. طلب حاكم المدينة «زادو» النجدة من قرطبة؛ لكن الجيش الأموى الذى قدم لمساعدته قرر أثناء الطريق الإغارة على «ألبة» فابتعد بذلك عن هدفه الأساسى. ومع طول الحصار خارت قوى برشلونة واستسلمت – طبقا لمدونة «مويساك» (MOISSAC) – عام ٨٠٣م وحضر «لودوبيكو» لتسلم مفاتيحها بنفسه.

تتجلى حسنة الخبر القصير الذى أورده ابن حيان عن سقوط برشلونة فى تأكيده على وجود الحاكم «زادو» وفى تقديمه لاسمه العربى الحقيقى وهو «سعدون الرعينى». ويذكر ابن حيان بأن هذا الحاكم استنجد بالزعماء العرب المجاورين لبرشلونة واستطاع الصمود عامين كاملين، لكنه اضطر فى النهاية لتسليم المدينة عام ٨٠١م (١٨٥هـ). (ومعلومة ابن حيان هذه تعنى أن حصار برشلونة بدأ عام ٧٩٩م (١٨٣هـ)). ويضيف ابن حيان قائلا بأن برشلونة تقلدت منذ تلك اللحظة الدور الذى لعبته «جيرندة» من قبل : أى أصبحت تمثل رأس جسر الهيمنة الفرنجية فى مواجهة الأراضى الإسلامية.

وبالفعل فقد نقل «لودوبيكو» بالاستيلاء على برشلونة، حائط الصد المواجه للقوى الإسلامية إلى الجانب الآخر من البرانس؛ وفى عام ٨١٧م أخذ «بيرا» (BERA) لقب ماركيز هذا الثغر والمنطقة المحيطة به وحكم المدينة بعد عودته لاعتناق المسيحية إلى أن تولى حكمها «كارلوس ألكالبو» (CARLOS EL CALVO) عام ٨٦٥م وإليه يرجع الفضل فى رسم الملامح الحقيقية لسياسة هذا الثغر الأسبانى ممهدا بذلك لظهور قطلونية فى المستقبل القريب(٨٠).

لم يتحدث ابن حيان فى سرده المجمل للأحداث التى جرت فى عهد الحكم الأول حسب ترتيبها الزمنى عن أية مواجهة حربية أو علاقة سلمية بين الفرنجة والمسلمين بعد سقوط برشلونة وحتى عام ٨٠٧م (١٩١هـ). وعندما وصل لهذا العام يخبرنا بأن شرلمان (أو «كارلو بن بيبين» – طبقا لتسميته) أتم فيه عقد هدنة مع الأمير الأندلسى، ويضيف قائلا بأن مشروع وقف العمليات الحربية كان مطروحا منذ توليه الحكم وأن تحديد بنود الاتفاقية قد احتاج لتبادل طويل لوجهات النظر قامت بها سفارات متعددة من الجانبين. وقد ساق لنا ابن حيان سببا غير متوقع لسعى الجانب الفرنسى لعقد هذه الهدنة مفاده أن الفرنجة كانوا قلقين لظهور مملكة آل إدريس الأول فى المغرب

ويخشون قيام تحالف بينها وبين أمير قرطبة فى مواجهة الغرب المسيحى. وفى هذا المقام يحق لنا التساؤل : أيوجد فى تبرير ابن حيان لعقد الهدنة مايمت بصلة إلى الحقيقة؟ إن المنطق يقتضى طلب الحكم الأول تنازل الفرنجة عن برشلونة لو كانوا هم الساعين وراء الصلح وعقد الهدنة. ولذا فمن الواضح أن ابن حيان يبحث عن مبرر لوقف الأعمال العسكرية التى تجمدت بالفعل لفترة ولكن بناء على طلب الأمير القرطبى دون شك.

وابن حيان يقصد – بالتأكيد – الهدنة التى عقدت بعد ثلاثة أعوام فى (٨١٢هـ) وأشارت إليها المصادر الفرنسية.

وإضافة إلى ماتقدم فقد خلط مؤلف «المقتبس» عند تحديده لتواريخ هذه الفترة وترتيبها ترتيبا زمنيا، فهو على سبيل المثال يحدد تاريخ موت شرلمان بخريف عام ٨٠٧م (نهاية ١٩١هـ) بدلا من ٨١٤م، ويعزى خرق الهدنة لابن شرلمان (لودوبيكو) الذى شن هجوما عسكريا فى الصيف التالى على مصب نهر إبرُه.

لو صدقنا مايقوله «الأسترونمو» (ASTRONOMO) فإن «لودوبيكو» قد قام بعد سقوط برشلونة بثلاث محاولات للاستيلاء على «طرطوشة» (TORTOSA) : الأولى بين عامى ٨٠٤ – ٨٠٧م، والثانية فى ٨٠٨م، والثالثة فى ٨٠٩م. أخفق «لودوبيكو» فى الأولى والثانية ونجح مسعاه فى الثالثة.

ويشكك المؤرخون المحدثون فى هذه المعلومة التى لم يرد عنها حرف واحد سواء فى المدونات الفرنجية أو على لسان «إرمولدو» (ERMOLDO). أما ماتسوقه المصادر العربية فى هذا الشأن فهو أقرب إلى التصديق، وطبقا لتلك المصادر فإن ملك «أكيتانيا» (لودوبيكو) استولى عام ٨٠٨م (١٩٢هـ) على «طرّكونة» (TARRAGONA) ثم سار بجيشه نحو «طرطوشة»؛ لكنه اصطدم فى الطريق بطابور من الجيش الإسلامى تحت قيادة الأمير عبد الرحمن (ولد الحكم الأول) فأوقف تقدمه وجعله يولى الأدبار. وفى عام ٨٠٩م (١٩٣هـ) كرر «لودوبيكو» المحاولة واصطدم من جديد بقوات نفس الأمير التى تساندها هذه المرة قوات «عمروس» (حاكم سرقسطة) وقوات «عبدون بن الغمر» (والى طرطوشة). وأمام أسوار المدينة دارت رحى الحرب التى انتصر فيها المسلمون، وعاد «لودوبيكو» يجرجر أذيال هزيمته النكراء ومنذ ذلك الحين لم يعاود الفرنجة الكرّة على طرطوشة وظلت المدينة حتى نهاية الخلافة الأموية ثغر الإسلام المنيع فى مواجهة قطلونية؛ أما طرّكونة» فقد تعاورتها خلال نفس الفترة حملات كثيرة من الجانبين ووقعت فى أيدى المسلمين مرات وفى أيدى المسيحيين مرات أخرى.

وفى السنوات التالية لهذه الأحداث ذهبت أيضا أدراج الرياح محاولات الفرنجة للاستيلاء على «وشقة».

يقول المؤرخون الفرنسيون أن الهدنة التى طلبها الحكم الأول من شرلمان لمدة ثلاث سنوات بدأت(*) عام ٨١٢م(٨١). ومع هذا فإن ابن حيان يتحدث وبالتفصيل عن حملة إسلامية ضد ثغر برشلونة الأسبانى جرت وقائعها صيف ٨١٣م : أى خلال فترة الهدنة.

ولإكمال الصورة تجدر الإشارة إلى أن ابن عذارى يرجع تاريخ هذه الحملة لعام ٨١٥م (١٩٩هـ)(٨٢). فى هذه الحملة التقى جيش كبير تحت قيادة «عبيد الله» (ابن عم أمير قرطبة والملقب «بصاحب الصوائف») بالقوات الفرنسية المكلفة بحماية برشلونة فى السهل القريب من المدينة. حدث اللقاء يوم الجمعة، وكان يوما عصيبا على الفرنجة لأن الفرسان المسلمين شتتوا شملهم وأشاعوا الرعب بين صفوفهم وقتلوا منهم أعدادا غفيرة : ولما انجلت المعركة نُصبت قنوات عالية وثُبتت فى الأرض وأمر بالرؤوس المجذوذة فجمعت وطرحت حواليها حتى غابت القنوات فيها، ومن أعلى هذه الكومة من الرؤوس نادى المؤذن للصلاة. ومما لاشك فيه أن نجاح هذه الحملة الساحق قد أعاد الهيبة للعاهل الأموى فى الثغر الأسبانى، لكنه لم يكن كافيا ليعيد إليه برشلونة.

شخصية الحكم الأول وأعماله :

من شراسة الحكم وقسوته الجامحة فى قمع عصيان طليطلة وانتفاضة الربض يتضح أن الأمير الأموى الثالث لم يكن يشبه أباه (هشام «الرضى») فى شئ ولاحتى جده عبد الرحمن الأول؛ وأن هذا العاهل المستبد المنتقم طغى كثيرا فى استخدام سلطته ولم يكن يصغى إلا لنداء نوازعه؛ ولم يكن له من همّ سوى الحفاظ على الملك الذى آل إليه ونقله لورثته. غير أن المؤرخين المسلمين لهم فيه رأى آخر، باستثناء ابن حزم الذى يبغضه ويهاجمه بعنف ويعتبره طاغية أعماه السلطان(٨٣).

(*) ورد فى النص الأسبانى لفظ «انتهت» وقد قمنا بتصويبه إلى «بدأت»، وذلك لأن اللفظ الأول يتناقض مع معنى الجملة التالية كما يخالف كلام المؤلف السابق -الذى لايفصلنا عنه سوى بضعه جمل- ويحاول فيه تصحيح ما ذهب إليه ابن حيان فى تحديد تاريخ بداية الهدنة. (المترجم)

ويبدو أن المؤرخين – حتى هؤلاء الذين ينتمون لعصور متأخرة ويتخففون بالتالى من تبعة التظاهر باحترام سلالة حاكمة ابتلعها الزمان – لايهتمون بالوسائل التى اعتمد عليها الحكم قدر اهتمامهم بالنتائج التى أسفرت عنها، ولذا فإنهم يحسبون له ترسيخ ملك بنى أمية والتمكين له فى الغرب. وحكمهم هذا لايخلوا من صواب لأن حياة الفرد لم تكن ذات بال فى ذلك العصر وطريق العدالة كان دائما محفوفا بالعراقيل. ولايفوت هؤلاء المؤرخين التركيز على أن عهد الحكم الأول، بالرغم من اضطرابه، قد صادف بداية «أنسنة» الأندلس وفيه ظهرت بوادر الريادة الثقافية التى ستمارسها الإمارة فيما بعد على بقية الغرب الإسلامى.

وبالفعل يمكن ملاحظة أن أسبانيا – التى ظلت منطوية على نفسها خلال قرن كامل نتيجة لضغوط سياسية – أخذت مع عصر الحكم تفك إسار عزلتها وتتجاوز بناظريها حدود البحر المتوسط لتطل على الأراضى الإسلامية القريبة والبعيدة.

وبهذا الخصوص يمكن أن نسجل الآن (أى فى عهد الحكم الأول) تحت بند زيارة الأماكن المقدسة أو الرحلات الدراسية التى بدأت فى عصر هشام الأول تصاعدا فى حركة التنقلات بين شبه جزيرة أيبيريا وشمال أفريقيا وصولا إلى آسيا المسلمة. كما نلمح الآن أيضا أمارات من عهد عبد الرحمن الثانى الذى فتح أبواب الأندلس على مصاريعها أمام تأثيرات الشرق العباسى وحضارة بغداد.

مضى الحكم الأول على سيرة سلفه فى الاحتفاء بالتراث السورى لعائلته؛ وفى عهده ظل المروانيون يتقاطرون على أسبانيا، وبالرغم من أن العاهل لم يكن يذكى فيهم أدنى تطلع سياسى إلا أنه أكرم وفادتهم وقدّر لهم المخصصات التى جعلتهم يعيشون حياة هانئة.

ومع أن الحاكم نفسه ظل وفيا لأرستقراطيته العربية إلا أنه كان يرحب بالأيدى التى تمتد إليه بالمعونة من خارج عصبيته؛ وفى عهده تراجعت المواجهات القديمة بين العشائر العربية وشاعت مصاهرة العائلات العربية النبيلة للمولدين، وبهذا الشكل تصاعد الامتزاج بين فئات الشعب الأندلسى.

ولانضيف جديدا إن أشرنا إلى ميل العاهل الأموى لمسلمين ذوى أصول أيبيرية وخير شاهد على هذا «عمروس» وشقة الذى تعرفنا على دوره البارز فى طليطلة ومن بعدها سرقسطة. كما أن حاشية الأمير ذاتها (قادته ووزراؤه) لم تكن مقتصرة على

النبلاء العرب بل كانت تضم غيرهم من أهل الثقة وأصحاب التجارب، ومنهم نشير إلى «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث» (حفيد أحد الموالى) الذى ظل حاجبا للحكم خلال معظم عهده وقاد غالبية الحملات الحربية وعاش بعد وفاة سيده إلى أن مات فى ربيع ٨٢٥م (محرم ٢١٠هـ) بعد حياة حافلة كرّسها بالكامل لخدمة الأسرة الحاكمة.

كما أحاط الحكم نفسه بخليط من الشخصيات غير العربية (من بربر وصقالبة وخصيان) وعهد إليها بالمناصب الهامة. وفى مقابل هذا كان لايحتمل الفقهاء وكان يستمع على مضض لمناقشاتهم الفقهية (لاعتبارها – دون شك – لغوا فارغا)؛ ومع هذا فقد كان قادرا على استرضائهم حتى لاينقلبوا عليه.

قد يظن أن الحكم الأول لم يكن مكترثا بقواعد الدين، لكن الحقيقة تخالف ذلك. صحيح أنه كان أقل بكثير من ورع أبيه وربما يكون تدينه أشد فتورا من جده، لكنه كان دائما حريصا على الوفاء بالتزاماته كمسلم. فنحن نجده يحيط قاضيه «محمد بن بشير» بأسمى آيات التقدير والاحترام ويخضع لأحكامه برضى وطيب خاطر حتى ولو كانت صادرة ضده[٨٤]. ونساؤه (اللاتى لم يطلق واحدة منهن إلا إذا كانت عقيما) كن يشتكين فى بعض الأحيان من انصرافه عنهن للعبادة[٨٥]؛ كما أنه كان يحضهن على أعمال البر وهاهى «عجب» تستجيب لندائه وتقيم مسجدا بالحى الغربى لقرطبة على نفقتها الخاصة وتنشئ على ضفاف الوادى الكبير حديقة ضخمة (المسماة «منية عجب») وتخصص ريعها للإنفاق على نزلاء مستشفى الجذام القريبة[٨٦]. وتقوم محظية أخرى للحكم الأول تدعى «متعة» بإخراج المال اللازم لبناء مقابر للمسلمين ولتشييد مسجد ظلت ذكراه عالقة بأذهان القرطبيين حتى القرن الثانى عشر[٨٧].

وعندما كانت الظروف تسمح للحكم بالمقام فى قرطبة فإنه كان يستغل أوقات راحته النادرة فى الصيد أو لعب الكرة (الصولجان) أوحضور منتديات مجموعة الشعراء التى تألفت حوله ولمعت منها أسماء مثل: «عباس بن فرناس» و«يحيى الغزال» و«إبراهيم بن سليمان الشامى» (وسيصبح هؤلاء فيما بعد شعراء ابنه عبد الرحمن المفضلين).

ومن جهة أخرى، فقد كان الحكم نفسه واسع الثقافة وشاعرا مطبوعا تتميز أشعاره بالجودة وخاصة فى أغراض السياسة والحرب والقتال. وبعد ثورة الربض الشهيرة تغيرت طباع الحكم الأول وتملكته الريبة، ويعزى الفقهاء هذا التحول إلى شعوره بتأنيب الضمير لما اقترفه من جرائم. وبغض النظر عما يقوله الفقهاء، فمن

الثابت أن صحة الحكم كانت قد تدهورت في نهاية حياته وأصبح يفضل العزلة والبقاء في قصره الذي تقوم على أبوابه ميلشيات حرسه الأمين (والمؤرخون العرب يطلقون عليهم «الخرس» وذلك لعدم معرفتهم العربية)(٨٨). ومن المعروف أن الحكم الأول استكثر منهم وجلبهم من أصقاع شتى: من جليقية وبلاد الإفرنجة وبلدان أوربية أخرى. وكان أقربهم إلى قلبه مائة وخمسون أسيرا من سبتمانيا، وقد ظلوا أوفياء له حتى مماته. هذا بالإضافة إلى مالايقل عن ألفين آخرين كانوا موزعين على معسكرين بجوار القصر. وقد كانت ميليشيات حرسه مقسمة إلى مجموعات تضم كل واحدة منها مائة فارس على رأسهم «عريف»، ويرأس كافة المجموعات القومس المسيحي «ربيع» (ابن تيودولفو).

لم يكن الحكم الأول يكترث لنفور العامة منه ولم يكن يهتم لتراجع شعبيته بينهم وظل على هذا الحال طوال حياته. لقد كان همّه الأوحد وشغله الشاغل يتمثل في الحفاظ على وحدة مملكته وتجنيب أولاده النزاع على العرش بعده. ولهذا السبب قام – عندما أحس بدنو أجله – بابتداع نظام جديد لتوريث العرش : فلم يكتف بأخذ البيعة لمن سيخلفه بل احتاط بأخذها أيضا لبديل تتوقف ولايته على موت الأول. وفي يوم عيد الأضحى الموافق ١٠ ذي الحجة ٢٠٦هـ (٦ مايو ٨٢٢م) عقد اجتماعا مهيبا في قصره بقرطبة وأخذ البيعة لابنه البكر «عبد الرحمن» كما أخذها أيضا لابنه «المغيرة» كبديل لولي العهد لو حدث له مكروه. وبعد انتهاء مراسيم أخذ البيعة انسحب بصحبة نسائه وخصيانه الأوفياء(٨٩) إلى حجرات قصره التي لم يخرج منها ثانية.

وبعد خمسة عشر يوما استدعى– وهو يعاني سكرات الموت–ابنه عبد الرحمن ليملي عليه وصيته التي تتلخص في أمرين : الحزم والعدل. وفاضت روح الحكم في اليوم الخامس والعشرين من ذي الحجة (٢٠٦هـ) ليدفن إلى جوار أبيه وجده في المقبرة الخاصة المعروفة بالروضة. وبموته تنفست رعيته – وخاصة أهل قرطبة – الصعداء لما أصابها على يده من تنكيل وبطش؛ لكنه – والحق يقال – ترك لخلفه مملكة سلسة متماسكة لم تصب برضوض إلا على طرفيها مع الفرنجة ومملكة أشتوريش. ولهذا حق افتخاره في قصيدته التي طبقت شهرتها آفاق أسبانيا المسلمة وتقول بعض أبياتها :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا

وقِدمـا لأمْتُ الشّعب مـذ كنت يافعا

فسائلْ ثغوري هل بها اليوم ثغرة
أبادرها مستنضي السيف دارعا
تُنَبِّئك أني لم أكن في قراعهم
بوانٍ، وقدما كنت بالسيف قارعا
. . . .
فهذي بلادي، إنني قد تركتها
مهادا، ولم أترك عليها منازعا

هوامش الفصل الثانى :

١) للتعرف على فترة حكم عبد الرحمن الأول بالكامل وعلى حياته السابقة فإن المصدر الأساسي هو «أخبار مجموعة» المجهول المؤلف (من ص ٤٦ إلى ١٢٠ فى النص العربى، ومن ص ٥٥ إلى ١٠٩ فى الترجمة الأسبانية).

ونحيل أيضا إلى المصادر العربية التالية :

- ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (من ص ٢١ إلى ص ٤١ فى النص العربى، ومن ص ١٥ إلى ٣٢ فى الترجمة الأسبانية).
- ابن عذارى :«البيان ...»، الجزء الثانى (من ص ٤٦ إلى ٦٢ فى النص العربى، ومن ص ٦١ إلى ٩٦ فى الترجمة الأسبانية).
- ابن الأثير :«الكامل فى التاريخ» (الصفحات : ٩١ - ١٠٧/ ١٠٩ - ١١٢/ ١١٨ - ١٢٢/ ١٢٣ - ١٣٦).
- النويرى : «تاريخ أسبانيا» فى كتابه «نهاية الأرب» (من ص ١٥٤ إلى ١٧١ فى النص العربى، من ص ٢٢٢ إلى ٢٣٦ فى الترجمة الأسبانية).
- ابن عبد ربه :«العقد الفريد» (من ص ٢٦٨ إلى ٢٦٩).
- ابن الأبار :«الحلة السيراء» (٣٢ - ٣٧).
- ابن الخطيب :«أعمال الأعلام ...» (من ص ٦ إلى ص ١٠).
- ابن خلدون :«العبر ...»، الجزء الرابع، (من ص ١٢٠ إلى ١٢٤).
- المقرى : «نفح الطيب»، الجزء الأول (من ص ٢١١ إلى ٢١٥) - الجزء الثاني (من ص١٧ إلى ٣٨).

ومن المصادر الأجنبية نذكر مايلى :

- **Dozy : Hist. Mus. Esp. I, pp. 188 - 249.**
- **Saavedra : Abderrahmen I, monografía histórica, en R. A. B. M., 3a- época, 1910, t. XXII, pp. 341 - 59 ; t. XXIII, pp. 28 - 44.**
- **Codera : Abderramen I y su Pretendida influencia religiosa, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 111 - 34.**
- **Simonet : Historia de los Mazárabes, pp. 237 - 59.**

٢) انظر :

- **J. Wellhausen : Das arabische Reich und sein Sturz, Berlin, 1902.**
- **G. Levi Della Vida, en la Enc. Isl. IV, pp. 1057 - 8.**

٣) فى ضاحية «دير حنينا»، أو (طبقا للمقرى فى نفخ الطيب، الجزء الثانى، ص ٣٣) فى «العليا» بالقرب من تدمير. أما معاوية (والد عبد الرحمن) فقد توفى أثناء حكم الخليفة هشام.

٤) طبقا «لأخبار مجموعة» (ص ٥٢ فى النص العربى، ص ٦٠ فى الترجمة الأسبانية) فإن أختى عبد الرحمن كانتا تسميان : أم الأصبغ، أمة الرحمن.

٥) انظر :

- G. Marçais, en Hist. du Moyen Age, de Glotz, III, p. 397.

٦) يوجد خبر قصير عن هذه الشخصية فى :

- M. Th. Houtsma, en la Enc. Isl., I, p. 55

٧) صاحب هذه النبوءة هو عم أبيه مسلمة بن عبد الملك (أخ الخليفة هشام) انظر :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. I, pp. 191 y 192.

٨) أورد «دوزى» (المرجع السابق، الجزء الأول، من ٢٠٠ - ٢٠٢) الترجمة الكاملة للحوار الذى دار بين الطرفين فى هذا اللقاء؛ وقد ترجمه عن «أخبار مجموعة».

٩) تحدث عن هذه الشخصية ابن الأبار فى كتابه «الحلة السيراء» (ص ٧٧).

١٠) هى أرملة قطن (ابن حاكم أسبانيا الأسبق : عبد الملك بن قطن الفهرى)، وكانت تدعى «أم موسى».

١١) للتعرف على هذا القاضى الذى بنى قصبة «مالقة»، انظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule ibérique, p. 214 y n. 4.

١٢) يتفرع هذا النهير من الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير عند (AZUAGA) ويعود ليصب فيه ثانية عند (HORNACHUELOS).

١٣) تقع هذه «الكورة»، فيما يسمى حاليا بمحافظة «قونقه» (CUENCA)، واسمها العربى «شنتبرية»، وهى غير موجودة الآن. وقديما كانت توجد بالقرب من نقطة التقاء نهر «جواديلا» (Guadiela) بنهر «التاجه»، جنوب شرق «وادى الحجارة». وفى نهاية القرن التاسع لم تعد «شنتبرية» عاصمة الإقليم لأن «الفتح بن موسى بن ذى النّون» بنى عاصمة أخرى وأسماها «إقليش» أو «إقليج» (UCLÉS)، انظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule ibérique, p. 35.

١٤) تطلق عليه المدونات العربية «الدّعى الفاطمى». وبالإضافة إلى ماجاء عنه فى المصادر العربية يمكن معرفة المزيد عن «شقيا» بالرجوع لهذا المصدر :

- M. Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, Madrid, 1914, p. 18, n. I.

١٥) سنرى فيما بعد كيف ادعى النبوة بربرى آخر فى منتصف القرن التاسع فى منطقة شمال الأندلس، وكيف أنه حرّف القرآن وحرّم عدة أشياء من بينها قص الشعر والأظافر، لكنه أسر وصلب عام ٨٥١م (٢٣٧هـ). انظر : ابن عذارى (البيان،... الجزء الثانى، ص ٩٢ فى النص العربى، ص ١٤٦ - ١٤٧ فى الترجمة)؛ ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ص ٢٢٩)؛ وكذلك :

- M. Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, p. 23, n. I.

١٦) انظر :

_ "Pseudo - Alfonso" de Barrau - Dihigo (Royaume asturien, p. 147 y n. 3).

- "Crónica leonesa", de G. Cirot (cf. Bull. Hisp.,T.XIII, 1911, p.391, núm.11y n.2).

- "Crónica Silense", en Huici, Crónicas latinas de la Reconquista, II, p. 57.

١٧) يقول «سافدرا» أن هذا العلم الجغرافى يعرف حاليا باسم «بوينتى دويمى» (Puentedeume)، وهى عاصمة أحد مراكز محافظة «لاكرونية» (La Coruña)، أنظر :

- Saavedra : Abderrahmen I, p. 37 (del t. XXXIII de la R. A. B. M.).

١٨) ورد نص هذه الهدنة فى الفصل الثانى والثلاثين من كتاب «كتاب مشاريع الأسواق» للكاتب العربى المشرقى «أحمد النحاس الدمياطى» (طبعة بولاق، ١٢٤٢هـ). ويقول القشيرى أنها موجودة أيضا فى مخطوطة «ابن الخطيب» المحفوظة بمكتبة «الإسكوريال». وقد ظهرت فى إصدارات هذه المكتبة، وفى الإصدار التالى بالتحديد :

"Biblioteca arabico - hispana escurialensis", Madrid, 1760, II, pp. 103 -4.

انظر أيضا :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. 242-3.

- A. Fernández Guerra : Cantabria, en Boletín de la Sociedad Geográfica de Madrid, t. IV, 1878, p. 25.

١٩) عن قشتالة القديمة، أنظر :

- R. Menéndez Pidal : Orígenes del español, pp. 497-8.

٢٠) توجد مصادر كثيرة عن حملة شرلمان على أسبانيا، وسنشير فيما يلى إلى بعضها :

- Codera : La dominación arábiga en la Frontera superior, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp.136 - 159.

- R. Basset : Les documents arabes sur l'expédition de Charlemagne en Espagne, en Revue Historique, t. LXXXIV, 1904, pp. 286-295.

- Barrau- Dihigo : Deux traditions musulmanes sur l'expédition de Charlemagne en Espgne, en Mélanges Ferdinand Lot, París, 1925, pp. 168 - 179.

- A. Kleinclausz : Charlemagne, París, 1934, pp. 109 - 112.

- J. Bédier : Légendes epiques : recherches sur la formation des chansons de geste, París, 1903 - 13, III, pp. 297 - 303.

- R. Fawtier : La chanson de Roland. Étude historique, París, 1933, pp. 150-180.

- E. Lambert : Roncevaux et ses monuments, en Romania, enero, 1935.

- E. Lambert : Roncevaux, en Bull. Hisp., XXXVII, 1945, pp. 417 - 436.

٢١) المقرى :«نفح الطيب» (الجزء الأول، ص ٢١٣). لم تظهر هذه الفقرة فى الجزء الرابع من «كتاب العبر ...» لابن خلدون (طبعة بولاق).

٢٢) عن العلاقات بين شرلمان والخليفة هارون الرشيد، انظر (على وجه الخصوص) المصدر التالى :

- F. Lot y F. L. GANSHOF : en la Hist. du Moyen Age, de Glotz, I, p. 488.

والببليوجرافيا المذكورة فى الملاحظتين ٤٩، ٥٠ بنفس الصفحة.

٢٢) - Annales regni Francorum (ed. G. H. Pertz y Fr. Kurze, en Scriptores rerum germanicarum in usum scholarum ..., Hanovre, 1895, p. 51), ad ann. 778 (cf. L. Auzias, L'Aquitaine carolingienne, p. 23 y n. 6).

٢٤) - Annales regni Francorum, pp. 50 y 51, ad ann. 778.

٢٥) - Vita Karoli. 9 (ed. G. Waltz, Scriptores rerum germ. in usum schol., Hanovre y Leipzig, 1911 - 1940, pp. 12 - 13).

كما ترجم هذه الفقرة L. Halphen، فى كتابه التالى :

"Vie de Charlemagne, de Eginardo, París, 1923, pp. 28 - 31.

٢٦) انظر، على وجه الخصوص، المصدر التالى :

- Halphen : Vie de Charlemagne, de Eginardo, pp. 30 - 31, n. 3.

٢٧) ابن الأثير :«الكامل فى التاريخ» (ص ١٢٤). و«عيشون» هذا (الابن الثانى لابن الأعرابى) ليس هو «عيثون» (AIZON) القوطى الذى ثار على الفرنسيين فى إحدى «الماركات» الأسبانية عام ٨٢٦م. وقد خلط بينهما «كوديرا» (Codera) واعتبرهما شخصا واحدا فى كتابه :

_ Est. Crít. hist. ár. esp. (VII), pp. 201 - 224 : Véase infra (índice).

٢٨) فى طبعة «أخبار مجموعة» (ص ٢٥١) التى قام بها Lafuente Alcántara نجد اقتراحا مشوبا بالتحفظ عن خط سير حملة عبد الرحمن الأول فى اتجاه كوبير (Collioure).

ويشير ابن الأثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» (ص ١٢٩) إلى منطقتين فرنسيتين توجهت إليهما الحملة، وهما : «قلهرة»، «فقيرة» (Kallara y Fakira)، ويرجح مناسبة موقعهما حاليا لمنطقتى «سان ميجيل دى كوليرا» (San Miguel de Culera)، «فيجيراس» (Figueras).

وفى مقابل هذا يرى «كوديرا» (Codera) فى كتابه :

(Est. Crít. Hist. ár. esp., VIII, p. 143 y n. a)

أن المنطقتين المقصودتين هما : «قَلَهُرَّة» (Calahorra)، «بِقيرة» (Viguera).

وتشير المصادر التالية إلى أن عبد الرحمن الأول اتجه بعد ذلك إلى شرطانية، غسقونيا، وطاف بأراضى «ابن بلاسكو» (Ibn Velasco)، أنظر :

- Auzias : L' Aquitaine Carolingienne, p. 25, n. 11 y 32 n. 39.

- Cirot : Index de la "Chronique leonaise", p. 413.

٢٩) عن تأسيس مملكة أو إمارة «أكيتانيا»، أنظر، على وجه الخصوص :

- L. Auzias : L' Aquitaine Carolingienne, pp. 3-21.

٣٠) المرجع السابق (ص ٢٣، ٢٤).

٣١) انظر :

- J. Coulet : Etude sur l' office de Girone en l'honneur saint Charlemagne, Montpellier, 1907, pp. 5-7, 117 sigs

٣٢) انظر : المقرى «نفح الطيب»، الجزء الثانى، ص ٢٥.

٣٣) توجد فقرة فى «نفح الطيب» للمقرى (الجزء الثانى ص ٢٤، ٣٥) – مستقاة، دون شك من ابن حيان – عن لواء عبد الرحمن الأبيض. وتفيد الفقرة بأن اللواء كان فى البداية مجرد شال عمامة مثبت بعقدة فى عود رمح، وكلما تمزقت القماشة البيضاء بفعل تحريك الهواء المستمر لها كانت تستبدل بأخرى، مع مراعاة احتفاظها بالعقد السابقة. ومنذ عصر الخلافة، وقبل خروج أية حملة من قرطبة كان يحتفل بعقد اللواء فى المسجد الجامع.

٣٤) انظر : **- Gaudefroy - Demombynes : Les institutions musulmanes, París, 1923, pp. 135-6.**

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, p. 45.

٣٥) انظر، على وجه الخصوص، المرجع السابق، ص ٤٦، والملاحظة رقم ٤.

٣٦) سنتناول فيما بعد – بمناسبة الحديث عن عبد الرحمن الثالث – مسألة الألقاب التشريفية لدى حكام أسبانيا المسلمة، وسنخص بالذكر تلك الألقاب المقصورة فقط على الخلفاء.

٣٧) عن رصافة الخليفة هشام، انظر :

- J. Sauvajet : Remarques sur les monuments omeyyades, en Journ. Asiat., t. CCXXXI, 1939, pp. 1-13.

ومن جهة أخرى، يجب ألا نخلط بين رصافة هشام ومدينة الرصافة البيزنطية القديمة.

وعن تفضيل الأمويين للقصور الملكية الواقعة خارج دمشق، انظر :

- H. Lammens : La Bâdia et la Hîra sous les Omaiyades, en Mélanges Faculté Orientale de Beyrouth, t. IV, 1910, pp. 91 - 112.

- A. Musil : The country residences of the Omayyads, en Palmyrema, New-York, 1928, pp. 277 - 297.

٣٨) عن نخلة الرصافة التى أهاجت – حسبما يقولون – أشواق عبد الرحمن الأول توجد مادة ثرية فى اللغة العربية، وقد جمعها وقام بدراستها المصدر التالى :

- H. Pérès : Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes, en Mèlanges Gaudefroy -Demombynes El Cairo, 1937, pp. 226 - 9.

٣٩) عن رصافة قرطبة، انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, p. 224.

ورد فى «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان (ص ٨٤)، وفى «نفح الطيب» للمقرى (الجزء الأول، ص ٣٠٦ – ٣٠٧) أن أحد قصور قرطبة الأموية كان يسمى «دمشق».

٤٠) أنظر، على وجه الخصوص :

- Lévi-Provençal : La civilisation arabe en Espagne, p. 57 y sigs.

٤١) لم يوفق سيمونيت (**Hist. de los Mozárabes, p. 237 y sigs**) فى الصورة التى تخيلها لعبد الرحمن الأول وأظهره فيها بمظهر القاسى مع المستعربين، علما بأن المؤرخ قد اعترف بإنصاف الأمير

لمسيحيى قرطبة عندما فاوضهم لكى يضم نصف كنيستهم المتبقى لمسجده.

٤٢) بعض المؤرخين يرجع موت عبد الرحمن وتولية ابنه هشام لعام ١٧١هـ، أى يقدمه عام عن التاريخ الذى ذكرناه، ولايوجد مايجعلنا نرجح هذا التاريخ أو ذاك.

٤٣) عن هشام الأول وعهده، انظر المصادر التالية :

[أولا] المراجع العربية :

– «أخبار مجموعة» (النص العربى من ص ١٢٠ إلى ١٢٤ – الترجمة الأسبانية من ص ١٠٩ إلى ١١٢).

– ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (النص العربى من ص ٤١ إلى ٤٤ – الترجمة الأسبانية من ص ٣٢ إلى ٣٥).

– ابن عذارى «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»، الجزء الثانى (النص العربى من ص ٦٢ إلى ٧٠ – الترجمة من ص ٩٦ إلى ١٠٩).

– ابن الأثير «الكامل فى التاريخ»، ص ص ١٣٧، ١٣٩ – ١٤٤، ١٥٠ – ١٥٢.

– النويرى «تاريخ أسبانيا» (النص العربى من ص ١٧٢ إلى ١٧٩ – الترجمة الأسبانية من ص ٢٣٧ إلى ٢٤٢).

– ابن الابار «الحلة السيراء»، ص ٣٧، ٣٨.

– ابن الخطيب «كتاب أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، من ص ١١ إلى ١٤.

– ابن خلدون «كتاب العبر»، ص ١٢٤، ١٢٥.

– ابن عبد ربه «العقد الفريد»، الجزء الثانى، ص ٢٦٩.

– المقرى «نفح الطيب»، الجزء الأول، من ص ٢١٦ إلى ٢١٩.

[ثانيا] المراجع الأجنبية :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. 2. I, pp 285 - 7.

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 150-7.

٤٤) انظر : ابن عذارى «البيان ...» الجزء الثانى (ص ٦٣ من النص العربى، ص ٩٨ من الترجمة).

٤٥) هو ابن «فرتون بن قسي»، وأب الشخصية الشهيرة «موسى بن موسى بن قسى» التي سنتحدث طويلا عنها فيما بعد.

٤٦) يطلق هذا الاسم (ألبة) فى العربية على منطقة شمال أسبانيا الواقعة على الضفة اليسرى لأعالى وادى «إبرُة»، ويفصلها عن البحر منطقتا «جيبوثكوا» (**Guipúzcoa**) و«بيثكايا» (**Vizcaya**) أو بلاد البشكنس (والمنطقتان تنتميان لإقليم «نبرّة» **Navarra**). ويحد «ألبة» من جهة الغرب أراضى «بوريبا» (**Bureba**) وقشتالة القديمة (التى يطلق عليها فى العربية «القلاع»).

٤٧) انظر :

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 153 y n. 2.

٤٨) عن تفاصيل هذه المعركة، أنظر :

- Auzias : L' Aquitaine Carolingienne, pp. 41 y 42.

- J. Bédier : Légendes épiques, I, pp. 143 - 146.

- Lot y Ganshof : en Hist. du Moyen Age, de Glotz, I, p. 470.

٤٩) وصل الأمر بالمقرى «نفح الطيب، الجزء الأول، ص ٢١٨) إلى الزعم بأن المسلمين استولوا فى هذه الغزوة

على مدينة «أربونة». ويضيف قائلا بأن هشام الأول أجبر معاهدى جليقية (؟) على نقل أحجار سور هذه المدينة إلى قرطبة حيث بنى منها مسجدا أمام أحد أبواب قصره المسمى بـ «باب الجنان»، ومافضل منها استخدمه في بناء ربوة أمام القصر.

٥٠) انظر : **- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, p. 202, n. 3.**

٥١) المرجع السابق، ص ٢١٢، وملاحظة رقم ٢.

٥٢) عن مالك بن أنس، أنظر :

- J. Schacht, en la Enc. Isl., III, pp. 218 - 23, y la bibliografía citada.

٥٣) عن دخول المذهب المالكى وانتشاره فى أسبانيا، انظر :

- P. J. López Ortis : La recepción de la escuela malequí en España, en Hist. Der. Esp., t. XII, 1931, pp. 1-169.

٥٤) انظر : **- Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, p. 18.**

٥٥) من أهم المصادر العربية عن فترة حكم الحكم الأول نشير إلى مايلى :

– ابن حيان :«المقتبس»، مخطوطة فاس، من ص ١ إلى ١٠٣.

– «أخبار مجموعة» (النص العربى من ص ١٢٥ إلى ١٣٥، الترجمة الأسبانية من ص ١١٢ إلى ١٢٠).

– ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (من ص ٥٢ إلى ٥٨ فى النص العربى، ومن ٤٢ إلى ٤٦ فى الترجمة الأسبانية).

– ابن عذارى «البيان ...»، الجزء الثانى (النص العربى من ص ٧٠ إلى ٨٢، الترجمة من ص ١٠٩ إلى ١٣٠).

– ابن عبد ربه «العقد الفريد»، الجزء الثانى، من ص ٢٦٩ إلى ٢٧٠.

– ابن الأثير «الكامل فى التاريخ»، من ص ١٥٣ إلى ١٩٥.

– النويرى «تاريخ أسبانيا» (النص العربى من ص ١٧٩ إلى ص ١٩٤، الترجمة الأسبانية من ص ٢ إلى ١٤).

– ابن الأبار «الحلة السيراء»، من ص ٣٨ إلى ٤٢.

– ابن الخطيب «كتاب أعمال الأعمال ...»، من ص ١٤ إلى ١٩.

– المقرى «نفح الطيب»، الجزء الأول، من ص ٢١٨ إلى ٢٢٢.

ومن المصادر الأجنبية نشير إلى مايلى :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. 2. I, pp 285 - 307.

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. 297 - 309.

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 157 - 164.

٥٦) طبقا لجمهرة الأنساب لابن حزم (**fº- 27 vº- del ms.**) فإن إمارة عبد الله البلنسي كانت تمتد من شمال بلنسية حتى «طرطوشة» وبرشلونة و«وشقة»، ومن الجنوب حتى بلد تدمير «مرسية».

٥٧) سيطلق اسم «أم سلمى» هذه على مقابر بقرطبة، أنظر :

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, p. 209, nota.

٥٨) طبقا لدوزى (**Rech.3, I, p. 212 y n. 4**) فإن موسى بن فرتون هو الذى تزوج من ابنة «إنييجو أريستا» التى تسمى أسونا (**Assona**). لكن ابن حزم عند حديثه عن سلالة «بنى قاسى» أشار إلى أن

أرملة موسى بن فرتون هى التى تزوجت من «إنييجو أريستا» وولدت له «فرتون إنييجيث» **Fortún Iñiguez**

٥٩) ورد اسم هذا المتمرد فى مدونات ابن حيان، ابن عذاري، ابن الأثير فى ثلاثة أشكال مختلفة وهى كما يلى على الترتيب : «عبيدة بن حميد»، «ابن خلدون»، «ابن عُمير».

٦٠) حدد ابن حيان وابن عذارى تاريخ هذه المذبحة (واقعة الحفرة) بعام ١٨١هـ. أما ابن الأثير فقد أوردها بتاريخين مختلفين وهما : ١٨١هـ، ١٩١هـ، وبعض المدونات الأخرى نسبتها لعام ١٩٠هـ.

٦١) ذكر ابن الأثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» (ص ١٨٠، ١٨١) أن حركة خوارج «موروور» جرت عام ٢٠٠هـ (٨١٥/ ٨١٦م).

وبالتأكيد فإن حركة «موروور» تختلف عن حركة خوارج الجزيرة الخضراء التى لم يشر إليها سوى ابن القوطية (أنظر **Fagman : Extraits inédits pp. 94-97**) لكنه لم يعين لها تاريخا محددا بل جعلها بين «واقعة الحفرة» وثورة حى الربض بقرطبة.

٦٢) يتحدث عنهم ابن حزم بصفتهم شيعة (انظر : «نقط العروس»، ص ٢٩، ص ٢٤٧ من طبعة **Seybold**).

كما تحدث ابن حزم عن معتزلة من سكان «وادى بنى طَوّبة» (وهو واد فى جنوب أسبانيا لم يستدل عليه). انظر :

- M. Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, p. 18, n. 1.

٦٣) انظر : **- Lévi- provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, p. 223, nn. 1 y 3.**

٦٤) تخلط بعض المدونات التاريخية بين هذه المؤامرة وبين أخرى مماثلة جرت قبل قليل من تمرد حى الربض وفيها أراد المتآمرون خلع الحكم وتولية عم له مكانه يسمى «ابن الشمّاس» (وأبوه هو المنذر بن عبد الرحمن الأول).

وقد خلط دوزى هو الآخر – وتبعه فى ذلك المؤرخون المحدثون – بين المؤامرتين واعتبرهما واحدة.

٦٥) عن فتح هذا الباب وبقاء اسمه (الباب الجديد) لعدة قرون لاحقة، انظر :

- Lévi-Provençal : Notes de toponomastique hispano - magribine : Les noms des portes, le bab as- sari'a et la sari'a dans les villes de l'Occident musulman au Moyen Age, en Ann. Inst. Et. Or. de Argel, t II, 1936, p. 215 y n. 5.

٦٦) لدى دوزى كل الحق عندما أبدى دهشته «لاختلاف المؤرخين العرب حول تاريخ حدث فى غاية الأهمية مثل ثورة حى الربض بقرطبة على الحكم الأول» (انظر: **Dozy : Hist. Mus. Esp.2, I, p. 296, n. 2**).

وبالفعل فإننا نجد فى كتب التاريخ الإسلامية ثلاثة تواريخ مختلفة لهذا الحادث الشهير، وهى: ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢هـ.

وقد قام دوزى باختيار تاريخ ١٩٨هـ مدعما اختياره بالعديد من البراهين، وقد تبعه المؤرخون الذين أتوا بعده. وكان من الممكن أن تظل براهين «دوزى» محتفظة بفاعليتها لو لم نكتشف أن ابن حيان قد ناقش نفس القضية فى القرن الحادى عشر ودرس جميع التواريخ المقدمة للحادث واستقر فى النهاية على عام ٢٠٢هـ معتمدا فى ذلك على النص الأصلى والكامل للمنشور الذى بعث به الحكم الأول بعد قضائه على التمرد إلى ولاة محافظات مملكته ليحيطهم علما بما حدث. والمنشور يحدد تاريخ الثورة المسلحة للعامة ضد العاهل الأموى «بيوم ١٣ رمضان عام ٢٠٢هـ، الموافق لشهر مارس من العام الميلادى».

٦٧) **- Vita Karoli, ed. y trad. L. Halphen, pp. 52- 53.**

٦٨) ذكر المؤرخ المصرى «المقريزى» (Jitat, ed. G. Wiet, III, p. 181) أن القرطبيين الذين جاءوا إلى الإسكندرية كان الحكم الأول قد قام بطردهم من أسبانيا عام ١٨٢هـ بعد حادث الربض.

٦٩) انظر، على وجه الخصوص :

- G. Wiet : L'Égypte de la conquéte arabe á la conquéte ottomane (en la Hist. de la nation égyptienne de G.Hanoteaux, t. IV), París, 1937, pp. 68 - 9, 71 - 2.

٧٠) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث، انظر :

- M. Gaspar Remiro : Cordobeses musulmanes en Alejandría y Creta, en el Homenaje a don Francisco Codera, Zaragoza, 1904, pp. 217 - 233.

- A. A. Vasiliev : Byzance et les Arabes, I.

- La dynastie d' Amorium, ed. franc. de H. Grégoire y M. Conrad, Bruselas, 1935, pp. 49 sigs.

نقل «جاسبار ميرينو» فى بحثه المذكور (ص ٢٣١، ٢٣٢) عن المؤرخ النويرى الخبر التالى : قام «أبو حفص عمر البلوطى» باحتلال جزيرة كريت قبل استيلاء القرطبيين المنفيين على الإسكندرية بعدة سنوات. وبعد مغادرة الأندلسيين وذهابهم إلى كريت قاموا بتجهيز أربعين سفينة حربية واستولوا بها على معظم أرخبيل بحر إيجة.

٧١) انظر :

- La dominación arábiga en la Frontera superior, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VIII), pp. 167 - 180.

٧٢) انظر :

- Royaume asturien, pp. 157 - 163.

٧٣) - La Vita Hludowici del "Astrónomo" (Véase : Barrau-Dihigo, Royaume asturien, p. 160, múm. I).

٧٤) ورد فى مخطوطة ابن حيان (المقتبس) ذكر هذا المر على هذا النحو : «فج أرجانسون».

٧٥) اقترح «دى خورجان» (De Jaurgain) عام ٨٠٢م لضياع بنبلونة من يد المسلمين. أنظر :

- La discusión de Codera : Pamplona en el siglo VIII, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp. 179 sigs.

٧٦) فى اللغة العربية من الصعب التمييز فى النطق بين Irun، Urun، انظر :

- Barrau-Dihigho : Royaume asturien, p. 162, n. 3.

وعن هذه الحملة يمكن الرجوع إلى هذين المصدرين :

- Dozy : Rech3, I, pp. 137 - 139.

- Codera : op. cit., pp. 179 - 180.

٧٧) ظل اسم هذه القرية موجودا حتى عام ١٠٩٠م، انظر :

- R. Menéndez Pidal : España del Cid, I, p. 402

٧٨) أورد المشرقى «أحمد النحاس الدمياطى» فى كتابه «مشاريع الأسواق» (الفصل الثانى والثلاثون، ملاحظة

رقم ٢٢) أسطورة تقول أن الحكم الأول أرسل حملتين إلى ثغر سرقسطة وأنزل بأشتوريش هزيمة مدوية.
٧٩) انظر :

- L. Auzias : L'Aquitaine Carolingienne, pp. 43 - 53 y 59 - 66.

قام «كوديرا» بالتعليق على المصادر العربية الموجودة قبل اكتشاف نص مدونة ابن حيان.

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp. 339 - 341.

انظر أيضا :

- Simonet : Hist. de los Mazárabes, p. 285 (y n. 4, sobre Zato o Zado).

٨٠) انظر :

- L. Auzias : L'Aquitaine Carolingienne, pp. 53 y 341 y n. 39.

٨١) انظر، على وجه الخصوص :

- Annales regni Francorum, ed. Kurze, p.137, ad. ann.812, y p. 143, ad. ann. 815.

ويشير نفس المصدر (ص ١٣٣) إلى استقبال شرلمان في «أكس جران» فى أكتوبر ٨١٠م لوفد مرسل من الحكم الأول وموافقته على الصلح معه. فهل الأمر يتعلق – مع الاختلاف الواضح فى التاريخ – بالهدنة التى أشار إليها منذ قليل ابن حيان ؟

كما يشير المؤرخ اللاتينى فى نفس عام ٨١٠م لتمرد المولد «عمروس» الذى طرده ولى العهد «عبد الرحمن» واضطره للجوء إلى «وشقة» (ص ١٠٣).

٨٢) ابن عذارى :«البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»، الجزء الثانى (ص ٧٥/٧٦ فى النص العربى – ص ١١٩، ١٢٠ فى الترجمة).

٨٣) يتهم ابن حزم («نقط العروس»، ص ١٤ = ص ١٧٦ من طبعة **Seybold**) الحكم الأول بأنه كان من حكام بنى أمية القلائل الذين يشربون الخمر أمام الناس حتى يغيبوا عن الوعى.

٨٤) انظر النادرة التى ساقها ابن عذارى فى كتابه «البيان ...»، الجزء الثانى (ص ٨٠، ٨١ فى النص العربى – وص ١٢٧، ١٢٨ فى الترجمة).

٨٥) انظر على وجه الخصوص : «ابن القوطية» فى :

- Fagnan : Extraits inedits, pp. 204 - 205.

٨٦) أطلق اسم «منية» فيما بعد على أحد أحياء قرطبة، أنظر :

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xº- siècle, p. 207, n. 3 (n.º- 21).

أشار «ابن الفرضى» فى كتابه «تاريخ علماء الأندلس» (ص ١٨) إلى مستشفى «منية عجب» للجذام.

٨٧) عن المقابر المسماة «مقابر متعة»، انظر :

- Lévi-Provençal : op. cit., p. 209, número 2 (n.º- 10).

٨٨) انظر المرجع السابق (ص ١٣٠ – n. 2).

٨٩) ذكر المؤرخون أسماء العديد من هؤلاء «الفتيان»، وكانت حتى ذلك العصر رومانية فى مجملها ولم تتسرب إليها الأسماء النسائية التى ستطلق عليهم فيما بعد (خلال القرن العاشر). ونستثنى مما تقدم اسم أحد

خصيان الحكم الأول ويدعى «بزنت» وهو الذى أمره سيده ساعة التفاف ثوار حي الربض بقصره بإحضار قارورة عطر لكي يفرغ محتواها على رأسه، ولما سأله بزنت : «وأية ساعة طيب هذه؟» رد عليه الأمير قائلا :«اسكت لا أم لك، ومن أين يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره»، انظر :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. 2, I, Pág. 298 y n. 1.

الفصل الثالث

أسبانيا الإسلامية تحت حكم عبد الرحمن الثاني

(٨٢٢- ٨٥٢م)

عناوين الفصل الثالث :

١- النشاط السياسي للأمير عبد الرحمن الثاني -* تهدئة الفتنة الداخلية -* الصراع ضد مملكة أشتوريش -* تمرد ماردة Merida -* - الصراع ضد الفرنجة والبشكنس وموسى بن قاسي - الإنزال البحرى النورماندى عام ٨٤٤م على شواطئ أسبانيا الإسلامية - تمرد المستعربين فى قرطبة (٨٥٠م- ٨٥٩م).

٢ - الدولة الأندلسية والبلاط الأموى فى منتصف القرن التاسع الميلادى - إماره قرطبة والدول الإسلامية فى شمال أفريقيا - بداية العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة وبيزنطه - عبد الرحمن الثانى ودوره فى التنظيم والتشييد - الحياة الفنية وتأثير زرياب على البلاط وعلى المدينة - العلماء فى بلاط عبد الرحمن الثانى والدسائس فى نهاية حكمه.

١- النشاط السياسى للأمير عبد الرحمن الثانى

- تهدئة الفتنة الداخلية :

اتسمت الفترة التى حكم فيها عبد الرحمن الثانى ـ ابن الحكم الأول وخليفته ـ والتى استمرت ما يزيد على ربع قرن، بالخفوت النسبى لمظاهر الفتن الداخلية، هذا برغم ما تتسم به الفترة السابقة على عصر الخلافة فى أسبانيا الأسلامية بالفوضى فى أغلب الأحيان. وقد أثرث هذه الفتن على الاستقرار فى الأقاليم الداخلية والمناطق الواقعة على أطراف الرقعة التى تسيطر عليها الإمارة الأموية، لدرجة هزّت معها الصرح الذى بذل عبد الرحمن الأول «صقر قريش» جهدا مضنيا فى تثبيت دعائمه. وبدون هذا العزم والارادة الصلبة والتمسك الذى أظهره الحكم الأول كان من المؤكد أن تتهاوى أسس ذلك الصرح وربما اختفى بالكامل فى دوامة الفتنة التى كان ضالعا فيها كل من العرب والبربر والمولّدين فى شبة الجزيرة الأيبيرية. وعندما تولى عبد الرحمن الثانى مقاليد الحكم كان السلام يكاد يعم كافة الأقاليم وانتظمت الشئون الإدارية وإزدهرت أحوال بيت المال ونشط الأقتصاد. وتطلعت كافة أقاليم الأندلس التى عاشت تحت يد الحكم الحديدى إلى الكيفية التى سيكون عليها الحكم فى العهد الجديد والحُكْم عليه من خلال الخطوات الأولى التى سيتخذها. كانت هذه الأقاليم تريد أن تتنفس الصعداء بعض الشئ قبل أن تسلم نفسها من جديد ليد الأذعان أو اتخاذها موقفا معاديا للسلطة المركزية على طول الخط والزجّ بنفسها مباشرة فى طريق التمرد على ممثلى هذه السلطة.

والمصادر العربية التى كانت حتى الآن مصدرنا الوحيد مع مالها من عادات فى رصد عدد قليل من الأحداث كل عام والمساواة بين حالات التمرد، الخطير منها والأقل خطورة، هذه المصادر لا تكاد تلقى الكثير من الضوء على فترة تهدئة الفتن هذه والتى استمرت طوال ما يقرب من ثلثى فترة حكم عبد الرحمن الثاني. لكن لم يَسر ابن حيّان على هذا المنوال. كما لم يفعل ذلك اثنان من كبار دارسى ومُحَلّلى الأسرة الأسبانية الأموية حتى القرن العاشر الميلادى وهما أحمد الرازى وابنه عيسى. وقد أفاد مؤلف «المقتبس» من كتابة هذين الدارسين فى كتابة أخباره أيمّا إفادة. وقد اتسمت هذه الأخبار باسهابها فى دراسة فتره ولاية الحكم الأول وخليفته. وهى دراسات سوف نقوم بالسير على نهجها تفضيلا لها عن المصادر العربية الأخرى فى فترة لاحقة، ذلك أنها تتسم بالوضوح عن الوثائق الأخرى. نلاحظ فى هذه المصادر تقديرا كبيرا، يصل

أحيانا إلى حد التقريظ، للاستقرار والازدهار التى عاشت فيه أسبانيا الإسلامية تحت حكم عبد الرحمن الثاني. فقد أسلمت البلاد قيادها إلى مُتَع السلام وفرحة الحياة. عاشت الأندلس طبقا للمورخ العربى «أيام عرس» مع ملكها، لانجد لها مثيلا إلا الفترة القصيرة التى عاشتها البلاد خلال السنوات الأولى من القرن الحادى عشر تحت حكم «رئيس خدم القصر» وهو المظفر بن المنصور بن أبى عامر. ولايمكن لنا أن نغمط بعض ما لهذه الرؤية من قيمة رغم أننا لا نقبل بحرفيّتها. ولا تبدو فى نظرنا فترة إمارة عبد الرحمن الثانى - التى لم تدرس جيدا حتى الآن لقلة المعطيات التاريخية - على أنها فترة ازدهار سياسى للأمويين فى الأندلس فقط بل إنها تحدد معالم فترة تحديث ثقافى نجد فيها تقهقر التراث السورى والتوجهات المحافظة التى استمرت على عهد من سبقوه، ليفسح المجال أمام تيارات حضارية وثقافية جديدة، ساعد على ظهورها الأمير الحاكم، والواردة الى العاصمة الأندلسية من الشرق العباسي.

كان عبد الرحمن الثانى قليل الشبه بأبيه فى هذا المقام رغم أنه كان الابن المفضّل، فقد ولد فى طليطلة عام ٧٩٢م - ٧٩٣م (١٧٦هـ) قبل تولى الحكم الأول بوقت قصير[٢]. وعندما تولى هو الحُكم كان عمره أكثر من ثلاثين عاما. كما كان ذا خبرة قوية بالنسبة لعصره إذ قام ببعض المهام الدقيقة التى أوكلت إليه. وقد سلفت الإشارة إلى أنه شهد المذبحة التى تعرّض لها أهل طليطلة «يوم الخندق» وكان موقفه هو اللامبالاة الظاهرية رغم نفوره الداخلى منها[٣]، كما رافق أو قاد بعض الحملات الصيفية ومارس الحكم لبعض الوقت فى منطقة الثغر العلوى بصفته الوالى. ولما كان واعيا للدور الذى سيضطلع به عندما يتولى الحكم بعد أبيه فقد فضّل مسبقا انتهاج موقف ليبرالى، وعنى عناية خاصة بشعبيته. كما أدى نزول الحكم الأول عن كرسى الحكم قبل وفاته بشهر إلى أن تتوفر الفرصة أمام وريثه ليعطى أهل قرطبة نوعا من الرضا النفسى، وهم الذين كانوا قد سئموا من طغيان الأمير الحاكم ومن مطالبه التى لا حد لها بشأن الضرائب، ورغبة منه فى أن يعضّد التأييد الشعبى من مركزه كأمير وريث للحكم استطاع أن يحصل على موافقة والده المريض على إعدام القائد المسيحى ليليشيا القصر المدعو القومس ربيع ابن تيود ولفو Teodulfo[٤] والذى كان له تأثير كبير فيما يتعلق بأمور الضرائب. فأمر بضرب عنقه بحجة أن هذا الضابط المستعرب قد تجاوز حدود الوظيفة المنوطة به مرتكبا العديد من الجرائم، وقد تلقى العامة فى قرطبة هذا الحدث بفرح شديد. كما قام الوريث بمد يده إلى الفقهاء الذين كان يعيشون حاله تذمر فيما بينهم، وذلك بأن أمر بهدم سوق النبيذ فى سيكوندا(Secunda) والواقع على بوابات قرطبة. كان يستأجر هذا السوق شخص يدعى حيون (Hayyun)

وكان يحتكر سوق البيع ويفرض أسعارا مبالغا فيها ومن المفترض أنه كان يبيع الخمر لبعض المسلمين.

أدت هذه الإجراءات إلى الثمار التى كان ينتظرها عبد الرحمن الثانى: إذا أخذ يتكون رأى عام موال له سواء بين صفوف العامة أو فى الدوائر الدينية فى قرطبة. فى إطار هذا الجو المواتى تولى شئون الأمارة يوم ٢٤- ٥- ٨٢٢م (٢٦ من ذى الحجة ٢٠٦هـ) وأقسمت له كافة طوائف قرطبة بيمين الولاء. كما قدمت إلى قرطبة وفود من الأقاليم المختلفة لهذا الغرض حاملة معها رسائل الطاعة من أهالى الأقاليم الداخلية التى أثنت أيضا على الخطوات التى اتخذها العاهل الجديد. ووصل الأمر ببعض هذه الوفود إلى الظن بإمكانية طلب المزيد، فعلى سبيل المثال نجد أن وفد إقليم البيرة (Elvi-ra) الذى كان يعسكر بالقرب من قرطبة فى مكان يطلق عليه بليش (Vélez)(٥) أرسل إلى عبد الرحمن الثانى طلبا مُتَبَجِّحاً للغاية ألا وهو الشكوى من عدم شرعية بعض الضرائب التى أقرها القومس ربيع وكذا قيمتها المبالغ فيها وبالتالى طلب الوفد إلغاءها. كما أن بعض الميليشيات التى تم إرسالها إلى معسكر وفد إلبيرة للقيام بمهمة المساءله، قد استقبلت ببعض الصيحات المعادية. وعلى هذا قام الحرس الأميرى المسمى بـ «الصامتين»، بالعمل على إعادة النظام ولم يبذل أى جهد كبير فى تفريق المتظاهرين الذين مات الكثير منهم خلال هذه العملية. هذه الواقعة الصغيرة هى ما يطلق عليه بعض المورخين العرب عبارة مبالغا فيها هى «موقعه بليش (Velez).

ليس من الضرورى أن يؤدى مقدم عاهل جديد إلى نوع من ردود الفعل الهامة فى بلد خضع فترة طويلة لنظام من الإرهاب. وكان ذلك ما حدث. لم يكن هناك إلا الأخ العجوز لهشام الأول والذى يدعى عبدالله البالنسى، الذى كان يعيش فى مقره القديم فى «شرق الأندلس». إذ ظل الأمل يراود هذا الأخ رغم تقدمه فى السن فى الاستيلاء على كرسى الحكم الذى يشغله الآن أحد أحفاد عبد الرحمن «المهاجر». ورغم أن الحكم الأول قد خوله سلطة شبه كاملة علي أراضى بلنسية ورغم أنه ابنه «صاحب الصوائف» عبيد الله كان قد حاز الفخار بإرساله الجيوش الموالية له فى عدد من الحملات المؤزرّة فإن البلنسى حاول انتهاز فترة التغيير فى الحكم بأن يمد نفوذه ويستولى على منطقة تودمير (Tudmir) الواقعه فى إقليم مرسيه (Murcia) آملا بذلك أن تساعد الحملات التى تتم إلى بلوغ أقصى ما يستطيع إذا ما كانت الفرصة سانحة. لكن عبد الرحمن الثانى لم يكن فى حاجة إلى اصدار أوامر لقواته بالتدخل ضده فقد أصابه الشلل أثناء قيامه برحلة دعائية فى أراضى تودمير، فتم نقله إلى بلنسية وظل بها لا يعرف عنه شيئا حتى

وفاته فى خريف العام التالى ٨٢٣م ـ ٨٢٤م (٢٠٨هـ). واستولت حكومة قرطبة بعد ذلك على إقليم بلنسية والمناطق التابعة له وعينت عليه واليا تابعا للعاهل القرطبى.

وتسير الأمور على هذا المنوال، بعد هذه الواقعة، وتظل كذلك لمدة تزيد على خمسة عشر عاما فى ظل حكم عبد الرحمن الثانى، ثم بعدها أخذت تظهر بعض البوادر السياسية المثيرة للقلق. إذا ظهرت بعض حالات متقطعة من التمرد التى لم تكتسب إلا أهمية وقتية وتَمَّ القضاء على جُلّها بسهولة باستثناء التمرّد الذى حدث فى منطقة ماردة(Merida) وفى الثغر الأدنى والثغر الأعلى وانشقاق موسى بن موسى بن قاسى. وسوف نقوم لاحقا بدراسة هذه الأحداث عندما نتناول تطورات الصراع بين عبد الرحمن الثانى والأشتوريشيين والبشكنس والفرنجة. وما سنقوم به فى السطور التالية هو معالجة هذه التمردات الداخلية الصغيرة التى يبدو أنها لم تؤثر كثيرا على اقتصاديات المملكة القرطبية خلال الفترة من ٨٢٥م حتى ٨٥٠م.

إن أول ما يشير إليه المؤرخون هو تلك الأضطرابات التى وقعت بعد فترة قصيره من تولى عبد الرحمن الثانى، بين العرب أنفسهم فى منطقة تودمير، فقد إنقسموا على أنفسهم بين مُضَرييّن ويمنيين. فقد التف اليمنيون حول رئيسهم أبو الشماخ محمد بن إبراهيم وذلك لشعورهم بالاهانة لسبب يتسم بالصبيانية: إذ انتزعت ورقة من شجرة كرم من إحدى الحدائق الخاصة. كلفت هذه الفعلة التافهة أحد المضربين حياته وأدت إلى اشتعال حرب بين الطرفين استمرت لسبعة أعوام أى حتى عام ٨٢٨م ـ ٨٢٩م (٢١٣هـ) ومن الواضح أن هذه الأعوام السبعة تخللتها فترات هدنة طويلة. كان هدف عبد الرحمن الثانى هو أن يضعف كل طرف الآخر طالما أن الأزمة قاصرة على منطقة تودمير. وأخيرا قررّ أن يرسل إلى المنطقة مجموعة من رجال الشرطة قضت عليهما بالقرب من بلدة لَوْرَقَة Lorca عند المصارة Musara فقتلت ثلاثة آلاف منهم. كما سيطر على الأقليم بشكل فعال. ولما كانت عاصمة الأمارة القديمة أيو (Ello) التى كان يحكمها القوطى تيود وميرو(Teodomiro) قد ظلت على عهدها كمصدر للدسائس والمناوأة الدائمة للعاهل القرطبى فما كان منه إلا أن أمر بتدميرها عام ٨٣١م (٢١٦هـ) وبناء مدينة جديده هى: مرسية (Murcia) التى أصبحت اعتبارا من تلك اللحظة مقر إقامة الوالى الذى ترسل به قرطبة ليدير منه شئون إقليم تودمير(٧).

كما أننا سوف نقتصر على الإشارة إلى ما كان يقع من أحداث تمرد متفرقة كان يقوم بها بربر توريل Tawril الواقعه فى مقاطعة تاكرونا Takoronna فى رُندة

Ronda عام ٨٢٦م (٢١١هـ) والتى تم القضاء عليها فى الحال. كذلك قضى على التمرد الذى قام به حبيب البرنسى فى إقليم الجزيرة عام ٨٥٠م (٢٣٦هـ). كما كانت هناك حالة تمرد أخرى وقعت خلال الفترة الزمنية بين التاريخين المشار اليهما، أى عام ٨٤٨ ـ ٨٤٩م (٢٣٤)، فى المناطق التى لم ينفذ إليها الإسلام جيدا فى جزيرتى ميورقة ومينورقة Mallorca y Menorca [٨]. وأخيرا نشير إلى محاولات العصيان المتكررة التى قام بها أهل طليطلة لينفضوا عن أنفسهم نير السلطة الأموية إلا أن هذا التمرد الجديد الذى تأخر عبد الرحمن الثانى فى القضاء عليه ـ والذى إستمر سبع سنوات ـ لم يتسع مداه إلى درجات مشابهة لحالات تمرد سابقة وقعت فى المدينة خلال فترات حكم أسلافه خاصة فى عهد الحكم الأول.

كان أحد العمال البسطاء من أبناء هذه المدينة هو المحرك الرئيسى فى هذا التمرد الجديد ويدعى هاشم. فقد أتى إلى قرطبة للبحث عن مورد للرزق فعمل فى طرق الحديد فى حيّ الحدّادين، ومن هنا سر شهرته بلقب «الضرّاب». هذا الرجل عاش متأثرا بما كان للحكم الثانى من قبضة حديدية عامل بها أهل مدينة وبعض أفراد أسرته خاصة يوم المذبحة، فما كان منه إلا أن هاجر إلى العاصمة قرطبة. ثم عاد من جديد إلى مدينته طليطلة خلال الأعوام الأولى من حكم عبد الرحمن الثانى، وأخذ يحرك ضده بعض العناصر المناوئة لحكمه وهى عناصر لم تختف أبدا من مدينة نهر التاجه Tajo ومن القرى المحيطة بها. وبهذه الطريقه التف حوله بعض الأفراد ممن لا وزاع لهم فأخذوا، وهو على رأسهم، فى ممارسة قطع الطرق اعتبارا من عام ٨٢٩م (٢١٤هـ) ونهب المسافرين والسطو على منازل البربر ومزارع إقليم طليطلة. كما قام هاشم الضراب ومن معه من مجموعات الرجال بإعمال يد القتل والسلب والنهب فى دائرة شنت بَريّة Santaver [٩] الواقعه فى أقصى شرق الأقليم، الأمر الذى حدا بحكومه قرطبة المركزية إلى اتخاذ قرار بالتدخل. فقد تلقى الثغر الأوسط محمد بن رستم أوامر بالسيطرة على الجرائم التى تحدثها هذه المجموعة المنظمة. فقام بعدة محاولات لم تسفر عن شئ فى البداية إلا أنه إستطاع تفريق شملها بعد معركة شرسة بالقرب من دروقة Daroca [٨٣١م ـ ٢١٦هـ] والتى لقى فيها هاشم حتفه.

لقد انضم سكان طليطلة والفلاحين فى سهول التاجه إلى ذلك المغامر منذ الأيام الأولى حيث كانوا يعتبرونه بطلا جديدا من أبطال الاستقلال. وما كان على عبد الرحمن الثانى، الذى كان يبدو عليه الميل إلى البعد عن اتخاذ الإجراءات العنيفة، إلا أنه أرسل ببعض قواته فأهلكت الزروع والبساتين وتفادى بشكل واضح الدخول فى

حرب ضد المتمردين. فأفاد هؤلاء من الموقف بأن كوّنوا مجموعات من الجند وأرسلوا بها للإغارة على أراضى الإمارة الواقعة فى الطريق إلى قلعه رباح Calatrava لكن واحدا منهم يدعى ابن مهاجر خانهم ووشى بهم، كما أنهم وجدوا أنفسهم فى النهاية محاصرين وقد فتك بهم الجوع وهم فى مدينتهم. فقامت القوات النظامية التى أرسلها الوليد ـ شقيق العاهل القرطبى ـ بهجمة استطاعت فيها الاستيلاء على طليطلة فى ١٥-٦- ٨٣٧م (٨ رجب عام ٢٢٢هـ). وأمر بإعادة بناء القلعة التى كان قد بناها منذ فترة وجيزة المولّد عمروس Amrus إلا أن المتمردين كانوا قد هدموها. كما أمر بتولية أحد الحكام على المدينة وأن تكون هناك قوات كافية. ومنذ هذه اللحظة إستمرت طليطلة على الوضع الجديدلا تكاد تنبس ببنت شفه حتى نهاية حكم عبد الرحمن.

الصراع ضد مملكة أشتوريش ـ تمرد ماردة Mérida

وجد الحكم الأول نفسه، طوال معظم فترة إمارته، مجبرا على عدم الردّ عل الحملات والغارات التى قام بها الأشتوريون بقيادة ملكهم الفرنسو الثانى Alfonso II على أراضى الأقاليم الواقعة على الحدود الشمالية الغربية للأندلس. لكنه استطاع فى الأعوام الأخيرة من حكمه الخروج من هذه السلبية الخارجة عن إرادته وذلك بعد حدوث تقدم ملموس فى إستقرار الأوضاع الداخلية؛ ففى صيف عام ٨١٦م (٢٠٠هـ) كلف قائده المقدام عبد الكريم بن موجته أن يغزو المناطق المجاورة لـ ألبة والقلاع Alava وتذكر فى هذا المقام كيف أن هذه الحملة وصلت بالجيوش الأسلامية إلى مضيق بانكوربو Pancorbo، وكيف كان عليها أن تعود أدراجها إلى الأراضى الأموية دون أن تحقق أى نصر كبير لتستعيد شهرتها التى تدهورت فى أسبانيا الشمالية(١٠).

كان الصراع مع المسيحيين المقمين على حدود الأندلس أحد النقاط الهامة فى التركة التى خلفها الحكم لعبد الرحمن المعروف بحرصه على استقرار التقاليد الأسرية فلم يجد أمامه مناصا إلا مواصلة «الجهاد» ضد غير المسلمين. فقد قام فى الصيف التالى على توليه الحكم، وطوال عامين متاليين، بتوجيه ضربات إلى مملكة أشتوريش، كما جهز بعد ذلك حملة برشلونه وأراضى الثغر الأسبانى. كما سنرى بعد ذلك نوعا من الهدنة بين المسيحيين والمسلمين والتى استمرت حوالى عشر سنوات (٨٢٨- ٨٣٨- ٢١٣- ٢٢٣هـ). كم تم استئناف الحرب المقدسة ضد الشمال الغربى والشمال الشرقى فى كل عام خلال الفترة الأخيرة من حكم الأمير القرطبى وحتى وفاته.

كان القائد عبد الكريم بن موجته هو الذى قاد أول صيفية (٨٢٣- ٢٠٨هـ) وجهها عبد الرحمن الثانى ضد أراضى ألبة Alava والقلاع. قام القائد العجوز ـ الذى

توفى بعد عامين ـ للحكم الأول بإعداد هذه الصيفية إعدادا جيدا فدخل بقواته فى إقليم يعرف دروبه جيدا وقام بسلب ونهب المزارع والقرى وإحراق المحاصيل دون أن يجد، على ما يبدو، أى مقاومة؛ لكن لم تحدث مواجهة حاسمة بين قواته وقوات ألفونسو الثاني. كان دخول ألبة عن طريق ممرّ يطلق عليه شرنيق Charniq التابع لمنطقة مقفرة يطلق عليها غيرنيكا (Guernica) وهو إسم لا يمت بصلة للمدينة التابعة لبلاد البشكُنْس والتى تحمل نفس الاسم[١١].

وبعد ذلك بعامين تم توجيه حملة جديدة على ألبة لم يشر إليها أحد من المؤرخين إلا إبن حيان. قاد هذه الحملة صاحب الصوائف عبيد الله الذى غزا أراضى ألبة فى شهر أغسطس عام ٨٢٥م (ربيع الثانى ٢١٠هـ) فعاث فيها تنكيلا وانتهى به الأمر إلى الدخول فى صدام مع القوات الأشتوريشية فعند سفح جبل يطلق عليه المؤرخ جبل المجوس دار وطيس معركة قوية إنتهت بهزيمة المسيحيين. وهذه الحملة ـ التى أطلقت عليها أسبانيا الإسلامية اسم غزوه الفتح ـ لم تكن الوحيدة التى قامت بها الجيوش الأموية فى ذلك الصيف؛ فتم توجيه طابور من الجيش بقيادة العباس بن عبد الله القرشي مهاجما جليقية من ناحية بازو (Viseo) بينما سارت حملة أخرى بقيادة مالك أحد إخوة القائد السابق ووصلت فى زحفها إلى ما بعد قلمرية(Coimbra) . لكن هذين الطابورين لم يلتقيا وربما تعرضا للهزيمة وكسر شوكتهما. وخلال الشتاء التالى، أى فى ديسمبر من عام ٨٢٥م (رمضان ٢١٠هـ) توجه جيش إسلامى بقيادة فرج بن مسرّة إلى أقليم أشتوريش واستولى بالقوة على حصن القليعة Alcolea وهو حصن من الصعب تحديد مكانه لعدم دقة المعلومات المتوفرة لدينا عن الأقليم الذى تعرض للهجوم. كما جهزت صيفية أخرى خلال صيف عام ٨٢٦م (٢١١هـ) قادها عبيد الله بن عبد الله البالنسى ضد جليقية Galicia و«دولة القشتاليين» وإذا ما أخذنا برأى ابن حيان، الذى لم يورد المزيد من التفاصيل، فإن هذه الحملة لم تكن الا نزهة عسكرية كلفت القليل، حيث وصلت القوات الإسلامية إلى وادى المينيو Mino ثم إلى قشتالة Castilla بعد ذلك.

ربما كانت الهدنة التالية لهذه الحملات نتيجة مفاوضات بين ألفونسو الثانى وأمير قرطبة. وما نقوله فى هذا المقام ليس إلا إفتراضا لايقوم على أى سند تاريخى. وعلى كل حال فإن هذه الهدنة المفترضة انتهت عام ٨٣ هـ (٢٢٣هـ) بأن أرسلت ثلاثة جيوش إسلامية فى وقت واحد إلى إقليم أشتوريش: كان أحد هذه الجيوش بقيادة الوليد بن هشام وهو عم العاهل القرطبى وقد دخل جليقية عن طريق بازو وقام بتوجيه

ضربات انتقامية إلى ذلك الأقليم(١٢). أما الجيش الثانى فكان تحت إمرة الأمير سعيد أخو عبد الرحمن الثانى وقد حقق هذا الجيش انتصارات فى ألبة وقشتاله القديمة. كما قاد الوليد أحد إخوه العاهل القرطبى الجيش الثالث. وقد وجد هذا الجيش بعض المقاومة لكنه قام بهجوم استولى فيه على حصن القرية Alqurria ـ وهو حصن من الصعب تحديد مكانه مثل حصن القليعة Alcolea والذى كان قد سقط قبل ذلك بثلاثة عشر عاما(١٣). وفى الصيف التالى خرجت حملة موجهة ضد الأهداف المعتادة وكانت المحصلة منها الأستيلاء على حصن آخر، وفى الوقت نفسه قام موسى بن موسى بن قاس ـ والذى سنسرد نشاطه فى أعالى أرغن Aragon على التوالى ـ بانتهاز الفرصة السانحة أمامه وسيّر الجيش الذى يقوده على الحدود الشرقية لألبة. وفى شهر يونيو عام ٨٤٠م (شعبان ٢٢٥هـ) قاد عبد الرحمن الثانى بنفسه حملة توجهت إلى جليقية إلا أن المؤرخين الذين أشاروا إليها تحدثوا عنها باقتضاب شديد ربما لا يمكن إرجاعه بالكامل إلى جهلهم بها: ومما لاشك فيه أن هذه الحملة الصيفية كانت سيئة النتائج بالنسبة للجيش الإسلامى، وأبرزت بالتالى عدم القدرة العسكرية للعاهل. وربما لهذا السبب لن نراه يجازف بوضع نفسه على رأس قوة من الجيش تدخل أراضى الأعداء، لكن ابنه المطرّف كان هو الذى قاد حملة على جليقية فى صيف عام ٨٤١م (٢٢٦هـ) وعادت هذه الحملة مظفرة إلى قرطبة وقد حققت النتائج المعتادة: نهب المزارع وإحراق المحاصيل والاستيلاء على الكثير من الغنائم.

لم يؤد موت ألفونسو الثانى فى العام التالى وإعلان تنصيب ابنه راميرو الأول Ramiro I (٨٤٢– ٨٥٠) مكانه إلى حدوث أى تغيير فى العلاقات بين مملكة قرطبة ومملكة أشتوريش ورغم هذا فإن الفترات الزمنية الفاصلة بين الصوائف قد ازدادت بعض الشئ، وهنا نسجل اثنتين من الصوائف وقعتا منذ ذلك الحين وحتى انتهاء حكم عبد الرحمن الثانى: وقعت أولاها عام ٨٤٦م (٢٣١هـ)، أما الثانية فى عام ٨٤٨م (٢٣٥هـ) وقاد كلتا الحملتين أبناء الأمير الأموى وهما الأمير محمد والأمير منذر. قام محمد بحصار مدينة ليون Leon الواقعة فى أقصى الطرف الجنوبى لملكة أوبيدو Oviedo واستخدم فى هذا الحصار ماكينات حربية أثرت إقامتها وتجهيزها كثيرا على أهالى ليون لدرجة تملكّهم معها الرعب وغادرو المدينة ليلا رغم أسوارها المنيعة. فتم احتلالها وإشعال الحرائق بها وقام المسلمون قبل مغادرتها بفتح ثغرات كبيرة فى أسوارها(١٤). أما فيما يتعلق بالحملة التى جرت عام ٨٤٨م بقيادة الأمير المنذر فلا ندر عنها شيئا إلا أنها كانت موجهة إلى ألبة.

من السرد السابق الذى يخلو من الكثير من التفاصيل لوحظ كيف أن بعض الصوائف كانت موجهة ضد «جليقية» وهى التسمية التى يطلقها المؤرخون العرب على ذلك الأقليم الذى كان يشمل بصفة عامة ـ خلال القرن التاسع الميلادى ـ إقليم جليقية الأسبانى فى الوقت الحالى وكذابعض المناطق الواقعة اليوم فى شمال البرتغال ألا وهى محافظتى إنترى مينو ودويرو Entre Minhoe Douro وتراس أوس مونتيس Tras os Montes وكذلك جزءا من محافظة بيرة Beirea حتى وادى مونديجوMondego .

كان يفصل «جليقية» تلك عن الأراضى الأموية الثغر الأدنى الذى كانت ماردة Merida عاصمته والتى تقع على نهر «وادى يانه» Guadiana. ومثلما هو الحال فى كل من طليطلة وسرقسطة عاصمتا الثغرين الآخرين كانت ماردة مدينة قديمة(١٥)، لم تقع تحت الحكم الإسلامى إلا بعد حصار طويل عانى منه الغزاه(١٦). كان أهلها شديدو الميل إلى العصيان وكان أغلبهم من المولدين وفيهم نسبة كبيرة من المستعربين المسيحيين. كما أن القرب الجغرافى النسبى من أراضى العدو كان يهيئ الفرصة للسكان ليوقعّوا إتفاقيات مع عملاء تابعين لملكة أشتوريش وأحيانا ما يقومون بالثورة، دون أية ارتباطات أخرى، على سلطة حكومة قرطبة. ويبدو أن ألفونسو الثانى شجع وربمّا ساند بالفعل تمرد المولدين والمستعربين فى ماردة على الأمير الأموى الذى قام والده الحكم الأول بمواجهة حازمة لهذه المشكلة قبل ذلك بثمانية وثلاثين عاما. وخلال تلك الفترة ـ لدينا البرهان(١٧). ثم دعم موقف المسيحيين فى عاصمة الثغر الأدبى فى تمردهم على عبد الرحمن الثانى وذلك من خلال رسائل ومحرضين جاءت إليهم من ملك الفرنجه لودفيكوبيو Ludovico Pio, .

وخلال عام ٨٢٨م (٢١٣هـ) وفى ظل الظروف التى أشرنا إليها اجتمع سكان مارده حول اثنين من القادة ـ هما محرود بن عبد الجبّار من البربر، والمولّد سليمان بن مارتين ـ وقطعوا آخر الروابط التى توحّدهم بالسلطة المركزية إذ قتلوا الحاكم الشرعى للمدينة مروان الجليقى. إلا أن عبد الرحمن الثانى قام فى العام التالى بقيادة حملة قمعية حاصر فيها ماردة لكن لم يسفر الحصار عن شئ، وما فعله هو نهب المحاصيل فى النواحى المجاورة واتخاذ التدابير ليحول دون حصول المتمردين على المؤن اللازمة. لكن الحصار الذى تم عام ٨٣٠م (٢١٥هـ) كانت له نتائج أفضل فقد سلّم أهالى المدينة بعض الرهائن وأمكن بذلك تعيين حاكم موال لسلطة قرطبة هو الحارث بن بازى. لكن هذا الانصياع لم يكن الا مؤقتا. فخلال السنوات التالية كان على عبد الرحمن الثانى

أن يعاود الكرة أكثر من مرة لحصار المدينة المتمردة، ثم انتهز فرصة وجود أفضل قواته ليفرض السلام الكامل على كافة أراضى الثغر الأدنى. لسنا ندرى شيئا عن التاريخ المحدد الذى استعاد فيه الأمير الأموى مدينة ماردة وربما كان عام ٨٣٤م (٢١٩هـ) نظرا لأنه يتوفر لدينا نصان باللغة العربية فى قلعة ماردة إحياءً لذكرى بناء أحد الاستحكامات المخصصة للحامية الأموية فى أبريل ٨٣٥م (ربيع الثانى عام ٢٢٠هـ) بناء على أوامر عبد الرحمن الثانى وتحت إشراف الوالى عبد الله بن كليب بن ثعلبة، وقد أقيم هذا الاستحكام درءا لأى تمرد جديد فى المدينة(١٨). وإذا ما أخذنا برواية أحد الجغرافيين المسلمين فإن هذا الاستحكام كان قوى البنيان ومحاطا بسور عرض جدرانه اثنتا عشر ذراعا(١٩).

لم يجد زعيما المتمردين فى ماردة مناصا، أمام الضغط الذى قام به الأمير القرطبى على مدينتهم، إلا الابتعاد والبحث عن ملاذ وجداه أولا فى بطليوس Badajoz ثم بعد ذلك فى بعض القلاع فى الوادى الأدنى لنهر «وادى يانه» Guadiana. وبعد ذلك انفصلا وأخذ كل واحد منهم يعمل بمفرده، إذ اتجه المولد سليمان بن مارتين نحو الشمال وأقام معسكره فى حصن سانتا كروث دى لاسيِّرا Santa cruz de la sierra، الواقع بالقرب من ترجاله Trujillo لكن أحد الجيوش الأموية هزمه وقتله عام (٢١٩هـ) ٨٣٤م. وبالنسبة لمحمود بن عبد الجبار البربرى فقد ظل فى وادى نهر وادى يانه Guadiana لكن القوات القرطبية كانت تطارده كل صيف فما كان منه إلا الانسحاب نحو الجنوب يرافقة أنصاره من البربر وهم يحملون معهم نساءهم. استطاع هذا المتمرد هزيمة سكان باجة Beja الذين أرادوا مواجهته وانتهى به الأمر إلى الاستقرار بجوار شواطئ الأطلنطى وهى منطقة تابعة لأكشونبة Ossonoba، فى قلعة مونتى ساكروMonte sacro التى لا تبعد كثيرا عن المدينة البرتغالية الحالية المسماة فارو Faro. وفى عام ٨٣٨م (٢٢٣هـ) أجلاه أحد الجيوش الأموية عن المكان وعندئذ قرر الذهاب إلى جليقية. كان قد كتب قبل ذلك إلى الملك الفونسو الثانى طلبا لدخول البلاد فما كان من ملك أوبيد Oviedo إلا قبول مجيئه داعيا إياه للقدوم إلى العاصمة وأعطاه قطاعا هو حصن واقع على حدود جليقية وبالتحديد فى المنطقة الواقعة بين أوبورتو Oporto ولا لَميقه Lamego. وأصبح محمود لبعض الوقت أداة نافعة للملك الأشتوريشى حيث قاد غارات هجومية كثيرة على الأراضى الإسلامية. لكنه فى النهاية استيقظ ضميره فبعث برسالة سرية إلى عبد الرحمن الثانى يطلب العفو عما فعل. فما

كان من الأمير إلا المسارعة فى الأستجابة لطلبة وبينما كان المتمرد يجرى هذه الأتفاقات مع قرطبة وشي به أحد الوشاه إلى ألفونسو الثانى الذى بعث فى طلبه فورا إلا أن المتمرد لم يذهب إلى بلاد ألفونسو متذرعا بالمرض غير أن ألفونسو الثانى كان على قناعة تامة بعودة تابعة البربرى إلى صفوف الأمويين وعندئذ ذهب هو لمهاجمته فى معقله، فما كان من محمود إلا الهروب، وأثناء ذلك سقط من فوق حصانه فأصيب بجروح الأمر الى أدى إلى أسره ثم قتله فى شهر مايو ٨٤٠ م (رجب ٢٢٥هـ) وأخذ ألفونسو الثانى كافة أفراد عائلة محمود إلى جليقية. وتحولت أخت محمود إلى المسيحية وهى امرأة مشهورة بجمالها وأصبحت زوجة لأحد السادة الجليقيين وأنجبت له ابنا أصبح بعد ذلك ـ إذا ما أخذنا بروايةإبن حيان ـ أسقف شنت ياقب Santiago de Compostela(٢٠).

- الصراع ضد الفرنجة Frances والبشكنس Vascene, وموسى بن قاسى

يبدو أن القائد «أبو مروان عبيد الله ابن» عبد الله البالنسى كان متخصصا فى القيام بحملات تنظمها قرطبة ضد الثغر الأسبانى hispanica وذلك خلال النصف الأول من القرن التاسع. فبعد أن قام، فى عهد الحكم الأول ـ ٨١٣م (١٩٧هـ) بتجهيز حملة ضد إقليم برشلونة، ثم تكليفه بعد ذلك بخمسة عشر عاما، أى عام ٨٢٨م (٢١٢هـ)(٢١)، بقيادة حملة صيفية جديدة ضد المدينة التى ستكون فيما بعد عاصمة إقليم قطلونية Cataluña. فقبل ذلك بعام عهد لوفيكوبيو Luodovico Pio إلى ابنه من غيين دى تولوسا Guillen de Tolosa مهمة الدفاع عن المدينة. هذا الابن هو الكونت والماركيز برنارد Bernardo. وتم اتخاذ قرار بهذه الحملة التى جرت عام ٨٢٨ م نتيجة لاتفاق ـ محتمل ـ بين الأمير عبد الرحمن الثانى وأحد القوط الذى ينتمى إلى أسرة نبيلة وهو المدعو أيثون Aizon(٢٢)، الذى كان قد سجن فى أكس جران Aquisgran ثم فرّ من السجن وانتهى به الأمر خلال الشهور السابقة إلى التحريض على التمرد ضد سيطرة الفرنجة فى المناطق الجبلية التابعة للثغر الأسبانى. وخلال صيف عام ٨٢٦م استولى «أيثون» على بعض القلاع مثل أوْسونا Ausona (Vich) وورودا Roda ثم أرسل أخاه إلى قرطبة لطلب المعونة من الأمير الأندلسى. ونتيجة لهذا الاتفاق بين عبد الرحمن الثانى وأيثون قام القائد عبيد الله بحصار برشلونة. لكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالقوة هذه المرة أيضا نظرا لمقاومة قائدها برناردو. ثم ذهب من هناك لحصار مدينة جيُرندة Gerona. والشئ الوحيد الذى استطاع فعله هو السير بقواته طوال ستين يوما فى الجهات الجنوبية للثغر الأسبانى مخلفا وراءه الدّمار.

تخلى عبد الرحمن الثاني بعد ذلك ولبعض الوقت، عن معاودة الهجوم على برشلونة فلم تجهز أى حملات أموية(٢٣) ضد الفرنجة قبل وفاة لودفيكو بيو فى ٢٠-٦- ٨٤٠م. وفى العام التالى قرر الأمير القرطبى إرسال حملة قوية التجهيز إلى ذلك الثغر وجعل على رأسها القائد عبد الوحيد بن يزيد الأسكندرانى. وتوغلت هذه الحملة كثيرا فى الأراضى الفرنجية مرورا بأراضي أوسونا **Ausona** وعبرت البرانس الشرقية ودمرت شرطانية **Cerdaña** ووصلت إلى مشارف أربونة **Narbona**. وبعد ذلك بعشرة أعوام ٨٥٠م (٢٣٦هـ) تم تجهيز حملة أخرى ضد أقليم برشلونة لكنها لم تسفر هى الأخرى عن نتيجة اللهم إلا بعض الأسرى وغنائم الحرب لما قامت به القوات الأسلامية من غارات(٢٤). وفى الوقت ذاته كانت تجرى مفاوضات من أجل التوصل إلى هدنة بين عبد الرحمن الثانى وكارلوس الكالبو **Carlon el calvo**. وهذه هى رواية أحد المصادر التاريخية للفرنجة ففى عام ٨٤٧م استقبل الملك الشارلمانى اثنين من السفراء القرطبيين فى ريمس **Rems** «كانا قد أتيا طلبا للسلام وعقد اتفاق».

شهد النصف الأول من القرن التاسع الميلادى تنامي وتصاعد التهديد البشكنسى **Vascon** ضد أسبانيا الأموية. كان هؤلاء البشكنس يقيمون فى الأراضى التى تنسب فى أغلبها إلى مملكة نبره **Navarra** الواقعة شمال وادى نهر إبرة **Ebro** وكانوا عبارة عن قبائل لا نعرف عنها إلا القليل. استولت كل واحدة من هذه القبائل على إقطاعية محددة إما تابعة لشرلمان **Carlomagno** وإما تابعة للملك أشتوريش، وذلك اعتبارا من نهاية القرن الثامن(٢٥). لكن أهم وأقوى مدنهم كانت بنبلونة **Pamplona** التى قاومت السيطرة الإسلامية عام ٧٩٨م (١٨٢هـ) وأصبحت بعد ذلك مقر إقامة الأمير البشكنسي غارثيا إنيغيث **Garcia Inniguez** ابن شخص يدعى إنييجو أريستا **Iñigo Arista** (أو إنييكو **Eneco**) وتؤكد المصادر التاريخية وجود هذا الأمير لكننا لا نعرف كثيرا عن أخباره إلا تلك التى تشبه الأساطير. وفيما يتعلق بغارثيا إنييغث يكفى أن نشير إلى المصادر التاريخية العربية التى تؤكد وجوده لكنها لا تؤكد شيئا بشأن الدور الذى لعبه فى نبرّة **Navarra** خلال هذه الفترة. فقد ورد ذكر اسمه أكثر من مرة فى المقتبس لابن حيان تحت اسم غارسيا بن فانكو وبذلك يزول أى شك وجدال حول نسبه وحول الفترة التى مارس فيها سلطته على أراضى بنبلونه(٢٦). وبالنسبة للجوانب الأخرى نلاحظ أن بدايات الأسرة البشكنسية الصغيرة قد تهيأت لها ظروف مواتية تمثلت فى الموقف الذى اتخذه أحد أقوى السادة من المسلمين فى الثغر الأعلى ألا وهو موسى بن موسى بن قاسى شقيق لآخر كان حاكما لمدينة بمبلونه ألا وهو مطرّف بن موسى بن قاسى والذى كان تابعا لقرطبة. وظل ذلك الحاكم وفيا للنظام الأموى بل

وذهب إلى أبعد من هذا فى كسب ودّ ذلك النظام بفضل بعض الغارات المسلحة التى قام بها على مناطق الحدود مع إقليم البشكنس وأراضى أشتوريش فى ألبة.

سبقت الإشارة إلى أسرة ذلك الشخص وإلى التأثير السياسى الذى كان لها فى الأقاليم الواقعة بين خيال البرانس ووادى نهر إبرة Ebro[٢٧]. كان المولدون الذين يشكلون جماع هذه الأسرة على علاقات قديمة كما كانت لهم علاقات مصاهرة بعلية القوم فى البشكنس Vasconia، كما كان إسلامهم فيه الكثير من السطحية. لكن موسى هذا ابن موسى بن فورتون بن قاسى ـ والذى تزوجت أرملته من إنييجو أريستا Inigo Arista وأنجبت ابنا هو فورتون إنيغث Fartun Iniguez [٢٨] ـ وصل بأسرته إلى وضع إجتماعى رفيع واستطاع أن يكوّن لنفسه إمارة حقيقية فى أعالى أرغن Aragon ظلت تابعه له حتى وفاته عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ). علينا الآن البحث فى الأمور الجوهرية التى وقعت حتى نهاية عصر عبد الرحمن الثانى ألا وهى مغامرات موسى بن موسى بن قاس وذلك اعتمادا على الرواية الدقيقة والفريدة التى وافانا بها المؤرخ ابن حيان.

خلال عام ٨٤٢م (٢٢٧هـ) تعاون موسى بن موسى، الذى كان يقيم فى تطيلة Tudela كحاكم لها ـ وهى مدينة بناها المولّد عمروس عام ٨٠٢م ـ ١٨٦هـ كما رأينا قبل ذلك[٢٩] ـ فى إحدى الصوائف الأموية التى قادها عبيد الله ضد المناطق المجاورة لألبة. وقد تولى موسى قيادة طليعة الجيش. لكنه عندما عاد من الحرب تعرض لتأنيب غير عادل من قبل أحد القادة النظاميين الذى كان يحاول أن يقلل من الدور الذى لعبه موسى فى الحملة فشعر موسى باستياء شديد من ذلك الموقف وعاد إلى تطيلةTudela وأعلنها حربا شعواء على أمير قرطبة وعلى من يمثلونه وبعد ذلك أخذ يرسل بقواته للقيام بغارات على الأراضى التابعة لسلطة الأمويين. وبعد مرور بعض الوقت لم يكن أمام عبد الرحمن الثانى إلا الرّد على ذلك بأن أرسل إلى أرغن Aragon بقوات كبيرة على رأسها الحارث بن بازى. فاستطاع هذا الانتصار على موسى بالقرب من برجة Borja. ثم حاصر هذه المدينة الحصينة حصارا ناجحا أعطى ثماره، ثم ذهب بعد ذلك لحصار الزعيم المتمرد فى تطيلة. وعندئذ عرض موسى إقتراحا تمت الموافقة عليه ألا وهو خروجه من تطيلة لكن على القائد الأموى أن يقطَع مسار حملته ويعود أدراجه إلى سرقسطه Zaragoza. لكن الحارث بن بازى لم يتأخر كثيرا فى خلف الوعد فعاود الرحيل من جديد لمهاجمة موسى بن موسى الذى كان قد استقر به المقام فى أرنيدو Arnedo وطلب مساعدة المليك غرسية إنييغو Garcia Inigo. وبعد أن استولى القائد الأموى على أرنيدو عبر نهر إبرة بالقرب من بلدة تسمى بالما Balma التقت قواته

بالقوات التابعة لكل من موسى وغرسية، وكانت محصلة المعركة أن القائد الأموى فقئت إحدى عينيه ووقع فى الأسر.

ولما كان الأمير عبد الرحمن الثانى لا يسمح لنفسه أن يترك أسْر قائده دون عقاب فقد بذل جهدا كبيرا فى ذلك العام ٨٤٢م وأثناء عامى ٨٤٣، ٨٤٤ (٢٢٨-٢٢٩هـ) لعقاب انشقاق موسى بن موسى، ورغم أن هذا الجهد أدى إلى نتائج هامة إلا أنه لم يسفر عن إذعان المتمرد بشكل نهائى. بدأ العاهل القرطبى إرسال أول جيوشه للهجوم على بمبلونه فاستولى عليها فى بداية شهر مايو عام ٨٤٢م (منتصف شهر رجب عام ٢٢٧هـ) ثم واصل الجيش زحفه حتى وصل إلى المنطقة الحصينة التى تسمى صخرة قيس[٣٠] الواقعة على الأرغا Arga واستولى عليها بالقوة بعد ذلك بشهر. وفى العام التالى وجه الأمير حملة أخرى خرجت من قرطبة فى شهر مايو (شعبان ٢٢٨هـ) وقامت بالهجوم على القوات التابعة لكل من موسى بن موسى والملك غرسية إنييغيث وفورتون إنييغيث أحد الأعيان ـ «هو طبقا للرواية التاريخية أخ لغرسية من الأب وأخ لموسى من الأم». ـ. كانت نتيجة المواجهة التى جرت فى نهاية شهر يوليو ٨٤٣م (نهاية شهر شوال) مؤلمة لموسى بن موسى والبشكنس إذ قتل فورتون إنييغيث وذهبوا برأسه إلى قرطبة وعرضها على العامة لسبها وقذفها أما الملك غرسية وابنه غاليندو Galindo فقد جرحا. لكن موسى الذى أسقط عن جواده استطاع إنقاذ نفسه بالهرب، واضطر الكثير من السادة البشكنس ومنهم الزعيم بيلاسكو جارثيس Velasco Garces إلى طلب الأمان من عبد الرحمن الثانى. لكن هذا الأخير لم يرض بهذا النصر المؤزر، فذهب فى بداية الصيف التالى على رأس جيش لمناهضة موسى بن موسى وحلفائه المسيحيين غير أنه توقف فى سرقسطة وأمر ابنه محمد بمواصلة الزحف نحو تطيلة. وفى تلك المدينة تلقى محمد خلال شهر يوليو لعام ٨٤٤م (٢٢٩هـ) مقترحات إذعان من قبل هذا الثرى المولد المتمرد فقبلها الأمير وأعاد وضع موسى على رأس حكومة أراضى تطيلة إلا أنه طلب منه مقابل ذلك عددا من الرهائن حتى يضمن وفاءه بالاتفاق. بدا هذا الاتفاق مؤكدا فى نظر قرطبه كما أننا سوف نرى كيف أنه بعد ذلك ببضعة شهور قام موسى بن موسى بتلبية أوامر صادرة من عبد الرحمن الثانى بالذهاب إلى جنوب شبه الجزيرة لمجابهة الإنزال النورماندى فى أشبيلية[٣١]. لكن هذا الموقف الذى يعكس الولاء لم يمنع من التوسع خلال الخمسة عشر عاما السابقة على وفاته، دون أى رد فعل من جانب حكومة قرطبة. وسوف نعود مرة أخرى لنتناول جانب جديد من نشاطه السياسى ونشاط من خلفوه.

الإنزال البحرى النورماندى على شواطئ أسبانيا الإسلامية عام٨٤٤م :

ظل ظهور القراصنة الإسكندينافيين على شاطئ أراضى الأندلس فى منتصف القرن التاسع الميلادى وما أحدثوه من دمار ومابثوه من رعب في صفوف أهالى القرى الأشبيلية ماثلا وحيا فى وجدان أسبانيا الإسلامية لدرجة أن صداه استمر لفترة طويلة فى الأدب. فقد أوردت الأخبار العربية روايات مطولة ومفصلة عما فعله النورمانديون كما أوردت بعض الأخبار المسيحية تلك الوقائع بإيجاز، وقد استطاع دوزى(٣٢) ـ منذ ما يقرب من خمسين عاما ـ القيام بدراسة مسهبة ووافية للموضوع كانت قول الفصل حتى الآن وقد تكون كذلك فى المستقبل اللهم إلا إذا أخذنا فى الحسبان الإضافة الهامه التى أحدثها إكتشاف المقتبس لابن حيان. ويفضل رواية أحمد الرازى وإبنه عيسى التى أوردها المؤرخ القرطبى نجد أمامنا الكثير من التفاصيل الهامة المتعلقة بالانزال النورماندى فى أسبانيا خلال عهد عبد الرحمن الثانى. وسوف نقتصر على ذكر أهمها.

كان أول ظهور «لرجال الشمال» الذين أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم «الأردومانيون» [نوردومانى] – لكن الاسم الذى شاع استخدامه بينهم كان المجوس،(٣٣) ـ على شواطئ شبه الجزيرة المطلة على الأطلنطى عام ٨٤٤. وقبل ذلك كانوا قد استولوا على نانتس **Nantes** فى ٢٣ يوليو ٨٤٣م وابتداء من مصب نهر لويرا **Loira** قاموا بغاراتهم على إقليم خيروندا **Gironda** وعندما وصلوا إلى بورديوس **Burdeos** انطلقوا منها إلى تولوشة **Tolosa** مرورا بالغارونا **Garona**. ثم اتجه أسطول صغير لهم نحو الجنوب وقام بإنزال على شواطئ أشتوريش بالقرب من خيخون **Gijon**، وإنزال آخر فى جليقية بمحاذاه لاكورنيا **Coruña** ولما واجهوا المقاومة واصلوا زحفهم نحو الشواطئ الإسلامية المطلة على الأطلنطى وفي يوم الأربعاء، العشرين من أغسطس لعام ٨٤٤م (غرة ذى الحجة لعام ٢٢٩هـ) ظهرت أربعة وخمسون سفينه نورماندية بالإضافة إلى عدد آخر من المراكب الصغيرة عند مصب نهر التاجة. وقع الإنزال المجوسى فى لشبونة وقام مسلمو المدينة بثلاثة اشتباكات دامية معهم وبعد ثلاثة عشر يوما قرر العدو الإبحار من جديد إلى عرض البحر. وأثناء هذه الفترة قام والى المدينة وهب الله بن حزم بإبلاغ عبد الرحمن الثانى وفى الحال أرسل الأخير رسائل تحذيرية وتعليمات لكافة الولاة التى تطل ولاياتهم على البحر لاتخاذ التدابير اللازمة. خرج النورمانديون من لشبونة متجهين نحو الجنوب بحثا عن مصب نهر جديد ينفذون منه.

ظلوا على هذا الحال حتى وصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير فتوقفت بعض السفن بعيدا عن المصب بعض الشئ ونزل البحارة النورمانديون على شواطئ إقليم شذونة Sidonia وقاموا باستطلاع موسع بعض الشئ للداخل ثم احتلوا ميناء قادش Cadiz. إلا أن أغلب وحدات الأسطول النورماندى دخلت نهر الوادى الكبير متجهة إلى أشبيلية فى الوقت الذى كان فيه تأثير المد والجزر واضحا. ويمر النهر فى الجزء الواقع منه بين أشبيلية والأطلنطى بإقليم ملئ بالمسطحات المائية والغنى بالكلأ، ثم ينقسم النهر إلى فرعين لمسافة خمسة عشر كيلو مترا ثم يلتقى كلا الفرعين من جديد وبذلك تتكون جزيرة كانت تسمى فى الماضى كابتيل Captel واليوم «الجزيرة الصغرى». كانت هذه الجزيرة بمراعيها مكانا خصبا لتربية الخيول خلال العصر الإسلامى. ونزل النورمانديون بها حيث رست أربعة وثمانون مركبا وسفينة على شواطئ الجزيرة يوم ٢٩ سبتمبر (١٢ محرم ٢٣٠هـ) وفى اليوم التالى قامت أربعة مراكب بالإبحار الى الداخل للاستطلاع فوصلت إلى قرية كوريادل ريو Coria del Rio فنزل بها البحارة ونهبوا القرية وقتلوا سكانها. وبعد ذلك بثلاثة أيام واصلت المراكب النورماندية تقدمها عبر النهر وسرعان ما أصاب أهل أشبيلية الرعب عندما رأوا الأشرعة السوداء لسفن القراصنة وهى ترتسم على صفحة النهر. فحاول السكان تنظيم المقاومة، ونظرا لعدم وجود قيادة لهم - بادر الحاكم بالفرار متجها إلى قرمونة Carmona - لم يتمكنوا من عمل الكثير فلم يكن لأشبيلية سور يحميها وكان مصير بعض السفن التى أرسلها الأشبيليون لملاقاة الأعداء هو أنها قوبلت بوابل من السهام وأشعلت فيها النيران. نزل القراصنة المدينة التى جلا عنها جل أهلها. وظل القراصنة ينهبون المدينة لأسبوع كامل فقد قتل الرجال الذين لم يشاءوا أو لم يستطيعوا الفرار بمَن فيهم العجزة وكبار السن وسبيت النساء مع أبنائهن. قام النورمانديون بوضع ما سلبوه فى سفنهم حتى امتلأت بالغنائم والنساء اللاتى ترتجفن خوفا واتجهوا صوب كابتيل ليتركوا ماحملّوه من غنائم عظيمة هناك. ثم عادوا مسرعين إلى أشبيلية لكن المدينة المزدحمة بالسكان كانت مدينة أشباح فلم يقتل النورمانديون إلا القليل من كبار السن والمرضى الذين اجتمعوا فى المسجد الذى أطلق عليه منذ ذلك اليوم مسجد الشهداء. ثم أخذ المجوس يرسمون خطتهم الحربية بأن بعثوا ببعض الفرسان - على خيل استولوا عليها من كابتيل - صوب شمال وغرب أشبيلية، ذلك أنهم أدركوا أن النهر بعد الميناء يصعب السير فيه بالمراكب(٣٤). ومن هنا فإن تقدمهم بالسفن صوب قرطبة سوف يكون محفوفا بالمخاطر.

يمكن لنا أن نتخيل أن الأمير عبد الرحمن الثانى لم يقف مكتوف الأيدى عندما تم إبلاغه بالخطر النورماندى إذ بلغ الرعب بالناس لدرجة أن كافة الطوائف الاجتماعية لم تتردد لحظة واحدة فى تقديم كل ما عندها للعاهل. فأصدر أوامره بالاستنفار فى كافة الأقاليم الداخلية والثغور وعندما تلقى الأنباء الأولية عما فعله النورمانديون أمر بأن تخرج إليهم قوات سريعة من الفرسان وعلى رأسهم أفضل القادة مثل عبد الله بن كليب وعبد الواحد الأسكندرانى ومحمد بن رستم. اتخذت هذه القوات مواقع لها فى مرتفعات الشرف **Aljarafe** التى تطل على أشبيلية من الناحية الجنوبية الغربية. وسرعان ما انضمت إليها قوات من المشاة. وفى الوقت نفسه أخذت تتقاطر على العاصمة القوات التى تم استدعاءها ثم تتخذ طريقها متجهة إلى أشبيلية تحت قيادة الخصى نصر، وهو فتى كان يحظى بثقة كاملة من العاهل الأموى. وسرعان ما حدثت المواجهات بين القوات القرطبية والنورمانديين الذين تعرضوا لخسارة فادحة. وقد وقعت المعركة الرئيسية يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر نوفمبر لعام ٨٤٤م (٢٥ من صفر عام ٢٣٠هـ) جنوب أشبيلية بقليل فى بلدة تابلادا **Tablada**(٣٥). أى فى السهول الواسعة - التى أصبحت اليوم مطارا - الممتدة شرق المنطقة التى يلتقى فيها نهر وادى يارو **Guadiaro** بنهر الوادى الكبير. كان المجوس قد نزلوا جميعا من سفنهم لمواجهة القوات الأموية التى أخذت فى اعتبارها الموقف فأعملت القتل فيهم حتى وصل عدد القتلى إلى ألف رجل وأُسر أربعمائة آخرون تم إعدامهم على مرأى من الغارّين الذى عادوا أدراجهم مسرعين إلى السفن ومبحرين بها متجهين صوب الجنوب. لكن ظلت ثلاثين سفينة نورماندية راسيه بلا بحارة فتم إحراقها. وعاد المسلمون إلى دخول أشبيلية. وعرضت غنائم النصر المخضبة بالدماء على طاولات محلات الجزارة فى السوق. كما علقت الكثير من رؤوس الأعداء بسعف النخيل فى تابلادا. كان قد مر على دخول النورمانديين إقليم أشبيلية اثنان وأربعون يوما. وأذيع نبأ الانتصار على المجوس فى كافة أنحاء شبة الجزيرة، ووصل الأمر بعبد الرحمن الثانى إلى إبلاغ الأمراء البربر فى المغرب والامام الخارجى لتاهرت، أفلح بن رستم. أما فما يتعلق بباقى الأسطول النورماندى فإنه أبحر فى عرض البحر متوجها إلى أكيتانيا **Aquitania**، وكان هذا بعد محاولات جديدة للإنزال على الشواطئ كانت أولاها فى لَبلة **Niebla** وبعد ذلك على سواحل الغرب **Algarve**(٣٦) ثم فى لشبونة. ثم عاودوا هجماتهم فى العام التالى حيث نشروا الدمار فى كل من بورديوس **Burdeos** وسانتون **Saintonge** جنوب غرب فرنسا. وخلال هذه الفترة قامت بعض السفن الأسكنديناڤية بغارة على شاطئ أرثيلا **Arcila** الواقعة شمال غرب المغرب.

أدى الانسحاب السريع للنورمانديين بعد هزيمتهم فى تابلادا Tablada ورحيلهم صوب مصب نهر الوادى الكبير إلى تطهير أسبانيا الإسلامية من أغلبهم دفعة واحدة. إلا أنه بقيت بعض المجموعات المتفرقة التى فقدت سفنها فتفرقت شرق وجنوب شرق أشبيلية أى فى أراضى قرمونة Carmona ومورو Moron. فتم تكليف القائد محمد بن رستم إلى حمل أكاليل النصر لما حققه فى تابلادا للسيطرة على هذه المجموعات من المجوس التى لم تجد بدا من الاستسلام بعد أن ضمنت حياتها. فاعتنق أفرادها الإسلام وسكنوا فى وادى نهر الوادى الكبير فى الجزء الجنوبى من أشبيلية وامتهنوا تربية الماشية وصناعة الألبان(٣٧). هذه المستوطنة الصغيرة من المولّدين من ذوى الأصل النورماندى بدأت تصدر إلى كل من أشبيلية وقرطبة أنواعا ممتازة من الجبن.

كان ما حدث إنذاراً خطيرا لدرجة أن الأمير عبد الرحمن الثانى لم يتردد فى اللجوء إلى اتخاذ أقصى التدابير باستقدام قوات من مختلف أنحاء الإمارة ودعا إلى ذلك أيضا من كان عدوه بالأمس وهو موسى بن موسى بن قاسى الحضور على رأس قواته من إقليم الأرغن Aragon. واعتبر كل من القائد ابن رستم والفتى ناصر على أنهما مخلصا الأندلس وأصبح لثانى هذين الرجلين تأثيرا ملحوظا على العاهل الأموى حتى نهاية عهده فكان وراء أهم القرارات التى اتخذها. ثم صدرت الأوامر ببناء سور يحيط بمدينة أشبيلية بما فى ذلك ضفة النهر. ثم وضع نقاط مراقبة على طول الشواطئ المطلة على الأطلنطى حيث تعاقب على العمل فيها أنقياء المسلمين من الذين تطوّعوا لهذا الغرض حيث كان يقيم كل واحد فترة تسمى بالرباط(٣٨) أى أنها فترة للزهد والتدريبات العسكرية. كما أن حكومة الأندلس أخذت تهتم بشكل أوسع بالمسائل الخاصة بالبحرية وقررت منذ هذه اللحظة بناء أسطول حربى أقوى وأكبر وإنشاء أحواض لبناء السفن ومعامل لصناعة الحبال(٣٩). وبفضل هذه الاجراءات التى اتخذها عبد الرحمن الثانى فى أواخر مدة حكمه لمجابهة تهديدات النورمانديين فى المستقبل(٤٠)، أمكن إجهاض المحاولتين اللتين قام بها النورمانديون على الشواطئ الأندلسية خلال عامى ٨٥٩م، ٩٦٦م بسهولة.

تمرد المستعربين فى قرطبة (٨٥٠– ٨٥٩م) :

لا نجد فى المراجع والأخبار العربية، أيا كان تاريخ تحريرها، أى إشارة إلى الأحداث التى جعلت معظم أيام مسيحيى قرطبة مليئة بالحداد وذلك قبل وفاة عبد الرحمن الثانى بوقت قليل. ولا نجد أمامنا فى هذا المقام إلا شهادة هؤلاء الذين

عاصروا تلك الأحداث وبالتحديد هؤلاء الذين شاركوا فيها. ويرجع الفضل إلى دوزى فى إخراج هذه المعلومات إلى النور ورغم ذلك فهذا العلاّمة الذى أوردها فى سياق حديثه عن فترة حكم الأمير الرابع (الأسباني - الأموى) أعطاها أبعادا زائدة عن الحد بالمقارنة بباقى أحداث تلك الفترة. وربما خيمت القتامة على دور عبد الرحمن الثانى فى النهضة الحضارية وتطور الحياة الاجتماعية والادارية فى الأندلس، إذا ما وقفنا فقط على الاتهامات التى كالها له شخص يدعى إيولوخيو Eulogio وآخر يدعى ألبارو Alvaro.

لكننا قبل دراسة هذه الاتهامات علينا أن نبين الموقف الذى كان عليه الإسلام فى أسبانيا إزاء كنيسة المستعربين خلال القرن التاسع. وهى مسألة عالجها بعض علماء الأسبان بحمية وشغف، وحدة أحيانا أخرى ونذكر منهم على الأخص سيمونيت Simonet فى كتابه المتعلق بأحوال المستعربين فى أسبانيا وهو عمل هام وجدير بالتقدير. وأبسط ماستلجأ إليه هو أن نورد الفقرات الهامة التى وردت فى إحدى صفحات الكتاب المذكور والتى حاول المؤلف فيها(٤١) منذ بضعة أعوام عرض المشكلة بموضوعية: «إذا ما كانت فترات تولى بعض الأمراء الأمويين - قلنا ذلك فى عام ١٩٣٢ - قد اتسمت باضطهاد الطوائف المسيحية وخاصة تلك التى تقطن قرطبة علينا أن نعترف أن هذا الاضطهاد يرجع فى الأساس إلى أسباب سياسية أكثر منه إلى أسباب تتعلق بالتعصب الدينى. وبالفعل فإن هذه الطوائف كانت البؤرة النشطة للحركات الوطنية التى توالت بشكل قوى خلال الفترة الأخيرة لحكم عبد الرحمن الأول وعهد عبد الرحمن الناصر. وانصبت عقوبات الأمويين على هؤلاء كمتمردين أكثر من كونهم غير مؤمنين، ونظرا لاستشراء هذه الحركات أصبح كل مسيحى مثار شبهة كان لها ما يبررها فى أغلب الحالات. ومن هنا نرى سرّ التحول الى اعتناق الإسلام بشكل جماعى لكن هؤلاء اعتنقوا الدين الجديد دون قناعة وذلك اتقاء للشبهات التى تحوم حولهم بسبب تصرفات بعض إخوانهم فى الدين. وهاهم الآن وقد اعتنقوا الإسلام لا يحق لهم الارتداد عن دينهم الجديد. أو البقاء على الديانة المسيحية إذا ما كان ذلك ممكنا ويكون المرء تحت سلطة الإسلام فى أسبانيا لكن من غير الممكن التحوّل عن الدين الإسلامى وإلا تعرض لحد القتل. كما لم يكن ممكنا سبّ دين المنتصرين وبالتالى فإن الشهداء من القرطبيين خلال القرنين التاسع والعاشر ليسوا أناسا تمردوا على محاولات إجبارهم على اعتناق الإسلام بل كانوا مارقين أو متصوفة أسلم القضاة المسلمون رقابهم إلى الجلاد لاتهامهم بمروق حقيقى ولأنهم لم يريدوا التراجع عن القذف والسب

فى حق الدين الرسمى للبلاد. ومن جانب آخر نجد أن رؤساء الطوائف المسيحية فى أسبانيا لم يقروا أبدا الموقف الذى كان عليه هؤلاء الثائرين».

كان من الممكن وجود نوع من المفاجأة عند القول بأن الطوائف المستعربة فى أسبانيا - والتى سندرس فيما بعد تنظيمها الرسمى خلال عصر الخلافة - لم يكن بين صفوفها، سواء فى قرطبة أو باقى المدن والثغور بعض هؤلاء غير الراضين عن الأوضاع والذين انتهزوا الفرصة السانحة للانضمام إلى المتمردين المولدين أو البربر فى حالات الثورة والعصيان والسبب الأول فى أغلب حالات التمرّد كان متعلقا بالضرائب التى يفرضها الحكام الراغبين دائما فى أن يكون بيت المال مكتظا بالأموال وأنهم كثيرا ما يوكلون عملية جمع الضرائب إلى ذلك الذى يدفع أكبر قدر من المال دون أن يكلفوا أنفسهم عبء التحرّى والدقة(٤٢). وفى هذا المقام نجد بين أيدينا وثيقة لها أهمية كبيرة ألا وهى رسالة بعث بها لودفيكو بيو **Ludovico pio** عام ٨٢٨م إلى المسيحيين فى ماردة **Mérida** والذين يظن أنهم قد بعثوا إليه بوفد منهم. وتتضمن هذه الرسالة التى سنقوم بترجمتها كاملة(٤٣) صورة صادقة للإهانات التى يمكن أن يتعرض لها الرعايا من غير المسلمين فى إمارة قرطبة والتى يمكن أن يأخذوها على العاهل. كما نلاحظ أيضا أنها لا تشير من قريب أو بعيد لاضطهاد دينى بالمعنى الحرفى للكلمة.

«لقد سمعنا رواية أعضاء وفدكم وما تعانونه من جراء قسوة الملك عبد الرحمن الذى بلغ به الجشع لدرجة انتزاع أموالكم منكم وما أصابكم به من غم وكدر كما سبق أن فعل بكم والده أبو العاصى(٤٤) الذى قام بزيادة الضرائب عليكم وهى ضرائب غير مستحقة وطالبكم بسدادها بالقوة وحولكم من أصدقاء إلى أعداء ومن رعايا مطيعيين إلى متمردين محاولا بذلك سلبكم حريتكم من خلال ضرائب جائرة وغير معهودة من قبل؛ لكنكم حسبما سمعنا قاومتم ذلك بشجاعة كرجال أشداء ووقفتم ضد ظلم الملوك الطغاة وضد شحهم الشديد، وأنتم الآن تواصلون الصمود حتى اللحظة الراهنة وهذا طبقا لما عرفناه من روايات كثيرة. ولهذا رأينا أن نوجه إليكم هذه الرساله لتكون لكم سلوى ولحضّكم على مواصلة الصمود فى الدفاع عن حريتكم فى مواجهة ملك ظالم ووقوفكم مقاومين غضبه وحنقه. ولما لم يكن عدوكم أنتم فقط بل عدونا أيضا لهذا علينا أن نحارب صفا واحدا طغيانه. وقد قررنا بعون الله أن نرسل بجيشنا فى الصيف القادم إلى الثغر التابع لنا وسوف يرابط هناك منتظرا أوامرنا التى نختار فيها وقت بداية الزحف وعبور الحدود ليكون عونا لكم إذا ما رأيتم ذلك للوقوف فى وجه العدو

المشترك الذى يتواجد فى ثغرنا. وفى حالة ما إذا قرر عبد الرحمن القيام بهجوم عليكم فإن تواجد جيشنا بالقرب من الحدود سوف يمنعه من القيام بما يريد. كما نريد إبلاغكم أنكم إذا ما أردتم الهجرة والقدوم إلينا سوف نعمل على أن تتمتعوا بما كان لكم من حريات فى السابق ولا نقصان فى ذلك كما لن نفرض عليكم أيه ضرائب وما نهدف إليه هو ألا تعيشوا فى ظل قوانين إلا تلك التى تختارونها ولن نعاملكم إلا على أنكم أصدقاء وشركاء انضموا إلينا بشرف للدفاع عن مملكتنا ونتمنى من الله أن يحفظكم ويرعاكم».

ويمكن الاعتراض بأن رسالة لودفيكو بيو هذه والتى لا تتضمن أيه إشارة إلى اضطهاد دينى ذى طابع رسمي، موجه ضد مسيحيي ماردة **Merida** تسبق زمنيا أول عمليات استشهاد المستعربين القرطبيين بعشرين عاما. ونحن أقرب إلى الاعتقاد بأن عبد الرحمن الثانى ـ فى نهاية حكمه ـ الذى كان يميل إلى أراء مستشاره الحميم الخصى نصر قد ابتعد عن التسامح الذى كان سجية سابقيه وطابعه هو أيضا بالنسبه للرعايا المسيحيين فى الإمارة. إننا نجد أمامنا من الأسانيد التى تدعونا إلى قول ما قلناه فلم يحدث أن صدر حكم إسلامي ـ خلال العصور الوسطى ـ يدين متهما من دافعى الجزية دون أخذ المشورة مسبقا من محكمة الفتوى وأن الحكم الذى يطلبه القاضى فى قرطبة أو العاهل نفسه لا يمكن أن يخالفه وإلا جلب عليه الاستنكار بالإجماع. وإذا ما تم سب دين محمد تأخذ العدالة مجراها سواء كان المتهم مسلما أم غير مسلم.

وفى هذا المقام نقول بأنه ليس من الابتذال القول بأنه أثناء الفترة التى وصلت فيها عمليات الاستشهاد التطوعى فى قرطبة إلى أقصى درجة لها عام ٨٥١م (٢٣٧هـ) صدر حكم ضد أحد المسلمين الذى لم يكن إلا ابن أخت عجب[٤٥]؛ إحدى محظيات الحكم الأول، بإدانته بالموت ـ وذلك بعد أن تمت الاستشاره القانونية التى أخذت طريقها الصحيح رغم الضغوط التى مارستها خالته على الأمير ـ وكان سبب الحكم هو ثبوت أنه مذنب وأنه زنديق واستخف علانية بالدين الأسلامى[٤٦]. كما أن الوثيقة العربية الأسبانية الوحيدة التى وصلت إلينا والتى تخص حالة من الاستشهاد التطوعى تشير بوضوح إلى أن الحكم بالقتل قد نفذ لأن المتهم نفى ألوهية الله وأن محمدا ليس برسوله.

ورغم أن النص المشار إليه، والذى لم ينشر حتى الآن يعود إلى خمسين عاما بعد الأحداث التى سنسردها،[٤٧] فإن محتواه يتسم بالأهمية التى تحبذ أن نقف أمامه

بعض الوقت. النص عبارة عن نص مكون من عدة فتاوى صادرة عن الفقية الأندلسى ابن سهل. ولا يتضمن النص أى إشارة زمنية لكن بفضل مالدينا من معلومات تتعلق بحياة هؤلاء الذين وقعوا على الوثيقة يمكننا وضع تحديد دقيق للفترة التى حررت الوثيقة فيها ألا وهى السنوات الأخيرة من حكم الأمير عبد الله (أى بين ٩٠٢، ٩١٠- ٢٨٩- ٢٩٧هـ). هذه الوثيقة تتكون من جزءين مثلها مثل باقى الوثائق القانونية: فهناك ما يسمى بعريضة الاتهام أما الجزء الثانى فيتضمن الفتوى التى أصدرها الفقهاء بشأن حكم الإدانه الذى أصدره القاضى ضد المتهم والأسباب والمبررات الخاصة بتلك الفتوى. ويقول الجزء الأول من الوثيقة «الأشخاص المذكورين فى هذه الوثيقة يشهدون على حضورهم أمام القاضى أحمد بن محمد بن زياد اللجمى، قاضى الجماعة فى قرطبة فى تلك الآونة، وقد دخلوا على القاضى بامرأة تدعى Dhabba اعترفت بأنها مسيحية وأعلنت إنكارها إلوهية الله العلى القدير قائلة «المسيح هو الله» ثم واصلت حديثها إلى أن قالت: «لقد كذب محمد عندما قال بأنه رسول الله.»، نورد فيما يلى فتوى القضاة المستشارين وكلهم من مشاهير الفقهاء فى قرطبة فى بداية القرن العاشر، وهى فتوى تتسم بايجازها الشديد «أخذا فى الاعتبار ما قالته المذكورة Dhab-ba وما قاله شهود الإثبات بشأن إنكارها لألوهية الله وقولها بأن المسيح هو الله وما قالته بشأن اتهام الرسول محمد بالكذب نقول بأن من الضرورى إدانة هذه المرأة بالقتل وأن تحرق فورا». ونتساءل إلى أى فئة إجتماعية تنسب هذه المسيحية التى أدينت بالموت وأصبح اسمها جزءا من سلسلة الاستشهاد الطويلة فى قرطبة؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال ذلك أن اسمها قد تعرض للتشويه من خلال النسخ المتوالية لكتاب ابن سهل الأمر الذى يحول دون قيامنا بتخمين شئ حول جذورها الاجتماعية.

لكن، لنعد إلى الأحداث نفسها على الوضع الذى ظهرت عليه من خلال الكتابات المعاصرة لها ـ وهى أعمال تخص أناسا ضالعين فى الدراما ومن ثم يكون مشروعا لدينا الشك فى صدقها ـ ونذكر منها فى المقام الأولMemoriake sanctorum لأيولوخيو Eulogio ثم لألبارو Alvaro(٤٨).

عاشت طائفة المستعربين القرطبيين فى حالة ازدهار تحت حكم عبد الرحمن الثانى كما كانت شديدة التأثر بالنموذج الحياتى العربى وذلك بفضل الاتصال الطويل بالأرستقراطية والبرجوازية المسلمة. فكان هناك ضباط مسيحيون يشكلون جزءا من حرس الأمير وكان هناك التجار وجباة الضرائب من المستعربين الذين يتعاملون بشكل يومى مع علية القوم فى المجتمع القرطبى. لم يكن غريبا أن يتزوج مسلم من مسيحية

اعتنقت الإسلام. وإذا ما ظل المستعربون يتحدثون باللغة الشعبية «الرومانث» Romance فقد كان الكثيرون منهم يعرف العربية وكان من بينهم من يقرؤها ويكتبها كما كانوا يعرفون نماذج من الشعر الجاهلي ويسعدون كثيرا بدراسة الإنتاج الأدبى العربى القديم منه والحديثLorum versibus et fabellis milesiis delectamus بهذه العباره يعترف مؤلف كتاب Indiculus ويأسف على أن هذا الجهد لم يكرس لقراءة أعمال آباء الكنيسة أو التعليقات والهوامش اللاتينية الخاصة بالإجيل[٤٩]. كان هناك الكثيرون من رجال الدين المسيحى الذين ينظرون بتوجس إلى تطور عملية التعريب التى أصبح يعيشها أتباع الكنيسة ولم يتمكنوا من إيقاف هذا التيار رغم رغبتهم فى ذلك. أضف إلي ما سبق معرفتهم القليلة بالديانة الإسلامية مثل فقهاء المسلمين عن الديانة المسيحية. إذ كان كل طرف يتصنّع جهله بالدين الآخر ويحقرون من شأن بعضهم وكأن هناك اتفاق مسبق على اتخاذ هذا الموقف. لكن لما كان فقهاء المسلمين يمثلون دين المنتصرين أما رجال الدين المسيحى فكانوا يمثلون عقيدة مسموح بها شريطة أن يكون أداؤهم للشعائر الدينية بطريقة مستترة كان من السهل فى ظل هذا الجو المحاط بالتعصب أن تقع أحداث عندما تكون هناك جنازة لأحد المستعربين على سبيل المثال. لم يكن أمام الطائفة المسيحية التى تحظى بنفس حقوق الطائفة اليهودية، واللتان تحظيان بالحماية الرسمية، إلا التخلى عن إقامة الشعائر خارج الكنيسة أو الاحتفالات والمواكب الدينية فى الشوارع، كما كان ممنوعا عليها دق الأجراس حتى يجتمع المصلون. وفى كل من قرطبة وأشبيلية وطليطلة وماردة كان الأكليروس الدائم والمؤقت - فقد كان هناك دوما أديرة للمستعربين فى المدن الإسلامية فى أسبانيا أو المناطق المجاورة لها - يشعر بالمرارة الشديدة لانخراط ذويهم من المسيحيين فى الثقافة الإسلامية، كما وقف إلي جوار هؤلاء بعض عامة المسيحيين. ومن المعروف أن فترة حكم عبد الرحمن الثاني اتسمت بأنها سليمة وبالتالى أخذت تنمو فى العاصمة الأموية ملامح حزب من المستعربين المعارضين بشكل جماعة بعض رجال الدين وغيرهم من المسيحيين ويقود هذا الحزب اثنين من المتحمسين أولهما القس، Eulogio إيولوخيو وصديقه كاتب السرّ ألبارو Alvaro الذى كان مسيحيا بورجوازيا من أصل يهودى. كما أن إيولوخيو كان من أسرة ميسورة الحال من المستعربين: إذا كان أحد أخوته موظفا فى الادارة الأموية، كما كان اثنين آخرين منهم يعملان بالتجارة أما شقيقته أنولونا Anulona فقد ارتدت الحجاب. أما هو فقد تم تنصيبه قسيسا وذهب للوعظ فى أبرشية

القديس زويلو Zollo بعد أن تلقى علوم اللاهوت على يد رئيس الرهبان الشهير الدكتور إسبير ـ إن ـ ديو Spera- in- Deo وهناك تعرف على ألبارو وعقد معه صداقة لاتنفصم عراها.

بدأت الأزمة من خلال حادثة مشئومة. ففى أحد الأيام كان هناك أحد القساوسة من كنيسة سان أثيسلكو S.Acisclo فى قرطبة والذى يدعى برفكتو Perfecto. بدأ الحديث مع بعض المسلمين فى المدينة انزلق فى حواره للحديث عن موضوع شائك ألا وهو الخاص بفضائل المسيح ومحمد. بدأ الحوار فى صورة ودية ثم أخذ إيقاع الحدة تدريجيا ويدأ برفكتو يفقد رباطة جأشه وانتهى به الأمر ليكيل السباب لنبى الإسلام. ولما أكد له محدثوه ألايخاف من وراء حديث مهذب لم يتعرض لمضايقات فى البداية. لكن تم الإبلاغ عنه بعد ذلك وأبلغ للمثول أمام القاضى الذى حكم عليه بالإعدام وأودع السجن حتى يتم تنفيذ الحكم. وتأخر تنفيذ الحكم فهكذا أراد لها الفتى ناصر الذى يتولى الأحتفالات العامة وذلك حتى تتوافق مع عيد الفطر ويسعد بهذا العامة فى قرطبة لم يتم تنفيذ حكم الإعدام على برفكتو إلا يوم الثامن عشر من شهر أبريل لعام ٨٥٠م (الأول من شوال ٢٣٥هـ) بعد أن اجتمع المصلون لأداء صلاة عيد الفطر خارج المسجد.

استغل حزب المعارضة الذى يتزعمه كل من إيولوخيو وألبارو إدانة برفكتو والظروف التى أحاطت بإدانته لنشر دعايتهما بين صفوف طائفة المستعربين فى قرطبة. وانقضى عام من الاجتماعات التى كان يعقدها الذين انضموا إلى هذا الحزب والذين أخذت أعدادهم تتزايد بشكل واضح إذ أخذوا يثيرون بعضهم البعض من منظور صوفى وهو أنه يجب أن يمر المرء بالمعاناه فى سبيل المسيحية. انتهز أعوان الشرطة القرطبية الفرص السانحة لملاحقة هؤلاء، إذ تم اتهام أحد التجار المسيحيين بالقذف لأنه أقسم بالرسول محمد فحكم عليه القاضى بعقوبة السجن المؤقت. وبعد ذلك بقليل بدأت موجة الاستشهاد التطوعى فى كافة أنحاء قرطبة وكان أول من استشهدوا الراهب القرطبى إسحق أحد رهبان دير تابانوس Tabanos، الكائن فى أرباض العاصمة. وكان هذا الراهب قد سب الرسول محمد فى دار القضاء. وقد تجنب القاضى إصدار حكم بإعدامه لكن العاهل رأى أنه من المستحسن إخماد الحريق فى بدايته قبل أن يستشرى. وفى الثالث من يونيو ٨٥١م، أى بعد ثلاثة عشر شهرا من تنفيذ حكم الإعدام فى برفكتو، تم إعدام إسحق ووضع جسده على الصليب بحيث

تكون رأسه إلى أسفل ثم أحرق جسده وألقى بالرماد فى نهر الوادى الكبير. وعلى الفور نرى رد فعل الغاضبين. وفى الأسابيع التاليه حدثت وقائع سب والمزيد من أحكام الإعدام: ومنهم الجندى الأفرنجي سيسناندو **Sisnando** والشماس باولو **Paulo** وراهب آخر يدعى تيود وميرودى كارمونا **Teodomiro de Carmona** وفى غضون أقل من شهرين تم إعدام أحد عشر مستعربا وإلقاء جثثهم فى المحرقة وهم هؤلاء الذى وجهوا سبابا لدين الإسلام. وبعد ذلك بوقت قصير، أى فى ٢٤ نوفمبر العام نفسه جاء الدور على اثنين من رجال الدين وهما العذراوتان فلورا وماريّا **Flora y Maria** حيث لم يستطع فقهاء المسلمين إقناعهما باتخاذ موقف أكثر عقلانية والتراجع عما قالتها.

لو أن الحكم الأول واجه هذا الموقف المتمثل فى زيادة أعداد الاستشهاد التطوعى الذى يملأ جوانب العاصمة بالانفعالات ويثير الرأى العام ربما لم يكن ليتردد فى اتخاذ تدابير صارمة ضد المستعربين مثل تلك التى اتخذها ضد سكان الربض وبذلك كان يمكن أن تسيل الدماء أنهارا فى صفوف المتمردين بدلا من وقوع البعض منهم. لكن عبد الرحمن الثانى ـ وعلينا أن نعترف بهذا ـ لم يشأ أن يلطخ سمعته باتخاذ قرار مثل هذا. كما أن أغلب المسيحيين فى قرطبة الذين كانوا يتوقعون أن يطلب منهم فى النهاية تعضيد هؤلاء المتحمسين من أبناء دينهم، لم يرغبوا فى شئ آخر إلا التعاون مع السلطة المركزية للبحث عن حل يساعد على تهدئة النفوس، وأخذ عدد كبير من القساوسة فى قرطبة وفى غيرها من الأقاليم التابعة لأسبانيا الأسلامية يرفضون الآن الدعاية التى لا طائل من ورائها والتى يقوم بها أنصار إيولوخيو وألبارو على أساس أن الطوائف المسيحية التابعة لهم سوف يؤول بها الأمر لتتعرض لرد فعل المسلمين سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى. وأبلغوا العاهل بالأمر، وعلى هذا قرر هذا الأخير الدعوة الى عقد مجلس كنسى بناء على دعوه أولئك، ويرأس هذا الاجتماع ريكا فريدو **Recafredo** أسقف الحاضره الأشبيلية، كما حضر ذلك المجلس أساقفة الأبرشيات الأندلسية وقد مثلت حكومة الأندلس بواسطة أحد الموظفين المسيحيين الذين يعملون فى الادارة المالية جوميث**Geomez** ابن أنطونيانو **Antoniano** وهو شخصية نجد أن الأخبار العربية تورد ذكرها ومنها أنه اعتنق الإسلام فى عهد الأمير محمد الأول.

افتتح المجلس الكنسى عام ٨٥٢م(٥٠). وعرض جوميث مندوب الحكومة الموقف الراهن وأكد على عدم جدوى الاستشهاد التطوعى الذى يلجأ اليه بعض المتحمسين

وطلب من الأساقفة أن يوقفوا هذه الحركة وأن يمنعوا أتباعهم بشكل رسمي من الانخراط فيها. وكان شاؤل أسقف قرطبة هو الوحيد الذى دافع عن الشهداء أما الآخرين فقد اتخذوا موقف أسقف أشبيلية ريكا فريدو. واتخذ المجلس قرارا تجنب فيه الإشارة إلى الأحداث الماضية مقتصرا على منع المسيحيين فى أسبانيا الإسلامية من القيام بالاستشهاد التطوعى والذى يمكن أن ينظر إليه على انه أنتحار وبالتالى تدينه الكنيسه. كما تم إلقاء القبض على زعماء حزب المتطرفين من المستعربين ومن بينهم إيولوخيو وأسقف قرطبة. غير أن هذه الاجراءات لم تكن كافية لإعادة الهدوء إلى النفوس فبعد ذلك بقليل صدرت أحكام إدانات جديدة بالموت ضد بعض المسيحيين فى العاصمة والذين تجرأوا على توجيه السباب للدين الإسلامى فى المسجد الكبير. فتم تنفيذ الحكم فيهم يوم السادس عشر من شهر سبتمبر لعام ٨٥٢م. وبعد ذلك بستة أيام توفى الأمير عبد الرحمن الثانى. «إنه انتقام سماوى» هكذا كان يردد المستعربون فى قرطبة وهم أناس لم يرغبوا فى إلقاء السلاح.

سوف نواصل قراءة حركة الفوران المتصوفة والمتشددة هذه حتى نهايتها رغم أن ما نفعله هو الخروج بعض الشئ عن الإطار التاريخى الذى وضعناه لهذا الفصل. عندما تولى الأمير محمد الأول مقاليد الحكم تم إطلاق سراح الراهب إيولوخيو وخرج فىَ أحد الأسفار فزار بنبلونة Pamplona فى بداية الرحلة ثم أقام بعض الوقت فى طليطلة حيث كانت الطائفة المستعربية هناك كثيرة العدد ولهذا لم يجد صعوبة فى أن يكونّ جمهورا يستمع إليه. وعندما عاد إلى قرطبة أصيب بالمرارة الشديده عندما رأى أقرب أتباعه وقد حل عليهم التعب وأبدوا استعدادهم للتخلى عن موقفهم المتشدد، فخلفه صديقه ألبارو منتهجا نفس الخط الذى كان عليه صديقه أيولوخيو فأدى ذلك إلى إثارة البلبلة فى العاصمة. لكن العاهل الجديد لديه المحاذير التى فرضها والده على نفسه بشأن استخدام القوة فأمر بهدم دير تابانوس Tabanos الذى كان يعتبره ـ وربما كان محقا ـ المصدر الرئيسى للمعارضة التى أصبحت تهدد بانتشارها فى كافة أنحاد البلاد ـ فلجأ أهالى طليطلة إلى إظهار مشاعر الود مع أبناء دينهم فى قرطبة فاختاروا إيولوخيو ليكون أسقف المدينة وبالطبع لم يقبل الأمير بهذا الاختيار وخلال الفترة من ٨٥٣م وحتى ٨٥٨م لم يكن هناك استشهاد تطوعى إلا أربعة عشر شهيدا يكاد يكون جميعهم من رجال الدين فى العاصمة الأموية. كما شهدت هذه الفترة أيضا وصول اثنين من الرهبان من دير سان جيرمان ـ دى ـ باريس. وهما أوزواردو -usuar

do وأوديلاردو Odilardo بغية أن يحملا معهما إلى فرنسا بقايا أجساد القديسين فى قرطبة(٥١). وبسبب هذه الأمور كلها نفذ صبر الحاكم المسلم فأمر فى عام ٨٥٩م بسجن إيولوخيو. فكان عليه أن يقف أمام القاضى ليحدد مسئوليته عن الجهود التى يقوم بها من أجل جمع شمل أعضاء جدد من تابعيه ووصل به الأمر إلى العودة الى ما كان عليه دون أن يتعظ بما سبق فما كان منه إلا أن وقع فى نفس ما وقع فيه تابعوه: حيث سب النبى محمد ورفض النزول عن فعلته. فصدر الأمر بإعدامه ونفذ الحكم فى الحادى عشر من مارس ٨٥٩م. وبعد ذلك بأربعه أيام أعدمت العذراء الراهبة ليوكريثيا Leocricia حيث ثبتت عليها تهمة المروق. وظل الأمر على هذا المنوال من سب علنى للدين يعقبه حكم بالإعدام؛ لكن لما حرمت المعارضة من قائدها الأول سرعان ما توقفت من تلقاء نفسها ومنذ تلك اللحظة لم تعد قرطبة تعيش، إلا كل فترة طويلة، مشهد سَوْق بعض المسيحيين إلى المحرقة أو إلى منصة الإعدام لإعلانهم الكراهية أو الاحتقار لدين سادة البلاد.

٢- الدولة الأندلسية والبلاط الأموى فى منتصف القرن التاسع الميلادى

- إمارة قرطبة والدولة الإسلامية فى شمال أفريقية :

لم تأخذ الأندلس نمط الدولة الحقيقية المستقلة والملكة التى لانقاش فى كيانها فى نظر باقى العالم الإسلامى إلافى عهد عبد الرحمن الثانى. إذ أصبح وضع الأسرة المروانية السورية صلبا بعد الخطوات الجريئة التى قام بها الشجاع عبد الرحمن المهاجر والتى دعمها خلفاؤه الأول وهما هشام الأول والحكم الأول بصفة خاصة فلم تعد هذه الدولة تخشى الخلافة العباسية ولم يكن أمام هذه الأخيرة من مناص إلا قبول الأمر الواقع القائل بأن العرش الأموى الذى قضت عليه الخلافة العباسية فى الشرق عاد للظهور فى الأراضى الأيبيرية بقوة وحيوية. كما أن الأندلس بعيده جغرافيا عن العراق حتى تفكر الخلافة فى الإطاحة بذلك العرش. أضف إلى ما سبق بدء ضعف الخلافة العباسية فى المشرق ليس فقط فى الولايات البعيدة القاصية بل فى الأقاليم القريبة من قلب الإمبراطورية. وكان على الخلفاء العباسيين الذين كانوا يقيمون فى بغداد أن ينتقلوا إلى أبهة «سر من رأى» وسمحوا بأن تدور حولهم الدسائس التى تقضى على سلطانهم كما أثرت عليهم أيضا المبالغة فى جلب المرتزقة من الأتراك

ليكونوا بمثابة حرس شخصى لهم ولينخرطوا فى صفوف الجيش الذى أدى إلى أن ينفضَّ من حولهم أوائل من أسهموا فى إقامة دعائم وسلطان الخلافة. ففى عام ٨٢٢م (٢٠٧هـ) تحرر أهالى خراسان من وصاية بغداد ولم تعد لهم صلة بالسادة القدامى إلا تلك الصلة الروحية الضعيفة للغاية وهى الاعتراف بسيادتهم الروحية كخلفاء. ويقوم الايرانى طاهر بن الحسين بتأسيس حكم جديد هو أسرة الطاهريين فى هذا الأقليم الأسيوى، والتى ظلت تقيم فى مروى طوال نصف قرن قبل أن يهدمها الصفويون.

لم تتأخر الحركات الانفصالية فى أفريقيا طويلا فأحدثت فصلا كاملا أسهم فيه بعد المسافة الفاصلة بين «أفريقية» و«المغرب» وعاصمة الخلافة فى المشرق. وإذا مابقيت مصر تحت التبعية الفعلية لبغداد فما كان ذلك إلا بفضل جهود ضخمة كان على الحكام المقمين فى الفسطاط أن يواصلوا مناهضة أعمال التمرد التى كان يقوم بها الأقباط فى الدلتا، ولن يمضى وقت طويل إلا ويقوم الحاكم التركى أحمد بن طولون برفض سلطة العباسيين على وادى النيل ويؤسس هناك حكم الأسرة الطولونية التى لم تكد تستمر فى الحكم إلا ثلث قرن بالكاد. وفى أقصى الغرب وفى اللحظة التى تولى فيها عبد الرحمن الثانى شئون الحكم فى قرطبة لم يكن يعترف بسلطة بغداد فى أى من الأمصار ووجد «صقر قريش» من يقف لمباراته فى المغرب ـ إدريس الأول ـ وذلك قبل نهاية القرن الثامن. وبعد ذلك بقليل وخلال الأعوام الأولى من بداية القرن التاسع ظهر إبراهيم بن الأغلب حاكم «إفريقية» وقد تحرر من تبعيته للخلافة العباسية ولم يكن له بها صلة اللهم إلا روابط مصطنعة. وأخيرا نجد أنه بين «المغرب الغربى» و«إفريقية» كانت هناك منذ خمسين عاما إمارة مستقلة أسسها إيرانى من الخوارج هو عبد الرحمن بن رستم بالقرب من تاهرت Tahart على حافة السهول الصحراوية التى تقع وسط الجزائر الحالية.

أى نوع من العلاقة كانت تربط إمارة الأندلس فى عهد عبد الرحمن الثانى بهذه الدول المستقلة الثلاث التى تنسب إلى إقليم البربر الإسلامى؟ وللاجابة على هذا السؤال يجب أن نكون شديدى الحذر والبعد عن الإجابة القطعية الثبوت. فالوثائق التاريخية المتوفرة لدينا تلتزم صمتا تاما له دلالته بشأن العلاقات التى من المفترض أنها قامت بين أسبانيا الأموية من ناحية والمغرب الأدريسى وإفريقية الأغلبية من ناحية

أخرى. واقتصر المؤرخون على ذكر بعض البيانات الشديدة الإيجاز والخاصة بموقف أوائل أفراد أسرة رستم من قرطبة. هذا الحرص الذى سار عليه التأريخ الأسبانى الأموى فيما يتعلق بحكام فاس والقيروان يجعلنا نفترض أن كان بينهما وبين أمير قرطبة لا مبالاة مصطنعة، أى نوع من التجاهل المشترك وهذا أبسط الافتراضات، أو كان هناك تعارض معلن بينهما. لكن ما هو قائم لم يحل دون وجود علاقات تجارية و تبادل ثقافي. ومن المعروف أن الطريق الموصل بين بغداد وقرطبة والذى عن طريقه تتلقى قرطبة أحدث مبتكرات الحضارة العباسية والإنتاج العلمى والأدبى كانت فيه محطة رئيسية هى القيروان وسوف تظل كذلك لفترة طويلة.

لانستغرب عندما نرى أن الأغالبة(٥٣) كانوا شديدى التمهل فى علاقاتهم بالأمويين في الأندلس، فالدولة التى أسسها إبراهيم بن الأغلب فى «إفريقية» حافظت على شكلها الخارجى وكأنها إقليم عباسى وما حدث فيها من تغيير هو وجود حكومة وراثية واستقلال مالى لا يكاد يحمّل نفسه أية أعباء ضريبية اللهم إلا تلك الأتاوة التى يسددها لبغداد وإذا لم تكن سياسة الأغالبة موالية تماما للعباسيين فإنها اتسمت بالسير على البرنامج التقليدى الذى كان عليه الخلفاء العباسيون. وأدى هذا الموقف المحافظ إلى أن تمتد إلى إفريقية أبعاد الأزمة القائمة التى تواجه فيها بغداد وقرطبة. فالأمراء الأسبان لايثقون فى هؤلاء الحكام القدامى الذين يدينون بما عندهم من جاه ومال إلى أعدائهم الأبديين. أضف إلى ما سبق أن المناطق التى يسيطر عليها هؤلاء كانت بعيدة عن الأندلس فهناك البحر وهناك اثنان من الحواجز الفاصلة والمتمثلان فى وجود مملكة تاهرت ومملكة فاس. ولم يكن هناك إلا بعد آخر تمثل فى أنه قبل أن تنقضى خمس سنوات على حكم عبد الرحمن الثانى تحولت الدولة الأغلبية إلى قوة بحرية تتسم بجرأة لا تخطؤها العين وذلك عندما قامت عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) بغزو جزيرة صقلية(٥٤) بغية إرضاء الأوساط الدينية فى القيروان والتى كانت تحض حكام هذه الدولة على الجهاد ضد المشركين وضم أراضى جديدة تابعة للإسلام. لكن لم تنته عملية غزو صقلية إلا بعد بداية القرن العاشر بعد أن تكبدت الدولة الأغلبية فى ذلك عناء شديدا. ورغم ذلك حدث على هذه الغزوة تقدم كبير أثناء حكم عبد الرحمن الثانى. وليس من قبيل التطويل أن نورد مراحلها المختلفة.

قام أسد بن الفرات قاضي القيروان الذى كان يتسم بالرحمة وكان ذا علم واسع بقيادة الحملة الأولى التى أبحرت من ميناء صوصة Susa واستطاعت القيام بعملية إنزال عند Mazzara ـ مصرة ـ الواقعة فى الجنوب الغربى للجزيرة الكبرى. وبعد ذلك استطاع المسلمون دحر البيزنطى جيرجنتى Girgenti، كما استولوا على بلد مينيو Mineo فى الوسط، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء على مقاومة سيرا قوسSiracusa . وفى صيف عام ٨٣١م (٢١٦ رجب هـ) سقطت بالرمو فى أيديهم وذلك بفضل قوات دعم وصلت إليهم من البحرية الأندلسية التى أبحرت على مسئوليتها فى أعمال قرصنة عبر المتوسط. ثم سقطت مدينة ميسينا Mesina عام ٨٤٣م (٢٢٨هـ) بعد وفاة الأمير الأغلبى زايدة الله الأول بخمس سنوات وبذلك تم الاستيلاء على الأجزاء الداخلية فى الجزيرة وإحلال السلام فيها. وهذه هى المهمة التى قام بها آخر أمراء «إفريقية» الذين اتسموا بالتشدد. حيث قاموا بفتح كاستروجيوفانى Castrogiovanni ثم استولوا على كل من سيراتوس وتاور مينا الواقعتان على الشواطئ الشرقية Siracusa y Taormina.

يمكننا أن نفترض أن الموقف الأسبانى لم يتسم باللامبالاة إزاء هذه النجاحات التى حققتها جيوش الإسلام وأن عبد الرحمن الثانى ربما يصفق لها ويفرح بها. حتى لو كان ذلك فى الخفاء إلا أن هذا الشعور لابد وقد واكبه بعض القلق للقوة البحرية الأغلبية التى بدت ظاهرة للعيان. ولنتوقف قليلا عند الأخبار الخاصة بالتدخل الحاسم من قبل مجموعة من المغامرين الأندلسيين فى الاستيلاء على باليرمو. القرصنة الأندلسية التى تم تنظيمها فى عهد الحكم الأول – لكنها كانت بعيدة عن تلقى أوامر من حكومة قرطبة – أسهمت فى أن تضمن استمرار كريت Creta تحت حكم الإسلام لفترة طويلة. كما أكدت أيضا وجودها فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى وظلت على نشاطها الدؤوب هذا فى غرب ووسط البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرون الوسطى.

أما فيما يتعلق بعلاقات الأمويين فى أسبانيا مع الأئمة الرستميين فى تاهرت(٥٥) نجد أن ابن حيان يورد لنا خبرا غريبا لا يخلو من أهمية. فيقول لنا هذا المؤرخ أنه فى عام ٨٢٢م (٢٠٧هـ)، أى العام الذى تولى عبد الرحمن الثانى الحكم، قام عبد الوهاب بن رستم الإمام الحاكم آنذاك بإرسال سفارة إلى قرطبة تمثلت فى ثلاثة من أبنائه. هذا الإمام هو نفسه الذى تحدثنا عنه سابقا والذى قلنا بأنه استضاف فى بلاطه الصغير عبد الله البلنسى عَمّ الحكم الأول قبل عودته إلى أسبانيا. وها هو الآن يرسل بأبنائه لعبور البحر ليعيد علاقات الموالاة التى ربطت أجداده الفارسيين

بالمروانيين في سوريا. استقبل أمير قرطبة الأمراء الثلاثة، عبد الغنى، وبحرام، وصخيون، بحفاوة بالغة وبعد أن حملهم بالهدايا أرسل بهم إلى أفريقيا لكن المركب التي كانت تقل صخيون وبحرام غرقت بمن فيها وما عليها، لكن عبد الغنى كان أحسن حظا فاستطاع الوصول إلى المغرب بسلامة. وعندما وصل إلى تاهرت وجد أن والده قد توفي منذ سبعة أشهر وتم اختيار أخاه أفلح ليقوم بدور إمامة طائفة الخوارج.

هذه المعلومات تشير إلى أن أسرة الأئمة الرستميين أرادت أن تضع نفسها تحت سيطرة الإمارة الأسبانية الأموية منذ النصف الأول من القرن التاسع وأن تحاول الحصول على مساعدة منها ولما كان الرستميون يعيشون فى منطقة فاصلة بين الأغالبة والأدارسة ولا تربطهم بهاتين المملكتين إلا مشاعر العداء فقد طلبوا حماية أمراء قرطبة حيث كانوا يجتمعون معهم على كراهية الخلفاء العباسيين. رحبت الحكومة الأموية بهذه الخطوة دون أن تضع اعتبارا إلى أن الإمامة المتشددة في الرستميين يمكن أن تكون عقبة أمام إقامة علاقات سياسية. ويبدو أن الدخول فى حماية المملكة الأندلسية كان أحد البنود الرئيسية لنشاط الرستميين والذى نود أن نجد المزيد من المعلومات عنه. واستمر هذا الموقف بالطبع حتى أنه فى عام ٨٤٤م أبلغت قرطبة تاهرت رسميا بانتصارها على النورمانديين فى وادى نهر الوادى الكبير. وبعد ذلك ببضع سنوات، أى عام ٨٥٣م (٢٣٩هـ) عندما تولى الحكم الأمير محمد الأول تلقى الإمام أفلح من قرطبة هدية معتبرة من السلع. كما أن ابن أفلح وخليفته فى الحكم، أبو اليقظان محمد (٨٦٨- ٨٩٤) ظل مستمرا فى العلاقات مع قرطبة وبذل جهوده لزيادة أواصر الصداقة ومن الطبيعى أن يكون للحماية الأموية مقابل والذى تمثل فى توريد الغلال للصوامع التابعة للدولة فى قرطبة، وربما أضيف إلى ذلك إرسال مجموعات من الجنود المرتزقة من البربر إلى قرطبة. وقد لاحظنا أيضا أن شخصا يدعى محمد بن رستم كان أحد القادة الأمويين خلال النصف الأول من القرن التاسع، وكان محمد هذا حفيد عبد الرحمن بن رستم أول إمام في تاهرت كما أن هناك عضوا آخر من نفس الأسرة يدعى عبد الرحمن، والذى ربما يكون ابنا أو أخا للقائد؛ وقد كان عبد الرحمن هذا أحد وزراء عبد الرحمن الثانى(٥٦).

لم يقم أى من المؤرخين المسلمين بالتعرض للأسباب التى أدت إلى وجود عداء بين الأمويين الأسبان والأدارسة ـ الذين سيكونون جيرانهم فى المغرب الغربى بعد وقت قليل ـ خلال النصف الأول من القرن التاسع(٥٧). إلا أنه يمكننا تخمينها. فميلاد كل واحدة من هاتين الأسرتين كانت تصاحبه ظروف شديدة التشابه. فالمروانى عبد

الرحمن الأول وعلى الأدريسى الأول كانا من عرب المشرق وكانا كذلك من الفارّين. والفرق الزمنى فى الفرار بين هذا وذلك تمثل فى ثلاثين عاما. إذ أجبر كل واحد منهما على مغادرة القارة الأسيوية لأن إقامتهما فيها أصبحت مستحيلة إذ كانت رأساهما مطلوبتين. هذا التشابه فى بداية الحياة السياسية لهما ربما كان حافزا لورثتهما ألا يدخلوا فى نزاعات مع بعضهم البعض إذ لم يكن هناك إتّجار فيما بينهم. ومع هذا اتسمت العلاقات بين أوائل الأمويين الأندلسيين والأدارسة المغربيين بالبرود أو التوتر وذلك بسبب جذورهم العرقية وذكرى الأزمة التى كان ضالعا فيها على ومعاوية فى صدر الإسلام. وليس من المجازفة الظن بأن عبد الرحمن الثانى ساعد اقتصاديا أثناء ولايته، الدول الصغيرة المستقلة التى ظلت قائمة فى أقاصى المغرب على شاطئ البحر المتوسط لتدافع عن نفسها ضد مشروع ضمها الذى كان يؤيده ويحبذه إدريس الثانى ومن أتى بعده فى الحكم.

كانت الدويلة «الصالحية»(٥٨) هى واحدة من هذه الدويلات الأكثر ازدهارا قد تأسست فى بداية القرن الثامن. كان صالح بن منصور أحد رفاق عقبة بن نافع هو الذى أسس تلك الدويلة فى منطقة الريف على شاطئ غومارا Gumara. وبعد ذلك قام واحد من سلالته وهو سعيد بن إدريس ببناء عاصمة لهذه الإمارة سماها ناقورNakur فى مكان غير بعيد عن أغادير. كان ذلك عام ٧٦١م (١٤٣هـ). وسرعان ما تحولت هذه المدينة إلى ميناء بحرى فيه الكثير من الحركة وذلك بفضل حركة الملاحة البحرية القائمة بين المغرب وشواطئ الأندلس المطلة على البحر المتوسط. وعلى زمن عبد الرحمن الثانى كان الأمير صالح قد تولى الحكم اعتبارا من عام ٨٠٤م (١٨٨هـ) وهو ابن سعيد ابن إدريس الذى شارك قبل مجيئه إلى الحكم فى الجهاد المقدس فى أسبانيا. ولم يمت إلا بعد أن قضى عمرا مديدا فى الحكم استمر حتى عام ٨٦٤م (٢٥٠هـ) مات وفى حلقه غصّة من جراء إنزال بحرى نورماندى وقع عام ٨٥٨م (٢٤٤هـ) أو العام التالى حيث استولى النورمانديون على ناقور ونهبوها ثم عادوا أدراجهم إلى عرض البحر وقد حملوا معهم بعض السبايا ومنهن نساء من العائلة المالكة. إلا أن الأمير محمد الأول خليفة وابن عبد الرحمن الثانى افتدى الأميرات. وهذا يبرهن على أن الإمارة الصالحية إذا لم تكن تحت السيادة الأموية فإنها ـ على الأقل ـ كانت تحتفظ بعلاقات ممتازة معها.

وإذا ما تركنا جانبا الإمارة التى كانت عاصمتها ناقور، وبعدنا بعض الشئ عن ملك الأدارسة لوجدنا فى المغرب، خلال القرن التاسع، دولتين قويتين نسبيا(٥٩): الدولة

الملحدة البراغواتة كما نجد دولة المدراريين الخوارج الذين أقاموا فى مجموعة الواحات المتناثرة وأسسوا هناك عاصمتهم سيشيلماسا Sichilmassa.(٦٠). كانت كلتا المملكتين مستقلتين. وتتوفر بين أيدينا معلومات هامة استقيناها من الجغرافى الأندلسى البكرى. واستمرت هاتان الدولتان لعدة قرون. وليس من المحتمل أن يكون البرجواته قد أجروا مباحثات مع قرطبة خلال القرن التاسع بهدف التحالف أو عقد صداقة. إذ أن ذلك يكون سابقا لأوانه ذلك أن نبيهم صالح بن طريف كان مكروها وممقوتا فى أراضى الأندلس رغم أصله الأسبانى، وسوف تمر السنون حتى نصل إلى عام ٩٦٣م (٣٥٢هـ) لنرى سفارة أبى صالح زمور تظهر فى البلاط القرطبى، وهو موضوع سوف نتحدث عنه لاحقا، وقد ساعد هذا الظهور فى توفير المعلومات التاريخية عن هذه المملكة فى البلاط الأموى. أما بالنسبة للمدراريين فى سيشيلماسا، حلفاء الأئمة الرستميين عن طريق المصاهرة فمن المعروف أنهم كانوا تابعين للخلافة العباسية رغم أنها كانت تبعية متقطعة. كل هذه الظروف تفسر لنا السبب الذى من أجله انتظروا وقتا طويلا حتى يقيموا علاقات مع الأسرة الأسبانية لنجد أن إدريس الثانى توفى عام ٨٢٨م (٢١٣هـ) فتقاسم أملاكه أبناؤه وهو الأمر الذى أضعف قوة الدولة وتقسيمها بشكل لارجعة فيه..

وبعد ذلك بقليل سوف نرى الأمويين يحاربون بعض أبناء هذه الأسرة أحيانا بعد فترات من المهادنة والمسالمة. ثم نرى بعد ذلك أيضا أن الحموديين وهم أحد فروع الأدارسة يحاولون أن يحلوا محل الخلافة المروانية المريضة فى أسبانيا نفسها. أما فيما يتعلق بالفترة التى نحن بصدد دراستها فى هذا الفصل فإن الخطر المتمثل فى وجود دولة قوية نسبيا فى المغرب وعلى أبواب الأندلس قد تبخر تماما. كما لم يعد هناك مبرر لمقترحات شارلمان بإنشاء تحالف هجومى مع الحكم الأول وذلك لمجابهة الخطر التوسعى للعلويين فى المغرب ضد أوربا الغربية(٦٢) حتى إن هذا المشروع لم يخطر ببال المحللين العرب على الأطلاق.

- بداية العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة وبيزنطة :

لم تخف بيزنطة قلقها من قيام المسلمين باغتصاب أراضى جديدة من إمبراطوريتها خلال النصف الأول من القرن التاسع. فلم يعد البحر اللاتينى بحرها، ومنذ مايزيد على قرن من الزمان فقد الامبراطور قسطنطين الشواطئ الأفريقية، واليوم ترى وجود خطر محدق بالشواطئ الخاصة بترّينو Tirreno الواقعة على البحر

الأدرياتيكي وعلى بحر إيجه. وأضحت صقلية وهي على وشك السقوط تحت حكم الأغالبة وتعرضت شواطئ شبه الجزيرة الإيطالية للكثير من الهجمات، وأصبح حصن كريت في يد بعض المغامرين الأسبان الذين طردوا من ديارهم. وفوق ماسبق نجد أن الجيوش البيزنطية أصيبت بهزائم ثقيلة في آسيا الصغرى. وفي عام ٨٣٣ (٢١٨هـ) خلف المعتصم أخاه المأمون على عرش الخلافة العباسية. ثم بعد ذلك بأربعة أعوام يرى تيوفيل Téofilo العاهل البيزنطي بأنه آن الأوان لاستئناف الهجمات ضد خليفة بغداد فيستولي على حصن زبترا Zapetra فيرد عليه المعتصم ويستولي منه على العمورية في أغسطس ٨٣٨م (شوال ٢٢٣هـ) التي هي معقل الأسرة الحاكمة في بيزنطة ويبذل تيوفيل جهدا كبيرا في محاولة إعادة الأمور إلى أوضاعها السابقة. كما يقوم في الوقت نفسه بالبحث عن حلفاء جدد فيتوجه أولا إلى القوى المسيحية وهذا هو الأمر الطبيعي. فأرسل سفارتين، بفاصل زمني لعدة شهور، توجهت أولاها إلى إنجليم Ingelheim الواقعة على شواطئ الراين حيث هناك بلاط الملك الأفرنجي لوفيكوبيو. أما السفارة الثانية فقد توجهت إلى فينيسيا. استقبل السفارة الأولى ابن شارلمان قبل موته بعام واحد تقريبا وبالتحديد في السابع عشر من يونيو لعام ٨٣٩م. كان أعضاء السفارة يحملون على عاتقهم مهمة طلب العون من الفرنجة ومن حكام فينيسيا للوقوف ضد المسلمين في «إفريقية» وصقلية فهاهم قد ظهروا على شواطئ كالابْريا Calabria وأبوليا Apulia واستولوا على تورنتو. ويلح تيوفيل على أن الخطر الآخر القادم هو خطر الأغالبة التابعين لاعدائه القريبين منه وهم العباسيون في آسيا[٦٣] لكن تيوفيل لا يجهل أن للعباسيين مناوئ قوي في قلب العالم الإسلامي فلماذا – فكرّ – لايحاول إقامة علاقات معه وجذبه إلى صفه؟ من المؤكد أن هذا هو السبب وراء وصول أول وفد بيزنطي إلى العاصمة الأندلسية عام ٨٤٠م (٢٢٥هـ)

أمكن لنا أن نعرف شيئا عن هذه السفارة التي بعث بها تيوفيل إلى عبد الرحمن الثاني من خلال فقرتين وردتا في المقرّي إلا أنه كان من المستحيل معرفة أهدافها. لكن الرواية الرائعة لابن حيان أسهمت في سد هذه الفجوة كما أنها أوردت النص الكامل للرسالة التي بعث بها عبد الرحمن الثاني إلى الملك البيزنطي ردا على رسالته إليه، وهو النص التاريخي بالفعل. وفيما يلي نورد بإيجاز[٦٤] مانعرفه اليوم عن هذه المهام الدبلوماسية غير المسبوقة في تاريخ أسبانيا الأسلامية لكنها كانت البداية لتقليد بدأ بين القسطنطينية وقرطبة بحيث تكرر أكثر من مرة خلال القرن العاشر كما سنرى فيما بعد.

كان السفير الذي أرسل به الأمبراطور تيوفيل إلى أسبانيا من أصل يوناني يدعى كاريتوس Qartiyus وكان يعرف اللغة العربية حمل معه هدايا للأمير الأندلسي

ورسالة رسمية من سيده تقول بأنه «اتخذ خطوة كان يأنف منها ملوك من ذى القوة والجاه ـ طبقا لما جاء فى رواية ابن حيان ـ وتتمثل فى افتتاح العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس والروم».

طلب تيوفيل من عبد الرحمن الثانى أن يعقد معه تحالف صداقة وحرّضه على أن يطالب فى المشرق بميراث أجداده السوريين. ثم ألقى باللوم على عدوانية العباسيين وأتباعهم الأغالبة الذين هم الأعداء الطبيعيون لكل من البيزنطيين والأمويين. وأخيرا طالبت الرساله باستعادة جزيرة كريت التى يسيطر عليها الأسبانى أبو حفص البلوطى. لم يقم تيوفيل بالالتزام بأمور عظيمة، وإذا ما وصلت به الأمور إلى أن يقنع عبد الرحمن الثانى بالدخول فى حرب ضد الأغالبة فإن هذه الأزمة كانت ستسهم فى تحسين موقفه وجعله يتنفس الصعداء بعض الوقت.

استقبل الأمير الأندلسى السفير اليونانى باحتفالية كبيرة وأثنى على الهدايا التى بعث بها تيوفيل، كما عبر عن شعوره بالفخار حيث ينظر إليه على أنه عاهل قوى ويحظى بالاحترام ويراعى جانبه فى اتخاذ القرارات الحاسمة وبعد ذلك بقليل ودع المندوب البيزنطى ترافقه صحبة مكونة من اثنين من السفراء المسلمين اللذين اختارهما من أفراد حاشيته: الشاعر يحيى الغزال، وآخر يدعى يحيى الملقب «بصاحب المنيقلة» وذلك لأنه اخترع نموذجا جديدا للساعة المائية. وقد حمل هذان الرجلان على عاتقهما مهمة تسليم الأمبراطور البيزنطى رد سيدهما على رسالته.

صيغت الرسالة فى عبارات مهذبة جدا لكنها ترفض بشكل قاطع الاستجابة لتنويهات الجانب البيزنطى. بدأ عبد الرحمن الثانى رسالته بالإشارة إلى أنه يتذكر جيدا مانوه إليه المراسل الأمبراطورى بشأن اغتصاب العباسيين للعرش الأموى، وأضاف، دون أن يعد بما هو أكثر من هذا، أنه يثق فى أن تهيئ العناية الألهية للأسرة الأموية فى أسبانيا الانتقام لنفسها من الخلفاء العباسيين فى بغداد. أما بالنسبة للأندلسيين الذين يسيطرون على كريت فقد اقتصرت الرسالة على إعفاء الأمير نفسه من المسئولية عما يفعل هؤلاء فهم متمردون ولم يعودوا من رعاياه وأن الأمبراطور اليونانى يمكن له أن يفعل ما شاء معهم سواء طردهم أو عقابهم. أما بالنسبة للأغالبة فى «إفريقية» وبنشاطهم البحرى فقد تفادى عبد الرحمن الثانى الردّ على السؤال بمهارة ووقف عند عبارات فيها تصميمات ثم أضاف بأن من الصعب عليه أن يستنكر علانية قيام مناوئية بحملات موجهة ضد غير المسلمين لإعلاء كلمة الدين. هذه الرسالة المطوله التى لم تعد بشئ كانت عملا رائعا من أعمال الدبلوماسية القرطبية التى أخذت

تسير أولى خطواتها: الكثير من الكلمات الطيبة ونغمة حريصة وصحيحة. لكن دون أية التزامات سواء فيما يتعلق بالمستقبل أو الحاضر.

استقبل تيوفيل السفارة الأندلسية فى القسطنطينية وتسلم رسالة عبد الرحمن الثانى وهداياه. ثم عادت السفارة أدراجها إلى أسبانيا عبر البحر ويخصص ابن حيان عدة صفحات للشاعر الغزال ويورد فيها بعض الأمور الهامة والغريبة بالإضافة إلى بعض الطرائف المتعلقة بالفترة التى مكث فيها السفيرين القرطبيين فى العاصمة البيزنطية. اتَسم الغزال بالروحانية والعبقرية وحظى بعناية ورعاية كبيرتين فى البلاط الأمبراطورى، وقد برهن أكثر من مرة على ألمعيته وقدراته أمام الأمبراطور تيوفيل أو الأمبراطورة تيودورا، والأمير ميجيل Miguel ولى العهد. والذى سوف يُلقّب بـ ميجيل الثالث.

وإذا ما كان لنا نثق فى روايات بعض المؤرخين المسلمين ممن ينسبون إلى عصر متأخر(٦٥)، فإن الشاعر يحيى الغزال ورفيقه فى الرحلة إلى القسطنطينية قد كلفا من قبل عبد الرحمن الثانى بسفارة ثانية خلال العام التالى مباشرة لكن هذه السفارة كانت موجهة إلى ملك النورمانديين بغية ثنى عزيمته عن القيام بإنزال بحرى جديد فى أسبانيا. وقام الشاعر ورفيقه بإنجاز مهمتهما فى شمال أوربا بعد رحلة وعرة فى مياه الأطلنطى ثم عادا إلى قرطبة بعد تسعة أشهر. إلا أن هذه الرواية غير صحيحة من أول كلمة إلى آخر حرف فيها. ذلك أن تلك الرواية التى تتحدث عن سفارة لم تحدث، موجهة إلى أسكندينافيا لكن تم تخيلها فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر، لا تكاد تصمد إذا مادرسناها بشئ من التأنى ذلك لأن التفاصيل التى توردها وتنسبها إلى هذه السفارة المزعومة، ما هى إلا بعض تفاصيل رحلة يحيى الغزال إلى الأمبراطورية اليونانية خلال القرن العاشر. ومما لاشك فيه أن الخطوه التى اتخذها إمبراطور بيزنطة بشأن قرطبة وكذلك الهجوم البحرى للڤيكنج على الأراضى الأسبانية كانا بمثابة إلهام لبعض القصص ثم اختلطت الخيوط ببعضها فى المخيلة الشعبية لأهالى الأندلس وتكونت تدريجيا أسطورة أسهمت فى تشويه الواقع التاريخى(٦٦).

عبد الرحمن ودوره فى التنظيم والتشييد :

كان عبد الرحمن الثانى مجددا فيما يتعلق بالتنظيم الإدارى وذلك طبقا لنفس المصدر التاريخى ورغم أن ابن حيان لم يعبّر عن ذلك بشكل صريح يمكن القول بأنه كان مقلدا: لم يتجاهل الأمير القرطبى التنظيم الحكومى المتقدم الذى استحدثه الخلفاء

العباسيون ولم يتردد فى الإعلان عن إعجابه بالتفاصيل الكاملة التى كان يرويها له الرحالة الأندلسيون عند عودتهم من المشرق، رغم أن هذا الإعجاب قد يكون على حساب حبه لبني جلدته من الأمويين: اتسم العاهل الأندلسى بالذكاء فاستطاع تقدير المزايا التي تعود على دولته من جراء تطبيق التنظيم الادارى الشرقى الذى يرجع بجذوره الأصيلة إلى فارس الساسانية، وربما لم يكن يدرك بعد أصول هذه الجذور وإن كنا لا نستطيع تأكيدها فى هذا المقام. وسوف يتولى أحد أفراد ذريته وهو عبد الرحمن الثالث إكمال هذا التنظيم الإدارى وأن يضفى عليه الصيغة الأندلسية مثلما له من صيغة الخلافة. ورغم هذا فهو تنظيم ظل حتى بعد سقوط الخلافة فى قرطبة صورة مصغرة وأمينة للتنظيم الادارى العباسى الذى أخذت شبه الجزيرة الأيبيرية فى تطبيقه اعتبارا من بداية القرن التاسع عشر.

سوف نقتصر فى هذه السطور - مؤقتا - على نصح القارئ بالرجوع إلى الفصل الذى خصصناه للتنظيمات الإدارية لعصر الخلافة خلال القرن العاشر والذى سنورد تفاصيله فيما بعد. إلا أننا سوف نوجز فى كلمات قليلة الخطوط الرئيسية لهذا التنظيم والتى ندين فيها بالفضل لابن حيان حيث تناول التنظيم الإدارى لعبد الرحمن الثانى. أو ما نلاحظه هو أن العاهل هو محور كل شئ من التنظيمات الإدارية التى تدور فى فلكه. فلا يمكن اتخاذ أى قرار دون الرجوع إلى من هو أعلى. تجتمع فى يد العاهل كل السلطات وفى حالة تخويل أى من هذه السلطات فإن المكلف بالأمر يكون مسئولا كلية أمامه. ولا يمكن مراجعة العاهل وهناك استثناء فى هذا المقام متمثل فى قاضى القضاة أو رئيس لجنة الافتاء إذ يمكن لهذين أن يراجعا العاهل - إذا ما كانا يتمتعان بثقته - ويكون التعبير عن هذا باستخدام التورية وأن تكون الأسانيد القانونية قوية. وتتم ممارسة هذه السلطة المطلقة حتى فى الشئون الدينية، رغم أن ذلك سابق على قيام عبد الرحمن الثالث باتخاذ لقب الخليفة - وأمير المؤمنين بعد ذلك بقرن من الزمان. كان اتخاذ هذه الألقاب ذو قيمة أخلاقية وكان الهدف منها التأثير على خيال الجماهير سواء فى الداخل أو الخارج. كما أنه سوف يمثل الرد - أو الصفعة - على نوايا الفاطميين. وعلى الصعيد الأسبانى لم يؤد اتخاذ هذين اللقبين إلا الإعلان رسميا عن موقف متخذ منذ عدة أجيال.

مثلما هو الحال فى بغداد يتم ترجمة السلطة من خلال مؤسسات الدولة: مثل سك العملة والمصانع التى يتم فيها صناعة المنسوجات رفيعة المستوى والتى تحمل اسم العاهل الحاكم. ويرى مؤرخو الأندلس أن هذه الخطوات تمت على عهد عبد الرحمن

الثانى. ويقولون بأنه خلال الفترة السابقة على حكمه كانت العملات التى تسك فى أسبانيا غريبة الشكل وكانت عبارة عن دراهم من الفضة و obolo (فلس) من البرونز. وكانت العملات المتداولة فى البلاد عبارة عن عملة أفريقية أو مشرقية(٦٩) اللهم إلا القليل من الدنانير الغربية المصنوعة من الذهب. كما أن قلة هذه العملات كثيرا ما أثرت بالسلب على عمليات التبادل التجارى الأمر الذى جعل التجار يلجأون فى أغلب الحالات إلى المقايضة. وفى هذا المقام نجد أن المراكب المغربية التى ترسو فى الوقت المناسب على الموانى الأندلسية لتوريد الغلال كانت تضطر إلى إجراء مبادلة مباشرة بأن تحمل فى طريق عودتها المنتجات الأسبانية من المصنوعات المختلفة مثل المنسوجات والجلود المدبوغة. أراد عبد الرحمن الثانى أن يضع حلاً لسلبيات هذا الموقف بأن ضاعف من عدد قطع العملات الفضية والبرونزية المتداولة وعلى هذا أنشأ دارا لسك العملة «دار السكة» وعهد بإدارتها إلى من هو من ذوى الخبرة فى هذا المقام وهو الحارث بن أبى الشبل(٧٠). كانت عمليات سك العملة الذهبية محدودة للغاية. ذلك أن أغلب الاحتياطى من المعدن الثمين كان محفوظا فى كنوز الأمراء. وفيما يتعلق «بالطراز» وهى هيئة بيزنطية تم إقامة هيئة مماثلة لها فى بغداد ثم طبقت فى مصر وانتقلت بعد ذلك إلى أسبانيا لكن لم يعثر المؤرخون اليوم على أى منتج أندلسى ينسب إلى ذلك العصر. لكن يروى الكثير من المؤرخين أن المصانع الملكية للمنسوجات كانت تعمل فى قرطبة ابتداء من ولاية الأمير الأموى الرابع تحت إشراف حارث بن بازى وقامت هذه المصانع بتوريد البسط الستائر والملبوسات إلى البلاط وقامت بصناعة الحلل الفخرية التى كان توزع على بعض علية القوم فى بعض المناسبات.

وطبقا لنفس المصادر التى اعتمد عليها ابن حيان، يرجع إلى عبد الرحمن الثانى الفضل فى تنظيم ما أسماه المؤرخ «بمراتب الخطط»(٧١)، وتحديد المكانة التى يجب أن تكون لكل واحدة من الطبقات فيما يتعلق بمراسم البروتوكول. كما أن موظفى الدولة «أهل الخدمة» كانوا مسجلين إما لدى الإدارة العامه أو لدى الإدارة الخاصة ببيت المال. فكان يتبع الإدارة كل من «الكتبه» و«الوزراء» أو الذين يتبعون الإدارة الثانية كانوا «القهرمانات» أى النظار والأمناء. كان على ديوان بيت المال أن يستخدم منذ ذلك الحين دفاتر رسمية تسجّل فيها البنود المختلفة كل واحد على حدة. كما أن «ديوان الخزانة» التابعة للدولة كان هدفا للتفتيش الدائم ويقوم بهذه المهمة أمناء يتحملون المسئولية بالتضامن. أما الإدارة العامة فقد كان المجلس الذى بناه عبد الرحمن الثانى خصيصا لذلك عند مدخل قصره، كما كان يستدعيهم يوميا الى المثول أمامه إما بشكل جماعى، أو بشكل منفرد وذلك ليبلغوه بآخر التطورات والمراسلات التى تصل من

الأقاليم ويقومون بوضع «الخاتم» على الرسائل والمراسيم الصادرة. هذا الخاتم كان يحمل العبارة التالية «عبد الرحمن راض بما أراد الله»(٧٢). وقد خصص الأمير لكل واحد من «كبار الموظفين» مرتبا ثابتا قد يصل إلى ٣٥٠ دينار شهريا.

فى الوقت الذى قام فيه بتنظيم «مخزنة»، وهى عبارة كثيرة الاستخدام فى المغرب حديثا، على الطريقة العباسية قام عبد الرحمن الثانى بوضع حل للمشاكل الخاصة بالأشغال العامة وبجهاز الشرطة لمواجهة النمو المستمر للعاصمة قرطبة. فحتى هذه اللحظة كان صاحب السوق هو الذى يتولى وضع الموازيين والمكاييل ويراقب جودة الأصناف والسلع المعروضة للبيع وتطبيق النظام والأحكام فيما يتعلق بجرائم الحقوق العامة. فقام العاهل بإنشاء مناصب جديدة بحيث يتولى كل فرد مهاما محددة. فهناك «والى السوق» ـ المحتسب فيما بعد ـ الذى ظل يمارس مهامه السابقة. إلا أن البوليس المحلى تم تقسيمه إلى إدارتين للشرطة. كما أن إدارة الخدمات أخذت تتبع مسئولا جديدا هو. والى المدينة، «أو صاحب المدينة».

من الصعوبة بمكان تحديد مدى الدور الذى لعبه عبد الرحمن الثانى فى تنظيم الأقاليم وذلك نظرا لغياب المعلومات الدقيقة فى كتب المؤرخين، وهو موضوع سنتعرض له بالدرس فيما بعد. إلا أنه أمكن لنا ملاحظة أن تقسيم الأندلس إلى مجموعة من الأقاليم (الكُوَر) كان سابقا على ولاية عبد الرحمن الثانى بزمن طويل. ورأيت(٧٣) أن بعض تلك الأقاليم تم «تجنيدها» حيث أعطى الفرسان من الجند السوريين من «بلج» إقطاعات من الأراضى. هذا التقسيم إلى «كُوَر» كان على ما يبدو سيرا على ما وجده فى أسبانيا عند مجيئهم إليها. فكان كل أقليم تابعا الإدارة مسيحية خلال العصر القوطى كما كان اسم عاصمة الإقليم مذكورا فى قوائم كنسية فى أسبانيا معروفة باسم «توزيع قنسطنطين»(٧٤).

أما الجيش الذى كان موضع رعاية مستمرة من كل من عبد الرحمن الأول والحكم الأول كان أيضا أحد البنود الرئيسية التى تشغل بال الأمير الرابع. فعندما تمت توليته اشترى لأخوته حصة المماليك التى كانت تخصهم طبقا للوصيه الملكية، التى تركها الحكم الأول والتى كانت ملكا خاصا به. وعندما استعاد بهذه الطريقة كافة «الخُرس»، الذين كانوا على أيام والده، قام بزيادة عددهم عندما ضم إلى أملاكه مناطق جيدة هى لانغيدوك **Languedoc** وبَسْكونية **Vasconia** وغسقونية **Gascuña**. فبلغ عدد الحرس الخاص بالأمير خمسة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف فارس وألفى راجل. كما تم دعم قيادات الجيش النظامى. ووضع هناك تصنيفا لهم حسب المهام

التكتيكية لكل منهم فهناك سلاح المرتزقة وهناك «الحشد» وهم الذين يستعدون للدخول في صفوف الجندية وهناك العناصر التى ترسل بها الأقاليم «المجندة» [الجند]. وأخيرا نجد أنه نتيجة للإنزال البحرى النورماندى عام ٨٤٤م ظهرت القوات البحرية وتم تدعيمها بوحدات جيدة. كما أنشئ فى أشبيلية مصنع للحبال. ونذكر أيضا أنه خلال عامى ٨٤٨- ٨٤٩ (٢٣٤) توجهت قوة بحرية أموية مكونة من ثلاثمائة مركب إلى جزيرتى مايوركا ومينوركا لإقرار النظام هناك(٧٥).

لم يقتصر جهد عبد الرحمن الثانى على التنظيم الإدارى فقط بل تعداه إلى التشييد. فكما رأينا أنشئت فى عهده مدينة مرسية Murcia والقصبية فى ماردة Mérida وأسوار أشبيلية. وفى قرطبة أمر خلال عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) بإعادة إصلاح الرصيف الكائن على شاطئ نهر الوادى الكبير وذلك فى المسافة التى تبدأ بعد الكوبرى واستخدم فى هذه العملية الحجارة المنحوتة والملتصقة بالجص ذلك أن تيار النهر كان كثيرا ما يقضى على التبطينات السابقة. وأدخل تعديلات جوهرية على بناء القصر. فقد تُرك القصر القديم الذى كان يسمى «باب السدّة»(٧٦). وأقيمت على شرفاته مجموعة من المبانى البانورامية العالية ذات النوافذ الزجاجية الضخمة التى تسمح بمشاهدة قرطبة وماحولها ابتداء من السلسلة الجبلية وحتى آخر أفق للزراعات فيها. كما بنى قصرا جديدا سيرا على العادات الجديدة فى البلاد الإسلامية والتى بمقتضاها يقوم كل عاهل ببناء قصر جديد تاركا السكنى فى القصر القديم. كما استحدث الأمير الوسائل اللازمة لتزويد القصر بالمياه القادمة من جبل قرطبة وذلك عبر مجريات استخدمت أيضا فى تغذية نافورة عامة تزينها واجهة من الرخام ومنشأة أمام مدخل القصر اعتبارا من عام ٨٥٠م (٢٣٦هـ).

قام عبد الرحمن الثانى بعمارة المساجد أيضا إلى جانب العمارة المدنية التى أشرنا إليها. ففى عام ٨٢٥م (٢١٠هـ) أقام المسجد الكبير فى جيان Jaen(٧٧). وإذا ما اتخذنا جزءا من بدن عمود قديم منقوش عليه عبارات عربية كمصدر تاريخى فبعد بناء مسجد جيان بأربعة أعوام(٧٨) أمر عبد الرحمن الثانى ببناء المسجد الكبير فى أشبيلية وقد أشرف على البناء القاضى عمر بن Adabas. وفى قرطبة سار على نهج والده بأن حث نساءه على أن تتبرعن من مالهن لبناء مساجد فى الأحياء المختلفة وتسمى هذه المساجد باسمهن مثلما نجده فى مسجد طروب ومسجد فجر ومسجد الشفا وهذه أسماء يتردد ذكرها كثيرا فى كتب السير الأندلسية. ثم قام بتوسعة المسجد الكبير فى قرطبة على مرحلتين أولاهما عام ٨٣٣م (٢١٨هـ) والثانية عام ٨٤٨م (٢٣٤هـ). ولم

يتمكن المؤرخون من تحديد طبيعة الإضافات التى تمت على المسجد الكبير فى قرطبة إلا بعد اكتشاف مؤلف ابن حيان. فقد ساعد هذا النص على تذليل بعض الصعوبات التى تواجه الدراسة الأثرية للجامع والتى أدت فى البداية إلى وجود تعارض بين المعلومات التاريخية المعروفة سلفا(٧٩). كان هدف التوسعة الأولى هو عرض المسجد أما التوسعة الثانية فكانت خاصة بالعمق. ففى عام ٨٣٣م تم التوسعة على جانبى المصلى أى ناحية الشرق وناحية الغرب حيث أضيف إلى الأروقة الجديدة القائمة سلفا رواقين عرض كل واحد منهما تسعة أذرع ونصف. ولما اتضح أن مساحة المسجد غير كافية اتخذ قرارا عام ٨٤٨م بإضافة مساحة جديدة إلى المصلّى بنقل الحائط الجنوبى من مكانه وكذلك المحراب بحيث أضاف إلى المبنى ثمانية بلاطات أخرى. كان يشرف على هذه الأعمال القائد الشهير الخصى نصر ويعمل معه رفيقه مسرور، وكلاهما يعمل تحت إمرة القاضى وإمام المصلين محمد بن زياد ويبدو أن هذه الإضافات لم تكتمل إلا بعد وفاة عبد الرحمن الثانى. كما أضاف هذا الأمير إلى صحن المسجد مساحات أخرى تمثلت فى ثلاثة أروقة مرتفعة السقف وخلف الرواق الخلفى أقيمت مصليات صغيرة مخصصة للنساء.

الحياة الفنية وتأثير زرياب على البلاط وعلى المدينة :

لم يكن عبد الرحمن الثانى سعيدا بأن ينقل عن العباسيين تنظيماتهم السياسية والحكومية ويطبقها فى الأندلس. وسوف يقوم بتقليد الخلفاء العباسيين فى بغداد حتى فى منهاج حياتهم مثلما كان يفعل ذلك الأمراء الأغالبة فى إفريقية. فقد هيأت له كثرة الأحوال فى الخزانة أن يحيط نفسه بمظاهر البذخ والقيام بالمهام الباهظة التكاليف وممارسة حق الأفضلية فى شراء المجوهرات النادرة والتحف والكتب النادرة التى كان يجلبها بعض التجار الأذكياء إلى أسبانيا والواردة من بغداد أو المدينة أو حتى من القسطنطينية والموانى المسيحية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وغالبا ما كان هؤلاء التجار يهودا من أربونة **Narbonne**. كانوا يتاجرون فى كل شئ مثل الجوارى الجميلات اللاتى اختطفت من بيوتهن بواسطة القراصنة والخصيان والحرير المخملى والجلود القادمة من الشمال والجواهر والأحجار الكريمة. وخلال هذه الفترة التى كان الأمير يشترى فيها تلك المقتنيات بأغلى الأثمان حتى يضفى على حياته الخاصة المزيد من السعادة ويجمّل من تفاصيل الحياة اليومية، قام الجغرافى المشرقى ابن خرزادابة **Jurdahbeh** الذى توفى عام ٨٨٥م (٢٧٢هـ)(٨٠) بوصف مسار هؤلاء التجار اليهود

الذين كانوا يجيدون عدة لغات هى العربية والفارسية واليونانية والرومانث الأسبانى ولغة السلافيين ولغة الـOc. فعبر مصر وموانئ شبه الجزيرة العربية كانوا ينقلون العبيد والسلع التى كانت تحملها القوافل إلى العراق، وكانت سفنهم محملة بالإستبرق والجلود المدبوغة وجلود حيوان القندس والسمور ونصال السيوف. أضف إلى ذلك سفنا صغيرة مخصصة للأغراض المعيشية أو لإقامة المشترين والخصيان. كانوا يذهبون فى رحلاتهم إلى السند وكذلك إلى باقى الموانئ الهندية وقد وصلوا فى بعض رحلاتهم إلى الصين حيث جلبوا من هناك المسك وخشب الصبر والكافور كما جلبوا القرفة وغير ذلك من أنواع التوابل. وقد سافر البعض منهم لتسويق تجارته فى القسطنطينية واحتفظ آخرون بما معهم من أجل ملك الفرنجة، أما أغلبهم - وعلينا أن نخمن ذلك رغم أن الجغرافى المشرقى لايقوله - فقد اتجه إلى أسبانيا سواء ذهابا أو إيابا، فهم على دراية بأن هناك من سيشترى منهم بضاعتهم بسعر جيد ليقوم ببيعها فى قرطبة وقد حصل على أرباح طائلة.

وتورد كتب التاريخ الكثير من التفاصيل بشأن الصادرات العراقية لأسبانيا فى منتصف القرن التاسع وكان أهمها السلع الفخمة التى كانت تستخدم كنموذج للتقليد سواء فى صناعة المنسوجات أو فى صناعة الحلى فى مختلف مدن الأندلس، وأخذت أنماط المنسوجات والحلى تعيش تحت تأثير المنتجات العراقية أو بمعنى أدق الايرانية بعد أن ظلت متأثرة بالأنماط القوطية فى ذلك الوقت ومن بين الحلى التى وردت من بغداد إلى شبة الجزيرة الأيبيرية نجد العقد الشهير الذى أورد الكثير من المؤرخين أخباره والذى أهداه عبد الرحمن الثانى إلى محظيته فى تلك الفترة «شفا». كان عقدا شهيرا فى المشرق وكان يسمى «الثعبان». كان ذلك العقد ملكا لزبيدة الزوجة الشهيرة لهارون الرشيد وأم خليفتة محمد الأمين، وقد اشتراه الأمير الأندلسى بعشرة آلاف دينار من الذهب عندما عرض عليه شراؤه بين مجموعة من التحف الثمينة المسروقة من قصور بغداد أثناء الصراعات العرقية التى عاشتها هذه المدينة قبل تولى الخليفة المأمون(٨١).

كان عبد الرحمن الثانى يسير على شاكلة الخلفاء العباسيين فإذا لم تكن هناك حملة عسكرية يقوم بها على بعض الثغور أو الأقاليم فنادرا ما كان يظهر أمام مواطنيه من سكان العاصمة قرطبة(٨٢). وعندما يقيم فى قرطبة لا يكاد يغادر قصره إلا للصيد فى وادى نهر الوادى الكبير وقد حددت له سلفا مسارات سرب من طير الكركى(٨٣). وأحيانا ما يغيب أسبوعا لصيد الغزلان فى أدغال جبال الشّارات Sierra Morena ،

ورغم هذا فكثيرا ما كان يظل فى قصره الذى أخذ يضع له الكثير من القواعد والتقاليد التى تحدد تفاصيل الحياة اليومية، لكن هذه التقاليد لم تكن على نفس الدرجة من الصرامة التى كانت عليها فى عصر الخلافة الأموية فى الأندلس خلال القرن العاشر. غير أن الأفراد المكلفين بالعناية بذلك هم أنفسهم الذين سوف نراهم حول عبد الرحمن الثالث أو حتى الحكم الثانى. إنه عالم من الخصيان أى الفتيان[٨٤] الذين يجوبون أنحاء القصر وأغلبهم من أصل أجنبى كما أن الحالة التى هم عليها هيأت لهم السير بحرية فى ردهات الحريم الملكى. كان رئيس البلاط القائد الكبير ـ الفتى الكبير ـ هو الخصى أبو الفتح نصر[٨٥]، وقد جرى تعيينه عدة مرات ثم أخذ يترقى تدريجيا حتى احتل المركز الأول إلى جوار عبد الرحمن الثانى بعد الدور الذى قام به ضد الغزو النورماندى. وقد قال عنه إيولوخيو Eulogie[٨٦] «إن هذا الوالى أمين السرّ كان يشرف على كافة إدارات الدولة القرطبية». وبعد ذلك سوف نراه يقوم بالتآمر حتى يخلف سيده أمير ليس هو الأمير وريث العرش كما سنراه وهو يحاول دسّ السم للعاهل بجرأة غير معهودة كلفته حياته.

كما سنتحدث عن أن نصر قد دبر هذه المؤامرة التى كانت نتائجها مأساوية عليه، بالاتفاق مع طروب إحدى محظيات عبد الرحمن الثانى من جواريه. كان للجوارى كثيرات العدد دور هام فى البلاط القرطبى خاصة عندما تكون واحدة منهن قد أنجبت طفلا، فيكون عندها أمل كبير فى أن تلقب بأم الولد أى «الأميرة الأم» والتى يتم عتقها بوفاة سيدها وتستطيع التصرف فى ثروتها. ويروى لنا المؤرخون أن عبد الرحمن الثانى كان يحب النساء وإذا ما أخذنا بهذه الروايات فقد وصل عدد أبنائه إلى خمس وأربعين ابنا واثنين وأربعين بنتا. وبمرور الزمن أخذت تحل محل «أمهات الأولاد» نساء أخريات أكثر شبابا وجمالا. فالعاهل الذى كان يساعده خبراء يزودونه بالحريم لم يكن يريد إلا النساء العذراوات وكان يحب أن يكون مزودا بالمعلومات الكافية عن الجذور الأسرية لمحظياته. ويمكن لنا أن نذكر أهمهن : فى المقام الأول نذكر طروب التى يبدو أنه كان لها دلال خاص على الأمير. أما الثانية فهى معمرة التى كانت إحدى المقابر فى قرطبة تحمل اسمها حيث أمرت بإصلاحها على حسابها. وهناك الطيبة العاقلة والجميلة شفا التى شكر لها عبد الرحمن كثيرا إرضاعها لمحمد خليفته فى الحكم وكذلك أرضعت له ابنها المطرّف الذى كان يكن حبا جما للأمير وريث العرش. هناك الرائعة فجر. وأخيرا هناك المدنيات الثلاث الشهيرات وهن فضل، وعلم وقلم، وكل واحدة منهن كان لها ابن من الأمير. هؤلاء الثلاث كن شهيرات بغنائهن ورشاقتهن وتميزهن الذى لا تضارعهن فيه أخرى.

أطلق على هؤلاء الفتيات الثلاث لقب «مدنيات» لا لأنهن من أبناء المدينة المنورة ولكن لأنهن تربين وتثقفن فيها على فن الغناء. كانت قلم إسبانية وكان أبوها ـ طبقا لابن حيان، من سادة البشكنس وقد اختطفت وهي صغيرة السن في إحدى الغارات. وأدى بها طريق الرق إلى الشرق ثم عاد بها مرة أخرى بعد أن اكتملت ثقافتها العربية لتقوم بدور الترويح عن سيد أسبانيا الأسلامية. فكانت، بالتعاون مع زميلتيها، ترأس جوقة موسيقية متمرسة على العزف والغناء حيث قام عبد الرحمن الثاني ببناء جناح خاص لهن(٨٧).

كانت «المدينة» هي المكان الذى تربت فيه ثلاثتهن تربية موسيقية، وكانت لاتزال تحت سلطان العباسيين رغم أفول نجمهم السياسي: إذ كانت مركزا نشطا للثقافة العربية وحاضرة تؤمها علية القوم. ولعبت المدينة إلى جوار العاصمة بغداد دورا غير مباشر في إضفاء الصبغة «المشرقية» من جديد على أسبانيا خلال النصف الأول من القرن التاسع. أضف إلى ما سبق وجود عنصر آخر هام جدا أسهم بدور فعال في إضفاء «المشرقية» من جديد على قرطبة ألا وهو نزول المغنى العراقى زرياب على قرطبة وإقامته فيها. وكان له تأثير كبير على البلاط والمدينة وحاز شهرة واسعة تجعله جديرا بأن نتوقف عنده لنعرض لسيرته على أرض الأندلس(٨٨).

ولد أبو الحسن على بن نافع عام ٧٨٩م (١٧٣هـ) في بلاد ما بين النهرين وكان أحد عتقاء الخليفة العباسي المهدى. وقد كنًّى بزرياب بسبب سمرة بشرته. ويرى كتاب السيرة أن هذه اللقب كان يطلق على عصفور ذى ريش أسود. تميز زرياب منذ يفاعته كتلميذ نجيب للموسيقى الشهير إسحاق الموصلى. وصلت شهرته للخليفة هارون الرشيد الذى طلب من أستاذه أن يأتى به إلى البلاط ليسمعه. فتفوق الموسيقى الشاب على نفسه في حضرة العاهل وأثار غيرة إسحق الموصلى لدرجة أن التلميذ خشى على حياته إذا مابقى في بغداد فاضطر للخروج منها والبحث على الرزق متوجها إلى الغرب. وبعد أن مكث فترة قصيرة فى البلاط الأغلبى الذى كان به آنذاك القيروانى زيادة الله الأول، كانت شهرته قد سبقته إلى الأمير الحاكم الأول فى أسبانيا من خلال الموسيقى اليهودى القرطبى أبو النصر منصور فأخذ طريقه إلى أسبانيا وعندما وصل إلى الشاطئ الآخر، عند الجزيرة، علم بوفاة الأمير الذى طلب مجيئه وأن ابنه عبد الرحمن الثانى تولى الحكم بعده. فسارع هذا الأمير ليطلب منه مواصلة الرحلة الى قرطبة وأرسل إلى زرياب بالكثير من الهدايا جعلته يتخذ قرارا بالبقاء فى أسبانيا ما بقى له من العمر. واستقبله العاهل استقبالا ممتازا وهيأ له راتبا مرتفعا جدا بلغ

مائتي دينار شهريا وخصص له إقطاعا من الأرض شديدة الخصوبة، وكان للموسيقى العراقى أبلغ الأثر فى المجتمع القرطبى سواء فيما يتعلق بموهبته الموسيقية أو العائد المادي. ووصلت أخبار سخاء الأمير الأموى مع زرياب إلى كافة أرجاء العالم الإسلامى لدرجة أن موسيقيا آخر من بغداد هو Alluyah قال أمام الخليفة المهدى أنه قد يموت جوعا بينما يسير زرياب فى شوارع قرطبة تحيط به كوكبة من الفرسان ويمتلك ثلاثين ألف قطعة عملة ذهبية. وصل زرياب إلى أسبانيا عام ٨٢٢م (٢٠٧هـ) وكان له أربعه أبناء سوف يستمرون فى ممارسة مهنة والدهم[٨٩] وكان عمره يتجاوز الثلاثين بقليل وظل فى الأندلس حتى وفاته عام ٨٥٧م (٢٤٣هـ). ظل طوال هذه الفترة قول الفصل فى الأناقة والعنصر المحرّك لكل أنواع التقاليع الجديدة التى كانت سائدة آنذاك ولم يكن تأثيره على الشكل الخارجي فقط بل على الحياة الخاصة للمسلمين فى الأندلس.

وإذاما تناولنا الجانب الموسيقى[٩٠] عند زرياب فطبقا لكتاب سيرته كان مجددا عبقريا حتى فى ذلك البلد الذى اختاره ليكون مقرا لإقامته. فأنشأ معهدا للموسيقى بدأت فيه الموسيقى الأندلسية تحذو حذو المدرسة المشرقية التى كان على رأسها إسحاق الموصلى لكنها سرعان ما أخذت طريقها الخاص بها والذى لازال تأثيره واضحا حتى الآن فى الغرب الإسلامى. وإلى زرياب يرجع الفضل فى إدخال تعديلات فنيه على العود فزاده إلى خمسة أوتار بدلا من الثلاثة التى كان عليها كما كانت الريشة عبارة عن ريشة من قوادم النسر بدلا من القطعة الخشبية.

وإذا ما اتفقنا على أن تأثير زرياب كموسيقى كان كبيرا فى قرطبة إلا أنه ـ بالمقارنة ـ كان أقل عمقا من ذلك التأثير الذى أحدثه بنصائحه الموجهة إلى عليه القوم فى أسبانيا فهذا الأنيق الشرقى يذكرنا بيترونيو Petronio وبرمل Brummel. ولنشر، كيفما اتفق، إلى بعض التجديدات التى نسبها إليه المؤرخون والتى أحدثت تأثيرا على المجتمع الأندلسى المحافظ للغاية والذى اتخذ منهاج حياة لم يتغير إيقاعه طوال قرن من الزمان أى منذ تأسيس الإمارة الأسبانية الأموية. فقد علم زرياب أهل قرطبة كيفية إعداد الأطباق التى كانت سائدة فى المطبخ البغدادى والتى يتسم بعضها بالتعقيد فى إعداده، وكذلك كيفية تقديم الطعام وترتيب تناول الأطباق المختلفة وألا يتم خلط الأطعمة ببعضها بل يجب البدء بالحساء ثم يعقب ذلك أطباق اللحوم وأطراف الطيور بعد إنضاجها جيدا وفى الختام يتم تقديم أطباق الحلو مثل حلوى الجوز واللوز والعسل أو عجائن الفواكه المضاف إليها بعض الفانيليا والمحشوة بالفستق والبندق. وبدلا من أن يكون مفرش المائدة من التيل السميك حل محلها الجلد الرقيق وأكد أن الكئوس المصنوعة من الزجاج تزيد من زينة المائدة بدلاً من تلك الكئوس الفضية أو الذهبية. كما

افتتح فى قرطبة ما يمكن أن يطلق عليه معهد الجمال والرشاقة حيث أخذ الناس يتعلمون كيفية حلاقة الذقن وإزالة الشعر من الجسم واستخدام معجون للأسنان وكيفية تصفيف الشعر ولا تترك الخصلات طليقة فى وسط الرأس فقد تنسدل على الجبين وتغطى الصدر، بل يجب أن تكون خصلات قصيرة ومموّجة لتكون الحواجب ومؤخرة الرأس والأذنيين مكشوفة. كما وضع توقيتات الموضة بحيث يلبس اللون الأبيض اعتبارا من شهر يونيو وحتى نهاية سبتمبر وأن يكون الربيع هو الوقت المناسب للبس الحرير الرقيق أو المنسوجات الأخرى ذات الألوان الزاهية، أما الشتاء فهناك المعاطف الجلدية والمعاطف المصنوعة من الفراء والمبطنة بالقطن. كان الجميع يطلبون منه النصيحة وكانوا ينفذونها بحذافيرها. فليس هناك ماهو أكثر تأثيرا من تلك التيارات الحضارية القادمة من بغداد إلا تأثير زرياب. لقد غيرّت المدينة والبلاط الملابس والأثاث والمطبخ وكان الحكم هو زرياب وظل اسم هذا الأنيق الشرقى يتردد دائما كلمّا ظهرت موضة جديدة فى صالونات شبه الجزيرة.

العلماء فى بلاد عبد الرحمن الثاني؛ الدسائس فى نهاية حكمه :

كان عبد الرحمن الثانى شديد العناية والميل للعلوم الدينية والدنيوية مثل ولعه بالموسيقى وباقى وسائل الترويح عن النفس. وقد كان يعتنى بدراسة التراث الإسلامى والشعر العربى القديم قبل مجيئه إلى كرسى الحكم وظل محتفظا بهذا الميل بعده. وطبقا لتعليماته جرى نشاط كبير من أجل دراسة الحديث سيرا على مذهب الإمام مالك. كان هذا الأمير أوسع أمراء بنى أمية الأندلسيين ثقافة باستثناء أحد خلفائه وهو الحكم الثانى. وامتد اهتمامه إلى المؤلفات الطبية والفلسفية والعلوم الغيبية أو بمعنى آخر التنبؤ بالمستقبل وتفسير الأحلام. وأثناء حياة والده أرسل ببعثة إلى العراق لتتولى جلب الكتب له فى التخصصات التى كانت تهمه. فأثناء النصف الثانى من القرن السابق استطاع أحد العلماء من السند أن يُدخل فى بغداد منهجية علم الفلك فى الهند وأملى على تلاميذه «قانون» دراسة النجوم. كما كانت هناك مؤلفات أخرى مثلZich y el Sindhind التى أذاعت فى العراق نتائج الأبحاث الهندية فى علم الفلك(٩١). لكن هذه الكتب لم تصل بعد إلى أسبانيا فأتى بها الأفراد الذين أرسلهم عبد الرحمن الثانى وأخذت الأوساط الثقافية القرطبية فى دراستها ونشرها فيما بينها.

وعندما تولى ابنه الحكم الأول مقاليد السلطة أحاط نفسه بكوكبة ممتازة من الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين كانوا فى الوقت نفسه من علماء الفلك. ونذكر من

بينهم عبد الله بن السمير صديق الطفولة للأمير والذى كان ذا موهبة حقيقية فى قرض الشعر. وهناك المولى الأموى إبراهيم بن سليمان الشامى، الذى تعرف فى الشرق على أبى نواس وأبى العتاهية الشهير بقصائده فى الزهد والذى هو صاحب بيت الشعر العربى الذى يقارن فيه الحياة الدنيا بيت العنكبوت. هناك أيضا عالم النحو عثمان بن المطعنه الذى كان يوزع ساعات يومه بين الرباط فى الثغور وبين دراسة الفلسفة العربية ثم انتقل إلى قصر الإمارة ليكون معلما للأمراء نذكر كذلك عالم العروض سعيد بن فرج الرجاح الذى كان يحفظ عن ظهر قلب أربعة آلاف قصيده وكان تلميذا لأشهر علماء النحو فى الكوفة والبصرة. وهناك شقيقه محمد الذى وضع مقاسا محددا للذراع الأندلسى الذى حمل اسمه «الذراع الرجاحى» والذى حفر منه نموذجا فى أحد ممرات المسجد الكبير فى قرطبة(٩٢). نذكر أيضا شاعر البلاط عبد الله بن بكر الملقب «بالنادل» بالاضافة الى كثير من الشخصيات الأخرى. لكن لم تحظ شهرة وقدرة أى من هؤلاء السابقين فى بلاط عبد الرحمن الثانى بنفس الدرجة التى كان عليها كل من عباس بن فرناس ويحيى الغزال.

كان عباس بن فرناس من أصل بربربى وكانت أسرته تعيش فى منطقة تاكرونا Takoronna رُندة. لم تعرف سعة خياله وقدرته على الابتكار حدودا. كانت له مهارات جسدية لا تقارن فبرز فى أعمال الشعوذة الأكثر تعقيدا ولم تخف عليه أى من تفاصيل العلوم الخفية. كان يعرف حل الألغاز الصعبة. فعندما جلب أحد التجار إلى أسبانيا كتاب العروض العربى للخليل بن أحمد لم يكن أحد يفهم شيئا من قواعد العروض أو التفعيلات المختلفة. إلا أن عباس بن فرناس أرسل فى طلب المخطوطة الموضوعة جانبا فى القصر وتصفحها وفهم ما فيها وقام بشرحها لجمهور فاغرفاه من الاعجاب واعتمد على أدوات وعدد اخترعها هو. اكتشف طريقة تصنيع الزجاج وبنى نموذجا مقببيا تمثيلا لشكل السماء وبشكل يجعله غائما أو منقشع الغيوم وأضاف إلى نموذجه أيضا البرق وصوت الرعد. لكن محاولته الأكثر براعة وذكاء تمثلت فى محاولة الطيران وجعلته أقدم رائد فى هذا الميدان والتى كانت على وشك أن تكلفه ثمنا غاليا فبعد أن ارتدى كيسا ربط به أجنحة جعل طولها يناسب طول قامته وجعل فى هذين الجناحين ريشا مصنوعا من القماش الحريرى صعد إلى ربوة مرتفعة فى الرصّافة وقد تجمع الفلاحون من حول الربوة، ثم ألقى بنفسه من هذا المرتفع ثم طار للحظات وسقط بعد ذلك على الأرض دون أن تحدث به إصابات بالغة. وكان سقوطه فى نقطة قريبة من نقطة الانطلاق(٩٣).

أما العالم الثانى فهو يحيى بن الحكم البكرى العربى الذى ولد فى جيان Jaen والذى لقب بالغزال وهو شاب «من الغزالة» وذلك نظرا لوسامته ونحافته. وعندما تولى عبد الرحمن الثانى الحكم كان الغزال قد تجاوز الخمسين من العمر لكنه ظل يعيش حتى كاد يصل إلى مائة عام ثم توفى فى عهد خليفة عبد الرحمن الثانى (٨٦٤م-٢٥٠هـ) فكما أشرنا سلفا تولى الغزال مع سفير آخر مهمة السفارة التى بعث بها عبد الرحمن الثاني إلى القسطنطينية عام ٨٤٠م (٢٢٥هـ) لتحمل ردّ الأمير الأندلسى على الأمبراطور (تيوفيل). وقد استطاع الغزال أن يحوز اهتمام عاصمة بيزنطة لبضعة أسابيع(٩٤). كان الغزال شاعرا من أصحاب الكلمة الحادة ويخشى الجميع سلاطة شعره الذى لا يرحم والمكتوب بلغة واضحة ليس فيها أى تنميق بلاغى وبالتالي يفهمه الجميع. كان مشهورا بردوده البلغية رغم أنها قد تتجاوز حدود الذوق، فلأنه كان يتسم بالبخل فقد طلب من الأمبراطورة تيودورا حلياً من أجل بناته اللاتى حصل لهن كذلك على راتب قبل أن يغادر قرطبة. وربما لم ينج من سلاطة لسانه أحد إلا الأمير كما أن كلماته وعباراته اللاذعة لم ترحم حتى الفقهاء وخاصة يحيى بن يحيى رئيسه الذى كان يخشى جانبه ويهاب من هياجه.

أى مكانة كانت لهؤلاء الفقهاء وعميدهم المؤثر ضمن حاشية عبد الرحمن الثانى؟ يبالغ دوزى بعض الشئ عندما يقول بأن الأمير الأموى الرابع قد سار طوال حياته على ما رسمه له الفقيه يحيى من خطوات. وعلى إيقاع الموسيقى زرياب وعلى خطوات امرأة هى طروب، وأحد الخصيان وهو نصر. وقراءة ابن حيان لا تعطى انطباعا مثل هذا لكن نتأكد من خلالها أن الفقية القرطبى - الذى زاد من التوتر مما أسفر عن وقوع التمردّ فى الربض على عهد الحكم الأول - ظل محتفظا بتأثيره على عبد الرحمن الثانى طول مدة حكمة(٩٥). وبفضل الحماية التى كان يحظى بها فى البلاط أمكن له السيطرة على عالم فقهاء العاصمة وكذا فقهاء كبريات المدن الأندلسية. فلم يعين أى قاض إلا برضاه هو وعندما يتولى القضاة مناصبهم يخضعون لتفتيش يومى الأمر الذى يفسرّ لنا تعاقب أحد عشر قاضيا على هذا المنصب طوال فترة حكم عبد الرحمن الثانى. وعندما تحين اللحظة المناسبة لم يكن يحيى بن يحيى يخشى أن يحض الأمير على الالتزام المطلق بفروض الدين ويجبره على الامتناع الكامل عن أى شئ من المفطرات خلال شهر رمضان. وفى كثير من الأحيان ينقض على الشعراء - علماء الفلك الذين كانوا يعيشون فى ظل الأمير ورغم ذلك كان يضيع وقته معهم حتى أنه لم يتمكن من مواجهة العبارات اللاذعة التى أطلقها الشاعر الغزال والتى تداولها الناس: «لماذا لا نجّد إلا فقهاء أغنياء ؟* طيب أن أعرف كيف اغتنوا» ومهما حاول يحيى بن يحيى من وضع

قواعد صارمة ضد رجال البلاط الذين يتحدثون بحلو اللسان ويتناقشون في أمور بعيدة عن العلوم الإسلامية فلن يفلح في إقناع عبد الرحمن الثاني. وعندما توفي ٨٤٩م (٢٣٤هـ) أمكن للمؤرخين الذين سجلوا وقائع الوفاة أن يروا بأعينهم كيف أن هذا الفقيه الغيور قد «وضع كل القضاة تحت رحمة سهامه المسممة»(٩٦).

ابن القوطية(٩٧) هو المؤرخ القرطبي الوحيد الذي أورد بعض تفاصيل الدسائس التي وقعت في البلاط قبل انتهاء ولاية عبد الرحمن الثاني بقليل والتي تزعمتها «أم الولد» طروب والخصي نصر رئيس قطاع الفنانين. لم يكن الأمير قد عين بعد واحدا من أبنائه العديدين ليخلفه بعد وفاته وارتكب بذلك خطأ التردد في اتخاذ القرار مثلما فعله الحكم الأول. كان الأمير الحاكم يميل إلى أن يتولى ابنه محمد الحكم من بعده وهو الذي خلفه بالفعل. لكن إذا لم يكن عبد الرحمن الثاني قد اتخذ القرار بالبيعة بالشكل الملائم فقد كان ذلك لوازع فيه رحمة وطيبة. فالمحظية طروب قد أظهرت مهارة كبيرة في الحفاظ على سيطرتها على الحكم وأرادت أن يقع الاختيار على ابنها الأمير عبد الله. ولما يئست من إمكانية تعيينة خليفة بشكل رسمي عملت بالنصيحة – وبتآمر مع نصر– القائلة باستخدام الوسائل غير الاعتيادية مثل دسّ السم لمن سيقع عليه الاختيار ليكون وريثا للحكم، وكذلك دسّ السم للأب للحيلولة دون أن ينزل بها عقابه. وفي هذه الفترة كان قد وصل إلى قرطبة طبيب من المشرق كان اسمه على اسم المدينة التي ولد فيها. إنه حرّان، وهي مدينة في بلاد ما بين النهرين. فطلب منه نصر أن يعدّ مشروبا ساماً فلم يجرؤ الحراني على الرفض لكنه حذر من ذلك إحدى «أمهات الولد» في القصر ألا وهي فجر ـ التي ذكرناها سابقا ـ وهذه قامت بإبلاغ الأمير. وعندما قدّم نصر مشروبا كريه الطعم لعبد الرحمن الثاني قائلا له بأنه دواء سيشفيه من علته فما كان ردّ الأمير عليه إلا بأن طلب أن يشرب هو. ولم يجد نصر مناصا إلا تناول الشراب ثم جرى مسرعا نحو الحراني يطلب منه الترياق لكنه لم يكن ناجحا فمات نصر. حدث كل ذلك في شتاء عام ٨٥٠م (٢٣٦هـ). وقام أنصار كل من إيولوخيو وألبارو Eulogie y Alvaro بالربط بين النهاية المأساوية لنصر واللعنات التي صبها عليه رجل الدين برفكتو Perfecto قبل مقتله. أما بالنسبه لطروب فيبدو أنها لم تتعرض لعقوبة من أي نوع من الأمير.

وبعد ذلك بأقل من عامين وبالتحديد في ليلة يوم ٢٢ سبتمبرعام ٨٥٢م (٣ ربيع الثاني ٢٣٨هـ) مات عبد الرحمن الثاني فجأة عن عمر يناهز الستين عاما. فهل كان ضحية مؤامرة أخرى؟ تصمت كتب التاريخ عند طرح هذا السؤال. إلا أننا إذا ما

أخذنا رواية ابن القوطية فى الاعتبار[٩٨]، الذى يروى تلك الأحداث، فعندما عرف فى القصر نبأ وفاة الأمير فعلت طروب «أم الولد» المستحيل ليتم تنصيب ابنها عبد الله واعتمدت فى هذا على عون اثنين من الخصيان كانا شديدا الارتباط بها وهما سعدون وقاسم. إنه عمل ليس وراءه جدوى: خشى فتية آخرون من سوء معاملة القرطبيين لهم إذا ما أرادوا أن يعترضوا على الأمير الجديد. فى تلك الليلة ذهبوا للبحث عن الأمير محمد وذهبوا به إلى القصر. وفى اليوم التالى علمت قرطبة بنبأ وفاة عبد الرحمن الثانى[٩٩] وأن ابنه محمد هو خليفته.

وهكذا انتهت إمارة عبد الرحمن الثانى وكانت، فى كلمة موجزة، مليئة بالفخار. فعلى مدى ثلاثين عاما قضتها إسبانيا الإسلامية فى تبعية شبه كاملة للحكومة المركزية ازدهرت أثناءها وتمتعت بفترة طويلة من السلام النسبى أفادت منه كثيرا الإضفاء المزيد من البعد الحضارى والأنسانى باتصالها بالحضارة العباسية وبدأت بذلك تتبوأ مكانة رفيعه فى تلك الفترة المتقدمة من العصور الوسطى، بين دول العالم الإسلامى. واحتفظت بهذه المكانة حتى نهاية «حرب الاسترداد» **Reconquista**.

هوامش الفصل الثالث :

١) المصادر العربية: تم الاعتماد فى الأساس على الجزء المطوّل من «المقتبس» لابن حيان والذى لم ينشر حتى الآن (فاس) من ص ١٠٢ حتى ٢٠٣ ومن خلاله حصلنا على الكثير من التفاصيل عن حكم عبد الرحمن الثانى وكذا سرد تفصيلي للأحداث عاما بعام حتى ٢٨٢ هـ وهو التاريخ الذى ينتهى عنده هذا الجزء من المخطوطة. كما اعتمدناء ولكن بشكل ثانوى على «أخبار مجموعة» من ص ١٣٥ ـ ١٤١ ـ وفى الترجمة الأسبانية من ١٢٠- ١٢٤-. ابن القوطية «إفتتاح». ص ٥٢ - ٧٠ من النص الأصلى (ص ٤٦ - ٥٦ من الترجمة الأسبانية (FAGNAN,Extraits inédita 215- 205) من ١٢٠ ـ ١٢٤ ابن الأثير«الحوليات» من ١٩٥ ـ ٢٢٠ (Passim) النويرى ـ تاريخ أسبانيا ص ١٩٤- ٢٠٥ ـ (ص ١٥- ٢٣ من الترجمة الأسبانية) ـ إبن الأبار «الحلة» ص ٦١- ٦٤ ـ إبن الخطيب «أعمال» ص ١٩-٢٢ ـ إبن خلدون «العبر» ص ١٢٧- ١٣٠ ـ المقرّى «نفح الطيب» Analecto ص ٢٢- ٢٢٦ مصادر أخرى : دوزى تاريخ أسبانيا الأسلامية ـ الجزء الأول ص ٣٠٨ ـ ٣٤٦ ـ. و Simonet تاريخ المستعربين ص٣١٠ والتاليه ـ . و BARRAU- Dihigo فى كتابه Royaume ص ١٦٤- ١٦٩.

٢) كان والده الحكم يشغل منصب حاكم هذه المدينة فى ذلك الوقت. أما والدته «حلوة» فقد كانت من أصل متواضع.

٣) وطبقا لكتّاب السِّير فإن عبد الرحمن الثانى ـ إعتبارامن ذلك اليوم ـ إعتاد على أن تَطْرف عينه كثيرا واستمر ذلك حتى نهاية حياته.

٤) وبالنسبة لهذه الشخصية Cf. supra pág 108.

٥) لم يتم تحديد المكان ـ سوف يذكر اسمه مرة أخرى عند التعرض للمرحلة الأولى للحملة التى سيّرها عبد الرحمن الثالث عان ٩٢٤م (٣١٢هـ) ضد أقاليم تودمير وبلنسية (إبن عذارى «البيان الجزء الثانى ـ ص ١٩٦ ـ و ص ٣٠٧ من الترجمة) ويمكن أن نخمّن هذا الموقع شرق قرطبة وغالبا ما سيكون مطلا على نهر *الوادى* الكبير.

٦) فيما يتعلق بالأشارة إلى أن تلك البلدة هى نفسها البلدة المهجورة اليوم فى محافظة تودمير وربما هى بلدة N.2.. حاليا ـ أنظر ليفى بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٧٩ Ojós

٧) انظر ليفى بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ٢١٨- ٢١٩.

٨) إتسم الأحتلال الإسلامى لجزر البليار ـ والذى ينسب أحيانا، رغم عدم وجود ما يؤكد ذلك، إلى عبد العزيز بن موسى بن نصير ـ بأنه *هَشٌ* طول *القرن التاسع* الميلادى ـ وفى نهاية *القرن الثامن* الميلادى، عام ٧٩٨، Los Annales Regni Francorum طبعة Kurze ص ١٠٥ نجد فيها الأشارة إلى غارات قرصنه أندلسية على جزيرتى مايوركا ومينوركا

Insulae Baleares, quae nunc ab incolis earum Maiorica et Minorica vocitantur Mauris piraticam exercentibus depraedatae sunt.

وفى الفترة نفسها يشير Eginardo من جانبة أن شارلمان اتخذ مواقع محصنة لمقاومة غارات القرصنة الأندلسية وكانت هذه المواقع توجد على شواطئ de la septimania و Narbonense وكذلك على الشواطئ الأيطالية حتى روما. Cf. EGINRDO. Vita Karoli, ed y trad. Halphen, página) 53 y n. 3 ; supra, pág III y n. 89 del cap II) ولم يغز الإسلام هذه الأراضى إلا عام ٩٠٢م (٢٩٠هـ) أثناء حكم الأمير عبد الله وعندئذ أطلق على ميورقة عبارة كورة المملكة القرطبية (Cf. infra pags. 250 - 1.

٩) فيما يتعلق بإقليم Santaver أنظر Cf., supra, pag 74 y n. 17 delcap. II.

١٠) نفس المصدر السابق ١١٣– ١١٤.

١١) Barrau- Dihigo, Rayaume asturién ص ١٦٤– ١٦٥ ـ وقد رأى إتشاغراى أن تلك القرية هى نفسها Gurernica فى مقال له بعنوان هل وصل العرب إلى Guernica ؟ En Revue Intern, des etudes basques, t IV 1910 pag 44- 5 إلا أن أخبار ابن حيان تعطى للاسم «garganta de charniq» لفظا مختلفا هو «Chulbín» إلى حد الأمر الذى يجعل رؤية إتشاغراى مشكوكا فيها إلى حد كبير.

١٢) Barrau Dihigo نفس المصدر السابق ص ١٦٦ ورقم ٢ يجدر تفسير تنويه «البيان» ليس على شاكلة فاجنان Fagnan (نفذ من خلال باب الغرب) بل على هذا النحو [نفذ إلى هذه المقاطعة عبر شعب من ناحية الغرب».

١٣) نفس المصدر ص ١٦٦ عدد ٢.

١٤) فيما يتعلق بالاستيلاء على ليون عام ٨٤٦م انظر دوزى فى Rech3 ص ١٤٠– ١٤١.

١٥) بالنسبة ماردة Mérida خلال العصر الإسلامى والأساطير المتعلقة بجذورها التاريخية انظر ليفى بروفنسال فى الموسوعة الإسلامية الجزء الثالث ص ٥٢٧ ـ وكذا مؤلفه شبه الجزيره الأيبيرية ص ٢١٠– ٢١٣.

١٦) - Cf. Supra pag 15- 16.

١٧) - Cf infra pag 151- 2.

١٨) انظر ليفى بروفنسال "Inscription arabes d' Espagne" الأعداد ٣٩، ٤٠ ص ٥٠– ٥٢، وبالنسبة لقلعة ماردة Mérida.

١٩) بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٢١٣.

٢٠) ولمعرفة سيرة محمود بن عبد الجبار فقد سرنا على التفاصيل التى أوردها ابن حيان عن أحمد الرازى لكن كان الاعتماد الأكبر على حوليات ابن الأثير ص ٢٠٥. انظر ايضا دوزى فى مقاله «محمود الماردى» فى Rech 3 ص ١٣٩– ١٤٠ حيث اعتمد فى هذا البحث على المصادر المسيحية (Sebastian y Crónica Albeldense) التى تتحدث عن هذا البربرى المتمرّد.

٢١) ابن الأثير ـ الحوليات ص ٢٠٠ حيث يشير إلى حملة أموية تم تسييرها ضد الفرنجة وكان يقودها القائد عبيد الله خلال شهرى يونيو ويوليو عام ٨٢٥ (ربيع الأول عام ٢١٠هـ) وحقيقة الأمر ببساطة هو الخلط بعام ٨٢٧م (ص ٢٠٣– ٢٠٤) وفى الحقيقة فكما رأينا كان عبيد الله، فى بداية عام ٨٢٥، مشغولا بقيادة حملة ضد أراضى ألبة Alava.

٢٢) بالنسبة لتمرّد القوطى أيزون Aizon أنظر Auzias, Aquitaine Carolingienne pag 91- 6 وكذا المصادر المشار إليها. وقد قام Codera بدراسة هذا التمرد El godo O moro Aizón, en Est crit. hist, ar, esp. 201-24 ويرى العلامة الأسبانى أن هذه الشخصية يمكن أن تكون عيشون أحد أبناء سليمان بن العربى الحليف القديم لشارلمان (cf. supra, pag y 83 n. 34 del cap. II) وكان الدور الذى لعبه عام ٨٢٦م اختراع كامل من قبل المصادر الأفرنجية. وفى الوقت نفسه نلاحظ أن المؤرخين المحدثين لاقليم قطالونيا لا يكادون يقبلون بنظرية العلاّمة الأسبانى هذه.

٢٣) لسنا ندرى مدى الصدق فيما أورده ابن الأثير فى حولياته ص ٨١١ (والتى لم ترد فى أخبار إبن حيان) والتى تقول بانه فى عام ٨٣٩م (٢٢٤هـ) قام Ludovico (لونرديق فى المصادر العربية) ربما قام بقيادة جيش حتى مدينة سالم ولم تتم مقاومته مقاومة فعلية إلا بتدخل حاسم من قبل فرتون بن موسى.

٢٤) فيمايتعلق بهذه الحملات التى توردها لنا فقط أخبار ابن حيان نلاحظ أن المؤرخين المحدثين للثغر الأسبانى لا يذكرون شيئا وخاصة Soldevila فى مؤلفه تاريخ قطلونية، وكذا Auzias فى Aquitaine carolingienne. ويبدو أن تنظيم الحملة الأخيرة أظهر أن الهدنة المعقودة بين عبد الرحمن الثانى وكارلوس الكالبو C. Calvo عام ٨٤٧م كانت قصيرة للغاية. ولايبدو أنه قد تمت الأشارة اليها إلا من خلال حوليات بعنوان :

- m (annales Bertiniani. ed. g. W arrz en scriptores rerum germanicarum in usum scholarnm Hannovery Leipzg 1883 pag 34, ad. ann. 817): "Legati Adbirhaman regis saracenorum a Corduba Hispaniac ad Karolun pacis petendae foederisque firmandi gratia veniunt. Auzias. op. cit. p. 243 y n 96 y ademas p. 260. n. 39. proposito de una ayuda que segun Eulogio, habría prometido Abd Al Rahman II a Guillén de Tolosa, rebelado contra Carlus el Calvo. Indudablemente a esta embajada cordobosa dc 847 hacc alusión el cronista hispanomusulmán, texto pag 71; Iraul esp., pag 57; FACNAN, Ertaits inédits, pag 216) cuando, dice que éste fué enviado en embajada por el emir Abd al Rahman II, a Carlos, rey de Francia( ) y al rey de los bizantinos (Rum).

٢٥) Cf. supra ص ١٣٣.

٢٦) انظر Barru- Dihigo, :Les primiers rois de Navarre: note critiques, en Reu T. Xv Hisp. T. XV 1916- pag 614- 44 وطبقا لرواية وردت فقط فى "Vita Hludowici del Astronomo Cf. Florez, España sagrada x pag 574) قام اثنان من الفرنجة ممن يحملون لقب كونت وهما Eblo و Aznar بشن غارات ضد بنبلونة عام ٨٢٤م. فاستغاثت المدينة بالمسلمين والذين من المفترض أن يكونوا من بنى قاس من تطيلة. وهزم الفرنجة إذ أسر Eblo وأرسل به إلى الأمير عبد الرحمن الثانى فى قرطبة. وقد قام المؤرخ Codera بمناقشة تلك الملاحظات التى تتسم أحيانا بالخيال الجامح بإسهاب فى مؤلفه حمله Elboy Aznar على بمبلونة.

- "Ecpedición a Pamplona de los condes Francos Eblo y Aznar, en Est. crit hist ár. esp. (VII), páfs. 185- 99. Véase también AUZIAS, Aquitaine Carolingienne página 166"

٢٧) Cf supra ص ١٠١.

٢٨) Cf supra ص ١٠١ ورقم ٧٧ من الفصل الثاني.

٢٩) Cf supra ص ١٩٢.

٣٠) هذا المسمّى العربي الذى يعنى «صخرة قيس» (هذه اللفظة كثيراً ما تردد فى المصادر العربية مشيرة إلى مرتفع من الأرض يتحول إلى حصن فى أعلى جزء منه) ربما يشير إلى Huarto Araquil الحالية (فهذه اللفظة الأخيرة يمكن أن تكون إشتقاقا صوتيا طرأ عليه بعض التغيير من مفرد صخرة) نظرا لموقعها المحدد على نهر Arga الواقع شمال غرب بمبلونة. كما لا نقبل بأن تكون صخرة قيس هى -Aza والواقعة فىCalahorra حاليا وهى بلدة تقع على الشاطئ الأيسر لنهر إبرة فى مواجهة قَلَهُرَّة gra أقصى جنوب عاصمة نابارا.

- (CODERA Est ctir. hist ár. Esp (VIII), página 171, n, a) Más adelante (capitulo V, II) veremos cómo Qays había de ser alcanzada y saqueada, en 924 (312). por Abd al Rahman III, al final de su célebre campaña llamada "de Pamplona".

٣١) Cf infra ص ١٥٠.

٣٢) النورمانديون فى أسبانيا ـ فى Rech 3 الجزء الثانى ٢٥٠- ٢٧١ وقد إستخدم المؤرخ الدانماركى Steenstrup فى مؤلفه Normannerne. مؤلف دوزى هذا فى مؤلفه . ويمكن أن نجد بيبليو غرافيا خاصة بالهجرات الأسكادينافيه إلى جنوب أوربا فى F. LCT, Les invas barbars, pag 124, Sobre el desembarco de 844 citaremos, sólo como curiosidad, la pequeña contribución de A. KRISTOFFER FABRICIUS, La premiére invasion des Normands dans L' Espagne musulmane en 844, Lisboa, 1892- En la Enc. Lst., III páfs, 105- 6, se encontrará visiõn de conjunto de lévi Provençal sobre las correrías de los normandos por el occidente muslmán en los siglos IX y x.

٣٣) فيما يتعلق بتسمية المجوس هذه وخاصة إطلاق اللفظة على Zoroastras أنظر مقال Buchner, V.F. en la Enc, Isl. III pags 101- 105.

٣٤) ذلك أن الجزر غير ملحوظ (Cf. Lévi Proven cal, Le traite d' Ibn Abdun pag 222, 263- 4).

٣٥) بالنسبة لاسم المكان الذى ورد عند إبن حيان "Tablata" أنظر دوزى Rech 3 الجزء الأول ص ٢١٠- ٢١١.

٣٦) طبقا للمقرّى فى الحوليات ـ الجزء الأول ص ٢٢٢ فإن النورمانديين أبحروا فى نهر وادى أنه من المصب حتى مدينة Beja باجة الواقعة حاليا فى محافظة Alemtejo ثم نزلوا هناك لسلب ونهب تلك المدينة.

٣٧) انظر ليڤى بروفنسال «الحضارة العربية فى أسبانيا ١١٣.

٣٨) فيما يتعلق بالرباط الذى سنعود لمعالجته أكثر من مرة انظر ليڤى بروفنسال.

٣٩) انظر على سبيل المثال: ليڤى بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ١٩١.

٤٠) بالنسبة للسفارة المزمعة التى سيرها عبد الرحمن الثانى إلى ملك النورمانديين بعد الإنزال البحرى لعام ٨٤٤م أنظر Infra ص ١٦٣.

٤١) ليڤى بروفنسال: إسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر الميلادى ص ٢٣– ٢٤ ـ وبالنسبة لروح التسامح فى الأسلام خلال القرون الأولى انظر:infra pág 163.

٤٢) فيما يتعلق بهذه المطالب الضريبية يتوفر لدينا أيضا شاهدين معاصرين :

- LEOVICILDO, De habitu clericorum. (en FLOREZ España Sagrada, XI. P. 523): "inquisitio vel census, vel veetigal, quod omni unari mense pro Christi nomine solvere cogimur" EILOGIO. Memoriale ducción esp. do S.. vila, pág. 66, n. 5.

٤٣) النص فى Florez, España sagrada X111 pag 416- 7- cf. tambien simonet. historia de los Mozárabes pag 313- 4.

٤٤) بالنسبة لتولى الحكم الأول، فى المصادر الأفرنيجية وكنيته «أبو العاصى» انظر supra ملاحظة رقم ١٠٧ ـ الفصل الثانى in fine.

٤٥) نفس المصدر ص ١٢١.

٤٦) بالنسبة لهذه المسألة نحيل القارئ إلى مقال لـ L. Massignon ـ الموسوعة الأسلامية الجزء الرابع ـ ص ١٢٩٨ـ ١٢٩٩ ـ وبالنسبة لحالات أخرى من الزندقة والحكم القضائى فيها نجد المزيد من التفاصيل لدى القاضى القرطبى إبن سهل ـ كتاب الأحكام الكبرى ـ ومنها قضية زندقة حيى بن زكريا الخشاب ابن أخت عجب ـ والتى رواها أيضا إبن حيان ـ وأوردها الخشنى فى «تاريخ قضاة قرطبة» ـ وفى العام نفسه تم إتهام شقيق أحد القضاة (وهو القاضى الشهير عبد المالك بن حبيب) والذى يدعى مروان، وقد تم إطلاق سراحه ـ أنظر أيضا Asin Palacies إبن مسرّة ومدرسته ص ١٩ العدد٧، ٨.

٤٧) ابن سهل «كتاب الأحكام الكبرى ص ٢٠١ ـ (الجزائر) ص ٢٤٣ ـ الرباط ـ انظر ايضًا القاضى أحمد بن زياد اللخمى المتوفى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) الذى نعرف عنه الكثير انظر على سبيل الخصوص ابن الخشنى ـ النص ص ١٧٤– ١٨٢ و ١٩٠ ـ وابن الفرضى «تاريخ عدد٨١» كما أن باقى الموقعين على هذا الحكم الفقهى هم: عبيدالله بن يحيى بن يحيى الليثى المتوفى عام ٩١١م (٢٩٨هـ) ومحمد بن عمر بن اللبابة المتوفى عام ٩٢٦م (٣١٤هـ) وسعد بن معاذ بن عثمان المتوفى عام ٩٢٠ (٣٠٨هـ) ومحمد بن وليد بن محمد المتوفى عام ٩١٠م (٢٩٧هـ). وقد خصص بن الفرضى نبذة عن حياة كل واحد من هؤلاء الفقهاء «تاريخ ـ عدد ٧٦٢، ١١٨٧، ٥٣٥، ١١٧٨ و ٦١.

٤٨) نشر Ambrosio de Morales أعمال Eulogio عام ١٥٧٤م فى Alcalá de H. وفى عام ١٦٠٣– ١٦٠٨ نشرت فى فرانكفورت الجزء الرابع من :

- Hispaniae rllustratae seriplores uarii, de A. Schot: las de Alvaro en los tomos X y XI de la España Sagrada. de Flórez y en la patrologia latina de MIGNE, t. CXXI, Paris, 1852. Los sucesos de que vamos a dar un resumen han sido ex-

puestos con todo detalle por DOZY Hist Mus Esp. I, pags 317. 46, y por SIMONET, hist de losMozárabes págs, 357- 486- W. W. BAUDISSIN ha dedicdo a Eulogio y Alvaro una momonografia: Eulogius und Alvar: ein Abschnitt spanisch. Kirchengeschte aus der Zeit dar Maurenherrsehuft, Leipzig 1872 Un trabajo mas reciente sobre Eulogio es el de J.EREZ DE URBEL, San Eulogio de Cordoba Madrid, 1928.

٤٩) بالنسبة للثقافة العربية لأهل الذمة فى قرطبة خلال القرن التاسع انظر - بالأضافة إلى دوزى وسيمونيت - «أصول اللغة الأسبانية» ص ٤٣٦- ٤٣٨. Menendez Pidal

٥٠) وليس عام ٨٥١م كما ظن دوزى، قبل استشهاد فلورا وماريًا. وقد حدد Florez هذا التاريخ بعام ٨٥٢ فى كتابه أسبانيا المقدسة - الجزء العاشر ص ٤٢١.

٥١) انظر Baudouin De Caiffier, Les notices Hispaniques dans le mateyrologe d' usard en las Analecta Bollandiana t. LV Fas 304 193 pag 268 تم إرسال هذين الراهبين (usuardo, Odilardo) الثانى راهب Hilduino إلى أسبانيا فى بداية عام ٨٥٨م وقد بعث بهم Saint Germaindes- prés بغية استعادة رفات القديس بيثنتى السرقسطى. وبينما هما فى الطريق عند برشلونة جاءتهم الأخبار بأن رفات ذلك القديس ليس فى بلنسية وأن من المستحيل العثور على أى أثر له، غير أنهما يمكن أن يحملا إلى فرنسا رفات بعض شهداء أهل الذمة الذى تم حكم الأعدام ضدهم فى قرطبة منذ أعوام قليلة مضت. وعلى ذلك توجه الراهبان إلى العاصمة الأموية وأقاما هناك مدة تصل إلى شهرين وبعد لأى استطاعا أن يحملا إلى فرنسا رفات ثلاثة من هؤلاء الشهداء- الذين نفذ فيهم حكم الأعدام فى ٢٧ يوليو عام ٨٥٢ Natalia Aurelio, Jorge وأخذا طريق العودة عبر طليطلة وقلعة هنارس وسرقسطة وبرشلونة فوجدوا رهبان الدير الذى همامنه لاجئين فى Esmans فى جزيرة فرنسا ذلك أن باريس كانت تحت سيطرة النورمانديين. وبعد ذلك ببضع سنوات تلقى Usardo تكليفًا من Carlos el calvo بإعداد فهرس للشهداء والقديسين حيث قام بتسجيل بعض البيانات عن ضحايا ما يشبه اضطهاد المسيحين فى قرطبة.

٥٢) لازال المصدر الرئيسى متمثلا فى «المقتبس» لابن حيان وقد رجع مؤلف هذا الكتاب إليها فى محاضراته عن «الحضارة العربية فى أسبانيا». وبالنسبة للمراجع الأخرى الفرعية فقد تمت الإشارة إليها Supra ص ١٧٦ ملاحظة (١) من هذا الفصل.

٥٣) بالنسبة للأغالبة انظر الأطار العام لـ :

- G. MARCAIS en la Hist Moyen Age, de GLOTZ, III pags. 412, y,. para más detalles la monografia de M, VONDERHEYDEN Lo Berbérie las relaciones entre la Ifriqiya aglabi y la España omeya.

٥٤) حول غزو صقلية انظر :

- G. MARÇAIS, op. cit., págs. 415- 6, y T. CROUTHER GORDON en Enc. Isl. IV, páfs. 414- 6 para más detalles, AMARI, Storia der Musulmani di Sicilia, 2 ed catania 1931, II, pags. 367 sigs.

٥٥) حول «الرّستمبين» أنظر :

- G. MARCAIS, op. cit., págs. 415-21; el mismo en la Enc. Isl., III. paginas 1270-1, y IV, pags 6401; E. F. GAUTIER, Siécles obscurs pags 293 sigs.

٥٦) المادة الرئيسية الخاصة بأصول القائد، محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم هى عبارة عن سيرة قصيرة وردت فى «الحلة» لابن الأبار ـ ص ٩٤ ـ وطبقا لذلك المؤلف كان والده سعيد هو الذى قدم من أفريقيا للبقاء فى أسبانيا ـ وأصبح محمد الذى كان يعيش فى إقليم الجزيرة صنيعة عبد الرحمن الثانى عندما كان هذا الأمير حاكما لولاية شذونة Sidona أثناء حياه والده الحكم الأول، وعندما تم تولية إمارة البلاد رقى محمد بن رستم إلى أعلى الدرجات العسكرية وأراد هذه الأمير أن يكون عند حسن الظن فبذل جهد كبيرا فى الكفاح ضد العدوان النوماندى كما كانت له معرفة بالأدب والطب ويجيد لعب الشطرنج، كماتزوج بإحدى بنات زرياب. وفى كتاب البيان حرّف الكتبة إسمه فاصبح بن وسيم بدلا من إبن رستم، وفيما يتعلق بالوزير عبد الرحمن بن رستم أنظر ابن القوطية فى «افتتاح» ص ٦٢ من النص الأصلى.

٥٧) بالنسبة للادارسة انظر G. Marçàis, op. cit. págs 421- 4 -R. Basset en la Enc. Isl., II, págs 478- 80.

٥٨) المصدر الأصلى بالنسبة للصالحين من أهالى الناقورة هو بكرى Descr. de l' Alr. sep texto pág 90- 9 وبالنسبة لتاريخ هذه الأسرة الصغيرة التي يتحدث ابن عذارى عنها أيضاهناك نصوص وردت عنها باسهاب لدى ابن الخطيب.

٥٩) بالنسبة للبرغواتة أنظر R. Basset en la Enc. Isl. I. págs 724- 5 y H. Basset Ibid, IV, pág. 117.

٦٠) المصادر الرئيسية عن المدراريين فى سيشلماسا هى بكرى Descr. de' Ale. sept. texto pags 149-51 فى وبالنسبة للجزء غير المنشور من «أعمال» لابن الخطيب انظر أيضا E. F. Gautier Sieles obscours, pags 292- 3; G. Marçais. cit. pag 427 y G. Colin en la Enc. IS. IV. pág 419 - 21.

٦١) Cf. infra ص ١٨٤– ورقم ٧.

٦٢) Cf. infra ص ١١٧.

٦٣) فيما يتعلق بوضع الأمبراطورية البيزنطية خلال النصف الأول من القرن التاسع والسفارات المشار إليها انظر :

- A. A. VASILIEV Byance et les Arabes. I. la dynastic d' Amorium, edición de H. GREHOIRE y M. CANARD, Bruselas, 1935, pags 177- 85.

٦٤) لمزيد من التفاصيل انظر :

- LEVI PROVENCAL, Un échange d' ambassades entre Cordoue et By anceuu IX' siécle, en Byzantion, XII, 1937, págs 1-24. (Reseña en Al-Andalus, V,

1940, págs, 488 - 90) En este articulo se encontrará el texto árabe y una traducción de la catra de abd al Rahman II al emperador bizantino.

٦٥) انظر ليـڤى بروفنســال فى Un échange d'embassades ص ١٥ ورقم ٢، دوزى Rech 3 الجـزء الثالث ص ٢٦٩.

٦٦) انظر ليڤى بروفنسال فى Un échange d'embassades ص ١٦.

٦٧) انظر ليڤى بروفنسال فى Un échange d'embassades شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٢٥١.

٦٨) نفس المصدر السابق ص XXX111.

٦٩) سوف نقوم لاحقا بدراسة للعملة الأسبانية الأموية.

٧٠) ليڤى بروفنسال «أسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر ص ٧٥ ورقم ٢.

٧١) هناك تعبير مماثل لدى المقرّى «نفخ الطيب» Analectes الجزء الأول ص ٢٢٣، «رتابة رسوم المملكة».

٧٢) نجد لدى المؤرخين (مثل ابن حيان فى كتابه البيان الجزء الثانى ـ النص الأصلى ص ٨٣) بعض الطرف ـ سواء حقيقية أم زائفة ـ المتعلقة بالظروف التى أدت إلى اختيار عبد الرحمن الثانى أحد أبيات الشعر لتسجيله فى خاتمه.

٧٣) Cf supra ص ٢١.

٧٤) فيما يتعلق بقنسطنطين "Reparto de Constantino" انظر ليڤى بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٤٢ رقم ٢ و ٢٤٦– ٩.

٧٥) Cf supra ص ١٣٢ ورقم ٨.

٧٦) لم يكن «باب السدّة» هو الاسم الذى أطلق على البوابة الرئيسية لقصر قرطبة بل كما يقول ابن حيان كان الاسم الذى يطلق عامة على عموم مقارّ الأمراء. وهذه الإشارة تساعدنا على استيضاح الكثير من الفقرات الواردة فى كتب الأخبار المتعلقة بقصر العاصمة الأموية شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٨٨– ٨٩ ورقم ١.

٧٨) انظر ليڤى بروفنسال فى .Inscr. ar. d' Es, m 28 bis, pp. 439 198 انظر أيضا ابن القوطية وابن صاحب الصلاة حيث تحدثا عن بناء المسجد الكبير فى أشبيلية.

- Al. SALA: cf. M. M. ANTU˜NA, S eatillay sus monumentos árabes, El Escorial, 1930 págs. 53 y siguientes/ (Véase también L. T (OTTES) B (ALBAS), La primitiva mezquita mayor de Sevilla, en Cronica arqueologica de la España musulmana, XIX, Al- Andalus, XI, 1956, pá46, págs. 425- 439 y sobre todo M. OCNA JIMÉMEZ La inscripción fundacional de la mezquita de I bn Adabbas de Sevilla en Al- Andalus, XII. 1974, pags 145- 51)

٧٩) - Véase E. LAMBERT L' histoire de la grande mosquée de cordoue aux VIII. et IX siécles d' aprés des textes inédits en Ann. Inst Et Orient de Argel, II, 1936,

págs 165- 79; L T (ORRES - B (ALBAS) Nuevos datos documentales sobre la construcción de la Mezquita de Córdoba en el reinado de Abd al Rohman II, en Crónica arqueológica de la España musulana, IX Al- Andahus, VI, 1941 páginas 411- 22.

٨٠) هناك ترجمة لهذه العبارة الشهيرة عند "G. Wiet "l'egypte arabe" (تاريخ الأمة المصرية) ص ١٦٧.

٨١) انظر ليڤى بروفنسال «الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٨ وما يليها ظل «عقد الشفاء» يحظى بالشهرة فى أسبانيا وتتم مراجعة ما ترجمة Fagnan للبيان لابن عذارى ص ١٤٩ (الجزء الثانى حيث ترجمة عقد الشفاء بـ Les aiguillons de scorpions.

٨٢) هناك عبارة واردة عن المقرّى فى نفح الطيب Amalectes I ص ٢٢٣ (ليڤى بروفنسال: أسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر ص ٤٤ رقم ١) تقول: كان عبد الرحمن الثانى أول من وضع مبدأ الاحتجاب عن العامة. ويروى لنا المقرى أحدى الطرائف فى هذا المقام فى كتابه المذكور - الجزء الثانى ص ٢٥ أنه قبل ذلك بوقت طويل وأثناء ولاية عبد الرحمن الأول فقد تلقى هذا الأخير نصائح من حاشيته بعدم الظهور كثيرا أمام العامة أو المشاركة فى تشيع المآتم أو الاختلاط بالعامة.

٨٣) خلال نفس الفترة كان الأمير الأغلبى محمد الثانى، والذى سيحكم فى أفريقية منذ عام ٨٦٤م وحتى ٨٧٦م، لازال شغوفا بمثل هذا النوع من القنص والذى بمقتضاه سيطلق عليه أبو الغرانق.

٨٤) أحيانا ما تتم ترجمة هذا المصطلح وكذا المصطلحات الأخرى «غلام» و«خليفة» بشكل فيه تجاوز كبير إلى "paje" بما فى ذلك الخصيان الذين عرف عنهم بأنهم بلغوا سن الرشد أو تجاوزه وفيما يتعلق بمعانى هذه المفردات أنظر cf infra الفصل الخامس والسادس.

٨٥) اتسم ابن حزم غالبا بإيراده الدقيق للأخبار وقد أورد لنا شيئا عن أصول «نصر» يثير الفضول [الجمهرة Fo ٢٨، لنفس المؤلف] يقول بأن الحكم الأول أمر بخصى عدد من الفتية الصغار من أبناء قرطبة الذين يتسمون بالوسامة ليعملوا لخدمة حريمه. وكان من بينهم نصر الذين كان أبنا لأحد المسيحيين من أهالى قرمونة والذى اعتنق الأسلام وكذا شريح وطرفه ابنا لاقط بن منصور إذ كان يعملان كضباط أو موظفين. وقد ظل اسم هؤلاء الخصيان الثلاثة يتردد بعد ذلك بإطلاقها إسمهما على «مسجد الشريح» «ومسجد طرفة» - أنظر ليڤى بروفنسال أسبانيا الأسلامية القرن العاشر ص ٢٠٨ عدد ٢ رقم ٢.

٨٦) "Nazar, claviculario pro consule, qui eo tempore totius reipublieae in Hispania administrationem gerebat" (EULOGIO). Memoriale sanctorum, libro I, eitado por SIMONET, Hist los Mozárabes. pág 387, n.1)

٨٧) انظر ليڤى بروفنسال «الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٥- ٧٨ ويمكن أن نجد سيَراً لجوارى عبد الرحمن الثانى فى إبن الأبار التكملة ملحق Miscelánea nos 2852- 6.

٨٨) تم نشر الفقرات التالية وهى فقرات مماثلة لما ورد فى كتاب «الحضارة العربية فى أسبانيا» ص ٧٩- ٧٤ وبالنسبة لزرياب كمغنى أنظر :

- .H. C. FARMER en la Enc. Isl (Suppl., págs 285- 6 y la bibliografia citada (sobre todo MAQQARI Analectes II, págs, 83- 90 que reproduce largos extractos del

Muqtabis de IBN HAYYAN; cf G. DUGAT. Introducción a las Anateetes. I. págs LXIX- LXXII).

٨٩) طبقا لخبر ورد في ملحق جمهرة الأنساب لابن حزم (مخطوطة المؤلف) كان لزرياب اثنا عشر ابنا وثلاثة بنات تزوجن جميعهن من علية القوم في قرطبة إذ تزوجت عليه من الحاجب محمد بن رستم أما فاطمة ـ الثانية من بين بناته ـ فتزوجت من وهب الله بن حزم وتزوجت الثالثة ـ حمدونة ـ من القائد الشهير/ هاشم بن عبد العزيز. وقد أورد إبن الأبار سيرة اثنتين من بنات زرياب التكملة ـ ملحق Miscelánea nums. 2857 y 2860.

٩٠) بالنسبة للموسيقى العربية الخاصة بتلك الفترة نوصي بالدراسات الجيدة H. G. FARMER History of Arabian Music, Londres 1929, y studies in O.Musical instru. lonsre, 1931..

٩١) حول علم الفلك والنجوم في الإسلام خلال القرون الوسطى نشير إلى اثنين من المقالات الهامة في هذاالمقام وهي بـ C. A. NAKKINO en la Enc. Isl. I pag 502- 8.

٩٢) فيما يتعلق بالذراع الرشاشي Rachchachi الذي ذكره الأدريسي في معرض الحديث عن أبعاد المسجد الكبير في قرطبة انظر ليڤي بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ٢٦٦. إذ كان طول هذا المقياس ثلاثة أشبار.

٩٣) انظر ليڤي بروفنسال «الحضارة العربية في أسبانيا» ص ٧٦- ٧ A. Gonzalez palencia في الإسلام والغرب ص ٤٨- ٩.

٩٤) Cf. supra pag 162- 3 ليڤي بروفنسال Un echange d' ambassades pag 12- 3.

٩٥) عن يحيى بن يحيى انظر في المقام الأول : Religión 3 J. lopez or tiz Figuras de juriscon- sultes Hispa y cultura xv1 1931- mo-46- pags 94- 104..

٩٦) إبن عذاري البيان الجزء الثاني ص ٩١من النص.

٩٧) «افتتاح» ص ٧٦- ٧٧ من النص ـ وانظر ايضًا Fagnan "Extraits inedits. pag 220.

٩٨) أورد دوزي «تاريخ أسبانيا الإسلامية ـ الجزء الأول» ص ٣٤٦- ٣٥١ تفاصيل الدسيسة التي حدثت في قصر قرطبة بعد وفاه عبد الرحمن الثاني ـ وإعتمد في هذا على ابن القوطية (إفتتاح ص ٧٧- ٨٢ من النص).

٩٩) وردت أنباء وفاة عبد الرحمن الثاني في الحوليات Bertiniani ص ٤٢ عام ٨٥٢م في العبارة التالية :

- "Abdirhaman rex Saracenorum in Hispania consistentium cordubae moritur, regnumque eius flius ipsius adsequitur"



الفصل الرابع

الإمارة الأسبانية الأموية

(٨٥٢ - ٩١٢ م)

عناوين الفصل الرابع:

١- النشاط السياسي للأميرين محمد الأول ٨٥٢ - ٨٨٦، والمنذر ٨٨٦م - ٨٨٨م : تفاقم الأزمة الداخلية. - الأمير محمد وكبار رجال بلاطه. - اضطرابات طليطلة. - معركة جواداليتي ٨٥٤. - بداية انشقاق ابن مروان الجليقي في إقليم ماردة - تمرد الجنوب الأسباني في أواخر فترة حكم محمد الأول. - بدايات تمرد ابن حفصون. - فترة حكم المنذر ٨٨٦-٨٨٨ وتطور التمرد الأندلسي.

٢- الكفاح على الحدود ضد أوردونيو الأول وألفونسو الثالث حتى وفاة محمد الأول.- إمارة بني قسيّ.- نزول القوات النورمانية على السواحل لأول مرة ٨٥٨-٨٦١.- الحرب ضد مملكة أشتوريش حتى هدنة ٨٧٨.- موسى بن قسيّ.- الصراع في بسكونية.- بنو قسيّ في الحدود العليا واستئناف أعمال القتال ضد ألفونسو الثالث.

٣- جماعات التمرد وتفتت السلطة الملكية تحت حكم الأمير عبد الله ٨٨٨-٩١٢.- الأمير عبد الله (دعامة) الأسرة الاسبانية- الأموية.- تفتت الوحدة السياسية.- النزاع بين العرب والمولّدين في منطقة إلبيرة.- اتحاد بحارة بجّانة في أواخر القرن التاسع.- النزاع بين العرب والمولّدين في أشبيلية.- إمارة بن حجاج.- نشاط بن حفصون أثناء حكم الأمير عبد الله.- وضع الثغور في أواخر القرن التاسع.

١- النشاط السياسي للأميرين محمد الأول ٨٥٢-٨٨٦م، والمنذر ٨٨٦-٨٨٨م : تفاقم الأزمة الداخلية[١].

الأمير محمد الأول وكبار رجالات بلاطه :

بدأ الأمير محمد، منذ توليه الامارة في ٢٣ سبتمبر ٨٥٢م (٤ ربيع الثاني ٢٣٨هـ)[٢]، حكما استمر مدة تضاهي تلك التي قضاها والده في الحكم. وإذا ما استثنينا مناطق الثغور، التي أصبحت درجة الغليان فيها متوطنة، إلى حد ما، فإن إسبانيا الاسلامية قد بدأت تعرف فترات طويلة من الهدوء السياسي، على مدى ثلث القرن الذي تلى موت عبد الرحمن الثاني، وتنعم في ظل السلام الداخلي، حتى عام ٨٧٥م على الأقل، بثمار سلطة أحكمت قبضتها على مجريات الأمور، وأقرت، في نفس الوقت، العدل بين الرعية. وقد كان من عادة المؤرخين العرب أن يبرزوا، في غبطة، بعضا من الملامح التي ينطوي عليها طابع كل أمير، أو يروون عنه نوعا من الطرائف المظهرة لسلوكة؛ وجريا وراء هذه العادة نراهم يركزون على مجموعة من الخلال التي تحلى بها محمد الأول، مثل : ذكائه الواعي، وفطنته، وبعد نظره وسخائه ومقته للكذب. ولكنه، على النقيض من هذا، لم يكن يتورع عن سفك دماء سلفه أو يشعر بوخز للضمير. هذا إلى جانب أن بعض المؤرخين ينوهون إلى أنه كان يتمتع بهمة عالية في مراجعة حسابات عماله من القائمين على أمور بيت المال. بينما يتهمه آخرون بالبخل، أو بالأحرى، يلصقون به تهمة عدم التفاخر بصفة الكرم التي تكمن، حسب التقاليد العربية القديمة، في بذل الذهب بسخاء في مقابل جواب كريم ومناسب أو مجاملة رقيقة. ولاشك أن مثل هذه الأمور تدخل في إطار الشتائم التي يطلقها الطفيليون المتجولون من الشعراء والشحاذين، نتيجة عدم رضاهم وغبطتهم على الاطلاق بما كانوا يحصلون عليه من رواتب. ومن المدهش أن دوزي، في روايته غير المتسقة التي تبدو في بعض الأحيان فناً قصصيا يحكي أحداث هذه الفترة، قد ظن نفسه مخولا، حين استند إلى رأي مناوئ وجده مكتوبا في فهرس شهداء مستعربي قرطبة، يرسم صورة للأمير يظهره فيها «شخصا محدودا، باردا وأنانيا»[٣]. ويأتي مثل هذا التقويم مخالفا تماما لما قاله كل مؤرخي فترة حكم محمد الأول، وبصفة خاصة الأقدمون منهم، أمثال بن القوطية أو المؤلف المجهول لكتاب «أخبار مجموعة». وقد عني هذان المؤلفان، وخاصة الأول، بتسجيل بعض الملاحظات عن شخصية الخليفة عبد الرحمن الثاني والتي، إذا ماتمت إضافتها إلى الروايات التي حفظها ابن عذاري والمؤلفون الشرقيون

مثل ابن الأثير والنويرى، فستكون مفيدة لنا بعض الشئ فى دراسة النشاط السياسى لهذا الأمير وابنه المنذر، خاصة وأننا لانملك بين أيدينا مخطوطا للنص الأصلى لتاريخ ابن حيان[٤]، والذى يعد مماثلا للمخطوط الذى اعتمدنا عليه فى التأريخ لهذين الأميرين السابقين، والمخطوط الآخر الذى حفظ لنا تاريخ الأمير عبد الله.

عمل محمد الأول على استمرار وتوثيق أواصر الصداقة التى أقامتها الأندلس، فى شمال أفريقيا، مع الامارة الرستمية الصغيرة فى تاهرت (Tahart). وقد رأينا كيف أنه، حين أقام الاحتفالات بمناسبة توليه الإمارة، أرسل هدية إلى الامام أفلح[٥]. وفيما بعد، اعتبر الامام أبو اليقظان محمد بن أفلح، الذى أصبح رئيس الدولة الرستمية فى عام ٨٦٨م (٢٥٤هـ)، نفسه أحد أتباع محمد الأول، وبهذا اللقب، حسب مايقول بعض المؤرخين[٦]، ظل يطلب مشورته وأوامره، ويسير عليها فى كل قراراته السياسية الهامة. وهو نفس الأمر الذى وقع مع الملوك المدراريين فى سجلماسة، التى لانعرف عن تاريخها فى تلك الفترة شيئا فى وقتنا الحاضر[٧]، مما أشاع حالة من الجهل بمدى تبعيتها لقرطبة وهل كانت تبعية وطيدة مثلما جرى مع جيرانها الرستميين. وعلى كل، فمن الثابت أنه، فى النصف الثانى من القرن التاسع، أى فى الفترة التى لم تتوقف فيها التجارة البحرية بين الموانئ الأندلسية وميناء إمارة تاهرت (مرسى فروج)[٨]، القريب من مصب نهر الشليف. وكما رأينا، فإن الاتصال البحرى بين ميناء ناقور الريفى، عاصمة الدولة الصالحية الصغيرة المطلة على الساحل، كان يتم بنفس الدرجة من الفاعلية[٩].

هناك نص بسيط يذكره نفس المؤرخين[١٠] يوضح لنا أن الأمير محمد أقام علاقات صداقة مع كارلوس الأصلع، الذى «كان يقدر فيه ذكاءه حق التقدير، ويرسل له الهدايا القيمة». ولايعد هذا التوضيح ضربا من الخيال، إذ من خلال إشارة موجزة يبرزها بن القوطية فى تاريخه، نتأكد من أن عبد الرحمن الثانى قد بدأ فى حياته سلسلة من العلاقات امتدت أواصرها بين بلاط الفرنجة وبلاط قرطبة[١١]. وأيا كانت طبيعة هذه المفاوضات، التى جرت بين الملكين فإنه من الصعب علينا، لسوء الحظ، أن نحدد كنهها فى وقت قيامنا بتأصيل تاريخ الأمويين فى إسبانيا وتاريخ الفرنجة. وعليه فإن مابوسعنا أن نخمنه فقط هو أن كارلوس الأصلع، الذى أبدى رغبته فى تجنب مواجهة القوات الأندلسية التى دأبت على غزو سبتيمانيا Septimania فى كل عام، قد رفض الموقف العدائى الذى تبناه لودوبيكو بيو، وحاول أن يتودد إلى الأمير المسلم. كما أنه اتبع نفس الأسلوب مع موسى بن موسى بن قسى، حاكم منطقة تطيلة Tudela

المستقل(١٢). وفى الحقيقة، أننا نجد تباعا، وخلال حكم محمد الأول، وبداية من الفترة التى أسس فيها كارلوس الأصلع «الثغر الإسبانى» بصفة نهائية، توقفا شبه كلى لنشاط الأندلس الحربي ضد إقليم برشلونة **Barcelona**، وهو أمر يرجع، بما لايدع مجالا للشك. إلى ماتم توقيعه من هدنة أو اتفاق لعدم التعدى بين إمبراطورية الفرنجة ومملكة قرطبة(١٣). ولعل ماحققه الأمير الأموى من انتصارات هامة، فى أوائل حكمه، ضد أوردونيو الأول ملك أشتوريش، لم يكن أمرا بعيدا عن محاولة تبنى أسلوب ما للتعايش السلمي بين محمد الأول وملك الفرنجة.

وفيما يتعلق بالحياة داخل بلاط قرطبة، نجدها قد فقدت، منذ مجيئ الأمير الجديد، شيئا من الأبهة التى أحاطها بها عبد الرحمن الثانى. حيث تقلص نفوذ المخنثين والنساء(١٤). ولايعنى هذا أن محمد الأول قد سمح بحل الراية التى رفعها سابقوه، وخاصة، والده. فقد كان، كوالده، مغرما بالعناية بجمال العاصمة. فقد أنهى عملية توسيع المسجد الجامع(١٥)، التى بدأت قبل بلوغه الحكم بفترة وجيزة، ثم عمد إلى تزيين ونحت الواجهات الجانبية للمسجد، ثم أعد مقصورة خاصة، تمكنه من أداء العبادة داخلها دون أن يراه عامة المسلمين(١٦).

كما أن بناء الجيش والأسطول كان من بين الأهداف التى أقضت مضجعه(١٧). فزاد عدد المرتزقة وخفف، لصالح أهالى قرطبة، عبء الاشتراك السنوى فى الغارات الصيفية (الصوائف) ضد الثغر الأعلى أو ضد مملكة أشتوريش، وأعفاهم من الخدمة العسكرية والتجنيد الإجبارى. مقابل قيامهم بتجهيز فرقة من المتطوعين، على نفقتهم، لكل صائفة. وإذا مانظرنا إلى أحد القوائم الهامة لقوات سلاح الفرسان المجندين فى الأقاليم، والمتوجهين إلى حملة عام ٨٦٣م (٢٤٩هـ) ضد أشتوريش، فسوف نستنتج منها حجم الرجال المشاركين الذين تأثروا بدعوتهم للحرب فى كل كورة : بلغ عددهم الكلى إلى مايزيد على٠٠٠ر٢٠ فارس، أتى مايقرب من ثلثهم من إقليم شذونة **Sidona**. أما أقاليم إلبيرة **Elvira** وجيان **Jaén** وملقه **Málaga** فقد قدم كل منها مجموعة تصل إلى ألفين أو ثلاثة آلاف(١٨).

ماتزال إسبانيا الاسلامية دولة غنية، لما تقوم به من جمع للضرائب بصورة جادة، وذلك باستثناء السنوات التى يشتد فيها الجفاف. وقد شهدت فترة حكم محمد الأول قحطا أصاب البلاد مرتين : أما الأولى فقد استمرت من ٨٦٥ إلى ٨٦٨م (٢٥١ – ٢٥٥هـ)، والثانية، الأخطر من سابقتها، ضربت البلاد، وكذلك منطقة المغرب وأفريقيا. ونجم عنها آفة أودت بحياة عدد كبير من السكان. وفى هذا العام الأخير،

وجد الأمير محمد الأول نفسه مضطرا إلى التخلى عن جباية عُشر المحاصيل، وإثناء واليه على قرطبة، حمدون بن باسل، رغم كل شئ، عن عزمه على أن يملأ مخازن الدولة بالغلال.

وكذلك، فإن دعائم الإدارة المركزية ماتزال تعمل، مثلما أرساها عبد الرحمن الثانى، تحت إمرة محمد الأول، بل لعلها تعمل بنظام أفضل مما كانت عليه فى النصف الأول من القرن التاسع. فقد خضعت الدواوين وبيت المال، فى حقيقة الأمر، للرقابة الدائمة والمباشرة من جانب الأمير، الذى كان يعمل إلى جواره، بأعداد وفيرة دائما، جمع من الوزراء والأمناء وخزنة بيت المال. وجاء على رأس الادارة الحاجب الوزير الأول للأمير والمتحدث الرسمى باسمه، والذى من الممكن أن يجمع بين هذا المنصب وبعض المهام العسكرية، من بينها، كما كان يحدث فى الفترة السابقة، تولى قيادة إحدى الصوائف على الحدود. وكان اختيار أمثال هؤلاء الموظفين الكبار أمرا موكولا إلى الأمير بطبيعة الحال، ومع هذا كثيرا مانرى مجموعة بسيطة من أسر قرطبة تلتف حوله، يبرز من بينها كبار القوم الذين لم يتخلوا، حتى سقوط الامارة الاسبانية الأموية، عن المشاركة، بواحد أو أكثر من أفرادها، فى المناصب الادارية العليا بالمملكة. من بين هذه الأسر «أسر كبار الموظفين» والذين سنعود للحديث عنهم أكثر من مرة، حظيت اثنتان منها على الأقل بمكانة خاصة منذ بداية حكم محمد الأول، رغم أنهما قد ربطتا حياتهما بحياة البيت الحاكم على مدى أجيال عديدة. أما الأولى، فهم بنو شهيد، وأما الثانية، فهم بنو أبى عبدة. وقد مثلهما فى المناصب الادارية العليا بدولة قرطبة فى النصف الثانى من القرن التاسع. كل من عيسى ابن شهيد، وعبيد الله بن أبى عبدة.

جاء تعيين عيسى بن شهيد فى منصب الحاجب من قبل عبد الرحمن الثانى عام ٨٣٣م (٢١٨هـ)، وهو المنصب الذى زانه من قبل الشهير عبد الكريم بن مغيث. وكان هذا الشريف ينتسب إلى الأرستقراطية العربية من المهاجرين. كما أن جده، شهيد بن عيسى بن شهيد، مولى الخليفة معاوية وسليل أحد الشخصيات التى شاركت فى معركة مرج راهط، قد أتى إلى اسبانيا فى ظل العاهل الأموى[١٩]. وحين جاء محمد الأول، تم تثبيت عيسى بن شهيد فى منصب الوزير الأول، حيث احتفظ به إلى أن حل محله عبيد الله بن أبى عبده. وينحدر هذا الأخير أيضا من سلالة معروفة شاركت فى معركة مرج راهط. كما أن أحد أسلافه، المدعو حسن، قدم عام ٧٣١م (١١٣هـ)، بغرض اللجوء إلى أرض الأندلس مع ولده عبد الغافر، والذى أصبح فيما بعد وزيرا لعبد الرحمن الأول، ورئيسا لحرس ابنه هشام الأول[٢٠].

وكما نرى، فإن هاتين العائلتين قد حازتا ألقابا سامية جعلتهما ينعمان بحماية ورعاية محمد الأول. ورغم هذا فإن التأثير الذى مارسه أعضاؤهما كان بسيطا، على الرغم من شغل المناصب الرفيعة فى الامارة، وذلك بالمقارنة مع مولى آخر، هو الوزير أبو خالد هاشم بن عبد العزيز بن هاشم(٢١). وقد لعبت هذه الشخصية، مع أخيه الأصغر، أسلم، كبير قضاة قرطبة فى ظل حكم عبد الرحمن الثالث، دورا سياسيا من الدرجة الأولى، تميز بالشؤم فى بعض الأحيان، ضمن بطانة الأمير بقرطبة. وإذا ماصدقنا رواية المؤرخ ابن القوطية، فإن هذا الرجل النشيط، المهذب، حائك الدسائس، لم يكد ينعم بفضل الأمير عليه إلا فى عام ٨٧٥م، عندما بدأ يهمل «اختيار عماله فى بيت المال من بين الرجال ذوى الخبرة والسن، وفضل عليهم مجموعة من الشباب تقاسم معهم الأرباح، حتى أنه أطلق عليهم لقب «المناصفون»(٢٢). وتبعا لما يقوله المؤلف نفسه، فإن سير الأمور بهذا الوضع لم يكن بمنأى عن تطور الأزمة الداخلية، التى تزامنت مع السنوات الأخيرة لحكم الأمير محمد.

ومن جانبهم، لم يقف الفقهاء مكتوفى الأيدى. فقد ازدهرت مدرسة القضاء بقرطبة بدفع من آخر تلاميذ مالك بن أنس وتلاميذهم أنفسهم. وعليه فقد ظل قاضى العاصمة يعمل مستشارا للأمير فى كل مايتعلق بالقانون الاسلامى، الذى يعد مجال تخصصهم الحقيقى. كانت هيئة الإفتاء تتلقى طلبات الفتوى بصفة مستمرة، تأتى إليها من طرف الحكومـة المركـزية. وفى تلك الأونة، برز من بين هؤلاء رجل يدعى بقى بن مخلد، العلامة الذى عاش طويلا فى بلاد المشرق، والذى أتى بطرق اجتهاد وتفسير جديدة اعتبرها فقهاء قرطبة قلبا للنظام المعهود لديهم، حيث عمدت إلى استبدال دراسة الحديث النبوى بكتب مذهب الإمام مالك، كما أنها تبنت التقليد والاحترام المطلق لآراء السلف، فيما يتعلق بالتطبيق العملى للقانون الاسلامى. وقبل هذا الوقت، حدثت، فى المشرق، ردود أفعال مماثلة ضد هذه الاتجاهات المفرطة فى اتباع المنهج المحافظ؛ ولكنها قد كمِّمت، مسبقا، أفواه أولئك الذين حاولوا رفض تلك الأفكار الآلية، وابداء أدنى روح للنقد. كان هذا هو حال بقى بن مخلد، والذى تم استقباله عند عودته إلى الأندلس كمجدد وصلت تعاليمه حد الإلحاد. وإذا ماكان قد نجا من العقوبة المقررة لأمثاله، فإن الفضل فى هذا يرجع إلى تدخل هاشم بن عبد العزيز ومحمد الأول. إذ كان الأمير مقتنعا بصحة ايمانه، وكان يشاركه الرأى، دون أن يجرؤ على التصريح به، وذلك فى رفضه للطرق القديمة التى يسير على نهجها الفقهاء، فأنقذه من غضب هؤلاء

وشمله برعايته. ومع هذا، فقد ظل بقى حتى وفاته فى ٨٨٩م (٧٢٦هـ) هدفا للحقد الذى تولّد لدى هيئة فقهاء قرطبة. وماكانت عودته إلى العاصمة لتغير شيئا من الموقف التقليدى لمدرسة القضاء الاسبانية، والتى ماكان لها أن تتغير، رغم شيوع مبادئ الظاهرية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، إلى أن أتت دولة الموحدين، بعد ذلك بثلاثة قرون، لترسخ فرضية المذاهب التأملية التى أتت بها من المشرق عن طريق المهدى بن تومارت(٢٤).

ومن المحتمل ألا يكون فقهاء قرطبة بمنأى عن الموقف المتشدد الذى اتخذه الأمير محمد الأول، فى بداية مدة حكمه، تجاه المستعربين من أصحاب المناصب الرفيعة الذين يبشرون بالتطوع بالشهادة فى قرطبة. وكذلك فإن هؤلاء الفقهاء هم الذين قاموا، بما لايدع مجالا للشك، وبالاتفاق مع كبار القوم من العرب ضمن بطانة الأمير، بتحريضه على وضع موظفيه من المسيحيين أمام أحد خيارين : إما التحول إلى الإسلام وإما ترك مناصبهم. وهذا هو ماحدث، على الأقل، مع السكرتير جوميث، بن أنطونيو، الذى شغل، كما رأينا(٢٥)، منصب مندوب الحكومة الأموية فى مجلس الأساقفة الذى شهدته قرطبة عام ٨٥٢م، برئاسة ريكا فريدو، مطران أشبيلية. وعقب موت والده، قام الأمير محمد بتثبيت جوميث فى مناصبه العليا بأمانة الدولة. ولكن، نتيجة لشكوى الأعيان، بتحريض من هاشم بن عبد العزيز، فكر الأمير فى الاستغناء عن خدمات جوميث، حين قدم هذا شهادة قانونية تفيد تحوله إلى الإسلام. «يالها من دهشة ستصيب الخلفاء العباسيين فى المشرق – جاء ذلك فى كلمات بعث بها أحد أفراد بلاط الأمير إليه – عندما يعلمون أن الأمويين، فى الغرب، قد اضطروا لأن يعهدوا بأماناتهم الخاصة وأمانة دولتهم لجوميث المسيحى، بن أنطونيو، الذى كان، بدوره، ابنا لمسيحية تدعى خوليانا! أريد أن أعرف من ذا الذى أعماك حتى جعلك لاتقدم على اختيار رجل يفوقه نبلا، يضفى على المنصب شرفا ويكون أهلا له بما له من مكانة سامية استحقها نظرا لأصله الموروث»(٢٦). ومالنا أن نتعجب كثيرا من مثل هذه الحرية فى التعبير، التى تتمشى مع الأسلوب العربى القديم، وأوضحت للأمير رأى العائلات العربية الكبيرة، التى كان من المفروض أن يجعل لها رواتبا، حتى لايحرم من تأييدها له. ولكن هذا كله لم يكن ليمنع محمد الأول، ولاحتى من خلفوه، من الاستمرار فى تقديم المناصب الادارية لأمناء يدينون بالمسيحية، والذين سرعان ما انضم إليهم عدد من المحاسبين والوكلاء من أصل ودين يهوديين، سواء فى القرن الذى شهد مدة الخلافة الاسبانية – الأموية، أم فى فترات أخرى من تاريخ الأندلس.

اضطرابات طليطلة : معركة جواداليتى عام ٨٥٤م :

كان من عادة أهالى قرطبة اعتبار وصول أموى جديد إلى عرش قرطبة مؤشرا لهم على شق عصا الطاعة، فقد أعلنوا تمردهم تماما فى نفس اللحظة التى وصل فيها محمد الأول إلى السلطة. ومنذ عام ٨٣٧م (٢٢٢هـ) كان عليهم، طوعا أو كرها، أن يظهروا خضوعهم، على الرغم من مشاعر التعاطف التى أعربت عنها جالية المستعربين فى المدينة من خلال حركة المقاومة السلبية لأنصار إولوخيو وألبارو. ومع هذا، وكضمان لحسن سلوكهم، فرضت على عدد من أهالى طليطلة إقامة جبرية، إلى جانب عدد من السياسيين الآخرين تم التحفظ عليهم من مقاطعات نشبت فيها أيضا بعض الاضطرابات، فى مبنى كبير يعرف باسم «بيت الرهائن». وبدأ أهالى طليطلة باستعراض قوتهم. فقاموا، بعد أسابيع من تنصيب محمد الأول، بحبس الحاكم الأموى للمدينة، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن تأكدوا من اطلاق سراح رهائنهم. زاد هذا النجاح الأول من جرأتهم، وما أن أعدوا جيوشهم، حتى أرسلوها إلى أرض الميدان، بجنوب طليطلة، فى اتجاه قلعة رباح Calatraba[٢٧] – وهى الحصن المنيع، الواقع فى أعالى وادى أنة، بالقرب من مدينة ثيوداد ريال الحالية، والذى كان يأتمر بأمره جميع المراكز الأمامية فى قرطبة وجيان – وقد تم اخلاؤها من حاميتها، بسبب الضغوط الكبيرة من جانب كتيبة طليطلة. وماكان للأمير محمد أن يترك مثل هذه الإهانات تمر دون عقاب. ففى صيف ٨٥٣م (٢٣٩هـ) أمر بإرسال قوات، بقيادة أخيه الحكم، لاستعادة قلعة رباح وإعادة تشييد حصونها، وما أن فرغ من العمل، الذى بدأه منذ عامين، حتى عمرت المدينة مرة أخرى ووضعت بها حامية قوية، بقيادة القائد حارث بن بازى. ومع هذا، فلم يكن احتلال قلعة رباح كافيا لضمان تحييد نشاط المجموعات المحاربة من أهالى طليطلة، والتى قامت، فى صيف عام ٨٥٣م نفسه، بسحق مزارع نهر جندولا[٢٨] [أحد فروع الوادى الكبير الذى يخترق جبال الشارات، ونصبوا كمينا حول جيش قرطبى، كان يعسكر قريبا منها، فى أندوخار، والذى اضطر إلى الانكماش بعد هزيمة مروعة، تاركا وراءه أسلحته وأمتعته.

كان أهل طليطلة أول من أصيب بالدهشة لهذا النجاح غير المنتظر، الأمر الذى، حين تتوافر الظروف المواتية، ستكون له ردود فعل عنيفة ضدهم من جانب حكومة قرطبة. ولكى يتمكن هؤلاء الأهالى من تكوين جبهة مضادة لمحمد الأول، وجدوا أنفسهم فى حاجة إلى إعداد قوات تفوق ذلك العدد من الرجال المسلحين الذين يعملون تحت إمرتهم، وهنا توجهوا بطلب المساعدة إلى أوردوينو الأول. الذى خلف والده راميرو عام

٨٥٠م. كان ملك أشتوريش مهتما بإشعال نار الحرب الأهلية فى المناطق الاسبانية – الاسلامية، وما إن قدّر الفائدة التى سيجنيها من وراء العمليات التى سيقوم بها ضد الإسلام خارج أراضيه، لم يتردد فى إرسال جيش جرّار إلى أهالى طليطلة، يقوده أحد أقاربه، يدعى جستون، كونت البيرزو. ومن جانبه، بدأ الأمير محمد الأول باستعداد للحرب في يونيه عام ٨٥٤م (محرم ٢٤٠هـ). فخرج فى مجموعة مكونة من آلاف الرجال، متخذا الطريق الرومانية التى تصل قرطبة بطليطلة، وذلك عبر ديسبنيابيرّوس، ثم تابع سيره، جاعلا قلعة رباح على يساره، حتى وصل إلى المنطقة السهلية الواقعة جنوب شرق طليطلة، عبر كونسويجرا، وهى منطقة يمر بها فرع لنهر التاجه، يعرف بجدول وادى سليط، والذى قامت على ضفافه القوات السورية فى بلش بالقضاء على العصابات البربرية التى حاصرت الحامية العربية فى طليطلة. وحين علم الأمير الأموى بقرب وصول القوات الأشتوريشية والطليطلية، قام باعداد خطة للمعركة، وانطلق، بعد أن ترك الجزء الأكبر من رجاله كامنا فى ثنايا الأرض المجاورة للجدول، بادئا الهجوم بما تبقى معه من قوات. وقد آتت الخدعة القديمة ثمارها مرة أخرى، حيث لحقت بجاستون هزيمة ثقيلة. وتبعا لما يذكره كتب التاريخ والمصادر العربية واللاتينية فإن الأشتوريشيين قد تكبدوا خسائر فى الأرواح بلغت ٨٠٠٠ أما الطليطليون فقد كانت خسائرهم مايقرب من ١٢٠٠٠. وقد عبر المنتصرون عن وفائهم لعادتهم فجمعوا رؤوس الضحايا فى هذه المذبحة، ومن فوق منصة الموت أعلنوا وحدانية الله وسبحوا بحمده، كما أرسلت غنائم هذه المذبحة، التى تعد علامة فى ذاكرة الجيوش الإسلامية ويطلق عليها المؤرخون «معركة وادى سليط»، إلى قرطبة والساحل الشمالى الأفريقى(٣٠).

وعلى مدى الصفحات التالية سوف نرى النتائج التى ترتبت على مثل هذا النجاح للأمير محمد وتأثيرها فى العلاقات بين قرطبة ومملكة أشتوريش. كان الأثر الأكبر لمعركة وادى سليط على أهالى طليطلة، رغم العقاب الأليم الذى نزل بهم، أنها زادت من حنقهم وبغضهم تجاه نظام قرطبة. وبدل أن يقوم الأمير مباشرة باستغلال النصر الذى حققه فيذهب حتى يسترد المدينة المتمردة، نراه قد آثر أن يساير أهلها. وفى عام ٨٥٦م (٢٤٢هـ) سمح لابنه المنذر بفرض الحصار على طليطلة، إلا أنه لم يأت بنتائج ملموسة. وفى العام التالى قام جيش طليطلة بمحاصرة الضابط الذى كان مكلفا بقيادة القوات فى طلبيرة Talavera، لكنه خرج إليهم خروجا ساحقا فردهم على أعقابهم. وفى عام ٨٥٨م (٢٤٤هـ)، قام الأمير نفسه بمهاجمة العاصمة القوطية

القديمة، وما إن أصدر أوامره إلى جماعة المهندسين من جيشه بنسف معبر نهر التاجه، حتى انهار المصنع تحت أقدام المدافعين، فى الوقت الذى هبوا فيه لاطلاق النار على القوات الأموية. وأخيرا، فقد اضطر سكان طليطلة الذين هجرهم أوردونيو الأول، إلى طلب العفو، الذى أجيبوا إليه، وبذلك ظلوا ينعمون بالهدوء والراحة طيلة عشر سنوات. وفى عام ٨٧٥م (٢٥٩هـ)، أصبح الأمير محمد الأول مضطرا لأن يخرج إليهم بنفسه لكى يعيدهم إلى صوابهم، فطالبهم بتقديم الرهائن ودفع التعويضات، ثم نصّب ابنه المطرف حاكما عليهم. وعليه، فما قامت لهم قائمة إلا بعد مرور ثلاثة عشر عاما، حين تولى المنذر الحكم، ولكنه تمكن من السيطرة عليهم فى أسرع وقت بواسطة بربر شنت بَريّة.

بداية انشقاق بن مروان الجليقى فى ماردة :

تعد ماردة عاصمة للثغر الأدنى، وقد تأخر بهما الوقت أكثر من طليطلة حتى تعلن مجددا عصيانها فى وجه السلطة الأموية. وماكان لمثل هذا التمرد، الذى تم قمعه فى الحال على يد الأمير محمد الأول، أن يلقى صدى كبيرا، لولا ظهور مدبره الرئيسى على المسرح السياسى، بعد مرور سبع سنوات، ليعلن عن نفسه كبطل للاستقلال فى غرب الأندلس. وعلى مدى الفترة الزمنية التى عاشتها مملكته، استطاع الأمير محمد الأول أن يحيدّ جهوده بصفة دائمة؛ ولكن خلفاءه على عرش قرطبة لم يكن بامكانهم أن يقوموا بشئ ضد هذا المتمرد ولا أن يمنعوه من توطيد ملكه الذى ادعاه لنفسه داخل إمارته، تلك الامارة التى لم تتمكن الحكومة الاسبانية الأموية من استعادتها إلا بعد ذلك بكثير، أى فى عام ٩٣٠م (٣١٨هـ).

عرفت هذه الشخصية المتمردة باسم عبد الرحمن بن مروان بن يونس(٣١) ولكنه اشتهر خاصة باسم «ابن الجليقى»، فقد كان ينتسب إلى أسرة من المولدّين قدمت من شمال البرتغال ثم استقر بها المقام منذ أمد بعيد فى ماردة. وكان والده، مروان، حاكما لهذه المدينة تحت إمرة عبد الرحمن الثانى، وكما رأينا(٣٢)، فقد تم اغتياله من قبل رجال إدارته عام ٨٢٨م (٢١٣هـ). أما الابن فلم يظهر نفس علامات الولاء، وعمد إلى جانب عدد من مواليه أو من المستعربين، إلى إثارة هزات كبيرة داخل صرح السلطان الأموى عام ٨٦٨م (٢٥٤هـ). وهنا بدأ محمد الأول بالاستعداد للمواجهة ثم تحرك يريد فرض الحصار على ماردة. رغم أنه قد تظاهر بالخروج تجاه طليطلة. وبعد

أيام من الحصار، وجد أهالي ماردة، الذين لم يستعدوا جيدا للمقاومة، أنفسهم مضطرين لطلب الاستسلام. فأجيبوا إلى طلبهم؛ ولكن زعماء التمرد، خاصة عبد الرحمن بن الجليقى، قد وجهت إليهم الدعوة للقيام بقرطبة بصحبة عائلاتهم، وكذلك الخدمة ضمن صفوف الجيش. أما ميريدا فقد دمرت، ولم يبق منها شئ فى حالة جيدة سوى القلعة وذلك لتكون سكنا للحاكم سعيد بن العباس القرشى وأفراد الحامية.

أما ابن مروان – الذى اعتاد المؤرخون تسميته بابن الجليقى – فقد ظل هكذا فى قرطبة حتى عام ٨٧٥م (٢٦١هـ)، وهو العام الذى شهد نزاعا بينه وبين الوزير هاشم بن عبد العزيز، الذى سبَّ ابن الجليقى سبابا غليظا، ولم يتوقف الأمر به عند هذا الحد، بل صفعه على وجهه. وهنا انتفض المولدّى لهذه الاهانة، فترك قرطبة على الفور، ثم توجه من جديد إلى غرب شبه الجزيرة. وبما أنه لم يعد فى امكانه التفكير فى العودة إلى المدينة دون أن ينتقم لنفسه، فقد توجه، مع رفقائه الذين صاحبوه فى مهربه، إلى قلعة ألانبه [قلعة الحنش] Alange ليمضى وقتا ممتعا بها(٣٣)، فهى تقع على مسافة عشرين كيلومترا جنوب شرق ماردة. وهناك ذهب الأمير محمد لحصاره طيلة ثلاثة شهور. وما ان نفدت المياه لدى المتنعين وعمدوا إلى ذبح جيادهم للاقتيات بلحومها، اضطروا إلى طلب الهدنة. ورغم هذا، فما صدرت أوامر بحمل ابن مروان للبقاء فى قرطبة، بل سمح له بالبقاء إلى جوار صحبه فى بطليوس Badajos، والتى كانت آنذاك قرية متواضعة على وادى نهر «أنّة»، شريطة أن يترك حفيده كرهينة بقرطبة. وما أغنى حذر الأمير عن قدر، إذ عاود بن مروان، بعد عدة أشهر، تمرده، واهتم بتحصين بطليوس، بحيث يهيئ لنفسه ظروفا تمكنه من تحمل الحصار. ولكن الأمير محمد لم يترك له وقتا ينفذ فيه ماذهبت إليه نواياه، حيث خرجت، فى الصيف التالى، عام ٨٧٦م (٢٦٢هـ) قوات للجيش يقودها الجنرال هاشم بن عبد العزيز، الذى بلغ به الأمر مع ابن مروان من قبل مابلغ، وذلك بهدف إخضاعه. وفى هذا الأثناء، حصل ابن مروان على مساعدة من متمرد آخر فى نفس الاقليم، مولدّى مثله، يدعى سعدون السرنباقى، الذى تمكن من الاستيلاء على قلعة مونسالود(٣٤). وعندما تلقى عبد الرحمن بن مروان أنباء وصول الجيش الأموى، انتقل قليلا صوب الجنوب، إلى قلعة قلقرّة Cárcar(٣٥)، بينما أرسل سعدون السرنباقى إلى ألفونسو الثالث، خليفة أوردونيو الأول، يطلب المدد منه. وحقا، فما تأخر انتظار بن مروان وسعدون لوصول بعض فرق الجيش الأستورى. وأما هاشم، الجنرال القرطبى، الذى أتى إلى منطقة تموج بالاضطرابات ووجد نفسه مضطرا إلى تقسيم قواته إلى صنوف أمنية عديدة، فقد هُزم فى سهولة ويسر، والأدهى من ذلك أنه أودع بالسجن. وهنا قام ابن مروان

بإرسال الأسير إلى ملك أستورياس ليبرهن له عن امتنانه وشكره. أرسل هاشم بن عبد العزيز إلى أوبييدو Oviedo، حيث قضى بها عامين، قبل أن يتمكن من دفع مايقرب من ١٠٠ر٠٠٠ دينار طلبت نظير الافراج عنه. ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع جزء من هذه الفدية، كما قبل أن يترك أخويه وابنه وحفيده كرهائن إلى أن يسدد المبلغ المتبقى عليه.

كان ابن مروان، حين انتقم بحذق فائق للاهانة التى ألحقها به الوزير العربى السابق فى قرطبة، يعلم جيدا أن محمد الأول سيجمع كل الجيوش العاملة تحت لوائه ثم يحضر على رأسها ليعيده إلى جادة الصواب. وبالفعل، قام ولى العهد المنذر، فى صيف ٨٧٧م (٢٦٣هـ) بالتوجه صوب ماردة. وهنا عمد بن مروان إلى إخلاء بطليوس، بعد أن عاد إليها، وبعد أن التقى بالقوات الموالية له مرتين[٣٦]، وجد أنه مازال حتى الآن يفتقر إلى حشد القوة المناسبة التى تمكنه من مواصلة الكفاح، وعليه، فقد قرر أن ينضم إلى ألفونسو الثالث فى خندق واحد. واستمر هذا التحالف بين الاثنين، على الأقل، زهاء ثمانية أعوام، وطوال هذه المدة لم يذكر لنا المؤرخون نشاطا يذكر لابن مروان داخل المناطق الإسلامية. وهكذا، فلا يكاد اسم ابن مروان يذكر بعدها إلا فى عام ٨٨٤م (٢٧١هـ) : فما أن تنصل من تحالفه مع الملك المسيحى، عاد إلى بطليوس، حيث طرد منها بعد قليل على أيدى القوات الأموية، بقيادة المنذر، الذى أضرم النيران فى مقر إقامته. وهنا خرج بن مروان تجاه الشرق عبر وادى أنة، لينزوى بين أسوار قصر إسبّراجوسا المنيع[٣٧]، حيث حوصر داخله فى الصيف التالى، دون أن يكون للحصار أية نتائج ملموسة، وذلك على يد عبد الله بن الأمير الحاكم، والقائد هاشم بن عبد العزيز. وحسب مايذكر المؤرخ ابن القوطية، قام محمد الأول بإجراء مباحثات مع بن الجليقى فى تلك الفترة، بعد أن تمكن من مد حركته حتى شمال كورة الغرب البرتغالى، ولم يتوقف عن توجيه الضربات إلى مناطق أكشونبة ولبلة، كما وصل به الأمر إلى مهاجمة أبواب أشبيلية نفسها[٣٨]. وأخيرا، ترك له الأمير القرطبى، حين أدركه الموت، حرية تدبير أمر بطليوس. وأما بالنسبة للمنذر، الذى خلفه على العرش، فقد كان مغرما، طوال مدة حكمه القصيرة، بأمور سعى إلى تلبيتها أكثر من اهتمامه بأمر إخضاع عبد الرحمن بن مروان الجليقى. وكذلك، فعندما تولى الأمير عبد الله الحكم وجد نفسه مضطرا لمواجهة صعوبات ومشاكل لاحصر لها، فرأى هو الآخر أنه من المناسب أن يكون على علاقة طيبة مع السيد المستقل، والتابع له، على أرض بطليوس، كما أن عليه أن يعترف، شاء أم أبى، بوجود إمارته.

تمرد الجنوب الاسباني، في نهاية حكم محمد الأول :

بدايات تمرد بن حفصون :

بعد مرور ثمانية وعشرين عاما على فترة حكم محمد الأول، أى فى عام ٨٧٩م (٢٦٥هـ)، طفت على السطح أعمال شغب جديدة دون مقدمات تذكر فى المناطق الجبلية بجنوب الأندلس، أندلوثيا الحالية. كما أن أهالى تلك الأقاليم، ومعظمهم من المولّدين والبربر، أصبحوا يرون أن الوقت قد حان لرفض سلطة أمير قرطبة. فباركوا النجاحات التى حققها بن مروان الجليقى، واستقبلوا نبأ أسر الجنرال هاشم بن عبد العزيز وإرساله إلى أوبييدو بفرحة غامرة. وماخفى عليهم أيضا أن بنى قسيّ، فى الطرف الشمالى من المملكة الاسبانية الأموية، يحكمون إمارتهم فى أعالى رغون في جو من السلام التام، كما أن هناك حالة من التمرد غير المعلن فى سرقسطة، وأن الفونسو الثالث مازال يضرب بلا هوادة الحاميات الموجودة فى القلاع المجاورة. كما أن رياح الثورة قد بدأت تهب فى جميع أرجاء المرتفعات الجبلية الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر «الوادى الكبير»، والمناطق الجبلية فى رُوندة وملقة، والأودية السحيقة فى اقليم «الجزائر» وكذلك فقد بدأ المحرضون على التمرد يرفعون أصواتهم ويجندون الأنصار، ضمن اضطرابات محلية صغيرة سرعان ماتم اخماد جذوتها، لعدم قدرتها على أن تصبح فى وقت ما تمردا عاما، إلا فى حالة أن يقوم على أمرها رجل محارب، أو لنقل زعيم، يصل فى وقت مناسب، بما له من شجاعة وقوة إيمان بحسن طالعه، فيعمل على ايقاظ الجماهير واقناع الناس واظهار إرادته الحديدية فى مواجهة كل الجهود التى بذلت من أجل أن تستميله إليها. ولكن لم يكن لأندلوثيا أن تعرف مثل هذا القائد الذى يجمع الرجال على كلمته إلا فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر حين ظهر المولّدى الشهير «عمر بن حفصون»[٢٩]، الذى بذلت جهود مضنية من قبل أميرى قرطبة، المنذر وعبد الله، من أجل إخضاعه خضوعا مبرما، الأمر الذى لم يتمكنا من إنجازه. وماتحقق مثل هذا الأمل إلا على يد عبد الرحمن الثالث. الذى استطاع بكل مالديه من قوة القضاء، فيما بعد، على بن مروان الجليقى؛ والذى حين وافته المنية فى عام ٩١٨م (٣٠٦هـ)، دون أن يرفع راية الاستسلام نهائيا أمام الهجمات المتلاحقة من جانب حكومة قرطبة، كان أبناؤه يحاولون، من جانبهم، إطالة عمر المقاومة مدة عشر سنوات قادمة. وما إن تأتى اللحظة التى يقضى فيها الأمير الأموى على حركة بن مروان، ويصبح مالكا لزمام الأمور فى قلعته، حتى يكون قد استأصل شأفة ذلك المتمرد القديم، واستأصل ورما ظل ينخر فى عظام مملكة الأندلس مايقرب من قرن. وفى هذا

الوقت فحسب يصبح بإمكان الأمير بسط نفوذه السياسي في بلاد المغرب، ومد حدود أراضيه بعض الشئ إلى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها، وأن يجد نفسه جديرا بأن يطلق عليه اللقب السامي، ألا وهو «أمير المؤمنين»، وذلك لتضم حوليات اسبانيا عددا من أمجد صفحات تاريخ إسبانيا الإسلامية.

إن تاريخ حياة بن حفصون يبدأ، في حقيقته، أشبه شئ بالرواية. «فعمر ابن لأسرة ثرية، رفض أن يخضع للنظام العام الذي يدور فيه الوسط الاجتماعي الذي أحاط به، فانطلق يبحث عن المغامرة بأسلوب غير مشروع. كان والده حفص من أشراف الريف، يعيش في رغد من الحياة نظرا لما كان يحصل عليه من عوائد أرضه التي يملكها بضيعة كائنة بضاحية رُندة، تعرف باسم توريِّثيا، غير بعيدة من قلعة أوتا(٤٠). إنه من المولّدين الذين اعتنقوا الإسلام حديثا، فجده جعفر، الملقب بالاسلامي (نظرا لأنه من المسلمين الجدد) اعتنق الدين الرسمي للدولة خلال عهد الحكم الأول. وكل أجداده يحملون أسماء لاتينية وأيبيرية، وحسبما يذكر بن خلدون(٤١)، في الخبر الذي ينقله عن ابن حيان، فإن بن حفصون ينتسب مباشرة إلى كونت قوطي يدعى ألفونسو. وكان حفص يتمتع، وسط من يتعامل معهم، بشخصية توحي بأنه من أصحاب النفوذ، وحتى يتم تكريمه، أدخلت عادة تقضي بإضافة نهاية التكبير في اللغة الاسبانية وهي «ón»(٤٢)، (أي الواو – النون) إلى اسمه. وبهذا تحول اسمه من حفص إلى حفصون، وذلك تبعا للتقاليد التي كانت سائدة في تلك الفترة بين أفراد الأرستقراطية الاسبانية سواء في القرى أو في المدن، فانبثقت منها أسماء عائلات عديدة تحمل هذه النهاية، وهي أسر سيكون لها نصيب كبير في الظهور على صفحات التاريخ السياسي والأدبي للأندلس، مثل بن بدرون، وابن زيدون، وبن خلدون، وغيرها من مئات الأسماء. كان لابن حفصون أخوان يصغرانه في السن، هما أيوب وجعفر، ولكنهما لم يكن لهما نفس طابعه الحاد، وذات يوم تشاجر مع جار له فقتله دون تفكير. وهنا كرهه والده، ولكنه، خوفا على حياته، أرسله ليختفي في منطقة جبلية وعرة تحتضن المضيق الضيق لنهر «وادي العرس» على مسافة أربعين كيلومترا شمال رُندة، وهو المكان نفسه الذي سيعمل على تكوين جماعته داخله. ولكن الفتى سرعان ماشعر بالوحدة الطويلة، ففكر على الفور في اللجوء إلى حملات للسرقة في ربوع الريف، يرافقه فيها مجموعة من قطاع الطرق، فانتهى به المطاف إلى الأسر؛ ولأن حاكم دبِّيو (باقليم مالقة).كان يجهل تلك الجريمة التي ارتكبها ابن حفصون في توريثِّيا، لم ينزل به عقابا أكثر من الضرب. وعند ذلك رأى ابن حفصون أنه من العقل أن يذهب في تفكيره إلى أبعد من هذا، فعبر الحدود إلى أفريقية، قاصدا تاهرت، عاصمة الامام

الرستمي أبو اليقظان. وهناك استقبله أحد معارفه، يعمل حائكا، حتى يعلمه حرفته التى يعمل بها. وذات يوم رمقه إسبانى وهو ممسك بالابرة فى يده داخل دكانه الصغير، فتحدث معه عن بلده الأم وتنبأ له بأعلى المناصب، إذا ماهمّ برفع راية العصيان. وخاف ابن حفصون أن يفتضح أمره لدى الامام فيقوم بتسليمه إلى العاهل الأموى. فرأى من الأفضل العودة مرة أخرى إلى موطنه، وإذا مارأى أباه مستمرا على جحوده له، ذهب إلى عمه ليعيش فى كنفه، فهو ألين عريكة من والده. وهكذا حدث الأمر. ففى عام ٨٥٠م (٢٦٧هـ)، عاد عمر مرة أخرى إلى أندلوثيا، حيث قام عمه، بهدف تمكينه من ممارسة حياته كقاطع طريق، بامداده بعصابة صغيرة من الفلاحين الغلاظ الذين عقدوا العزم مثله على الخروج على القانون. وهنا بدأ بن حفصون، حقا، طريقه المجنون. وما إن عاد إلى الجبل الذى اختبأ فيه قبل هروبه إلى الشمال الأفريقى، حتى جعل منه قاعدة لعملياته، التى وجدت فى مكان مسوّر مرتفع بأعلى الجبل، يعرف باسم ببشتر Bobastro (برباط)[٤٢]، تجرى من تحته فى سرعه مذهلة مياه نهر «وادى العرس».

ومازالت الأجواء، منذ عام على الأقل، مشحونة فى اقليمى الأندلس، ريّو وتاكورونا. وأحس الحكام أنهم غير قادرين على فرض النظام، أو وضع حد لأعمال السلب والنهب التي يقوم بها قطاع الطرق وجبايتهم لما يشاؤن من ضرائب الدولة دون أية موانع. وقد قام أحد الثائرين، يحيى الجزيرى بنشر التهديد فى ربوع منطقة «الجزائر» بلا هوادة. وفى عام ٨٧٩م (٢٦٥هـ) حاربه هاشم بن عبد العزيز ثم حمله إلى قرطبة. وبعد بضعة أشهر، قام الأمير عبد الله بحملة عسكرية بين المناطق الجبلية فى مالقة، وأقام بها مجموعة من القلاع الجديدة وأصلح ماتخرب من البعض الآخر. ولكن هذه الحملة لم تحل بين قيام حركة جديدة والتخطيط لها فى منطقة الحامة ، فى منتصف الطريق بين غرناطة وملقة، على يد بنى رفاعة، الذين هاجمهم محمد الأول عام ٨٨٢م (٢٦٨-٢٦٩هـ). ومن الواضح أن أعمال القمع لم تكن كافية، وماكان بإمكان حكومة قرطبة أن تفعل أكثر مما قامت به، حيث كان اهتمامها موجها لأمور أخرى أهم من ذلك. وخاصة التهديد المتوقع مستقبلا من قبل بن مروان الجليقى، الذى عاد لتوه من أشتوريش إلى الأراضى الاسلامية.

استغل عمر بن حفصون الوضع القائم. فنرى عصابته الصغيرة، التى التفت حوله فى برباط، يزداد عددها يوما بعد الآخر. ولم تكن أرجاء الأندلس تخلو من رجال هاربين من الجندية تجمعت لديهم الخبرة والحنكة وروح المغامرة، والذين انضموا بعد ذلك إلى صفوف الزعيم المولدّى الشاب، الذى استطاع بهذا الأسلوب أن يشن غارات

جريئة على أغنى القرى بالمناطق السهلية الواقعة بين كامبيّوس وقرطبة. وفى الوقت نفسه عمل بن حفصون على تدعيم قاعدته في برباط، وبذل كل جهد من أجل تبرير تلك الشهرة التى أحاطت به من تمتعه بالهيبة والجسارة. وقد أحست العاصمة الأموية مؤخرا بحالة فزع كبيرة نتيجة الهجمات الجريئة والمتلاحقة التى شنها ذلك المتمرد. وفى عام ٨٨٣م (٢٧٠هـ) خرج قائد محمد الأول المفضل لديه، هاشم بن عبد العزيز، فى حملة موجهة ضد اثنين من المتمردين الجدد فى جبال منطقة الجزيرة الخضراء، ثم برباط، حيث تمكن من اخراج ابن حفصون منها. وقد فضل هذا الأخير الذهاب إلى قرطبة بصحبة القائد هاشم بعد أن أعلن استسلامه، فقبل القائد، وترك بالمنطقة حامية صغيرة تحت إمرة أحد ضباطه، عهد إليه ببناء الحصون الجديدة. بدأ عمر، الذى قوبل بالترحيب داخل العاصمة، يعمل ضمن صفوف قوات الحرس الأميرى ثم رافق هاشما فى الحملة الصيفية (الصائفة) التى وقعت فى العام نفسه ضد ألبة(٤٤). وقد أظهر عمر بن حفصون تفوقا أمام أسوار بانكوربو وظل ضمن صفوف الجيش الأموى حتى عاد إلى قرطبة. ولكن هذا الأندلسى المولدّى لم يستطع التعود، مثلما حدث مع بن الجليقى قبل سنوات، على حياة المدنية الكبيرة، وأكثر من هذا على الإزدراء الذى أبداه أعيان العرب تجاه المسلمين الجدد أمثاله. وعلى أثر مشاجرة وقعت بينه وبين محمد بن وليد بن غانم، والى المدينة، شرع فى الهرب، عائدا إلى برباط، ثم طرد الضابط الأموى بعد أن سلبه محظيته، وهنا عاد أفراد عصابته القديمة فانضموا إليه من جديد تغمرهم حالة من السرور التام، وخاصة بعد أن رأو زعيمهم قد عقد العزم على أن يتخلص من لعنة العبودية لعرب قرطبة.

ومنذ ذلك الحين استأنف عمر بن حفصون هجمات السلب والنهب ضد القرى والضياع، وحياته السابقة كقاطع طريق، بل زاد على ذلك عزمه على تكوين امارة مستقلة، مثل تلك التى أسسها بن الجليقى فى الغرب. وهنا ضحك له القدر، فأصبح يمتلك فى حوزته مجموعة من القرى : قرية أوتا، الواقعة غرب المنطقة التى يقطنها والده، ثم ميخاس وكومارس، هذا بالإضافة إلى امكانية سيطرته فى ذلك الوقت على حصن أرشذُونة المنيع. وبعد ذلك، خرج، فى عام ٨٨٦م (٢٧٣هـ)، ليمد يد العون إلى حارث بن حمدون، متمرد بنى رفاعة، الذى لم يكن قد وضع سلاحه بعد وقام باحتلال الحامية، إذ كان يعلم بقرب وقوعها هدفا للحصار. وحقيقة، فإن قدوم فصل الصيف قد تزامن مع الحملة الأموية. وعليه، فقد خرج جيش يقوده المنذر بن الأمير الحاكم، بغية محاصرة المدينة، فمنع، بعد شهرين من فرض الحصار الصارم، خروج المتمردين منها. ولكن المنذر لم يكن بامكانه أن يستغل هذا النجاح الأولى الذى حققه. فحين علم

نبأ وفاة والده، الأمير محمد الأول، فى قرطبة فى الرابع من أغسطس عام ٨٨٦م (٢٨ صفر ٢٧٣هـ)، اتخذ طريقه، عبر الممرات الملتوية بجبال مالقة، عائدا إلى العاصمة كى يتولى زمام الحكم.

فترة حكم المنذر (٨٨٦ – ٨٨٨م) وتطور التمرد في الأندلس :

لم يكن بمقدور الأمير المنذر أن يحافظ على هذاالحكم ولو لعامين كاملين. وحين عين فى التاسع من أغسطس التالى (٣ ربيع الأول) وهو فى الأربعين من عمره(٤٥)، خاض غمار الحرب ضد المتمردين حتى صرعه الموت، بعد ثلاثة وعشرين شهرا، فى ظروف درامية سنعرفها لاحقا. وكما يذكر المؤرخون العرب، الذين أعربوا عن أسفهم لفقدانه، فإن المنذر لو امتد به العمر أطول من هذا، لتمكن من القضاء على التمرد قضاءً مبرما فى أرض أندلوثّيا. وهو الأمر الذى ظل يشغل باله طيلة مدة حكمه؛ وقد وصفه مؤرخوه بأنه كان أميرا كريما حليما مع رعيته، يتميز بعلو الهمة والشجاعة. وقد بدأت العلاقات بينه وبين وزير والده وجنراله المفضل، هاشم بن عبد العزيز، منذ ٨٨١م (٢٦٨هـ)، تفتر بدرجة كبيرة؛ وعليه، فبعد قليل من وصوله إلى الحكم، انتهز بعض الوشايات به، فعجل بالخلاص منه؛ أودعه السجن حيث قضى عليه داخله. كما أمر بسجن أولاد هاشم ومواليه وألزمهم بدفع غرامة قيمّة للدولة، وصادر أملاكهم، حتى أدركهم عهد الأمير عبد الله، بعد فترة وجيزة، فأعادها إليهم وأطلق سراحهم.

كان ابن حفصون رجلا يتحلى بروح ذكية وواقعية لأبعد الحدود، الأمر الذى جعله لايعول كثيرا على الهدنة العابرة التى توفرت له بين موت أمير وتسلم آخر مقاليد العرس فى قرطبة. وفى الأثناء التى كان فيها المنذر مشغولا بأخذ يمين الولاء وتقديم الهدايا التقليدية لقواته احتفالا بتوليه عرش قرطبة، لم يقف المتمرد مكتوف الأيدى. بل قام بالقاء كلمة ذات مغزى أدت إلى إذكاء روح الثورة لدى الفلاحين الأندلسيين، الذين أثقلتهم الضرائب التى لا سند لها من القانون وأعمال السخرة التى انطوت على كثير من الجور والظلم. «منذ وقت طويل – خطب فيهم – وأنتم تتحملون العبودية التى فرضتها عليكم هذه الحكومة. وتعانون من انتزاعها لأملاككم وفرضها للأعباء الثقيلة التى تثقل كواهلكم، فى الوقت الذى يزيدكم العرب إذلالا ويعاملونكم كالعبيد. إن ما أريده لكم هو تحقيق العدالة وأن تحلوا أنفسكم من اليمين الذى أديتموه»(٤٦). أدت هذه الكلمات إلى إطلاق روح الحماس عند الناس، وما عاد أحد يتحدث إلا عن سيرة ابن حفصون فى أرجاء المنطقة الجبلية بأندلوثّيا، فتمتدح خصاله كرجل تميز

بالشهامة، وهو مايتمتع به حقا، ويمتدح احترامه للنساء وقانون الشرف، وعدالته النافذة ضد من يقوم بارتكاب عمل من أعمال العنف. كان محبوبا من قبل قادة جيشه لأنه عرف كيف يكسب حبهم له، فكان يغدق عليهم بالهدايا، وحين يظهر له تفوقهم في ميدان المعركة، يمنحهم النياشين العسكرية الحقيقية، فتارة يهديهم أسورة من ذهب، وتارة أخرى غيرها، وكلها أشياء تهدى إليهم في احتفال مهيب أمام قواته مجتمعه. وهكذا، بدأت مناطق نفوذه تزداد شيئا فشيئا. فأحكم قبضته على ببريجو، وأسر قائد حاميتها، وسار بحملاته حتى قَبرة، بل وإلى أبعد من ذلك، حيث فرض سيطرته على طريق جيان، كما استولى أيضا على قلعة إثناخار، وأمر عليها بعضا من أنصاره.

وفي الصيف الذي تلى تولي الأمير المنذر مقاليد الحكم، بدأ كفاحه ضد ابن حفصون. وفي هذه المرة لم يكلف الأمير نفسه مشقة الخروج، فعهد بالقيادة إلى ثلاثة من قواده، الذين خرجوا يقصدون أندلوثيًا على رأس جيش من الفرسان. استعادت القوات منطقة إثناخر وأثارت الذعر في صفوف المتمردين حتى وصلوا إلى اقليم اللّسّانة، ولكن هذه النتائج لم تكن كافية، رغم إيجابيتها، وحين أيقن المنذر بهذه الحقيقة، قرر على الفور القيام بعملية أوسع، يشرف عليها بنفسه. وفي أوائل ربيع ٨٨٨م (٢٧٤هـ)، وبعد مرور موسم الأمطار الذي تأخر حتى شهر فبراير، خرجت القوات الأموية من قرطبة، متجهة نحو الجنوب، يقودها الأمير شخصيا، وذلك بهدف الاستيلاء على القلاع التي استحوذ عليها المتمردون ومحاصرة ابن حفصون داخل قلعة برباط. قام المنذر، في بداية الأمر، بمحاصرة أرشُذُونة، الواقعة في قلب مدينة رَيُّه، بين أنتقيرة ولَوْشَة، حيث كان يوجد بها أحد المولدّين، يدعى عيشون تمثلت فيه سلطة ابن حفصون. ولجأ الأمير إلى تقديم الرشاوى لعدد من السكان فأسلموا له ابن عيشون حيًا، فصلبه بين كلب وخنزير. وسرعان ما استسلمت أرشُذُونة عن طيب خاطر، وتم القبض على الرؤوس المدبرة للتمرد وأرسلوا إلى قرطبة انتظارا لصلبهم. وكذلك، فقد لقى ثلاثة من المحرضين على التمرد الذين استأجرهم ابن حفصون (بنو مطروح حارث، بنوعون، بنو طالوت)، ممن تزعموا حصون المنطقة الجبلية في ببريجو، نفس مصير سابقيهم. وعقب ذلك توجه الأمير مباشرة إلى ابن حفصون، ضاربا أطنابه أمام أسوار قلعته. وماذا كان الموقف، هل كان الزعيم المولدّي يخاف عدم قدرته على المقاومة، أم كان يحس مهارة فائقة يتمكن بها خداع أمير قرطبة؟ وحقيقة ماحدث هو أن ابن حفصون دخل في مباحثات مع المنذر أفهمه خلالها أنه على استعداد بأن يعلن استسلامه ويعدل عما اعتزمه شريطة أن يضمن له أن تكون معاملته فيما بعد معاملة طيبة وأن يحظى، ومن معه، باستقبال مشرف وبمكانة اجتماعية ممتازة. خدع الأمير

المنذر بهذه الكلمات المعسولة. وهنا حرر قاضى الجيش وثيقة شاملة بشأن العفو يتعهد الأمير بمقتضاها احترام حياة ابن حفصون وأن يشمله بفضله ورعايته، وأرسلت إليه مجموعة من خمسين بغلا لينقل عليها أمتعته وأمتعة من معه. سارت القافلة، تحرسها بعض فصائل الفرسان، عبر طريق وعر يؤدى إلى برباط. وفى هذا الوقت بالذات، رأى ابن حفصون أن الفرصة مناسبة ومغرية للتحلل من وعوده : فبعد أن اجتمع والأمير، هرب فى جنح الليل، حتى بلغ القافلة فأثار الرعب فى قلوب الحرس واستولى على المطايا والهدايا التى كان الأمير قد أعدها لأفراد أسرته، الذين أقاموا بالقلعة.

غضب المنذر غضبا شديدا لوقوعه فى مثل هذا الشرك، فدعا قواته من جديد، بعد أن كانت قد بدأت العودة إلى ثكناتها، فحاصر برباط مرة أخرى، وأقسم بكل ماهو مقدس بأنه لن يتحرك من هناك إلا بعد أن يقبض على المتمرد، حيا أو ميتا. ولكنه لم يتمكن من الوفاء بيمينه. فقد داهمه المرض بعد أسابيع قليلة فطلب من أخيه عبد الله أن يحضر إليه قادما من قرطبة ليسلم له قيادة الحصار. وماكاد الأمير يصل، حتى أتى المنذر الموت(٤٧)، فى ٢٩ يونيو ٨٨م (١٥ صفر ٢٧٥هـ). قام عبد الله، المرشح لخلافة أخيه، إذ لم يترك وراءه ابنا واحدا فى سن الرشد تجعله مؤهلا لشغل منصب والده، ببذل مافى وسعه حتى يخفى نبأ وفاة أخيه عن الجنود، فهو يعلم، وهذه ظاهرة كثيرا ماوقعت فى التاريخ الإسلامى، أن الخبر إذا انتشر بين الجنود سوف تكون له نتائج سلبية ينجم عنها تفرق الجميع من حوله. وهنا أشار عليه المقربون منه بدفن رفات أخيه فى نفس مكان موته فرفض، وأذا ع نبأ الوفاة بعد ثلاثة أيام، ثم هم باتخاذ الاجراءات اللازمة لرفع الحصار عن برباط، فحمل الجثمان على ظهور الجمال متوجها صوب قرطبة. وفى هذه اللحظة تفرق الجنود من حوله وما أصبح يرافقه سوى بعض الأمويين وعدد بسيط من ضباط القصر، فسلك طريقه برفقتهم إلى العاصمة. علم ابن حفصون بهذا الأمر فى مكان اختفائه، فعجل بالنزول ليخرب المعسكر ويثير الذعر بين القوات المنسحبة. وجد عبد الله أنه من الضرورى أن يرسل إليه رسالة مع أحد الخصيان المجندين يطلب منه عدم التعرض للموكب الجنائزى ويحيطه علما بأن الأمير الجديد راغب، فور توليه السلطة، فى أن تجمع بينه وبين ابن حفصون حياة يسودها السلام. وهنا قرر ابن حفصون. نظرا لما لاقاه من معاملة رقيقة، ألا يكون متمردا جبانا فنأى بنفسه عن التعرض ومضايقة القافلة الأموية الصغيرة، التى وصلت إلى قرطبة بعد أيام قليلة. أمر عبد الله بدفن جثمان المنذر فى ضريح القصر الملكى ثم بدأ يتلقى يمين الولاء للمنصب الجديد كأمير.

٢- الكفاح على الحدود ضد أوردونيو الأول وألفونسو الثالث حتى وفاة محمد الأول :

إمارة بنى قسيّ :

نزول القوات النورمانية على السواحل للمرة الأولى ٨٥٨ - ٨٦١ :

أتت فترة حكم محمد الأول مواكبة للنشاط الحربى الخطير الذى استفحل على حدود مملكة أستورياس والامارة الباسكية. وقبل أن ندرس هذا النشاط تفصيلا، سنشير فى عجالة إلى الهجوم الخاطف الذى شنه النورمان فيما بين ٨٥٨ - ٨٦١م على مراكش وشبه الجزيرة الأيبيرية(٤٩). نزل القراصنة الاسكندنافيون مرة أخرى على الساحل الجليقى؛ ولكنهم، حسب ماتذكره رواية المؤرخ ألبند Albende قوبلوا بمواجهة صارمة من جانب الكونت بدرو فصدّهم. ومن جانبهم، أصبح المسلمون يعدون العدة منذ بداية حملة عام ٨٤٤م، فقامت فصائلهم بحملات تفقدية دائمة عبر ساحل الأطلنطى، حتى الحدود المجاورة لخليج غسقونية Gascuna، حتى يصبح بمقدورهم مهاجمة سفن قراصنة البشكنس الشهيرة. نزل هؤلاء، بعد محاولات غير مجدية فى جليقية، ناحية الجنوب فى أسطول مكون من اثنين وستين زورقا. قامت القوات البحرية المسلمة بملاحقة زورقين من بين قطع الأسطول كانا يسيران فى طليعته فأسروهما عند ساحل المنطقة الغربية. أما بقية السفن فقد رست عند مصب نهر الوادى الكبير؛ ولكن سفن الماتشوس لم تنفذ عملية إنزال قواتها وذلك لعلمها بنزول قوات الجيش الأموى بوادى النهر وأخذت أهبتها للانتقام منها. وما أن انتقلوا إلى منطقة الجزائر، حتى أشعلوا النيران فى المسجد الكبير بالمدينة، ولكنهم سرعان ماطردوا منها. وفى نفس المكان الذى كانت تعسكر قواتهم بنى مسجد خصيصا لإحياء هذه الذكرى، وصنعت أبوابه من أخشاب السفن التى تم الاستيلاء عليها(٥٠). ومن الجزائر تابع النورمان سيرهم حتى ساحل مرسية فشنوا غارة على أوريولا، بينما ذهبت مجموعة أخرى من الأسطول لتخريب ناقور على ساحل مراكش، وسبى الأسرى(٥١). وقبل أن يغادر النورمان سواحل اسبانيا الاسلامية نراهم قد تكبدوا خسائر فى المعدات بلغت أربعين وحدة. أما وحدات الأسطول المتبقية فقد انضمت إلى أسطول آخر، خرج لمهاجمة جزر البليار، كما أرسلت بعض السفن لترسو فى مجرى نهر إبْرُه. وتمكنت مجموعة من تلك القوات من الوصول إلى بنبلونة، فأسرت الملك الباسكى جارثيا إنييجث، الذى لم ينل حريته بعد ذلك إلا بعد أن دفع فدية بلغت عشرات المليارات من العملات الذهبية. ومن

بين الذين أسرهم النورمان من الجليقيين كان رفيق مغامرات عبد الرحمن بن مروان الجليقي، سعدون السرنباقي(٥٢)، الذي افتداه تاجر يهودي ثم استأنف حياته كقاطع طريق داخل اقليم قُلُمْرِية واقليم شنترين، وذلك قبل أن يتم القبض عليه واعدامه من قبل ألفونسو الثالث. أما فيما يتعلق بسفن الماتشوس فقد واصلت سيرها، بعد أعمال التخريب في بنبلونة، حتى تمارس الأعمال نفسها في الأراضي الفرنسية. عبر مصاب الرودانو Ródano، وقد دمرت في طريقها كلا من أرلس، ونيمس، وفالنس، ثم أكملوا تخريبهم في شمال أيطاليا، الذي ظل يعاني ويلات ما ارتكبوه من أعمال العنف هناك. هذا هو مجمل ماقام به رجال البحرية الاسكندنافيون في عام ٨٥٩م (٢٤٥هـ). وما عدنا نسمع شيئا عن أخبارهم إلا بعد مرور قرن من الزمان حين يبدأ التاريخ حديثه عن محاولة جديدة لهم ضد الأندلس أثناء حكم الحكم الثاني.

الحرب ضد مملكة أشتوريش حتي هدنة عام ٨٧٨ :

موسي بن قسيٍ :

تزامن وصول محمد الأول للحكم مع تولي أمير جديد عرش امارة أشتوريش: هو أوردونيو الأول، الذي حكم منذ عام ٨٥٠ وحتى وفاته، في السابع والعشرين من مايو عام ٨٦٦م. وقد أعرب هذا الأمير عن وفائه للسياسة التي رسمها أسلافه، فتطلع إلى مد أراضي مملكته الصغيرة صوب الجنوب، وذلك على حساب إسبانيا الإسلامية. وقد رأينا(٥٣) كيف أن نشاطه ضد الاسلام قد بدأ بفشل حقيقي، عندما قام الأمير محمد الأول بسحق قواته، التي أرسلها بقيادة الكونت جاستون لمد يد العون للمتمردين في طليطلة، أثناء معركة وادي سليط في صيف ٨٥٤م (٢٤٠هـ). ولم يكتف أمير قرطبة بهذا النصر المدوي على القوات الأشتوريشية، بل قررت القوات المسلمة دخول آبِلَة مرة أخرى في العام التالي، تحت أمرة الأمير نفسه، أو تحت قيادة موسى بن قسي. وهذا الأخير هو الذي شهد تمرد أوردونيو الأول ضده، بعد أن انتهز الهدنة الطويلة التي عقدها معه محمد الأول، فقام ببناء حصون قوية كانت قد تهدمت، وأعاد تعمير مدينتي ليون وأمايا، وسلب الإمارة اثنين من قلاعها : تالامنكا وقورية.

أشرنا من قبل إلى الطريق المضطرب الذي سلكه موسى بن قسيٍ(٥٤). ففي أواخر حكم عبد الرحمن الثاني عاد ليستقل بنفسه تماما، رغم كل البراهين التي لاتنكر من جانبه لحكومة قرطبة على حديثه في عزمه على الانضمام اليها. كما قام محمد الأول، بعد موت والده، بالاعتراف بسيد تطيله Tudela كواحد من أتباعه، مقتنعا

حفاظا على مظهره، بمطالبته بإظهار الولاء الشكلي الخارجي، وهو الأمر الذي قبله موسى دون ماتكليف بالغ. وقد عهد إليه، في حينه، بالقيام بالحرب المقدسة باسم أمير الأندلس، ضد الثغور الاسبانية تارة، وضد مملكة أشتوريش تارة أخرى. وعلى جانب آخر. سمحت له درجة قرابته للبيت الحاكم في بسكونية بالتوسط في المشاجرات التي وقعت بين بنبلونة وقرطبة، وذلك نظرا لقوة ومتانة العلاقات التي تربطه بالطرفين. وفي عام ٨٥٦م (٢٤٢هـ)، أو قبل ذلك بأربعة أعوام، حسب ماتذكره احدى الروايات التاريخية اللاتينية(٥٥)، قاد، بأمر من محمد الأول، صائفة ضد برشلونة، دمر على أثرها المدينة، وأسر كونتين تابعين لقوات الفرنجة : هما نشودي كاسكونيا وايمينون دي بيرجورد(٥٦). وأغار أثناء تلك الحملة على قلعة تارجًا **Tarrega** واستولى عليها، على مسافة ٥٠ كيلومترا شرق ليريد، واستعمل خمس الغنيمة التي فاز بها من حملته على هذه القلعة في توسعة المسجد الكبير بسرقسطة.

ومنذ البدايات الأولى لتلك الحقبة، خلع موسى بن موسى على نفسه هيئة الامارة، كما أطلق على نفسه «ثالث ملوك أسبانيا»(٥٧). وبالفعل فقد أحكم قبضته، دون منازع، على الجزء الأكبر من الثغر الأعلى الاسباني، بما فيه سرقسطة وَشْقة وتطيلة(٥٨). بدت أملاك موسى كما لو كانت جسدا غريبا وسط الأراضي الاسبانية، ولهذا أصبح لزاما عليه أن يهيئ نفسه للدفاع عنها وحمايتها، فأقام حصنا قويا منيعا عرف باسم ألبلدا، على مسافة فرسخين جنوب لوجروينو الحالية. وماكاد ينتهي من تأسيس هذه القلعة، حتى قدم إليها أوردونيو الأول عام ٨٥٩م، فضرب عليها الحصار. وهنا حضر موسى للدفاع عنها، ووقع لقاء حاسم بين موسى وعاهل أشتوريش، في جبل لاتورس، نجم عنه : هزيمة العاهل الأشتوريشي واصابته بثلاثة جروح، وموت صهره جارثيا(٥٩)، هذا إلى جانب نهب جميع الهدايا التي كان قد خبأها في معسكره، بعد أن تلقاها سلفا من كارلوس الأصلع، كفدية (مقابل اطلاق سراح الأسيرين الفرنجيين اللذين أسرهما في حملته على الأراضي الاسبانية) أما مدينة ألبلدا فقد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وإبادة حاميتها عن آخرها، وتم تدمير القلعة(٦٠). لم يدم عمر موسى بعد هذه الكارثة طويلا. وفي الوقت الذي كان ابنه لوبي قد اعترف بتبعيته لأوردونيو الأول، كان موسى يقوم بمحاولات لمد نفوذه صوب الجنوب؛ ولكنه، في هجوم على بن سليم(٦١)، سيد وادي الحجارة، عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ)، أصيب بجراح خطيرة أدت إلى وفاته قبل أن يتمكن من العودة إلى تطيلة.

وحين اختفى موسى بن موسى بن قسي، رأت حكومة قرطبة، بعد أن خسرت خدمات نصيرها المحارب النشط، أن الوقت مناسب لشن سلسلة من الحملات

الهجومية ضد أوردونيو الأول. وبعد مدة من موت أمير أراجون، خرجت حملتان، تفصل بينهما مدة عام واحد، نفذتهما قوات محمد الأول بنجاح كبير ضد أهالي أشتوريش، وكان الهدف من وراء هاتين الحملتين، كما هي العادة، التطلع إلى الاستيلاء على ألبة. تم تجهيز الحملة الأولى عام ٨٦٣م (٢٤١هـ) بأفضل وأدق المعدات، يقودها عبد الرحمن، بن الأمير، يساعده الجنرال عبد الملك بن العباس، شارك فيها أكثر من ٢٠٠٠٠ فارس تم تجهيز بالكور. توغل المسلمون داخل ألبة. وقطعوا أشجار الفاكهة، وجمعوا المحاصيل قبل أوان حصادها بقليل، وعبثا حاول أوردونيو، المحاصر في أجوار شعب لزم عليهم اجتيازه، أن يوقف تقدمهم : أسفرت المعركة عن تدمير قواته وقتل تسعة عشر كونتا من قواده في الميدان.

لم تكن حملة عام ٨٦٥م (٢٥١هـ) بأقل فائدة بالنسبة للقوات الاسلامية. وفي هذه المرة تسلم المنذر، وريث العرش، راية القيادة. خرجت القوات الأموية في بداية الأمر عبر وادي نهر الدويرة **Duero**، لتتقدم بعد ذلك جهة الشمال عن طريق جبال أوكا على الضفة اليمنى لنهر الابرو. وبداية وضعت القوات يدها على القلاع المجاورة لمضيق برادانوس(٦٢)، بالقرب من بريبيكا الحالية، حيث نشرت الدمار وسحقت كل مزارع المنطقة الممتدة على طول مساحات شاسعة. وهكذا دمرت مزرعة الكونت القشتالي رودريجو، لابورييا، تدميرا جمع بين الدم والنار. وحين بدأ المنذر يعد العدة للعودة إلى الأراضي الاسلامية، علم بأن الممر الذي كان مقررا له اجتيازه، ممر لافوث دي مالاكويرا(٦٣)، وسط جبال أوبارينيس، قد قطع بواسطة خندق عميق حفره الكونت رودريجو. وهنا، قرر المنذر أن يسير بقواته عبر شاطئ إبره، وبهذا يصبح من الأفضل اختبار قواته أمام القوات المسيحية فوق ساحة سهلية مكشوفة. كانت المعركة، التي سرعان مانشبت بين الطرفين، مهلكة بالنسبة لأنصار أوردونيو الأول، حيث سقط منهم قتلى كثيرون. ومن نجا منهم لاحقته القوات المسلحة، حيث غرق عدد كبير منهم في مياه النهر. وبعد هذا النصر، في ٩ أغسطس عام ٨٦٥م (١٢ رجب ٢٥١هـ)، أصبح الطريق خاليا أمام المنذر فهّم بالرجوع إلى قرطبة(٦٤).

وكذلك فقد قام محمد الأول، في العام التالي، بإرسال صائفة تجاه ألبة، ولكنها كانت بمثابة غارة عادية، لم تسفر عن لقاء حاسم بين المسلمين والمسيحيين. وفي عام ٨٦٧م (٢٥٣هـ)، قاد الأمير الحكم حملة جديدة ضد ألبة، أو لعلها كانت موجهة إلى جليقية، نجم عنها الاستيلاء على قلعة جيرنيكا. وعقب هذا رفض أمير قرطبة مواصلة هجومه ضد مملكة أشتوريش، وذلك بسبب تمرد بن الجليقي، في ماردة، والاضطرابات

التى تبناها بنو قسيّ، فى رغون، وكلها أمور لم تتح له فرصة التفرغ لمهاجمة أستورياس. كانت هذه الهدنة الضمنية فرصة ثمينة استغلها ألفونسو الثالث. خليفة أوردونيو الأول، فنظم حدود مملكته، فى جليقية والبرتغال من ناحية، وفى ليون وقشتاله من ناحية أخرى، الأمر الذى جعله جديرا باللقب الذى أطلقه عليه المؤرخون الأسبان، وهو لقب «ألفونسو العظيم». وفى الحقيقة، لم يكن ألفونسو يستحق مثل هذا اللقب، فقد جمعه الحظ بابن حفصون، فى نهايات حكم محمد الأول، والذى كانت له به علاقات مباشرة وغير مباشرة، ووجد فيه المساعد الغيور النشط الذى يعتمد عليه فى الحصول على مايصبو إليه من توسع اقليمى على حساب الأراضى الخاضعة للامارة الاسبانية الأموية.

شهدت الفترة الأولى لحكم ألفونسو الثالث مؤامرة كبرى كلفته خسارة عرشه لبعض الوقت. حيث سلبه فرويلا، كونت جليقية، عرشه وأجبره على أن يلجأ إلى قشتالة. وحين استعاد ألفونسو الثالث عرشه عام ٨٦٦م، رأى من الصواب أن يشغل سادة جليقية بالصراع ضد الاسلام عبر الحدود الجنوبية المتاخمة لاقليمهم. وبعد سلسلة من الهجمات الموفقة تمكنت مملكة أشتوريش من بسط نفوذها على بعض الحصون المنيعة فى شمال البرتغال الحالية : استولى الكونت بيمارانو بيريث عام ٨٦٨م على بورتو؛ وكذلك، فسرعان ماتم الاستيلاء على الاقليم الواقع بين هذه المدينة وتوى، فوق المينيو Mino، بعد أن انتهت عملية إعمارها. وفى هذه الظروف ولدت سريعا منطقة جديدة شهدت نفوذا مسيحيا حقيقيا، وصلت حتى شواطئ نهر الدويرة، بالقرب من المنطقة التى أعلن فيها بن مروان الجليقى، فى السنوات التالية، تمرده ضد أمير قرطبة. وبعد سنوات، فى عام ٨٧٧م (٢٦٣هـ)، حين اضطر متمرد بطليوس إلى الهرب إلى جوار عاهل أوبييدو، الذى مازال يحتجز حتى هذا الوقت الجنرال الأموى هاشم بن عبد العزيز أسيرا. رأى محمد الأول أن الفرصة سانحة لشن عملية واسعة النطاق ضد جليقية؛ وعليه، فقد خرج جيش من قُلُمْرية يقوده البراء بن مالك القرشى، فى صيف ٨٧٨م (٢٦٤هـ) فعبر نهر الدويرة وهمّ بأعمال التخريب المتعارف عليها، رغم أنه قد تكبد خسائر ملموسة بعض الشئ. ومن المحتمل أن يكون الجيش قد اضطر إلى الانسحاب سريعا، فكما نعلم، أن الكونت إيرمينخيلدو اقتطع منطقة قُلُمْرِية من جسد الإمارة فى ذلك الحين.

وهنا، اتخذ الأمير محمد الأول مبادرة، منيت بفشل ذريع. حيث طرأت على ذهنه فكرة : لماذا لايستخدم السفن الاسلامية، التى أبحرت فى مياه المحيط تترصد

الأساطيل النورمانية، ضد جليقية؟ وإذا ماكانت غير كافية، فتبنى سفن أخرى. وهكذا، صدرت الأوامر إلى ترسانات أشبيلية وموانئ البحر المتوسط ببناء السفن، وما أن اكتمل الأسطول، وقام على قيادته أمير البحر عبد الحميد بن مغيث، حتى ركب البحر عام ٨٧٩م (٢٦٦هـ)؛ ولكنه سرعان ما أصبح لعبة في يد عاصفة عاتية أتت عليه من أوله إلى آخره. وماكان هذا آخر فشل يلحق بالأمير، فبعد هذا الحدث بعامين، حسب رواية المؤرخ ألبلدى Albelde(٦٦)، قام ألفونسو الثالث، فور علمه بانشغال أمير قرطبة في جنوب شبه الجزيرة، بحملة خرجت من قلب الأندلس لم يتحدث عنها المحللون العرب، بل أحاطوها بكتمان تام. اجتاز ملك أشتوريش شمال البرتغال، ثم نهر التاجه، بعد أن استولى، على الأرجح، على قلعة نفزة البربرية، على نهر وادى أنة، ثم تابع سيره على امتداد النهر حتى ماردة، وبعد أن اجتازه، توغل بقواته صوب سيرامورنا، وما أن وصل إلى جبل أوكسيفير حتى هزم الجيش المسلم الذى أتى للقائه ثم عاد أدراجه إلى أوبييدو دون عائق يذكر.

أما فيما يتعلق بليون وقشتالة فإن الأمور قد تداعت بطريقة أخرى، ومنذ وصول ألفونسو الثالث للحكم، كان المسلمون هم الذين يملكون زمام المبادرة فى الهجوم غالبا. فقبل عام ٨٧٧ – فى تاريخ يصعب تحديده – خرجت إحدى الصوائف بقيادة المنذر، ابن الأمير الحاكم، حتى تهاجم ليون، ولكن دون جدوى، كما قام جيش قرطبى بهجوم على بيرثو Bierzo ولكن مجهوداته قد ذهبت سدى. انتهز ألفونسو الثالث هذين الفشلين ليستولى على حصن يدثيا وأتينثا. ويضيف المؤرخون المسيحيون، الوحيدون الذين يشيرون إلى مثل هذه الأحداث. أن المنذر قد قام فى عام ٨٧٨م بحملة ضد أستروجا وليون. وجه عاهل أشتوريش جهوده أولا إلى اعتراض الامدادات التى كانت فى طريقها للانضمام إلى الأمير المسلم فحطمها كاملة فى بولبوراريا، على نهر أوبرييجو Obrie-go. ثم سار فى انتظار المنذر أمام قلعة سوبلانثيا، على بعد فرسخين من ليون، قريبا من نهر إسلا Esla. ولكن الجيش المسلم لم يكن يلح على الدخول فى المعركة، فقرر الانسحاب، الذى عد بمثابة هزيمة سلبية، تم الاتفاق على أثرها على هدنة لمدة ثلاث سنوات بين قرطبة وأوبييدو(٦٧).

الصراع فى بسكونية. بنو قسىّ فى الثغر الأعلى واستئناف أعمال القتال ضد ألفونسو الثالث:

لايذكر المؤرخون العرب، على مدى فترة حكم محمد الأول، أكثر من ثلاث حملات تأديبية قامت بها الامارة الأموية ضد مملكة بسكونية الصغيرة Vasconia: وقعت

إحداها عام ٨٦٠م (٢٤٦هـ)، والأخيرتان في ٨٧٣، ٨٧٤م (٢٥٩ -٢٦٠هـ). قاد الأمير الأموى بنفسه أولى هذه الحملات، ويحتمل أن يكون موسى بن قسيّ قد شارك فيها هو الآخر، في الوقت الذى ساءت فيه العلاقة بين جارثيا وملك أشتوريش، أوردونيو الأول. وأسفرت هذه الحملة عن تدمير بنبلونة، وثلاث قلاع ضمن هضبة نبرّة – كاربارّوسو، وفالثيس وميلاجروا الحالية[٦٨] – كلها آلت إلي حوزة المسلمين. أسر فورتون، ابن الملك جارثيا، الملقب بالأنقر، لعور في عينه، داخل أسوار قلعة ميلاجرو، وحمل إلى قرطبة حيث بقى فى الأسر مدة عشرين عاما قبل أن يسمح له بالعودة إلي موطنه. وكما سنرى، فإنه الجد الأكبر لعبد الرحمن الثالث من جهة أمه. وفيما يتعلق بالحملتين اللتين خرجتا فى ٨٧٣، ٨٧٤، فهما عبارة عن حلقتين بسيطتين فى سلسلة الصراع المحتدم، الذى رأى الأمير محمد الأول، مضطرا، ضرورة الابقاء عليه فى الثغر الأعلي، بعد أن اختفى موسى بن موسى بن قسيّ فى ظروف سنتعرض لها الآن.

توفي موسى عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ) وترك أربعة من الأولاد هم : لوبى، الذى أمهله القدر مدة وجيزة عقب وفاة والده، والمطرف وفرتون واسماعيل. وكما نعلم، فإن الابن الأول كان مستمرا على العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع لألفونسو الثالث، بعد الاستيلاء على ألبيديا، فذهب إليه بغية الاستقرار بمملكته، إلا أن الموت قد أتاه مبكرا. أما إخوته الثلاثة فأمضوا حياتهم فى جو من الهدوء التام على مدى السنوات التالية، كما سمحوا لحكومة قرطبة دون عناء يذكر باستعادتها لأملاك والدهمّ. هذا إلى جانب بعدهم التام عن حركات التمرد التى طفت على السطح فى الأراضى التابعة لسرقسطة: ظهرت الحركة الأولى فى صورية، على يد سليمان بن عبدوس، وتم إخمادها عام ٨٦٩م (٢٥٥هـ)، أما الحركة الثانية فقد كان ظهورها فى العام التالى بأرض وشقة، بتحريض من الحاكم عمروس وابنه زكريا وحفيده لوبى. وما إن أخمدت جذوة هذه الحركة الأخيرة، حتى ظهر بنو قسيّ من جديد على ساحة الأحداث. ففى ديسمبر عام ٨٧١م (٢٥٨هـ) استطاع المطرف أن يستميل الحاكم الوفى لمدينة تطيلة وأعلن عن استقلاله بهذه المدينة. وفى الشهر التالى فعل اسماعيل مثل صنيع أخيه بمنطقة سرقسطة. مما استوجب رد الفعل الفورى من قبل محمد الأول. فخرج بنفسه متوجها إلى الثغر الاسبانى، فاستولى على تطيلة حاضرة المطرف بن موسى، وصل إلى بسكونية فجاب أراضيها ثم عاد إلى قرطبة، وهناك أصدر أوامره باعدام المتمرد مع ثلاثة من أبنائه : محمد وموسى ولوبى. أما بالنسبة لاسماعيل فلم يكن من السهل إخضاعه، إذ لم يتمكن الجيش الذى خرج لنزاله فى ٨٧٣م (٢٦٠هـ) من استرداد سرقسطة مكتفيا بتخريب أراضى بنبلونة. استمر اسماعيل، حليف ألفونسو الثالث – مثل أخيه فورتون

تماما، الذى أصبح حاكما لتطيلة فى هذا الوقت - يهدد بلا هوادة، على مدى عشر سنوات، أمير قرطبة، مما اضطره فى نهاية المطاف إلى اتخاذ قرار عام فى ٨٨٢م (٢٦٨هـ) بإرسال ابنه المنذر برفقة القائد هاشم بن عبد العزيز على رأس جيش عظيم مهمته شن حملة من الهجوم المتواصل على بني قسيّ، وملك أشتوريش. عادت الجيوش المسلمة لمهاجمة سرقسطة مرة أخرى ولكن دون جدوى، فتحولت القوات إلى الجنوب بغية احتلال المراكز القوية في رويدة، ونهر الخالون Jalón، وبورخا، حيث كان يتواجد حفيد موسى بن قسيّ، ويذكر تاريخ البيلدى Albelde بأن محمد بن لوبى، نظرا لغيرته الشديدة من عميه، مد يد العون للأمير الأموى. وما أن وصلت تعزيزاته إلى جيش المنذر، حتى خرج ليهاجم مدينه لاردة والأراضى التابعة لها، والتى عرفت فى ذلك الوقت باسم بربوتانيا أو باربيتانيا[٦٩]، وهى بمثابة الاقطاعية الخاصة لاسماعيل بن موسى. وأخيرا، أعلن المتمرد خضوعه وقدم الرهائن الكثيره[٧٠]. وعقب هذه المناسبة توجهت الجيوش المسلمة صوب ولبة لغزوها. شنت هجوما فاشلا على منطقة يثوريّجو، فى المنحدر الجنوبى لجبال أوبارينس، وهاجمت بعدها قلعة بانكوربو، تابعت القوات سيرها بعد ذلك تجاه قشتالة واستولت على كاسترو خيريث، فى الوقت الذى كان الفونسو الثالث ينتظرها فى رباطة جأش بالمناطق المحيطة بليون. ولكن لم يقع اللقاء بين الفريقين. وعلى أثر المفاوضات التى جرت بين المسيحين والمسلمين، عاد المسلمون إلى قرطبة فى شهر سبتمبر التالى، راضين بما حققوه من انجازات.

أما الابن الأخير لموسى بن موسى بن قسيّ - إذ توفى فورتون منذ فترة وجيزة - فلم يستقبل نبأ خيانة حفيده محمد بن لوبى وإنضمامة للامارة بشئ من الرضى، وعليه، فما أن جاوز جيش المنذر حدود منطقة الثغر الأعلى، حتى تعجل الهجوم عليه، ولسوء حظه، وقع فى الأسر، مع ابن أخيه فورتون، يدعى اسماعيل كعمه. قام محمد بن لوبى بحبس أقاربه داخل قلعة بقيرة، وما أن وجد نفسه فى حالة فراغ، همّ بالاستيلاء على سرقسطة، حتى يعيد سلطة محمد الأول عليها تعبيرا عن وفائه. ولكن هذا الأخير قد ارتكب حماقة مطالبته تسليم المدينة ومعها بنى قسيّ كأسرى. رفض محمد بن لوبى هذا الطلب، وهو يتميز من الغيظ، وأفرج عن أقاربه وحاول أن يتقرب من الفونسو الثالث. وهنا لم يعد رد الأمويين على مثل هذا التصرف يحتمل التأخير. وفى عام ٨٨٣م (٢٦٩ - ٢٧٠هـ) أخذ الأمير المنذر والقائد هاشم بن عبد العزيز طريقهما صوب الحدود الاسبانية، آخذين معهم القائد الأندلسى «عمر بن حفصون» الذى، كما رأينا، قد انضم فى العام نفسه إلى حكومة قرطبة.

جاءت حملة عام ٨٨٢ نصا مكررا من سابقتها : فرض حصار آخر على سرقسطة لم يثمر شيئا؛ وعقد رباط أمام ثيورخيو وبانكوربو؛ ووقع هجوم فاشل على كاسترو خيريث؛ وتجولت القوات عبر سوبلانثيا ثم عادت عن طريق بالنسية دى سان خوان. كما بدأت فى نفس الوقت مفاوضات، ومازالت الجيوش المسلمة تتواجد فوق أراضى ليون. توجه الراهب دوليثديو، سفير ألفونسو الثالث، إلى العاصمة الأموية ليجرى مناقشات حول امكانية السلام، وفى عودته إلى أوبييدو، فى ٩ يناير عام ٨٤٤م، كان يحمل معه رفات الشهيدين إولوخيو وليوكرثيا، اللذان أعدما قبل ستة وعشرين عاما فى قرطبة(٧١).

لقد حان الوقت لكى توافق الامارة على توقيع إتفاق سلام مع المملكة المسيحية فمنذ وفاة الأمير محمد الأول، عام ٨٨٦ (٢٧٣هـ)، أباحت حكومة قرطبة، التى بدت منهكة بسبب صراعاتها مع الفتن الداخلية، لألفونسو الثالث الاستمرار فى سياسته التوسعية الاقليمية التى تبناها مؤخرا دون عقاب يذكر. وقبل اتاحة مثل هذه الفرصة لملك أشتوريش، كان قد استغل العشرين سنة الأولى من فترة حكمه قدر استطاعته، حتى يعمل على توطيد وتعمير مناطق نفوذه الجديدة. أصبحت حدوده من الغرب إلى الشرق تحميها المواقع الاستراتيجية الهامة مثل: قُلُمْرية وأُسْتُرْقة وليون وأمايا. وهاهو الآن يسمح لعدد كبير من المستعربين بأن يقيموا فوق الأراضى التى افتتحها حديثا. وكان هؤلاء من الذين غادروا أقاليم الأندلس ليجدوا أنفسهم مرة أخرى داخل الأراضى المسيحية(٧٢)، استمرت هذه الهجرة على مدى فترة حكم الأمير عبد الله، وحتى السنوات الأولى من القرن التاسع. ومن المعروف، على سبيل المثال، أن حصن سَمُّورة المنيع قد تم إنشاؤه فى عام ٨٩٣م (٢٨٠هـ) على يد ألفونسو الثالث، بمشاركة المستعربين من أهالى طليطلة(٧٣). وهنا غدت كل أودية المنطقة مسوّمة بالقلاع الجديدة: فأقيمت بورجوس عام ٨٨٢ أو ٨٨٤م فوق الأرلنتون، على يد الكونت دييجو دى كاستيًا، وأقيمت سيمانكس فوق البيسورجا، فى عام ٨٩٩م، فى نفس الوقت الذى أقيمت فيه مثيلتها دونياس؛ وأخيرا، أقيمت قلعة تورو جنبا إلى جنب مع سَمُّورة، وذلك لتأمين حوض نهر الدويرة. وبعد موت ألفونسو العظيم، تم انشاء قلعتين عظيمتين، قريبتين جدا من أرض المسلمين : سان استيبان دى جورماث وأوسما، زودتا بأسلوب متقدم فى نظام الدفاع، وسوف نرى فيما بعد مدى الصراع الذى نشب بين هاتين القلعتين وجيوش قرطبة بقيادة عبد الرحمن الناصر(٧٤).

وفى الوقت الذى وقعت فيه اتفاقية السلام مع ملك أشتوريش كان بنو قسيّ مايزالون على ساحة الأحداث : مثل محمد بن لوبى وعمه اسماعيل. وقد استقر اسماعيل، تبعا لما تذكره رواية ابن خلدون، فى مدينة ليريدة وقام بادخال تحصينات عليها عام ٨٨٤م (٢٧٠هـ). وهنا، انزعج كونت الفرنجة على برشلونة لهذا الجوار، فهم بمهاجمة اسماعيل، الذى صده بكل قوة وألحق به خسائر جسيمة. وفى العام نفسه، لم يتمكن محمد بن لوبى، رغم محاولاته المتكررة، من نيل رضى ألفونسو الثالث، ولهذا وجب عليه أن يأخذ حذره من بنى المهاجر، الذين كانوا يسمون فى الغالب بالتوجبين. وقد كلفت هذه الأسرة العربية، لما لها من نفوذ فى رغون منذ أيام الفتح، من قبل الحكومة الأموية بتكوين جبهة صد أمام النشاط السياسى لحفيد موسى بن موسى، وسوف نعود لاحقا للحديث عن هذه الأسرة(٧٦). عهد الأمير القرطبى إلى عبد الرحمن بن عبد العزيز، الممثل الرسمى للبيت الحاكم، بإنشاء الحاميات، فى جنوب شرق سرقسطة، فى قلعتى أيوب ودَرُوقة. مارس التوجبيون الأوفياء ومحل الثقة جميع صنوف الضغط على حركة محمد بن لوبى على مقربة من عاصمة الثغر الأعلى أسفر عن محاصرة محمد بن لوبى وحراجة موقفه للغاية. وبدلا من أن يتحلى بالنزاهة والليونة فيقوم باخلائها بحثا عن ملك فى مكان آخر بعيدا عنها، فضّل أن يبيعها، لمن؟! يبيعها للأمويين أنفسهم! تمت اجراءات البيع بالاتفاق مع القائد هاشم بن عبد العزيز، الذى قدم من أراجون لقيادة الصائفة فى ٨٨٤م (٢٧١هـ)، كما قام بدور الوسيط فى عملية البيع هذه رايموندو دى بالارسى، صهر زعيم التمرد. وهذا هو مايمكن فهمه، على الأقل، من رواية ابن حيان(٧٧)، رغم أن مؤرخا آخر هو ابن خلدون يتحدث، فى معلومات غير مؤكدة، بأن سرقسطة قد حوصرت حصارا صارما وتم الاستيلاء عليها. ومنذ هذا الوقت، تتابع الحكام الأمويون على حكم مدينة الإبْرُه، حتى استولى عليها التوجبيون بعد ذلك لست سنوات.

وطوال المدة القصيرة التى استغرقها حكم المنذر لم تطرأ تغييرات على أوضاع الثغر الأعلى. وما أن تولى الحكم بعده الأمير عبد الله حتى غدا الإقليم الحدودى مسرحا للصراعات الملتهبة. ولكن طال الوقت بقرطبة حتى تفصح عن ردود أفعالها. وماعدنا نرى على مدى عقود عديدة متتالية الجيوش الأموية تصعد فى كل صيف إلى وادى نهر إبْرُة، لتقر فيه النظام العابر ثم تنزل قواتها فى الأراضى التابعة لاقليم ألبه، مسببة الرعب والدمار.

٣- جماعات التمرد وتفتت السلطة الملكية مدة حكم عبد الله ٨٨٨ - ٩١٢م(٧٨):

الأمير عبد الله «دعامة» الأسرة الاسبانية - الأموية :

نعلم، منذ أمد بعيد، وبطريقة تفصيلية كُنه الأحداث المختلفة التى شهدها الأندلس على مدى الأربع والعشرين سنة التى استغرقها حكم الأمير عبد الله، والذى عاش حينا تتلاطمه أمواج الاضطرابات المتلاحقة. وقد جاء سرد مثل هذه الأحداث عبر صفحات عديدة من كتاب المؤرخ ابن حيان. وقد اطلع على هذا المخطوط، المحفوظ فى مكتبة بودليانا بأكسفورد، كل من دوزى وسيمونى، فاستخلصا منه ملخصات عدة فى كتابتهما عن المسلمين والمستعربين فى إسبانيا، وذلك قبل أن يقوم ب. أنطونيو بنشره فى طبعة حديثة. يأتى الجزء الكبير الذى يخصصه بن حيان لهذه الأحداث فى كتابه، حسب قواعد التحليل التقليدى، يعج بخلط فائق الحد، وهو الأمر الذى لايجب أن ننسبه إلى المؤرخ. فكل المعلومات التاريخية الخاصة بهذه المملكة تتشابك دوما بعضها ببعض. فالأمر لايتعلق فقط بخيانات إقليمية، محددة المعالم الجغرافية لاتجمع بينها علاقات مشتركة. وهاهم المعادون للنظام الأموى يجمعون أمرهم للعمل، فى حالة من جمع الشمل والاتفاق وثيق العرى، فيأمرون بتكوين جماعات أو بحل أخرى، حسب ماتقتضيه الظروف. وسرعان ما أعلن المولدّون تمردهم ضد العرب، فبادر هؤلاء، سواء شاركهم البربر أم لا، باعلان الهجوم على المسلمين الجدد. ومن البديهى أننا داخل هذه المتاهة ذات التحولات الدائمة ليس من السهل الحصول على خيط يسوقنا إلى دليل. وبهذا يصبح من الأفضل التضحية فى بعض المناسبات، بغية الايضاح، ببعض الحلقات التى تأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية من أجل تركيز أكبر على وضع نظام لمجموعات الروايات غير المحتملة عن الثورات وحركات القمع لها أثناء تلك الفترة التى شاعت فيها الفوضى.

كان عبد الله فى الرابعة والأربعين من عمره حين تولى مقاليد السلطة. فقد ولد فى الحادى عشر من يناير عام ٨٤٤م (١٥ ربيع الثانى عام ٢٢٩هـ)، نفس العام الذى ولد فيه المنذر، كما أنه ابن أمة أيضا. كان المنذر ذا شعر أسود مسترسل، وتظهر علامات الاصابة بمرض الجدرى على وجهه، ولكن الأمير الجديد كان متوسط الطول، ذا عينين زرقاوين وشعر أشقر ضارب إلى الحمرة، مثل كثير من أمراء أسرته المالكة(٧٩). كانت ميوله متواضعة، وما أغراه الترف، مثلما يمكننا الاستدلال على ذلك بهيئته المتواضعة ونوع الحياة التى كان يعيشها. تميز بالقناعة، وماجرب الخمر قط. تمتع بثقافة واسعة ممتازة وماكانت تنقصه البلاغة حين يتحدث، كان ضليعا بالعلوم

الدينية وعكف عن تلاوة القرآن فكان يقرأ كل يوم جزءًا، حتى حفظه عن آخره إلى جانب أشعار من الأدب القديم؛ وحين كانت تتاح له الفرصة كان ينشد الجميل من أبيات الشعر. كان فقهاء قرطبة يشرفون على ورع الأمير ويشجعونه عليه. وماكان يضرب بالرأى العام عرض الحائط، وخاصة بالعاصمة. كان يتلقى الشكاوى التى يقدمها أهالى قرطبة بنفسه، والتى كانت تشكو من سوء استغلال موظفيه لسلطتهم؛ وحين أمر بفتح باب فى سور القصر أطلق عليه باب العدل، أصبح يجلس بصفة مستمره تحته مرة كل أسبوع يستقبل أولئك الذين يرغبون فى تقديم طلباتهم إليه شفويا أو كتابة. وماتخلف قط عن صلاة الجمعة فى المسجد الجامع، ودائما ماكان يلزم نفسه بصلاة النفل الكثير. ولكنه حتى يضمن انتقاله المباشر من القصر إلى مقصورته الخاصة بالمسجد، والتى أقامها والده فى مقدمة صفوف المؤمنين، أمر ببناء ممر مغطى، يقطع شارع البونيتى وينتهى بباب يؤدى إلى أحد المبانى الملحقة بالمسجد(٨٠). مثل هذا الحذر، الذى لم يلجأ إليه سابقوه، يسمح لنا بأن نتكهن بأن عبد الله كان لايثق بطبعه بأى شئ وكان يخشى أن يقدم نفسه هدفا سهلا للانتقام من قبل أحد الساخطين عليه من رعاياه، رغم أن المؤرخين العرب، الذين يميلون إلى الاطراء دائما، لايرون فى هذه المبادرة الكبرى سوى دليل على احترام الأمير لرعاياه من أهالى قرطبة، فما أراد أن يضطرهم للانحناء احتراما له عند مروره أو يجعلهم يمضون وقتا طويلا فى انتظار خروجه عليهم ليهتفوا بحياته. وإذا ما استثنينا حالة التشاؤم التى كانت تعترى الأمير فى أمور حياته اليومية، وورعه، وتطلعاته البسيطة، وقلقه الفطرى، وسوء ظنه، وريبته، فإنه يملك – تبعا لما يراه جمع الفقهاء المحيط به، كل صفات الأمير الفاضل. وما خانه رجال الدين قط أثناء الفترة العصيبة التى واجه فيها كثيرا من المشاكل والمحن. وماطرأ بفكرهم أيضا أن يدرجوا اسمه ضمن قائمة التشهير بالمجرمين فى الجرائم التى ارتكبها، باسم حق الدولة، عدد من أفراد أسرته. وعلى العكس، فقد ألح عليه الفقهاء حتى أدخلوه السجن، لمرة واحدة على الأقل، ولكن ليقوم بسفك دم أحد المقربين إليه.

ونحن فى سردنا للأخبار والظروف التى أدت إلى وفاة الأمير المنذر أمام بربشتر، والطريقة التى خلفه بها عبد الله، نعتمد على الرواية التقليدية، كما ظهرت مسجلة فى أغلب كتب التاريخ. ترد هذه الرواية ضمن حكايات أحمد الرازى وابنه عيسى، محللان عاشا فى ظل مملكة عبد الرحمن الثالث، ولهذا، فما كان لهما أن يلطخا، دون انزال العقاب بهما، ذكرى جد هذا الأمير، الذى أقدم فى حياته على تعيين حفيده وريثا للعرش الأموى. والآن، نقول إن مثل هذه الحيرة والشكوك لم تكن توجد

عند المؤرخ ابن القوطية، كما أنه لايمكن أن نعثر عليها فيما بعد عند ابن حزم الذى عرف بعدم تهاونه. فكلاهما(٨١) يتهم بجلاء شديد الأمير عبد الله بالتخلص من أخيه المنذر ليحل محله فى السلطة، وهما محقان، بكل تأكيد، فيما يقولانه. ففى تلك الفترة لم يكن من الصعب تقديم الرشوة إلى أى طبيبٍ أو خصىٍ وإجباره، مثلما هو الحال بالنسبة لما نتحدث عنه، على استخدام مشرط مُسمم حين إجرائه لعملية العضد. وفيما بعد، سنرى كيف أن الأمير عبد الله كان لايحفل كثيرا لحياة من تبقى من إخوته، أو أبنائه. وماكان عبد الله، باتباعه هذا الأسلوب، الأول أو الأخير بين أفراد الأسرة الأموية الحاكمة، فقد سار على نهجه بعد زمن وجيز عبد الرحمن الناصر.

أنجب الأمير عبد الله، كما يذكر مؤرخوه، أحد عشر ابنا : أنجب سبعة منهم قبل وصوله الحكم، وأربعة بعده. كان أكبرهم يدعى محمدا، ولد عام ٨٦٤م (٢٥٠هـ) وعين وريثا للعرش. كانت أمه در بمثابة أم ولد. وتبعا لتقليد ظهر أثره فى تاريخ مايّا Meyá، فيما يتعلق بنسب ملوك بنبلونة، كانت هى أميرة بسكونية، ابنة حفيد انييجو أريستا، دونيا إنييجا(٨٢)، تزوجت للمرة الثانية من الملك عبد الله، وأنجبت منه الأمير محمد. وأيا كان القصد من وراء هذا التأكيد، فإن أحداثا غير هذه يمكن تصديقها لامحالة، فقد ابن السيدة إنييجا حياته وماكاد يبلغ السابعة والعشرين، ثمنا لثورة غضب ألمت بوالده، حيث اتهمه، وهو محق فيما ذهب إليه بلاشك، بالتآمر عليه لقتله وتولى زمام أمر الولاية من بعده. وكثير من المحللين الرسميين الذين عاشوا فى القرن التاسع، ولم تكن لهم نفس الروح الاستقلالية التى كان يتمتع بها كل من ابن حزم وابن القوطية، أصبحوا يعرضون الأحداث بطريقة تجعل الحق دائما فى جانب أمير قرطبة ضد ابنه. فحين عين محمد لخلافة والده مستقبلا على العرش، أثار ذلك كره وحسد أخيه المطرف، الذى تمكن، بفعل الدسائس التى حيكت مع الموظفين والمقربين من رجال البلاط، من أن يدفع والده إلى الزج بأخيه وريث العرش فى غياهب السجن. وفى اللحظة نفسها التى تم فيها الافراج عن محمد، نظرا لعدم توافر الأدلة، همّ المطرّف بدخول منطقة القصر التى كانت مقرا لسجن أخيه، ثم طعنه عدة طعنات فى ٢٨ يناير عام ٨٩١م (١٣ شوال عام ٢٧٧هـ). وقبل واحد وعشرين يوما من وقوع هذا الحادث، ولد ابن للمسكين محمد فى قرطبة، هو عبد الرحمن، الذى سيلقب فيما بعد بالناصر. وهنا، أراد الأمير عبد الله، الذى أخذ يتميز من الغيظ لقتل المطرف لأخيه كراهية له، تبعا لما يذكره المؤرخون، أن ينزل العقاب بالمذنب، إلا أن حاشيته قد أقنعته بالعدول عن ذلك. ولكن الحقيقة تختلف تمام الاختلاف عن هذا كله، فلدينا الدليل على أن المطرف قد أقدم على قتل أخيه محمد بأمر صريح من والده.

ولكن المطرف، الذى كان يصغر أخاه الأكبر بخمس سنوات، لم يمهله القدر ليحيا مدة أطول من خمس سنوات أخرى بعد وفاة أخيه، حيث كان هدفًا هو الآخر لثورة أبيه. وماكان للفقهاء الذين أهانهم إهانة كبيرة أن يغفروا له موقفه منهم. فحين تمرد إقليم أشبيلية عن آخره، اتهم المطرف بخيانة والده فى هذا الاقليم، واغتيال وزيره وقائده المفضل عبد الملك بن عبد الله بن أميّة، وتجمعت لدى الأمير عبد الله كل الأدلة التى من شأنها أن تدين ابنه، فامتلأ حقدا وغيظا عليه. ولكنه أظهر حالة من التردد فى توقيع العقوبة عليه، وهنا جاء دور الفقهاء، متأثرين بدور الفقيه ابن لبابة[٨٣]، فحملوا الأمير على تنفيذ ما اعتزمه. وقد ظل المطرف يدافع عن نفسه على مدى ثلاثة أيام فى قصره بقرطبة أمام الجنود الذين كلفوا بالقبض عليه. وحملوه فى النهاية إلى حيث يوجد والده، فى الثانى من نوفمبر عام ٨٩٥م (١٠ رمضان عام ٢٨٣هـ)، حيث أمر عبد الله بضرب رقبته فى الحال ودفنه تحت شجرة من أشجار الريحان فى حديقته، وهو المكان الذى اعتاد المطرف (الضحية) الجلوس فيه يشرب الخمر.

ولم يكن نصيب من تبقى من إخوة عبد الله بأفضل من نصيب أبنائه : فلم يفلتوا من العقاب، مثلما حدث مع المنذر، نتيجة الحالة المرضية التى اعترت الأمير والمتمثلة فى عدم الثقة. وعليه فقد راح يتخلص منهم، بأدنى ارتياب، فى كل مرة تقدم ضدهم شكوى، حتى ولو كانت مجرد وشاية، فقد أصبح يجد فيها الفرصة المناسبة لذلك، ففى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ٨٩٧م (٢١ شعبان ٢٨٤هـ)، عقب إعدام المطرّف بعامين، جاء الدور على هاشم، ابن محمد الأول، فدفع حياته ثمنا لمؤامرة ملفقة لم يجرؤ القاضى التقى على كشف حقيقتها. كما أصدر عبد الله أمرا بدس السم لأخيه القاسم فى تاريخ غير معروف، وغالبا ماكانت الأسباب جميعها تدور حول اتهامهم بتدبير المؤامرات التى تهدف إلى قلب نظام الإمارة.

آن لنا أن ندع جانبا الحديث عن تلك الدراما التى صنعت حياة هذه الأسرة الحاكمة، والتى توافرت بكثرة فى كل فترة من فترات تاريخ العصر الوسيط، المسيحية منها والإسلامية. فما أن وصل عبد الله إلى العرش، الذى سعى إليه كثيرا بشتى الوسائل، حتى وجد خزائن الدولة تعج بالثروات، الأمر الذى أحاطه بسعادة غامرة، فبغير هذا الرصيد المتراكم الاحتياطى الذى تركه له أسلافه لم يكن بمقدوره تعديل ميزانيته، ولا دفع رواتب موظفيه وجنوده النظاميين. وفى الحقيقة، بدأ تحصيل الضرائب يتناقص شيئا فشيئا، وفى كل فصل من فصول السنة المالية، بدأ الأمير يدرك بمرارة عجزا جديدا ويقيس من خلاله، فى نفس الوقت، مدى اتساع رقعة المناطق

التى لاترغب فى أن تعترف له بالسلطان. وفى أكثر من مناسبة، لم يكن ايفاد الحملات إلى مكان أو آخر فى أى منطقة يهدف إلى شئ سوى الزام المتمردين بدفع ضريبة استثنائية، وإحضار الأموال إلى خزينة الدولة. وهاهى الأيام التى كان أبوه وجده ينفقان فيها الأموال عن سعة قد ولّت. فغدا الأمير فقيرا، لكنه، لحسن الحظ، لم يكن بخيلا، فرأى أنه ليس من المناسب أن يثقل كاهل البعض من رعاياه الأوفياء بضرائب جديدة.

وفى نفس الوقت، تلقى مؤازرة غير مشروطة، وخاصة من جانب العائلات الكبيرة بقرطبة. فهاهم أبناء هاشم بن عبد العزيز، الذى أطلق سراحه عقب وصوله إلى الحكم(٨٥)، يعربون له عن امتنانهم العميق لهذا الأمر. كما آزرته مجموعة طيبة من الضباط والقادة – الذين منحهم لقب وامتيازات الوزير–، من بينهم عبد الملك بن عبد الله بن أمّية، الذى حزن كثيرا لاغتياله على يد ابنه المطرف؛ وعبيد الله بن محمد بن أبى عبدة، الذى شغل، فى نفس الوقت، منصب رئيس إدارته. وكان يرأس الادارة المركزية، كما هى العادة، حاجب، وهو المنصب الذى شغله على التوالى كل من عبد الرحمن بن أمّية بن شهيد، وسعيد بن محمد بن السالم. وقد ألغى هذا المنصب فى أواخر حكم الأمير عبد الله(٨٦)، ولكن عُهد بمهامه، دون اللقب، إلى خصىّ وفىّ، هو بدر الصقلبى، دون أن نخلط اسمه بسمىّ له هو بدر بن أحمد(٨٧)، أحد ثقات الأمير، الذى أصبح بعد ذلك، حتى وفاته عام ٩٢١م (٣٠٩هـ)، المساعد الرئيسى للأمير عبد الرحمن الثالث.

وأيا كان مصدر النصائح المسداة، فى كل مايعرض من قضايا، هو الوجهاء أو الفقهاء من أصحاب النفوذ من أفراد حاشيته بقرطبة، فما كان الأمير عبد الله فى حاجة إلى من يذكى فيه الحس السياسى، الذى توفر لديه بالفطرة. فحين رأى نفسه تحيط به الأزمات من كل جانب، وخاصة المالية منها، أدرك تمام الادراك، منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها السلطة، مدى العمل الطويل الشاق الذى ينتظره، وأنه لايمكن لحملات غير مضمونة العواقب وخاطفة، أن تكون كافية وحدها لاعادة بناء الامارة الأموية على أسس متينة، بعد أن بدأت تترنح أمام ضغوط القومية الاسبانية والنزعة الفردية العربية. ورغم علمه بحجم قدراته التى لاتمكنه من بناء الامارة على نفس الأسس المتينة التى أرساها أسلافه مثل الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى، لم يشأ أن تخمد همته أو يصاب باليأس، كما أنه لم تزل قدماه بعد، خاصة إذا ما كرس جهوده لتعبيد الطريق أمام من يأتى بعده. إنه من سيقوم بتعيينه فى القريب العاجل : حفيده

«عبد الرحمن»، وليس واحدا من أبنائه الذين سيمتد العمر بهم من بعده؛ انه ذلك الطفل اليتيم الذى راح أبوه ضحية أزهقت روحها على يد جده عام ٨٤٩١م، انه وليد ابنه محمد أكبر أولاده، الذى سيحظى بجانب بسيط من حنان جده المتبقى فى قلبه المتحجر. ضم عبد الرحمن لكنف جده ورعايته منذ نعومة أظفاره، واعتنى به جسديا وروحيا، وتربويا، طرب كثيرا لذكائه، ووضع فيه مسبقا آمال الأسرة الحاكمة. وأخيرا، فبرغم أن الأمير عبد الله لم يبد رباطة جأش، كانت صفة ملازمة لأغلب أفراد الأسرة الأموية باسبانيا، فقد كانت له، فى بعض الأحيان، ردود فعل لم تكن لتصدر عن غيره من أمراء الأسرة المروانية. وهكذا، فحين بلغ بن حفصون أبواب قرطبة وجد الأمير نفسه مضطرا، خوفا من ضغط أفراد حاشيته والخوف من الخيانة، إلى أن يبرهن للجميع على قوته فجأة، والتى ستؤدى إلى نصر غير متوقع لـ «بوليى». وأيا كانت أخطاؤه ونقاط ضعفه، فليس بامكاننا إنكار أن الأمير عبد الله جدير بأن يوضع فى مكانة مناظرة للحكم الأول وعبد الرحمن الثانى فيما يتعلق بتأسيس الامارة الاسبانية الأموية، هذا إلى جانب العمل الفذ الذى قام به عبد الرحمن الداخل. وربما أن ذلك هو الذى يفسر قيام عبد الرحمن الثالث، أو الأكبر، بتوجيه الشكر إلى جده، فى محاولة منه لمحو الآثار الدموية التى مازالت تلطخ سيرته فى ذاكرة معاصريه.

تفتيت الوحدة السياسية :

ماكاد الأمير عبد الله يصل إلى الحكم، فى بداية صيف ٨٨٨م، حتى اشتعلت نيران الحرب الأهلية فى معظم أقاليم الأندلس، ومازالت تشتعل هنا أو هناك متفاوتة فيما بينها قوة وضعفا. إنه أمر أشبه بالانفجار الذى لامقدمات له، فنجم عنه تفتيت فورى فى الأقاليم بعيدا عن كل التقديرات، وانقسامات لم تشهد اسبانيا الاسلامية لها مثيلا قبل حلول عصر الطوائف. فقد أخذ الجميع، المولدون والعرب والبربر، فى جنوب وشرق وغرب قرطبة، يعملون على زعزعة السلطة الأموية. تنازع الكل فيما بينهم، وماعقدوا أيّا من الآمال على السلطة المركزية الأموية، حيث ماكانوا يُكنّون لها الكره والانكار. وماكان الوضع القائم فى الثّغور بأفضل من هذا الحال، بداية بإمارة بن مروان الجليقى، فى إكستريما دورا والمنطقة الغربية، وانتهاء بالأملاك الخاصة لبنى قسيٍ فى طليطلة و«رغون، بالإضافة إلى العرب التوجيبين. وإذا ما أردنا عمل إحصاء لحركات التمرد التى ظهرت على مسرح السياسة فى الأندلس، والتى تتوافر لدينا معلومات كثيرة عنها، فسنجد أنها تصل إلى مايقرب من ثلاثين حركة. وماكانت هذه

الحركات تتمتع بدرجة واحدة من الأهمية، وكذلك فإن بعضها لم يكن بمقدوره أن يصمد فى الساحة زمنا طويلا، فالمغامرون الصغار الذين لايتحركون فى فلك متمرد مهم له مكانة كبيرة كانوا يواجهون أحد مصيرين : إما أن يتم ابتلاعهم من قبل جار أقوى منهم، وإما أن يتم اخضاعهم لسلطة أحد الجنرالات العسكرية الموالية، وحين يحدث لهم ذلك، تكون نقطة النهاية لكل منهم فوق الساحة. كان هؤلاء المتمردون البسطاء يوجهون أعمالهم ضد أندلوثيا، حيث لم يكونوا يتمتعون بعتاد ونفوذ قويين، أما الأدوار الكبرى فما كان يقوم بها منهم إلا أربعة هم : سوّار العربى، فى منطقة البيرة، والعربيان كريب بن خلدون وابراهيم بن حجاج فى منطقة أشبيلية، وابن حفصون، قائد بوياسترو بِبُشْتر المفترس، الذى بسط نفوذه الواسع على هذه الأرض نظرا لما كان يتمتع به من شخصية غير عادية.

كان أغلب زعماء التمرد من المولدّين أو المسلمين الجدد، وكلهم من جيران وحلفاء بن حفصون. كان زعيم هؤلاء الاسبان الذين اعتنقوا الإسلام حديثا هو عبد الله بن أميّة، والذى لقب بابن الشاليّة، نسبة إلى أسرته، حكم مدة منطقة المرتفع الجبلى المسمى بسيمونتين (فى اقليم جيان الحالى، بين لنيارس والوادى الكبير). واتخذ من قطلونية مقرا له(٨٨). وعلى أرضها ظل يزهو بنفسه ملكا صغيرا؛ يملك قوادا وقوات عسكرية عالية التنظيم؛ زوج ابنته لجعفر، أحد أبناء بن حفصون، واحتفظ بامارته المستقلة حتى السنوات الأولى لحكم عبد الرحمن الثالث. كما استطاع مولدّ آخر. هو سعيد بن وليد بن ماستانا، أحد مستشارى بن حفصون الذين كان يسمع لكلامهم، تسلم زمام الأمور فى مناطق خاضعة لقلاع برييجو، كاركابوى ولوكويين ولوكى (بين قرطبة وجيان)، من الصمود حتى أواخر حكم عبد الله. كما كان بنو هابيل من المولدّين أيضا (منذر بن هريز وأخوته الثلاثه : هابيل وأمير وعمر) تمركزوا فى شمال شرق جيان واستولوا على عدد من القلاع من بينها مارجريتا وسان استيبان دل بويرتو. وفى ناحية الجنوب، تولى المولدّى جابر بن شاكر زمام الأمور فى قلعة جابر، أما قلعة مونتيليون، بالقرب من جيان، غير البعيدة عن منطقة مارتوس، فقد ملك زمام أمورها سعيد بن هذيل.

كما أن هناك بعض المولدّين – دون الاشارة إلى بنى قسىّ فى رغون، وابن مروان الجليقى، فى باداخوس (بطليوس)، كانت لهم ممالك فى الفترة نفسها، ممالك مستقلة فى جنوب شرق شبه الجزيرة، واقليم تودمير. أما مدينتى مرسية لورَقَة فقد اجتمع الأمر فيهما لديسم بن اسحق، صاحب إدارة وجيش أحسن تنظيمها، وقوات

للمشاة، وأخرى مكونة من خمسة آلاف فارس، كانوا فى غالبيتهم من المرتزقة. خرج إليه جيش أموى فهزمه عام ٨٩٦م (٢٨٣هـ)، دون أن يتمكن من انتزاع مناطق نفوذه، التى توفى فيها بعد ذلك بعشر سنوات، ولما يستسلم بعد. وفى جنوب البرتغال، تمكن اثنان تابعان لابن مروان الجليقي من تكوين منطقتي نفوذ مماثلة وعلى نفس الدرجة من الأهمية: هما عبد الملك بن أبي الجواد، في باجة ومارتلة، وبكر بن يحيى بن بكر، في شنتمرية الغرب[٨٩]، التي تعرف الآن باسم فارو، عاصمة أكشونبة. وقد ظل والد هذا الأمير الصغير رافعا راية التمرد منذ أواخر حكم محمد الأول. كان حفيدا لمسيحى من المنطقة الغربية، يدعى ثادولفو. أما خلفه يحيى، الذى يتفاخر بأنه جار لملك أشبيلية، ابراهيم بن حجاج، فقام بتحصين مدينته، وأحاطها بأسوار ذات أبواب كسيت بصفائح من حديد، زودت بمستشارين وسكرتاريين وجنرالات وإدارة مالية حقيقية. كان رجلا متحررا، ومضيافا، ولهذا فقد ألزم رعيته باستقبال كل أبناء السبيل الذين يمرون بأراضيهم. كانت سنتا ماريا تضم بين جنباتها كنيسة كبيرة، أضفت عليها هيئة العاصمة. كان الأمير عبد الله غير راغب فى الدخول فى حرب مع عدوه البعيد عنه، فتفاهم معه فى النهاية وبلغ به الأمر أن عهد إليه بحكم اقليم أوكسونوبا كله، وعاصمته سيليس. طال عمر يحيى بن بكر بعد موت عبد الله إلى أوائل حكم الناصر، وسوف يخلفه من بعده ابنه خلف، الذى سينضم إلى عبد الرحمن الثالث عام ٩٢٩م (٣١٧هـ).

كان المتمردون من البربر، الذين أعلنوا عصيانهم للأمير عبد الله، ينتمون فى معظمهم إلى سكان المناطق الجبلية. وعلى جنبات الصفحات التالية سنتحدث عن بنى ذى النون ونشاطهم فى الثغر الأعلى. أما بقية المتمردين فكانوا فرادى لايتمتعون بنفوذ قوى فى جيان والبيرة أو إكستريمادورا والألمتيخو. وفى جيان نفسها قام شخص يلقب بالملاحى، ويعرف باسم عمر بن مريم الهترولى، بالاستيلاء على مقاليد الأمور فى المنطقة بعد أن اغتال حاكمها؛ لكن لم يطل به العمر، حتى استسلم، بعد مجموعة من الأحداث عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ)، للقائد ابن أبى عبدة، حين هاجمه، وحمله إلى قرطبة. كما أن البربر، وخاصة، كوتاميئس خليل بن المهلّب وأخوه سعيد، بعد أن استوليا على قلعتى توربى كارويلا[٩٠] وإسبراجيرا فى اقليم البيرة، الواقعة على مسافة خمسين كيلومترا شمال شرق غرناطة، قد أعلنوا استسلامهم، وإن عاد الزعيمان لاعلان التمرد من جديد، وماكان عبد الرحمن الثالث يحسب حسابهما جيدا فى عمليات القمع حتى عام ٩٢١م (٣٠٩هـ). وأخيرا، يأتى بربرى من نفزة هو زوال بن يعيش بن فورانيك، صاحب قلعة أم جعفر[٩١]، فى اقليم ماردة؛ وفى هذا الاقليم أيضا كان هناك متمرد آخر هو بن تاكيت، وربما بدت عليه العداوة لابن مروان الجليقى.

أما العرب، فكان ظهور التمرد الفردى نادرا جدا من ناحيتهم، حيث كانوا يفضلون العمل ضمن حركات معارضة كبيرة ظهرت على مسرح إقليمى البيرة وأشبيلية. مع هذا، نذكر من بين العرب المتمردين محمد بن أضحى الهمذانى فى نوءاليخو، بشمال غرناطة؛ وتمرد آخر قام به الضابط العجوز اسحق بن ابراهيم العقيلى، المسمى بابن عطاف، فى مُنتيشة(٩٢)، بأراضى جيان؛ والمنذر بن إبراهيم بن السالم. وانتهى به الأمر إلى الاغتيال، في مقر اقامته فى جراثاليما(٩٣) بمنطقة قادش الحالية، وذلك على يد عبد له يُدعى جاليندو، فحل محله وليد بن وليد، أحد أقاربه، فاستمر على تمرده حتى أخضعه خلف الأمير عبد الله.

النزاع بين العرب – والمولّدين في منطقة إلبيرة :

بعد مرور عدة شهور على وفاة المنذر ومجيئ أخيه إلى الحكم، أى فى ربيع عام ٨٨٩م (أوائل ٢٧٦هـ). بدأ الصراع يحتدم بصورة أكبر مما كانت عليه بين العرب والمولدين من أهالى إلبيرة. قام المسلمون الجدد، بعد أن رأوا الفرصة سانحة للهجوم المفاجئ على القائد القيسى يحيى بن سوقالة فانتهزوها، ثم حملوه أسيرا وذبحوه، مع عدد من أتباعه. وقد كان أحمد بن سوقالة هذا قائدا، منذ فترة وجيزة، لحركة عربية ضد المولّدين فى المنطقة، وفى عدة لقاءات مع القوات الاسبانية هزمها، حين كانت تحت قيادة نبيل والشميس. كان يستخدم قلعة مونتيخر كقاعدة لعملياته، والتى توجد على مسافة ٦٠ كيلومترا شمال غرناطة، ووقعت أخيرا فى يد المولّدين، فاضطر لتوقيع هدنة معهم. وحينئذ استسلم فى مدينة إلبيرة ثم اغتيل بعد ذلك.

وقبل أن نقوم بسرد أحداث هذا الصراع، نقدم بعض المعلومات عن الوحدات الأساسية للمنطقة التى جرت فوقها تلك الأحداث. وقد ذكرنا فى مناسبات عدة اسم إقليم إدارى وعسكرى يعرف بـ «كورة إلبيرة». كانت أراضيه تابعة، فى العصر الوسيط، لاقليم غرناطة الحالى. حملت هذه الكورة، مثلها فى مثل بقية الأماكن فى الأندلس، اسم عاصمتها، ويرجع وجودها إلى التقسيم الكنسى ومناطق اسبانيا القوطية. وقبل وصول المسلمين إلى إسبانيا كانت هناك محلة قديمة رومانية فى أحد جوانب غرناطة الحديثة، والتى شهدت عام ٣٠٠م انعقاد مجلس أسقفي شهير. كما أقام كثير من الحكام الأوائل المسلمين فى كورة إلبيرة هذه، ولكن، كما هو الحال فى أماكن أخرى من إسبانيا، فضل الولاة الذين أتوا بعد ذلك الانتقال إلى منطقة أخرى

قريبة من العاصمة القديمة. وبهذا ظهرت تلك العاصمة الجديدة على السطح وأصبحت تعرف باسم قشتالة، وذلك قبل تأسيس الدولة الأموية بقليل على يد عبد الرحمن الأول. واستمر هذا الاسم، كورة إلبيرة، يطلق على الاقليم، وأكثر من ذلك، أنه امتد ليطلق أيضا على قشتالة تمييزاً لها، فى الوقت الذى بدأ يفقد مسماه القديم شيئا فشيئا. وكما رأينا، فإن مسمى إلبيرة قد أصبح يطلق على المحلة القديمة التى كانت مجاورة لمنطقة البيرة القديمة، التى غدت تعرف باسم جديد هو : غرناطة. ولم تكن غرناطة وقتها، فى القرن التاسع، سوى قرية كبيرة محصنة، أخذت تتدرج على امتداد الشاطئ الأيمن لنهر حَدَرُّه Darro، فى مكان غير بعيد عن إلتقاء هذا النهر بنهر شنيل Genil، سكنها حينئذ عدد قليل من المسلمين، وكثرة من المسيحين، أما عدد اليهود فقد كان كثيرا فاق أعداد المسيحين، ولهذا غدت تعرف باسم «غرناطة اليهود». وعلى الجانب الآخر من النهر، فوق قمة جبلية شديدة الانحدار تحتضن الشاطئ الأيسر لنهر حَدَرُّه، شيدت قلعة قديمة، عرفت باسم الحمراء، نظرا لأن أسوارها قد صنعت من طوب مدقوق له لون أشقر ضارب إلى الحمرة، وأصبحت بعد ذلك مقرا أقام فيه النصريون، كان لها فيما بعد شهرة ذاع صيتها. وبالنسبة لمدينة إلبيرة، قشتالة القديمة، الواقعة على مسافة ١٢ كيلومترا شمال شرق غرناطة، بين مجموعة من القرى الحالية – أترافى وبينوس بونيتى – فقد كانت، أثناء مدة الامارة، وبعدها فى ظل الخلافة الأموية، مدينة مزدهرة مزدحمة بالسكان. بنى مسجدها الجامع(٩٤) وتم توسيعه عام ٨٦٤م (٢٨٠هـ) على يد محمد الأول، نفذت رسوماته، مثلما حدث فى مسجد سرقسطة، على يد حسن الصنعانى. قام البربر بتأسيس وتدمير البيرة أثناء الحرب الأهلية فى بداية القرن الحادى عشر عام ١٠١٠م (٤١٠هـ). هاجر سكانها آنذاك إلى غرناطة المجاورة، والتى تحولت، بعد ذلك بسنوات قليلة، إلى عاصمة للمملكة المستقلة لبنى زيرى فى إسبانيا(٩٥).

كان من بين سكان منطقة البيرة، فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها، مجموعة كبيرة من المولدّين، الذين اعتنقوا الإسلام مؤخرا، ومن العرب البسطاء، الذين أقاموا بها بعد الفتح أو من الذين ينحدرون من موظفين حكوميين أقاموا بالمنطقة، وأخيرا، ودون أن نحصى الأقلية البربرية، نجد مجموعة من الجنود العرب، السوريين، الذين وفدوا من دمشق. ورغم هذا الحشد غير المتجانس من السكان، إلا أنهم لم يفقدوا، وحتى نهاية القرن التاسع، وعيهم بأصولهم. أما فيما يتعلق بالعرب البلديين والشاميين، فقد ظلوا محتفظين بما يجمع بينهما من مظاهر المودة والعداء العرقية، رغم

تبنيهما موقفا إيجابيا تجاه الحكومة المركزية، فأظهرا لها احتراما كبيرا؛ ولم يتعرض هؤلاء لشئ من مغالاة جباة الضرائب، وظلم الرؤساء المحليين، فأعلنوا ولاءهم وغدوا يمثلون عماد النظام القائم. كانت قرطبة تعلم هذه الأمور جيدا فما شاعت أن تضايق هؤلاء الأصدقاء للنظام، والذين غالبا ماكانوا يكسبون القضايا التي يرفعونها ضد جيرانهم العرب، المتكبرين، المتعجرفين والكسالى، الذين عاشوا كالطفيليات إلى جوارهم فى الأراضى التى كانوا يمتلكونها. كانوا يتفوقون فى العدد، ولهذا قام هؤلاء الموحدون، بالإضافة إلى عدد لايستهان به من الاسبان الذين ظلوا على مسيحيتهم، وبالتشجيع الضمنى من جانب حاكم الاقليم، بتكوين نوع من الاتحاد الحكومى، فى الوقت الذى تمكن فيه القلق من النفوس نتيجة أحداث الشغب فى جنوب الأندلس، وذلك من أجل تكوين جبهة مضادة، عند اللزوم، للموقف العدائى المستمر الذى تبناه جيرانهم العرب، والذين تجمعوا، بدورهم، فى جماعات معادية.

هكذا كانت تسير الأمور عندما وصل المولدّون والعرب إلى الحكم، وقد نجم عن المرحلة الأولى للصراع الاستيلاء على مونتينخيكر واغتيال يحيى بن صقالة على يد عصابة من المسلمين الجدد. تجمع عرب إلبيرة فى الحال حول الزعيم الجديد سوار بن حمدون القيسى، الذى رأى ضرورة الانتقام لمقتل يحيى بن صقالة وابنه الأكبر. حاول فى بداية الأمر استرداد قلعة مونتيخيكر، ورغم استماته أهلها فى الدفاع عنها، إلا أنه تمكن من الاستيلاء عليها وإبادة حاميتها من المولدّين. ولم يرض العرب بهذا العمل، فأرادو ضم عدد آخر من القلاع إلى نفوذهم. أثار هذا الأمر حفيظة المولدّين، فطلبوا معونة حاكم الاقليم، جاد بن عبد الغفار الخالدى، الذى خرج على رأس القوات المرابطة فى البيرة والبقية من المسلمين الجدد، وذلك لمهاجمة سوار؛ ولكن المدينة انتصرت لنفسها من جديد، فصدت جيش جاد حتى المناطق المجاورة لألبيرة، كما قام أهلها بأسر حاكمها. أضفى النصر جسارة على العرب، فبدأوا الاتصال بذويهم فى المناطق المجاورة مثل ريّو (مالقة)، وجيان، وقلعة رباح. كما طلب المولدّون من الأمير عبد الله ان يمد يد العون إليهم. فحاول الأمير البحث عن حل سلمى للقضية، فعرض على سوار ومن معه من العرب أن يمنحهم امتيازات جديدة إذا ماتخلوا عن أعمال القتال وتصالحوا مع المولدّين. قبل سوار هذا العرض، ولكنه، نظرا لأن القوات التى كانت تحت يده مدربة وذات كفاءة عالية، استخدمها، وربما بتحريض من الأمير نفسه، لشن هجوم على أتباع بن حفصون القريبين من اقليم إلبيرة. لم يكن هذا هو مافهمه المولدون من توقف أعمال القتال الذى تم الاتفاق عليه مؤخرا، ولهذا، هاجموا العرب من جديد،

والحقوا بهم خسائر جسيمة واضطروهم إلى اللجوء إلى قلعة الحمراء. وحين وجد سوار نفسه ومن معه محاصرين بما يقرب من ٢٠٫٠٠٠ جندى أسبانى، ورأى أن الموقف يتدهور بالنسبة له، اتفق مع أتباعه على البحث عن مخرج إيجابى، وفى موقعة المدينة، تمكن العرب من النزول إلى سهل ضئيل، فقتلوا أكثر من نصف قوات الحصار.

وبعد هزيمة غرناطة هذه، لم يعد أمام المولدّين من مهرب سوى أن يلقوا بأنفسهم في أحضان ابن حفصون. وهنا قدم متمرد برباط إلى إلبيرة، فجمع الفرق التى وجدها بها، بعد أن انضمت مؤخرا إلى مناطق نفوذه، وخرج أملا فى لقاء العرب؛ ولكن سوار، الذى كان ينتظره ثابت القدمين متمكنا من النصر، هزمه. وعاد ابن حفصون إلى (ببشتر)، يكاد يتميز من الغيظ، بعد أن ترك لنائبه حفص بن المرّة مهمة مواصلة الكفاح. وسرعان ماوقع سوار فى كمين، وقتل فى نفس العام الذى تولى فيه القيادة. نصّب العرب من يخلفه، رجلا محاربا اشتهر بالشجاعة فى ميدان القتال، هذا إلى جانب ما اشتهر به من قرض للشعر، انه سعيد بن سليمان بن جودى الساعدى، ينتسب إلى قنسرين. ولكن القائد الجديد لم يكن يحظى، رغم هذا كله، بنفس مكانة سابقه كزعيم، أو يتحلى بصفاته كقائد حرب. ورغم أنه استطاع فرض سيطرة نسبية على العرب، وضم إليه مجموعة من القلاع الجديدة، مثل مُنْتيشة وبَسْطة، إلا أنه لم يقم بأعمال عسكرية متميزة وبراقة. منح الأمير عبد الله سعيد بن سليمان نفس الامتيازات التى كانت لسوار. حيث ظلت مدينة إلبيرة تحت سلطانه لفترة طويلة من الزمن، ولكنه كان يقيم بصفة شبه دائمة فى غرناطة. وفى عام ٨٩٢م (٢٧٩هـ)، وقع اشتباك بينه وبين ابن حفصون أسفر عن هلاك عدد كبير من القوات العربية، فى مرج الجنيل، ووصل الأمر إلى حد الإذلال من جانب ابن حفصون لسعيد بن سليمان. ولم يتمكن هذا الأخير من الحفاظ على الخلافات التى تعملها صدر أتباعه كامنة تحت السطح، وهكذا مضت أعوام سبعة. وفى عام ٨٩٧م (ذو القعدة ٢٨٤هـ)، عندما استردت حكومة قرطبة اقليم إلبيرة، قتل سعيد بن جودى على يد واحد من العرب، كان قد أغوى امرأته، وتوافق موته مع حل جماعته. وهنا دب الصراع بين العرب فى المنطقة، فبدأوا يتقاتلون، يقتلون ويُقتلِون، دون أن تسفر الجهود التى بذلت من جانب البعض من زعمائهم عن أمل فى توحيدهم من جديد. أما بالنسبة لأمير قرطبة فما فعل شيئا سوى أنه ربح من جرّاء ماقام به العرب والمولدين فى إقليم البيرة من تصفية بعضهم البعض فى مثل هذه المشاجرات الداخلية. وسوف يكون عبد الرحمن الثالث، حين يصل إلى الحكم، وخاصة فى السنوات الأولى، هو من يعيدهم إلى جادة الصواب.

إتحاد بحارّة بَجّانة فى أواخر القرن التاسع :

الآن نتوقف عن الاسترسال فى سردنا الرتيب لمثل هذه الصراعات الفوضوية لنذكر بعض الشئ عن الاتحاد البحرى الطريف الذى تكون على أرض اقليم بتيشينا. فما قام به هذا الاتحاد من نشاط فى منتصف القرن التاسع لم يحظ حتى اليوم ولو بمجرد الاشارة إليه(٩٨)، على الرغم من أن المعلومات التى وردت إلينا عنه لم تذكر فقط فى كتاب المؤرخ ابن حيان، وإنما ذكرها أيضا الجغرافى البكرى، فى وصفه للشمال الأفريقى، والذى ترجم وتداوله الناس منذ زمن بعيد. بدأت المملكة الأموية فى إسبانيا تتطلع إلى امتلاك طرق بحرية، وذلك نظرا لما كانت تتمتع به من موقع جغرافى متميز وساحل ممتد، كما دفعها إلى ذلك موقعها المنعزل بالنسبة لبقية العالم الإسلامى، لعدم وجود خط برى يربط بينهما. وبالفعل، فهناك معلومات تؤكد بأن المملكة كانت تمتلك منذ وقت مبكر، بالإضافة إلى السفن التى عبرت البحر لصد الهجمات النورمانية، أسطولا تجاريا على درجة عاليه من الكفاءة، أخذت تستورد على متنه الغلال من المغرب وتصدر عبر البحر المتوسط، محاصيل أراضيها والأراضى التابعة لها، هذا إلى جانب السلع الترفيهية التى كانت الورش المتخصصة فى المدن الكبيرة تهتم بصناعتها. وليس هناك من ضرورة تدعونا إلى التعمق كثيرا فى تاريخ أسبانيا الإسلامية حتى نتمكن من العثور على أدلة شاهدة على إنشاء الترسانات (دور الصناعة)، ووجود تجارة منظمة وهامة بين موانئ الجنوب والشرق وساحل شمال أفريقية. وقد رأينا من قبل، مدى تطور العلاقات البحرية مع ناقور وسوس فاروج؛ ميناء المملكة الرستمية فى تاهرت. كما نعلم أن المغامرين الإسبان قد خرجوا، فى عهد الحكم الأول، للقيام بأعمال القرصنة فى مياه البحر اللاتينى حتى وصلوا إلى كريت فاحتلوها؛ كما اشترك بحارون آخرون من الأندلس، بعد ذلك بقليل، فى فتح سيشيل، مادين يد العون إلى الأغالبة. وهكذا، سواء أكان الأمر متعلقا بالعلاقات التجارية أم بأعمال القرصنة، فقد أصبح من الضرورى إعداد أفراد من البحارة المدربين وذوى الكفاءات العالية. كانت الأندلس تعج بأمثال هؤلاء : كانوا فى غالبيتهم من أصول إسبانية، مولدّين ومسيحين، كما عمل بجانبهم قليل من العرب والبربر.

كانت مجموعات هؤلاء الملاحين، فى عهد محمد الأول، تمتلك، على طول ساحل البحر المتوسط، موانئ متراصة بين لَقَنْت وأجيلاس، ومن بينها الميناء الرئيسى المعروف باسم إسكومبرايراس(٩٩)، أمام الجزيرة التى تحمل هذا الاسم، على الجانب الشرقى لخليج قرطاجنة. وكان من عادة هؤلاء الملاحين أن يذهبوا إلى الساحل الأفريقى القريب

أثناء الخريف، يقضون الشتاء به ثم يعودون فى الربيع يحملون معهم البضائع الثقيلة. ومن أجل هذا قاموا بتوقيع معاهدات صداقة مع قبائل بربرية على الساحل المغربى، كما عاش بين هذه القبائل – بصفة دائمة – أناس يمثلونهم يحملون صفة «قنصل» كانوا يختارونهم من بينهم. وبهذه الطريقة أصبح فى مقدور عدد كبير من الأندلسيين أن يقيم شيئا فشيئا فى موانئ الشمال الأفريقى ويحصل فيه على سكنى دائمة. كما قاموا فى عام ٨٧٥م (٢٦٢هـ) بتأسيس قرية تينس الجديدة، على مسافة قصيرة من قرية تينس القديمة[١٠٠]. وبعد مدة وجيزة، أى فى عام ٩٠٢م (٢٩٠هـ)، أقدم بحارون أندلسيون، يرأسهم محمد بن أبى عون ومحمد بن عبدون، على اتخاذ قرار بالاقامة فى ميناء وهران[١٠١]، بعد أن حصلوا على تصريح من البربر القاطنين بالمكان. وبعد سبع سنوات هاجمتهم القبائل المجاورة، فخرّبت منازلهم، ولكنهم عادوا إليها مرة أخرى عام ٩١١. ويذكر لنا البكرى موانئ أخرى فى الشمال الأفريقى، كانت فى عصره – القرن الحادى عشر– فى قبضة الجماعات الأندلسية[١٠٢]، مثل بونا[١٠٣]، وبوخيا[١٠٤] ومرسى الروجاج[١٠٥]. وبواسطة البكرى أيضا نعلم أن هناك مجموعة من أبراج المراقبة، تعرف باسم «ماديّة»[١٠٦]، وذلك كقاعدة لتجارتهم فى اسبانيا. كان هذا المكان مرصدا، يقع فى خليج توافرت له الحماية الجيدة، يحتضن مصب نهر صغير جانبى، هو نهر باندركس (وادى بَجّانة). بدأ برج بجّانة، الذى سرعان ما أطلق عليه اسم الميرية، يتحول منذ ذلك الحين إلى ميناء مورود وفعال على ساحل الأندلس المطل على البحر المتوسط.

ومابيتشينا اليوم إلا قرية صغيرة على الشاطئ الأيسر لنهر الأندركس، فى مكان غير بعيد عن منحنى هذا النهر الصغير، الذى يهبط من المنحدر الجنوبى لسلسلة جبال الثلج، متجها صوب الجنوب قبل أن يصب فى البحر على مسافة تزيد على عشرة كيلومترات. كانت مقاطعة بجّانة فى القرن التاسع مقرا لبعض العرب اليمنيين، الذين عهد إليهم عبد الرحمن الثانى بحماية الساحل أمام مايتردد عن نزول قوات للمجوس به، حيث اضطروا للاقامة هناك فى رباط دائم، وذلك نظير منحه لهم الوادى الخصيب لنهر الأندركس. ولهذا السبب أصبح الاقليم يعرف باسم «أرش اليمين»[١٠٧]. كان الملاحون الأندلسيون ينزلون – فى طريق عودتهم، بألمرية، وفى ظروف لاتعرفها، وقع اتفاق بينهم وبين عرب أرش اليمن يقضى بتأسيس مايمكن أن يطلق عليه «جمهورية» الملاحين، تكوين محمية فى مواجهة الاعتداء المتوقع من الجيران. وقرروا أن تكون بجّانة هى عاصمة الجمهورية الجديدة. وماكانت بجّانة حتى الآن مدينة متكاملة وإنما مجموعة من المبانى المتناثرة، أقام فيها عمر بن أسود، أهم شخصية هناك فى أرش اليمن،

مسجدا جامعا يتكون من ستة صحون، وقبة نصف كروية تقوم على أحد عشر قوسا مؤسسة على أعمدة. ومنذ إنشائه عام ٨٨٤م (٢٧١هـ)(١٠٨)، قام الملاحون ببناء سور حول بجّانة واضطلعوا بمهمة تحويلها إلى مدينة حقيقية. ويذكر البكرى أنهم قد اعتمدوا نموذج العاصمة الأموية فى بنائها واعدادها، كما علقوا تمثالا للعذراء فوق أحد أبوابها، مماثلا لذلك الذى ازدان به باب المعبر فى قرطبة(١٠٩)؛ وهذا التفصيل يدل دلالة كبيرة على أنه كانت تعيش بين الملاحين مجموعات كبيرة من المسيحيين، الذين اهتموا أيضا بتأسيس كنيسة لهم. وفى وقت قريب تحولت بجّانة – بفضل حركة أسطولها فى البحر، الذى كان يرسو من قبل بشاطئ ألمرية، إلى مدينة زاهرة؛ استضافت بكل ترحيب خلف أسوارها العديد من رجال الأعمال، الذين أخذ عددهم يزداد مرة بعد الأخرى، فأقاموا فيها بصفة نهائية؛ انتشرت بها الحمامات والمصانع المنتجة للحرير، مما جعل الفلاحين يقومون، فى البلاد المجاورة، التى يكثر فيها شجر التوت، بتربية دود الحرير.

وبعد أربع سنوات من تأسيس دولة بجّانة الاتحادية، ربما بتشجيع من محمد الأول والمنذر، وصل الأمير عبد الله إلى العرش فى قرطبة. وهنا أرسل إليه العرب والملاحون من أهالى بجّانة باعلان يعلنون فيه بتعيينهم له، طالبين منه أن يترك عليهم الزعيم الذى اختاروه لأنفسهم، راغبين، فى نفس الوقت أن يسمح لهم بتوسيع مساحة دولتهم بعض الشئ، وأن تكون دولة مستقلة، تنعم بالحماية الأموية. أجابهم الأمير فيما ذهبوا إليه من مطالب، فأصبح بامكانهم أن ينشئوا حزاما أمنيا من القلاع حول منطقة نفوذهم : فأقاموا فى الغرب قلعة الحمراء، والهابيا، وقلعة بن طارق، أما فى الشرق فأقاموا، ناجرة، وفى الشمال، علي الجانب الآخر من سلسلة جبال فيلا بريس، المشهورة بمحاجر المرمر الكثيره، أقاموا حصنا قويا عرف باسم بورتشينا، على نهر المنصورة. ثم عمدوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على الطريق البرى الوحيد الذى يربط بين بجّانة، بتفرعاته المختلفة، وادى آش فى الغرب، وموريثا فى الشمال الشرقى.

وفى العام التالى ٨٨٩م (٢٧٦هـ) قام زعيم الرابطة العربية فى البيرة، سوار بن حمدون، ظنا منه أن بيتشينا قد غدت صيدا سهلا، بالاغارة عليها. جاء هذا الأمر من جانب ابن حمدون نتيجة لاغراءات كثيرة : فهو يقوم، من ناحية، بمهاجمة المولدين والمسيحيين، الذين سلبوا بعض العرب حقوقهم المكتسبة، ومن ناحية أخرى، رأى أن بإمكانه أن يحصل على غنيمة كبيرة من وراء هذا الهجوم. كان زعيم الملاحين فى ذلك الوقت رجلا يتميز بقوة الشكيمة، يدعى عبد الرازق بن عيسى. أصبح هذا الزعيم،

بمشاركة زعماء حلفائه من العرب، بنو أسد، يملك زمام الأمور فى هذه الجمهورية، وغدا بامكان المسافرين الذين ينزلون للراحة فى ألميرية ويقيمون بعض الوقت فى بيتشينيا، قبل أن يأخذوا طريقهم عبر الجنوب الاسبانى، أن يتركوا بضائعهم دون حراسة فى الشوارع وممرات الأسواق دون أن يتجرأ أحد على النيل منها. وما أن علم عبد الرازق باقتراب قدوم جيوش سوار، حتى آثر الدخول فى مفاوضات معها، فأرسل إلى سوار سعيد بن أسود وأخيه حشحش وحفيده محمد بن عمر. وفى النهاية تخلى سوار عن عزمه، نظرا لما حصل عليه من هدايا ثمينة ومكافأة مجزية.

وبعد إغتيال سوار، خلفه سعيد بن جودى، فعاوده حلم سوار مرة أخرى، ولكن فى هذه المرة بالتواطئ مع العرب فى أرش اليمن، والذين بدى عليهم الاستياء من حلول الملاحين الاسبان محلهم فى بجّانة، وهم الذين استقبلوهم مرحبين بهم منذ وقت قليل. وعليه، هبّ عرب إلبيرة مرة أخرى، فى أعداد كبيرة، لمهاجمة المدينة التجارية الزاهرة، والتى نجت من التخريب لعوامل عدة، وفى الواقع، فإن كونت أمبورياس وسونير، الذى اعتاد الخروج من أجل القرصنة، على طول ساحل إسبانيا الإسلامية، قام، فى نفس الوقت الذى اقترب فيه العرب من بجّانة، بالنزول المفاجئ على الشاطئ المجاور، على رأس أسطول مكون من خمسة عشر مركبا، رسى بها أمام ألمرية؛ حرق سفنا عديدة كانت راسية هناك، ثم نزل بقواته ينوى الوصول إلى بجّانة كى يخرب محلاتها ومخازنها الغنية. وهنا خرج الملاحون كلهم فى الحال حتى يوقفوا زحفه، وفى صباح اليوم التالى دخل الطرفان فى نزال، توصلا بعده إلى اتفاق أسفر عن تحرك أسطول سونير آخذا طريقه فى البحر. ورأى سعيد بن جودى، من فوق تل قريب، السفن الخمس عشرة لكونت أمبورياس تلوح فى الأفق، فأيقن من حصول ملاحى بجّانة على تعزيزات هامة، وعلى عجل ركب طريقه مرة أخرى عائدا إلى غرناطة(١١١).

وما إن تخلصت بجّانة من شبح هذين التهديدين، حتى عادت سيرتها الأولى فى السعى نحو الازدهار وتحصيل الثروات وذلك من خلال الأعمال التى يقوم بها سكانها فى مجال الصناعة. ففى عام ٩٢٢م (٣١٠هـ) دخلت من جديد رحاب الجماعة الإسلامية(١١٢)، وظلت على نشاطها حتى النصف الأول من القرن العاشر، ولكن الوضع انتقل فيها من سيئ إلى أسوأ أمام ازدهار الميناء المجاور لها، وخاصة حينما قام عبد الرحمن الثالث، عام ٩٥٥م (٣٤٤هـ) بنقل عاصمة الاقليم إلى ألمرية والشروع فى أعمال معمارية هامة بها(١١٣). وفى عهد الحكم الثانى بلغت بجّانة قمة انحدارها. وحين أتى القرن الحادى عشر، وأصبحت ألمرية تتمتع بثراء فاحش ومكانة عالية

كعاصمة للدولة، نرى أن بجّانة قد أخذت تسعى بخطى واسعة لتكون قرية صغيرة يسكنها الفلاحون.

النزاع بين العرب والمولّدين في أشبيلية : إمارة ابن حجاج :

كانت أشبيلية تعد فى القرن التاسع المدينة الثانية بعد قرطبة بالنسبة لعدد السكان، وأغنى مدن الأندلس. وقد ساعد موقعها الجغرافى المتميز وأرضها الخصبة، التى أنتجت المحاصيل الطبيعية المتنوعة، على تطور المدينة بصورة مزهلة. بها ميناء على نهر الوادى الكبير يتمتع بنفس النشاط والفاعلية اللتين تمتع بهما ميناء بجّانة، حيث كان يستوعب الجزء الأكبر من التجارة الاسبانية مع مراكش على المحيط. عاشت أشبيلية، فى عهدى عبد الرحمن الثانى ومحمد الأول، حياة تميزت بالهدوء والسكنية، دون أن تثير انتباه الحكومة الأموية، اللهم إلا فى تلك الأوقات العصيبة التى حلّ فيها العدوان النورماندى عام ٨٤٤م. وجد بين سكانها، كما هو الحال فى أماكن أخرى عديدة، عدد كبير من المولّدين، هذا إلى جانب عدد من الذين بقوا على مسيحيتهم ومازالت كنائسهم قائمة. حيث كانت المدينة ماتزال مقرا لمطران بيتيكا. أما العرب المجاورون لأشبيلية، والذين سادت بينهم وبين هؤلاء الاسبان روح من التفاهم الجيد، فقد كانوا ينتمون فى غالبيتهم إلى الأرستقراطية العربية، كما كان من بينهم نبلاء قرشيين، سواء أكانوا من أصل أموى أم لا. كان هؤلاء العرب، والذين يحيون حياة الأمراء، لايقيمون بالمدينة إلا بعض العام، وأما بقيته فكانوا يقضونه فى مزارعهم وضياعهم، فقد كانوا جميعا يملكون ثروات كبيرة، وممتلكات شاسعة فى الوادى الكبير، أو على ضفاف المجد، أو السند، على طريق لَبلة. وفى كل ضيعة كان هناك مكان للراحة. وفى شرق أشبيلية ارتفعت المساكن بأعداد كثيفة، وكذلك القلاع الصغيرة لهؤلاء الأسياد، والتى إذا ماتوجه إليها البصر، تاه فى مناظرها الخلابة المتناسقة. كانت قلاعا محصنة، تحفظ فيها المحاصيل، ويفد إليها المزارعون والعبيد ليدفعوا ماعليهم لأسيادهم العرب. وعلى مسافات بعيدة، بالقرب من مصب الوادى الكبير، وفى المستنقعات والجزر التى تكونت نتيجة ترسيبات النهر، أصبح العرب يمتلكون مساحات زراعية هامة، بها مراع صالحة للتسمين سمحت باقتناء الأبقار، وقطعان من الخيل. وعلى مدى أجيال سابقة كانت أسرة بنى حجاج، من نبلاء اليمن، تمتلك أهم تلك المزارع. كانت تلك الأسرة تفخر بأنها تتصل فى نسبها من ناحية الأب إلى قبيلة عربية مشهورة تعرف باسم قبيلة لخم. كما كانت هناك قبيلة بنى خلدون[١١٥]، قبيلة

حضرمية، من نفس العرق العربي، تمتلك أراض شاسعة في وادي المجد، الذي اشتهر بأشجار التين والزيتون، وإلى هذه القبيلة ينتمي أحد أبنائها المتأخرين، عبد الرحمن بن خلدون، الذي منح قبيلته شهرة لاتنقطع على مدى الدهر(١١٦).

كانت هذه العائلات العربية النبيلة ماتزال تحتفظ حتى ذلك الحين بعلاقات طيبة مع الحكومة المركزية. وقد أتاحت لها قرطبة مساحة واسعة من الحرية، كما كان الحكام الذين يتوافدون على أشبيلية يتلقون تعليمات مفادها عدم اللجوء إلى أي فعل من شأنه أن يجرح أحاسيس هذه القبائل. تجمعت هذه القبائل فيما بينها بواسطة الزواج من عائلات ثرية من المولدين الأندلسيين، ورغم هذا كله فقد ظلت روح العصبية فيهم وأصولهم العرقية بمنأى عن أي تناول. كان هذا، على سبيل المثال، هو حال بني حجاج، الذين أصبح من بينهم ، بسبب صلة النسب مع الأجناس الأخرى، أمراء ينتمون إلى العرق القوطي من ناحية الأمهات، وأصبحوا فيما بعد ورثة أملاكهم المترامية الأطراف. إن مثل هذه الحكاية، التي لايشوبها الاختلاق، تلفت الانتباه حقا، وتستحق منا أن نتوقف عندها بعضا من الوقت. فالمؤرخ الذي أشار إليها، وهو ابن القوطية(١١٧)، توافرت لديه كل مقومات معرفة الأمر على حقيقته، إذ كان ينحدر هو الآخر من نفس العرق النبيل.

وحسب ماجاء في هذه القضية، فقد ذهب أبناء الملك غيطشة، أولموندو وأرداباستو – وقد ذكرناهما آنفا(١١٨) –، وروميلو ثالثهما، إلى طارق لرؤيته، عقب حملته الناجحة على إسبانيا، ليسألوه أن يسمح لهم بالتوجه إلى افريقية، طلبا لزيارة موسى بن نصير. وكان طارق قد سلمهم خطاب توصية لموسى، قد عرض فيه الخدمات الجليلة التي قدمها هؤلاء الأمراء القوطيون الثلاثة. وأرسلهم القائد العربي بدوره، إلى الخليفة الوليد، في دمشق. قدّم لهم الخليفة كل أنواع التشريفات الواجبة وأعاد إليهم ممتلكات أبيهم الشخصية. وما إن عادوا ثلاثتهم إلى اسبانيا، حتى تقاسموا تركة والدهم : احتفظ أولموندو لنفسه بأملاك الأندلس الشرقية وأقام في أشبيلية؛ أما أرداباستو فقد اختار المزارع القريبة من قرطبة، حيث توجد إقامته؛ وأما روميلو فقد وقع اختياره على ألف ضيعة في أراضي طليطلة. وافت ألموندو منيته في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤–٧٤٣م)، تاركا وراءه ابنة تدعى سارة، وولدين آخريين. انتهز أردواباستو هذه الفرصة حتى يضع يده على أملاك أخيه الأكبر. وهنا ركبت سارة البحر من أشبيلية ثم رحلت مع أخويها الصغيرين إلى سوريا. نزلت بعسقلان، ثم توجهت إلى دمشق، حيث عرضت على الخليفة كيف كانت ضحية الظلم، وطالبته

بالمرسوم الذى وهبه لوالدها. وهنا اعترف الوليد بحقها، وطلب من والى أفريقيا أن يقوم بالوساطة، بما يتوافق مع الأوامر التى أصدرها، حتى يعيد الحق إلى صاحبته وذلك عن طريق الحاكم أبو الخطار. وأثناء اقامة سارة بدمشق، زوجها الخليفة بعيسى بن مزاحم، فأنجب منها أولادا، وكان فى رفقتها حين عادت إلى اسبانيا، واستردت أملاك أولموندو. وقد تعرفت سارة وهى فى بلاط دمشق على الأمير عبد الرحمن بن معاوية، الذى هاجر فيما بعد إلى إسبانيا، وحين وصل إلى عرش الأندلس، أحاط الأميرة القوطية بعناية فائقة، فى الوقت الذى قدمت نفسها إلى حضرته. وكلما ذهبت سارة إلى قرطبة سمح لها بالدخول إلى قصر الأمير مباشرة. وأما عيسى بن مزاحم، زوجها، وفى نفس الوقت، جد المؤرخ ابن القوطية، وافته المنية عام ٧٥٦م (١٣٨هـ). عادت الأرملة للزواج من جديد، بناء على نصيحة عبد الرحمن الأول، من عمير بن سعيد، فأنجب منها ولدا يدعى حبيب، والذى غدا فيما بعد سلفا لأربع عائلات أشبيلية أرستقراطية، من بينها أسرة بنى حجاج، والتى تحدثنا عن أملاكها التى توارثتها فى صفحات سابقة.

وحين تولى الأمير عبد الله مقاليد الحكم، برز من بين الشخصيات اللامعة فى أسرة بنى الحجاج أخوان هما : عبد الله وابراهيم. وعلى رأس الأسرة الشريفة الأخرى، برز كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد. وعلى جانب آخر، نجد من بين المولدين الاشبيليين عائلات لمع اسمها فى الميدان، عائلات ثرية وصاحبة نفوذ قوى، مثل بنو أنخلينو وبنو سابريكو، اللتان تمكنتا من الحفاظ على ألقابهما الرومانية، كما سنرى فيما بعد. وقد نشب نزاع بين العرب والمسلمين الجدد بدى هادئا فى أول الأمر، إلا أنه أخذ يتفاقم رويدا رويدا حتى أصبحت الامارة عاجزة عن السيطرة عليه، وهو الأمر الذى اضطرها إلى العفو عن الرؤوس المدبرة له مع مرور الوقت. ونحن لن نعمد إلى رواية الأحداث المتعددة التى واكبت التمرد الذى طال أمده على أرض أشبيلية، فقد رواها لنا ابن حيان ودوزى، فيما بعد، باستفاضة تامة، استنادا على رواية المؤرخ المحلى بن الأشعث القرشى. وسوف يقتصر دورنا هنا على التذكير فقط بأهم الأحداث الرئيسية، التى تسمح لنا بتفسير كيفية تسببها فى أن يتمكن ابراهيم أخو عبد الله بن حجاج من أن يصبح «ملكا على أشبيلية» عام ٨٤٩٩م (٢٨٦هـ)، وذلك حسبما أطلق على نفسه، وتلقى المراسم الرسمية الملكية من الأمير عبد الله نفسه.

وقبل ذلك بعشر سنوات، أى فى عام ٨٨٩، بدأ الصراع على يد كريب بن خلدون. واتبع هذا السيد العربى، لما كان يتمتع به من مزاج فظ وإقدام كبير، أساليب

عديدة فى الاعلان عن نفسه، كما انتهز فرصة الفوضى المتزايدة بين ربوع المملكة حتى يضع نفسه فى الصفوف الأولى. ترك أشبيلية، إذ كان من الممكن القاء القبض عليه فيها فورا والحيلولة بينه وبين ما انتواه من شر، فتوجه إلى قلعة المجد الخاصة به والتى كانت تعرف فى ذلك الوقت باسم برج ابن خلدون، الذى شيد على أرض قوية البلاط. استقر هناك، ثم قام، بمساعدة عرب يمنين آخرين والموالين له من البربر، بتكوين تألف قوى، تمكن به من شن هجوم على المولدّين القاطنين نفس الاقليم. وحتى يعمل على إيجاد الجو الملائم، قام كريب بتشجيع عمليات قطع الطرق فى الخفاء. كان البربر الذين اتبعوه اتباعا أعمى، بما فيهم قائدهم المتمرد جنيد بن وهب القرموني، من البرانسيين، الذين أبعدوا لأسباب الكراهية العرقية القديمة. التى ترجع إلى سنوات طويلة سابقة على إقامتهم على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية، عن البربر المعروفين باسم «البوتر»، الذين أقاموا أيضا فى المناطق المختلفة من الاقليم(١١٩). عقد كريب تحالفات مع المتمردين فى شذونة ولَبلة وروج لنفسة دعاية واسعة وفعالة فى غرب الأندلس. وهنا تكونت تحالفات مضادة كرد فعل طبيعى للأحداث، لم تكن أطرافها تقتصر على المولدّين من أولى العزم فقط وإنما كانت من العرب والبربر أيضا، الذين تجمعهم عصبية مناهضة للعصبية اليمنية والبرناسية، أى المضريين والبوتريين فى اقليم مورور Moron. لم يتوان كريب فى اتخاذ القرار بشأنهم، فأمر على الفور بربر ماردة ومادلين بمهاجمة الضواحى الأشبيلية. هزم الحاكم الأموى موسى بن العاص بن تعلب فى تلياتا، وهو المكان الذى شهد سحق النورمان منذ خمسة وأربعين عاما مضت(١٢٠). وماكان لكريب أن يتوقف عن هذا الحد، بل ذهب أبعد من هذا، فأقام علاقات مع بن الجليقى. وماكان له أن يرعوى عن مثل هذا وابن الجليقى من المولدّين، فكل وسيلة تصبح مباحة حين يتعلق الأمر بغرس بذور الزعر، ومحاولة بث مزيد من الفوضى وعدم الأمان ونسف السلطة التى يتمتع بها الأمير الأموى فى جانب منها. ولهذا ماشعر بن الجليقى بأى نوع من القلق والحيرة تجاه مثل هذا الأمر، فانتهز الفرصة وهاجم إحدى «ضياع المجد» ثم عاد محملا بالأسلاب والغنائم. وفى عجالة رأينا الموقف يزداد سوءً، وأصبح الطريق بين قرطبة وأشبيليه يشهد هجمات متكررة من جانب عصابات قطاع الطريق، وبرز من بينهم قاطع طريق بربرى هو بن التاسماشكا، وذلك لما كان يرتكبه من جرائم جريئة للغاية.

ظل المولدون فى أشبيلية وقد بدت على وجوههم علامات الدهشة لحالة الصمت الطويلة من جانب أمير قرطبة على مثل هذه الأعمال. فذهب أحدهم إلى العاصمة، بغية مقابلة الأمير عبد الله، ثم أفضى إليه برغبته دون أدنى مواربة : إنه على استعداد تام

بأن يعيد الأمن مرة أخرى إلى الأقاليم التى سادت بين ربوعها أعمال الفوضى، إذا ماسمح له بأن يقيم، مع مجموعة من الفتيان الأشداء، فى قلعة سان تيرسو المعروفة باسم قلعة الأبراج السبعة، بين إستِجَّة وإشبيلية. وما أن حصل هذا المولّدى، محمد بن غالب، على الاذن اللازم، حتى أرسى قواعد الأمن والنظام فى الطريق بأسرع وقت ممكن. ولكن زعماء الرابطة اليمنية لم يعترفوا بهزيمتهم، فأسرع كريب بن خلدون إلى إبرام تحالف مع بن الحجاج يتضمن خروجهما لشن هجوم على ابن غالب فى قلعته. ولكنه أضاع الوقت فى مثل هذا العمل، حيث تمكن ابن غالب من صده. وأثناء النزال وقع رجل من نبى الحجاج صريعا. وكان هذا يعنى وجود جريمة ما: اغتيال أحد رجالات الارستقراطية العربية على يد رجل من حقراء المولّدين. توجهت الأنظار نحو قرطبة، حيث بدأت فيها المطالبة بالقصاص. بات الأمر محيرا بالنسبة للأمير عبد الله، فقد كان يريد أن يبقى على الجانبين : العرب والمولدين، فما أراد أن يصيب العرب الأشراف بجرح فى مسألة كهذه تتعلق بالشرف، وفى الوقت نفسه، لايريد أن يخسر أتباعه الأوفياء من المولدين. وبينما كان كريب بن خلدون وعمر بن خطاب بن أنجلينو يدافعان عن قضيتيهما. قرر الأمير أن يتبنى حلا وسطا، حلا صادرا عن رأى شخصى يرفع به الحرج عن نفسه : قرر أن يرسل إلى أشبيلية ابنه الأكبر، الأمير محمد، ليقوم بتقصى الحقائق التى تمكنه من صياغة تقرير شامل يقدمه لوالده. وبالفعل، خرج محمد إلى أشبيلية، وأرسل والده مساعدا له ليكون حاكما للمدينة، ينتمى إلى أسرة شريفة هى أسرة بنى عبده يدعى أمية بن عبد الغافر الخالدى، وهو أخ لجاد، حاكم إلبيرة، الذى حمله سوار معه كأسير، فى الوقت الذى كان فيه سوار زعيما للرابطة العربية فى غرناطة. عمل الأمير محمد ومساعده الأموى على مد وقت التحقيقات. ومن البديهى، أنهما كان يريدان كسب الوقت، وافساح المجال أمام كل القضايا حتى تحل بذاتها. وهكذا وصلا إلى السماح لابن غالب بالعودة إلى قلعته والقيام مرة أخرى بتأمين طريق قرطبة.

وحين اعتقد المولدون الأشبيليون أنهم قد كسبوا الجولة، لم يعد لدى العرب من صبر، فحلف الجميع اليمين من أجل الانتقام لتأثرهم بأنفسهم من الاهانة التى لحقت بهم، وقرروا القيام بضربة حاسمة : استولى كريب بن خلدون على قلعة كورة النهر، عند الوادى الكبير، بينما استولى عبد الله بن حجاج على قرمونة. وحققت العمليتان اللتان نفذتا فى آن واحد، نجاحا كبيرا، وفى الوقت نفسه، استطاع كريب، بمساعدة متمرد ليبريخا، أن ينشر الخراب فى جزيرة النهر، التى كانت ملكا لأحد الأمويين الأثرياء، فحمل معه مائة من الأفراس ومائتين من الأبقار. وهنا أبلغ الأمير محمد، وهو

مـايزال فى أشـبيلية، والده بكل مـاحدث، فـحاول عـبد الله إيجـاد حل سلمى للأزمـة كـعـادته، حـيث لجـأ إلى حل قـدمـه له وزراؤه، رغم أنـه كـان حـلا خـاليـا من كل جـرأة وشجاعة : فاقترحوا عليه إعدام المولدى محمد بن غالب، حتى تعود الأمور إلى نصابها ويسود النظام مرة أخرى. كان جاد، أخو الحاكم الأموى، والذى خرج حديثا من الأسر على يد سوار ثم عاد إلى قرطبة، هو المكلف بإزاحة ابن غالب. توجه إلى قرمونة، بحجة طرد بن حجاج منها، استمال ابن غالب إليه، فتمكن منه وقتله. طرب ابن حجاج لهذا العمل وأعاد إلى الأمويين قلعة قرمونة.

أدى اغتيال محمد بن غالب إلى تفجير أحاسيس الغضب لدى المولدين فى أشبيلية، الذين آمنوا بعدالة قضيتهم، بعد أن ملوا جميعا من الانتظار والتروى، فقرروا على الفور، دون أن يقطعوا أواصر المودة كاملة مع الحكومة المركزية، طلب المعونة من المعديين والبوطر من البربر للاستعانة بهم على أعدائهم الطبيعيين من عرب اليمن، رغم أنهم كانوا يأخذون فى حسبانهم عدم تجاوز الحدود داخل أشبيلية، والحفاظ على النظام الدائم داخلها. وفى ٩ سبتمبر عام ٨٨٩م (٩ من جمادى الأولى عام ٢٧٦هـ) وصلت إليهم التعزيزات المطلوبة. أصبح الجو معبأ، وأصبح من المتوقع أن تعم أعمال الشغب كل الشوارع، الأمر الذى أدى بمن لاناقة له ولاجمل فى النزاع، ويأسف كل الأسف للحد الذى وصل إليه الصراع، أن يفرض على نفسه عزلة داخل بيته. وبعد أن عقد المولدون وحلفاؤهم اجتماعا سريًا، خرجوا فى مظاهرة أمام مقر إقامة ابن الأمير، وبلغ الأمر بالعامة من أهل أشبيلية إلى حد الاشتباك بالأيدى مع حرس القصر، الذى حرضه الحاكم أمية على الصمود، معرضا نفسه لعظيم المخاطر. أخذ الخطر يزداد شيئا فشيئا بالنسبة لممثلى النظام، الذين كان عليهم أن يتحملوا الهجوم إلى أن تصل فرق جاد، الذى أحيط علما بما وقع. وهاهو جاد يدخل فعلا مدينة أشبيلية، فى صباح اليوم التالى وأمكنه أن يفك حصار أخيه أمية والأمير القرطبى. وحين هوجم المولدون من الخلف، بدأ انسحابهم وتفرقوا على أثر مذبحة توقف بعدها تمادى الأمويين فى مزيد من الهجوم.

وعقب هذه الأحداث أصدر الأمير عبد الله عفوا عمن شاركوا فيها. ولكن حالة الهدوء التى سادت كانت عابرة. فقد وقع جاد، بعد أن تملكه الخوف أن يقع أسيرا فيسلم لابن حفصون، الذى طالب برأسه نظير اغتياله لابن غالب، فى كمين حين عودته إلى أشبيلية قادما من قرطبة، والتى كان قد رجع إليها بصحبة الأمير محمد، وتم اغتياله إلى جانب أخوين له كانا فى صحبته. أما أمية، الذى مازال يقوم بدور الحاكم

الرسمي في أشبيلية، فقد اتهم المسلمين الجدد بمسئوليتهم عن اغتيال ثلاثة من أفراد أسرته، واستدعى بني خلدون وبني حجاج ليحثهم على الاحتكام إليه في هذا الأمر. ونتيجة لهذا كله أصبحت المدينة والقرى المحيطة بها تغوص في الدماء أياما مظلمة؛ أبيد الإسبان، مسلمون ومسيحيون، بالآلاف، وأذلهم بنو أنخلنيو وبنو ساباريكو. وما أن أطفأ عرب اليمن ظمأهم للانتقام، لم يتبق لهم سوى عزل الحاكم أمية وفرض أساليب معينة للتعايش على الأمير عبد الله في قرطبة، تجعل الوضع مستقرا وخاضعا لاختياراتهم، حيث إن عبد الله، والذي ماترك له بن حفصون وقتا يستريح فيه، كان يلبي لكل طالب مطلبه. ظل الوضع هكذا حتى عام ٤٩١م (٢٧٨هـ). وفي هذه الأثناء قتل عبد الله بن حجاج، بعد أن وقع ضحية لمكيدة دبرها له البربري جنيد بتحريض من أمية، وتولى ابراهيم مكانه. ولم يهدأ لأخي ابراهيم بال، فقرر الانتقام لمقتل عبد الله بن حجاج. ورغم أن أميّة، بسبب عدم ثقته، قد طالب مجموعة من الرهائن من بني حجاج وبني خلدون، فقد رأى نفسه مضطرا لأن يطلق سراحهم، وفي النهاية، تم اتهامه وخسر كل شيء، ففضل أن يسقط والسلاح في يده. وبعد أن ذبح نساءه وعقر جياده، وحرق متعلقاته الشخصية الثمينة، خرج من قصره يطلب الموت في مشهد بطولي، فمات في الحال.

وهنا تظاهر الأمير عبد الله بأنه يركن إلى صحة تفسير غير حقيقي تم تقديمه إليه حول النهاية المأساوية للوالي أميّة، وأنها جاءت بمثابة كفارة عن محاولة تمرد ضد السلطة، فأناب مكانه حاكما آخر. وبعد ذلك أرسل ممثلا شخصيا له هو عمه هشام، بن عبد الرحمن الثاني، مجرد دمية أرسلت، إلا أنها ساعدت على حفظ ماء الوجه. ومع هذا، فسرعان ماوقع هشام رهين الحبس في قصره على يد أعيان أشبيلية، ووصل الأمر إلى اغتيال ابنه المطرف. وهنا أصبح من الضروري أن يتصرف الأمير بطريقة إيجابية وفاعلة، فأمر بخروج حملة، بقيادة وزيره المفضل، عبد الملك بن عبد الله بن أمية، والمطرف، ابن الأمير نفسه. خرج الجيش الأموي من قرطبة في يونيو عام ٨٩٥م (ربيع الثاني ٢٨٢هـ) وذلك بهدف إرساء قواعد النظام في المنطقة الغربية، ولكن المهمة كانت تنطوي، في الحقيقة، على هدف آخر وهو إرجاع أهالي أشبيلية إلى جادة الصواب والوقوف ضد نشاط كريب بن خلدون وابراهيم بن حجاج، وإن لم يعلنا تمردهما صراحة، فقد كانا مصدر إضرام نيران التمرد في المدينة والاقليم. وعندما علم كريب بمجيئ المطرف، حاول أن يقنع جده هشام بالتدخل ليقنعه بالعدول عن طريقة؛ ولكنه لم يكسب سوى إضاعة الوقت، ووجد نفسه مضطرا لفتح أبواب أشبيلية أمام جيوش الأمير. هاجمت الجيوش عددا من القلاع التي احتلها المتمردون في اقليم

شريش أركُس ومدينة سيدونيا، وحينما عادت مرة أخرى إلى أشبيلية، فى نهاية شهر أغسطس، منعها كريب من الدخول. لم يلح المطرف فى الدخول، ولكنه تمكن من أسر خالد بن خلدون، أخا كريب، وعبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج ثم عاد إلى قرطبة وبرفقته هذين الأسيرين المهمين. وقبل ذلك بقليل قتل المطرف رفيقه القائد عبد الملك. وكما رأينا(١٢١)، لم يتأخر الوقت بنا لنشهد إعدام المطرف بأمر من والده نفسه. أما الأسيرين فقد تم الإفراج عنهما بعد أن دفعت أشبيلية الفدية عنهما لبيت المال، كما أنهما أجبرا على أن يتركا رهائن بقرطبة. وما إن عادا إلى المدينة، حتى تحللا من وعود الشرف التى اقتطعاها على نفسيهما، فأعلنا انفصالهما عن سلطة الأمير فى قرطبة، ورأى ابراهيم وكريب أن يقتسما القيادة فيما بينهما على أراضى اقليم أشبيلية.

وفى هذه المرة لم يتحرك عبد الله، لأنه كان يرى أن التوافق بين زعيمى الأسرتين لن يدوم طويلا. وما خاب تقديره. إذ دبت حالة من فقدان الثقة بن ابراهيم وكريب، وبما أن حكومة قرطبة لم تكن تدع فرصة تمر، من ناحيتها، تجد فيها أملا فى تعميق الهوة الفاصلة بين الطرفين إلا وانتهزتها، حتى انتهى التحالف بين بنى حجاج وبنى خلدون بأن غرقا فى بحر من الدماء : فى عام ٨٩٩م (٢٨٦هـ) اغتيل كريب بن خلدون وأخوه خالد فى منزل هذا الأمير على يد بعض رجال الشرطة الموالين لابن الحجاج. ومنذ هذا الوقت، أصبح المجال خاليا أمام إبراهيم فى أشبيلية، ووصل به الأمر إلى حد التجرؤ بأن يطلب من قرطبة أن تنصبه بطريقة قانونية تضمن له كل حقوقه على أشبيلية وقرمونة. ولم يجرؤ عبد الله أن ينكر على ابراهيم طلبه هذا، وعليه، قامت، بتصريح من الأمير نفسه، دولة جديدة شبه مستقلة يقوم على إدارتها واحد من العرب، الذى أعد لنفسه جيشا خاصا، وأخذ يجمع الضرائب لنفسه، ويرى أن أميره ينظر إليه نظرة احترام وتقدير باعتباره جارا له، لكن مع حفظ الفوارق بين الرجلين؛ كما كان يرى نفسه أحد الأتباع الأثرياء، ولكنه على استعداد، فى نفس الوقت، إذا ماحانت الفرصة المفيدة، أن يعقد تحالفا مع أعداء الأمير للوقوف فى وجهه، بما فى هؤلاء ابن حفصون، الذى أصبح منذ فترة وجيزة واحدا من أقاربه نظراً لعلاقة المصاهرة التى جمعت بينهما، وكان ينظر إليه نظرة إعجاب وتقدير.

وما إن تحول إبراهيم بن حجاج إلى رجل فرض سلطانه علي مقاليد الأمور فى أشبيلية وكرمونة، حتى أصبح بعيدا عن نهاية الطريق الذى بدأه. أظهر ابراهيم حنكة فى الادارة، ولعب دور الأمير بصورة جادة، ورغب فى أن يحكم امارته بأسلوب يتراوح

بين اللين تارة والشدة تارة أخرى، وأن يجعل لنفسه شعبية واسعة بين أتباعه. فعمل على تحصين قرمونة، حيث كان يزورها باستمرار، ليعد لنفسه فيها مهربا حصينا قد يلجأ إليه. وكثيرا ما أبرز المؤرخون العرب المبادرات التى قام بها من أجل ترسيخ سلطته ورفع مكانته : نظّم جيشا قوامه ٥٠٠ فارس يدفع إليهم رواتبهم، أحاط نفسه بمجلس وزراء جديد، أصدر قراراشخصيا بتعيين القاضى ورئيس شرطة أشبيلية، وأبان عن طابع الجود والكرم مع الأدباء والشعراء بغية أن يصبح لقبه نصير الأدب والفنون. ولكن لم يصل به الأمر إلى حد سك نقود باسمه، رغم أنه امتلك مطابع خاصة قامت بطبع اسمه على المنسوجات الحريرية، كما كان يحدث فى قرطبة، ومصر، والعراق. أراد أن يقلد عبد الرحمن الثانى فى حوزته لمغنية بغدادية، فاشترى المغنية الجميلة قمر، مقابل وزنها من الذهب فى الوقت الذى اشتراها فيه من المشرق. كما استقدم أيضا عالم اللغة «أبو محمد الأوحرى»، الذى بهر أهل أشبيلية بمعارفة اللغوية وبلهجته البدوية الحجازية الغريبة. وحين رأى المثقفون فى قرطبة إهمال الأمير عبد الله لهم وعدم تقديرهم، قرروا الذهاب إلى البلاط الصغير الذى يرأسه بن حجاج، موقنين بأنهم لن يعودوا صفر اليدين . هكذا كان الحال بالنسبة لمؤلف المنتخب الأدبى الذى يحمل عنوان «العقد»، إنه الشهير ابن عبد ربه.

ظلت العلاقات بين الأمير عبد الله وأمير أشبيلية تزداد توترا يوما بعد الآخر، طالما كان عبد الله يحتجز عبد الرحمن بن ابراهيم فى قرطبة كرهينة؛ ولكنه قرر أن يفرج عنه بعد إلحاح مستمر من جانب وزرائه، وذلك بعد ثلاث سنوات، عام ٩٠٢م (٢٨٩هـ). ومنذ هذه اللحظة تصالح ابراهيم بن حجاج مع أمير قرطبة الأموى؛ ودفع له الجزية كتابع من أتباعه؛ أمده بكثير من الفرق التى كانت تحت يده حتى يساعد الأمير فى حملاته المتكررة، وتخلى عن مساندته لابن حفصون الذى كان مناوئا للأمير عبد الله. وبعد وفاة ابراهيم بن حجاج المفاجئة فى عام ٩١٠- ٩١١م (٢٩٨هـ)، وهو فى الثالثة والثالثين، خلفه ولداه ابراهيم ومحمد، حيث تولى الأول أمر أشبيلية، والثانى أمر قرنونة(١٢٢). وكما سنرى، فإن العمر لم يمتد بهما سوى فترة قصيرة خلال عهد عبد الرحمن الثالث، وأن الأمير لن يتوانى كثيرا فى استرداد الأراضى التى ادعاها أبوهما لنفسه.

نشاط ابن حفصون فى ظل حكم الأمير عبد الله :

بينما كانت الأحداث التى انتهينا لتونا من سردها تجرى على أرض إلبيرة وأشبيلية، لم يكن المتمرد ابن حفصون هادئا ساكنا فى بربشتر. كما أنه كان يشارك

فى هذه الأحداث، أحيانا، بطريقة مباشرة، خاطفة، كلما رأى فى ذلك تحقيق مطمع شخصى له. وطوال فترة حكم الأمير عبد الله ظل ابن حفصون يتعامل بنفس الأسلوب : يأخذ قرارات متسرعة، ينفذها بأسلوب المفاجأة، تلتها فترات انتظار تطول وتقصر، هذا إلى جانب تساهله فى كثير من الأحيان. وهذا الطابع الذى جبل عليه، والذى نتبينه من خلال تتبعنا للأنشطة التى يزاولها، يثير انطباعا غريبا. فكل وسيلة تصبح طيبة فى نظره إذا كانت ستسمح له بفرض سلطانه على المناطق الممتدة من جنوب قرطبة حتى البحر المتوسط، وذلك ليبنى منها إقطاعيه له، بحيث يكون مكانا يشعر بالارتياح فيه ويتحرك بين جوانبه فى حرية تامة. وعندما كان يريد كسب الوقت نجده ينضم إلى الحكومة الأموية لفقرات وجيزة،ويقدم إليها الرهائن إذا لزم الأمر، فتقتلهم دون تردد أو حيرة. كان يناصر ويشجع بعض المتمردين الذين لايتمتعون بشأن كبير ويتحركون فى إطار مناطق نفوذه، وسرعان ماكان ينقلب عليهم ويجهز على الجميع بعد شهور أو سنوات. كما أن علاقاته التى تجمع بينه وبين المتمردين فى الأراضى المجاورة له كانت تتعرض لفترات من المتانة والفتور، وذلك حسب مزاجه أو نظرا للجو العام الذى يغلف الفترة الزمنية نفسها. كان انتهازيا كبيرا. ففى نفس الوقت التى أملت عليه الظروف تحولا مروعا جهة المسيحية، لم يكن يكف عن البحث عن تحالفات داخل الاطار الاسلامى. فيطرق جميع الأبواب، بما فيها أفريقية، ويحاول مد جسور الاتصال مع خصوم الأمويين من السياسيين ورجال الدين، والذى يعد نظاما معاديا للنظام العباسى عادة. وإذا ما تعرض أحد هذه التحالفات للخطر والانهيار، لم يكن يبذل أى جهد لتقويته أو إعادته إلى حيز الوجود. ومن داخله، كان شخصا لايتمتع بباع طويل : شخصا مترددا، متملقا. وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بقريحة لاشك فيها، ومواهب جعلت منه المحرك الأول لمشاعر الجماهير وقائدها الأوحد، نجده يعرب عن خيانته لأكثر من مرة لمجموعة من الناس ضحت بكل ماتملك من أجل أن تكتب الحياة لحركة التمرد التى قادها. هل كان يضع أمام عينيه هدفاً أسمى حقا؟ هذا الأمر يعتبر محل شك كبير. فلو كان يريد حقا تحرير أقليم الأندلس من الغزاة الأجانب ليقيم حكومة وطنية، أكان يعدم الوسيلة، لهذه الدرجة، التى ينظم بها أفكاره وبرنامجه الموضوع بحكمة والمعمول تنفيذه بكل شدة وصرامة؟ أكان مافعله، فى هذا الحال، تعسفا وتشتيتا لمجهوداته من عام لآخر؟ يبدو أن المؤرخين الذى تناولوا حياة ابن حفصون قد بالغوا فى الحديث عن دوره السياسى، ناسبين إليه، بما لايدع مجالا للشك، بعض المقاصد التى لم تكن من نصيبه. ودون أن نحاول التقليل من شأن الخطر المستمر الذى نجم عن حركة التمرد التى قام بها ابن حفصون على أرض الأندلس، وبذل فى سبيلها

مجهودات متواصلة، علينا أن نؤكد على أن هذه الحركة لم تكن جيدة التنظيم، ولم يكن ثبات الأمير عبد الله أمام هذا التمرد ومعرفة كيفية التعامل معه، دون هوادة وباستخدام وسائل محدودة، وخاصة مع عدو أصبح يتمتع بنشاط قوى على المدى الطويل، بالأمر الهّين، فنرى الأمير يعرض عليه السلام فى الوقت الذى يراه مستعدا لقبوله، دون أن يتطلع إلى فترات هدنة طويلة معه، كما كان يوجه، فى الوقت المناسب، إليه ضربات شرسة لايهدف من ورائها إلحاق أخطار جسيمة به، كما جعله، أخيرا، ينغمس فى حرب استنزاف لاتنتهى، فنشوب حركات التمرد فى مختلف نواحى البلاد قد حالت بين الأمير ومحاولة القضاء على ابن حفصون.

وحين توفى المنذر، بدأ ابن حفصون يتطلع فى زهو، وهو يرى الأمير الجديد يعود إلى قرطبة ويجلس على العرش، إلى معرفة حقيقة الصداقة التى وعده بها الأمير عبد الله. وبالفعل، وفى الأمير عبد الله بوعده : فقد أتى القائد ابراهيم بن خمير إلى ببشتر حتى ينصب الزعيم المولدّى فى مكانه كحاكم لمنطقة ريو ويشهد منه يمين الولاء. حلف ابن حفصون يمين الولاء، وزاد عليه أن بعث مع رسول الأمير العائد إلى قرطبة ابنه حفص وعددامن ضباطه؛ ليكون ذلك أبلغ دليل على وفائه للأمير. ولكنه سرعان ما نما إلى علمه أن البلاد قد بدأت تموج فى بحر من التمرد، فعاد يعلن انشقاقه من جديد ثم بدأ فى توسعة مسرح عملياته، حتى أصبح فى غضون بضعة أشهر سيد فى الأندلس من الجزيرة الخضراء وحتى مرسية، ثم أطلق العنان لجنوده ليخربوا المزارع القريبة من قرطبة. وعلى ضوء هذه الأحداث، قرر الأمير عبد الله أن يبدأ أولى حملاته ضد ابن حفصون، وفى ربيع عام ٨٤٩م (٢٧٦هـ) أجرى الأمير بعض المناورات العسكرية على مدى أربعين يوما، لم تسفر عن أية نتائج عملية. جاء رد ابن حفصون على ذلك بالاستيلاء على إسْتِبَّة وأُشونة؛ كما أن إستجة، التى توجد على مسافة ثلاثين كيلومترا شمال الطريق المؤدى إلى قرطبة، قد فتحت له أبوابها هى الأخرى. وحين رأى ابن حفصون أن تقدمه هذا يعد كافيا فى الوقت الراهن، أراد أن يعلم الأمير قدرته على إيقاف الأعمال الحربية. فقبل عبد الله من فوره هذا الحل السلمى، أيا كانت المدة التى سيستغرقها توقف هذه الأعمال الحربية، والتى لم تتجاوز بضعة أشهر. حيث عقد، بعد توجيه الدعوة له من جانب الأمير عبد الله للمشاركة فى حملة تأديبية، يقودها ابراهيم بن خمير، ضد المتمرد بن ماستانا – الذى قدم المعونة إلى عرب قلعة يحصب، الذين تخصصوا فى أعمال السلب والنهب – معاهدة مع بن ماستانا الذى خرج لتأديبه، وأسر الجنرال الأموى وتحلل مرة أخرى من وعوده مع أمير قرطبة، بعد أن قدم

المساعدات لمولدّى إلبيرة ضد سوار وكانت معركة مرج غرناطة هى التى شهدت أول هزائمه.

وما كان لمثل هذا الفشل أن يقلل، مع هذا، من شأن وخطورة ابن حفصون. فقد كانت سلطته الوحيدة التى يحسب حسابها فى معظم أرجاء مناطق ريو وإلبيرة وجيان. ودون أن نعد هذه المدينة الأخيرة، فإن مدن أرشدونة وبائيثا وأوبييدو وبرييجو وإستجة قد اعترفت بزعامته عليها. وقد بدى له فى هذا الوقت أن الفرصة سانحة للهجوم على قرطبة. ويعتقد المؤرخان دوزى وسيمون أن المستعربين فى العاصمة قد عرضوا، فى هذا الوقت بالذات، مشاركتهم على المتمرد ابن حفصون وأصبحوا ينظرون إليه على أنه محررهم. إلا أن البحث عن مثل هذه الإشارة فى المصادر العربية ذهب هباء ودون جدوى. فواقع الأمر، أنه قد وقع حدث غير ذى قيمة : فقد قام أحد أبناء الرابطة المسيحية بالهرب من معتقله وعرض خدماته على ابن حفصون. كان ذلك المسيحى يدعى سير باندو. حمل أبوه نفس الاسم، رغم أنه كان يعرفه الناس باسم «حجاج» أيضا؛ وأصبح فى نهاية عهد محمد الأول بمثابة القائد بالنسبة للمستعربين من أهالى قرطبة، كما تمتع بشهرة واسعة نتيجة الشدة التى اتخذها منهجا فى التعامل مع بنى دينه. فما كان يفكر فى شئ أكثر من إرضاء البلاط، ولهذا أثقل كاهل مواطنيه بالضرائب الإضافية، وأجبر عددا كبيرا منهم على الدخول فى الإسلام حتى يضمنوا الإفلات من المتابعات الصارمة لأموالهم، أصاب خزائن الكنيسة بالفقر، وعين عليها وزراء يختارهم بنفسه؛ كما حاول توريط وإحراج أسقف قرطبة، بالينثيو، أمام رؤسائه المسلمين، وكذلك رئيس الدير المسمى سمسون، الذى يقدم لنا، فى رسالة وصلت إلينا(١٢٣)، التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع، على الرغم من أنها تحمل، بكل تأكيد، نوعا من المبالغة. وأخيرا بدأ سيرباندو يطلب العفو عما ارتكبه، مطالبا أبناء دينه بنسيان الماضى. أما بالنسبة لابنه سيرباندو، الذى شارك فى بعض أعمال الاغتيال، فقد اضطر إلى التخفى بين أحضان الريف مع بعض من أنصاره للقيام بأعمال السلب والنهب وقطع الطرق على مسافة ٥٠ كيلومترا جنوب شرق قرطبة، حول قلعة بولى، أجيلار الحالية(١٢٤)، ووصل به الأمر إلى الاستيلاء على القلعة باسم ابن حفصون. وقد كلف سرباندو من قبل ابن حفصون بشن بعض الحملات على مناطق الريف، مما جعل الأمير عبد الله يرسل فصيلة من الفرسان لمهاجمة ابن معاونه ونصيره القديم. وفى النهاية، وقع المسيحى فى كمين ثم فارق الحياة. حمل رأسه إلى قرطبة، حيث صلب

أبوه حجاج. وإذا ما كان الحلم يداعب المستعربين من أهالي العاصمة بالتمرد مرة أخرى، فإن مثل هذه العقوبة جعلتهم يفكرون في الأمر مليا قبل الشروع فيه.

وعلى كل فقد أصبح ابن حفصون صاحب بولى وأمر بتحصين هذه القلعة، والتى رغب فى أن يجعل منها قلعة محكمة. وحين نقل معسكره العام إلى إستجة، ضم إلى أملاكه، في بداية الأمر، مدنا أخرى مثل: بيّانة واللّسّانة، التى كانت، وستظل حتى أواخر القرن الحادى عشر، مدينة يهودية خالصة(١٢٥). وفى نفس الوقت، حين تجمعت لديه الأدلة الدامغة على خيانة المتمرد الصغير خاير بن شاكر، سيد خضر، أمر قائده رويال بقتله(١٢٦). وبأسلوبه المعهود، أرسل رأسه إلى الأمير عبد الله. وفى الوقت نفسه أرسل نوابه المحملين بالهدايا إلى إبراهيم الثانى فى قيروان، يطلب منه رعاية العباسيين له، فهو ينوى مواصلة الكفاح باسمهم ضد المروانيين المغتصبين. وأما ابراهيم الثانى، فقد كانت لديه لديه هموم خاصة لاتترك له فرصة الاهتمام بشئون إسبانيا، مما جعله يقتصر فى رده عليه بتشجيعه بالمُضّى قدما فى تحقيق مشروعه فى الهجوم على قرطبة. كان كل هذا يغذى الحلم الذى راود ابن حفصون ويزيد من حماسه ويشجعه على السير في هذا الطريق، خاصة أنه أصبح يمتلك قواعد متينة لعملياته الحربية، وبصفة خاصة فى بولى، التى كانت جماعات الفرسان تغادرها كل ليلة للقيام بعمليات سلب ونهب فى مزارع ريف قرطبة.

نكبت العاصمة، التى بدأت تعانى ويلات نفاد المؤن، بموجة من الاضطراب. وماكان للجماعة المحيطة بالأمير أن تفصح عن تشاؤمها، كما أن الاشاعات الكاذبة أخذت تصيب الشعب بفزع شديد، استطلع الأمير عبد الله الرأى فى أمر استخدام الحكمة مع ابن حفصون. فكانت النتيجة أن تلقى ردا متغطرسا. فقد مضى زمن التردد الطويل وماعاد الأمير يستطيع انتظار أية نصيحة مفيدة من جانب مستشاريه المثبطين للهمم. عليه أن يعتمد على نفسه في اتخاذ القرار، وبأسرع وقت. ووسط دهشة المحيطين به – الذين دائما ماتعودوا على ردود أفعاله البطيئة أمام المخاطر –، قرر الأمير أن يستخدم كل مالديه من أوراق، حيث أصبح الأمر متعلقا بعرش آبائه، وبشرف الأمويين ومستقبل الدولة. فعمل فى إصرار وعزم على حفز الطاقات الخامدة، وأمر بتجميع كل القوات الموجودة وتنظيم جيش يكون هو قائده. وما أن علم ابن حفصون بهذه الاستعدادات، حتى ضحك ساخرا منهم، وبلغ به الأمر أن لقب أعداءه بـ«قطيع الثيران»(١٢٧). وحين خرج الأمير قاصدا النزال، حمل معه خيمته الخاصة

فأقامها فوق سهل منطقة سيكوندا، حيث المكان الذى سوف تتجمع وتراجع فيه القوات؛ وذات ليلة تجرأ الزعيم الأندلسي فأتى المكان الذى تواجد به الأمير وحاول أن يشعل النار فى خيمته بصحبة مجموعة من الفرسان. ولكن مثل هذا الصلف من قبل ابن حفصون كان بإمكانه أن يكلفه الكثير، فما أن وصل إلى المكان حتى أمطره الجنود بوابل من السهام فاضطر إلى أن يعود القهقرى برفقة رجل واحد ممن رافقوه، حيث هلك الباقون.

تمكن عبد الله من أن يجمع، بعد جهود مضنية، أربعة آلاف جندى نظامى، وعشرة آلاف من المتطوعين من أهالى قرطبة، فى الوقت الذى جمع فيه ابن حفصون تحت يده قوات تفوق قوات الأمير أضعافا مضاعفة. وقد غادر الجيش الأموى، المكون من الفرسان فحسب، العاصمة عند بزوغ فجر السبت الموافق ١٥ مايو عام (٤٩١م) ١صفر عام ٢٧٨هـ(١٢٨)، وفى المساء أصبح على مسافة كيلومترين من بولى، ثم عسكر على ضفاف جدول كارتشيناس. بدأت دوريات الاستطلاع المعادية مهام الاتصال وتم الاتفاق على أن يكون النزال فى اليوم التالى. وفى مطلع الفجر بدأت الجيوش الأموية تقدمها، وكان ابن حفصون قد أعد قواته لتأخذ وضع الاستعداد للمعركة، أسفل قلعة بولى، انتظارا لملاقاة عدوه فى رباطة جأش. وبعد أن أصدر عبد الله تعليماته، احتفظ لنفسه بمهمة متابعة المعركة من فوق ربوة عاليه، حيث نصبت مظلته الملكية، التى ترمز لسيادته وسلطانه. قام الوزير عبد الله بن عبد الله بن أمية بمناورة فى غير أوانها، ولكن الجنرال نائب القائد قد أوقفها فى الوقت المناسب، ذاك هو عبيد الله بن أبى عبده، وانطلقت قوات الفرسان الأموية لمهاجمة أنصار المتمرد المولدّى. فقام الجناح الأيمن الملكى بسحق الجناح الأيمن لابن حفصون، والذى كان يقوده هو بنفسه، وتمكن من أن يجبره على الفرار. حل الذعر ببقية الفرق المتمردة، فبدأت تغادر الميدان بعد أن ولت هارية تجر أذيال الهزيمة. استغّل جيش الأمير عبد الله هذا النصر الذى لم يكن متوقعا قدر استطاعته فتتبع الفارين، الذين تراجعوا تجاه بولى، والتى أسرع إليها أيضا ابن حفصون، بعد أن تأكد من امكانية تحمله لأى حصار يفرضه عليه فى هذه القلعة، ولكن قواته، التى كانت فى غالبيتها من فرسان إستجة، لم تشأ أن تترك نفسها فريسة لهذا الحصار، فأخلت المكان فى الليلة التالية، عبر ثغرة مفتوحة بالسور. وعلى ضوء ماوقع لم يجد ابن حفصون أمامه من وسيلة سوى الهرب. ثم توجه مسرعا إلى أرشدونة، ومنها إلى منطقة جبال الأندلس، يملؤه إحباط كبير نتيجة ماحل به من كارثة لامقدمات لها، بالإضافة إلى خيانة قواته له. استولى الأمير عبد الله على قلعة بولى وقتل الأسرى المسيحيين الذين سباهم. بلغ عدد القتلى من بين هؤلاء المساكين – الذين

قتلوا أمام الأمير – إلى مايقرب من الألف ولم يبق منهم سوى رجل واحد ارتد عن مسيحيته وقت توقيع العقوبة عليه.

توجه الأمير عقب ذلك إلى إستجة لمحاصرتها، حاصرها بالفعل واستسلمت حاميتها، التى خلت من المؤن، فأنقذت بذلك حياتها. تابع سيره بعد ذلك إلى بربشتر، حيث عكف على اظهار المهارات التى تتمتع بها قواته فحسب. وفى ١٣ يوليو التالى (١ربيع الأول) صعد حتى أُرْشُدونة، ثم خرج منتصرا من مناوشة وقعت بينه وبين ابن حفصون؛ طاف بإلبيرة، فجمع عددا كبيرا من الرهائن، ثم عاد، فى النهاية، إلى قرطبة.

أضحى الوضع – بعد أن كان من أحلك مايمكن قبل ذلك، وإن لم يكن قد تم تصحيحه كاملا، وقد تحسن على أقل تقدير. فقد سمح النصر الذى حققه الأمير فى بولى، والذى أسفر عن استرداد إستجة وأرشدونة وإلبيرة وجيان، بأن يلتقط أنفاسه ويستعيد ثقته بنفسه. وكذلك، فقد كان ابن حفصون فى حاجة إلى فترة يلتقط فيها أنفاسه حتى يتمكن من استعادة مكانته التى تلطخت بعض الشئ بسبب سوء الحظ الذى حالفه. ولهذا فقد طلب السلام من عبد الله، فوافقه على اقتراحه، شريطة أن يرسل المتمرد أحد أبنائه إلى الأمير عبد الله رهينة عنده. فأذعن ابن حفصون لهذا المطلب؛ بل إنه حاول أن يسخر من الأمير فأرسل إليه بابن له بالتبنى. علم الأمير بهذا التغيير، فأرسل بالشكوى إلى ابن حفصون، الذى رأى نفسه فى موقف أفضل، فنكث عهده مرة أخرى مع قرطبة عام ٨٩٢م (٢٧٩هـ)، ثم خرج فى محاولة منه لاستعادة المدن الذاهبة، فاسترد أرشدونة فى المقام الأول، ثم إلبيرة، التى عادت إلى حظيرة نفوذه نتيجة خيانة بعض سكانها. وبعد ذلك أنزل هزيمة كبيرة بسعيد بن شهيد ومن معه من العرب فى مرج غرناطة، ثم خرج ليستولى على جيان. ولم تعد هناك منطقة يريد استردادها سوى إستجة وبولى حتى يرى نفسه فى الوضع الذى كان عليه قبل هزيمته عام ٨٩١م.

وعلى مدار السنوات الست التالية لم يقم ابن حفصون بانجاز أمور عظيمة، بل خسر إلبيرة. وانتهز الأمير عبد الله هذه الفترة لينفذ الجيوش ضد المتمردين الأندلسيين من غير ذى الشوكة، وخاصة ضد سعيد بن ماستانا، دون الدخول فى مواجهة صريحة مع ابن حفصون. إللهم إلا فى صيف ٨٩٧م (٢٨٤هـ)، حين قام ابن حفصون باسترداد إستجة بصفة مؤقتة إلى حظيرة نفوذه. فخرج جيش بقيادة الأمير عبان والجنرال أحمد بن محمد بن أبى عبده، العائد إلى قرطبة بعد عمليات قام بها فى أراضى لبلة ضد ابن حصيب، الذى أعلن تمرده فى مونتى مور عقب وصوله صوب

جنوب الأندلس. سمحت هذه الحملة البوليسية، التى قادها الأمير عبان حتى ساحل مضيق جبل طارق، بأن تصبح الخزانة العامة مترعة بالأموال، ولكنها لم تحقق النتائج السياسية التى كان يأملها الأمير عبد الله.

وعلى النقيض من ذلك، فقد قام ابن حفصون بمبادرة غير منتظرة جعلته يفقد بعض النقاط. حيث أعلن، فى عام ٨٩٩م (٢٨٦هـ)، ردته مرة أخرى إلى دين آبائه وأجرى مراسم تعميده جنبا إلى جنب مع أفراد عائلته. استبدل اسمه بآخر هو صموائيل، وأما زوجته فقد أصبحت تعرف باسم كولومبا. حرم مثل هذا التحول الصارخ لابن حفصون إلى المسيحية، رغم أنه لقى ترحيبا وحماسا من المستعربين فى أندلوثيًا، الزعيم وأنصاره من المساعدات الصادقة التى مازال المولدّون يقدمونها إليهم، وهم المخلصون بحق للإسلام. وهنا أعلن كثيرون الانقلاب على ابن حفصون، حيث انقلب عليه قائده خوان الملقب بيحيى بن أنا توليو، كما فعل نفس الشئ أو سانتشا بن الحابى، سيد قلعة كانيتى لاريال، بمنطقة تاكرونا. ومجمل القول إن ردة ابن حفصون قد أضرت به أكثر مما نفعته، فبالاضافة إلى كونها تعنى التنكر للإسلام، فقد أصبح يعلم جيدا أنه معرض لضربات قاصمة من جانب قادة الجهاد، الحرب المقدسة ضد الكافرين والتى سيشعلها ضده رجال الدين فى قرطبة. وبالفعل فقد تألب عليه معظم الناس فى مختلف الأرجاء، وفى المغرب كذلك، حيث كانت لعبة «القط والفأر» ماتزال مستمرة بين متمرد ببشتر والأمير الأموى، وهكذا فقد خسر ابن حفصون، المسلم الجديد، الكثير من مكانته. وقام أحد الأتقياء الغيوريين فى ناقور، يدعى عبد الرحمن، بن الأمير الصالحى صالح بتسليح جيش صغير ثم قدم به إلى إسبانيا ليقاتل ابن حفصون، باسم الدين المهان، وإن كان الحظ قد عانده، بعد أن وقع جنوده فى كمين نصبه لهم ابن حفصون، هذا بالإضافة إلى أن صالح نفسه، الذى هرب ووصل إلى مرسية، قد لقى حتفه إلى جانب الجنرال ابن أبى عبده، فى عام ٩١٢م (٣٠٥هـ)، وهى شهادة فى سبيل الله جاء يبحث عنها بعد هذا الجهاد.

إن الموقف الذى اتخذه ابن حفصون بعد تحوله إلى النصرانية يتيح لنا، أكثر من سلوكه السابق، الفرصة لفهم وتقويم طابعه غير المستقر واتجاهاته الانتهازية. فقد رأيناه يطلب المساعدة من كل مكان، ويعمد إلى اتباع سياسة جس النبض مع ألفونسو الثالث، ويحاول تحسين علاقاته مع بنى قسى فى رغون، تحسبا لضربة تم الاتفاق عليها ضد أراضى جيان. كما كتب كذلك إلى الأمير الادريسى بالبصرة وأرثيلا بشمال المغرب، ابراهيم بن القاسم بن ادريس، ليعلمه بأنه يدعو له فى خطبة الجمعة على منابر المساجد على أرض الأندلس الخاضعة لنفوذه(١٣٠). وفى عام ٩٠٠م (٢٨٧هـ)، عرض

التحالف على ابراهيم بن حجاج، وذلك محاولة منه لتسميم الجو وإثارة حنق بن حجاج ضد الأمير عبد الله، الذى أصر على عدم إعادة إبنه إليه بعد أن تحفظ عليه كرهينة فى قرطبة. قبل أمير أشبيلية هذا التحالف، وأرسل إليه أموالا وجيشا، وفى العام التالى، عاد ليوقع معاهدات بين ببشتر وبلاط قرطبة؛ ولايعرف على وجه الدقة من ذا الذى أخذ زمام مبادرة عقد مثل هذه الاتفاقيات، وما أسفرت سوى عن سلام عابر، وقبل ابن حفصون أن يرسل إلى قرطبة أربع رهائن، من بينهم حليفه القديم بن ماستانا، سيد برييجو ولوكي. خرقت هذه الهدنة فى عام ٩٠٢م (٢٨٤٩هـ)، وبعد ذلك بقليل تكبد المتمرد، على الرغم من المجهود الذى قام به سلاح الفرسان الاشبيلى، خسارة فادحة فى أراضى إتيبة على يد القائد الأموى أحمد بن أبى عبده. ونظرا لهذا كله، فقد أمر الزير عبد الله بإعدام جميع الرهائن التى تركها ابن حفصون، باستثناء بن ماستانا، وبعد ذلك أعلن تصالحه مع أمير اشبيليه ابراهيم بن حجاج. وأعاد إليه ابنه عبد الرحمن.

أبانت السنوات العشر الأخيرة لحكم الأمير عبد الله عن أثرها الفعال، رويدا رويدا، فى إضعاف قوة ابن حفصون بطريقة تدريجية، والذى، على الرغم من هذا كله، مايزال هو السيد الذى لاينازع على الأراضى الأندلسية تحت نفوذه، بعد أن أعربت الحكومة فى قرطبة، التى قابلت حتى الآن هجوم ابن حفصون المتكرر بسلبية كبيرة، عن عدائها الصارخ له وأخذت تضيف إلى رصيدها سلسلة من النجاحات البارزة التى رفعت من شأنها فى الوقت الأخير، وهو ماكانت فى حاجة ماسة إليه. ومنذ ذلك الحين أصبحت توفد كل عام حملات موجهة ضد جيان، وبرييجو وريّو (مالقة)، التى كان يقودها، فى بعض الأحيان، الأمير عيان أو أخوه العاصى، يساعدهما الجنرال أحمد بن أبى عبده، أو أحد ابنيه : عيسى والعباس. وفى عام ٩٠٤م (٢٩١هـ)، بداية من مايو وحتى أواخر أغسطس، قام جيش أموى، دون أن يجد فى طريقه أى نوع من المواجهة، بالتجول عبر الأراضى الفاصلة بين مالقة ولَوْشة. وفى عام ٩٠٥م (٢٩٢هـ)، واجهت ابن حفصون محنة كبيرة بالقرب من وادى ألبويون، القريب من جيان، وتكبد خسائر فادحة. وفى عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ) تم استرداد توكتى، مارتوس الحالية(١٣١)، فى نفس الإقليم، من بين براثن المتمرد فهد بن أسد، الذى حمل إلى قرطبة وصلب، بينما تسلق الجنود قلعة كانيتى لاريال، فى أراضى تاكرونا، واستولوا عليها، كما زودت بحامية خاصة. وفى عام ٩٠٧م (٢٩٤هـ)، قامت صائفة أميرية بالتجول، دون أن تلقى أية مقاومة، فى أقاليم الجزائر والريّو. وفى عام ٩٠٨م (٢٩٥هـ) قامت القوات باستعراض أمام ببشتر. وفى عام ٩٠٩م (٢٩٦ـ)، ظهرت القوات الأموية – من جديد أمام حصن

ابن حفصون، واستولت على قلعة لوكى، التابعة لابن ماستانا، الذى عاد لتوه يعلن عن تمرده. وفى عام ٩١٠م (٢٩٧هـ)، استعادت بائنيا مجموعة من قوات الأمير، وتم طرد ابن حفصون إلى منطقة غير بعيدة عن بلدا أنتقيرة، وبعد عدة أشهر حلت به الهزيمة فى أراضى جيان، على الرغم من وجود قوات سعيد بن ماستانا وسعيد بن هديل التى أتت لتعزيزه. وفى عام ٩١١م (٢٩٧-٢٩٨هـ)، مُنى بهزيمة أخرى بجوار نهر وادى إيله. وأخيرا، فى صيف ٩١٢م (٢٩٩هـ)، أصبح عليه أن يتحمل ضغوط قوات الأمير له بالقرب من ببشتر، التى استفادت هى الأخرى أيضا من استرداد إثناخار. وفى السادس عشر من أكتوبر التالى (الأول من ربيع الأول) توفى الأمير عبد الله فى قرطبة وخلفه على العرش حفيده عبد الرحمن الثالث.

ونود أن ننوه إلى أننا لانملك حول هذه السلسلة من العمليات الصغيرة التى جاءت فى صالح الحكومة المركزية سوى روايات موجزة ذكرها المؤرخون الأمويون؛ ولكن يفترض أن أمثال هؤلاء، إذا ماكان لابن حفصون أن يحقق فى أوقات الهدنة بعض الانتصارات الهامة، ماكان لهم أن يلتزموا الصمت تجاهها، ومن هنا يأتى الانطباع بأن ابن حفصون قد خسر، فى السنوات العشر الأخيرة لعهد عبد الله، الامساك بزمام المبادرة فى العمليات الحربية. ولايعنى هذا مطلقا أن الزعيم المولدَى، الذى بدت عليه علامات الشيب، إذ قد تجاوز الخمسين من عمره عند وصول عبد الرحمن الثالث إلى العرش، قد أصبح على وشك أن يلقى سلاحه. بل على العكس من ذلك، لم يعلن تراجعه قط، ودون أن تخمد همته، نظرا للاهتمام البسيط الذى أولاه إياه من قبل أغلبى القيروان وإدريس البصرة، تابع باهتمام بالغ نجاحاته الأولى والتطور السريع لحركة الفاطميين فى وسط المغرب، وحين علم بوقوع إفريقيا غى يد المهدى عبد الله، وأن الشيعى قد دخل رقّادة ونصّب نفسه أميرا للمؤمنين، فى أوائل عام ٩١٠م (٢٩٧هـ)، أسرع ابن حفصون فبعث إليه برساله إذعان وطاعة وأصبح يدعو له من فوق منابر مساجد الأراضى الخاضعة لنفوذه فى الأندلس. إنه، بلاشك، أول من جعل فكرة فتح شبه الجزيرة الأيبيرية سرابا لامعا يلوح أمام أعين سادة أفريقيا. ولهذا، فعندما وضع عبد الرحمن الثالث جل اهتمامه لتصفية عجوز ببشتر المتمرد، أصبح وقد قتل عصفورين بحجر واحد. فمن ناحية، أخرج من بين ضلوع مملكته تلك الشوكة المسممة التى أعملت فيها سمها منذ أمد بعيد، ومن ناحية أخرى، قطع على الفاطميين آمالهم الأولى فى المساعدة التى كان بإمكانهم الحصول عليها داخل الأوساط الاسبانية من أجل صراع السلطة والنفوذ، الذى سوف يبدأونه على جناح السرعة خفية فى بادئ الأمر ثم على مرأى ومسمع من الجميع، فى شمال إفريقية ضد الأمويين.

وضع الثغور في أواخر القرن التاسع :

في الوقت الذي وصل فيه عبد الله إلى العرش كان الوضع يزداد غموضا في الثغور عنه في أشبيلية وألبيرة وجنوب الأندلس. وقد اتبع الأمير طوال فترة حكمه، مع الأحوازالواقعة على حدود أراضيه، سياسة ملتوية، مضمونها ترقب ما سوف تسفر عنه الأحداث؛ والمشاركة في بعض الأحيان في إذكائها وتطورها عن طريق التدخل المناسب؛ والمهادنة، إذا لم يكن هناك من سبيل آخر، أمام الأمر الواقع؛ والسماح لزعماء التمرد باغتصاب بعض ممتلكاته، والإسراع بالاعتراف بأن هؤلاء الزعماء هم من التابعين له، وذلك بهدف تصغيرهم وتحقيرهم أمام المناصرين لهم. بدأت رقعة الدويلات الصغيرة شبه المستقلة، التي تخنق وتلف قرطبة شمالا وغربا - ابتداءً من أشبيليه إلى مرسية، ومرورا ببطليوس وطليطلة وسرقسطة - تأخذ شكل الاتحاد نظرا للطاعة الوهمية لهذه الدويلات، أو بالأحرى، نتيجة نوع من الحماية الأموية، حماية شكلية خالصة. وماكان يهتم به الأمير في المقام الأول، وعلى وجه الخصوص، هو ضرورة منع هذه الاقطاعات، التي يحوزها العرب، والبربر والمولّدين من أن تتوحد ضده، فهو يعلم جيدا أن التآلف المكون من أعدائه سيسفر عن عواقب وخيمة بالنسبة له. وماكان بمقدور أي أمير مسلم في الغرب أن يفهم جيدا، مثلما فعل عبد الله، كنه الحكمة القديمة القائلة : فرّق تسد. ومن ناحية أخرى، فقد كان من السهل، نظرا للأثرة والخصوصية البعيدة لهؤلاء الزعماء، أن يتعاملوا مع الأمير عبد الله معاملة الند للند، لكنهم كانوا يحسدون جيرانهم ويتحسسون نقاط الضعف فيهم مهما تكن بسيطة. وبصرف النظر عن هذا، فإن هؤلاء السادة الزعماء، رغم تطلعهم إلى الاستقلال، يعتبرون بمثابة السواعد القيمة للإمارة، وذلك من ناحية حمايتهم للحدود، كما أنهم كانوا يستنزفون عند قيامهم بالجهاد ضد المسيحية في شمال إسبانيا، وكذلك باعتبارهم نوعا من الظلة التي بدأت تغطي الأراضي الأسبانية، التي مزقتها الحروب الأهلية، وحالت بينها وبين هموم التهديدات بالعدوان المباشر من جانب مملكة أشتوريش، ونظرا لما كان يتمتع به من روح هجومية، أيقظته الحساسية المرهفة، والرغبة في الاثراء بأقل مجهود عن طريق الغارات الهوجاء، فإن ألفونسو الثاني، الذي أبدى شجاعة وفاعلية في عهد محمد الأول، لم يقم، كما يبدو، بشن أي هجوم حقيقي ومهم على أراضي إسبانيا الإسلامية.

وفي أواخر القرن التاسع توافد على تلك الاقاليم الحدودية، التي تعج بالبربر خاصة، عدد كبير من رجال الصوفية، في محاولة منهم لتسريب معتقداتهم إلى

الجماعات الإسلامية التى سرعان ماتذعن للمعتقدات. فى الوقت الذى أصبحت الأرجاء المختلفة للعالم الإسلامى تشهد تفجرا للنزعة الروحية. وقد بدأت آراء المعتزلة الداعية إلى استخدام العقل والإيمان بحرية الاختيار، فى الدخول إلى الأندلس، قادمة من الشرق على أيدى الرحالة الرافضين لفكرة التحجر الفكرى لعلماء الدين على أرض الأندلس. وفى عهد الأمير عبد الله وخلفه ظهر الفيلسوف الإسبانى ابن مَسَرّة، الذى سنعود للحديث عنه، فبدأ يعرض نظريته الميتافيزيقية على تلاميذه فى المصلى الصغير الكائن بسلسلة جبال قرطبة، والتى استوحاها من الجانب الآخر للبحر المتوسط، ومن غيره. وإلى جانب هؤلاء المتصوفة الذين عاشوا حياة تتسم بالزهد والورع والاهتمام بالدراسة فى مكان بعيد عن الناس، لايبغون من وراء ذلك نفعا دنيويا، نجد صنفا آخر لايحظى بأى قدر من الثقافة، يحلو له الظهور فى ثياب المصلحين الملهمين، ويمارس الأسلوب الاسلامى المتسم بنقد العادات وذمها (نفس الطريقة التى سيمارسها فيما بعد المهدى بن تومرت فى مراكش، عند قيامه بنشر طريقة الموحدين). ماكان المغامرون من هذا الصنف من الناس يتمتعون بقدر عال من الصراحة؛ ولكنهم – سواء الجاد منهم والمحتال–، سرعان ماكانوا يتحولون إلى أعداء للنظام الذى يشير إليهم بأصابع الاتهام وقليلا ماكان يغفر لهم التدخل فى النظام المعمول به.

وقبل موت الأمير عبد الله ببضع سنوات، نجد أحد هؤلاء الأشخاص قد تورط فى حكايه شديدة الغرابة، جرت أحداثها فوق الحدود بين إسبانيا النصرانية والاسلامية، إنها حكاية تجمع وجه شبه كبير بحكاية المتمرد الفاطمى عبد الله الشيعى، مما يجعلنا نتذكرها جيدا، حيث قام صاحبها بنشر المذهب الاسماعيلى فى شمال إفريقية بين سكان جبال كتامة فى كبيلا الصغرى. كان المتصوف الأندلسى يدعى أبو على السرّاج[١٣٢]، مكنته حجته بالدعوة إلى الجهاد من فتح الطريق أمامه حتى يجوب آفاق البلاد، فأضفى على نفسه هيئة صاحب الكرامات؛ فارتدى الصوف، ولبس نعالا صنعها من الحلفاء وركب الحمار، وهى الطريقة نفسها التى إتبعها المتمرد المناهض للفاطميين أبو اليزيد أثناء جولته بجبال أورس وافريقية، واشتهر باسم «صاحب الحمار». وعلى الرغم من أن السرّاج كان يقدم نفسه كمصلح دينى، فقد كرس جهوده فى همة ونشاط لابرام مشروع التحالف بين بنى قسيّ فى رغون وعمر ابن حفصون فى عام ٨٩٨م (٢٨٥هـ)؛ ورغم كل ماحدث بين تطيلة وببشتر، فقد ظل المشروع معلقا فى الهواء. وبعد ثلاث سنوات تمكن السرّاج من أن يقنع شخصا من قريش يعيش فى قرطبة، يدعى أحمد بن معاوية، ويلقب بابن القط[١٣٣] يتصل نسبه مباشرة بأمير الأندلس هشام الأول، وقدم نفسه على أنه منجم يتمتع بخبرة واسعة–، حتى يكون على

رأس حركة دينية وسياسية فى نفس الوقت، مناهضة للأمير الحاكم. بدأ الاثنان جولتهما بين البربر القاطنين شمال قرطبة، وفى منطقة فحص البلوط وسلسلة جبال البرانس. وأدى الترحيب الذى استقبلا به والحماس الزائد إلى دفعهما للذهاب أبعد مما انتوياه؛ جندا مريدين جددا، وبهذا تمكن أناس آخرون من البربر من الوصول إلى أرض قبيلة نفذة، كانوا يسكنون فى الوادى الأعلى لنهر «وادى أنة»، فى أعالى مياه ماردة.

وهناك عرض المشهد الكلاسيكى للمهدى، الذى بدأ فى الظهور بإعلان من جانب الرجل القائم على أمر الدعاية له: لعب ابن القط دور المهدى أما السرّاج فقد قام بدور الداعى له. وهنا بدأ المهدى الجديد بدعوة البربر القائمين على الحدود، عبر نداءات متكررة، يدعوهم فيها للجهاد. لاقت هذه النداءات ترحيبا أكبر، عندما بدأ المهدى يفصح عن عزمه على طرد المسيحيين من سمّورة؛ المدينة التى أعاد بناءها ألفونسو الثالث عام ٤٩٣م (٢٨٠هـ)، والتى كانت مزودة بحامية قوية، خرجت منها حملات متواصلة ضد المناطق الاسلامية عانى البربر منها كثيرا. بدأت الجموع الغفيرة تتجمع كل يوم من أجل الجهاد، حتى بلغت فى فترة وجيزة مايقرب من ٦٠ر٠٠٠ متطوع. عبر ابن القط، مع هذا الحشد من الناس الذين اتبعوه على غير بصيرة، نهر تاجه متوجها صوب نهر الدويرة، فى الوقت الذى انضم إليه مسلمون آخرون وفدوا من طليطلة وطلبيرة ووادى الحجارة وشنت بَرِيّة. وبدأ الناس يتزاحمون أملا فى رؤية ألعاب الشعوذة التى كان المهدى الجديد يؤديها أمام جموع مريديه. فنراه، على سبيل المثال، يحمل فى قبضة يده حزمة من الأعواد الجافة، يضغط عليها بشدة، فيرشح منها الماء. وبهذا العمل لم يعد هناك من حاجة إلى شئ آخر يبرر به مهمته كرجل كرامات خارق للعادة. والأدهى من ذلك، أنه قد صرح لهم بأن أسوار سمّورة سوف تنهار دون فاعل بمجرد وصوله. وهنا بدأ الداعى السرّاج يتلاشى فى تعقل. وبعد ذلك بلغت مسيرة ابن القط إلى منطقة النفوذ المسيحية، فأرسل إلى ألفونسو الثالث رسالة شديدة اللهجة، يدعوه فيها ومن معه الدخول فى الإسلام، وذلك تجنبا لإبادتهم. وهنا خرج ألفونسو الثالث، يكاد يتميز من الغيظ بجرأة الهرطقى الملهم، إلى الشاطئ الأيمن لنهر الدويرة لمهاجمته. وفى المعركة التى دارت بينهما، كانت الإنتصارات الأولى فى صالح المهدى الكذاب؛ واضطرت الجيوش المسيحية للانسحاب صوب الشمال، وحاصرت القوات المسلمة سمّورة. ولكن، بعد هذا النجاح الأولى، ملأ الحقد قلب زعيم بربر نفذة زوأل بن يعيش بن فورانيك(١٣٤)، الذى دخل ضمن تشكيلات الجيش المسلم المضطلع بالجهاد، فتخلى عن ابن القط، ورحل بكل من معه. وأدى هروبه إلى سلسلة من عمليات الفرار

من الميدان. وما أن علم ألفونسو الثالث بأن عمليات الهروب تزداد شيئا فشيئا، حتى عاد بفرقة، وبعد ثلاثة أيام من المعارك المجهولة، أقدم المهدى بن القط، بعد أن تخلى عنه مريدوه، على التضحية بنفسه، فألقى بها فى وجه الأعداء حتى لقى حتفه، فى العاشر من يوليو عام ٩٠١م (٢٠ رجب ٢٨٨هـ). وظل رأسه معلقا مدة طويلة فوق أحد أبواب سمّورة(١٣٥). تعد هذه المغامرة التى جمعت بين الجد والهزل حلقة غير ذات قيمة، أو تأثير فى كتب التاريخ التى ألفت فى الثغرين الأدنى والأوسط من أسبانيا الاسلامية، فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر.

وفى بطليوس نجد السيد المولّدى عبد الرحمن بن مروان الجليقى، الذى حصل على استقلاله بقوة السلاح فى عهد محمد الأول، قد احتفظ بما حصل عليه خلال العامين الأولين لفترة حكم المنذر أيضا. وحين وصل عبد الله إلى الحكم، اعترف بن الجليقى بسيادته، فهو الذى جدد له عهد والده الممنوح من قبل بالتمتع ببعض الامتيازات الخاصة. ولكن تبعيته للأمير لم تمنعه فى العام التالى، من القيام بتلبية نداء كريب بن خلدون، وأن يخرج، كما أشرنا من قبل، لنهب قوى الأشراف، فى المناطق التابعة لأشبيلية. وفيما يبدو، وافته المنية بعد بضعة أشهر فى ظروف لانعلم حقيقتها. وكل مانعرفه هو أنه اضطر فى أواخر حياته للدخول فى صراع مع أحد المتمردين من البربر، ابن طاقت، فأمكنه أن ينتزع منه اقليم ماردة. أدى اختفاء عبد الرحمن بن مروان الجليقى من الساحة إلى إيجاد جو مناسب لقيام دويلات صغيرة على أرض الجانب الغربى، وباجة وسنتا ماريا، على يد اثنين من قواده هما : عبد الملك بن أبى الجواد وبكر بن يحيى بن بكر. وفى بطليوس نفسها، التى تحولت، على يد عبد الرحمن إلى مدينة جميلة، تزدان بالقصور والحدائق، لحق به ابنه مروان، فلم يمهله الموت سوى شهرين بعد وفاة أبيه، وحكم المدينة أحد أحفاد عبد الرحمن بن مروان، يدعى عبد الله، الذى توفى عام ٩٢٣م (٣١١هـ)، وتولى الحكم بدلا منه ابنه عبد الرحمن. وبالنسبة لحفيد عبد الرحمن الجليقى هذا فلن نسمع به أو نراه على مسرح الأحداث حتى عام ٩٢٩م (٣١٧هـ)، والذى سيجبره فيه عبد الرحمن الثالث على الخضوع له نهائيا ثم يحمله معه إلى قرطبة(١٣٦).

ولايوجد بين أيدينا أخبار كثيره حول الوضع فى طليطلة والثغر الأوسط فيما بين مجيئ المنذر إلى الحكم وموت عبد الله. ويبدو من خلال فحصنا للنصوص البسيطة والقليلة التى يوردها كل من ابن حيان وابن عذارى فى كتابيهما اللذين يتحدثان عن العاصمة القوطية القديمة، أنها ظلت تماما طوال هذه الفترة خارجة عن سلطان

الأمويين. كان مصيرها يرتبط في البدايه بمصير اقليم سنتابير، الذي سيطر عليه بربري من قبيلة هوارة، يدعى موسى بن ذي النون(١٣٧). أقام ابن ذي النون، الذي أعلن تمرده هو الآخر على الامارة، علاقات مع متمرد طليطلة، لوبي بن طربيشة، وقررا سويا الاستيلاء على مدينة نهر التاجه. جمع بن ذي النون جيشا قوامه ٢٠٠٠٠ من البربر في شنت بريّة، وهاجم طليطلة في ١٨ فبراير عام ٨٨٨م (١ شوال ٢٧٤هـ)، فسحق المدافعين عنها. ظل موسى بن ذي النون صاحب المدينة عدة سنوات، وبعد ذلك ملك زمام أمورها أحد أفراد عائلة بني قسيّ الأراجونية. في أوائل ٩٧م (ذو الحجة ٢٨٣هـ)، أصبح محمد بن لوبي بن موسى صاحب المدينة. وفي العام التالي، حشد ابنه لوبي عددا كبيرا من القوات داخلها حتى يتمكن من مهاجمة المولدّي بن الشاليّة(١٣٨) في قلعته المعروفة باسم كاتلونة، بالقرب من لينارس وفي أواخر ٩٠٣م (٢٩٠هـ)، أرسل أهالي طليطلة وفدا إلى لوبي نفسه ليعرض عليه خضوع المدينة، والتي نراها، في فترة الهدنة، قد خرجت من تحت نفوذه. وهنا فوض لوبي الأمر إلى أخيه المطرف، الملقب «بالملك»، ولكنه خسر عرشه على يد عمه الثاني محمد بن اسماعيل بن موسى، الذي اغتاله أهالي طليطلة عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ). وهنا أصبح لوبي بن طرابيشة صاحبا لطليطلة – فقد كان يشغل منصب القيادة من قبل لموسى بن ذي النون–، ومازال يحتل نفس المنصب حتى السنوات الأولى لعهد عبد الرحمن الثالث. ومن خلال نص بسيط للمؤرخ المسيحي سامبيرو نعلم أنه، في أواخر حياته، استدعى ألفونسو الثالث من قبل أهالي طليطلة، فدفعوا له الجزية، وعند عودته استولى على قلعة يطلق عليها سامبيرو اسم كينيتا لوبيل؛ وماكان هذا التقدم من جانب العاهل الأشتوريشي نحو وادي التاجه سوى رحلة خاطفة لم تتمخض عن نتائج تذكر(١٣٩).

وفي الشرق، في المناطق المجاورة للثغر الأعلى، وعند وفاة موسى بن ذي النون في ٩٠٨م (٢٨٥هـ) اقتسم أبناؤه الثلاثة تركته. فاختص ابنه الأكبر، يحيى، بأويلامو، أما الآخران، الفتح Al Fath والمطرف فقد استأثرا بأوكلس وأوديتي على الترتيب. وفي هذه القلاع الثلاث، الواقعة باقليم قوينقة الحالية، استمر الأخوة جميعهم حتى بعد موت الأمير عبد الله.

كانت منطقة الثغر الأعلى في تلك الفترة مسرحا لصراع النفوذ، صراع معقد ومتبادل بين التوجيبيين خلفاء موسى بن موسى بن قسيّ وبين شخصية جديدة عرفت باسم محمد الطويل، الذي تورط بدوره في نزاع داخل أقاليم وَشْقة ولاردة.

وقد أوضحنا أن محمد الأول استطاع أن يرسم سياسة يواجه بها قدر الامكان الأنشطة المختلفة المعادية للأمويين، والمنتشرة في أرجاء أراجون بزعامة محمد بن

لوبى، حفيد موسى بن موسى بن قسيٍّ، حيث جعل فى مواجهته عبد الرحمن بن عبد العزيز التوجيبى، السيد العربى على قلعة أيوب وداروكا؛ كما أن سرقسطة، بمجرد أن بيعت فى عام ٨٨٤م (٢٧١هـ)، عادت إلى سلطة العاهل القرطبى. وبعد ذلك بقليل، فى يناير ٨٩٠ (رمضان ٢٧٦هـ)، قام بن عبد الرحمن التوجيبى، أبو يحيى محمد، الملقب بالأنقر (الأعور)، باغتيال حاكم سرقسطة، أحمد البراء بن مالك القرشى، وذلك بإيعاذ من الأمير عبد الله، حيث لم يكن يثق به مطلقا. وعقب تنفيذ الاغتيال، تولى الأنقر أمر سرقسطة، ولم يجد عبد الله أمير قرطبة أمامه من سبيل سوى قبول مثل هذه الأمور، راضيا بذلك الوعد البسيط بالخضوع من جانب التوجيبى. وأدى هذا الانقلاب من جانب الأنقر إلى إذكاء روح الكراهية ضده وخاصة من قبل محمد بن لوبى، الذى خرج عدة مرات، دون نجاح، ليحاصر عاصمة الثغر الأعلى، وانتهى به الأمر إلى أن لقى حتفه أمام أسوارها عام ٨٩٨م (٢٨٥هـ). استمر الأنقر على وضعه فى سرقسطة حتى وفاته فى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ)، بعد أن أقره عبد الرحمن الثالث على الامتيازات التى كان يتمتع بها. وقد قدم التوجيبى، فى الواقع، خدمات جليلة للأسرة الحاكمة، سائرا دون ماهوادة فى حربه لبنى قسيٍّ، الذين سلبهم أقاليم كثيرة منها إيخيا دى لوس كاباَيروس، عام ٩٠٨م (٢٩٥هـ)، على مسافة ٦٠ كيلومترا شمال شرق سرقسطة، الموقع الاستراتيجى الهام الذى انتزعه محمد بن لوبى من القائد الأموى محمد بن توملس، قبل قليل من بلوغ عبد الله العرش.

أما بالنسبة لبنى قسيٍّ، فقد بدأ نشاطهم يخبو منذ موت محمد بن لوبى. ولم يتمكن خلفاء موسى بن موسى، وهم كثر، من توفير جو الوفاق بينهم، كما أدت المناقشات إلى انهيار قوتهم. كان الناجى الوحيد من بينهم هو لوبى بن محمد، الذى ظل يحتفظ من بين كل أفراد الأسرة بحماسه للحرب وشجاعته. وما إن تولى الأمر مكان والده حتى بدأ يتبع سياسة جس النبض مع قرطبة فحصل على موافقة الأمير على ولايته للاقطاعية التى ورثها عن أبيه مثل تطيلة وطرسونة؛ وما أثناه ذلك عن الخروج لمهاجمة سرقسطة عدة مرات؛ ولكنه لم يتمكن، كما حدث مع والده، من أن يطرد الأنقر منها. وحين ترك لأخيه المطرف منطقة نفوذه التابعة لطليطلة وجه جيوشه ضد ألبة وثغر الفرنجة وجبل البشكنس. وفى صيف ٩٠٤م (٢٩١هـ) انتزع من ألفونسو الثالث قلعة بانيوس، فى اقليم ريوخا، وطلب من العاهل الأشتوريشى وقف حصار جرانيون. وبعد ذلك، بدى بكل تأكيد أنه كان على علاقة بملك أوبييدو فى ظل ظروف لايمكن لنا أن نوضحها.

أما في سبتمانيا القديمة فقد تغير الوضع كثيرا منذ ثلاثين عاما. ففي عام ٨٦٥، كما رأينا، كانت هذه المنطقة مقسمة إلى اقليمين مختلفين : لاجوتيا، في الشمال، والثغر الاسباني، في الجنوب. كانت هذه المنطقة الأخيرة، التي يربطها ببقية الامبراطورية الافرنجية رباط هش، من نصيب ويفريندو ذي الشعر الكثيف، الذي سيؤسس أسرة «الكونتات المركزيين» في برشلونة. وفيما يتعلق بأصول هذه الأسرة – الواقعة تحت مرآة النقد منذ قرن مثلما حدث بالنسبة للمراحل الأولى لمملكة نبّرة – فمازالت حتى الآن غامضة لم يكشف الستار عنها. ومع هذا، فإن المؤرخين المحدثين الذين حاولوا الكشف عنها ماكانوا يأخذون في حساباتهم نصا أساسيا للمؤرخ عيسى الرازي ذكره بن حيان في رسالته عن فترة حكم عبد الله، والذي يشير إلى ويفريدو بالتحديد[١٤٢]. وتبعا للتراث المقبول في الغالب، فقد حكم هذا الكونت، الملقب في اللغة الكتلانية بـ «جيفري البيلوسي»، برشلونة، حيث حررها من الوصاية الشارلمانية، منذ عام ٨٦٥ وحتى ٨٩٨، وخلفه في أول الأمر أخوه ويفريدو الثاني، والياس بوريل الأول، الذي توفي في السادس والعشرين من أبريل عام ٩١٤م، وبعد ذلك خلفه ابنه الأكبر سونيير، الذي أصبح الكونت الأكبر حتى ١٥ أكتوبر عام ٩٥٤م. والآن. وحسب ماتذكره رواية المؤرخ المسلم – الذي يبدو أنه خبر مايقول : هذا – كما يذكر النص الذي أورده الرازي – قام في ٢٨٤هـ بحملة على قلعة أورا (في أراضي برشلونة)، وبعد أن استولى عليها وحرمها، واجه ويفريدو، فهزمه وسدد إليه ضربة رمح مات على أثرها الكونت بعد أيام قليلة[١٤٣].

وبعد هذا النجاح الذي حققه لوبي بن محمد بن لوبي على فرنجة قطللونية، والهجوم الذي شنه تباعا ضد الأراضي الخاضعة للكونت بيّارس، انقلب على البشكنس، الذين حاولوا اغتصاب أملاكه في وادي الابرو. ومنذ زمن قريب، كان لوبي بن محمد يرى نفسه غير مضطر نتيجة لروابط أسرية لأن يتخذ موقف صداقة تجاه ملوك بنبلونة. وقد أخلى سبيل فورتون جارثيس، السجين القديم بمدينة قرطبة والجد الأكبر لعبد الرحمن الثالث من جهة أمه، والذي خلف والده جارثيا إنيجيث في تاريخ لانعلمه، على عرشه في ٩٠٥م، على يد أحد أفراد الامارة يدعى سانتشو جارثيس الأول، وانسحب بعد ذلك لينهي أيامه في الأديرة.

وماكان لسانتشو هذا[١٤٤]، الذي أنقذ تاريخ نابارًا من الظلام الذي أحاط به، أن يموت حتى عام ٩٢٦، بعد أن حكم لفترة طويلة، لاتخضع عند التأريخ لها لنفس حالات الريبة التي تتسم بها الفترات الأخرى. وبعد فترة وجيزة من بلوغ المغتصب

الباسكى السلطة، قام لوبى بن محمد بن لوبى بالهجوم على بنبلونة، يبدو أنه كان بإيعاذ من الممثلين القدماء للبيت الحاكم، ثم ذهب ليضرب أطنابه ويحصن نفسه بالقرب من العاصمة، فى محلة تنتمى تقريبا إلى أرياثا الحالية. وقد قام سانتشو جاريثس بتدبير عدة مكائد له، جاءت إحداها مميتة للوبى، فوقع على أثرها جريحا يعانى الموت فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ٩٠٧م (١٧ ذى الحجة ٢٩٤هـ)، وماكان عمره يزيد على الثامنة والثلاثين عاما. قام أخوه عبد الله، الذى خلفه، بمواصلة الكفاح ضد أهالى نبرّة، وأوقع بسانتشو جارثيس الأول هزيمة كبيرة فى صيف ٩١١م (٢٩٨هـ). وظل على مدى خمسة أعوام يمسك بزمام الأمور فى إمارةِ تطيلة، ومات مرابطا عام ٩١٥-٩١٦م (٣٠٣هـ). فى أوائل عهد عبد الرحمن الثالث.

وقبل ذلك بعامين توفى محمد الطويل، الرجل الثاني الذى تزعم الصراع ضد المسيحيين فى شمال شرق شبه الجزيرة. لقب بالطويل نظرا لطوله الفارع. أما اسمه الحقيقى فهو محمد بن عبد الملك بن شبريط، كان حفيدا لهذا الأمير، شبريط، بن عم الشهير عمروس «صاحب عملية الخندق» الذى أوكل إليه، فى بدايات القرن التاسع، حكومة وشُقة(١٤٥). ورث محمد الطويل سيادة أويسكا وأعرب عن عدائه لبنى قسيّ منذ عامِ ٨٨٩م (٢٧٦هـ)، واستولى على لاردة، احدى ممتلكاتهم. كانت هذه المدينة تكوّن جزءً من ولاية باربيتانيا آنذاك(١٤٦). كما كانت إقطاعية للسقيم اسماعيل بن موسى بن موسى. وإلى جانب هذا، وجب على محمد الطويل أن يتخلى عن ملكيته لهذه الولاية لمحمد بن لوبى نتيجة حكم أقره الأمير عبد الله. نشبت معركة جديدة بعد قليل بين سيد وشْقة ولوبى بن محمد بن لوبى، حيث كان هذا الأخير يرغب فى تأسيس قلعة مونثون عام ٨٩٦م (٢٨٣هـ) على ضفاف الثينكا، ويترك حامية بها، مما استدعى معارضة الطويل؛ غير أنه هُزِم ووقع ابنه فورتون فى الأسر. وبعد أن توفى لوبى، بعد أحد عشر عاما، غدا ذلك بالنسبة لمحمد الطويل إشارة لبدء الهجوم على باربتيانيا، وفى ٩٠٧-٩٠٨م (٢٩٤-٢٩٥هـ)، فرض سيادته على مدن ببشتر والقصير ومنتون ولاردة. ومنذ ذلك الحين تمكن من أن يكرس نشاطه الحربى خلال أربع سنوات متتاليه، منذ ٩٠٨ وحتى ٩١١م (٢٩٦-٢٩٩هـ)، للكفاح ضد نبرّة، وخاصة، ضد الفرنجة فى الثغر القديم. بدأ بمقاطعة بيارّس، حيث حطم قلاع رودا، فى وادى نهر إيسانبيا، ومونتى بدروسو، وأوليولا، وجوالثير، وألجوايرى، فى وادى نهر السرجى. وبعد ذلك، وقت أن كان حليفا لبعض الوقت لعبد الله بن محمد بن لوبى، انقلب على مملكة نبرّة. وفى مايو عام ٩١١م (رمضان ٢٩٨هـ)، حرق قلعة فى جنوب شرق بنبلونة بالإضافة إلى العديد من الكنائس؛ ولكن، نتيجة ضغط من جانب سانتشو جارثيس الأول، وجد نفسه

مضطرا إلى الانسحاب، تاركا حامية تيركاستيو، رويستا الحالية، على نهر أراجون(١٤٧). وفى العام التالى ألحق الهزيمة بالكونت سونيير، حاكم برشلونة، بعد أن نهب وخرب بسائط تارّجا، التى يجرى على أرضها نهر الثيريرا. لقى حتفه عام ٩١٣م (٣٠١هـ)، أثناء هجوم جديد على قطلونية. وتعرف من خلال المخطوط الذى تركه «ميلا» أن محمد الطويل كان متزوجا من سانتشا ابنه الكونت أثنار الثانى، وأنه أنجب أربعة من الأولاد: عمروس وفورتون وموسى وعبد الملك، وابنة واحدة تسمى بيلاسكيتا.

وحتى ننهى حديثنا هذا، الذى اعترض موضوعنا، رغم أنه ضرورى، عن الأحداث التى وقعت فى ثغور الأندلس خلال عهد الأمير عبد الله، يتبقى لنا أن نشير إلى أنه فى عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ)(١٤٨)، استرد المسلمون جزر البليار. ومن المدهش أن ابن حيان لم يذكر شيئا عن ذلك. أما ابن خلدون فهو الوحيد الذى قدم لنا بعض التفاصيل، إذا ما استبعدنا الاشارة الموجزة التى يذكرها الجغرافى البكرى(١٤٩)، الذى يؤكد تاريخ الواقعة ويجعلنا، بهذا، على ثقة منها. لقد رأينا أنه فى عام ٨٤٨-٨٤٩م (٢٨٤هـ) فى عهد عبد الرحمن الثانى، قد وقع تمرد من جانب جزر ميورقة ومينورقة، وأن أسطولا مكونا من ٣٠٠ سفينة قد خرج إليهما ليعيد فرض النظام على أراضيهما(١٥٠). ومما لاشك فيه، فإن هاتين الجزيرتين، قد نفضتا، منذ ذلك الحين، نير الحكم الإسلامى عنهما. لكن، تبعا لما يذكره ابن خلدون، فقد حدث أن أندلسيا يدعى عصام الخولانى، الذى ركب البحر فى طريقة إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج، قد وجد نفسه مضطرا بسبب عاصفة ألمت به للبحث عن ملاذ فى ميورقة، والبقاء فيها عدة أيام قبل أن يركب البحر مرة أخرى. وحين عودته من الشرق، قص حكايته على الأمير عبد الله وأشار عليه بمدى سهولة الاستيلاء على منطقة البليار هذه من جانب القوات المسلمة. وعلى ضوء هذا، رحلت مجموعة من السفن، وعلى متنها كثير من المتطوعين للجهاد، تجاه مايوركا، بقيادة عصام الخولانى نفسه، الذى افتتح فعلا، الجزيرة دون ماصعوبة تذكر. وقد عهد الحكم إلى رئيس الحملة، الذى توفى بعد عشرة أعوام من ولايته، بعد أن أقام العديد من المساجد وأسواق الغلال والحمامات العامة. وتولى الحكم بعده ابنه عبد الله الذى قرر، بعد أن ثبته عبد الرحمن الثالث فى منصبه، الذهاب إلى المشرق، حيث أنهى أيامه فى عزلة صوفية.

كانت تلك هى الأحداث الرئيسية التى شهدتها الفترة التى دام فيها حكم الأمير عبد الله، والتى اتسمت بالاضطرابات الدائمة، التى أقضت مضجع سادس خلفاء عبد الرحمن الداخل. كان كهلا حينما وافته المنية بقرطبة، ليلة الخامس عشر والسادس

عشر من أكتوبر عام ٩١٢م (١ ربيع الأول عام ٣٠٠هـ)، تاركا العرش، ومازال يهتز، إلى حفيده أبو المطرف عبد الرحمن. وتم تنصيب الأمير الشاب على الفور طبقا لرغبة العاهل المتوفى. وقام أعمامه وأخواله[١٥١] فى زى حدادهم الأبيض[١٥٢]، بتقديم يمين الولاء له. وهكذا بدأت فترة حكم جديدة : فترة حكم الخليفة الأول لقرطبة. وبعده بدأ القرن الرابع الهجرى، فكان عهدا من أعظم العهود وأخصبها فى تاريخ إسبانيا الإسلامية.

هوامش الفصل الرابع :

١) المصادر العربية : أخبار مجموعة، النص، صفحات ١٤١-١٥٠؛ وصفحات الترجمة ١٢٤-١٣١؛ ابن القوطية، افتتاح، النص، صفحات ٧٠-١٠٢؛ الترجمة الإسبانية صفحات ٥٦ - ٨٧ (فاجنان، صفحات ٢١٥-٢٤٢)؛ ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص، صفحات ١٦-١٢٣؛ الترجمة، صفحات ١٥٢-١٩٨؛ إبن الأثير، الحوليات، صفحات ٢٣٠-٢٦٣؛ النويري، تاريخ إسبانيا، النص، الصفحات ٢٠٥-٢١١؛ الترجمة الإسبانية؛ صفحات ٢٤-٢٩؛ إبن الأبّار، الحلّة، صفحات ٦٤-٦٥؛ إبن الخطيب، الأعمال، صفحات ٨-٢٢؛ إبن خلدون، العبر، الجزء الرابع، صفحات ١٣٠-١٣٢؛ المقرى، الجزء الأول، صفحات ٢٢٥ - ٢٢٦.

مراجع : دوزى، تاريخ إسبانيا الإسلامية، الجزء الأول، صفحات ٢٤٦-٢٦٢؛ والجزء الثاني، صفحات ١-٢٠؛ سيموني، تاريخ المستعربين، صفحات ٤٤٣ - ٥٢٥.

٢) ولد في مارس- أبريل من عام ٨٢٣ (ذو القعدة، ٢٠٧) وكان في الثلاثين من عمره حين بلغ سدة الحكم. ماتت أمه بوهاير بعد ميلاده بقليل، كانت أم ولد لعبد الرحمن الثاني، والتى أرضعته في نفس الوقت مع ابنها المطرف.

٣) تاريخ إسبانيا الإسلامية، الجزء الأول، صفحة ٢٥٢.

٤) تم العثور على الجزء الخاص من المقتبس لابن حيان والذى يأتى تاليا للجزء الذى يتحدث عن فترتى حكم الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني في فاس مؤخرا؛ ولكنه لسوء الحظ، وجد تالفا بفعل الحشرات، بحيث أصبح من الصعب الحصول على أية معلومات مفيدة.

٥) المرجع المذكور، صفحة ١٥٩.

٦) انظر إبن عذارى، البيان، النص، صفحة ١١١؛ الترجمة، صفحة ١٧٨.

نفس التفاصيل توجد في ابن الخطيب، الأعمال، صفحة ٢٤.

٧) نفس المرجع ص ١٦٠ والمرجع المذكور في رقم (٦٠). بالنسبة للأمراء المدراريين لتشيلماسيا المعاصرين لمحمد الأول هم : أبو مالك المنتصر، والذى نازعه السلطة ابناه، مأمون بن تقية وميمون ابن الرستمية؛ وفيما بعد أتى محمد، بن ميمون بن تقية، وأخيرا، اليسع، ابن المنتصر.

٨) عن طريق الجغرافي اليعقوبي، نعلم أن الرستميين كانوا يتمتعون بممر أو بمدخل على البحر وميناء، مرسى فروج، والذى يعين الإدريسى مكانه في شرق موستاجانم، الأمر الذى يصعب مهمة التعرف عليه.

٩) المرجع المذكور، ص ١٦٠.

١٠) البيان، الجزء الثاني، المرجع المذكور؛ إبن الخطيب، الأعلام، صفحة ٢٥. لقد أصبح إسم كارلوس الأصلع يعرف بواسطة النُساخ «بفرنانده»؛ ولكن من السهل أن نفسر بكل دقة سلسلة التشوهات الخطية التى أدت إلى أن تحل محل الخط العربي «لكارلوس» فتخلطه باسم آخر جرت العادة على معرفته بالنسبة

للمسلمين الإسبان – نفس الكتب تضيف، بالنسبة لكارلوس الأصلع، بأنه كان «الرجل الذى أمر بصناعة تمثال للمسيح، يزن ثلاثمائة رطل، من الذهب الرقيق، مرصع بالياقوت والزمرد، مقام فوق قاعدة من الذهب الخالص أيضا مرصعة بنفس الأحجار الكريمة، وحين فرغ من إقامة التمثال، سجد أمامه، أمراً كل سكان البلد بفعل ماقام هو بعمله، وبعد ذلك تم إهداء التمثال إلى رئيس الكنيسة الذهبية، فى روما».

١١) حول الهدنة الموقعة عام ٨٤٧ بين كارلوس الأصلع وعبد الرحمن الثانى، أنظر المرجع المذكور، ص ٢٦٦ ومايليها، وص ٥٩.

١٢) لاشئ يمنعنا حتى من تأريخ هذا الاتفاق فى يوليو ٨٦٤.

١٣) ابن حزم، طوق الحمامة، صفحة ٦، يشير إلى أن الأمير محمد كان مغرما بمحظيته غزلان، التى أنجبت له ثلاثة أبناء : عثمان والقاسم والمطرف.

١٤) انظر ليڤى بروفنسال : إسبانيا الإسلامية، القرن العاشر، صفحات ٢١٣-٤؛ أنظر أيضا نفس النص بالعربية، العدد ١، صفحات ١، ٢.

١٥) تحت إمارة الأمير محمد الأول، فى ديسمبر عام ٨٦٤ (ذو القعدة، ٢٥٠)، أسس وتمت أعمال توسعة المسجد الكبير فى البيرة، تحت إدارة المحافظ عبد الله بن عبد الله. بالنسبة لنص الاكتتاب التذكارى، الذى ضاع، قد حفظ لنا عن طريق ابن الخطيب : أنظر ليڤى بروفنسال : الوصف العربى لإسبانيا، عدد ١٥٨، صفحة ٤٤. ومن ناحية أخرى، وطبقا لما يذكره ابن الفرضى فى التأريخ، عدد ١٥، فإن المسجد الكبير بملقه قد تأسس فى نفس الفترة بأموال تم إرسالها من قبل أمير قرطبة.

١٦) بعد ذلك فى (صفحات ٢٠٢-٢٠٤ و ٢٠٧) سوف نرى نوع النشاط الذى قامت به البحرية الأموية ضد النورمان وجليقية، تحت إمرة محمد الأول. ولنشر أيضا من الآن إلى أنه فى نهايات نفس فترة الحكم بدأت تزدهر الاتحادات البحرية فى بيتشينيا وألميرية، والتى سوف نتحدث عنها فى الجزء الثالث من هذا الفصل (صفحات ٢٢٢– ٢٢٨).

١٧) انظر ابن عذارى، الجزء الثانى، ص ٢، والترجمة صفحات ١٧٨ – ١٧٩.

١٨) انظر ليڤى بروفنسال : إسبانيا الإسلامية، ١٠، ص ١٠١، ١١٠.

١٩) المرجع المذكور، ص ١٠٠.

٢٠) حول هذه الشخصية، انظر، بالإضافة إلى الحوليات التاريخية، الضبى البقية، عدد ١٤٢٣؛ إبن الأبار، الحلّة، صفحات ٧٣-٧٦.

٢١) ابن القوطية، الإفتتاح، النص، ص ٧١؛ الترجمة إلى الإسبانية، ص ٦٦ (فاجنان، ص ٢١٦، حيث نعثر على ترجمة أقل دقة لهذا الجزء).

٢٢) حول باقى بن مخلد، انظر ليڤى بروفنسال : الكتابات الإسلامية الجزء الثالث، صفحات ١٧٦-١٧٧، والمراجع المذكورة. أنظر أيضا أسين بالاثيوس، إبن مسرّة ومدرسته، ص ٢٩، أعداد ٢، ٤.

٢٣) انظر، على وجوه الخصوص، جولتسهير، ليبيزيج ١٨٨٤، ص ١١٥، نفس الكاتب، تقديم لكتاب : كتاب محمد بن تومارت، الجزائر، ١٩٠٣، صفحات ٢٥-٢٨.

٢٤) نفس المرجع، ص ١٥٥.

٢٥) إبن القوطية، إفتتاح، النص الأصلي، ص ٨٣؛ الترجمة الإسبانية صفحات ٦٧-٦٨ (فاجنان، صفحات ٢٢٥-٢٢٦). حول جوميث، ابن أنطونيانو، انظر أيضا الخشني قضاة قرطبة، النص الأصلي، ص ١٣٠-١٣٢؛ الترجمة، صفحات ١٥٩-١٦٤. - شخص يقال له عمر بن جوميث بالشك هو ابن الأسبق، وافته منيته عام ٩١١ (٢٩٨)، كان سكرتيرا للأمير عبد الله، ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، ١٠، صفحة ١١١ والمرجع المذكور في رقم ٥.

٢٦) تظهر كالاترابا (قلعة كالاتراب القديمة) في الخرائط إلى جانب التقاطع مع نهر وادى أنه لرافد صغير للضفة اليمنى لهذا النهر، يسمى جدول بييخيرو. حول أصول المكان يمكن الاطلاع على : ليڤي بروفنسال، شبه الجزيرة الأيبيرية، صفحة ١٩٦ والمرجع المذكور في رقم ٢ من ثبت المراجع.

٢٧) هكذا يجب ترجمة وتفسير الفقرة التي ذكرها ابن عذارى، البيان، الجزء الثاني، النص الأصلي، ص ٩٧؛ الترجمة ص ١٥٤، الذي يحكي مثل هذه الأحداث. وقد ترك دوزى نفسه للسير في ركاب الخطأ، معتقدا أن اسم هذا النهر (الذي يسمى بالعربية شندولة) كان اسما أطلق على زعيم طليطلي، والذي خطه سنيدوله. وبعده، قام المؤرخون والمترجمون بإبراز شخصية هذا الشبيه - سندولا، زعيم التمرد الطليطلي. ويرجع الفضل في تصحيح هذا الخطأ الفريد إلى سيموني. فبعد أن قص هو الآخر مغامرات سنيدوله في كتابه : تاريخ المستعربين، وقع في الخطأ القائل بأن الأمر يتعلق بنهر جاندولا، الذي يصب في الوادي الكبير، القريب من أنْدُجَر، وتركه هكذا، دون أن يلح في الأمر، في تصحيح الأخطاء، ص ٨٣٧. ولكن الأمر الغريب أن أحدا لم يعر هذا الاستدراك البديهي انتباها : لا بارّاو، ولاحتى شانشيث ألبورنوث، أو جوثثاليث بالينثيا، أو بايستيروس، فما أعاره أحد منهم اهتماما في عمله التاريخي.

٢٨) المرجع المذكور، ص ٣٠.

٢٩) انظر سانشيث أليورنوث، مسيرة وادى سليط، ١٨٣٢، ص ٦٩١-٧٠٠.

٣٠) حول عبد الرحمن بن مروان الجليقي، أنظر، على وجه الخصوص، الدراسة التي أنجزها كوديرا، بنو مروان في ميريدا وبطليوس، في *الدراسات النقدية التاريخية العربية الإسبانية*، مقال إسباني رقم (٩)، ص ١-٧٤.

٣١) العمل المذكور، ص ١٣٩.

٣٢) يطلق عليها في اللغة العربية قلعة الحنش (حصن الحنش)، وهو اسم أطلقه عليها المؤرخون اللاتينيون. كوديرا، العمل المذكور، (٩)، ص ٥٥، والمرجع المذكور في الملاحظة رقم (١)، يخطئ حين يضع هذا الاسم الجغرافي في علاقة مع هذا التابعي الشهير حنش الصنعاني (العمل المذكور، ص ١٨). وربما أعد تفسيرا سليما إذا ماكان اسم هذه الشخصية قد ظهر ذات مرة بالإدارة التعريفية في اللغة العربية «أل».

٣٣) وطبقا لما يذكره سيموني، تاريخ المستعربين، ص ٥٠٩، مرجع ٢، فإن قلعة مونسالود (التي تسمى في العربية مونت جالوت) توجد جنوب بطليوس، في أراضي نوجاليس.

٣٤) وليست كاراكويل Caracuel، القريبة من ثيوداد ريال، إلي الشرق المتطرف، كما تم التسليم به حتي الآن، باتباع ماقاله دوزى وسيموني، فإن الوحيد الذي رفض قبول أن الأمر يتعلق بكاراكويل Cara-

كـان من المحـتم أن تقع فى جنوبKarkar (Cárcar). طبـقـا لما يذكـره هو، فـإن كـاركـر cuel مونسالود، على طريق أشبيلية.

٣٥) ابن القوطية، افتتاح، النص الأصلي، ص ٤٩؛ الترجمة، ص ٧٤، يوضح بأنه فى هذا الوقت بالذات بدأ كل من من ابن مـروان وسعدون السـرنباكي بجولة «في الأجواء الخالية التي كانت تفصل بين المجالات الإسلامية والأخرى المسيحية». هذه الفقرة قد تمت ترجمتها من قبل دوزى (تاريخ إسبانيا الإسلامية، الجزء الثاني، ص ٩ : «خطب في أنصـاره من أبناء وطنه دينا جديدا كان يمثل حلقة وسطية بين المسيحية والإسلام».

٣٦) هكذا يبدو أنه لابد من قراءة الاسم الجغرافي الذي رسمه خطيا دوزى، وتبعه فى ذلك فاجنان، تحت مسمى «أتشيجيرا» Acheghira أو أتشيجيرًا Achiguerra. إن قراءة الاسم أتشباراّجوثا -Ashbarr guza) تأتي متوافقة تماما مع الخط العربي، مثلما يذكر ذلكEsparragosa تساوى (إسبّراجوسا ابن الأثير وابن عذارى. هناك وحدتان محليتان بهذا الإسم في اقليم بطليوس الحالي : إسبراجوسا دى لاسيرنا في كاستوريراواسيراجوسا دى لاريس، في بويبلا دى الكوثير. فى هذه المحلة الأخيرة، الواقعة بين وادى أنة وألمادين، هى فى الغالب المكان الذى سوف يكون مهربا لابن مروان.

٣٧) ابن خلدون، العبر، الجزء الرابع، ص ١٣١ (كورديرا، ١١ بنو مروان، ص ٤١-٤٢)، يقدم الأمور بصورة أخرى وبتأريخ أكثر تمويها. تبعا لما يذكره هذا المؤلف. فإن ابن مروان، بعد أن أقام فى الأراضى التابعة لألفونصو الثالث، ربما ذهب ليقيم فى محلة باقليم ميريدا Mérida، تسمى أنتانيا Antaniya، والتى من خلالها بدأ فـتوحـاته فى غرب الأندلس. وبالنسـبة للمؤرخين الذين درسـوا هذا الاشارة لابن خلدون لم يحددوا أى تعريف لهذه المحلة المعروفة باسم أنتانياك ولكن الأمر يتعلق بداهة بالقرية الحالية فى البرتغال والتى تعرف باسم إيداها أبلها Idanha a Velha، والواقعة فى مكان قريب من الحدود الإسبانية، فى اقليم كاستيو برانكو، على مسافة ١٥٠ كيلومتر شمال شرق ميريدا.

٣٨) ابن الخطيب، الإحاطة، مخطوطة رقم ١٦٧٤ بمكتبة الأسكوريال، ص ٢٨٣-٢٨٤، يخصص رسالة ذاتية عن ابن حفصون -. (أنظر ليڤى بروفنسال، مخطوطات إسلامية، الجزء الثالث، صفحات ١٠٤٩-١٠٥٠).

٣٩) مما لاشك فيه أنها باراوتا Parauta، على مسافة ١٠ كيلومتر جنوب شرق روندا Ronda، كما يشير إلى ذلك سيمونى فى، تاريخ المستعربين، ص ٥١٣ مرجع رقم ٤. ولقد تم اقتراح تعريفات عديدة أخرى لهذا العلم الجغرافي. أما دوزى فقد اعتقد أنه يتعلق الأمر هنا بإيثانتى Izante، الواقعة فى أراضى بيليث – ملقة Vélez-Málaga.

٤٠) العبر، ٤، ص ١٣٤.

٤١) يسمى فى اللغة العربية «التفخيم». حول هذا اللاحق للكلمة واستخدامه فى إسبانيا أنظر، على وجه الخصـوص، كيـتـانى وجبـرييلى، الأسـمـاء العربيـة، المجلد الأول، رومـا ١٩١٥، ص ٩٧، ٦٤، والمراجع المذكورة :

Caetani Y Gabrieli, Onomasticon arabicum, vol. I, Roma 1915, p. 97, y 64 y las Meferencias citadas.

٤٢) نعرف اليوم بدقة وقد تم حفر مكان قلعة بربشترة Bobastro، فوق أويو ديل شورّو Hoyo del Chorro أو تاخو ديل جاتيان Tajo del Gaitan، حيث يمر بها، بالإضافة إلى وادى العروس، الطريق الحديدى لقرطبة والذى يصلها بملقه عن طريق بوباديّا Babadilla.

٤٣) العمل المذكور، ص ٢٠٩.

٤٤) ولد عـام ٨٤٤ (٢٢٩) من امـرأة تدعى أيلو Ailo (نفس الاسم الذى أطلق على أيم (أرملة) رودريجـو – إيخيلونا – المتزوجة بعبد العزيز بن موسى بن نصير، يبدو أنه مـن أصل مسيحي. يرجع تاريخ وصوله إلى الحكم الذى قدمناه فى النص إلى مـعلومـة واردة عن الرازى (إبن الأبار، الحلّة، ص ٧٤). أمـا بقيـة المؤرخين فيجعلون هذا التاريخ متأخرا بعض الشئ.

٤٥) ابن عذارى، البيان، ٢، النص الأصلى، ص ١١٧، الترجمة ص ١٨٨.

٤٦) بعد ذلك، فى صفحات ٢١٣–٤ (صفحة ٢١٥–٨٥)، سوف نشير إلى الظروف الحقيقة للموت المبكر للأمير المنذر.

٤٧) نفس المراجع والكتب التى تظهر فى رقم (١) من هذا الفصل، ونضيف هنا، ابن عبد ربه، العقد، ٢، ص ٢٧١ و ٢٧٢. أما بالنسبة للاشارات المرجعية للمصادر الإسبانية المسيحية فإنها توجد فى :

Barrau-Dihigo, Royaume asturien.

٤٨) انظر، على وجه الخصوص :

Dozy, Rech3, II, pp. 279-286.

٤٩) انظر ليڤى بروفنسال :

Léve-Proveçal, la Péninsule ibérique, p. 91.

٥٠) العمل المذكور، ص ١٦٠.

٥١) العمل المذكور، ص ١٩٤.

٥٢) العمل المذكور، ص ١٩١–٢.

٥٣) العمل المذكور، ص ١٤٣ – ٤.

٥٤) أنظر : Auzias, Aquitaine Carolingienne, p. 265, n. 57.

٥٥) أنظر: Barrau- Dihigo, Royaume asturien, pp. 177-178; Auzias, Aquitaine Carolin-gienne, pp. 264-266.

٥٦) أنظر: Hwci, Crónica latina de la Reconquista, II, p. 77 ; Dozy, Rech3, I, p. 214.

٥٧) كان ممثله فى هذه المدينة هو أخوه لوبي. أما سيوبو ألفونصو، الذى يخلط بين أسماء المدن مثل توديلا، مثلما تفعل بقية التاريخ الأخرى العربية أو اللاتينية، يعلن بأن لوبى هذا كان «قنصلا» فى طليطلة، باسم والده، الحدث الذى يعد تزيفا حـقا. إن الأمر يتـعلق بحفـيد، لوبى بن مـحـمد بن لوبى بن مـوسى، الذى أصبح سيدا لطليطلة فى فترات متقطعة فى نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر.

٥٨) هذه الشـخصية، التى لانملك عنها أخبارا أكثر، تزوجت، طبقـا لما يذكرها ابن حزم من بنت لموسى بن قاسي، تدعى حورية.

٥٩) لم تذكر أية رواية عربية شيئا عن بناء أو هدم البلدة Albelda، كما لم تذكر شيئا عن مـعركة جبل لاتورس Laturce. المصدر الرئيسى لهذه المعلومة هو :

Barrau- Dihigo, Royaume asturien, pp. 179-181.

٦٠) المؤرخ بن القوطية (افتتاح، النص الأصلي، ص ٩٨-١٠٠، الترجمة ص ٨٣-٨٥. ويمكن أيضا الاطلاع على :

Fagnan, Extraits inédits, p. 239-241.

هذه الكتب تذكر شيئا حول الظروف التي أحاطت بالمعاهدة بين موسى بن موسى ومحافظ وادى الحجارة - والتى تطلق عليه اسم إزراق Izraq بن منتيل - فتجعل منها حكاية أشبه بالروايات.

٦١) بهذه المجلة يمكن أن نميز بلاشك برادش المذكورة فى البيان Bradish (الجزء الثانى، النص الأصلى، ص ١٠١؛ الترجمة ص ١٦١)، حيث أن حرفى n, l يمكن تمثيلهما فى العربية بلفظ واحد، دون أى اختلاف سوى ذلك الذى ينحصر فى الاطار التمييزى. أما التماهى الذى يقترحه :

Barrau- Dihigo, Royaume asturien, p. 183, n. 2 (Bradish-Briviesca).

فهو من النوع الصوتى والخطى المستحيل.

٦٢) إن كتاب البيان يطلق عليها الملاحّة al-Mallaha. وبالفعل، فإن الملاحات توجد بوفرة فى بوريبا Bureba (ملاحات بوريبا، بئر الملح، الخ). حول الملاّحة هذه يمكن الاطلاع على :

Barrau- Dihigo, op. cit, p. 184 -1.

٦٣) هذا التماهى الذى تم اقتراحه على فاجنان من قبل توديرا : (انظر: البيان، ٢، الترجمة، ص ٥٣٠) تم قبوله وتبنيه من جانب :

Barrau- Dihigo, op. cit, p. 184.

٦٤) انظر :

Barrau- Dihigo, op. cit, pp. 181 -185.

٦٥) البيان يحدثنا عن إنشاء مراكب فى قرطبة، كما أن مثل هذا الأمر غير محتمل، فلابد أن يتعلق «بنهر قرطبة»، وهو الاسم الذى أطلق، فى إسبانيا الإسلامية، دائما على نهر الوادى الكبير.

٦٦) انظر :

Huici, Crónicas latinas de la Reconquista, I, p. 169.

٦٧) بالنسبة لهذه الرواية نتابع ماورد فى :

Barrau- Dihigo, Royame asturien, pp. 186-197.

فيما يخص معركة بولفاريا Bdoraria، والهدنة التى تلتها وأسفرت عن تحرير هاشم بن عبد العزيز من الحصار، يمكن قراءة الرعاية، التى هى أشبه بالقصة فى :

Sánchez Albornoz, la batalla de Polveraria, en Anales de la Universidad de Madrid, T. I, fasc, 3, 1932.

٦٨) هكذا نرى بأنه من الضرورى تعريف الأعلام الجغرافية الثلاثة الواردة فى ابن الأثير (Annales, p. 236 ؛Kabarrucho) يمكن أن تكون كتابة خطية خاطئة لكلمة كابارّوتشو Firush). فمحلة فيروش وفلاحس من الضرورى أن تقرأ فالتشاس Falchas؛ وأخيرا، القاشتيل، التى ترجع بداهة إلى القلعة

المعروفة باسم «قلعة ميلاجرو» Castillo de Milagro، والتى أطلق عليها فيما بعد اسم بلانا دى ناباراً. نفس الأمر يتعلق بفالثيث Falces، هذه القلعة الأخيرة تراقب من علٍ، بل وتحتل الواد المعروف باسم وادى أرجا. وفيما يتعلق بكاباروسو، فإنها مدينة صغيرة واقعة الشاطئ الأيسر لنهر أراجون، وقد تهدمت وأصبحت تمتلئ بأطلال قلعة سان مارتين. عن هذا المكان، أنظر، على وجه الخصوص :

Barrau- Dihigo, les premiers rois de Navarre, en Rev. Hisp. T. XV, 1906, pp. 634-8.

٦٩) كان الاسم القديم للسوبرارابى Sobrarabe (دوزى، Rech، II، ص ٣٣٩) كانت المدن الرئيسية فى هذا الاقليم الجبلى هى جاقة Jaca، بريشتر Barbastro بولتانيا Boltaña، وهو الاسم الذى من المحتمل أن يكون مشتقا من باربيتانيا Barbitania: أنظر :

Lévi-Provençal, la Peninsule ibérique, p. 236 y n. 4.

٧٠) إن الفقرة التى يذكرها ابن الأثير والتى تشير إلى هذه المجلة، يقدم غالبية الأسماء الخاصة بها والبارزة (Annales, p. 258). ونفس الأمر يحدث مع ابن خلدون فى كتابه، العبر، الجزء الرابع، ص ١٢٢، أنظر أيضا :

Codera, Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 231-2.

للاطلاع على مايخص «بنو قاس» يمكن مراجعة : Huici, Crónicas Latinas de la Reconquista, I, pp. 173.. ومايليها

٧١) حول مشوار الراهب دولثيدو Dulcido، الذى كان مكلفا بمهمة فى قرطبة يمكن الاطلاع على:

- Huici, op. cit. p. 181)

- Simonet, Hist. de los Mozárabes, pp. 572-3.

٧٢) انظر، على وجه الخصوص :

- Gómez Moreno, Iglesias mozárabes, Madrid, 1919, pp. 105 y ss.

- Barrau - Dihigo, p. 252, n. 3.

٧٣) حول ثامورا ، يمكن الاطلاع على :

- Lévi-Provençal, Enc. Isl., IV, p. 1281.

هذا بالإضافة إلى المراجع المذكورة فيه.

٧٤) من أجل هذا التلخيص، استخدمنا الرواية التى يرويها براّو، التى تعد على درجة كبيرة من الدقة والاتقان:

Barrau-Dihigo, Royaume asturien, pp. 197-208.

٧٥) انظر، على وجه الخصوص :

Dozy, Rech.3, I, pp. 216-7.

٧٦) المرجع المذكور، ص ٢٤٦ – ٧، ٢٧٨.

٧٧) يبدو أن دوزى لم يفهم جيدا الفقرة التي أوردها ابن حيّان (المقتبس، طبعة أنطونيا، ص ٢٠)، التي تحكي، ولو بصورة مبسطة، هذا العمل الغريب. وطبقا لما يذكره، فإن محمد بن لوبى، الذى باع إليه سرقسطة، يتعلق الأمر برايموندو دى باياريس، وقد استعيدت المدينة، عقب ذلك مباشرة، على يد الأمويين.

٧٨) انظر؛ على وجه الخصوص :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, pp. 21-93; Simonet, Hist. de los Mozárabes, pp. 257 - 74.

٧٩) بما أن أمهاتهم كن، غالبا، أسيرات فرنسيات أو إنجليزيات، واللاتى شعروا نحوهن بتميز أكثر. هذه الخاصية الجسمانية لكثير من آل أمية الاسبان كان لها رد فعل على ابن حزم، وهو الأمر الذى خصص له بعض الفقرات فى كتابه «طوق الحمامة» صفحات ٣٦ – ٣٧، طبعة بتروف، ليدن، ١٩١٤)، يمكن الاطلاع أيضا على :

Ribera, Sisertaciones y opúsculos, Madrid, 1923, I, pp. 23-5; NYKL, The Dove's Neck - Ring, Paris, 1931, p. 227.

٨٠) يمكن الاطلاع على :

- Lévi-Provençal, Esp. Mus. Xº- Siécle, p. 213.

- G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, p. 222.

هذا المؤلف يبدى ملاحظة تنطوى على تجديد للتراث السورى، حيث أنه كان هناك ممر سرى يصل، فى دمشق، بين القصر الذى شيده معاوية ومسجد الوليد.

٨١) انظر : ابن القوطية، افتتاح، النص الأصلى، ص ١٠٢، الترجمة ص ٨٧؛ ابن حزم، نقد العروس، طبقا لما يذكره ابن حيان فى المقتبس، ص ٤١؛ انظر ايضا: ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص الأصلى، صفحات ١٦٠ –١، الترجمة ص ٢٥٨.

٨٢) هذه السيدة فينيجا Fñiga (أو إينيكا Enneca، أوينكا Onneca) كانت أختا لفورتون جارثيس (الأنقر). ربما أنه ولد فى قرطبة خلال الأسر الطويل لوالده فى هذه المدينة. وقبل أن تصبح زوجة لعبد الله (الأمر الذى وقع قبل سنوات طويلة من تعيين عبد الله كأمير)، ربما كانت زوجة لأثنار سانشيث دى لاراوين (نابارّا). انظر، على وجه الخصوص :

- Codera, en B. R. A. H., Tomo LVIII, 1911, p. 128.

٨٣) عن هذا الفقيه يمكن الاطلاع على : العمل المذكور ص ١٧٩، مرجع ٤٧.

٨٤) حول تفاصيل أكثر عن اغتيال عبد الله – الأمير المنذر، وابنيه وأخويه – انظر الرواية الطويلة التى يرويها دوزى فى المقدمة التى كتبها فى طبعته لكتاب البيان، لابن عزارى، صفحات ٤٤–٦١.

٨٥) العمل المذكور، ص ٢٠٠.

٨٦) يمكن الاطلاع على :

- Lévi-Provençal, Esp. Mus. Xº- Siécle, p. 65 y nota I.

٨٧) تبعا لابن حزم، نقط العروس، ص ٢١ من طبعة سيبولد Seybold، فإن بدر بن أحمد هذا، الحاجب القادم لعبد الرحمن الثالث، كان طفلا قد ترك مهملا، فى عهد الأمير محمد الأول، بالقرب من أحد المساجد بقرطبة وكفله عبد الله.

٨٨) حول كاثلونا Cazlona يمكن الإطلاع على :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 191, n -2 y p. 248, n. 13.

٨٩) حول القديسة ماريا دى ألجاربى، يمكن الإطلاع على :

- Lévi-Provençal, Enc. Isl. IV, pp. 158 - 9 ; La Péninsule Ibérique, pp. 140-1.

٩٠) فى اللغة العربية قردهيره. يأتى هذا التحديد على لسان :

- Simonet, Glosario de voces Ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1889, p. 101.

٩١) انظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 252 y n 7.

٩٢) عن هذه المحلة يمكن الإطلاع على : نفس العمل لليفى بروفنسال ص ٢٤٨.

٩٣) فى اللغة العربية هى مدينة ابن السالم، ويأتى هذا الاسم منتميا إلى اسم الشخصية القديمة التى نتناولها بالحديث هنا. انظر ليفى بروفنسال العمل المذكور، ص ١٩٥.

٩٤) العمل المذكور، ص ٢٥٢، رقم ١٦.

٩٥) إن هذا التماهى الذى يشمل إلبيّرى – غرناطة – إلبيرة قد تم الحديث عنه فى مناقشات كثيرة. وحول هذا الموضوع يمكن الإطلاع على :

- Seybold, Elvira, en la Enc. Isl. II, p. 26-7.

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 29 y 37.

وعن الحمراء في القرن التاسع، يمكن الإطلاع على :

- L. Torres Balbás, La Alhambra de Granada antes del siglo XIII, en Al-Andalus, V, 1940- pp. 155 y ss.

٩٦) هذه الاقطاعيات كانت تعرف باسم رومانثى هو بارثيلا، والذى أصبح فى العربية بارشيلا.

٩٧) حول السيرة الذاتية لسوّار وسعيد بن جودى يمكن الإطلاع على :

- Ibn Al-Abbar, Hulla, pp. 80-3 y 83 - 7.

- Ibn Al-Jatib, Ihata, ms. 1674 de El Escorial, pp. 364 y 366.

٩٨) إن سيمونى هو الوحيد الذى قال عنها بضع كلمات فى كتابه :

Descripcion del reino de Granada, ed. de 1872, pp. 136 - 7.

انظر أيضا :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 45 y n. 7.

٩٩) انظر :

- Bakri, Descr. de L'Afrique Sept. Texto, p. 81 ; trad. p. 163.

١٠٠) المرجع السابق، النص، صفحات ٦١-٦٢؛ الترجمة، صفحات ١٢٨-١٢٩. يمكن الإطلاع أيضا على :

- A. Dessus-Lamare y G. Marçais, Recherches d'archéologie musulmane : La mosquée du Vieux Ténés, en Rev. afr. 1924, p. 537, n. I.

١٠١) يمكن الإطلاع على :

- Makri, Ibid, texto, p. 70; trad. pp. 144-145.

- Ibn Jaldún, Hist. des Berb. I, pp. 283-4.

١٠٢) بعد ذلك، حين تم طرد الموريسكين من إسبانيا، فقد استقرت الجماعات الأندلسية فى كثير من موانئ شمال أفريقية (مثل الرباط، على الأطلنطى، شيرشيل، الجزائر، بيزريتا، تونس ... الخ).

١٠٣) انظر :

- Bakri, Descr. de L'Afrique Sept. Texto, p. 55 ; trad. p. 117.

١٠٤) نفس المرجع السابق، ص ٨٢.، الترجمة، ص ١٦٦.

١٠٥) نفس المرجع السابق، ص ٦٥.، الترجمة، ص ١٣٥.

١٠٦) كانت هناك أيضا ماريًا Mariya أخرى في جنوب غرناطة : ماريات باليش Mariyat Ballish، والتى تعرف اليوم باسم بيليث – مالقه.

١٠٧) أنظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 47.

١٠٨) يذكر هذا التاريخ فى مناهج الفكر، أنظر :

- Fagnan, Extratis inédits, p. 59.

١٠٩) انظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 48 y n. I.

١١٠) فى : شبه الجزيرة الأيبيرية، ص ٣٦، مرجع ٣، أطلق المؤلف نظرية مفادها أن هذا الحجاج كان هو البحار الذى شرع فى رحلة إستكشافية عبر المحيط الأطلنطى، ولهذه الرحلة يشير، للأسف، إشارة موجزة جداً.

١١١) يأتى المصدر الوحيد لما تقدم مختصرا فى : ابن حيان، المقتبس، ص ٥٢-٨٧. وحول تدخل الكونت الحاكم لأمبورياس يمكن الإطلاع على :

- J. M. Millás Vallcrosa, Els textos dels historiadors musulmans referents a la Catalunya carolingia, Barcelona, 1922, p. 152.

- Soldevilla, Hist. de Catalunya, I, p. 67, n. 2.

١١٢) إن عودة بجّانة إلى إمرة السلطات الأموية تظهر الاشارة إليها فى :

(Crónica de al-Nasir, ad ann. 310 h.)

١١٣) انظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule ibérique, p. 221.

١١٤) انظر :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, p. 39, n. 2.

١١٥) تبعا لما يذكره ابن الخطيب فى كتابه، أعمال، ص ٣٩، فإن هناك أسرتين عربيتين أخريين من أشبيلية فى هذه الفترة هما : أسرة بنو عباد، المؤسسين لدولة بنى عباد فى القرن الحادى عشر، وأسرة بنو السالم، والتى استقرت بعد ذلك فى مدينة رُندة Ronda.

١١٦) تحدث ابن الخطيب فى سيرته التاريخ الخاص بسلفه كريب وبأعمال الشغب التى وقعت فى أشبيلية خلال فترة حكم الأمير عبد الله.

١١٧) افتتاح، النص، ص ٣- ٧؛ الترجمة الإسبانية، صفحات ٢-٤. يمكن الإطلاع أيضا على :

- Maqqari, Analectes, I, pp. 167-9.

١١٨) العمل المذكور، ص ٥، ٥٦، رقم ٤٠.

١١٩) عن تقسيم البربر إلى بوتر وبرانس، يمكن الإطلاع على :

- E. F. Gautier, Les Siécles obscurs du Maghreb, pp. 202-14.

١٢٠) العمل المذكور، ص ١٤٩، رقم ٣٥.

١٢١) العمل المذكور، ص ٢١٤.

١٢٢) ابن آخر لإبراهيم بن حجاج يدعى سليمان قد تم اعدامه شنقا من قبل والده، إذا ماصدقنا الرواية التى يذكرها إبن حزم فى : نقط العروس، ص ١٩.

١٢٣) يمكن الإطلاع، فيما يتعلق بهذا الراهب :

Simonet, Hist. de los Mozárabes, pp. 487- 502.

١٢٤) إن التماهى الحاصل بين بولى مع أجيلار – والتى لاشك نحو دقتها – قد تم اقتراحها من قبل دوزى :

- Dozy, Rech. 3, I, p. 307.

١٢٥) حول المدينة اليهودية المعروفة باسم لوثينا Lucena، يمكن الإطلاع على :

- lolrisi- : Descr. de L' Afrique et. e l' Espagne, texto, p. 205 ; Trad. pp. 252-3.

- Lévi-Provençal, les "Mémoires" de' Abd Allah, p. 31 y n. 64.

- J. M. Millás Vallicrosa, la poesía sagrada hebaico espanóla, p. 22.

١٢٦) هذا الاسم الرومانثى يعنى «روخويلو»، وابن حزم يضع له المقابل العربى «الأحيمر» – والذى عرف به أيضا القائد الخاص بابن حفصون.

١٢٧) ابن حيان، المقتبس، ص ٩٧. وأنظر إيضا :

- R. Fernández Pidal, Orígenes del español, p. 349 y nota l.

١٢٨) إن قراءة متأنية للرواية التى يذكرها ابن حيان عن بولى وماقام به من عمل تجعلنا نتبع دوزى فيما يتعلق بتاريخ هذا الحدث المذكور من قبل هذا المؤرخ فى:

Dozy, Histr. Mus. Esp. 2, II, p. 69 y n. l.

وتبعا لما يذكره، فإن معركة بولى قد وقعت يوم الجمعة ١٦ أبريل عام ٨٩١.

١٢٩) انظر :

- Bakri, Descr. de L' Afrique septenterioualе, texto, p. 92. trad. p. 182.

- Ibn Ibhari, Bayan, I. Texto, p. 179 ; trad. p. 249.

١٣٠) هكذا، على الأقل، يروى ابن حزم فى كتابه، نقط العروس، صفحات ١٧-١٨.

١٣١) حول تحديد توتش Tucci وتماهيها مع مارتوس Martos، يمكن الإطلاع على :

- Dozy, Rech3, I, pp. 311 a 313.

١٣٢) إن الدور الذى قام به هذا المقامر قد نظر تماما من قبل أسين بالاثيوس :

- Asín - {alacios, Abenmasarra y su escuela, p. 33 y n. 3.

١٣٣) بالنسبة لابن القط، توجد له سيرة ذاتية فى الحلّة لابن الأبار، ص ٩١-٩٢.

١٣٤) العمل المذكور، ص ٢١٩، حيث تحدثنا عن هذا الزعيم الصغير المتمرد.

١٣٥) هذه الفقرة، التى ذكرت مطولة عند ابن حيان، فى المقتبس، صفحات ١٣٣-١٣٩، كان محطا لاشارة بسيطة من قبل المؤرخ ساميرو، والذى يطلق على مهدى ابن القط، اسم الشمام.

١٣٦) يمكن الإطلاع على :

- Codera, los Benimeruán en Mérida y Badajoz, en Est., Crit. hist. ár. esp. (IX), pp. 48 y ss.

١٣٧) حول هذه الأسرة وماقامت به من دور في القرن التاسع، يمكن الإطلاع على:

- Seybold, en la Enc. Isl, I, p. 990 ;
- D. M. Dunlop. The Dhunnunids of Toledo, en Journal Roy, As. Society, Part 2, 1942, pp. 78 a 81.

١٣٨) العمل المذكور، ص ١١٧.

١٣٩) يمكن الإطلاع على :

- Barrau - Dihigo, Royaume asturien, p. 211 y n. 2.
- Huici, Crónicas lat. de la Reconquista, I, p. 269.

١٤٠) انظر، على وجه الخصوص :

- Dozy, Rech3, I, pp. 217- 220.
- Codera, Est. Critc. hist. ár, esp., (VII), pp. 323 - 360.

١٤١) انظر :

- Ibn Hazm, Chamharat al-ansab (f.º 119 r. del manuscrito de la colección del autor)

١٤٢) انظر :

- J. M. Millás Vallicrosa, Els textos dels historiadors musulmans refrents a la Catalunya corolingia, p. 153.

١٤٣) يمكن الإطلاع على :

- Soldevilla, Hist. de Catalunya, I, pp. 48- 58.
- J. Cal - Mette, Notes sur Wilfred le Velu, en R. A. B. M., t. v. 1901, pp. 442 a 451.

١٤٤) انظر، ابن الفرضي، تأريخ، رقم ٦١٨، وابن الأبار، التكملة، رقم ٧٢٥، ٢ كما يمكن الإطلاع على :

- M. Bencheneb, Notes chronologiques sur la conquéte del' Espagne, en Mélanges René Basset, Paris, 1923, I, p. 77.

١٤٥) حول هذا الموضوع يمكن مراجعة :

- R. Meníndez Pidal, España del Cid, I, p. 76, n. 3.

١٤٦) العمل المذكور، ص ١٠٢. وفيما يتعلق بالأخبار حول محمد الطويل فقد جمعت على يد كوديرا من كتب التاريخ العربية واللاتينية :

- Codera, Mohrámed Atauil, rey moro de Huesca, en B. R. A. H., tomo XXXVI, 1900, pp. 318 a 324.

١٤٧) العمل المذكور، ص ٢٠٨ - ٩، رقم ٧٠.

١٤٨) يمكن الإطلاع على :

- J. M. Lacarra, Expediciones musulmanas contra Sancho Garcés (905 - 925), en Revista Príncipe de Viana, Pamplona, 1940.

١٤٩) يمكن الإطلاع على كتاب، العبر، ٤، ص ١٦٤. وكذلك كتاب كوديرا Codera، المذكور، صفحات ٢٤٩ ومايليها.

١٥٠) - Lévi - Provençal, la península Ibérique, p. 228.

١٥١) العمل المذكور، ص ١٣٢ ورقم ٨، ص ١٦٧.

١٥٢) تبعا للروايات العربية التاريخية، فإن أبناء عبد الله هم : العاصي، عبد الرحمن، محمد، أحمد، وأبناء عبد الله : العاصي، سليمان، سعيد، أحمد.

١٥٣) هذه التفاصيل نأخذها من «تاريخ الناصر». ومثلها يحدث أيضا بمناسبة الاحتفال بجلوس الحكم الثاني على العرش، بعد ذلك بنصف قرن.



الجزء الثانى

الخلافة الأموية فى قرطبة

(٩١٢ - ١٠٣١م)



الفصل الخامس

عبد الرحمن الثالث «الناصر» - أمير وخليفة الأندلس

(٩١٢ - ٩٦١م) (١)

عناوين الفصل الخامس :

(١) إحلال السلم فى الامارة وتأسيس السلطة الملكية (٩١٢-٩٣٢)؛- وصول عبد الرحمن الثالث إلى الحكم.- الحرب فى الأندلس حتى وفاة ابن حفصون، ونهاية إمارة إشبيلية ٩١٢-٩١٧.- أولاد ابن حفصون ونهاية التمرد فى الأندلس.- استرداد بطليوس وطليطلة ٩٢٩-٩٣٢، ومحمية الثغر الأعلى.

(٢) قرطبة والممالك المسيحية فى شمال إسبانيا فى عهد عبد الرحمن الثالث، قرطبة وليون وبنبلونة حتى مجيئ راميرو الثانى (٩١٢- ٩٣٢).- قرطبة وليون أثناء حكم راميرو الثانى ٩٣٢-٩٥٠، كارثة الخندق فى شَنت مَنكش.- قرطبة ومملكتى ليون وبنبلونة فى السنوات الأخيرة لحكم الناصر ٩٥١-٩٦١.

(٣) النزاع بين الأمويين والفاطميين فى المغرب.- سياسة عبد الرحمن الثالث فى افريقية.- البربر فى أوائل القرن العاشر.- بداية الحركة الفاطمية .- سياسة عبد الرحمن الثالث فى أفريقيا حتى سقوط سبتة ٩١٢-٩٣١-. سياسة عبد الرحمن الثالث فى أفريقيا منذ ٩٣١ وحتى ٩٦١. (دائرة ساكني القصر.- ساكنو القصر الخليفي : أسرة الخليفة. الصقالبة. - قصر قرطبة، بيوت الضواحي ومدينة الزهراء.- الحياة داخل البلاط الملكى فى عهد عبد الرحمن الناصر)- علاقات أسبانيا الأموية بالبلاد الأوروبية فيما وراء الجبال. - قرطبة وبيزنطة فى منتصف القرن العاشر. - السفارات الأوروبية، القرصنة الأندلسية ومغامرة المسلمين فى فراكسنية. - أعمال عبد الرحمن الناصر.

١- احلال السلم فى الامارة وتأسيس السلطة الملكية ٩١٢ - ٩٣٢:

وصول عبد الرحمن الثالث للحكم:

على الرغم من قوته وربعة قامته - الأمر الذى لايلحظ عليه عند ركوبه الجواد، فما كانت الركاب تكاد تتجاوز الجزء الأسفل من كرسيه المزين-، فإن عبد الرحمن الثالث كان يتمتع بمظهر طيب، وملامح وجه عادية، له عينان يقظتان زرقتهما قاتمة، شعره أشقر ضارب إلى الحمرة، وأحيانا ماكان يصبغه باللون الأسود ليخفى لمعان تلك الشقرة الداكنة. أموى أندلسى من أصل طيب، ففى عروقه تجرى دماء كثيرة ذات أصول أوروبية وأسيوية : فمزنة(٢)، الأمة المحظية الى أنجبته، كانت أسيرة فرنجية، أو بالأحرى بشكنسية، وكذلك الأميرة إنييجا، إبنة فورتون الأعور وجدة الأمير الجديد. وحين وقع على عاتقه العبء الثقيل لخلافة جده عبد الله، كان رجلا فى ريعان الشباب، لم يكد يصل وقتها سن الرشد. ولد فى السابع من يناير عام ٨٩١م (٢٢ رمضان ٢٧٧هـ). أى قبل ثلاثة أسابيع من النهاية الدرامية التى انتهت بها حياة أبيه محمد. وتبعا لما يذكره مؤرخو عهده، فقد جمع كل خصال الرجل المثقف والأخلاق الحميدة : كان رجلا مهذبا، رحيما، كريما، فطنا. وحظى بخصلتين ميزتاه عن غيره : الذكاء الفطرى المنظم، والاصرار على تجربة كل شئ. وإلى هذه الصفات يضاف حبه للاستطلاع وسعة الأفق، وكلها أمور من الصعب رؤيتها مجتمعه فى شخص واحد، الأمر الذى ضمن له التحلل من المفاهيم، الضيقة فى كثير من الأحيان، لكبار المحيطين به، والمثقفين، ورجال القضاء من بطانته. قليل الورع، يتمتع بحظ شكلى من الرأفة والرحمة، مما جعله يتمتع بروح السماحة وعدم التعصب(٣). فأصبح أكثر أمراء أسرته سماحة وعفوا، وهو ما شكره له الكثيرون من أتباعه الذين عاشوا تحت عرش دولته من اليهود والمسيحين، كما كان ردهم على تعاطفه معهم ورأفته بهم مزيدا من المودة والإخلاص له. وذات مرة، أقدم على تعيين أحد المستعربين فى منصب القاضى الأكبر لقرطبة، إلا أنه تراجع عن ذلك نظرا لخوفه من لوم الفقهاء، لدرجة أن الرجل الذى كان يشغل هذا المنصب سابقا، وهو أسلم بن عبد العزيز، ظن أن له الحق فى أن يعلن مابداخله قائلا : «الحمد لله الذى جعلنى من بين من يعلنون : أنه لا إله إلا الله!».

وهكذا، فقد أصبح عبد الرحمن يملك، أكثر من أمراء عصره الآخرين، وكلما تقدم به العمر، الاحساس بالعظمة الملكية، بهذه الهيبة التى هى، فى نفس الوقت، بسطة فى الجسم، وقوة فى الحديث، والغيرة من أجل أن يحيط نفسه ببطانة رشيدة، وبروتوكولات لبلاط عرشه تتمتع بالفخامة والهيبة. كانت المقابلات التى تجرى فى بلاطه

تشبه تلك التى تجرى فى البلاط الأوتوقراطى فى القسطنطينية، فهو أفضل مايمكن أن يقارن به بلاط الأمير. ولكنه عرف أيضا كيف يتبسط فى الحديث مع أقاربه، وأن يرد فى ذكاء على مايورده مهرجوه؛ وكما هو الحال بالنسبة لرجال البلاط، لم يتخل عن استخدام اللغة المعروفة باسم الرومانسى، التى شاع استخدامها فى اسبانيا الاسلامية آنذاك، ليتكلم بها مع المقربين إليه(٥). وقليلا ماتذكر رسائل التأريخ العربية الأندلسية لحياة الأمراء نقدا لهذا الأمير الذى حظى بصفات لم تتوافر لغيره من الأمراء. وقد أصبحت هذه الخصال التى تشكلت منها شخصيته تزداد رويدا رويدا بطبيعة الحال مع مرور الزمن، رغم ظهور أماراتها عليه منذ بداية عهده، الذى استمر لفترة تقترب من نصف قرن، مما سمح له بتقديم كل ماكانت تنطوى عليه نفسه.

كان جده يتمتع بحدس عبقرى حين قرر تعيينه، وفضله على أبنائه من صلبه، ليكون حاكما للأندلس من بعده. وقد استقر رأيه على هذا القرار منذ زمن بعيد، فجاء لصالح الطفل الذى أمضى حياته بجوار جده داخل القصر ورأى كيف أن أعمامه – وقد حرموا حرية الدخول إلى القصر وأجبروا على الاقامة فى منزل خارجى بقرطبة – لم يفعلوا شيئا سوى إثارة فقدان الثقة المحمومة لدى الأمير العجوز. ومع هذا، فإن مثل هذا الاختيار لم يكن يخلو من مخاطر، ولم يكن عبد الله يجهل صعوبة الموقف، لو لم يقم خلفه، منذ اللحظة الأولى لولايته بفرض نفسه بما فيه الكفاية على الأمراء أعمامه الذين تم استبعادهم عن العرش وتركهم يجرون اتصالات بزعماء المناطق المتمردة، الذين لم يتركوا فرصة تغيير الأمير، كما فعلوا من قبل، دون أن ينتهزوها ليعربوا عن قوتهم وبأسهم. ومن ناحية أخرى، ألم يكن من قبيل المغامرة أن يعهد الأمير العجوز بمصير الامارة إلى أمير شاب تنقصه الخبرة السياسية، وماقام حتى الآن بأى من التجارب الحربية، وماوجد الوقت الكافى الذى يتيح له اكتشاف شخصيته؟ وبالفعل، وبعيدا عن المرات النادرة التى قام فيها عبد الرحمن الثالث – نيابة عن جده، بتلقى التكريم من جانب الجنود المحاربين وجنود الحراسة، فإنه قد كرّس صباه كله للدراسة والمعرفة. وهذه الأسباب مجتمعه كانت بالامكان أن تؤدى إلى إيجاد الدوافع التى تجعل جده عبد الله يتردد فى مثل هذا التعيين؛ ولكنه حتى لو فكر فى مثل هذا الأمر لما كان سيعيره انتباها. وأصبح القدر وحده هو المنوط بتبرير هذا الالهام الالهى من جانب جده، والبرهنة على أنه لم يكن بمقدوره أن يضع التركة التى ورثها عن جده عبد الرحمن الداخل، وأصبحت تتهددها المخاطر، فى يد أفضل من يد حفيده.

ومنذ اليوم الأول لولايته، في ١٦ أكتوبر عام ٩١٢م (١ ربيع الأول ٣٠٠هـ)، اضطلع عبد الرحمن الثالث بالمهمة التي كانت تنتظره بكل ماديه من حماس الشباب والجدّية الى تنم عن كمال نضجه المتوقع، وعلى عكس ماكان منتظرا، فإن وصوله إلى العرش لم يحدث أىّ رد فعل من جانب أعمامه الصغار أو الكبار، وأقيمت حفلة توليه العرش، وأخذ يمين الولاء فى أُبَّهة تليق بالحدث داخل البلاط الذى ارتدى ملابس الحداد لوفاة الأمير عبد الله. وقام عميد الأمراء بالعائلة، فى مداخلة مهيبة، بعرض الطاعة الصريحة من جانب كل أفراد العائلة المالكة إلى الأمير الشاب، وأعلن له ثقته فيه من أجل المستقبل. تحمل عبد الرحمن الثالث المهمة على الفور ورسم دون إبطاء البرنامج الذى أزمع على اتباعه : العمل على بناء صرح السلطة والمكانة الرفيعة للبيت الأموى الأندلسى؛ استرداد الأراضى المنشقة؛ القضاء على الامارات المستقطعة من قرطبة والتى أصبحت شبه مستقلة؛ وفوق كل شئ، القضاء نهائيا على حالات التمرد داخل الأندلس، بداية بصغار المتمردين المحيطين بابن حفصون الذين يتلقون أوامرهم ومساعداتهم من ببشتر. وهاهو الشتاء على الأبواب، ولكن ذلك لايهم. ليس لنا أن ننتظر حتى الصيف القادم لنبدأ عبر الصوائف المعهودة سلسلة الحملات الحربية للمملكة.

وهكذا فقد أرسل عبد الرحمن الثالث الأمناء ليحصلوا له، من الأقاليم والثغر الأعلى، على يمين الولاء من التابعين الخاضعين لسلطة الامارة. وفى نفس الوقت قام بعمليات إحلال وتبديل وتعيينات جديدة فيما يتعلق بالشخصيات الهامة فى الدولة. وهاهو أحد وزراء جده، موسى بن زياد، الذى حاول خيانته قبل وصوله إلى العرش، يصبح سجينا، وظل بسجنه سبع سنوات إلى أن نفذ فيه حكم الإعدام. وهذا على النقيض مما كان عليه حال المولى بدر بن محمد، الذى لم يكن يشغل أى منصب إلى الآن سوى الاضطلاع بالخدمات البريدية، حيث أصبح يشغل منصب الوزير الأول (الحاجب) وقائد الفرسان (صاحب الخيل). كما كان التغيير أيضا من نصيب مناصب القضاء المدنية والمحافظات العليا والدنيا، وجهاز الشرطة، كما حدث تغيير آخر فى المناصب المالية. ومع هذا، فإن هذه التعيينات لم تكن تتسم بالدوام، ففى إدارة المملكة حدثت تغييرات كثيرة ومستمرة، حتى وصل الصقالبة إلى أرقى المناصب. وقد سجل المؤرخ أريب بن سعد، الذى يعتبر المصدر الرئيسى لنا فى التأريخ لهذه الفترة، فترة حكم عبد الرحمن الثالث، تفاصيل هذه الحركات بدقة متناهية كما لو كانت قد صدرت

عن جريدة رسمية. ونظرا لعدم وجود بعض المستندات الأخرى الأقل إيجازا، فإن هذه القوائم ستكون الأساس الذى يسمح لنا، عندما يأتى الوقت المناسب، ببدء دراسة التنظيم الحكومى لاسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر.

الحرب في الأندلس حتى وفاة ابن حفصون، ونهاية إمارة إشبيلية ٩١٢ – ٩١٧ :

قبل أن يشرف عام ٩١٢ على الانتهاء نرى أن عبد الرحمن الثالث قد سجل فى رصيده نجاحا عسكريا ساحقا. حيث خرج الجيش ليعيد النظام فى سلسلة جبال المادين، وواصل مسيرته حتى كاراكويل[٦]، الحصن القوى الذى كان، مثل قلعة رباح، فى قبضة البربر، الذين وفدوا لانقاذ الفتح بن ذى النون. وأسفر اللقاء الذى جمع بين الجنرال الأموى عباس بن عبد العزيز القرشى والفتح بن ذى النون عن هزيمة ابن ذى النون، ففر هاربا يطلب اللجوء فى قلعة كلس التى كانت تحت نفوذه. كما لقى حتفه أحد أفضل قواده ومساعديه، محمد بن أردا بوليش، وكانت رأسه، التى علقت فى قرطبة على باب السُدّة، أول تذكار للنصر الذى حققته إمارة عبد الرحمن الثالث الناشئة.

وبعد أسابيع من هذا الانتصار، فى الأول من يناير عام ٩١٣م (١٩ جمادى الأولى عام ٣٠٠هـ) خرج جيش يقوده الحاجب بدر بن أحمد، ليسترد إستجة، المدينة الملعونة[٧]، التى تقع على مسافة ٦٠ كيلومترا من ناحية الشرق، وتعتبر مركز المقاومة القريب من قرطبة. هُدِّمت أسوارها وسحق معبرها الممتد فوق نهر الشنيل[٨]، وعليه تم قطع الاتصالات بين المدينة وبين عمر بن حفصون، ومازالت تدين له بالولاء.

ولم تكد الأمطار الشتوية الشديدة تنتهى، حتى أخذ عبد الرحمن الثالث طريقه لمهاجمة المتمردين على أراضى شرق الأندلس فى عقر دارهم. تم إعداد وتنظيم الحملة بكل دقة واتقان. كما راقب الأمير إعداد الحملة مراقبة دقيقة من خلال معسكر الضواحى الذى أقام فيه شخصيا، ابتداءً من ٢٤ مارس عام ٩١٣م (١٣ شعبان). وبعد مرور ثلاثة وعشرين يوما توجهت القوات الأموية ناحية جنوب شرق الأندلس، تعززها الفرق التى أرسلها محمد بن فروة، السيد الوفى الحاكم لأوبييدو فى اقليم إلبيرة[٩]، والذى اغتصب أملاكه ابن حفصون. وفى أول الأمر، زحفت القوات إلى مارتُش[١٠]، آخر المعاقل الحصينة على طريق جيان، الخاضعة للسلطة المركزية. ومن

هناك، قامت فرقة مهمة بالتوجه إلى مالقه[11]، بهدف مناوشة العدو، وتعطيل ابن حفصون، الذى يُضمر مشروعات معينة لهذا المعقل البحرى الذى أشرنا إليه. أما بقية الجيش، بقيادة عبد الرحمن الثالث، فقد جعل همه محاربة المتمردين فى الكورة؛ وكان أول من سقط هو المولدّى سعيد بن هُديل، سيد حصن المنتلون[12]، الذى ما إن وجد نفسه محاصرا فى قلعته، حتى عرض استسلامه وحصل على الأمان فى ٢٧ أبريل (١٧ رمضان). واصل الجيش مسيرته تجاه جبال سومونتين، اقطاعية عبيد الله بن الشاليّة، الذى وضع سلاحه، هو الآخر[13]؛ وهو المثل الذى حذا حذوه السيد العربى على مونتيشة، ابن عطّاف، إضافة إلى كل الرؤوس التى كانت تحتل أعالى وادى النهر المعروف باسم «وادى نهر بنى عبد الله»[14]. قبل عبد الرحمن الثالث وعودهم بالولاء، وضمهم إلى صفوفه، وترك حاميات فى قصباتهم، ولكى يأمن جانبهم إلى حد كبير، أرسل بزوجاتهم وأولادهم إلى مدينة قرطبة. ثم دخل بعد ذلك كورة إلبيرة. وانتشرت هذه الأنباء عبر هذه الديار، رغم وعورة طرقها، وبطريقة سريعة جدا : هاهى سحابة هائله من أسياد القلاع الصغيرة، المجتمعين حول بَسْطَة، يعملون فكرهم، ثم يخرجون بقرار إعلان خضوعهم للأمير. اجتازت القوات، دون ماعقبة، الاقليم الممتد إلى شمال شرق وادى آش؛ تجولّ داخل فنْيانة، فأحست فى نفسها روح المقاومة، أسر فيها رسل ابن حفصون؛ قام بعد ذلك مباشرة باجتياز سور سلسلة جبال الثلج التى ترتفع شامخة أمام فنْيانة، دون أن يأبه بوعورة الطريق. وما أن أصبح فى المنحدر الجنوبى لهذه السلسلة الجبلية، حتى فرض الحصار على جوفيلس بعد أحد عشر يوما، بينما ذهبت فرقة من الجيش لانقاذ حامية إلبيرة، التى كان يهددها ابن حفصون، مما اضطره هو وجنوده إلى الفرار. وبعد مضى أسبوعين عرض المولدّون من حامية جوفيلس المتمردة استسلامهم وتعهدوا بتسليم الجنود المسيحيين الذين أرسلهم ابن حفصون تعزيزا لهم. تم الاستيلاء على الحصن وقطعت رقاب الممتنعين به من المستعربين. ومن جوفيلس توجه عبد الرحمن الثالث إلى الساحل القريب للبحر الأبيض المتوسط، وهبط صوب الجنوب الشرقى، وهم بالاستيلاء على ميناء صغير يدعى شلُوبانْية. شرع بعد ذلك فى العودة إلى قرطبة، وتوقف فى طريقه مدة ثلاثة أسابيع بغرض الاستيلاء على قلعتين من أمنع القلاع : قلعة شنت إشتبن وبينيا فوراتا. وصل إلى العاصمة، بعد غياب دام أكثر من ثلاثة شهور، وقت الاحتفال بعيد الأضحى (١٧ يوليو ٩١٢). وحسبما يذكر أحد المؤرخين المتحمسين، فإن هذه الحملة أسفرت عن استعادة ٧٠ حصنا منيعا، دون أن نأخذ فى الحسبان مايقرب من ٣٠٠ موقع استراتيجى من الدرجة الثانية.

كانت الحملة التى تعرضنا لوصفها، والتى عرفت باسم «حملة المنتلون» من بين الحملات التى نفذت بحزم ودقة، وآتت ثمارها المرجوّة. حيث كان الهدف منها هو تقليل بقع التمرد الموجودة شرق المنطقة الخاضعة لنفوذ ابن حفصون ذات التأثير المعروف فى حركته، وهى غير تلك التى تعد من أملاكه الخاصة؛ التى خرج إليها عبد الرحمن الثالث فى العام التالى بكل مايملك من جهود حربية. بدأت الحملة فى الثامن من مايو عام ٩١٤م (٨ شوال عام ٣٠١هـ). وما إن وصلت القوات الأموية إلى المناطق الجبلية من رنْدة ومالقة، حتى اتبعت نفس الأسلوب الذى سارت عليه فى الربيع الماضى وأنتج ثمارا طيبة : حيث تم عزل ابن حفصون أكثر وأكثر داخل ببشتر، وانتزعت الحصون من بين يديه الواحد تلو الآخر وخاصة غير المركزية منها والتى تعد بمثابة نقاط دعم له. وبهذه الطريقة، أمكن استرداد بعض المعاقل الجديدة أحيانا بالقوة، وفى أحيان أخرى كانت تستلم طواعية. وفى لقاء وقع بين ابن حفصون والقوات الأموية أمام سور قلعة أوجين(١٥)، لم تكن العواقب فى صالح المتمردين. ولكن عبد الرحمن الثالث لم يتوقف ليستولى على الحصن، الذى دافع عنه أهله دفاعا كبيرا، بل تابع سيره على شاطئ البحر حتى وصل «الجزائر». وفى الطريق، وجد مجموعة من المراكب فى أحد المرافئ تحمل على متنها مؤنا حملت بها من الشمال الأفريقى لتكون فى خدمة ابن حفصون، فأحرقها عن آخرها. ثم عبر بعد ذلك، سالكا أقصر الطرق، مناطق سيدونا ومورو، وتوجه بعد ذلك إلى قرمونة.

بإمكاننا أن نتصور أن عودة أشبيلية إلى حظيرة عرش عبد الرحمن الثالث، التى تعد بمثابة أغلى جوهرة فى عرشه، وانفصلت عنه منذ مايزيد على عشر سنوات، كانت تمثل الرغبة المتقّدة عند العاهل الجديد. والآن، فقد أصبحت عودة إشبيلية إلى عرشه أمرا واقعا، منذ سبعة أشهر؛ وهو الحدث الذى يعد شهادة بارزة فى تاريخ العاهل الشاب، أهلته لأن يكون محط تقدير من جانب كل أتباعه. كما علينا أن نعترف بأن الظروف قد خدمته بأسلوب لامثيل له، وكانت فى صالحه دائما. فكما نذكر، فإن إبراهيم بن حجاج قد وافته منيته قبل الأمير عبد الله بعامين، وتقاسم ابناه عبد الرحمن ومحمد تركته : كانت أشبيلية من نصيب الأول أما الثانى فقد رضى بقرمونة. وهنا وجد محمد نفسه حاقدا على أخيه لأنه فاز بالنصيب الأكبر، فدس له السم : وافت المنية عبد الرحمن فى أغسطس عام ٩١٣م (محرم ٣٠١هـ). وما أفاد محمد من مكيدته شيئا حيث بدأ أهالى أشبيلية، بدلا من دعوته ليكون أميرا عليهم، يبحثون عن أمير لهم تمثل فى شخص صهر ابراهيم بن حجاج، يدعى أحمد، وهو ابن أخيه مسلمة. ولكن عبد الرحمن الثالث لم يكن راضيا عن هذا التغيير، وتقبل باهتمام بالغ الاقتراحات

التى قدمها محمد بن ابراهيم بن حجاج، الذى ما إن رأى نفسه وحيدا وهدفا لعداء ابن عمه الشقيق أحمد بن مسلمة، لم يجد أمامه من وسيلة أخرى سوى الاذعان لقرطبة. فى مثل هذه الظروف، قررت الحكومة المركزية الشروع بقواتها فى محاصرة أشبيلية، عاهدة بإدارة العمليات لسيد قرمونة، يساعده فى ذلك القائد قاسم بن الوليد. وأعمل الرجلان جهودهما فى الأراضى الأشبيلية، فافتتحا أخرافة واقليم إيتاليكا(١٧)، على مسافة عشرة كيلومترات شمال شرق المدينة. وما إن رأى أحمد بن مسلمة نفسه تحيط به الأخطار من كل جانب فتخنقه، لم تكن أمامه من وسيلة لانقاذ نفسه سوى أن يستنجد بابن حفصون. قدم إليه الزعيم المولدى شخصيا، فجعل حليفه القديم يجتاز الوادى الكبير ثم رحل برفقته لمهاجمة القوات المتحالفة، التى تابعت انتشارها نحو الشرق، ولكن اللقاء لم يكن فى صالح ابن حفصون، الذى عاد سريعا إلى ببشتر.

وحين أصبح محمد بن مسلمة وحيدا وسط قواته، اتخذ قرارا بالدخول فى المفاوضات، وأعلم عبد الرحمن الثالث أنه على استعداد لأن يسلمه أشبيلية. ونتيجة لهذا، فقد ذهب الحاجب بدر بنفسه ليتسلم المدينة، ودخلها فى ٢١ ديسمبر عام ٩١٣م (١٩ جمادى الأولى عام ٣٠١هـ)(١٨)، ثم ترك عليها حاكما يتولى أمرها باسم الأمير. وقد أعرب محمد بن ابراهيم بن حجاج عن غضبه، حيث كان الأمل يراوده لاحتلال منصب والده، ولكنه كظم غيظه ورحل لينزوى داخل قرمونة. أما عبد الرحمن الثالث، بما كان يكنه له من الامتنان، لم يزد أن يعكر صفو الأمور، فأفهمه أنه لم يعد بالامكان قبول وجود دويلات أخرى داخل الدولة الأم، ورغم أن محمدا مازال على حالته من الغضب ويبلغ به الأمر أحيانا أن قام بمحاولة هجوم فاشلة على أشبيلية، إلا أنه عاد فى النهاية إلى جادة الصواب؛ وفى أبريل عام ٩١٤م (رمضان عام ٣٠١هـ) أتى إلى قرطبة يعلن إذعانه. وهنا أفاض عليه الأمير من عظيم عنايته، فمنحه لقب ومرتب وزير، وطلب منه أن يصحبه فى الحملة التى، كما رأينا، بدأها بعد شهر، فى مايو، ضد جنوب الأندلس.

وحين عودته من هذه الحملة فى الثامن والعشرين من يونيو عام ٩١٤م (١ ذو الحجة عام ٣٠١هـ)، وجد عبد الرحمن الثالث نفسه ومعه ابن ابراهيم بن حجاج أمام قرمونة من جديد، حيث تواترت لدى الأمير أخبار مفادها أن الحاكم الذى عينه على هذه المدينة، حبيب بن عمر بن سَوَدة، قد أعلن تمرده. وبعد أن ضرب الحصار على المدينة، انسحب مرة أخرى متجها إلى قرطبة فى أواخر يوليو؛ وفى فترة وجيزة تجمعت لديه الأدلة الدامغة على أن متمرد قرمونة إنما كان يعمل باتفاق مع محمد بن ابراهيم

بن حجاج. وتوفي هذا على وجه التحديد في ابريل عام ٩١٥م (شوال ٣٠٢هـ). هل مات مسموماً؟ هذا أمر يفتح الباب على مصراعيه أمام الشكوك. وعلى كل فقد انتهت بموته أسرة بني حجاج في أشبيلية أما بالنسبة لقرمونة، فقد مرّ وقت طويل حتى أذعنت، حيث لم يتمكن الحاجب بدر من الاستيلاء عليها عنوة إلا في الخامس والعشرين من سبتمبر عام ٩١٧م (٥ ربيع الثاني عام ٣٠٥هـ). واقتيد المتمرد حبيب إلى قرطبة، وأودع السجن مع اثنين من أبنائه، وتم اعدامه بعد عامين.

ومنذ أن جاء حفيد عبد الله، فقد تخلى الحظ عن ابن حفصون في كل لقاءاته مع قوات الامارة. وبعد أن حرم من كثير من مساعديه في الأقاليم مثل جيان وإلبيرة منذ حملة المنتلون، لم يعد في مقدوره، حقا، أن يجمع حوله سوى أبنائه الذين عهد إليهم في كل مرة بتغذية نيران التمرد في جبال رُنْدة ومالقة. وكان للجفاف الشديد الذي أصاب إسبانيا عام ٩١٤م (٣٠٢هـ) أثره في أن تنفس ابن حفصون الصعداء، حيث إن عبد الرحمن الثالث اقتصر، في أوائل الصيف، على تكليف عبان، عمه، بالخروج على رأس قوات بسيطة في جولة عسكرية بين أراضي كورة ريّو، حيث لم يكن هناك إمكانية للتفكير في إرسال جيش كبير، وربما لم يكن في الاستطاعة توفير المؤن اللازمة له على أرض القتال. ظل هذا الوضع مستمرا على مدى العام التالي، الذي وجد فيه الأمير العديد من المشاغل التي تدور في فلك الحركات الخارجة على النظام وقمعها بالإضافة إلى أعمال قطع الطريق وكلها ناجمة عن ندرة الطعام في مختلف أرجاء الإمارة. هذا بالإضافة إلى ظهور وباء حصد سكان القرى والمدن، وكان لقرطبة منه نصيب، حيث كانت تعج بالفئات المحتاجة التي دفعت ضرائب جمة لمكافحة المرض والجوع. ومن ناحية أخرى، كان معروفا في البلاط أن ابن حفصون، الذي يضيّق عليه الخناق حينا فحينا، قد أصابه المرض، وأنه لم يعد يمثل خطرا كبيرا، ولم تعد هناك حاجة عاجلة للقضاء عليه. وفي نهاية مشواره، ذلك المتمرد الذي لم يصب بهزيمة قط، بدأ يفقد تباعا مكانته وأنصاره، ولم يعد ينشغل بأكثر من أن ينجو بنفسه، ولجأ إلى العزلة داخل كنيسة ببُشتر(١٩)، ليؤدي بعض العبادات. وفي سبتمبر عام ٩١٧م (ربيع الأول ٣٠٥هـ) مات على المسيحية. دفن، طبقا لمراسم أسلافه، وجهه لأعلى، ويداه مختلفتان فوق صدره، ووجهه مصوب جهه المشرق(٢٠).

سرى نبأ وفاة ابن حفصون في إسبانيا كقطع البارود، فكان له عظيم الأثر. استقبل المستعربون في قرطبة وأشبيلية وطليطلة هذا الخبر بضيق شديد، بينما استقبله المسلمون بعظيم الشكر لذهاب المولّدي الذي كثيرا ما أهان الأمير عبد الله قبل

أن ينزع عنه قناعه ويرتكب الجريمة التى لايمكن غفرانها له من جانبهم : ردته عن الإسلام.

إن ابن حفصون، بمميزاته وعيوبه التى حاولنا أن نسلط عليها الضوء سابقا، لم يحد، على الأقل حتى آخر لحظة من حياته، عن موقفه كمنشق حلف أن يسير فى هذا الطريق منذ عهد سحيق يوم أن فرّ هاربا إلى تاهرت. إن هذا البطل الذى تزعم حركة الاستقلال الاسبانية، كان بمقدوره أن يجد، بما لايدع مجالا للشك، مثلا أشد صرامة وبرنامج عمل أقل تنوعا وأقل تبعية للفرق المتناثرة آنذاك. وما من أجل هذا تخلى عن أن يصبح البطل الجسور والحقيقى لقضية تتسم بأنها قضية شرف ومجد. ولهذا فإن المؤرخين العرب هم الوحيدون الذى يحدثوننا عن مشواره الطويل، وعليه فقد كان عليهم أن يحجموا عن تلطيخ ذكراه أو ذكر اسمه مقرونا باللعنات والشتائم. كما أن المنتصر الأموى (عبد الرحمن الثالث) كان سيحظى بنصيب من المجد أكبر لو أنه، بعد بضع سنوات، حين احتل ببشتر، عرف كيف يحترم الحلم الأخير لعدو إمارته القديم، بدلا من أن ينتهك حرمة قبره ليرسل بجسده المسكين إلى قرطبة حتى يتم عرضه فى المكان المعد للتمثيل بجثث الموتى.

أولاد ابن حفصون ونهاية التمرد فى الأندلس :

ترك عمر ابن حفصون عند موته أربعة من الأبناء[٢١]. تحول أكبرهم، جعفر، إلى المسيحية، وتبعته أخته الشابة، أرختيا، أما الثلاثة الباقون، سليمان وعبد الرحمن وحفص، فقد استمروا، على مايبدو، على إسلامهم. كان ملك ببشتر من نصيب جعفر، الذى ورث عن أبيه الميل إلى الهجوم والعربدة، رغم أنه لم تكن تظهر عليه بوادر صفات الجرأة والمقاومة. كان مشواره قصيرا. كما أن عبد الرحمن الثالث قد تنبأ فى جلاء تام أنه، باختفاء عدوه الرئيسى، لن يتأخر الوقت حتى يدب الخلاف والنزاع بين أبناء ذلك المتمرد ويرفعون عصا الفرقة والخلاف فى وجه بعضهم البعض. وماكان له أن ينتظر حتى تمده الظروف بالأسباب، ولكنه قرر مواصلة الحرب كل عام على أرض أندلوثيا. وحتى يتمكن من إطفاء جذوة التمرد سيكون بحاجة إلى عشر سنوات أخرى من الجهود المتواصلة.

وفى مايو عام ٩١٩م (ذو الحجة عام ٣٠٦هـ) خرج الأمير على رأس القوات فى حملة بيلدة، والتى سميت باسم هذه المدينة المشهورة[٢٢] فى اقليم مالقه، لها بسائط خصبة، تقع بين أرشذونة وببشتر، يجمع بينها وبين أنتقيرة الحالية شبه كبير. قام فى

البداية بتخريب المحاصيل، التى اقترب موعد حصادها؛ استولى، بعد ذلك، على قلعة «دوس أمانتس» بالقرب من بيلدة؛ وأخيرا، فى الأول من يوليو (٢٨ ذو الحجة)، فرض الحصار على المدينة نفسها. وحدث نفس ماحدث فى مونتى ليون منذ ست سنوات مضت، استسلمت الحامية المولّدية وأنقذت حياتها، بينما استمر الجنود المستعربون يحتملون الحصار فى شجاعة حتى النزع الأخير، فبعد أن تم الاستيلاء على القلعة لقوا حتفهم الواحد تلو الآخر. قام عبد الرحمن الثالث بالاعلان عن تواجده السريع والخاطف فى منطقة ببشتر، ثم قفل عائدا إلى قرطبة قبل نهاية الشهر الجارى. وفى هذه الأثناء طلب منه جعفر بن عمر بن حفصون توقيع هدنة بينهما، بعد أن قدم الرهائن ودفع الجزية كضمان لولائه للأمير. أجابه الأمير إلى طلبه. كما أخضعت الكتيبة التى أرسلت لتضرب الحصار على الابن الثالث لابن حفصون، عبد الرحمن، فى أوجين، قاعدته، فى سهولة تامة. طلب المتمرد الصفح واقتيد إلى قرطبة، حيث قضى أيامه فى الظل، يعتمد على قريحته كخطاط فى نسخ المخطوطات، حتى يكسب قوت يومه.

أما بالنسبة لجعفر وأخيه الأصغر سليمان فلم تكن العلاقة بينهما طيبة، ومن المؤكد أن جواسيس الحكومة الأموية قد كرسوا جهودهم لإذكاء نيران الخلاف بينهما. وفى الثلاثين من أكتوبر عام ٩٢٠م (١٣ جمادى الثانية ٣٠٨هـ) اغتيل جعفر فى ببشتر ودفن على الطريقة المسيحية بجوار والده. وهنا أتى سليمان على عجل ليأخذ مكانه ويذكى نيران التمرد. (وبعد أن توفى ابن حفصون بقليل، خرجت الجيوش الأموية فى ربيع عام ٩١٨م (شوال ٣٠٥هـ) لاحتلال حصن أوبييدا دى فارو المنيع فى منطقة إلبيرة، التى كان يملك زمامها سليمان بن عمر بن حفصون، فأخضع واقتيد إلى قرطبة، فأصبح يضطلع ببعض المهام التى نسبت إليه ضمن صفوف الجيش؛ ولكنه سرعان ما انسلخ منها ليعلن تمرده من جديد.). ومنذ أن أصبح صاحب ببشتر، خليفة لأخيه جعفر، استعاد أوجين، ولكن لم يدم ذلك طويلا، حيث قام عبد الرحمن الثالث، فى عام ٩٢١م (٣٠٩هـ) بتحرير هذا الموقع، وحول كنيسته إلى مسجد كبير. وفى العام التالى، هاجم الأمير قلعة مونتى روبيو، بين غرناطة وألمرية؛ وقد لقى عباس، بن القائد القديم لجده أحمد بن محمد بن أبى عبده، أمام أسوار هذه القلعة حتفه فى عام ٩١٥م (٣٠٢هـ). ورغم كل هذا، لم يضع سليمان سلاحه، فأصبح من الضرورى خروج عدة صوائف لرد نشاطه الهجومى. وفى إحدى حملاته على ميناء المنكّب أصيب بفشل ذريع. ونمى إلى علمه بعد ذلك أن هناك دسيسة تحاك له من قبل المستعربين الأندلسيين فطرد، بلا خجل، أسقف الأبرشية التابعة لببشتر. ومن جانبه، فقد استمر عبد الرحمن

الثالث في الضغط واتباع سياسة التطويق. وفي عام ٩٢٣م (٣١١هـ) عاد إلى اقليم مالقة ونجح في القيام بحملة جريئة على جيتي والمنكّب على ساحل البحر الأبيض المتوسط. أما العام التالي فقد خصصه لاحلال السلام في كورة إلبيرة، حيث نشبت بعض أعمال التمرد والعصيان. وأخيرا، في عام ٩٢٧م (٣١٤هـ)، استطاع الأمير أن يتخلص من سليمان. فقد تم القبض عليه في إحدى المناوشات التي جرت في ٧ فبراير (١ من ذي الحجة) في مكان غير بعيد عن ببشتر واجتزت رقبته، وأرسل جسده المشوه إلى قرطبة حيث علق على باب السُدّة.

لم يعد هناك سوى حفص، الابن الرابع لابن حفصون، الذي جعل من ببشتر معسكرا عاما له، رغم أنه لم يكن يمني نفسه بطموحات كبيرة بالنسبة للأسلوب الذي يمكنه من الاستمرار في المقاومة. وبعد ثلاثة أشهر على موت سليمان، أخذ عبد الرحمن الثالث طريقه صوب جنوب الأندلس، نجعل جيوشه تتمركز أمام المدينة، بهدف إحكام الحصار عليها طيلة الوقت الذي يتطلبه الموقف. وأوكل مهمة متابعة الحصار إلى وزيره سعيد بن المنذر، ثم رحل إلى مالقه وبعدها عاد إلى قرطبة، ينتظر سماع خبر استسلام عش النسور، والذي ما تأخر كثيرا. كما كان عليه أن ينتظر ستة أشهر، ضُيق خلالها الحصار شيئا فشيئا على ببشتر، التي كانت مهددة بطلقات السهام المصوبة نحوها، من قبل الحصون العديدة التي سقطت في أيدي القوات الأموية. وأخيرا تنبه حفص إلى أنه لم تعد هناك فائدة ترجى من وراء المقاومة، فكتب إلى الأمير يعرض استسلامه، وهجر المدينة. قام الوزير أحمد بن محمد بن هدير، الذي أوفد في هذه المهمة، باستلام المدينة رسميا، باسم سيده، في ١٩ يناير ٩٢٨م (٢٣ ذو القعدة عام ٣١٥هـ)، وتم رفع العلم المرواني الأبيض على أعلى أبراج القلعة. أرسل حفص وأفراد أسرته إلى قرطبة. وحيث أنهم قد استسلموا دون حرب، لم يعمد الأمير إلى مضايقتهم، كما تمكن حفص من الانضمام إلى صفوف الجيش. أما أخته الشابة أرخينتا، التي أحست ميلا إلى حياة الرهبنة ولم يكن باستطاعتها أن تعلن عيانا اعترافها بدين قد رفضته من قبل في نفس اليوم الذي أعلن فيه ذلك كل من والدها وأمها كولومبا، فقررت أن تحبس نفسها داخل دير العاصمة لتعيش فيه بعيدا عن الدنيا بأسرها، في عزلة صارمة. وبعد مدة انخرطت في سلك الزهد والبحث عن الشهادة، التي نالتها في ١٣ مايو ٩٣٧، عندما حكم عليها بالاعدام، إلى جانب امرأة تدعى أولفورا، بعد توجيه تهمتين : الأولى الردة، حيث ولدت مسلمة، والثانية توجيه الاهانات والسباب للدين الرسمي للدولة(٢٣).

ورغم أن الاستيلاء على ببشتر كان متوقعا منذ موت ابن حفصون، فإن الاستيلاء السلمى على المدينة كانت له آثاره العظيمة فى مختلف ربوع إسبانيا، سواء على الجانب الإسلامى أم على الجانب المسيحى، وشمال أفريقية، كما زاد من مكانة ونفوذ الأمير عبد الرحمن الثالث، بدرجة أكبر من تلك التى حققتها له نجاحاته الأولى، داخل أو خارج حدود مملكته. ولهذا، فقد تمكن فى النهاية - وهذا أمر سوف نتناوله بتوسع أكبر فيما بعد-، من تحقيق مشروع امتد لسنوات عديدة، كان قد وعد بانجازه حين يستولي على ببشتر: أن يتبنى فى بروتوكوله لقبين ساميين، لقب خليفة وأمير المؤمنين، واللقب الشرفي الناصر لدين الله، الأمر الذى أكد من خلاله - سواء أمام أتباعه المباشرين أم أمام الخليفتين الآخرين، الفاطمى والعباسي - أنه أصبح صاحب أرض الأندلس بلا منازع وكسر للأبد الرابطة الواهية التى كانت ماتزال تربط مملكته صورياً بالشرق الاسلامى. لقد أراد الخليفة الجديد آنذاك أن يدوس بأقدامه أرض القلعة التى رفعت راية التمرد لزمن طويل وأن يستغل انتصاره، هادما إلى غير رجعة معاقل الانشقاق التى كان بمقدورها أن تعمل على اشعال الحرائق على أرض الأندلس. ففى العاشر من مارس عام ٩٢٨ (١٥ محرم ٣١٦، خرج من قرطبة، بصحبة وريثه، الأمير الشاب الحكم، الذى بلغ من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاما. عبر إستجة وأشونة، ثم تابع مسيرة النصر إلى أن بلغ الحصن الشهير لابن حفصون وأولاده. وحين وطئت أقدامه أرض المدينة زارها حتى آخر ركن فيها، معربًا عن شكره لله، آمرا بنبش قبرى عمر وابنه جعفر وحمل رفاتيهما - الأمر الذى ينال من شرف الأمير - وأرسلهما إلى قرطبة ليتم عرضهما على المسلمين لتحقيرهما ولعنتهما من قبل الجميع. طاف بعد ذلك بأراضى مالقة؛ أمر بهدم بعض القلاع التى رأى هيئتها غير صالحة للاضطلاع بأمر الحراسة للمناطق المحيطة بها؛ كما أمر بابعاد العديد من المستعربين الأندلسيين الذين كانت لهم علاقة بأى نشاط مضاد للنظام. وبعد أقل من شهر وجد نفسه داخل قرطبة.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت الأندلس تعيش فى سلام عمّ جميع أرجائها. فعلى مدى السنوات الماضية، فقد الكثيرون من السادة الصغار، واحدا تلو الآخر، الأمل في الحفاظ على مميزاتهم الاقطاعية، وحين غمرهم اليأس، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإذعان. استسلم بنو هديل فى اقليم برييجو، وبنو مهلب، فى تورّى كارديلا واسبرّاجيرا(٢٤)، وذلك فى عام ٩٢١م (٣٠٩هـ)، وبعد شهور قليلة على هذا الحادث سار على نهجهم سيد كاسا رايونيلا، فى اقليم مالقة؛ وملاحو بجّانة، كذلك، أصبح عليهم أن يتخلوا عن فكرة الاتحاد شبه المستقل ليصبحوا فى المستقبل تحت ظل إداره الحكومة الأموية(٢٥). خيم الهدوء من جديد على كل الأرجاء، فحمل الازدهار معه. بدأت

الضرائب تصل إلى بيت المال فى سهولة لانظير لها واستعادت خزينة الدولة عز أمجاد أيام مدة حكم عبد الرحمن الثاني، لتصبح فى وقت قصير أغنى بيوت المال، ربما فى أوروبا كلها.

ومن ناحية أخرى، ففى الوقت الذى سقطت فيه ببشتر، أتت مجهودات السلام ثمارها، ليس فقط على أرض الأندلس المعروفة بهذا الاسم، وإنما كذلك على أرض المنطقة الغربية ولينبتى، بعد انضمامها إلى حكومة قرطبة. وفى عام ٩١٦م (٣٠٤هـ) كان سهلا أن ينتزع الجنرال اسحق بن محمدا لقرشى امارة لُورْقَة ومرسية القديمة التى أسسها المولدى قاسم بن اسحق لنفسه (المتوفى عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ)، من بين أيدى ورثته. وفى نفس هذا العام، استولى الحاجب بدر على لَبْلة وماردة وشنترين، فى الغرب، ولَقَنْت، وكايوسادى سيجورا(٢٧)؛ كما تم اخضاع شاطبة وبلنسية ومُرْبيطر، فى الشرق، واحدة تلو الأخرى. ومن خلال قائمة التعينات حكام المحافظة، أدرجها أحد المؤرخين عام ٣١٦هـ(٢٨)، تعطينا مثل هذه التحديدات، والتى تجعل بمقدورنا أن نقيس على الخريطة مدى اتساع رقعة الاقاليم التى أعيد ضمها مرة أخرى فى ذلك الحين إلى حظيرة العرش : فعلى ساحل المتوسط نجد أسماء مثل طرطوشة وبلنسية وكورتى تدمير، إلبيرة وريّو؛ وفى غرب الأندلس نجد أسماء مثل ماردة وتروخيّو قصر أبى دانس [قصر الفتح]؛ وبالقرب من حدود ليون نجد أسماء شنت بريّة، ووادى الحجارة، ومدريد وطلبيرة. ودون أن نتحدث عن الثغر الأعلى، بقيت إلى الآن مدينتان هامتان هما : بطليوس وطليطلة.

استرداد بطليوس وطليطلة (٩٢٩ - ٩٣٢) ومحمية الثغر الأعلى :

ظلت إمارة بطليوس من الناحية العملية، خلال عهد الأمير عبد الله، بمنأى عن الأعمال الهجومية التى شنتها قوات قرطبة، وعلى هذا المنوال استمرت ردحاً طويلا من الزمن أثناء حكم عبد الرحمن الثالث. وفى عام ٩٢٩م (٣١٧هـ) أصبحت الفرصة مواتية للقضاء عليها. منذ وفاة ابن الجليقى عانت سلطة المروانيين نقصا محسوسا. فقد ظل حفيد عبد الرحمن بن مروان، المدعو عبد الله بن محمد، رغم اضطراره لمواجهة عدد من المشاكل الخطيرة، على أرض بطليوس أكثر من ثلاثين عاما، وماوافته المنية إلا عام ٩٢٣م (٣١١هـ). وأما بالنسبة لابنه الذى جاء من بعده، عبد الرحمن(٢٩)، لم يكن يمثل فى نظر الأمير العدو الذى لايمكن إخضاعه، بعد حصار دام مدة قصيرة كانت كافية لإجباره على الاستسلام. كانت الحملة على بطليوس بقيادة عبد الرحمن الثالث

فى بداية الأمر، فأمر جيوشه بالتمركز أمام أسوار المدينة فى الخامس من يونيو عام ٩٢٩م (٢٢ ربيع الثانى عام ٣١٧هـ)، وخرب الضواحى والبيوت المعدة للراحة فى المناطق المجاورة. وبعد ذلك أمر قواته بمحاصرة المدينة المذكورة، وتوجه هو صوب باجه، حتى يهاجم عبد الرحمن بن سعيد بن مالك، سيد المدينة المتمرد، الذى لم يأخذ وقتا طويلا حتى يعلن استسلامه. ومن باجة، تابع عبد الرحمن الثالث مسيرته حتى منطقة أكشونبة، حيث كانت الامارة التى أسسها المولّدى العاقل الماهر بكر بن يحيى بن بكر(٣٠) فى شنتمرية الغرب وشِلْب، مازالت تنعم بالسلم، ويحكمها حفيد لمؤسسها، يدعى خلف، الذى كان يحظى هو الآخر بحب أتباعه. لم يرد خلف بن يحيى بن بكر وضع العراقيل والصعوبات أمام إذعانه للخليفة، فقد تجمعت لدى الخليفة أخبار تمتدح خلفاً، وبعد أن تراضى الطرفان، قرر الأمير أن يتركه فى نفس منصبه كتابع من أتباعه، مع التزامه بدفع جزية سنوية للأمير، وألا يستقبل أو يستضيف أحدا من المتمردين أو الهاربين. ومن جانبه، فقد اقتنع أمير بطليوس، عبد الرحمن بن عبد الله بن مروان بعدم جدوى المقاومة، وبعد عدة أشهر من عودة الأمير إلى العاصمة، عرض عليه إذعانه، ثم ذهب بأسرته إلى قرطبة عام ٩٣٠م (٣١٨هـ).

ولم يتبق للناصر حتى يكمل عملية السلام فى الداخل، التى أفنى فيها ثمانية عشر عاما بلا هوادة من حكمه (أهى مدة حكمه؟) - سوى العمل على اقرار السلطة الأموية، بطريقة نهائية فى هذه المرة، فى أكبر مدن الثغر الأوسط، العظيمة المشاكسة، ألا وهى طليطلة، والتى لم يتمكن أسلافه من إخضاعها لسلطانهم إلا لفترات قصيرة جداً. منذ أوائل القرن العاشر، تغير الموقف قليلا فى العاصمة القوطية القديمة - ولغيرتهم على حريتهم والحرص على وجود مخزونهم من الغلال سليما غير منقوص داخل صوامعهم الشهيرة، لكى يتمكنوا من مواجهة أى حصار طارئ يطول أمده، كان الطليطليون يثقون ثقة كبيرة فى الوضع الاستراتيجى لمدينتهم، التى يحيطها نهر التاجه من كل جانب بهوة عميقة. وتبعا لأهوائهم وظروف الوقت، فقد كانوا يعهدون بإدارة مدينتهم، إما إلى زعيم محلى، يختارونه من بين أبناء المدينة، أو أى سيد من أصحاب النفوذ الاقطاعيين الذين كانوا يتمتعون فى الأماكن القريبة من المدينة بنوع من الاستقلال. وفى بعض الأحوال، كانت تجمع بينهم وبين مملكة أشتوريش علاقات تفصح عن حسن الجوار. وها نحن قد رأينا أن اثنين من أفراد عائلة بنى قسيّ الأراجونية، المطرف بن لوبى بن موسى ومحمد بن اسماعيل بن موسى - قد ملكا زمام الأمور القيادية بالمدينة بضع سنوات، وبعد هذا، وفى عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ)، أصبحت قيادة المدينة فى أيدى المتمرد القديم بها، لوبى بن طربيشة. حيث حكمها، على الأقل، حتى

عام ٩٢٠م (٣٠٨هـ). وفي هذا العام، بدأ عبد الرحمن الثالث حملته المعروفة باسم حملة مويث، التي سنتحدث عنها بعد ذلك، ثم سار في طريقه حتى وصل إلى موقع أمام طليطلة. «وهنا همّ الأمير لوبي بن طربيشة - كما يذكر أحد المؤرخين - بالخروج للقاء عبد الرحمن الثالث ليحارب تحت إمرته، معلنا الاذعان له. ولكنه لم يكن سوى إذعان ظاهري»[٣٢]. وجاء من بعد لوبي بن طربيشة حاكم آخر للمدينة، في تاريخ لانعلمه، هو ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث، والذي لانعرف عنه سوى اسمه. ومع ثعلبة هذا قرر الأمير عبد الرحمن الناصر أن يختبر قواه.

بدأ بمحاولات الحصول على الخضوع السلمي للمدينة. ولهذا، توجه وفد من الكبار والفقهاء إلى طليطلة بهدف اقناع السكان بأنه قد حان الوقت، بالنسبة لهم أيضا، للدخول في أحضان الجماعة ودفع الجزية للسلطة المركزية. انطوت ردود الأهالي على المراوغة، وعلى ضوء هذا، لم يعد هناك سوى اللجوء إلى طريق الحرب. وفي ربيع ٩٣٠م (٣١٨هـ)، خرجت مجموعة أولية من الجيش، بقيادة الوزير سعيد بن المنذر، وتمركزت في أجوار طليطلة، حتى انضمت إليها قوات أخرى في شهر يوليو، يقودها الأمير عبد الرحمن شخصيا. أمر عبد الرحمن الثالث قواته بالتمركز بجوار نهر الجودور، بالقرب من قلعة مورا (على مسافة ٣٠ كيلومترا جنوب شرق العاصمة)، وطالب زعيم طليطلة، الذي ملك زمامها، مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب، بالاستسلام. وفي مرحلة لاحقة، بينما أخذ يقترب أكثر من هدفه، احتل موقعا من المواقع المتمردة في مرتفعات تشالينكاس[٣٣]، وحتى يُفهِم المجموعة المحاصرة بأن الحصار سوف يستمر طوال الوقت الذي يتطلبه الموقف، أمر بتحويل المعسكر إلى مجموعة من الانشاءات أطلق عليها اسم مدينة الفتح. وبعد أن اتخذ الاجراءات المناسبة وترك تعليماته، عاد إلى قرطبة، ولكن ليس قبل أن يتلقى الاذعان الفوري من سادة آلامين[٣٤]، وقنالش[٣٥]، الواقعتان على مقربة من شمال طليطلة.

استمر حصار المدينة المتمردة عامين كاملين، وداومت العاصمة، في كل فرصة أتيحت لها، على إرسال الامدادات التي من شأنها أن تزيد من الضغط على أهالي طليطلة. وقد توقع هؤلاء تدخلا حاسما من جانب ملك ليون راميرو الثاني، الذي طلبوا مساعدته لهم، وبالفعل حاول العاهل المسيحي أن يخرج لنجدتهم، إلا أن جيشه قد مني بهزيمة في لقاء جمع بينه وبين القوات الأموية، وسوف نرى كيف أن بعضا من المشاغل الأخرى قد منعه من تحقيق هدفه للشروع في حملة جديدة لرفع الحصار عن طليطلة[٣٦]. أصبحت المدينة تقتصر على مواردها ولم يتأخر الوقت بالمحاصرين كي

يعلنوا عن بوادر التعب والارهاق. أتى عبد الرحمن الثالث شخصيا ليحصد أمجاد الإنتصار، الذى سيكون بمثابة التاج الرائع الذى تزدان به جهوده الرامية إلى إحلال السلام فى الداخل. خرج عبد الرحمن الثالث من قرطبة فى أواخر يوليو عام ٩٣٢م (رجب ٣٢٠هـ)، وما إن أصبح داخل ملكه فوق أراضى طليطلة، حتى استقبل زعيم المدينة، ثعلبة، الذى قدم إليه ليبدأ المفاوضات معه حتى يسمح للجوعى من مواطنيه بالحصول على المؤن. وفى اليوم التالى - ٢ أغسطس (٢٥ رجب) - دخل الناصر مدينة طليطلة ممتطيا جواده، وقد بدت عليه علامات الخشوع لربه، فحمده وأثنى عليه، ولم يتحرك من المدينة حتى ترك بها حامية قوية وأصدر أوامره اللازمه للعمل على الاحتلال الدائم للمواقع الاستراتيجية بالثغر. وما إن عاد إلى قرطبة، حتى أخذ فى توزيع المكافأت على الجنود، ونظم، مع الأجهزة العليا، حفلة شكر وامتنان، هذا إلى جانب حفلة أخرى بمناسبة ختان بعض أبنائه الصغار.

وبعد ببشتر وبطليوس، جاءت طليطلة لتنحنى أمام إرادة قرطبة القوية. فعلى مدى عشرين عاما تمكن الأمير - بعد جهود مضنية - من أن يحصل على مثل هذه النتائج، التى كانت وحدها كافية بتزيين مشوار أى أمير آخر من سلالة عبد الرحمن الداخل (المهاجر). ورغم كل هذا، لم يكن الأمر سوى مقدمة مضيئة لفترة نشاط سياسى مشوارها طويل ومثمر. ومنذ اللحظة التى رأى الناصر نفسه فيها سيدا مطلقا على الأراضى الخاضعة له، بدأ يكرس نشاطه، وبطاقة أكبر، للمشاكل الخارجية التى كانت تتطلب منه العناية أو كانت تثير فيه طمعا وتطلعا ما. لم يكف الخليفة الاسبانى، ودون أن يسلم نفسه قط - رغم ماقيل فى بعض الأحيان - للمتع، حتى وفاته عن الاعراب عن إرادته ووضعها موضع الاحترام من الجميع، براقة لاتقبل الخدش، ورغبته فى أن يدير كل الأمور بنفسه، ويكون مستعدا لأداء مهامه دون ماكلل. وفى نهاية حياته أصبح باستطاعته القول، بعد فترة طويلة من ممارسة الحكم، أنه لم ينعم بقسط من الراحة سوى أربعة عشر يوما قضاها فى مشاغل من كل نوع(٣٧)؛ وبإمكاننا أن نصدقه فى قوله هذا، خاصة عندما يتبين لنا فى الصفحات التالية حقيقة نشاطه العسكرى والسياسى على الجانب الآخر من نهر الدويرة والشاطئ الآخر من مضيق جبل طارق.

ومن الواجب علينا أن نلقى نظرة على الوضع فى الثغر الأعلى فى الفترة مابين بداية عهد عبد الرحمن الثالث وعام ٩٣٢. كان اهتمام العاهل الأموى يتركز فى عدم تعجل الأحداث فى هذه المنطقة اللامركزية من مناطق نفوذه والاعتماد على أحد أتباعه

النشطين، وذلك كلما أضحت مملكته وسلطانه أكثر فعالية، بما ينعكس فى كل عام فى صورة كم هائل من الجزية إلى الخزانة العامة لقرطبة. التزم الناصر بهذا الخط، وظل يعمل على تحسين علاقته بالتوجيبى، فى سرقسطة، الذى أحاط نفسه بعدد من الجيران الذين انكسرت شوكتهم الهجومية مثل آخر أفراد أسرة بنى قسىّ فى إقليم تطيلة، وأتباع محمد الطويل فى وشْقة وبنى ذى النون فى أعالى جبال شنت برية؛ ولهذا كله، فقد حرص عبد الرحمن الثالث، كما فعل جده من قبل، على أن يبقى رسميا على هذه المحمية التابعة للثغر الأعلى، التى دامت طويلا، رغم الصعوبات التى خلقها بعض المنتفعين من هذا الوضع الاستثنائى، أمام الحكومة المركزية.

انتهى المطاف ببنى قسىّ إلى المصير المظلم. فقد تم اغتيال أمير تطيلة عبد الله بن محمد بن لوبى، فى أوائل مدة حكم عبد الرحمن الثالث، فى عام ٩١٥-٩١٦م (٣٠٣هـ)(٣٨). وفى نفس العام توفى أيضا أخوه المطرف على يد ابن أخيه محمد، أحد أبناء عبد الله. وتزوجت إحدى بنات عبد الله، أوراكا، من أحد أبناء ملك أشتوريش، ألفونسو الثالث، المسمى فرويلا الثانى، الذى أصبح ملكا لليون بعد أوردوينو الثانى وقبل ألفونسو الرابع الملقب بالراهب. أعلن محمد بن عبد الله خضوعه للأمير الأموى، الذى أبقاه لفترة من الزمن حاكما لتطيلة. أما بالنسبة لبقية أفراد هذه العائلة المضطربة فقد أصبحوا يتوارون عن مسرح الأحداث واحدا تلو الآخر؛ انتقل أكثرهم إلى قرطبة عام ٩٢٤م (٣١٢هـ)، واحتلوا مناصب عدة بالجيش النظامى. كما أعلن البعض الآخر ردته عن الاسلام إلى المسيحية، وانخرطوا فى صفوف ملك ليون تارة وملك نبرّة تارة أخرى. قام أحدهم – تبعا لما يذكره ابن حزم – بالذهاب إلى إفريقية لينضم إلى صفوف الفاطميين هناك.

لم يكن المشوار الذى بدأه أبناء محمد الطويل فى وشْقة يحظى بسمعة ورنين أكثر من مشوار أولئك، حيث مات محمد الطويل فى قطلونية من العام التالى لمجيئ عبد الرحمن الثالث. تولى أكبر أبنائه، عبد الملك، زمام الأمور بعد أبيه، ولكنه اغتيل – فى ديسمبر عام ٩١٨م (رجب ٣٠٦هـ)، على يد أخيه الأصغر، عمروس، الذى شغل منصبه مدة ليس بالامكان تحديد عمرها الزمنى.

أما عن أسرة ذى النون فلدينا بعض مانذكره عنها، حيث أن ابن حيان، فى تأريخه لعهد الأمير عبد الله، خصص بضعة أسطر لكل واحد من الأبناء الثلاثة السيد البربرى الذى ولى أمر شنت بريّة(٤٠). وأما الثانى، الفتح، سيد أوكليس، فقد أصيب بجراح مميتة على يد أحد أنصاره القدامى، الأقرع، عام ٩١٥م (٣٠٣هـ). أما الأكبر،

يحيى، الذى استقر له الأمر فى البداية على أويلامو، فقد جعل من نفسه قاطع طريق، وما انكسرت شوكته إلا عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، عندما أرسل الناصر جيشا يرأسه وزيره عبد الحميد بن باسل يتتبع قاطع الطريق هذا؛ طلب يحيى العفو عنه، وتم تعينه كعريف للجند ثم توفى بعد ذلك بأربع سنوات بين صفوف قوات الأمير فى حصار سرقسطة. أما فيما يتعلق بالمطرف، أصغر اخوته الثلاثة، الذى ورث عن أبيه بارونية أويتى، لم يتأخر فى إعلان خضوعه، كما أعرب عن تحوله إلى خادم وفىّ للأمير. وقد مكنه هذا من المشاركة فى حملات كثيرة قادها الأمير؛ أسر لفترة من الزمن فى قبضة سانتشوجارثيس، حاكم بنبلونة، حتى تمكن من الهرب؛ أظهر براعة كبيرة فى موقعة الخندق المشئومة، فى شنت منكش، وأنهى أيامه فى عام ٩٢٤ -٩٤٥ (٣٣٣هـ). كحاكم لحصن وادي الحجارة المنيع.

وأخيرا، فى سرقسطة، تعجّل الحاكم شبه المستقل، أبو يحيى محمد الأنقر، بن التوجيبى، عبد الرحمن، حين عرف نبأ موت الأمير عبد الله، فأرسل رسالة طاعة وإذعان إلى الأمير الشاب الذى بلغ العرش لتوه. لم تدركه المنية إلا بعد اثنتى عشر سنة بعد ذلك، أى فى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ). وفى غضون الفترة الانتقالية لم يقدم إلى عبد الرحمن الثالث أكثر من دوافع الاطراء نظرا لما أعلنه من ولاء وغيرة، ولكنه أعرب عن عدم موافقته على الأهواء الهجومية الأخيرة التى أعلن عنها بنو قسيّ. خلفه ابنه هاشم (الذى باتت أسرة التوجيبى بسرقسطة تعرف مؤخرا باسمه : أسرة بنى هاشم)، والذى كان حاكما، بدوره، للثغر الأعلى، ولكننا لانعلم عنه سوى وفاته فى عام ٩٣٠م (٣١٨هـ). وخلفه ابنه محمد بن هاشم[٤١]، الذى أعلن تمرده، بعد ذلك بأربع سنوات، ضد الخليفة وانضم إلى راميرو الثانى. وسوف نعرف ماذا حدث له بعد فى صفحات قادمة[٤٢].

٢- قرطبة والممالك المسيحية في شمال اسبانيا في عهد عبد الرحمن الثالث[٤٣] قرطبة وليون وبنبلونة حتي مجيئ راميرو الثاني٩١٢- ٩٣٢ :

لولا وجود البيانات الدقيقة التى ذكرتها المصادر العربية، لما علمنا شيئا ذا شأن، وحتى فى عصرنا هذا، عن النشاط الذى قام به الملوك المسيحيون فى ليون وبنبلونة ضد إسبانيا الاسلامية فى النصف الأول من القرن العاشر. وإذا ماعقدنا مقارنة بين وفرة ما أنتجته المدونات التاريخية العربية الاسبانية، باسهاب فى بعض

الأحيان، وبين البيانات الفقيرة التى أوردتها كتب التاريخ اللاتينية، التى تنسب إلى القس سامبيرو، والراهب دى سيلوس، ويخلط الاثنين، أو بمعنى آخر، التاريخ التجريسي، والذى يطلق عليه أيضا تاريخ ليون، فسنجد أن هذين الأخيرين يصدران عن اقتضاب محبط، ولابد من أن نضيف أن المدونات التى تم انجازها فيما بعد حول هذه الحوليات العارية قد امتلأت بأخبار مزيفة نُسجت فى أسلوب قصصى، وقليلا مانجدها تقف فى مواجهة الآراء التى توجه إليها انتقادات لاذعة. كنا سنجد أنفسنا فى حالة شك فيما يتعلق ببعض التواريخ الهامة فى هذه المدونات التاريخية الغامضة، هذا بالإضافة إلى نظام خلافه بعض الأمراء بعضهم البعض؛ لو لم نجد بين أيدينا تلك التذييلات الروائية التى تركها لنا قلم المؤرخ الأندلسى العظيم ابن حيّان. ولانملك بين أيدينا حتى الآن النص الأصلى الذى تركه؛ ولكن، لحسن الحظ، فإن ابن خلدون قد أورد فى موسوعته التاريخية أهم النقاط الأساسية حول هذه المعلومة، التى استقاها مؤرخ قرطبة، بدوره، من مصادر جيدة للغاية، وبفضل ماقدمه لنا، فإن الشحوب الذى اعترى ازدهار تدوين التاريخ فى العصر الوسيط فيما يتعلق باسبانيا المسيحية قد أخذ يكتسى بألوان أكثر حيويه منذ اللحظة التى بدأ دوزى، بفطنته وسعة علمه، ترجمتها واستخدامها لأول مرة منذ عدة سنوات.

لقد سبق ملك أشتوريش، ألفونسو الثالث، الذى عاصر الأمراء محمد الأول، والمنذر وعبد الله، هذا الأخير بعامين إلى العالم الآخر، فالتاريخ المعهود لوفاته هو ٢٠ ديسمبر ٩١٠م. وحسب مايذكره سامبيرو، والمحتمل أن يكون تأصيلاً لتراث أسطورى، فإن الأيام الأخيرة لألفونسو الثالث قد اعترتها ظلمة التمرد من جانب أبنائه الذين ثاروا ضد سلطانه. وهاهو ابنه الأكبر، جارثيا، يقع فى الأسر على يد الملك الطاعن فى السن ويحبس داخل إحدى القلاع، ولكن صهره، خونيو فيرنانديث، وأخويه اللذين يصغرانه أوردونيو وفرويلا، قد تحملوا على عاتقهم قضيته، فخلعوا ألفونسو الثالث عن العرش وفرضوا عليه إقامة جبرية لم تطل به حتى أدركه الموت(٤٤). خلفه على العرش جارثيا، الذى أعرب عن امتنانه لأخويه أوردونيو وفيرويلا، بأن منحهما، بامتياز ملكى، الحكم شبه المستقل لممتلكاتهما فى جليقية وأشتوريش. لم يدم حكم جارثيا الأول أكثر من أربع سنوات. وبالإضافة إلى إحدى الحملات الموفقة على الأراضى الاسلامية، والتى لم يكن لها صدى عند المؤرخين العرب، فإن منجزاته الأساسية تتلخص فى نقل عاصمة مملكة أشتوريش من أوبييدو إلى ليون، والتى يطلق عليها حتى الآن «مملكة ليون»، والعمل على إعادة تعمير المدائن الواقعة على حدوده، سائرا على نهج والده، بالشاطئ الأيمن لنهر الدويرة، مثلما هو الحال بالنسبة لوخْشَمة وكلونيا وشنت إشتبن

دى غُرْماج. وعندما داهم الموت المبكر جارثيا الأول عام ٩١٤، خلفه أخوه أوردونيو الثانى على عرش ليون.

لم يكن أوردونيو الثانى يخلو من طموح سياسى. إذ قام وهو مايزال ملكا تابعا لعرش جليقية بحملة موفقة على الثغر الأدنى للمسلمين. وهاهى بعض تفاصيل هذه الحملة التى لم تنشر بعد(٤٥): فى صيف عام ٩١٣م (أوائل عام ٣٠١هـ)، حيث لم يكد يمرعلى مجيئ عبد الرحمن الثالث بضعة أشهر، حتى سار جيش قوامه ٣٠ ألف جندى متوجها إلى يابُرة Evora (فى وسط الاقليم البرتغالى الحالى المعروف باسم أليمتيخو Alemtejo)، الذى كان مقرا للحاكم المسلم مروان بن عبد الملك. وفى التاسع عشر من أغسطس(١٣ محرم) بدأ حصار المدينة، القليلة الحصون، وشهدت أسوارها تجمع أكواما هائلة من القمامة حولها، وكان بإمكان أى طامع فيها أن يملك زمامها من بدايتها إلى نهايتها. ورغم أن مدينة إيبورا قد أبدت روح المقاومة، إلا أنها سرعان ما أسلمت أمرها للمحاصرين وحكم على أهلها بالقتل فى مذبحة، راح ضحيتها الحاكم وسبعمائة من رجال الحامية. وبعد ذلك بيومين، حين سلبت المدينة عمدا، عاد أوردونيو فأخذ طريقه صوب جليقية يحمل عددا من الأسرى بلغ أربعة آلاف بين نساء وأطفال. وقد أدت مثل هذه الضربة الشجاعة إلى غرس الذعر بين سكان المنطقة الغربية. كما أحدث هذا الأمير حالة من الفزع عند أمير بطليوس، عبد الله بن محمد، حفيد عبد الرحمن بن مروان، مما جعله يسرع فى بناء سور من الحجارة والملاط حول المدينة.

وما إن خلف أوردونيو أخاه جارثيا، حتى استأنف هجومه على الجانب المسلم فى نفس الاتجاه. وفى هذه المرة ذهب ملك ليون يقصد ماردة. وتبعا لما تذكره الروايات المتوافقة لكل من سبلشى وابن خلدون(٤٦)، ففى عام ٩١٤ أو ٩١٥م (٣٠٢هـ) أجبر الحامية والسكان المسلمين فى قلعة الحنش Alange(٤٧)، على الاستسلام وكان مصيرهم كمصير ذويهم فى مدينة يابُره. عاد الخوف يسيطر على أمير بطليوس من جديد، ولكى يستدر عطف الملك المسيحى ورحمته بعث إليه بإتاوة هائلة، ربما استخدمها أوردونيو فى بناء كنيسة سانتا ماريا دى ليون، وربما كان هذا الحدث ضربا من الخيال.

كان أوردونيو الثانى يأمن جانب العقاب؛ معتقدا أن الأمير العربى الجديد على قرطبة، بكونه مشغولا باحلال السلام الداخلى فى إمارته، قد أصبح لزاما عليه بذل جهد فائق ليتمكن من القيام برد فعل على مثل هذه الأحداث والحملات، التى كانت موجهة كذلك إلى أراضى مسلمة لم تكن قد أذعنت له بالطاعة بعد. ولكن مثل هذا

الاعتقاد كان يعنى عدم الدراية بشخصية الأمير الشاب، الذى خلف الأمير عبد الله. فمنذ عام ٩١٤م (٣٠٤هـ) كان عبد الرحمن الثالث هو البادئ بالهجوم. وفى يوليو (محرم) من نفس العام، خرج أحمد بن محمد بن أبى عبده، بأمر من الأمير نفسه، من قرطبة على رأس جيش عظيم وماعاد إلا بعد أن شن حملات مثمرة على أراضى ليون. وفى الصيف التالى، عاد الجنرال نفسه فخرج على رأس حملة أخرى، ينوى طرد العدو من أهم وأقوى مواقعه فى وادى الدويره : انها شنت إشتبن دى غُرْماج، والتى يطلق عليها المؤرخون العرب أيضا اسم كاسترو موروس. كما خرج بن أبى عبده، على رأس جيش يتكون من مرتزقة شمال أفريقية، ومتطوعين للجهاد، وفيالق مجندة من مناطق الحدود، خرج ابن أبى عبدة فى الواقع لمهاجمة المدينة ثم حاصرها حصارا شديدا استمر عدة أيام. وقع اللقاء فى الرابع من سبتمبر عام ٩١٧م (١٤ من ربيع الأول عام ٣٠٥هـ)، وكان بالنسبة للقوات المسلمة بمثابة الكارثة، وذلك بسبب خيانة المجندين من المناطق الحدودية. وهنا، وبعد أن رأى الجنرال الأموى أن الآمال قد تبددت، فضل أن يموت فى مكانه(٤٨)، وأما الناجون من قواته فقد لاحقتهم القوات المسيحية عن كثب، وعادوا أدراجهم إلى الأراضى المسلمة فى فلول مشتتة بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة؛ وتبعا لما يذكره سيلنس فإن التلال والغابات والحقول، «بداية من الدويرة وحتى أتينثا Atienza وباراكو يوس» قد بدت وكأنها زرعت بجثث المسلمين. وأما أوردونيو فقد عاد إلى ليون منتصرا، وذلك بعد أن قام بتعليق رأس الجنرال المسلم المهزوم عند أعلى شنت إشتبن جنبا إلى جنب مع رأس خنزير برّى(٤٩).

وماكان من أثر لهذه الهزيمة النكراء لجنود عبد الرحمن الثالث سوى أنها دفعته للإصرار على قراره بضرورة توجيه ضربه قاسية لعدوه، حين تسنح الفرصة المناسبة. وقد استشعر أوردوينو الثانى الخطر؛ إلا أنه لم يشأ أن يجعل من نفسه من يقف موقف المدافع، فبذل غاية جهده فى العمل على زيادة وسائله المختلفة، وعليه فقد قام بتوقيع تحالف مع الملك شانجة غرسية، ملك نبرّة Navarra، ثم توجه ليستولى على طلبيرة عند نهر التاجه، بينما قام عاهل بنبلونة فى ربيع عام ٩١٨م (أواخر عام ٣٠٥هـ) بمهاجمة أملاك بنى قسىّ وخرب محاصيل المناطق المحيطة بها مثل ناجرة وتطيلة. وأخيرا قام سانشو بمهاجمة بالتيرا فى شمال تطيلة وأحرق مسجد ربض هذه القلعة. وهنا لم ينتظر عبد الرحمن الثالث كثيرا فى الرد على مثل هذا العمل. وفى الأيام الأولى من شهر يوليو من نفس العام (محرم ٣٠٦هـ)، تلقى الحاجب بدر بن أحمد أمرا بالخروج، وما إن تلقى إمدادات أخرى فى الطريق، حتى توجه إلى ليون، حيث ألحق، فى منتصف أغسطس (أوائل ربيع الأول) بأوردونيو هزيمة ثقيلة، بالقرب من مدينة مودونيا(٥٠).

والتي لانعرف موقعها بالتحديد. وفي الصيف التالي كان الدور على الجنرال الأموى اسحق بن محمد القرشي ليخرج كي يضع حداً لأطماع ملك ليون في الهجوم على الأراضي المسلمة، والذى عاد مرة أخرى يشن الحملات على الأراضي الواقعة تحت نفوذ الأمير، وهزمه، مما اضطره إلى الاسراع في الهرب(٥١). وأما عبد الرحمن الثالث فلم يبد سرورا، مع هذا، بهذين الانتصارين؛ وحين أراد الانتقام المروع والذائع الصيت لتلك الكارثة التى تعرض لها جيشه في شنت إشتبن دى غُرْماج والمهانة التى عومل بها جسد جنراله الوفى بن أبى عبدة، أمر بخروج جيش اختاره بعناية، يقوده هو شخصيا هذه المرة. كانت تلك الحملة الشهيرة التى عرفت بحملة مويث، وخرجت في صيف ٩٢٠م (٣٠٨هـ) وجاءت أخبارها إلينا عبر الرواية المفصلة، التي وصلتنا، من جانب المؤرخ «أريب بن سعد» ورواية أخرى، موسعة كذلك، تظهر ضمن صفحات «تاريخ الناصر».

كان خروجها من قرطبة في الخامس من يونيو (١٣ محرم). سار عبد الرحمن الثالث عبر طريق طليطلة، وبعد مدة من السير خاض نهر وادى أنة(٥٢). وتلقى الأمير هناك خبرا كان بمثابة فأل حسن للحملة التي بدأها، حيث حمل إلى حاكم وادي الحجارة نبأ هزيمة حملة خرجت من ليون، هزيمة فادحة، في الوقت الذى أغارت فيه على وادى الحجارة وقلعة مسلمة مجاورة، قلعة القليّة Qulaya(٥٣)، وأن الجانب المسيحى قد تكبد خسائر جسيمة في هذه الحملة. وما ان وصل الأمير عبد الرحمن إلى أجوار طليطلة، حتى تلقى، كما ذكرنا(٥٤)، التكريم من حاكمها المحلى، لوبى بن طربيشة، ثم تابع سيره صوب الشرق، طريق وادى الحجارة، وبعدها إلى مدينة سالم، كمن يريد أن يعطى انطباعا بأن حملته تهدف إلي الاستيلاء على ناباراً. ومازاد الأمر عن كونه مجرّد حيلة. ومن مدينة سالم اتجه نحو الغرب، حتى وصل بصعوبة بالغة إلى الحدود الجنوبية لألبّة Alava، ثم دخل وخشمة، دون أن يعير انتباها للسلام المقترح عليه من جانب سيدها المسيحى، دخلها في هدوء، فما تمكن سكانها من اخلائها حين رأوا طلائع الجيوش الأموية تظهر تباعا. وبعد سلب المدينة وحرقها، قام عبد الرحمن الثالث، في اليوم التالى (٩ يوليو - ١٨ صفر) - بمهاجمة الموقع الاستراتيجي الهام الواقع على الجانب الأيمن لنهر الدويرة، المعروف باسم شنت إشتبن دى غرماج، وشهدت أسواره موت ابن أبى عبدة وعدد كبير من المسلمين. استولى عبد الرحمن الثالث على القلعة دون أدنى صعوبة، بعد أن فرّت حاميتها المسيحية، وقام هو بسحق دفاعاتها الرئيسية الموجودة بها(٥٥). وسارت الجيوش المسلمة في حملة أخرى صوب الشمال من النهر المذكور مما جعلها تتمكن من سلب ونهب الاقليم حتى المدينة

الرومانية القديمة كلونيا(٥٦)، القريبة من المدينة الحديثة المعروفة باسم كورونيا ديل كوندى. وما وجد المسلمون هناك مقاومة تذكر : فحيثما تقدمت وجدت الطريق أمامها خاليا. أصبحت كل الحصون الموجودة بهذا الأقاليم مسلوبة ومهدمة، بالإضافة إلى الكنائس والأديرة، وهكذا فقد قام الأمير عبد الرحمن بالانتقام للكارثة التى وقعت عام ٩١٧ بمقادير فاقت جميع الحسابات المتفائلة.

ومع كل هذا، فما رغب عبد الرحمن الثالث فى إنهاء هذه الحملة، التى لم تكلفه خسائر تذكر في الأرواح، فعاود الهجوم على نبرّة، عازما مواجهة الملك سانشو، عاهل بنبلونة، الذى لم يتوقف عند زعزعة الأمن والراحة بين المسلمين فى ريوخا، ومهاجمته في المناطق المجاورة لعاصمته. كانت تطيلة واقعة تحت إمرة بنى قسىّ، حيث كان يحكمها محمد بن عبد الله بن لوبى، أحد آخر أفرادها الذين حفظ التاريخ أسماءهم(٥٧)؛ وقد تلقى هذا أمرا من الأمير ليخرج قاصدا قلعة كاركار باقليم نبرّة للاستيلاء عليها، قلعة تقع على مسافة ٦٠ كيلومترا شمال غرب مدينته، بالقرب من ملتقى نهر إجه مع نهر إبره، وهكذا أدى مهمته دون أى صعوبة، بينما كان الأمير عبد الرحمن قد استولى على قلهرّة، على الشاطئ الآخر من النهر، وأجبر شانجة غرسية على حبس نفسه داخل أرنيدو، الواقعة على مسافة ١٥ كيلومترا في الجنوب الشرقي. وما أن تلقى ملك نبرّة نبأ خروج الأمير عبد الله فى الطريق متجها إلى بنبلونة حتى همّ بالرحيل صوب الشمال، وبعد لقاء بينه وبين طلائع الجيوش المسلمة، كانت الغلبة فيه للجانب المسلم، وهنااستطاع أن يجمع قواته إلى جانب قوات أوردونيو الثانى، الذى أتى لمساعدته. حاول سكان جبال ألبة (ولبة) والبشكنس عرقلة تقدم القوات المسلمة؛ ورغم ذلك كله، واصل عبد الرحمن الثالث زحفه إلى الأمام، تحدوه الرغبة فى أن يختبر قوته أمام قوة أعدائه فوق ميدان سهلىّ، وقد تمكن، حقا، دون خسائر كبيرة من تركيز قواته فى وادى خونكيرا، تبعا لما يذكر «السيلسنى»(٥٨)، حيث هو المؤرخ الوحيد الذى يذكر لنا اسم هذا الوادى فى روايته الموجزة لهذه الحملة. كان الأمير الأموى ينتظر، فى ذلك المكان، فى رباطةجأش جيوش نبرّة وليون، فألحق بها هزيمة نكراء، ربما لم تكن لها سابقة فى حوليات إسبانيا المسيحية منذ فترة الفتح العربى. فقد وقع عدد كبير من النبلاء فى أيديهم، هذا إلى جانب اثنين من الأساقفة هما : دولثيديو من شلمنقة وإرموخيو من توى، حيث كانا فى هذه المرة يحملان السلاح، وحملا أسيرين إلى قرطبة(٥٩).

كان ذلك النصر الذى حققه عبد الرحمن الثالث فى خونكيرا، فى ٢٦ يوليو عام ٩٢٠م (٦ ربيع الأول ٣٠٨هـ) ذائعا ومدويًا، وفى اليوم التالى له، لم يرد عبد الرحمن

الثالث أن يدع فرصة للهاربين الذين تجمعوا بقلعة مويث المجاورة لالتقاط أنفاسهم(٦٠). فتوجه إليهم ليهاجمهم، وفى التاسع والعشرين من نفس الشهر، غدت القلعة كاملة فى قبضة يده، وقتل عدد كبير من فرسانها ونبلائها يقدر بنحو خمسمائة فرد. كما استولى المسلمون أيضا على قلعة أخرى، هى بيجوريا(٦١)، على مسافة فرسخ من جهة الشرق. ظل أمير قرطبة يتابع على مدى ثلاثة أسابيع أعمال السلب والنهب التى أتت على كل ماشملته أراضى نبرة الوطيئة، رغم عدم قيامه بالهجوم على بنبلونة؛ وبدون أن يصدر أمرا بانسحاب القوات حتى السادس عشر من أغسطس (٢٦ ربيع الأول). تابع سيره على الشاطئ الأيسر لنهر الدويرة، فمرّ بأنتيسة ثم عاد إلى قرطبة فى أوائل سبتمبر، بعد غياب دام ثلاثة أشهر.

عملت حملة «مويث» على رفعة شأن الأمير عبد الرحمن الثالث بطريقة متفردة ومتميزة؛ ولكن على الرغم من هذا، لم يكن الأمير مسرورا غاية السرور. فما كان يطمح إليه هو الخروج إلى نبرّة ليلحق الاهانة بملكها فى عقر عاصمته، فى أقرب فرصة تعن له بعد إحراز تقدم فى عملية إحلال السلام بالأندلس. فقد كانت كراهيته للملك أوردونيو الثانى، ملك ليون، تنبع من إعجابه بعض الشئ بشجاعته فى القتال وأصالة منبته، بينما لم يكن يشعر تجاه سانشو الأول، ملك نبرّة إلا بالإزدراء. ولو لم يترك لهما الفرصة لتكوين حلف ضده، لأصبحا بمثابة الخطر الذى يهدد مملكته، ولهذا فقد أصبح من الملائم بالنسبة له أن يقوم بسحقهما كل على حدة، فى الوقت المناسب، غير البعيد. وفى عام ٩٢١م (٣٠٩هـ)، حسب مايذكره المؤرخ سامبيرو - تمكن أوردونيو الثانى من التوغل كثيرا فى الأراضى المسلمة، دون أن ترد حكومة قرطبة على غاراته تلك. وبعد هذا بعامين، استولى ملك أشتوريش وليون على ناجرة، بينما قام خليفة سانشو الأول بمهاجمة آخر أمراء بنى قسىّ، فى قلعة بيجيرا(٦٢). وهنا نفد صبر الأمير عبد الرحمن وقرر، دون ما تأخير، أن يقود بنفسه «حملة بنبلونة»، التى خرجت فى ربيع عام ٩٢٤م (٣١٢هـ)، وما إن عزم على الخروج لمعاقبة ملك انبرّة فى عقر داره، حتى علم بأن أوردونيو الثانى قد وافته المنية فى ليون بسبب مرض خطير، تاركا وراءه من يخلفه، إنه أخوه الضعيف فرويلا الثانى، الذى كان أضعف من أن يمثل خطرا على الأراضى الأندلسية.

وكذلك فقد كانت «حملة بنبلونة» هدفا لرواية مفصلة من جانب المؤرخ «أريب بن سعد» الذى أوضح لنا مراحلها المختلفة بعناية فائقة، الأمر الذى يعيننا على متابعتها بسهولة على الخريطة، ومتابعة طريق الجيوش الأموية عبر انبرّة. خرج عبد الرحمن الثالث من عاصمته فى السابع والعشرين من أبريل عام ٩٢٤م (١٦ محرم ٣١٢هـ)

متجها إلى تودمير (فى مرسية) وبلنسية، حتى يخضع آخر المتمردين الذين رفضوا الاعتراف له بالسلطان. ثم تابع سيره مباشرة تجاه تطيلة. وفى العاشر من يوليو (٤ من ربيع الثانى) عبر نهر إبره ثم توغل بقواته فى الاقليم. بدأ أعماله الحربية بسحق وإحراق ما استطاع من مواقع استراتيجية، تمكنت القوات من خلالها من السيطرة على طريق بنبلونة، فى الوقت الذى أخلتها فيه حاميتها حين رأت عبد الرحمن الثالث يقترب منها؛ لم تكن تلك القلاع بعيدة عن نهر إبره. مثل قلعة كاركار وبيرالتا وفاليتس، هذا إلى جانب تلك التى وجدت فى الشمال الشرقى مثل قلاع تافايًا وكاركاسيتو. وعبر هذه القلعة الأخيره صعد الجيش المسلم عن طريق وادى نهر رغون، ثم اجتاز فى نظام دقيق المضيق المعروف باسم فوت دى لومبيير، ووصل من خلاله إلى وادى نهر إيراتى Irati. كان اشانجة غرسيه الأول ينتظر القوات المسلمة على الجانب الآخر، تصحبه قواته بالاضافة إلى فيالق أخرى كان قد طلبها على جناح السرعة من أهالى ليون. وقعت بين الطرفين معركة حاسمة، كانت الغلبة فيها للجيوش المسلمة، وبهذا انهزم ملك ليون للمرة الثانية واضطر إلى الهرب، تاركا الطريق إلى بنبلونة ممهدا وخاليا. وبهذه الطريقة، وصل عبد الرحمن الثالث، عبر لومبيير وليثوائين إلى مداخل عاصمة البشكنس، فأخلاها سكانها بسرعة. وقعت القلعة فى أيدى المسلمين، نهبت أحياؤها عن آخرها. لم يستثن من ذلك أى شئ، بما فى ذلك كنيسة المدينة (الكاتدرائية)، المعبد الشهير الذى كان يقصده عدد هائل من الأجانب المؤمنين لأداء مناسك الحج، وهاهى قد أضحت وقودا للنار. ولما لم يكن عبد الرحمن الثالث مغتبطا بما وجهه من ضربة قاسية لسانشو الأول فى مقر مملكته، قرر مواصلة المسير صوب الشمال وإنزال الدمار بالقلعة المسلمة القديمة، صخرة قيس، والتى، مما لاشك فيه، أنها أوراتى أراكيل الحالية[٦٣]. وما إن وصلها دون عراقيل أو مضايقات، حتى أضرم النيران فى كنائسها وأديرتها، وشتت سكان المناطق الجبلية مرة أخرى، الذين جندهم اشانجة غرسيه لصفوفه، حيث كانوا يعتزمون الوقوف فى طريق تقدم القوات المسلمة. وهنا أدرك عبد الرحمن الثالث أنه قد حقق هدفه على أوسع نطاق، وفى فترات وجيزة، عاد إلى الشواطئ الجنوبية لنهر الإبره فى قلهُرة، بعد أن اجتاز أولا إتشاوردى، فى مصب مضيق عرضى، ثم اجتاز بعد ذلك مانييرو. ومن قلهُرة التف عبر فاليثيرا، ثم وصل إلى تطيلة فى الأول من أغسطس (٢٦ ربيع الثانى). وهاهو يصل إلى قرطبة بعد خمسة وعشرين يوما، بعد أن طالب، مرورا باقليم اشنت برية، بإخضاع منطقتين تابعتين لبنى ذى النون، لم يتضح موقفهما بعد : الأولى ليحيى بن موسى والثانية لابن أخيه يحيى بن الفتح بن موسى[٦٤].

وبهذا التنكيل الذى ألحقه عبد الرحمن الثالث ابشانجة غرسيه تم وضع نهاية لأول سلسلة من الحملات المكثفة التى بدأت ضد أقاليم المسيحيين فى إسبانيا، أثناء الفترة الطويلة التى استغرقها عهد هذا العاهل. وهكذا، أعلنت ليون وبنبلونة استسلامهما أمام الحقيقة القائلة بأن الوضع قد تغير تماما وأنه لم تعد هناك إمكانية لأىّ نوع من المغامرات ولا لأعمال هجومية على الحدود الخاضعة للدولة المسلمة. ولهذا، وعلى مدى السبع سنوات التالية، أو بمعنى آخر، حتى مجيئ ملك ليون راميرو الثانى، لم تكن هناك أدنى محاولات تذكر من شأنها أن تنغص الهدوء الذى بدأت تنعم به حدود المناطق الخاضعة للأمير المسلم. وعلى جانب آخر منها، بدأت تتطور مجموعة من الأحداث جعلت عبد الرحمن الثالث يرقبها بإيجابية شديدة ومطلقة، ومن الملائم أن نشير إليها بإيجاز شديد، وخاصة أن المصادر العربية هى التى ساهمت إلى حد كبير فى فك عقدتها المتشابكة.

تحدثنا آنفا، عن أن عبد الرحمن الثالث، قبل أن يشرع فى حملته الموفقة على بنبلونة، تلقى نبأ وفاة أوردونيو الثانى وكذلك وصول أخيه فرويلا الثانى للحكم. لم تدم مدة حكم هذا الأخير لأكثر من عام واحد، دون أن يبدى أية محاولة للإغارة على الحدود الإسلامية، جاعلا كل همه تزويد سانشو الأول ببعض الإمدادات. وما إن هاجمه مرض الجذام حتى وافته المنية، حسب مايذكر ابن حيان(٦٥)، عام ٩٢٥م (٣١٣هـ). وتبعا لما يذكره ابن حزم(٦٦)، فقد تزوج بامرأة من البيت الحاكم لأسرة بنى قسىّ، تدعى أورّاكا، والتى أنجب منها ولدين هما : راميرو وأوردونيو؛ ولكنهما لم يصلا قط لخلافة والدهما، فحسب المعلومات التى زودنا بها المؤرخ الأسبانى المسلم (ابن حزم)، نعلم أن العرش فى أشتوريش وليون قد انتقل من فرويلا الثانى، الذى نازعه أخوه سانشو ملكه، والذى بعد أن ارتدى تاج الملكية فى شنت ياقب، قدم ليستولى على عاصمة ليون. وأما ألفونسو الرابع فقد حاول، بموافقة ابن عمه ألفونسو، بن فرويلا الثانى ومونيلونا، وبموافقة ملك نبرّة سانشو الأول، الذى تزوج لتوه من ابنته إنيجا، بعد عامين، استعادة العرش المفقود. ورغم هزيمته من جانب سانشو فى بداية الأمر، إلا أن ألفونسو الرابع قد تمكن من طرد منافسه من ليون، واضطره إلى اللجوء إلى جليقية. وفى عام ٩٢٨م أصبح ملكا متوجا على مملكته مرة أخرى؛ إلا أن سانشو قد احتفظ، مع هذا بحكم جليقية حكما مستقلا حتى وفاته، التى وقعت بعد قليل، فى أوائل صيف عام ٩٢٩م. وفى غضون ذلك، عام ٩٢٦م، توفى أيضا عاهل بنبلونة، شانجة غرسيه الأول، صهر ألفونسو الرابع ملك ليون، وخلفه ابنه، الصغير،جارثيا سانشيس الأول، وظل يحكم

حتى عام ٩٧٠م، حكم في البداية تحت وصاية عمه خيمينو جارثيس وأمه، الملكة تودا(٦٧)، والتي سنتحدث عنها بإسهاب فيما بعد.

وكذلك فإن معرفتنا بالظروف التي أحاطت بوصول راميرو الثاني إلى العرش، بعد خلافته لألفونسو الرابع ملك ليون، يرجع الفضل فيها إلى ابن حيان، إذ لم يشر إليها المؤرخ المسيحي سامبيرو، في الواقع، إلا في القليل النادر(٦٨). وبعد سبع سنوات من الحكم، في عام ٩٣١م، قرر ألفونسو الرابع، بسبب وفاة زوجته، أن ينخرط في سلك الرهبنة، وأن يفرض على نفسه عزلة صارمه داخل معبد ساجون، مما جعله يتنازل عن العرش لأخيه الأصغر راميرو، الذي قدم من بيسيو، مقر إقامته، ليتولى مهام العرش في أشتوريش وليون. ولم يكد يمر سوى زمن قليل حتى غيرّ ألفونسو الرابع رأيه وأعلن عودته لتولي مهام العرش الملكي في شنت منكش. إلا أن الرهبان وجهوا إليه انتقادات لاذعة مما اضطره في النهاية إلى العودة إلى سلك الرهبنه، ولوقت وجيز أيضا. فما إن علم بأن أخاه راميرو الثاني قد هبّ لنجدة أهالي طليطلة، المحاصرين بقوات عبد الرحمن الثالث(٦٩)، حتى خرج يطلب فرض سيطرته على ليون. والآن : لم يترك فرصة لأخيه حتى يخدعه، وقرر العودة إلى عاصمته ففرض الحصار عليها، حتى استعادها لنفسه وزج بألفونسو الرابع (الراهب) في السجن.

جرت هذه الأحداث عام ٩٣٢م (٣٢٠هـ). وبعد قليل، قام راميرو الثاني بحرمان أخيه من نعمة البصر، فسحل عينيه، وثلاثة من أبناء فرويلا الثاني – ألفونسو وراميرو وأوردونيو – الذين وقفوا إلى جانب ألفونسو الرابع واعتبرهم راميرو الثاني خطرا على عرشه.

دامت هذه الحرب الأهلية سبعة أعوام كاملة، وكان عبد الرحمن الثالث أول من تهلل لنشوبها، كما فرح بالاختفاء الذي أتى في حينه لعاهل بنبلونة سانشوجارثيس الأول، الذي لقب أحيانا بسانشو الأكبر. بعد هذا الصراع الطويل مع ليون على جانب حدوده الشمالية، وقعت هدنة لأمد طويل، مكنته من أن يوجه اهتمامه إلى مهام سياسية أخرى إكمال النظام الإداري والعسكري لدويلاته.

ومع راميرو الثاني بدأ الوضع يتغير بصورة جذرية. وكان الامبراطور والملك العظيم(٧٠)، يتحسس من أرض ليون أدق أعمال راميرو الثاني، فوجد فيه عدواً حازما يعي واجباته تماما، كأمير مسيحي، ألا وهو عداوته للإسلام. وهكذا فقد بات من

الضروري أن تقع المواجهة بين هذا البطل النشيط المتزعم حرب الاسترداد الاسبانية وبين زعيم الجهاد في الغرب الاسلامي، وعلى أثر هذا النزال تتجمع لديهما تجربة عملية، وخاصة الطرف الثاني، حول التغيير الكبير الذي يعتري لغة السلاح دائما.

قرطبة وليون أثناء حكم راميرو الثاني (٩٣٢ - ٩٥٠)
كارثة الخندق في شنت منكش :

في الرواية التي يذكرها تفصيلا أريب بن سعد عن فترة حكم عبد الرحمن الثالث نلحظ صمتا ذا مغزى بين عامي ٣١٢ و ٣١٩ للهجرة، حيث يشير فقط إلى علاقات مملكة قرطبة بالممالك المعاصرة في ليون وبنبلونة. وإذا ما أقدم مؤرخ، اعتاد أن يسهب في رواياته، على التزام الصمت بهذه الطريقة فيما يتعلق بالنشاط العسكري للخليفة ضد مسيحي الشمال، خلال الفترة التابعة تحديدا للنصف الأول لعهد راميرو الثاني، فإن هذا، بما لايدع مجالا للشك، يرجع إلى أنه لم يكن قد راقه تسجيل بعض حالات الفشل التي واجهت قرطبة. وكذلك، فإن المؤلف التالي له، ابن عذاري، الذي يعتمد تمام الاعتماد على رواية أريب، قد حذا حذوه. وبالنسبة للجزء الذي عثر عليه ويتعلق بـ «تاريخ الأندلس في عهد الناصر» لايصل، للأسف، إلى أبعد من عام ٣١٨هـ. ولهذا فما يتبقى لنا، لكي نكمل المصادر المسيحية، وخاصة الرواية التي يوردها سامبيرو بإيجاز - إلا مختصرات ابن حيان التي حفظتها لنا أعمال ابن الخطيب وابن خلدون. وكان علينا أن ننتظر، مع هذا، إلى أن يظهر النص الكامل لمؤرخ قرطبة العظيم - والذي سيكون، كما هي العادة، دراسة موضوعية غير متحيزة - في يوم مجيد بمراكش، مثلما حدث بالنسبة لنصوص أخرى ظهرت منذ عشرين عاما. ولكن، علينا أن نعلن عن فرحنا، في الوقت الراهن، يمثل هذه الوثيقة العربية التي تتحدث عن هذ الفترة الوجيزة، وثيقة تحمل معلومات لاتجعلها تحسد المصادر اللاتينية الاسبانية على شئ يذكر.

وإذا صدقنا رواية سامبيرو، فإن راميرو الثاني قد بدأ مدة حكمه بالاستيلاء على قلعة مدريد المسلمة. ومن المؤكد أن ملك ليون قد أحكم قبضته على هذا الموقع الحدودي الهام وهو في طريقة إلى طليطلة يمد لها يد العون(٧٢). وفي العام التالي، عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، ألحق هزيمة نكراء بجيوش عبد الرحمن الثالث والتي كانت في طريقها للاستيلاء على وخشمة Osma : فما أن علم بتقدم تلك القوات عن طريق كونت قشتاله فردلند القومس هذه المدينة ثم شتت شملهم، وأسر منهم آلاف الرجال(٧٣).

وعلى النقيض من ذلك، فقد كانت صائفة عام ٩٣٤م (٣٢٢هـ)، حسب مايذكر ابن خلدون، سلسلة من النجاحات بالنسبة للقوات المسلمة. فها هو عبد الرحمن الثالث يقدم على حصار راميرو الثاني في وخشمة، والتي لم يخرج منها ملك ليون لينازل المسلمين في المعركة التي فرضت عليه. واصل الخليفة الأموي حصار المدينة ثم ذهب ليهدم برغش **Burgos** بالإضافة إلى عدة قلاع أخرى. وربما وقعت، خلال الحملة على قشتالة، مذبحة راح ضحيتها مائتي راهب في سان بدرو دي كار دينيا، الدير الشهير الواقع على مسافة بضعة كيلومترات شرق برغش، وهو المكان الذي واري جثمان البطل المعروف باسم «السيد» وجثمان زوجته خيمينا(٧٤).

وقد شهد العام نفسه مفاوضات بين راميرو الثاني وحاكم سرقسطة العربي، الذي كان، إذ ذاك، ومنذ موت والده هاشم، حفيد التوجيبي الأنقر، أبو يحيى(٧٥). وتبعا لما تذكره الروايات المسيحية، فإن أبا يحيى هذا قد أجرى دراسة وافية للموقف، أينحاز إلى عاهل ليون وأشتوريش أم إلى راعي قرطبة، وتوصل في النهاية إلى اتخاذ قرار بالانضمام إلى الأول. وهكذا، عندما طلب منه عبد الرحمن الثالث الحضور إلى جانبه في الحملة التي خرجت قاصدة وخشمة، رفض أن يجيبه إلى طلبه في البداية، على الرغم من أنه، بعد ذلك، رأى أن الوقت مازال مبكرا لإعلان مثل هذا التمرد، فقرر المشاركة في الصائفة. ومنحه الخليفة الأموي لاحقا، وبدون أدنى صعوبة، الإذن بالعودة إلى سرقسطة. وبعد هذا بثلاثة أعوام، في ٩٣٧م (٣٢٥هـ)، أثمرت الضغوط التي مارسها راميرو الثاني حول الشكوك الأخيرة لمحمد بن هاشم، واعترف هذا الأخير له بولايته على العرش. وفي سرقسطة، أحدث هذا الموقف ردود فعل قوية من جانب السادة العرب الذين أحاطوا بالتوجيبي؛ ولكن ملك ليون قدم لمعونته ثم استولى على القلاع الموالية للثغر، ثم أعادها إلى حليفه العربي. وفي الوقت نفسه تم توقيع حلف ثلاثي بين ليون وسرقسطة ونبرة.

أما عبد الرحمن الثالث فلم يكن ليسمح بمثل هذه الأمور، فقرر الخروج لحصار سرقسطة واستردادها. خرج على رأس جيش عظيم متوجها إلى الثغر، فرض الحصار في المقام الأول على قلعة أيوب، حيث كانت تدافع عنها حامية مسلمة، تعززها قوات من ولبة أرسلها راميرو الثاني، يقودها قريب لأبي يحيى محمد بن هاشم، المدعو المطرف بن منذر التوجيبي. ولقي هذا الجنرال حتفه ذات مرة خرج فيها ينشد رفع الحصار. خلفه أخوه الحكم، الذي انتهى به الأمر إلى إجراء مفاوضات مع القوات المحاصرة، التي أمنت له حياته وحياة رجال الحامية المسلمة، دون الحفاظ على حياة العسكر

القادمين من ولبة، حيث أعمل السلاح فيهم. وما أن وقع حصن قلعة أيوب في قبضة الناصر، حتى أصبح يفرض سلطانه على مايقرب من ثلاثين قلعة في أراضي سرقسطة، بينما الحصار مايزال مفروضا على العاصمة نفسها بواسطة قوات يرأسها قريب للخليفة، يدعى أحمد ابن اسحق القرشي، الذى أبان فى هذه المناسبة عن عجزه، مما اضطر الأمير، الذى لم تكن تعوزه الأسباب الأخرى الدافعة إلى فقدانه الثقة في شخص قريبه، إلى عزله واستبداله. وبعد حصار محكم، اضطرت سرقسطة إلى الاستسلام. ومع هذا، فقد عفى عبد الرحمن الثالث عن أبى يحيى، ولم يكن هذا العفو صادرا عن رصانة سياسية وإنما عن رغبة الخليفة فى أن يبدو رحيما مع متمرد نادم مازال بإمكانه أن يقدم للخليفة خدمات نافعة. وأخيرا وحسب ماتذكر الاشارة الموجزة التى يوردها ابن خلدون، فإن الخليفة قد انتهز فرصة تجمع جيوشه فى الأراضى الأراجونية ليخرج لمهاجمة الملكة تودا الوصية على عرش نبرّة فى عقر دارها، وليحصل منها على اعتراف له بولايته على العرش. مثل هذا الاذعان، إذا كان قد شهد النور يوما ما فى ذلك الوقت، لم يدم طويلا، حيث واصلت الملكة تودا الصراع، بعد ذلك بعامين، إلى جانب راميرو الثانى ضد العاهل المسلم وساهمت بدور كبير فى الهزيمة التى ألحقها به ملك ليون وأشتوريش(٧٧).

فى عام ٩٣٩م عانى الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر)، حقا، أعظم فشل على مدى عهده الطويل. وكان للصمت الذى التزمته الروايات التاريخية العربية بشأن هذا الفشل أثره فى أن اقتصر مؤرخو إسبانيا فى فترة العصور الوسطى على رواية مطولة بعض الشئ عن هذه الحملة، التى كانت بمثابة مأساة بالنسبة للجيوش العربية الأموية. ولهذا فقد رأى مؤرخ مثل دوزى نفسه مضطرا لأن يربط بين هذا الفشل المأساوى للخليفة المسلم وبين ماكان يمارسه عليه من تأثير أولئك الاسلاميون من بطانته في قرطبة(٧٨). ومما لاشك فيه، فإن مثل هذا التأكيد يحمل شيئا؛ إلا أنه ليس بالكثير الذى يفسر تماما الكارثة التى تعرضت لها قوات الخليفة المسلم، والذى كان هو نفسه السبب الرئيسى فى وقوعها، إذ يبدو أنه بالغ كثيرا فى تقديره لإمكانياته الخاصة وحط بدرجة كبيرة من إمكانيات القوة المعادية له. وإلى جانب ذلك، يجب أن نضيف إلى النصوص المستخدمة حتى هذه اللحظة نصا آخر، والذى ربما يكون أهمها بالنسبة لهذا الموضوع : إنه النص الذى يورده ابن الخطيب فى كتابه «أعمال الأعلام». لم يكن دوزى يعلم شيئا عن هذا المؤلف للمؤرخ الغرناطى، ولكن مدرسة التاريخ والاستشراق بمدريد، والتى استفادت منه فيما بعد بدرجة وفيرة ومفيدة، لم تتوقف أمام مثل هذه

الرواية حول صائفة عام ٣٢٧، التي وردت فيه، ومن البديهي أن تكون صادرة عن ابن حيان. لنرى، إذن، ماذا حدث.

قام عبد الرحمن بتنظيم حملة ذاك العام، والتي كان يعتبرها، في رأيه، الحملة الحاسمة، مما جعل يطلق عليها اسم «الحملة الجبارة» أو «القادرة»، لتكون شاهدا على رغبته المتعالية في إخضاع جيرانه من المسيحيين الاسبان إلى الأبد. كان لطلبه أن يلتزم الناس بالتجنيد السنوي العادي، إلى جانب تقدم دفعة أخرى عن موعدها أن تجمع لديه مايقرب من ١٠٠٠٠٠ مجند؛ إلا أنه لم يكن قد حدث بينهم التجانس التام. وكما كانت هي عادة تلك الفترة، سلكت القوات المسلمة طريقها عبر أراضي ليون متخذة الطريق الرومانية الممتدة من قرطبة عبر طليطلة تجاه وادي نهر الدويرة(٧٩). وفي نهايات شهر يوليو (أوائل شوال) وصلت القوات أمام شنت منكش، حيث كان بانتظارها راميرو الثاني بقواته الخاصة إلى جانب القوات التي تجمعت معه من قشتالة ونبرّة التابعة لفرولند القومس والملكة تودا. ولم تسفر المعركة التي وقعت بين الطرفين في الحال، واستمرت عدة أيام، عن نتائج مؤكدة، إلا أن المعلومات التي وردت في الأيام الأولى، أوضحت مدى الظروف العصيبة التي تحيط بالقوات المسلمة، على العكس من أعدائهم الذين بدت عليهم روح الميل إلى الهجوم والثبات في الميدان. وتبعا لما كان سائدا من سياسة قتالية في العصور الوسطى، فإن الاعداء قد لجأوا إلى اتباع سياسة الكرّ والفرّ في المعركة أثناء النهار فقط، أما الليل فكان كل جانب ينسحب إلى معسكره. وماكان القتال الشديد يقع بين الطرفين إلا عندما يظهر التعب على أحدهما أو تنخفض الروح القتالية، أو حين ينكشف تماما لعدوه، وكان مثل هذا الالتحام الشديد يعد الفيصل في حل النزاع. وهذا هو ماحدث أمام أسوار شنت منكش. فحين علم راميرو الثاني بأن جند الخليفة، الجيش النظامي، الذي كان يشغل القوة الأساسية في النزال، كانوا يقاتلون بحماس نسبي بعض الشيء، انطلق في وجههم وأجبرهم على الانسحاب، متوجهين إلى خندق كان قد أمر بحفره على مسافة معينة، حتى يكون مقبرة للجند الفارين، إذا ماتحققت له الغلبة عليهم. وبالفعل، نجحت خطته، حيث استسلم الفرسان المسلمون، الذين وجدوا أنفسهم أمام هذا العائق غير المنتظر، للموت بالآلاف. وهنا لجأ عبد الرحمن الثالث نفسه إلى الهرب تاركا في معسكره نسخة من القرآن لاتقدر بثمن كان يحملها معه في جميع حملاته، هذا إلى جانب سترته الذهبية. وعلى الرغم من أن تلك الأشياء قد أعيدت إليه فيما بعد، إلا أن فقدانها كان يمثل بالنسبة له إهانة لامثيل لها.

كانت تلك المعركة التي عرفت باسم «معركة الخندق» بشنت منكش في الأول من أغسطس عام ٩٣٩م (١١ شوال عام ٣٢٧هـ). وفي هذا اليوم قام الخليفة المسلم، الذي

لم يتمكن من تبرير ذلك اللقب الذى أطلقه على نفسه وهو «الناصر» بتجميع بقايا قواته التى سحقت فى الميدان وقرر العودة إلى قرطبة. وقبل أن يصل إلى عاصمته، سبقته طلائع عهد إليها بأن تذيع على الأهالى بأنه مازال حيا ويتمتع بكامل صحته، وأن تنقل أوامره بضرورة تعليق المشانق على ضفاف نهر الوادى الكبير. وما إن وصل العاهل، حتى قام بصلب ثلاثمائة من ضباط الفرسان لخيانتهم وجبنهم فى المعركة، بينما نادى المنادون : «تلك هى عقوبة الذين خانوا الإسلام، وباعوا أوطانهم وشعوبهم، وغرسوا الخوف فى صفوف المقاتلين فى الحرب المقدسة»(٨٠).

خصص المؤرخ دوزى، لما أسماه «معارك شنت منكش والخندق»، بضع صفحات، تعد، إلى الآن، ذات قيمة كبيرة. ودون أن يعتمد على النصوص العربية فقط(٨١)، التى تحتوى على تلميحات موجزة عن الكارثة التى عاناها عبد الرحمن الثالث، فقد اعتمد على النص الهام الذى أورده سامبيرو(٨٢). يروى سامبيرو وقائع النصر الذى حققه ملك أشتوريش وليون، ثم يتعرض للاجراءات التى اتخذها، بعد ذلك بشهرين، حتى يعمل على إعادة إعمار وادى «تورمس» فى إقليم شلمنقة، وذكر، إلى جانب شلمنقة، المدن التى كانت تحظى بوجود حامية ثابتة، مثل : ليديسما، لوس بانيوس، بتيا أوسنيدى، ومدينة أخرى تعرف باسم الخندق(٨٣). وبناء على مثل هذا التلميح، سمح دوزى لنفسه لكى يؤكد بأن القوات المسلمة ظلت ملاحقة من قبل قوات راميرو الثانى إلى أن وصلت إلى مدينة الخندق هذه فى وادى نهر التورمس، أى، على مسافة بضعة كيلومترات على الأقل، وفى اتجاه لم يكن على الاطلاق يؤدى إلى قرطبة. ومن الواجب أن نرفض مثل هذا التفسير للأمور، هذا إلى جانب تفسير آخر، ظهر حديثا، والذى يحاول أن يجعل من الخندق المشار إليه هو نفسه مدينة ألابندييجو. والأمر الذى يجب الركون إليه هو أن سامبيرو قد خلط بين اسم مدينة «الخندق» الذى يعنى فى العربية هذا الاسم، وبين الخندق الدفاعى الذى تم حفره حول شنت منكش، وسقطت فيه قوات الفرسان الأموية، حسبما يذكر ذلك نصا المؤرخ ابن الخطيب، حين تابعتها أفراد الكتائب المسيحية الجسورة التابعة لملك ليون وأشتوريش.

وأيّا كان الأمر، فإن الضربة التى تلقاها الجانب المسلم كانت قاسية ومؤلمة وخاصة لما كان يحظى به العاهل الأموى من مكانة رفيعة. وقد وقع أبو يحيى محمد بن هاشم فى الأسر، وأمر راميرو الثانى، الذى لم يغفر له تقديمه يد العون والترحيب بالخليفة المسلم حين قدم لتحرير عاصمة الثغر الأعلى، بايداعه السجن فى ليون، والذى ظل به طيلة عامين قبل أن ينال حريته مرة أخرى. وقد أقسم عبد الرحمن الثالث

ليأخذن بثأره، ولكنه، عاد وفكر فى الأمر ثانية، فرأى أنه لايجب، مثلما دأب على ذلك منذ اليوم الأول لعهده، أن يعرض شخصه لما قد تسفر عنه نتائج الحرب من سلبيات وأن يجعل نفسه على رأس الحملات الصيفية وغيرها، فعهد بقيادتها منذ ذلك الحين إلى أحد قواده وجنرالاته. ومن جانبه، فقد كسب عاهل ليون بانتصاره ذائع الصيت على المسلمين سمعة فاقت حدود مملكته. ويذكر المؤرخ سانت جال، فى كتابه، المؤلف عام ٩٥٦م، أن الملكة تودا قد اشتركت شخصيا فى معركة شنت منكش على رأس قواتها من سكان جبال البشكنس. كما يذكر القس لويتبراندو فى مؤلفه، الذى كتبه فى فرانكفورت عام ٩٥٨م، النجاح الذى حققه راميرو الثانى(٨٤).

أحدث هذا النجاح إنطباعا حيًا داخل الأوساط الملكية فى أوروبا الغربية، رغم أن عبد الرحمن الثالث قد محاه دون مجهود كبير.

ويعد شنت منكش، بدى راميرو الثانى، حقا، وعلى العكس مما كان منتظرا منه، أقل تطلعا للهجوم على المملكة الاسبانية – الأموية، إذا كان لزاما عليه أن يواجه الأحداث الداخية التى تهدد عرشه هو، وأفرزها النشاط البدائى لكونت قشتالة فردلند القومس. كان هذا السيد، الذى خلّده الشعر الاسبانى القديم وحصد، عن جدارة، جانبا كبيرا من أوسمة الانتصار المسيحى فى عام ٩٣٩م، ابنا للكونت جونثالو نونيث وكان ينحدر من أصل عائلى يتصل بقاضى قشتالة المدعو نونيو راسورا. كان يقيم بصفة دائمة فى بوروجوس وحكم، باسم عاهل ليون وأشتوريش، أراضى قشتالة وولبة. ومنذ الوقت الذى أذاع فيه إنذار التهديد المسلم لمدينة وخشمة فى عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، ظل يشارك فى كل المعارك التى نشبت ضد قوات عبد الرحمن الثالث. وفى عام ٩٤٠م، بعد معركة شنت منكش بعام واحد، عمل على إعادة إعمار المدينة المعروفة باسم سيبولبيدة. رأى فى ذلك الوقت أنه لم يتأخر بعد فى الانتقام من أربعة من أقاربه، الذين قام أوردونيو الثانى باعدامهم قبل قليل فى ليون، بعد أن استقدمهم إلى ناجرة، ليستوضح منهم موقفهم الخاطئ، وبعد ذلك أعلن تمرده على ملك ليون راميرو الثانى. لم يتردد هذا الأخير فى محاربته، حتى أمسك به وأودعه السجن فى ليون، وجعل على قشتالة أسور ڤيرنانديث، أحد رجالات ليون المشهورين، بدلا منه (٩٤٣م). مر وقت قبل أن يقرر راميرو الثانى، أمام تهديدات أصحاب قشتالة الذين ظلوا على وفائهم لما كانوا يسمونه بالبطل الوطنى، اطلاق سراح فردلند القومس، وجعله على رأسهم، شريطة أن

يعلن الكونت تخليه عن أملاكه الخاصة، وأن يقسم له يمين الولاء، وأن يزوّج ابنته أوراّكا لابنه الوريث، الذى سيكون وريثا للعرش مستقبلا، أوردونيو الثالث. عملت هذه الشروط على توسيع الهوة بين ليون وقشتالة، حتى وضعت قشتالة حدا لهذا الشقاق. ولهذا فقد كانت مدرسة التاريخ الاسبانية الحديثة محقة فى أن جعلت من فردلند القومس البطل الأول لعملية استقلال قشتالة(٨٥).

أدى غياب قوات قشتالة فى الحملات إلى حرمان راميرو الثانى من كثير من وسائله الحربية، ولهذا أصبح دوره قاصرا، فى وقت مبكر، على الدفاع فقط. انتهز عبد الرحمن الثالث هذه الظروف. وفى العام نفسه الذى شهد كارثة شنت منكش، كلف جنراله أحمد بن يعلى بالاغارة على حدود ليون. هذا بالإضافة إلى بعض العمليات الأخرى من هذا القبيل فى وقت لاحق، دون أن تكون لها أضرار فى الجانب الأندلسى، الذى حقق نجاحات مؤقتة فى بعض الأحيان. وفى عام ٩٤٤م (٣٣٢هـ) قاد الجنرال أحمد بن محمد بن إلياس المعسكر العام للثغر الأوسط من طليطلة إلى مدينة سالم(٨٦). وذلك بعد أن أدى غالب، أحد موالى الناصر، المهمة التى أوكلت إليه ببناء القلعة القديمة، والتى لم تستضف منذ وقت طويل أية حامية مسلمة، كما انتهى من اعادة إعمارها بنفس الطريقة التى كان يتبعها أهالى ليون فى إعمار قلاعهم الواقعة على الخطوط الاستراتيجية لنهرى الدويرة والترمس. وبهذه القلعة الجديدة، التى علت فى الهواء كحارس على واجهة قشتالة، بدأ المسلمون يتمتعون، من الآن فصاعدا، لخدمة عملياتهم ضد اسبانيا المسيحية، بقاعدة متطورة، وكانت فى فترة المنصور ابن أبى عامر تستحق الحديث عنها بإسهاب كبير. وفى العام التالى لتأسيس مدينة سالم، قام جنرال أموى آخر، يدعى قند، أحد الموالى(٨٧)، بمغادرة طليطلة للإغارة على اقليم شلمنقة. وفى عام ٩٤٨ أو ٩٤٩م (٣٣٧هـ)، تمكنت صائفة مسلمة، فى حملة جريئة، من التوغل بعمق فى أراضى جليقية، ربما وصلت إلى أورتيجيرا(٨٨). وفى شتاء عام ٩٥٠م (٣٣٩هـ) شن الجنرال أحمد بن يعلي هجوما مفاجئا فى نفس الاتجاه واستولى على ثلاث قلاع - لانعرف أسماءها، ثم حمل معه آلاف الأسرى.

لايتحدث المؤرخون الاسبان عن هذه الحملات الهجومية المتعددة، بل ويتكلمون عن تحطيم راميرو الثانى، فى نفس الفترة، لجيش أموى بالقرب من طلبيرة، فى وادى نهر التاجو. كان هذا الانتصار، على فرض حدوثه، آخر نصر له، حيث وافته المنية

بعدها بقليل، فى يناير عام ٩٥٠م (٣٣٩هـ)، كما أوضح ذلك دوزى، معتمدا فى نفس الوقت على المعلومات التاريخية العربية والوثائق اللاتينية المعاصرة[٨٩].

قرطبة ومملكتا ليون وبنبلونة فى السنوات الأخيرة لحكم الناصر ٩٥١-٩٦١:

عندما اختفى راميرو الثانى من الساحة الاسبانية، كان عبد الرحمن الثالث، عدوه وغريمه، فى أوج سلطانه. فقد قبع على قمة عرش الأندلس مايقرب من أربعين عاما وأطلق على نفسه أسمى الألقاب طيلة عشرين عاما، وماتجرأ أسلافه على الاطلاق أن يتطلعوا إليها. لم يتوقف عبد الرحمن الثالث عن بذل جهوده ليحول شمال المغرب إلى اقليم تابع للامبراطورية الأموية - وفى نفس الوقت، ليجعلها ثغرا دفاعيا فى مواجهة النزوات العدوانية للفاطميين ولأتباعهم فى المغرب، لكن موت عدوه الجسور، ملك أشتوريش وليون، فتح أمامه آفاقا جديدة للجهاد المثمر. باتت خلافة العاهل المسيحى أمرا صعبا، ودب الخلاف بين ورثته - الأمر الذى يمكن تفسيره على أنه من تدبير العناية الإلهية - وكلها أمور دفعت بعبد الرحمن الثالث إلى تحقيق المزيد من الانتصارات، وذلك حسبما يذكر أحد المؤرخين العرب[٩٠].

أنجب راميرو الثانى من زواجه الأول بتاراسيا، المعروفة كذلك باسم فلو رنتينا، ولده، أوردونيو الثالث. تزوج بعد ذلك بأوراكا، ابنة سانشو جارثيس الأول، والملكة تودا (أخت وريث العرش على بنبلونة، جارثياسا نشيث الأول، كما أنجب ابنة أخرى هى أوراكا، متزوجة بالكونت القشتالى فردلند القومس) وقد أنجب راميرو الثانى من زواجه الأخير بأوراكا ولدا، هو سانشو الأول، الذى أصبح أميرا لأشتوريش وليون، وحفيدا للوصية بؤدا وابن أخ للملك جارثيا الأول، ملك بنبلونة، وكونت قشتالة فردلند القومس. وكان هذا الأخير، كما رأينا، صهرا لأوردونيو الثالث، الابن الأكبر لراميرو الثانى. وهكذا فقد حصل التشابك فى هذه القرابة بالإضافة إلى التعقيدات التى من الممكن أن تنجم عنه.

كان أوردونيو الثالث الابن الأكبر لأبيه، ومن أجل هذا أصبح هو المرشح لخلافة والده، وبالفعل، ملك عرش ليون إثر وفاة والده؛ وربما أن ذلك قد حدث حتى يصبح بامكانه مواجهة التحالف الذى عقد العزم على هزيمته وتنصيب أخيه سانشو الأول مكانه. ولم يكن سانشو الأول الوحيد الذى مد يده لهذا التحالف، بل شاركته فى ذلك الملكة تودا، بوازع من اهتماها بحفيدها، بالإضافة إلى الكونت فردلند القومس، الذى

كان شغوفا بابن أخيه سانشو كتعبير عن احتقاره لأوردونيو الثالث، الذى وجد نفسه مضطرا لتزويجه ابنته أوراكا بعد أن أملى شروط الذلة والهوان(٩١).

ومع كل هذا، تمكن أوردونيو الثالث من تحقيق النصر على هذا التحالف وهزيمة المتآمرين أمام سور ليون. ثم اضطر بعد ذلك للذهاب إلى جليقية ليطفئ نيران التمرد هناك، وفى هذه الأثناء، لم يشأ عبد الرحمن الثالث أن يضيع الوقت، حيث وجد الفرصة ملائمة للإغارة على الأراضى التابعة لملكة ليون. وقد تلقى القادة العسكريون فى الثغور أمرا بضرب كل المواقع الحيوية على الحدود الاسبانية المسيحية. وفى عام ٩٥١م (٣٤٠هـ) والعام الذى تلاه، حصد المسلمون نجاحات كبيرة فى الأراضى المجاورة لجليقية، طلبيرة والثغر الأعلى. وفى ٩٥٣م (٣٤٢هـ) شن الجنرالان أحمد بن يعلى وغالب حملات مثمرة، على أراضى جليقية، خاصة، أرسلا على أثرها شحنات كاملة من الصلبان والأجراس إلى قرطبة، حيث استقبلت من جانب الأهالى بفرحة غامرة. وفى شهر يوليو عام ٩٥٥ (ربيع الأول ٣٤٤هـ) تجمع الضباط المسلمون القائمون على الحدود لمهاجمة أحد حصون قشتالة، فكبدوا العدو خسائر فى الأرواح لاتقل عن مائة ألف قتيل، على الرغم من محاولة أوردونيو الثالث الرد على ذلك، فخرج وقد عزم على سلب ونهب لشبونة - بينما حقق صهره فردلند القومس نجاحا بالقرب من سان إستيبان دى جورماث -، إلا أنه قد وجد نفسه مضطرا فى النهاية إلى الدخول فى مفاوضات، وبعد هزيمته الساحقة فى عام ٩٥٥م، أُرسل إلى قرطبة سفيرا فى طلب الهدنة. لم يعترض الخليفة على توقيع معاهدة، طالما أنها ستكون ذات فائدة بالنسبة له، وبالفعل، أرسل إلى ليون فى العام التالى، أحد الوجهاء من أعضاء المجلس الملكى يدعى محمد بن حسين، بصحبة اليهودى أبو يوسف هصداى؛ كان يتمتع بثقافة واسعة، يجيد العبرية والعربية واللاتينية واليونانية واللهجات الرومانسية إجادة تامة؛ كما كان طبيبا مشهورا، لعب دورا هاما فى بلاط قرطبة، حيث اشتغل بإدارة المكاتب المالية، واضطلع بأمور الترجمة فى الوقت الذى كان يفد إلى العاصمة سفارات مسيحية(٩٢). كما استطاع نائبا النصر أن يحصلا من أوردونيو الثالث على بعض التنازلات، فقد بات أمرا واقعا أن تسلم مجموعة كبيرة من الحصون القوية على الحدود إلى المسلمين، أو على الأقل، يتم إخلاؤها. فى هذه الظروف العصيبة أبدى عاهل ليون، رغم كل شئ، تفاؤله، وتم توقيع الاتفاقية من جانب الخليفة القرطبى بالعاصمة، فحظيت بموافقة وريثه للعرش، ابنه الحكم، الذى كان يبلغ من العمر أربعين عاما، وأصبح له دور فاعل فى إدارة الملكه. ومن جانبه، طلب الكونت فردلند القومس الهدنة ثم أجيب إليها.

وعلى مايبدو فإن تصفية التهديدات المسيحية باتت مرهونة بإخضاع مملكة نبرّة، أو إجبارها، بأى وسيلة أخرى، على تعديل موقفها العدائى، عندما مات فى العام التالى (خريف ٩٥٦م)(٩٢) أوردونيو الثالث فى سمّورة. رفض ابنه سانشو الأول، الذى خلفه دون ما صعوبة، توقيع بنود المعاهدة التى اتفق عليها سلفه مع قرطبة. لم يتأخر رد الفعل على مثل هذه الأعمال : ففى صيف عام ٩٥٧م (٣٤٦هـ) خرج الجنرال أحمد بن يعلى لمهاجمة ملك ليون الذى نُصّب حديثا على العرش، وألحق به هزيمة كبيرة. يضاف هذا الفشل الذريع الذى منى به سانشو الأول إلى الاحتقار الذى عبر عنه أهالى ليون تجاه ملكهم الجديد، الذى أصيب بالسمنة المفرطة التى أدت إلى ظهوره فى صورة رجل شبه مشوه ومنعته من ركوب الخيل، ولهذا أصبح يلقب بالبدين (السمين). على الرغم من أن عمه الكونت فردلند القومس قد قدم له يد العون منذ وقت قليل ضد أوردونيو الثالث، إلا أنه قدم الدعم لأشراف ليون حين أرادوا خلع هذا العاهل الذى أصبح محل سخرية الجميع. وهكذا، فقد طُرد سانشو الأول من ليون فى عام ٩٥٨، فذهب لينضم إلى جدته تودا، فى نفس الوقت الذى ملك العرش بعده أمير لم يكن أوفر حظا من سابقه المخلوع فى مجال السخرية والاستهزاء، فقد حبته الطبيعة جسما محدبا، وأخلاقا وضيعة : انه أوردونيو الرابع، الملقب بالشرير، ابن ألفونسو الرابع الراهب، الذى تزوج من أوراّكا، ابنة فردلند القومس ملك قشتالة، أرملة أوردونيو الثالث.

قامت تودا العجوز – التى مازالت تحتفظ بصفتها وصية للعرش رغم أن ابنها سانشيث الأول قد بلغ منذ وقت بعيد السن اللازمة لتوليه العرش بنفسه – باستقبال حفيدها بكل أنواع الترحيب، بعد أن خلع عن عرش ليون، وفكرت منذ البداية فى أن تعالجه من تلك السمنة التى أصابته فحولته إلى إنسان لانفع من ورائه، ثم تعمل بعد ذلك على استرداد عرشه مرة أخرى. ولكن ملكة نبرّة لم تكن تتسلح بالادوات التى تمكنها من تحقيق هدفها : معالجة حفيدها واسترجاع عرشه. ولماذا لاتذهب – فكرت الملكة – إلى خليفة قرطبة، والذى يعد، فى الحقيقة، من أبناء بلدها، إذ تجرى فى عروقه بعض دماء البشكنس من الملوك، فأرسلت إليه رسولا. كان هذا العرض من أسمى مايمكن أن يتطلع إليه : طالما أنه سوف يعود على امبراطوريته بالنفع. فوقع الاختيار فى هذه المرة أيضا على اليهودى حصداى ليذهب إلى بنبلونة من أجل التفاوض، حيث كان يتمتع بمميزات كثيرة وعظيمة كطبيب ودبلوماسى. فبإمكانه معالجة الملك المخلوع من داء السمنة والحصول منه على تنازلات لصالح المسلمين، كما يقوم بعرض بعض المسائل الهامة عليه مثل : أن تفد الملكة تودا وابنها جارثيا وحفيدها سانشو الأول

للتعبير عن إجلالهم للخليفة. وهكذا، استطاع حصداى أن يقوم بمهمته التى حققت نجاحا فى كل نقاطها : فقد وصف لسانشو علاجا ونظاما خاصا يتبعه عند تناول الطعام مكنه من القضاء على الداء الذى عانى منه طويلا؛ وحصل منه على تعهد بأنه بمجرد أن يسترد عرشه مرة أخرى سوف يعيد إلى المسلمين عشرة حصون قويّة، وأخيرا، تمكن بما لديه من مهارة وحذق، من أن يقنع الوصية على العرش تودا بأنها ستكون الرابحة بمجرد أن تقوم فقط بزيارة يصحبها فيها ابنها وحفيدها، إلى قرطبة، حيث أكدّ لها أن الضيوف الملكيين سوف يلقون معاملة طيبة تتناسب مع أصولهم الرفيعة.

ليس هناك من سبب على الاطلاق يجعلنا نأخذ مثل هذه الزيارة التى قامت بها تودا وابنها جارثيا الأول وسانشو الأول حفيدها، إلى قرطبة عاصمة الأندلس باعتبارها مجرد «اختراع شرقى»(٩٤)، حيث توجد بين أيدينا شهادة رسمية من ابن خلدون(٩٥)، والذى لم يكن له، بداهة، أن يلفق التاريخ وأن عليه أن يأخذ مثل هذه المعلومات من مصدرها المعتاد فى تلك الفترة، وهو تاريخ ابن حيان. تم اللقاء بين الخليفة وضيوفه فى مدينة الزهراء، حيث حضرها كبار مجلسه. وإذا لم تكن التفاصيل قد تواترت لدينا عن مثل هذا اللقاء، فلدينا الكثير منها بالنسبة للاستقبال الذى أقامه، بعد ذلك بأربع سنوات، أى فى ٩٦٢م (٣٥١هـ) الحكم الثانى، بعد أن أصبح خليفة للملك أوردونيو الرابع. وعلى كل ففى اللقاءين أقيمت احتفالات ضخمة وزينات باهرة، كما أقيمت المراسم والاستقبالات بنفس الصورة التى كانت تقام للأمراء والدبلوماسيين، تبعا لما سنراه فيما بعد.

وعلى كل، فما كانت الزيارة غير ذات فائدة : حيث حصل سانشو الأول من ورائها هدفا ساميا، إذ توجهت أول صائفة مسلمة ضد ابن عمه أوردونيو الرابع فى ليون، بينما تودا وجارثيا الأول قد قاما بتدبير هجوم تمويهى على قشتالة بهدف الامساك بفرولند القومس على الحدود الشمالية لمملكته. قام الملك المخلوع بمرافقة جيش قرطبة الذى حاصر فى ربيع عام ٩٥٩م (٣٤٧هـ) سمّورة واستولى عليها. وبعد ذلك بأسابيع، تمكن سانشو من استعادة الجزء الأكبر من أملاكه، وأصبح أوردونيو الرابع مضطرا للبحث عن مكان يلجأ إليه هربا، فتوجه إلى أشتوريش، تاركا مدينة ليون، التى عاد إليها سانشو ليعتلى العرش فى النصف الأول من عام ٩٦٠م. وهنا أظهر أهالى نبرّة وفاءهم لعهودهم، فهاجموا فردلند القومس، ووقع فى أيديهم أسيرا فى نفس العام على مسافة بضعة أميال غرب ناخيرا(٩٦). وبعد طرد أوردونيو الرابع

من أشتوريش، خرج يبحث عن مهرب فى الأراضى التابعة لبرغش. وبعد ذلك، وبالتحديد فى ١٦ أكتوبر عام ٩٦١م (٢ رمضان ٣٥٠هـ)، أدركت المنية عبد الرحمن الثالث فخلفه ابنه الحكم الثانى.

على مدى الصفحات السابقة لم نشغل أنفسنا بالحديث عن علاقات الدولة الأموية، تحت ولاية عبد الرحمن الثالث (الناصر)، بالممالك الأفرنجية فى الثغر الاسبانى القديم. ولم يذكر المؤرخون العرب حتى مجرد إشارة إليها، فيما عدا ابن خلدون الذى ينبهنا، فى كلمات بسيطة عن ابن حيان(٩٧)، إلى أن السفارة التى أرسلها جيماركس دى توسكانا إلى قرطبة (حوالى عام ٩٥٠ على وجه التقريب). قد ذهبت إلى العاصمة الأندلسية يرافقها أحد أعضاء مجلس «أمير برشلونة وطركونة» هو مغيرة، ابن سونيير، هذا الاسم العربى غير المنتظر يعطى، بداهة، اسما لأحد خلفاء ويفريدو المشعر، إما أنه اسم ابنه سونيير، الذى غالبا ماقيل عنه أنه ظل يمارس سلطته الملكية منذ ٩١٢م وحتى ٩٥٤م، وإما أنه اسم لأحد ابناء هذا الأخير، بوريل أو ميرون، وهذا هو الاحتمال الأكبر. ليس من الأهمية بمكان الآن أن نعرف اسم كونت برشلونة الذى أبدى رغبة مبكرة فى ترسيخ العلاقات مع عبد الرحمن الثالث، أيا كان نوعها(٩٨). وسنقصر كلامنا على جانب من القول جد بسيط، يتلخص فى أن أكبر أمراء الفرنجة أهمية فى الثغر الاسبانى القديم قد بادر بطلب الدخول فى معاهدة هدنة وحسن الجوار مع قرطبة. وعليه، فمن المحتمل أنه على مدار هذه الفترة كلها، أصبحت العلاقات بين أسبانيا الأموية والدويلات الفرنجية، على جانبى منطقة البرانس، تسير فى اتجاه سلمى(٩٩). وأصبح علينا أن ننتظر حتى نهايات القرن العاشر لكى نرى برشلونة بعد أن أصبحت هدفا للحملات الهجومية من جانب الحاجب «أميرى المنصور» ومن بعده قام بها ابنه عبد الملك المظفر. ومع هذا، علينا أن نبرز أنه، فى ظروف لانعلم شيئا عنها حتى الآن، عادت طركونة، التى يذكرها ابن خلدون كمنطقة تابعة لنفوذ كونت برشلونة، إلى أيدى المسلمين فى أواخر حكم الناصر : ويفصح نقش موجود على سور أحد الأروقة بكتدرائية مدينة برشلونة، عن إحيائه لذكرى انشاء وزخرفة المسجد الكبير لإحدى المدن (والتى لايمكن أن تكون مدينة أخرى غير طركونة القديمة) بأمر من الخليفة، وتحت إشراف الفتى جعفر، أحد ضباطه الصقالبة(١٠٠).

– وفى المادة التاريخية التى كتبها المؤرخون العرب – الاسبان عن عهد عبد الرحمن الثالث الذى استمر حقبة طويلة من الزمن، والذين عبروا فيها عن ولائهم الشديد لمفهومهم التقليدى للتاريخ، نجد مجالا كبيرا للاسهاب فيما يتعلق بالانتصارات،

بينما تضيق المساحة المخصصة للفشل الذى منيت به القوات المسلمة-؛ فالاشارات التى تنطوى على مديح أكبر تأتى مرتبطة دائما بالنتائج التى حققها وأنجزها خليفة قرطبة الأول فى صراعه مع المسيحيين الاسبان. وفى هذا الأمر نجد مغالاه واضحة، إذ أنه مقارنة بالتميز العسكرى الساحق للأمويين فى منتصف القرن العاشر، فهذه النتائج تبدو، للوهلة الأولى، قليلة الغاية، إذ أنها لم تترجم عمليا إلى ضم أراضى ذات قيمة بالنسبة للمملكة، هذا بالإضافة إلى عدم التعرض للحديث عن ضم أى إمارة مسيحية في شمال شبه الجزيرة، مع مافى ذلك من منفعة للجانب المسلم. وقد كان هذا هو الهدف الذى من المفروض أن يسعى إليه حاكم قوى مثل أمير قرطبة، ومع هذا، فلم يبدو أن عبد الرحمن الثالث، ولاحتى فى أخريات حياته الزاهرة، قد ترك المجال مفتوحا أمام طموحات التطلع إلى هذا الهدف. لقد أعرب عن فرحه لما كانت تدره عليه الصوائف التى قام بها قواده من فائدة أثناء فترات الصيف. وعليه فقد مكّن فى هذا الجانب من منطقة البرانس، للهيمنة الكبرى للنفوذ الخلافى الذى بات من الخطأ أن يتطلع أحد للحد منه. وبعد أن أنجز مهمام الوحدة الداخلية وأصبح فؤاده فارغا من أىّ همّ داخلى، أخذ، عاما بعد آخر، يتابع باهتمام التصرفات السياسية للممالك المسيحية المجاورة لأملاكه، ونادرا ماكان يترك لجيرانه الذين كانوا يعيشون حياة مضطربة بأن ينزعوا من بين براثنه زمام المبادرة فى الهجوم. وفى النهاية – فى الوقت الذى بدى ضعفهم له جليًا نظراً لصراعاتهم الداخلية –، عرف كيف يفرض إرادته عليهم. ومن بين جميع الملوك الذين تقلبوا فوق عرش أشتوريش وليون، وتتابعوا فى سرعة واحدا تلو الآخر أثناء ولايته التى دامت مايقرب من نصف قرن، تمكن واحد فقط من إعلان تمرده فى وجه الخليفة كعدو ند : إنه الجسور راميرو الثانى. أما الملوك الذين خلفوا هذا الذى انتصر على المسلمين فى معركة «خندق شنت منكش» فقد اضطروا، طوعا أوكرها، لتقديم مظاهر الاجلال والتكريم للخليفة الأموى : هكذا فعل كونت قشتالة الجسور فردلند القومس، والوصية العجوز تودا وابنها الملك جارثيا سانشيث، هذا إلى جانب كونت الفرنجة صاحب إمارة برشلونة.

ولم يكن الأمر يقف عند حد تقديم مظاهر الاجلال والاحترام، فى صورة رسمية، وإنما كان يتعدى، بدوره، إلى إبرام المعاهدات والاتفاقيات التى انطوت على فوائد عظيمة فى الجانبين الاستراتيجى والمالى : تسليم أو هدم الحصون القوية القائمة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، وخاصة، القيام بدفع جزية منتظمة فى مدة الهدنة إلى خزانة الخلافة. ولم يكن هذا التقليد المتبع فى الجزية المفروضة على الدويلات المسيحية، حقا، قد بدأ فى عهد عبد الرحمن الثالث فى شبه الجزيرة الأيبيرية(١٠١)، إلا أنه هو

الذى استـأنف العمل به، بعد فترة انقطاع طويله تعزى إلى ظروف قاهرة. وفى أواخر فترة حكمه، كان ملوك ليون وبرغش وبنبلونة – وربما انضم اليهم أيضا كونت برشلونة – يدفعون سنويا لقرطبة عوضا عن مدة الهدنة، لانعلم قدره، رغم أنه بإمكاننا أن نتوقع أن المبلغ كان كبيرا. وإذا ماتوقفت هذه الدويلات لسبب أو لآخر، عن دفع هذه المبالغ فى المدة المحددة، كان الخليفة يأمر بانزال العقاب الكلاسيكى المعروف بها، وذلك بإرسال حملة تأديبية إليها من بين تلك التى أصبح ديدنها الاضطلاع بهذه المهمة. كان دفع الجزية يستمر طوال فترة الهدنة المؤقتة، وتتوقف هذه الهدنة بسبب الامتناع عن الوفاء بالالتزام من جانب من التزموا به، حين يحجمون عن تسديد حصتهم التى يرونها صغارا لهم؛ استمر الوضع على ماهو عليه طوال عهد الحكم الثانى ومن بعده. وغالبا ما استمر هذا طالما أن القوات المسلمة تؤكد بقوتها هيبة الاسلام وسطوته ونجاحه المطلق داخل إسبانيا؛ وخلال تلك الفترة تمكن الاسلام من إحباط الجهود المبذولة من جانب أبطال حركة الاسترداد المسيحية.

لم تتوقف ردود أفعال الهيمنة العسكرية التى لاتقبل المناقشة للامبراطورية الأموية، والثراء الذى لاحد له لبيت المال – والتى رأينا بجانبها موارد لاتذكر للامارات المسيحية الاسبانية – هذا بالإضافة إلى ردود أفعال ازدهار الحضارة الأندلسية فى منتصف القرن العاشر عند الحدود الاسبانية، وعبورها إلى بلاد ماوراء البحر، ودول أوروبا الغربية جميعها، هذا بالإضافة إلى بلوغها أراضى الامبراطورية البيزنطية. وفيما بعد سوف نرى كيف توافدت السفارات الأوروبية على العاصمة الأندلسية. ولكن شهرة وصيت مملكة قرطبة لم تكن أقل شيوعا فى العالم الإسلامى الواقع على البحر الأبيض المتوسط، وخاصة فى بداية الوقت الذى قام فيه عبد الرحمن الثالث – كما سندرس الآن – بأعمال توسع أموى كبير داخل مراكش وبقية الشمال الأفريقى، وذلك بغرض تكوين جبهة مضادة للنفوذ الفاطمى وحلفائه من البربر، ولتأكيد سلطان الدولة الأموية التى أحيت فى إسبانيا السمعة القديمة لأسلافهم فى سوريا.

٣– النزاع بين الأمويين والفاطميين في المغرب، سياسة عبد الرحمن الثالث في أفريقيا البربر في أوائل القرن العاشر – بداية الحركة الفاطمية :

لم نقم حتى الآن بعمل شئ سوى الاشارة بإيجاز إلى الأحداث الخطيرة التى، على امتداد عهد عبد الرحمن الثالث، شهدها الشمال الأفريقى وأوجدت تغييرا عميقا

فى اقتصاد تلك المنطقة. وهاهو الوقت قد أصبح مناسبا للحديث عنها باهتمام كبيرا. ومع ذلك، فقبل أن نقوم بسرد ونقد مثل هذه الأحداث بالقدر الذى أثرت فيه على اسبانيا الاسلامية أو بالذى شاركت به اسبانيا فى صنعها، فإنه من المناسب أن نعود إلى الوراء قليلا لنشرح كيف كان الوضع السياسى للبربر فى الوقت الذى كانت فيه الحركة الفاطمية قد وجدت فى هذا البلد تربة ملائمة لنموها وإنشاء إمبراطورية جديدة، والتى سرعان ماوقعت المواجهة بينها وبين مملكة قرطبة.

إن الصـراع الذى نشب بين الجانب المسلم الأموى فى إسبانيا والخلافة الفاطمية، والذى ظهرت بوادره منذ أوائل عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) والصراعات الدموية التى سرعان ماانجمت بين أنصار الجانبين، سواء فى المغرب الأوسط أو الغربى، قد أضحت هدفا لاهتمامات موسعة من جانب المحللين فى الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط. والآن : إذا ما استثنينا، فى بعض الأحوال، ابن خلدون – آخر وأكثر هؤلاء المؤرخين تبصرا – فإن قراءة الحكايات التاريخية فى هذه الفترة المضطربة ستكون باعثا على خيبة الأمل : فالروايات تبدو فى الحقيقة معقدة ورتيبة ومتعارضة فيما بينها دائما، وخاصة، فيما يتعلق بالتواريخ. ولكى يكون حكمنا عليها صحيحا فليس أمامنا سوى اللجوء إلى الصفحات المطولة التى، رغم قدمها، فهى جديرة بالقراءة، ويتضمنها المؤلف الذى تركه لنا فورنيل. كان لابد من الوصول إلى هذه السنوات الأخيرة حتى نتمكن، فى النهاية، من أن نجعل بين أيدينا، فيما يخص تلك الفترة المعقدة والمحيِّرة، مقالاً عقلانيا نستغل به المصادر العربية المترجمة إلى لغة أوروبية ونترجمها، وخاصة تلك التى تتمتع بحساسية عالية فى استخدامها من جانب المؤرخين من غير العرب. وأيًا كانت التحفظات التى يدفع اليها باستمرار مايقوله المؤلف وعجز عن التوافر على النصوص الأصلية، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن المقال الجرئ لجويتر حول «القرون المظلمة فى المغرب»(١٠٢)، يسمح لنا بأن نتصرف فى ملاحة شديدة، فى أعماق تاريخ غامض وسط مجموعة من التواريخ أكثر منه غموضا بعد، وأن هذا التاريخ يظل غير قابل للتفسير، أو محملا بكم هائل من التخمين والحدث، إذا، حذونا مثل المؤرخين المسلمين الذين يروونه، وأردنا أن نلزم أنفسنا بعرض موجز للأحداث السياسية، دون أن نأخذ فى الحسبان الدوافع – العنصرية والدينية والاجتماعية، التى أدت إلى وجودها باستمرار. ومن ثم، فإن رواية مثل هذه الأحداث هنا بكامل تفاصيلها يعد ضربا من المحال. وسوف نقتصر هنا على تقديم رسم مجمل سريع، دون أن نعرض غير البيانات التاريخية الأساسية، ودون أن نقدم سوى الاشارات الخاصة بالتواريخ البارزة والهامة.

في أواخر القرن التاسع كان الشمال الأفريقي مازال مقسما إلى ثلاث دويلات تمتد من شرقه إلى غربه : مملكة الأغالبة في إفريقية والمغرب الشرقي، والإمامة الرستمية في المغرب الأوسط، ومملكة الأدارسة في مراكش. أما المملكتين الأوليين فقد محقتا بمجرد ظهور الموجة الفاطمية. كانت مملكة الأغالبة، في الفترة السابقة على نهايتها، في فترة انحطاط تام. كان ملوكها يقطنون القيروان، عاصمتهم الرسمية، أو رقادة، مقر إقامتهم الخاص، وكانو يعيشون فيها حياة متوسطة الحال، مضطربة، تتخللها ثورات قبلية في بعض الأحيان. أو مؤامرات داخل القصور. وفي ناحية الغرب لم يكد سلطانها يتجاوز اقليم قسطنطينة؛ أما فيما يتعدى ذلك فقد كانت أوضاعها مزعزعة، عندما لم تكن تجمع بينها وبين جيرانها من الرستميين نزاعات تذكر، كانت عاصمتهم تدعى تاهرت، وقد سيطر الرستميون، في ظروف لانعرف عنها شيئا، على المنطقة السهلية الممتدة جنوب الجزيرة الخضراء الحالية، في اتجاه الهوندا والزاب. وقد كانت علاقات هؤلاء الأئمة الخارجين بجيرانهم البدو الذين تجمعوا تحت راية الاتحاد الكبير لبربر زناتة، تتميز، غالبا، بأنها علاقات ثقة وصداقة. غير أن الأسس التي استندت عليها تلك الدولة الفتية الثيوقراطية في تاهرت ظلت هشة، ولم تتمكن من الصمود أمام الدفعة الأولى من الموجات الفاطمية.

بدأ الوضع في مراكش أكثر تعقيدا، وهو مايستحق أن نكرس له بحثا أكثر دقة وروية، حيث أنه، في هذا الوقت، أعلنت إسبانيا إصرارها الفوري على معارضتها الشديدة للفاطميين، والتوسعات التي يتطلعون إليها. ظلت هناك إمارات عديدة كتب لها البقاء على قيد الحياة : في نطاق واحات تافيليت والمدراريين في سيشيلماسه، الخارجين؛ في منطقة الأطلنطي، ومنطقة البرجواتا، والهرطوقيين على شاطئ البحر المتوسط، على أبواب شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها، وفي البارونية الصغيرة ناقور، حيث كان يحكم الصالحيون. أما بقية الدولة فقد كانت واقعة تحت أيدي الأدارسة، الذين ينحدرون من أصول ترجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (ص). إلا أن مملكتهم قد تم تقسيمها منذ الفترة التي تم فيها توزيع الأراضي التي اشتملت عليها مملكتهم بين أبناء إدريس الثاني، ومنذ ذلك الحين، وحتى نهايات القرن التاسع، أصبح تاريخ الأدارسة حافلا بالأحداث. فقد وجد الابن الأكبر لإدريس الثاني، محمد، الذي أخطأ في تخليه عن الجزء الأكبر من ميراث والده لصالح إخوته، نفسه مضطرا إلى اللجوء لبعضهم حتى يتمكن من معاقبة البعض الآخر، الذي حاول أن ينزل به الهزيمة، وأن يقدم لمناصريه، كهدية على مؤازرتهم له، أملاك المتمردين المهزومين. تولى ولدا محمد، «علي ويحيى الأول» الحكم بعده، واحدا بعد الآخر، في هدوء نفسي. أما يحيى الثاني،

ابن يحيى الأول، فقد خلع من عرشه على أيدى أتباعه من العاصمة، و ذلك بسبب حياته الخاصة التى ماكانت ترعى حياء ولاذمة، ونصب مكانه ابن عمه وصهره فى فاس، على ابن عمر، حفيد إدريس الثانى، بدلا منه. وقد تمكن الأمير الجديد، حسب ماتذكره كتب التاريخ، من أن يعيد إلى الوجود مرة أخرى الحياة إلى الوحده الإدريسية، إلا أن سلطانه قد قوبل بمقاومة من جانب عبد الرزاق الفهرى فى وشقة(١٠٤). وهو مغامر إسبانى الأصل، وفد إلى أرض حفيد إدريس الثانى، ليدعو لمذهب الخارجين السفريين. وبعد انفلات حركات التمرد فى جنوب شرق فاس، فى المرتفعات الجبلية فى بويبال، تمكن عبد الرزاق هذا، من السيطرة على ذلك الجزء من العاصمة الإدريسية، الذى سكنه، بدعوة من إدريس الثانى، الربضيون الأندلسيون المطرودون من قرطبة من قبل الحكم الأول. أما الجزء الآخر من فاس «شاطئ القرويين» فقد قاوم منتصراً، وتمكن سكانه، بمساعدة إدريس آخر، يحيى الثالث ابن القاسم، الملقب بالمقدام، من طرد المتمرد من المدينة كلها. وواصل يحيى الثالث الكفاح ضد الخارجين، إلا أنه فقد حياته فى النهاية عام ٩٠٥م (٢٩٢هـ)، وهو يصارع ضد جيوش أحد الطامعين من أسرته. كان ذلك الطامع هو يحيى الرابع ابن إدريس ابن عمر- وقد تولى السلطة بنفسه حتى خسرها، بعد ذلك بعشر سنوات، حين انتزعت الجيوش الفاطمية عرشه. وقد رفض من قبل أن يبسط نفوذه على منطقه تريمسين من أملاك كبراء زناته من فرع ماجراوة، القريبة جدا من فاس نفسها، حيث تنازع الأمر هناك شخصان : ما صالا ابن حبوس وموسى ابن أبى العافية، وسوف نعود للحديث عنهما أكثر من مرة.

وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط، نجد الأمير عبد الله، الذى حكم فى قرطبة، مشغولا بأشياء كثيرة عليه الاضطلاع بها على أراضى نفوذه، حيث واجه التمرد العام الذى قام به أتباعه، ولذلك لم يكن يولى اهتماما كبيرا بشئون إفريقية. لاندرى إلى أى مدى ترك الأمير عبد الله روابط الصداقة مع تلك المنطقة تنهار وتضعف والتى، كما رأينا، عمل أسلافه على تأصيلها مع الرستميين والمدراريين والصالحين. كما نعتقد أيضا أن مملكة إسبانيا الإسلامية قد اتبعت، خلال عهد عبد الله، سياسة مفادها تبنى المواقف المتحفظة، إذا لم تكن تتضمن العداء الصريح للأغالبة والأدارسة. ولكن ظهور الحركة الفاطمية، قبل موت أمير قرطبة ومجيئ حفيده عبد الرحمن الثالث، قد أصبح يزعزع منطقة البربر كلها (المغرب)، وليس هذا فحسب، بل تعدته إلى الأراضى الاسبانية حيث وجدت فيها صدى عميقا.

إننا لن نقدم للقارئ هنا تفاصيل، بامكانه العثور عليها فى بعض الأعمال الحديثة(١٠٥)-، حول المذهب الإسماعيلى؛ وبطريقة أكثر توسعا، عن فرقة الشيعة، التى

ظهرت في السنوات الأولى من عمر الاسلام، وذلك بسبب تنحية السلالة التى تنتمى بالنسب إلى النبى(ص) عن الخلافة (انهم أهل بيت ابنته فاطمة وصهره على)، وذلك لصالح الذين أطلق عليهم مغتصبوا الخلافة وهم : الخلفاء الثلاثة الأول، ومن بعدهم الأسرة الأموية فى المشرق ثم العباسيون. كما أننا لن نتوقف عند شرح مايتعلق بنظرية الأئمة «المرئيين» و«غير المرئيين» ومجيئ المهدى المنتظر. سنقصر حديثنا على أنه من بين الذين تولوا الدعوة للمذهب الاسماعيلى، والذى جاب العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع، يبرز واحد هو الضاهى أبو عبد الله الشيعى، والذى لمجرد تعرفه على سكان بعض المناطق الجبلية من كتامة، في مكة، وبعد أن كسب ثقتهم، قدم إلى بلدهم يجمع منهم أفرادا تعلن انضمامها السرى لمذهبه الذى بذل كل جهده من أجل نشره. أتى عام ٨٩٣م (٢٨٠هـ)؛ واستقر فى قرية إكجان، فى منطقة لم يكد يعترف فيها بسلطان الأغالبة. وكرس نفسه للمهمة التبشيرية، وبعد معاناة كبيرة، توجت مجهوداته بنجاح كبير. والآن حسنا : عندما يحقق مبشر له نفس هذه الرتبة – حيث سنرى فيما بعد أمثلة فى الغرب الإسلامى – النجاح فى مهمته الروحية التى أوكلت إليه، فإن هدفه يكمن فى الرغبة والبحث عن كسب للوقت في صالحه وصالح أتباعه : ولهذا، فإن الشيعى، بعد أن استقر طويلا بين أهالى كتامة، دخل فى صراع علنى ضد الأغالبة. وما أن علم هؤلاء بالخطر، حتى أرسلوا حملة لقمع التمرد الذى نشب لتوه فى القبيلة الصغيرة؛ ولكنهم كانوا يضيعون وقتهم، إذ أنه فى عام ٩٠٢م (٢٨٤٩هـ)، قد استولى الضاهى أبو عبد الله، فى منطقة القسطنطينة، على قلعة ميلا. وعلى الرغم من أن الأغالبة قد وجدوا أنفسهم مضطرين لاستردادها مرة أخرى، فلم يتأخر الشيعى فى اقتناصها من بين أيديهم وأن يصبح فى النهاية، بالإضافة إلى هذا، صاحب ستيف. وقد بذل عاهل أفريقيا فى ذلك الوقت، زيادة الله الثالث، مجهودات ذهبت هباءً لوقف الهجوم الذى قام به أهل كتامة، والذى بدأ يتوجه صوب الأراضى الجبلية فى أورّس، واستولوا تباعا على تبه وبيليزمة وياجاى وتيسّا، وهى الحصون البيزنطية القديمة، التى كُلفت بحراسة المدخل المؤدى إلى الجانب الغربى لأفريقيا، ولكنها كانت تخلو من حامية كافية. وبعد ذلك، وحين أصبح الضاهى صاحب قسطنطينة، وصل (فى مارس ٩٠٩م = جمادى الثانى ٢٩٦هـ) للاستيلاء على لاريبوس أكثر حصون المقاومة الأغلبية صلابة. ومنذ ذلك الوقت، أصبح الطريق إلى القيروان خاليا. وبعد أيام دخل عبد الله وحلفاؤه من كتامة إلى رقادة، تاركين للأغلبى الوقت اللازم لتمكينه من الهرب، ولم يعد أمام سكان القيروان سوى الخضوع للمنتصرين.

ورغم تلك النجاحات المدويّة، لم ينس أبو عبد الله الشيعى أنه لايعمل لحسابه الخاص، وإنما يعمل على تمهيد الطريق أمام الإمام الاسماعيلى، والذى لم يكن بالنسبة

له سوى قائد مبهم رأى القدر أن يجعله مفضلا، والذى أبدى، مؤخرا، رحمة واسعة بالفاطميين. وماكاد يحصد الانتصارات الأولى ضد الأغالبة، حتى أحاط الامام علما بذلك، فأخذ طريقه متوجها إلى المغرب، تاركا محل تواجده بأرض المشرق. كان يدعى عبيد الله(١٠٦)، وتلقى، عقب وفاة والده محمد الحبيب، تركة تلك الامامة التى لم تكن تتعدى حتى ذلك الوقت كونها مجرد نظرية بحتة. كانت المغامرة التى قام بها عبيد الله عبر مصر وليبيا وافريقيا محاطة بالسرّية. ولكن من المؤكد أنه لم يجتمع بتابعه المعروف بالضاهى، وأنه سرعان ماظهر منفيا فى الجانب الآخر من المغرب، فى سيشيلماسة، عاصمة الدولة المدرارية فى واحات تافيلتى، التى كان يقوم على أمرها إلياس ابن ميمون، الذى ما إن رأى نشاطه يعتبر موجها إلى قلب نظام الحكم، حتى قبض عليه. وكان أول ما اعتنى به أبو عبد الله الشيعى حين أصبح فى حظيرة سلطانه برقادة وقيروان، هو محاولة إخراج عبيد الله من سجنه.

ومن قيروان إلى تافيليتى سلك الضاهى طريقا اضطره للمرور بتاهرت، عاصمة الرستميين، التى استولى عليها أبو عبيد الله دون مجهود، واضعا حدا لنهاية الدولة الصغيرة للخارجين (الخوارج). حاول عاهل شيشيلماسة أن يقيس قوته إلى قوة ذلك فهاجمه أمام أسوار عاصمته، إلا أنه انهزم واضطر إلى الفرار، وما أن أطلق سراح عبيد الله من سجنه حتى تم اعلانه، وهو مايزال فى معمعة الحرب، خليفة ومهديا، ثم رحل فى صحبة أبى عبيد الله فى الحال إلى رقادة، التى وصل إليها فى أواخر ٩٠٩م (٢٩٧هـ) وتلقى يمين الولاء والطاعة من سكان القيروان. وفى سيشيلماسة ترك حامية من كتامة والتى، بعد مرور عدة أسابيع، اغتيلت من جانب السكان، ونصبوا أحد المدراريين على رأس إمارتهم.

وما إن تولى عبيد الله زمام الأمور فى مملكته حتى أبان عن قوته كعاهل، فحاول، فى غلظة وشدة، كبح جماح أتباعه من كتامة ومن غيرها. وبعد ذلك، حين بدأ عبيد الله المهدى يتشكك فى نفوذ الضاهى على الجماهير، بالإضافة إلى الشكوك التى بدأ عبد الله «الضاهى» يذيعها، بعد أن ضاق ذرعا بمغالات المهدى، حول هذا المهدى الذى لايخطئ، قرر المهدى التخلص منه، فأعدمه فى ٩١١م (٢٩٨هـ). وفى العام التالى أرسل عبيد الله جيشا إلى المغرب الأوسط وذلك بهدف تحجيم بدو زناتة من أصحاب الإمارة الرستمية القديمة، الذين أعلنوا تمردهم، هذا إلى جانب محاولة فتح تاهرت، تلك المدينة التى استعادت استقلالها، باتت من جديد فى أيدى الفاطميين، وعهد بأراضيها إلى الزعيم المكناسى ماصالا ابن حبوس، الذى، بانضمامه منذ الوهلة الأولى إلى النظام الجديد المنشق، أصبح يضيف، على مدى مشواره القصير، بأنه أفضل قائد لدى المهدى على أرض غرب المغرب.

وفي نفس الوقت، في عام ٩١٢م (٣٠٠هـ) توفى الأمير عبد الله في قرطبة، بعد أن عهد بالخلافة لحفيده عبد الرحمن الثالث، وقيادة مصير الخلافة الإسبانية الأموية.

سياسة عبد الرحمن الثالث في افريقية حتى سقوط سبته ٩١٢ – ٩٣١م :

لابد لنا من أن نؤمن بأن عبد الرحمن الثالث قد ولد يحالفه حظ كبير. ففي السنوات الأولى من عهده، رأى الخليفة الشاب، الذي ورث الأمير عبد الله، بأنه أصبح والهموم تحيط به من كل جانب، آلاف الهموم، آلام وهموم تتعلق بمناطق نفوذه، التي أحدقت بها الأخطار؛ وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : ماذا كان من أمر تلك المناطق لو أن الفاطميين المنتصرين، بعد أن تحقق لهم فتح إفريقية كلها والمغرب حتى وصلوا إلى ماوراء تاهرت بهذه السرعة، قد فكروا في استغلال هذا النصر وواصلوا تقدمهم نحو الغرب دون أن يلتقطوا أنفاسهم؟ لو أن مراكش قد سقطت في أيديهم، لدفعهم كل شئ إلى إعلان الحرب على إسبانيا لاسقاط عرش ممثل تلك الدولة التي كانوا يبغضونها كبغضهم للدولة العباسية، التي انتزعت الخلافة الراشدة والسلطة المؤقتة في الشرق الإسلامي. ولكن لحسن حظ أموى قرطبة، كان هذا المشرق هو الفريسة التي تبدت أمام أعين عبيد الله، فرأى أنه لابد من الانقضاض عليها والامساك بها على عجل. فما كان الاستيلاء على القيروان سوى حلقة أولى في سلسلة فتوحات مدروسة يجب أن تمتد حتى الشرق، عبر الصحراء الليبية أولا ثم مصر بعد ذلك. وبالفعل، ففي عام ٩١٤م (أواخر ٣٠١هـ) قام سيد الجزء الشرقي الأفريقي بأول حملة صوب وادي النيل. كما قام ابنه ووريثه في المستقبل، أبو القاسم محمد، بعدد من الحملات الجريئة التي مكنته من الزحف حتى الاسكندرية والفيوم؛ إلا أنه انهزم وانسحب على عجل ثم عاد إلى افريقية تاركا وراءه أراضي برقة وقد عمتها حركات التمرد. وفي نفس الوقت بدأ الأتباع الجدد للفاطميين يعلنون عن نواياهم في العصيان : ففي الزاب أعلنت حالة التمرد من جانب كتامة، ولكنها أخمدت؛ وفي طرابلس حاول الناس أن ينفضوا عن أنفسهم غبار العبودية لعبيد الله؛ وأما سيثليا فقد كانت مسرحا لتمرد شرعي خطير. أدت مثل هذه الصعوبات مجتمعة. بالإضافة إلى الفشل الذي منيت به أولى محاولاته على مصر، إلى الدفع بعبيد الله إلى التفكير في الأمر، بعد أن اقتصر تفكيره حتى هذه اللحظة على فرض سلطانه على الأراضي التي افتتحها ضاهيه، أبو عبد الله الذي قدم له نظير عمله هذا سوء الجزاء. وعلى جانب آخر، وفي نفس هذه الأراضي، لم تكن الدعاية التي قام بها الخوارج قد هدأت بعد، بل كانت تكسب أنصارا في أماكن عديدة.

وعلى ضوء هذا كله، وفى تؤدة، وعلى بصيرة، فكر سيد قيروان فى أنه، قبل اللجوء إلى مغامرات حربية، يرى ويتطلع إلى ضرورة أن تكون له عاصمة جديد تصبح بمثابة الحصن الأعلى داخل سلطانه المهدد. فظل طوال سنوات حكمه الأولى يؤسس مدينة المهدية. أسسها فوق ربوة بخليج سرت، بحيث تصبح عملية الدفاع عنها من الأرض فى غاية السهولة، كما جعل منها ترسانة فسيحة للأسطول الحربى الذى ورثه عن الأغالبة وكرّس كل همه فى العمل على توقيته وتحصينه.

وفى إسبانيا كان عبد الرحمن الثالث يتلقى الأخبار عن ذلك الخطر الذى يشكله النفوذ البحرى الفاطمى على مملكته. وتبعا لما يذكره ابن خلدون(١٠٧)، ففى عام ٩١٤م (٣٠٢هـ) توجه إلى «الجزيرة الخضراء» الاسبانية ليستعرض أسطوله ويصدر تعليماته بتجهيزه وإضافة وحدات جديدة وانشاء وحدات مراقبة دائمة على الساحل الأندلسى. وكان مشروعه يهدف إلى قطع أى علاقة بحرية بين أسبانيا وافريقية الفاطمية، وأن يحول بين عدوه فى شبه الجزيرة الأيبيرية، ابن حفصون، وبين تلقى الإمدادات والمؤن من الموانئ المغربية؛ وقد سارع ابن حفصون، كما رأينا فى مناسبة سابقة، حين علم بتنصيب عبيد الله، فأرسل إليه رسالة طاعة وإذعان، وأمر، منذ ذلك الحين، بالدعوة له فى أول جمعة تقام فى كل مساجد الأندلس الواقعة تحت امرته وسلطانه.

وعليه، ففى هذه الفترة، ودون أن يأخذ أحدهما زمام المبادرة بالأعمال القتالية، فقد أمضى كل من الأموى والفاطمى تلك المدة متبنياً سياسة التأهيب للحرب. فما كان أىّ منهما يملك فى يده الوسائل اللازمة لبدء الهجوم؛ ولكن أصبح همّ كل منهما أن يراقب الآخر باهتمام وريبة. ومن إسبانيا وإفريقية أدار كل منهما شبكه تجسس واسعة تحمل إليه الأخبار السياسية والتقدم والتراجع للوضع السلمى فى البلد العدو. كان الشمال الأفريقى يعج بالمغامرين من أصل أندلسى الذين مازالوا يحتفظون بعلاقات مع وطنهم ويقومون بتوصيل معلومات إلى بلاط قرطبة من شأنها أن تكون ذات نفع عظيم. ومن جانبه، فإن الزعيم الفاطمى، لعلمه أن المذهب الذى يدعو إليه ويتولى رئاسته بالإمكان أن يجد لنفسه أتباعا على الأراضى الأسبانية بمجرد أن يقوم بالدعوة له سرا، عمل على تحفيذ الهمم للقيام بدعاية نشطة، تعمل على غزو جميع البيئات، بما فى ذلك المحيط العائلى لعبد الرحمن الثالث نفسه. ولعل النجاح السريع الذى حققه مثيل المهدى ابن القط لم ينسى بعد، ذلك الرجل صاحب الكرامات ذو الأصل الأموى، والذى هجره ضاهيه السرّاج بعد أن عبّد له الطريق، وما أن خانه بعد ذلك أتباع الأمس، حتى أسلم نفسه للموت أمام سمّورة عام ٩٠١م (٣٨٨هـ)، أى، أن

ذلك قد وقع قبل سنوات قليلة من الفترة التى وصلنا إليها(١٠٩). وتبرهن لنا هذه الحلقة على أن الحقل الاسبانى، وخاصة السهول الجبلية التى كان يعمرها فى الغالب جموع من البربر، قد أصبح أرضا خصبة لدعوة من شأنها أن تعمل على قلب النظام. على العكس، ففى المدن، وخاصة فى قرطبة، كانت مثل هذه الدعوة محكوما عليها بالفشل مقدما. وكذلك فما كان للمذاهب التحررية الى تولدت عن الفكر المعتزلى، وتعاليم ابن مسرّة الفيلسوف أن تجد فى أرض الأندلس فى بداية عهدها أكثر من أتباع متعقلين وقليلين، وذلك بفضل النفوذ الهائل الذى كان يتمتع به رجال الدين فى الأندلس والذين عرف عنهم الشدة وعدم التسامح، يدعمهم فى ذلك الأموى نفسه. وكان هذا النظام، فى الواقع، يبدى، منذ الوهلة الأولى، غيظه المصحوب بالعذاب الصارم لكل من تسوّل له نفسه بإظهار أدنى دلائل الحب تجاه الحركة الفاطمية. وحين سقطت القيروان فى أيدى المنشقين أعلن النظام عن رغبته، كمن يبحث عن النجاة، فى أن تصبح قرطبة القلعة الحصينة للمذهب السنى والمالكى الذى أصبح سنة متبعة فى الغرب الإسلامى.

وفى عام ٩١٧م (٣٠٤هـ) رأى المهدى عبيد الله أن الوقت قد حان ليبدء الهجوم على غرب دويلاته، فعهد إلى الزعيم المكناسى ماصالا ابن حبوس، الذى حكم اقليم تاهرت لصالحه، بالخروج لمهاجمة سعيد ابن صالح فى عقر داره ناقور. وانتهى الأمر بهذا العاهل، الذى عرف كيف يحافظ على مملكته الصغيرة عبر الاضطرابات والقلاقل التى اعترت عرش الأدارسة فى المغرب، بأن أعلن بالفعل، رفضه المتغطرس لما اشتملت عليه رسالة التهديد المرسلة من الأمير الفاطمى يطالبه فيها بالاستسلام. أما ما صالا فقد توجه، بعد أن خرج من تاهرت، للقضاء على المقاومة الجريئة التى أعلنها الملك الصالحى، الذى ترك نفسه يواجه الموت شاهرا سلاحه؛ دخل أراضى ناقور فى السادس والعشرين من يونيو عام ٩١٧م (٣ محرم ٩٠٥هـ)، فخرب المدينة، وأسر عددا كبيرا من النساء والأطفال، وبعد أن أمضى عدة شهور بأرض الامارة، عاد إلى دياره، بعد أن ترك على ناقور حاكما من ضباط كتامة يدعى دهلول. وقد تمكن ثلاثة من أبناء الملك الصالحى، مع ذلك، من الهرب قبل الاستيلاء على المدينة وتوجهوا صوب إسبانيا، حيث كانت أسرتهم من بين الأسر التابعة لاسبانيا سنوات طويلة. وما إن نزلوا بملقة وبتشينا حتى استقبلوا بالترحاب من لدن عبد الرحمن الثالث الذى ترك لهم حرية الذهاب إلى قرطبة للعيش فيها أو البقاء فى المنطقة المجاورة للساحل. وما أن قرروا البقاء بجوار الساحل، حتى تواترت اليهم الأخبار بأن وضع الحاكم دهلول لم يعد مستقرا فى ناقور، فأسرعوا بالعودة إلى بلدهم، كان أول من وصل منهم هو صالح ابن سعيد ابن صالح الملقب باليتيم، وكان يعلم جيدا أنه سيلقى مقاومة من جانب دهلول،

الذى تم اعدامه، واستعاد ملك أبيه فسارع بإبلاغ عبد الرحمن الثالث بما وقع. تلقى عبد الرحمن الثالث الخبر بسعادة غامرة باعتباره يمثل انتصارا حقيقيا لشخصه، أرسل بالهدايا القيمة إلى الأخوة الثلاثة، من الأسرة الصالحية، وأذاع فى ربوع إسبانيا المسلمة بكاملها أخبار النصر الذى حققه هؤلاء الثلاثة. كما قام صالح، بدوره، بالدعوة للخليفة الأموى على أرض مملكته، وأعلن نفسه واحدا من أتباعه. وبهذه الطريقة، وبعد خمس سنوات على مجيئ عبد الرحمن الثالث، بدأ على مرأى ومسمع العالم أجمع التدخل بطريقة غير مباشرة فى الشئون الداخلية لافريقيا، بعد أن كرّس اهتماما رسميا كبيرا للنظام السياسى الذى نشأ عنوة ليصبح ركيزة فى مواجهة النظام الشيعى.

وعلى عكس ماكان متوقعا، لم يأت فشل الفاطميين فى غرب المغرب بردود فعل فورية من جانبهم، ومضت ثلاث سنوات دون أن يعترى مراكش أى نوع من القلاقل من جانب قوات ذلك الشيعى. ولكنه فى عام ٩٢٢م (٣٠٨هـ) قد عاد ماصالا ابن حبوس ليتلقى الأوامر من سيده كما قلنا(١١٠)، كان يحكم فى فاس منذ عام٩٠٥م (٢٩٢هـ). وبعد هزيمته أمام أسوار مدينته، ومحاصرته داخلها، كان على يحيى أن يستسلم للجنرال الفاطمى، الذى ترك له إمارة العاصمة فقط. وفى العام التالى عاد ماصالا، بعد أن انتزع ملك يحيى كاملا فى هذه المرة، وأجبره على أن يختار لنفسه مكانا يلجأ إليه، ليستقر إلى جانب بقية الأدارسة، فى الريف وإقليم البصرة؛ ثم ذهب بعد ذلك لمهاجمة سيشيلماسة، فاستولى عليها. ثم سار فى الطريق إلى المهديّة، حتى يقدم لسيده كشف حساب النتائج التى أسفرت عنها حملته داخل المغرب.

وقبل أن يعود إلى محل اقامته فى تاهرت، بعد أن انتهى من حملته الأولى على فاس فى عام ٩٢٢م، كان ماصالا ابن حبوس قد عهد بإدارة الأراضى التى انتزعها من أيدى الأدارسة إلى ابن عمه موسى ابن أبى العافية، أحد أمراء مكناس، الذى مارس مهامه فى هذا الأقليم الشاسع، الذى انتزعه منذ وقت غير بعيد من مملكة فاس – الممتدة على جانبى تاثا، بعد تسول بمسافة بعيدة، من جانب، وأقارصيف من جانب آخر. ومنذ الآن، ولسنوات طويلة، سوف نراه تبعا للخطة الأولى للمغرب العربى، يعمل فى بداية الأمر لصالح الفاطميين، ثم ينقلب عليهم فى النهاية ليعمل لصالح الأموى الاسبانى.

ومنذ أن رسخّ دعائم ملك تابعه الصالحى فى ناقور، تابع عبد الرحمن الثالث باهتمام بالغ الأحداث التى وقعت فى شمال افريقية، ثم بدأ يبحث عن أتباع له فى

الأراضى الافريقية من بين الذين لاينتمون إلى الأدارسة. ويبدو أن أنصاره فى الأراضى الأفريقية قد حاولوا اقناع زعماء اتحاد مجراوة القوى، الذين كانوا يشكلون، إلى جانب اتحاد إفران، أحد الفروع المؤثرة من بين المجموعة ذات العنصر البربرى فى زناته. وكان هؤلاء المجراويون، الذين مارسوا البداوة وارتحلوا عبر أراضيهم فى بقاع وسط المغرب كلها، من وادى شليف حتى ترميثين، تجمع بينهم روابط الولاء الممتدة بجذورها حتى القرن الثامن، وبين دولة الأمويين. أما فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها، فقد كان زعيمهم هو محمد ابن جزّار. ومما لاشك فيه، فإن المهدى عبيد الله قد تشكك فى ولائه للقضية الفاطمية عندما قام فى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) بتكليف قائده المخلص ماصالا ابن حبوس بمحاربته واضطراره إلى طلب العفو والصفح؛ ولكن أصحاب مجراوة بدت لهم الغلبة فى المعركة التى وقعت بين الطرفين؛ وفقد ماصالا حياته، وخلفه على حكومة تاهرت أخوه باسال.

لم يكن العام التالى يحمل نفعا للجيوش الفاطمية. فقد قام أمير إدريسى يتمتع بشجاعة خارقة، يدعى الهجّام، واسمه الحقيقى الحسن ابن محمد ابن القاسم-، حين تم الاتفاق على مشروع استرداد عاصمة جده الأكبر إدريس الثانى، بطرد حاكم الفاطميين ريحان، وظل ينتظر فى ثبات قوات موسى ابن أبى العافية، الذى أتى لمهاجمته. وقعت المعركة الحامية بين فاس وتاثا على وادى المطاحن، وهزم فيها موسى، وكان النصر فى صالح الأدريسى، الذى لم يفكر فى أن ينال قسطا من الراحة، بل عمل على توسيع فتوحاته فى نطاق واسع يحيط بالعاصمة التى استردها مؤخرا. ومن جانبه، فقد عمل زعيم المجراوة، محمد ابن جزّار، بعد أن أصبح زعيما لتاهرت بصفة مؤقته، عقب إلحاق الخسائر بالقوات الفاطمية التى أرسلت لقهره. بهذا الفأل الحسن، وجد عبد الرحمن الثالث نفسه أمام فرصة مهيأة لخلع القناع عن وجهه وتأمين حصن منيع له على ساحل الشمال الأفريقى. وماترك الفرصة تمر من بين يديه. ففى عام ٩٢٧م (٣١٤هـ) أمر باحتلال مليلة، فى الطرف الشرقى للساحل الريفى، ووطد النظام الدفاعى لهذا الحصن البحرى؛ كانت هذه هى المرة الأولى التى يبدأ فيها الأمير الأموى فعليا مشروعات التدخل التى كانت مخبأة فى داخله تجاه مراكش[١١١].

ومنذ هذا الوقت بدأت الأحداث تتلاحق سريعا. فقد دام تأسيس الأدارسة لفاس زمنا قصيرا : حيث وقع الهجّام فى الأسر ثم اقتيد إلى السجن، على أثر خيانة أحد أتباعه له. ثم سلّم إلى موسى ابن أبى العافية، وتم اعدامه أخيرا فى ٩٢٧ - ٩٢٨م

(٣١٥هـ). وقد رأى إخوته وبقية أقاربه من الأدارسة أنفسهم مضطرين إلي البحث عن ملجأ بين قبائل المغرب الشمالي والتي مازالت على ولائها لأسرتهم، وخاصة بين قبائل جومارا. قسمّوا أنفسهم إلى مجموعتين أساسيتين : الأولى، مجموعة ابني محمد، تمركزت في الغرب حول مدينة البصرة، قامت باحتلال حصن طبيعي في هذه المدينة وعملت على تقويته بكل ما أوتيت من عتاد، فوق قمة جبل يعرف باسم حجر النسر، في شرق وشمال شرق المدينة الصغيرة المعروفة حاليا باسم القصر الكبير. أما المجموعة الثانية، مجموعة ابني عمر، فقد تمركزت بين جومارا ابتداء من تيجيساس حتى أجوار سبته وطنجة. وقد كرّس موسى ابن أبي العافية جهوده لملاحقة الأدارسة، أيًا كان المكان الذي يلجأون إليه، وأبادهم جميعا، فما تدخلت القبائل البربرية في شمال المغرب لدى موسى حتى يترك هؤلاء الأمراء المنكوبين في سلام، والذين كانوا، بعد كل شئ، من سلالة النبي (ص). ومن جانبه، وحين أصبحوا غير قادرين على شن أي هجوم، لم يجد عبد الرحمن الثالث لديه أي مانع من أن يدخل في معاهدات معهم، على الرغم من تحامل أسرته الأموية على أسرة عليّ «العلويين». كما اهتم كثيرا بتأمين المساعدة المؤكدة من جانب محمد ابن جزّار، زعيم الزناتة في المغرب الأوسط، الأمر الذي من أجله، تبعا لما يذكره ابن خلدون[١١٢]، أرسله في عام ٩٢٨-٩٢٩م (٣١٦هـ)، كسفير للوالي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى. وكرد على هذا المسعى من جانب العاهل الأموي، قام موسى بن أبي العافية بمهاجمة أحد أتباع قرطبة، الشيعي المؤيد، سيد ناقور، فاستولى على عاصمته ودمرها عن آخرها، واستمر عدة أشهر في محاولة منه لإحلال السلام في شمال المغرب وأورانيسادو، ولكن سرعان ماوقع شئ لم يكن في الحسبان : احتلال سبته من قبل قوات أموية قدمت من إسبانيا.

كان ذلك الحصن البحرى الهام، الذى حظى بوجود عدد كبير من الأندلسيين بين سكانه، ترجع أصولهم إلى مدينة كالسنيا[١١٣] -، في تلك الأيام في أيدى أسرة صغيرة من أصل بربرى : بنو عاصم. عاش أميرها الحاكم، الرضا، تجمع بينه وبين جيرانه من الأدارسة علاقات يسودها التبصر والرويّة. وفي ٢٥ من مارس عام ٩٣١م (٢ ربيع الأول ٣١٩هـ) تواجد أسطول أموى، يقوده القائد فرج بن عُفير أمام سبتة، وقام بإنزال مجموعة من القوات احتلت المدينة دون ماصعوبة تذكر، وهي اللحظة التى بدأ فيها الواعظون يدعون في خطبهم للأمير عبد الرحمن الثالث، أمير المؤمنين، والذى اتخذ لنفسه، قبل ذلك بعامين، إلى جانب لقب الخليفة لقبا آخر هو الناصر لدين الله.

كان احتلال سبتة يمثل بالنسة للعاهل الأموى نجاحا هاما، حيث انه بهذا الاحتلال، أصبح يملك قاعدة صلبة للعمليات على الساحل المغربى، والتى تميز موقعها كثيرا من موقع مليلة، وذلك لوقوعها في مكان مواجه للميناء العسكرى الاسبانى المعروف باسم «الجزيرة الخضراء» وبعدها عنه عدة أميال قليلة، فمن خلال سبتة أصبح من الممكن له ليس فقط الامساك بزمام الأمور فى يده بالنسبه للادارة السياسية بالمنطقة كلها، وإنما أيضا التدخل عسكريا إذا ماتجرأ موسى ابن أبى العافية على القيام بأية مغامرة داخل الاقليم. وإما أن يكون موسى قد أدرك صعوبة الموقف، وإما أنه قد أصبح لّين العريكة بسبب الرسل التى توافدت عليه من جانب الخليفة الأموى فى قرطبة، ما الخطب إذن؟ إن ماحدث فى نفس العام الذى وقعت فيه سبتة فى قبضة الاحتلال الذى فرضه الناصر أعلن انفصاله المفاجئ عن السلطة الفاطمية، بعد أن كان هو الممثل الرسمى لها فى أرض المغرب العربى، ثم اعترف علنا بامارة سيد إسبانيا الاسلامية.

لقد أثمرت السياسة الفعالة، والمفاوضات النشطة والتدخلات المناسبة لعبد الرحمن الثالث نتائجها الطيبة. فبفضل الانضمام المتتالى للمجراوى محمد بن جزار والمكناس موسى بن أبى العافية، أصبح الجزء الأكبر من شمال مراكش ومساحات شاسعة من المغرب الأوسط تكوّن جزءاً من الكل الذى أصبح يعرف باسم «المحمية الأموية».

سياسة عبد الرحمن الثالث في أفريقيا منذ ٩٣١ وحتى ٩٦١ :

استمرت هذه «المحمية الأموية» بين قوة وضعف، حتى نهايات القرن العاشر، كما أنها مرت فى الفترة الانتقالية بظروف عديدة. وعلى كل، فمنذ احتلال سبتة والاعلان عن تبعية موسى ابن أبى العافية، يتم رسم لخط السلوك الذى يتبعه عبد الرحمن الثالث أمام الأحداث التى تدور فى المغرب العربى؛ التدخل بصفة مباشرة فى أضيق الحدود من جانب قواته والعمل على إثارة أتباعه من زناته، بعد أغراقهم بالمساعدات الكثيرة، حتى يتمكنوا من مواصلة الكفاح ضد العدو الفاطمى، وذلك بهدف حصر نشاطه فى أفريقية، التى تموج بالحركات، وأن يقى بهذا الأسلوب دويلاته فى شبه الجزيرة الأيبيرية من خطر العدوان المباشر. ومنذ ذلك الحين فقد بدأ أيضا، بين بلاط قرطبة وسادة المغرب – المجراويين والافرانيين وكذلك الأدارسة الذين انضموا

إليهم – التبادل الدائم للسفارات ورسائل المودة. وحتى تكتمل أغراض الخليفة الأموى أكثر، سرعان مانشبت فى شرق المغرب أحداث، جاءت كالخاتم فى الأصبع، إنها أحداث التمرد المعلن من جانب الخوارج بقيادة «أبو يزيد»، الذى اشتهر ـ «صاحب الحمار»، والذى استمر لسنوات عديدة يثير المضايقات للسلطة الفاطمية، وفى بعض الأوقات كان على وشك أن يهدم سلطانهم. لم يتمكن عبد الرحمن الناصر من اتباع سياسة أخرى، لأنه لكى تكون عملية الاستيلاء على سبتة بمثابة مقدمة لفتح حقيقى ولضم المغرب، كان من الضرورى بالنسبة للعاهل الاسبانى أن يصبح فارغ البال من تلك المناوشات داخل مملكته. لقد جاء احتلال حصن شمال المغرب سابقا بعدة أشهر على مجيئ راميرو الثانى ملك أشتوريش وليون، أكثر أعداء أمير قرطبة من المسيحيين شجاعة وجرأة، إنه العدو الذى يجسد التهديد القادم من الحدود الشمالية الشرقية للدولة الاسلامية، من قبل رجل جسور محارب. وعليه فإن اندفاع العاهل الأموى للتدخل بأغلب قواته فى الأراضى المغربية كان سيعد بمثابة التهور وعدم التبصر من جانبه.

إن الحكاية المسهبة للأحداث التى أججها وأوجدها العاهل الأموى فى المغرب (بربريا)، ابتداءً من ٩٣١م، وردود أفعاله ضد المبادرات الفاطمية، تأتى باهتة ورتيبة مثلها فى ذلك مثل الأحداث التى تشير إلى ماهو أساسى، إذا ما أردنا أن نعقد خيط لفافة حيكت بطريقة معينة. وفى نفس الوقت الذى أعلن فيه موسى ابن أبى العافية تبعيته لقرطبة، كان عليه أن يقبض على زعيمه الأدريسى من فرع ابنى محمد، الحسن بن عيسى، الملقب بأبى العيش، والذى وصل، بعد ملابسات عدة، ليستقر فى جزيرة أرشجول المعروفة اليوم باسم راشحون، فى مواجهة مصب التفنا. وحتى يمكن طرده من هناك، طلب موسى المساعدة من العاهل الأموى، الذى أمر رجال البحرية فى بيتشينا وفى موانئ أندلسية أخرى بتجهيز خمس عشرة سفينة حربية، أرسلها إليه مع مجموعة من قوات الانزال. قام الأسطول الاسبانى الذى رسى أمام أرشجول، بإنزال قواته فى سهولة تامة، وبعد أن أصبح يحاصر جميع السكان، ظل ينتظر استسلامهم. الانتظار الذى ضاع هباءً، فأصبح لزاما عليه أن يعود إلى ألميرية، فى خريف عام ٩٣٢م (رمضان ٣٢٠هـ)، دون أن يتمكن من الاستيلاء على الجزيرة أو أن يترك بها حامية(١١٤).

وأمام عجز الحاكم القديم للمغرب الأقصى، لم يستطع المهدى عبيد الله أن يقف مكتوف الأيدى، وهكذا، فقد قام فى عام ٩٢٣م (٣٢٠هـ) باغراء الوالى الجديد على تاهرت، أحمد بن باسل، ابن أخى ماصالا ابن حبوس، بمهاجمة موسى بن أبى العافية. وقع اللقاء بينهما فى سهل ماسون، شرق تاثا، وكانت الهزيمة فيه من نصيب الزعيم المكناسى واضطر إلى الانسحاب نحو أراضيه فى منطقة «التسول» تاركا للجنرال الفاطمى زمام الأمور فى مدينة فاس ولكن حامد ابن ياسال، بدلا من أن يقوم باستغلال الانتصار الذى حققه، ارتكب خطأ الخروج سريعا إلى إفريقية، وحين وصل إليها أمطروه بوابل من اللوم لتركه موقعه ثم أدخلوه السجن. حدث ذلك قبل قليل من موت المهدى عبيد الله، والذى وقع فى الرابع من مارس ٩٣٤م (١٤ ربيع الأول ٣٢٢هـ).

خلف المهدى ابنه أبا القاسم محمد، الملقب شرفيا بـ «القائم بأمر الله». وقد شجع نبأ وفاة عبيد الله، موسى ابن أبى العافية ليعلن معارضته الفعلية من جديد، وبمساعدة رجل يدعى أحمد الجدهامي، تمكن - فى عام ٩٣٥م (٣٢٣هـ)، من استعادة فاس. لم يكن ليستمر سوى عدة أشهر، إذ أرسل القائم بأمر الله إلى أطراف المغرب قوات يقودها ضابط صقلبى يدعى ميسور. فتوجه إلى عاصمة شمال المغرب وحاصرها، بينما فرّ موسى ليلجأ إلى قلعته لوكاى، فى أحد الأركان الجبلية فى منطقة تازا. كما أرسل العاهل الفاطمي الجديد فتى آخر يدعى ساندال ليستولى على حصن ناقور. وتم الاستيلاء على هذه المدينة - كما رأينا، من جانب موسى ابن أبى العافية باسم المهدى قبل ذلك بسنوات - ونهضت مرة أخرى من الدمار الذى عانته ونادت لحكمها أحد أفراد الأسرة الصالحية، المدعو أبو أيوب اسماعيل ابن عبد الملك. وبعد أسبوع من القتال، كسب ساندال ناقور، فى سبتمبر ٩٣٥م (شوال ٣٢٣هـ)؛ قتل الصالحي؛ ووضع مكانه حاكم من كتامة، الذى رحل عن المدينة لينضم إلى زميله ميسور، الذى كان يحاصر فاس فى ذلك الوقت. وبما أن سكان ناقور كانوا لايزالون أوفياء لسياستهم التى تنطوى على بغض ومقت عبوديتهم للسلطة الفاطمية، لم يكد يخرج ساندال، حتى تخلصوا من حاكمهم، وأرسلوا برأسه إلى عبد الرحمن الثالث، ونصبوا مكانه حاكما آخر من الأسرة الصالحية، يدعى موسى، ويلقب بابن رومى. واستمرت هذه الأسرة الصغيرة على أرض ناقور التابعة لقرطبة حتى أوائل القرن الحادى عشر.

وفى هذا الأثناء استمر الحصار الذى فرضه ميسور وساندال على فاس دون أن يصبح فى الإمكان التنبؤ بالنصر فى النهاية، وعليه فقد قبل قواد الفاطمين الدخول فى مفاوضات مع المحاصرين، الذين تعهدوا بأن يعترفوا بالقائم وسلطته على العرش، والدعوة له فى الخطب الدينية بمساجدهم. وبعد أن رفع الحصار، قام ميسور، بعد أن تأكد مسبقا من مشاركة الأدارسة من ابنى محمد، بالتوجه إلى موسى ابن أبى العافية؛ لاحقته الجيوش الفاطمية وكذلك الأدارسة، وهنا رأى نفسه مضطرا للبحث عن مهرب فى سهول الجزء الأعلى من مولاية. حصل الأدارسة على مكافأة مجزية، نظير مشاركتهم، حيث كان من نصيبهم أن أصبحت أملاك الجنرال المكناسى تحت نفوذهم. وفى الحال، عاد ميسور إلى أفريقية.

كان لهذا الانتصار العظيم الذى حققته حملة قائد القائم أن رسمت نهاية للمشوار السياسى لموسى ابن أبى العافية، الذى وافته المنية بعد ذلك بسنوات قليلة، دون أن يتمكن من رد الاعتبار لمكانته التى كان عليها. وما كان خضوعه لعبد الرحمن، فى الواقع، ذا فائدة كبيرة للعاهل الأموى، الذى رأى، إلى جانب الأعداء التقليديين، تمرد ائتلاف الأدارسة الأشاوس عليه. ولهذا فقد بات أمر إبعادهم عن القضية الشيعية وجذبهم إلى قضيته، هو البرنامج الإجبارى الذى انطوى عليه نشاط الخليفة الأموى على مدى السنوات التالية. ومن جانبه فقد شرع الخليفة الأموى، الذى لم يكن يركن إلى الراحة، فى حملة على مصر؛ ثم استطاع. أن يسيطر على تمرد طويل ومهيب نشب فى صقلية؛ وفى نفس الوقت، وحتى يكون جبهة مضادة لزناتة المغرب الأوسط، بدأ يركن إلى خدمات الائتلاف المكون من أهالى صنهاجة وعلى رأسهم زعيمهم زيرى ابن مناد التلكانى، الذى أسس، فى هذه الفترة، اقليم تييرى، فى جنوب الجزيرة الخضراء، مدينة تعرف باسم أشير. ولم يكن للامتيازات التى أعطاها القائم لأهل صنهاجة من أثر سوى إثارة حنق الزناتة عليه، وهم الأعداء التقليدين لهذه القبيلة ويحكمهم الزعيم المجراوى محمد ابن جزار، الذى كان تابعا لقرطبة من زمن بعيد. كان الخليفة الأموى هو المستفيد الأوحد من كل ذلك. كما تمكن الجنرال المكناسى حامد ابن ياسال، الذى سجنه المهدى حين عودته من المغرب عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، من الهرب عام ٩٣٩م (٣٢٨هـ) متوجها إلى إسبانيا حتى يعرض خدماته على الناصر، الذى أعاده مرة أخرى إلى المغرب الأوسط بعد أن غمره بالأموال ومعسول الكلمات.

ومنذ هذه الفترة التى وصلنا إليها وقع تمرد لم تتوقف سلسلته فى المغرب الشرقى بقيادة «صاحب الحمار» أبي اليزيد مخلد ابن قيداد، وهى الفترة التى بدأت تمثل قلقا للظام الفاطمي. وليس هذا هو المقام الذى يمكن لنا أن نتحدث فيه عن مشوار هذا الرجل المتمرد[116]، الذى ينتمى حسب نسب أجداده إلى جماعة زناتة من ابني إفران. وبفضل الدعاية الواسعة والاعتماد على ما ابتدعه الخوارج، الذين أصبح لهم مذهب أحدث دويا دائما فى أوساط البربر، وعليه فقد عرف أبو يزيد كيف يجمع تحت رايته كل الغاضبين الذين لايحصون عددا ويعانون من النظام الطاغى الذى جثم على بلدهم متمثلا فى الفاطميين، وسرعان ماتمكن من تشكيل قوة عسكرية مكنته من أن يلحق الهزيمة، مرة بعد أخرى، بقوات القائم التى أرسلها لتحجم نشاط أبى يزيد. وفى أشهر قليلة أصبح سيدا لباجة، وتونس ورقادة والقيروان وسوسة. وبعد ذلك، عام ٩٤٥م (٣٣٣هـ) فرض الحصار على المهدية نفسها. ومع هذا، فإن أعمال الهجوم المتكررة التى وجهها صوب ذلك الحصن الكبير للفاطميين لم تكن ذات فائدة، وتمكن القائم، بفضل وصول المؤن التى أرسلها إليه تابعه الصنهاجي زيرى ابن مناد، من أن يقاوم بفاعلية الهجوم الذى شنته عليه قوات أبى يزيد. وباختصار، أصبح على أبى يزيد أن يرفع الحصار عن المهدية؛ وهنا فشلت سياسة أبى اليزيد فشلا بدأ معه انهيار المجد السياسى لصاحب الحمار، والذى بدأ يتراجع رويدا رويدا رافضا الاحتفاظ بملكيته للمدن الأفريقية التى استولى عليها. وفى عام ٩٤٦م (٣٣٤هـ)، مات القائم. وجاء بعده أبو طاهر اسماعيل، ثالث الفاطميين، ليخلفه، كان مشهورا بلقبه الشرفى «المنصور»، استمر فى سياسته النضالية ضد المتمرد بكل قوة، حيث تمكن من القضاء عليه فى صيف عام ٩٤٧م (٣٣٦هـ).

يمكننا أن نتخيل الاهتمام الذى تابع به عبد الرحمن الثالث، من أراضى إسبانيا البعيدة، تطور هذا النزاع الطويل والخطير، وبأى سعادة صفق للانتصارات التى حققها المتمرد الخارجي؛ ورغم أن أبا يزيد كان زعيما لمذهب يراه المتشدد السنى إلحادا، لم تكن الفائدة التى حققها ذلك الزعيم لتطلعات عبد الرحمن الثالث لمكاسب مادية قليلة، كما أبدى أسلافه اهتماما بالدخول فى معاهدات سياسية مع بقية الخوارج فى تاهارت وسيشيلماسة. ومن جانبه؛ فقد قرر أبو يزيد الدعم الذى قدمه التأييد المعنوى لصاحب اسبانيا الإسلامية للقضية التى كان يدافع عنها؛ إنها الرعاية التى سعى إليها دون أن تكلفه أدنى مجهود. وبالفعل، ففى عام ٩٤٥م (٣٣٤هـ)، أرسل إلى عبد الرحمن الثالث سفارة من أعيان القيروان، على رأسها تميم التميمى، ابن المحدث الشهير «أبو العرب». وقد تلقى عاهل قرطبة أولئك النواب بكل أنواع الترحيب. وجليل

الرعاية والعناية وغمرهم بالهدايا التى يقدمونها للمتمرد. وفى إحدى الرسائل التى كتبها أبو يزيد إلى الخليفة أحاطه علما بأنه :«يعترف بسلطانه ويعلن خضوعه له، ويقبله بصفة الامام»(١١٧)؛ وفى العام التالى، وبمناسبة فشله، سحب ماسبق أن أعلنه، وكلف ابنه أيوب أن يلتزم به نيابة عنه. ويذكر المؤرخ الذى أورد لنا هذه السفارة المزدوجة أن الناصر قد استقبل أيوب بأسمى ألوان الترحيب، فى محفل أحيط بكل أشكال الصخب، ووضع قصر الرصافة تحت تصرفه حتى يكون محلا لإقامته. ولايذكر المؤلف شيئا عن المعاهدات التى من الممكن أن تكون قد وقعت بين الطرفين، على الرغم من أننا نزعم أن أيوب قد عاد إلى أفريقية محملا بمبلغ آخر من المال، خصص لدعم الخزانة الحربية لوالده(١١٨).

وبينما عمل أبو يزيد على إضعاف سلطة الفاطميين فى المغرب الشرقى ومحاصرته بالخطر العابر، كان المغرب الغربى يعج بعملاء العاهل الأموى، الذى كان يملك، كما كان مفترضا فى تلك الأثناء، بين يديه وسائل الكسب فى تلك المنطقة. ولكن الروايات التى وصلت إلينا عن الأحداث المغربية لهذه الفترة كانت مليئة بالغموض. ولهذا فإننا سوف نتبع فقط، فى كل ماهو أساس، الرواية التى تذكر فى تاريخ ابن خلدون، دون أن نتعهد بضمان سلامتها دائما فى كل ماتنقله عن تسلسل تواريخ الأحداث. ففى نوفمبر عام ٩٤٤م (ربيع الأول عام ٣٣٣هـ)، أرسل عبد الرحمن الثالث وزيره قاسم بن محمد بن تو ملوس إلى سبتة وذلك للقيام بحملة على ممثلى الفرع الإدريسى من ابنى محمد. وقد تلقى هؤلاء، بعد هزيمة موسى ابن أبى العافية عام ٩٣٥م (٣٢٣هـ) من قبل الفاطمى الرعاية القديمة التى كان يقدمها سيد مكناس. كما ظل أبناء هذا السيد (مدين والبورى) رغم كل شئ، على علاقة ببلاط قرطبة، وسوءاً فعل الاثنان، بمحاولاتهما لتكوين جبهة مضادة للأدارسة، فى الوقت الذى لم يكن بينهما فيه نزاع، وهنا أصبح عليهما أن يلجآ إلى التحكيم أمام عاهل الأندلس. وفيما يتعلق بسادة زناتة فى المغرب الأوسط، محمد ابن جزار وابنه الجاير، اللذان لم يتركا، بدورهما، علاقتهما بقرطبة تمر دون تحقيق نفع جليل من ورائها -، فقد تلقيا تعليمات بتقديم المساعدات الفاعلة للجنرال الأموى. وحين علم غالية ابنى محمد نبأ الاستعداد لحملة ابن تو ملوس، سارعوا، يملؤهم الخوف، إلى الاعتراف بسلطان العاهل الإسبانى، وهو ماكان يريد بالضبط. خرج عدد كبير من أفراد عائلة الإدريسى لتقديم ولائهم وخضوعهم للناصر، الذى أحسن استقبالهم بما هم أهله وأغدق عليهم الهدايا. ولم يتخلف عن الخروج من أسرة ابنى محمد إلا واحد، هو سيد قلعة «حجر النصر»، القاسم ابن محمد، الملقب بالجنّون. وسرعان ماتوفى فى عام ٩٤٨-٩٤٩م (٣٣٧هـ).

وهنا أعلن ابنه أحمد الفضيل(١١٩)، على عجل، وعلى العكس من أبيه، تبعيته للخليفة الأموى.

ومنذ ذلك الحين تتابعت على قرطبة سلسلة من الأمراء المغاربة، الذين قدموا ليؤكدوا للناصر ولاءهم الذى احتضنوا به قضيته، وطلب المساعدة منه إذا وقعوا فى مأزق، حتى يتمكنوا من استعادة حقوقهم. فهؤلاء هم الأدارسة وزناتة ومكناسة، يفدون، بمواكب مناصريهم، إلى الأندلس دائما، يسلكون طريق مدينة الزهراء، حيث كان يستقبلهم الخليفة بكل حفاوة. وفى عام ٩٤٨م (٣٣٧هـ) شوهد أبناء ابن أبى العافية يصلون إلى العاصمة الأموية، يصحبهم حمزة ابن ابراهيم، سيد الجزائر. ومن حدود هذه المدينة الأخيرة حتى سيشيلماسا والمحيط الأطلنطى كانت السلطة الاسمية لسيد الأندلس معترفا بها على كل تلك الأنحاء. ولايعنى هذا أنه لم تكن هناك أو هنا، بعض المحاولات للافلات من هذه السلطة، من جانب بعض الساخطين. هكذا على سبيل المثال، قام بعض الأدارسة المغامرين بتدبير دسيسة ضد ذويهم، وهنا تدخل العاهل الأموى، لمرتين، حتى يسكتهم فى عام ٩٤٩-٩٥٠م (٣٣٨هـ)، والعام التالى له. كما انتهز الفرصة كى ينتزع لنفسه حق السيطرة على قاعدة حرية جديدة فى شمال المغرب: دخلت قواته إلى طنجة، فضمت إلى أملاكه فى بساطة ويسر عام ٩٥١م (٣٣٩هـ).

وحتى تلك الأثناء لم تكن إسبانيا الإسلامية لتتدخل بطريقة مباشرة فى الحياة السياسية للمغرب العربى؛ ولكن من واجبنا أن نبين أنه، باستثناء المعقلين الموجودين على الساحل، ويحكمهما ضباط إسبان تعينهم حكومة قرطبة، كانت بقية الأراضى بعيدة تماما عن التدخل المباشر للدولة الأموية، وكذلك فما كان يبدو أن الناصر قد أبدى طموحات تتعلق بمتانة الرابطة التى تجمع بينه وبين أتباعه وراء البحر. وفى الواقع، كانت الأحداث كفيلة بأن تظهر له، على عجل، كيف كانت تلك الرابطة واهية.

كان الأدارسة أول من أعرب عن هواه فى عدم الخضوع، وخاصة الفرع المنتمى إلى «ابنى محمد»، الذين قام البعض منهم، بعد أن فقدوا سلطانهم على طنجة، بطرح موضوع إعمار المدينة المعروفة باسم تطوان، والتى دمروها منذ زمن قليل؛ كان ذلك بمثابة تهديد خفى لسبته التى أصبحت تحت سلطان العاهل الأموى مؤخرا، ولكن الخليفة رفض إجازة المشروع. قام الجنرال أحمد ابن يعلى، المرسل خصيصا إلى إفريقية، بإحضار عدد كبير من الرهائن إلى قرطبة، وعلى رأسهم إثنين من أمراء الأدارسة : ابن وحفيد أحمد الفضيل. وفى نفس الوقت، أدت بعض النزاعات الداخلية

بين أفراد زناته المغرب الأوسط إلى إيجاد زريعة للسيطرة المجراوية لصالح الفرع الآخر من زناتة، وهم ابنو إفران. وأخيرا، ففي الثامن عشر من مارس عام ٩٥٣م (٢٩ من شوال ٣٤١هـ)، وافت المنية العاهل الفاطمي المنصور- والذى منذ انتصاره على أبى يزيد، ظل يتأمل، بسلبية غير مفهومة، تقدم عمليات التوسع الأموى فى المغرب العربى والأوسط - وحل محله أبو تميم معد، الذى، ما إن وصل إلى العرش، اتخذ لنفسه اسما شرفيا هو المعز لدين الله، الذى بدأ، على العكس، يستأنف الروح الهجومية للفاطميين الأوائل ضد سيد إسبانيا الاسلامية، وأن يذكره، إذا ماكان قد نسى، بأنه لايوجد شئ إلا وله جانبه المرّ.

وبعد قليل من مجيئ المعز، قام زعيم المجراوة، محمد ابن جزّار، بعد أن تملكه الغضب والحوف أن يحل شخص آخر محله ليكون هدفا لرعاية العاهل الأموى وفضله، وهو سيد إفران يعلى ابن محمد، باعلان تنصله من الاعتراف بسلطان الناصر. والزج بنفسه فى أحضان السلطة الفاطمية. كان ذلك وقتا حساسا بالنسبة لسياسة العاهل الأموى فى قرطبة، حيث اشتمل على عدد كبير من المتناقضات، فقد كان يرى بنظرة متفائلة كيف أن غريمة المعز يبسط فى كل مرة نفوذا كبيرا تجاه غرب دويلاته. حدث شئ عمل على تسمم الأوضاع فى تلك الأثناء. ففى عام ٩٥٥م (٣٤٤هـ) أرسل عبد الرحمن الثالث سفينة إلى المشرق، سفينة من النوع الضخم، تحمل كمًا من البضائع، وعلى امتداد ساحل أفريقيا، تصادفت سفينة العاهل القرطبى مع مركب كان متوجها إلى المهدية، يحمل على متنه رسولا أرسله الحاكم المسلم فى صقلية إلى الخليفة الفاطمى. وهنا هاجم المركب الأندلسي المركب الآخر واستولى على حمولته وعلى الأوراق والمهمات المرسله إلى المعز. وأمام هذه الاهانة، أصبح رد الفعل فوريا ودون تفكير من جانب المعز؛ فأصدر أمرا إلى ممثله فى صقلية الحسن ابن على، بأن يذهب بأسطوله إلى ساحل الأندلس ويحاول القيام بعملية انزال هناك، وبالفعل، فقد دخلت كتيبة صقلية إلى ميناء ألمرية وأحرقت كل المراكب المتواجدة بها، بما فيها السفينة المعتدية، التى عادت من الاسكندرية لتوها؛ هذا بالاضافة إلى أن تشكيلا من قوات الانزال، الذى هبط إلى الأرض، قد ترك لنفسه العنان للقتل والتخريب، جامعا معه الغنائم وكثيرا من الأسرى. ومنذ بداية فترة حكم الناصر كانت هذه هى المرة الأولى التى يقوم فيها جنود الفاطميين بانتهاك حرية الأراضى الاسبانية.

وهنا بات من الضرورى أن يقوم الجانب الآخر بالرد، وفى الحال أصدر خليفة قرطبة أمرا إلى جميع حكام الاقاليم يتضمن صب اللعنات فوق منابرهم على أمراء

الشيعة-، وفي نفس الوقت المتزامن مع هذه الظاهرة المثيرة، والمقصود من ورائها اصابة أتباعهم بالذهول، أصدر الخليفة أمرا إلى جنراله غالب بالرحيل على رأس كتيبة، فيتجول من أجل السرقة والنهب عبر ساحل أفريقيا. أصيبت عمليات الانزال الأولى للقوات الأندلسية بالفشل؛ وفي العام التالي، عاد غالب يكرر المحاولة مرة أخرى، فخرج في أسطول مكون من سبعين سفينة، فأحرق مدينة مارسة الخرز، التي تعرف اليوم باسم لاكالّة، وسحق أجوار سوسة، وبعد ذلك، بينما هو في طريق عودته، سحق أجوار طبرقة. وفي نفس الوقت، قام عبد الرحمن الناصر باجراء استعدادات هامة : وضع الترسانات الاسبانية في حالة نشاط كبير، كما جهز عددا من السفن ذات الحجم الكبير، وتحسبا لأي هجوم مفاجئ من جانب العدو على سبته، أصدر التعليمات بأن يتم تحصين الجوانب الدفاعية في المدينة وأن يتم رفع أسوارها لأكبر قدر ممكن.

وكذلك فما كان المعز، من جانبه، مستعدا لأن يضع سلاحه. ففي عام ٩٥٨-٩٥٩ (٣٤٧هـ) قرر إرسال حملة - عهد بقيادتها إلى جنراله الزعيم جوهر، عتيق من أصل يوناني، وذلك من أجل استرداد المغرب حتى أقصى حدوده. وبهذه الطريقة، انطلقت تجاه الغرب فرق قوية، أعدّها أهالي صنهاجة وكتامة والزعيم المجراوي القديم محمد ابن جزار، التابع الجديد للفاطميين. كان الهدف الأول لجوهر هو تاهرت، ملك الافراني يعلى ابن محمد، والخاضعة للرعاية الاسبانية : قتل يعلى ابن محمد، وبعد ذلك مباشرة قام الجيش الغازي بتخريب المدينة التي كان قد أسسها الافراني، منذ سنوات، في جنوب شرق ماسكارة الحالية، وهي مدينة إيفكان، وبعد أن انعطفوا صوب فاس التي ردت عدوانهم، توجه جوهر إلى سيشيلماسا، حيث أسر العاهل المدراري، محمد ابن الفتح (الأمير الذي حكم منذ ٩٤٣م (٣٣١هـ)، والذي أعلن رفضه لمذهب الخوارج، الذي كان ومايزال الدين الرسمي لملكته، لكي يعتنق المذهب المالكي، والذي تبنى لنفسه هو الآخر لقب الخليفة والاسم الشرفي الشاكر لله.). ومن تافيليتي، يبدو أن الجنرال الفاطمي قد تمكن من التقدم صوب الجنوب ويبلغ شواطئ الاطلنطي، وذلك حسب مايمكن استنتاجه من رواية بعض المؤرخين. وبعد ذلك، صعد صوب فاس، واستولى عليها في هذه المرة، في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٩٥٩م (٢٠ رمضان ٣٤٨هـ). وبعد ذلك، جاب كل أنحاء الشمال المغربي، فاستولى على كل المدن، واحدة تلو الأخرى، فيما عدا، الحصنين الأمويين الموجوديين على الساحل : سبتة وطنجة. وهنا أعلن العديد من سادة الأدارسة ومن بينهم الحسن ابن غنوم، الذي ذهب في العام الماضي إلى قرطبة يستجدي مساعدة الناصر له، خضوعهم لقائد قوات المعز وبعد

عشرة أشهر، دخل جوهر إلى إفريقية منتصرا، ثم عهد إلى اثنين من الضباط السلافيين مهمة القيام بالمحافظة على السلطان الفاطمي واحترامه.

أدت نتائج الحملة السريعة والمتمردة التى قام بها جوهر إلى إيجاد جو من المرارة على مدى الشهور الأخيرة من حياة الخليفة عبد الرحمن الناصر. إن هذا الأمير لم يفقد الخليفة ماكان يتمتع به من حماسة، إلا أنه لم يعش الوقت الكافى الذى يمكنه من إعادة الوضع إلى ماكان عليه. وافته المنية بعد ذلك بقليل، وهنا، فى عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) – نفس العام الذى توفى فيه أيضا تابعه القديم، الذى أصبح نصيرا للفاطميين فيما بعد، محمد ابن جزار –، لم يعد له فى غرب المغرب كله أكثر من حصنين بحريين فى مضيق جبل طارق : طنجة وسبتة. كان قليلا، وفى نفس الوقت، كثيرا. فامتلاك مثل هذين الحصنين على أبواب إسبانيا، سمح للخليفة، الذى ورث عبد الرحمن الثالث، الحكم الثانى، بأن يواصل، بنفس الحماس والإصرار اللذين تمتع بهما والده ودون أن يدخر فى سبيل ذلك أيّا من موارد الخزانة، سياسة افريقية ربما ماتزال تتسم بالواقعية، حيث كان، باعتماده على لعبة وسط بين العنصرية والوفاء بالذمة، كان لابد فى نفس الوقت من إيجاد نوع من التوازن مع النفوذ الذى يتمتع به الخليفة الفاطمى فى إفريقية وخلفاؤه من بربر المغرب، وكذلك العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من المؤيدين إلى الحظيرة الأموية.

٤– الخليفة وحياة الخلافة

عبد الرحمن الثالث، خليفة وأمير المؤمنين :

فى أوائل عام ٩٢٩م (أواخر ٣١٦هـ) اتخذ عبد الرحمن الثالث أكبر قرار له، قراراً عظيم المعنى، على مدى مشواره السياسى : قرر أن يتخذ لنفسه لقبين ساميين، أولهما لقب «الخليفه» وثانيهما لقب «أمير المؤمنين». وأن يضيف منذ ذلك الحين إلى اسمه اللقب الشرفى «الناصر لدين الله»(١٢٠).

فى عدد من الصفحات السابقة تعرضنا لذكر الدوافع التى أدت بالأمير الاسبانى – الأموى إلى أن يتخذ مثل هذه المبادرة، وماكاد يمر الثلث الأول من عهده، وبهذا القرار أراد الأمير أن يبرز أمام أعين أتباعه التوطيد التام لسلطته كعاهل، بحيث لايصبح فى إمكان أى متمرد أن ينازعه داخل حدود مملكته، دون أن يعرض نفسه لحزمه الذى لابد أنه ملاقيه. إن الرحلة التى قام بها عبد الرحمن الثالث إلى جنوب

الأندلس وزيارته لببشتر، المستردة، كانا يمثلان نوعا من جولات المنتصر. انتهت عملية احلال السلام فى المناطق الواقعة بين قرطبة والبحر المتوسط، وأخمدت البؤر الأخيرة لأعمال التمرد. لم يعد هناك مجال بعد لتعهدات صاغرة، مثل تلك التى كان يتورط فيها بعض أسلافه، وعلى الأخص جده عبد الله، بصفة دائمة، عندما كانوا يدخلون فى معاهدات، وكلهم مرارة، مع المتمردين من أصحاب النفوذ والقوة. لم يعد للخليفة بعد إلا أن يرسى دعائم سلطانه ومكانته فى الثغور الثلاثة التى كانت تغير على أملاكه من الجانب المسيحى، وذلك حتى يتفرغ تفرغا كاملا لمهمة الادارة والتنظيم، وأن يخصص وقتا أكبر للسياسة الخارجية، وأن يعد العدة الهجومية ضد الخائنين فى الشمال الشرقى والشمال الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية، والكفاح فى المغرب ضد النمو المتزايد للفاطميين.

كان قرارمثل هذا، يشتمل، كذلك، على مغزى آخر. كان عبد الرحمن الثالث يفكر فى أن مملكته قد وصلت إلى حد كاف من القوة لكى يُعيد من جديد تأسيس الدولة الأموية القديمة التى محيت من الشرق. فما كان الورثة الشرعيين للخلافة الراشدة يتمثلون فى العباسيين، أو فى الملوك المنشقين فى افريقية، ولكن فى المروانيين – المتمثلين فى شخصه هو – والذين عرفوا كيف ينقلون سلطانهم من دمشق إلى قرطبة ويحافظون عليه شامخا رغم كل العقبات المتراكمة التى واجهتهم. ومن خلال الرسالة الدورية التى أعلن فيها عبد الرحمن الثالث قراره هذا لحكام الأقاليم الإسبانية الأندلسية يبدو لنا، فى وضوح تام، أن تلك كانت الفكرة الأساسية للأمير الجديد (لأمير المؤمنين الجديد). «لقد رأينا من المناسب أن نأمر – قال لهم – فيما هو آت من الزمان، بأن تكون الدعوة المعلنة باسمنا مقرونة باللقبين : أمير المؤمنين، والناصر لدين الله، وهو الأمر الذى سيكون متبعا فى كل الكتابات الصادرة عنا أو إلينا. وأى شخص، غيرنا، يدعو لنفسه بلقب الخليفة، فقد أخطأ، وادّعى لنفسه حقا ليس له وارتدى زيا ليس له. وإننا لنفهم، إلى جانب ذلك، أنه إذا مر بنا زمن طويل دون أن نستخدم لقبا من حقنا فإن ذلك يعنى فقداننا لحق مكتسب، ورفضا منا خالصا ورخيصا. وعليه، فإن الأمر قد صدر إلى خطيب العاصمة التى تحت إمرتك بأن يستخدمه منذ الآن فى خطبه الدينية، وأن تستخدمه أنت أيضا عندما تتوجه بالكتابة إلينا أو مخاطبتنا».

وعلى فرض اعترافنا بأهمية القرار الذى اتخذه عبد الرحمن الثالث، فليس لهذا يصبح علينا أن نبالغ فى مابلغه من مدى على أرض الواقع. فما كان له من قيمة، على

مرأى بقية العالم الاسلامى، وماحق أن تكون له، أكثر من الصورة الرمزية؛ وبما أن العاهل الاسبانى لم يكن الأول الذى قطع بهذه الطريقة الرباط، المتراخى للغاية، الذى كان يربط العالم الاسلامى أجمع بالزعيم النظرى للجماعة الهائلة من المؤمنين. إن وحدة الأمة – بالمعنى الذى يقصد به عند تعريفها فى اللغة العربية–، كان قد تلاشى منذ زمن بعيد، كما تلاشى أكثر منذ أن أعلن الشيعى، عبيد الله، أنه سوف يطلق على نفسه لقبى الخليفة وأمير المؤمنين، وذلك حتى يسخر من عدوه الرئيسى، خليفة بغداد. ربما تكون هذه الحادثة أكثر من انهيار الخلافة فى المشرق، هى التى دفعت بالناصر إلى أن يفقد، بدوره، احترامه النظرى للخلافة الوهمية(١٢٢). وفى الواقع، فقد رأينا، حتى الآن، وبدون أن نجرح حساسية بطانتهم الدينية، فقد لجأ الأمراء الأمويون فى الأندلس إلى استخدام ألقاب رصينة، إذ أنهم إذا ماتسمّوا من ذلك الحين «بأبناء الخلفاء»، وذلك بهدف العمل على تبرير أحقيتهم بالخلافة بطريقة ما، لأصبح عليهم أن يقتصروا على استخدام ألقاب «الملك»، و«الأمير»، إلى جانب ذلك، حتى يضفوا على أنفسهم وأسمائهم نوعا من المدح والإجلال(١٢٣). وعلى الرغم من أن النقوش الرسمية السابقة على القرن العاشر غير وفيرة، إلا أن الكتابات العربية الاسبانية القديمة تثبت مثل هذا الاحساس بالتدنى فى استخدام ألقاب الأمراء؛ وهكذا، فعلى الحجارة التى تحتفظ بذكرى تأسيس المسجد الجامع فى أشبيلية (٨٢٩م = ٢١٤هـ) وقصبة ماردة (٨٣٥م = ٢٢٠هـ) لم يكن عبد الرحمن الثالث يتلقب بغير لقب الأمير(١٢٤). وعلى النقيض من ذلك، فمنذ بداية ٩٢٩م وحتى أواخر خلافة قرطبة، نلحظ أن استخدام النعوت الملكية قد أصبح يجرى بطريقة غير معتدلة، تبرز رفعة شأن سيد اسبانيا الاسلامية لبعض الوقت. وفى النقوش التأسيسية، وطبقا لبروتوكول كان يُراعى بكل دقة، أصبح يطلق على الخليفة، لقب الإمام وأمير المؤمنين؛ وغالبا ماكان يسبق اسمه الشخصى بإشارة لها دلالة واضحة هى : عبد الله، وذلك بهدف أن يستحضر فى الأذهان تواضعه أمام الخالق، وربما أيضا من أجل التخفيف بعض الشئ من الطابع الفاضح للألقاب الملكية.

وقد كان عبد الرحمن الثالث أيضا أول خليفة أموى اسبانى يتخذ لنفسه، كتكملة للألقاب السامية، لقبا شرفيا، على نسق ماكان تسمى به ملوك بغداد والقيروان. هذا اللقب يكمن فى صفة ترتبط بطريقة ما بالذات الالهية، رغم أنه كان يظهر اللقب مستخدما من جانب العامة غير مضاف إلى هذه الصفة فى بعض الأحيان، وذلك

باعتباره مفهوما لايحتاج إلى ذكر؛ وهكذا، فقد كان يقال : الناصر لدين الله، أو ببساطة الناصر. وبهذا فقد سن الخليفة الأندلسي سنة، رعاها كل ملوك أسرته. وفي القرن التالي، أصبح الورثة الذين توافدوا على امبراطوريته يدعون لأنفسهم أيضا، بدورهم، لقبا، أو اثنين، من نوعية تلك الألقاب الشرفية(١٢٥)، والتي كانت تسترعي الانتباه كثيرا، كما كانت تثير في بعض الأحيان حمية الهجاء عند الشعراء والمؤرخين. وعلى كل، فقد أصبح اتخاذ اللقب الشرفي منذ ذلك الحين في الأندلس، وحتى نهاية النصريين، كعلامة خارجية على الهيبة والسلطان. وكذلك، ففي بلاطهم المتواضع، قام الملوك والمسيحيون باطلاق صفات دالة على الاطراء على أنفسهم في بعض الأحيان، ولعلهم يقلدون في ذلك جيرانهم المسلمين، وهي صفات لها طابع رسمي تؤكده الوثائق المعاصرة(١٢٦). وفي غير ذلك، كان موضوع حق حمل اللقب الشرفي داخل شبه الجزيرة الأيبيرية حتى القرن الرابع عشر على الأقل، خاصية تعد حكرا على شخص الملك، وباستثناء الحالة الخاصة جدا لمديري القصر والأمراء، فإنه من النادر جدا أن يقوم عاهل بمنح أي عظيم أو جنرال في بلاطه أيًا من هذه الألقاب الرنانة - مثل سيف الدولة أو صلاح الدين، على سبيل المثال-، والتي كان الشرق الإسلامي يستخدمها بوفرة غامرة على مدى العصور الوسطى(١٢٧).

كانت النتيجة الأكثر أهمية للبادرة التي قام بها عبد الرحمن الثالث في عهده، أن سمحت له بأن يحيط طابع السمو الملكي بهالة من القوة؛ والتي رفعته إلى درجة الهيمنة الروحية، ناهيك عن الدنيوية في نفس الوقت، ومنحته شيئا لم يكن يملكه أسلافه، فعمل بذلك على توسيع وتعزيز المفهوم الذي كان سائدا لدى هؤلاء عن حقوق الامتياز. أصبح الخليفة يتمتع بسلطة مطلقة، دون معارضة من أي نوع، لم يكن يتمتع بها أمير بسيط؛ وأصبح هو الراعي الأعلى للعدالة، والحكم المعصوم من الزلل، فحيث يصدر قرارات لاينفع معها رد ولا استئناف. وسنرى أنه إذا ماقدرّ لهيئة «العدالة المعتدلة» أن تستمر هكذا تحت حكمه، فإن ذلك سيكون في البداية فقط، ولكن بدون أن يضع عوائق أمام سلطانه المحدود. وهنا أصبح الحاجز الذي يفصل الأمير عن أتباعه سورا لايمكن تجاوزه، فلم يعد الخليفة يستطيع الآن، مثلما كان الحال بالنسبة لأغلبية أسلافه الأندلسيين، يسير جنبا إلى جنب مع شعبه، ولا أن يتلقى شكواه مباشرة، ولم يعد بإمكانه أيضا أن يقنع بحياة شيمتها القناعة وعدم الأبهة. ومنذ الآن، أصبح التفاخر والتباهي من أهم السمات الواضحة للملكية. كان اللقب الذي أسسه بعض

أسلافه، وخاصة عبد الرحمن الثانى، قد أصبح أمرا طاغيا، وجعل العاهل مرهونا بأحد القصور التى يملكها. تحول الملك بعد ذلك إلى شخصية معقدة للغاية، بعيدة، وعصية على الفهم، ولايمكن لقاؤه إلا فى بعض المناسبات المتباعدة، حين كان يتفضل بالظهور وسط موكب مهيب كى يتلقى هتافات الجماهير الشعبية. ولم يكن يسمح بالحضور إلى مجلسه إلا لطبقة متميزة. ومنذ الآن فصاعدا، أصبحت الهيبة التى تصدر عن شخص الخليفة المهيب والفخر الذى بدأ يحكم كل مظاهر حياته الرسمية، تحيط العاهل بنوع من الهالة والقدسية. وهنا أدرك عامة أتباع عبد الرحمن الناصر أنه بدأ يظهر رويدا رويدا فى الصورة التى تليق بالسيد الذى تحيطه العظمة ولايمكن الوصول إليه، حيث كان يقوم وهو فى قصره، الذى لايسمح بدخوله إلا للصفوة المفضلة من الأثرياء، يحكم على هواه ودون ما استئناف مقادير الأندلس.

دائرة أسرة الخليفة

أصبح عبد الرحمن الناصر يتمتع بكل مظاهر العظمة والأبهة التى أحاطت بشخصه بعد أن قضى خمسة وعشرين عاما ضحى فيها بنفسه فى سبيل الامارة، أى فى أوائل النصف الثانى من عهده. وسوف نرى أنه قرر فى نفس الوقت القيام ببناء مدينة الزهراء، حتى يصبح بإمكانه أن يتمتع، إلى جانب قصره بقرطبة، والأبعاديات التى يملكها حول العاصمة، بمحل اقامة أكثر رحابة، يحاط بإطار من الأبهة يسر الزائرين. وفى الوقت نفسه توافرت داخل بلاط الملك مجموعة كبيرة من الناس تعمل فى خدمته الخاصة وخدمة بيته، فتكونت منها طبقة اجتماعية بقرطبة غدت متميزة، طبقة من الارستقراطية الناشئة فى القصور، أخذت تتمتع بالثراء والنفوذ، حتى أصبحت، بعد مرور عقدين من الزمان، تلعب دورا سياسيا مشئوما، حتى جاء المنصور ابن أبى عامر فردها إلى صوابها. ولكن قبل أن نتناول كيفية نشأة تلك البطانة الداخلية التى أحاطت بالأمير، يجب أن نلقى نظرة على دائرة أسرته.

لقد وجد الأمير عبد الله، فى خريف حياته، أبناءه الذين كثر عددهم قد أصبحوا يعيشون بعيدا عنه. إذ أجبرهم على الحياة خارج القصر، فى بيوت بسيطة داخل العاصمة. ومازلنا نذكر أيضا أن هؤلاء الأمراء لم يضعوا أية عراقيل أمام اعترافهم بالأمير الشاب وسارعوا إلى أداء يمين الولاء بين يديه. وقد أعرب عبد الرحمن الثالث عن امتنانه لهم وقربهم إليه. وتلقى الأعمام، كما كان لقبهم الرسمى بالنسبة له، أملاكا

جديدة وعطايا منتظمة كانت تدفع إليهم من خزانة الملك الخاصة. وقام أحدهم، المدعو عبان، الذى قام ببعض المهام العسكرية فى حياة والده، بقيادة حملة، لحساب ابن أخيه، فى ربيع عام ٩١٥م (٣٠٢هـ)، على اقليم مالقه(١٢٨)، ولقى حتفه فى نهاية العام نفسه. وبعد هذا بقليل، كان لزاما على عبد الرحمن الناصر أن يظهر الشدة لأصغر أعمامه، العاصى، والذى حاك ضده بعض الدسائس، على أمل أن يخلفه، وهى الرغبة التى كانت تراود أمويا آخر، يدعى محمد ابن عبد الجبار. وصدر الأمر باعتقالهما وإدانتهما، فتبادلا الإتهامات فيما بينهما، ثم أعدما فى السابع من نوفمبر عام ٩٢١م (٣ رجب عام ٣٠٩هـ). أما الأبناء الثلاثة الآخرون للأمير عبد الله، فقد بدأوا يتوارون عن الساحة، وأنهوا أيامهم فى الظلام.

يسجل المؤرخ أريب بن سعد فى عناية تامة، فى المكان المخصص للتواريخ، تواريخ الميلاد الخاصة بأبناء عبد الرحمن الثالث، فأكبرهم، أبو الوليد هشام، مات صغير السن عام ٩١٦م (٣٠٣هـ). وقبل ذلك بعام، فى ٢٠ يناير عام ٩١٥م (الأول من رجب عام ٣٠٢هـ)، أنجبت محظيته مرجانة ولى عرشه، أبا العاصى الحكم. لم يكن يتمتع بعدد كبير من الأولاد الذكور مثلما كان الحال بالنسبة لأسلافه، إلا أن أسرته من أبنائه الذكور بلغت عند وفاته مايقرب من عشرة أبناء، دون أن نحصى أولئك الذين وافتهم المنية أثناء حياته. وغير الحكم الثانى، الذى عاش له ولد واحد، هشام الثانى، ولم يكن له خلف، نجد أن أربعة من أبناء عبد الرحمن الثالث وهم : عبيد الله، وعبد الجبار، وعبد الملك، وسليمان – يعدون الأسلاف المباشرين لآخر ملوك بنى أميّة الذين سيحكمون، بصورة عابرة، فى الثلث الأول من القرن الحادى عشر، وذلك أثناء العاصفة السياسية الكبيرة التى عصفت بالأندلس كله.

تم تعيين الابن الأكبر لعبد الرحمن الثالث، الحكم، فى وقت مبكر كوريث للعرش. وطوال فترة انتظاره الوصول إلى الحكم، التى طالت كثيرا، كرس حياته للدراسة، رغم أن والده قد أشركه فى إدارة الأعمال العامة. وسوف نرى، أنه حين وصل إلى العرش، كان قد قارب الخمسين من عمره، ويحكى أن والده الناصر كان يعتذر أمامه عن طول عمره(١٢٩)، الذى أدى بالابن لأن ينتظر طويلا حتى يمارس سلطته الملكية. إن المؤرخين الاسبان – المسلمين يغمرون وريث عرش الخليفة الأول للأندلس بكم من الاطراءات يرونه جديرا به. والأمر الذى لايمكننا تحديده. نظرا للحذر الدنئ من جانب المؤرخين، هو مدى صحة تورط الحكم فى مأساة اختفاء أحد إخوته والذى، مثله، كان يتمتع بخصال روحية جمة وكبيرة. لقد اتهم ذلك الأمير، المدعو عبد الله، الملقب بالزاهد لورعه

الكبير(١٣٠)، ولعل ذلك بأسلوب التلفيق، بأنه المحرض لمؤامرة كانت تهدف للاطاحة بالناصر ووريثه مرة واحدة ثم وضع عبد الله نفسه على العرش. ليس هناك من نص يذكر لنا أن عبد الله ومؤيديه قد حاكوا الدسيسة حرفيا كما أملاها عليهم رسل الكاظميين، كما يذكر بعض المؤرخين المحدثين. ومن المؤكد أن الدسيسة قد اكتشفت بالفعل. تم القبض على عبد الله، وأما المتآمرون، ومن بينهم المترجم أحمد ابن عبد الله، فقد أعدموا فى الحال. وأما الأمير، الذى قضى شهورا عدة فى السجن، فلم يسمح له بالخروج منه فى الثانى من يونيو عام ٩٥٠م (١٢١ ذو الحجة عام ٢٣٨هـ)، إلا لكى يعدم أمام عينى الخليفة. فما كانت حياة الابن تعنى فى الحقيقة شيئا كبيرا فى تلك الفترة، فقد تخلى الناصر، الذى لقى والده نفس المصير، مع ذلك، عن كل مظاهر الرحمة : فكل جريمة ضد أمن الدولة، أيا كانت على سبيل الزعم وأيًا كان مدبرها، لاكفارة لها إلا الدم. وقليلون جدا من الأمويين فى إسبانيا الذين لم يلطخوا ذكراهم بجرائم مماثلة، والتى لم تكن تذهل أحدا فى تلك الفترة من التاريخ.

ولايكاد المؤرخون المسلمون يتحدثون عن أمراء الدم، ويشيرون فى القليل النادر للأميرات، كما أن اشاراتهم تكاد تكون معدمة بالنسب لمحظيات الملك، باستثناء المحظيات اللاتى ولدن من سيكون فيما بعد وريثا للعرش(١٣١)، وهو أمر لايجعلنا نعرف الكثير عن «السيدة الكبرى» مرجانة، والدة الحكم الثانى، الذى خلف والده. ومع هذا، وتصديقا لما يذكره نفس المؤرخين، فإن إحدى المفضلات لدى الناصر قد حققت شهرة واسعة بعد أن حصلت منه على وعد بأن يطلق اسمها على المدينة الجديدة التى يقوم ببنائها : مدينة الزهراء. وسوف نرى فيما بعد كيف سيكون تفكيرنا فى مثل هذا التأكيد.

إن كل شئ يدعو للاعتقاد بأن جميع أبناء الخليفة سواء أكانوا يسكنون القصر، أو إحدى الاستراحات الأخرى التابعة للعاهل، كان يعهد بهم إلى أحد المربين والمؤدبين، ليعلمهم القرآن والآداب العامة، حتى يبلغ الواحد منهم سن الرشد. وعند ذلك ينقلون إلى بيوت أخرى فى قرطبة أو إلى أبعاديات حولها، حيث يعيشون (فى الظل الذى فرض عليهم ولا خيار لهم فيه. فلم يكن بإمكانهم، كما كان يحدث فى أيام الامارة، أن يذهبوا إلى عواصم الاقاليم الداخلية، ليضطلعوا فيها بمهام بعض المناصب الادارية أو العسكرية. إن القوائم التى يعدها المؤرخ أريب، والتى تعد أكثر مثيلاتها صحة، لاتذكر على الاطلاق أية تعيينات لأمراء من أسرة الخليفة فى مناصب من هذا النوع. وما إن استقرت حياتهم بقرطبة، وأصبحوا يعيشون فى سعة نظير مايحصلون عليه من

مخصصات ومايعود عليهم من أملاكهم الخاصة، أصبحوا يلعبون دورا، فى السلك الوظيفى، إلى جانب «القرشيين» الآخرين، فى الاستقبالات المهيبة التى تجرى داخل القصر، والمشاركة فى الاحتفالات التى تتم لتكريم والدهم فى كل عام. كانوا يعيشون فى الغالب، حياة تتقلب بين اللين والشدة، بشرط أن يبتعدوا عن مصادر التمرد.

ساكنوا القصر الخلافى: أسرة الخليفة، الصقالبة :

كان الاطار الذى نسج حول الخليفة يوصف دائما، سواء فى حياته الخاصة أو الرسمية، بأنه محط لحركة دائبة من جانب الصقالبة والموالى، الذين شكلوا مايمكن أن نطلق عليه بيته المدنى أو أفراد أسرته المحيطة به. وحتى يتمكنوا من الحركة فى حرية تامة بما فيها الأماكن الخفية من القصر، التى كانت تحوى حريم الملك، أصبح من الضرورى أن يكون هؤلاء الأفراد من الخصيان. فدائما ماكان يوجد عدد كبير من هؤلاء الخصيان حول الأمراء المسلمين فى المشرق والمغرب، سواء فى العصر الوسيط أم فى العصور الحديثة. ففى القرن العاشر، كانت البيوت الملكية فى قرطبة تستخدم هؤلاء الخصيان بوفرة. وكان هؤلاء الصقالبة، الذين أصبحوا يتوافرون على خدمة الأمير وآل بيته، سواء كانوا من الخصيان أم من الفحول، كانوا يسمون بالغلمان، أما الذين تمتعوا بمكانة عالية منهم داخل القصر الملكى فقد أطلق عليهم الفتيان. وبالنسبة لهذين اللقبين : غلمان وفتيان – ومعناهما فى العربية واحد : فتى، يمتنع المترجمون عن استخدام كلمة «وصيف» كمرادف لهما، على الرغم من أنهم لايعدون كونهم خدما ترك الدهر بصماته على أبدانهم : المشيب والظهور المحدبة. وفى هذه الترجمة بالذات، نفضل استخدام كلمة «أهلى» أو «رسمى» والتى، وإن كانت غير صحيحة مائة فى المائة، فإنها لاتحتوى، كالترجمة الأخرى، ليًا للخيال وتزييفا للحقيقة(١٣٢).

كان الصقالبة، خصيان أم لا، فى زمن الخلافة، من أصل أوروبى، وهو السبب الذى من أجله أطلق عليهم اسم الصقالبة(١٣٣)، وهو الاسم المناظر «للسلافى» أو «السلافيين». ولكن على العكس من كل مايمكن أن تثيره هذه التسمية الجماعية من اعتقاد، فلا يصدر هؤلاء الناس جميعا، بوصفهم الدنئ، من أصل أوروبى شرقى فحسب. انها تسمية تكمن فى لفظة ذات معنى أولى ظل يتطور بسرعة، موازيا لكلمة «عبد» فى اللغات الرومانية، حيث أن لفظى «سلافى» و«صقلبى»، يصدران عن أصل اشتقاقى واحد ولهما نفس المعنى. إن جمع هذه الكلمة «الصقالبة»، الذى عادة مايطلقه

الجـغـرافـيـون العـرب في العـصـور الوسطى على سكان الأرض المجاورة لجـازاروس **Jázaros**، بين قسطنطينية وبلاد البلغار، لم يتأخر إطلاقه فى إسبانيا على الأسرى الذين أحضرتهم الجيوش الجرمانية من حملاتها ضد السلافيين، وأعاد السماسرة بيعهم فيما بعد فى شبه الجزيرة الأيبيرية أو فى ثغور أخرى من العالم الإسلامى أو حتى من الامبراطورية البيزنطية. وتبعا لما يثبته الرحالة المشرقى ابن حوقل(١٣٤)، الذى زار الغرب الإسلامى فى منتصف القرن العاشر، فقد كان يطلق فى إسبانيا بنفس الفترة اسم الصقالبة، على كل العبيد الاجانب من أصل أوروبى، وشكلوا جزءاً من جند الخليفة فى قرطبة أو كانوا يضطلعون بمهام الخدمة فى قصوره وعند حريمه، وكذلك فإن هذا الكاتب يبين أنه، تبعا لما شاهده فى رحلته إلى الغرب، فإن الصقالبة فى عاصمة الأندلس كانوا يصدرون، ليس فقط من ساحل البحر الأسود، ولكن أيضا من كالابريا **Calabria** ولمبارديا **Lombardia** وسبتمانية وجليقية. ويبدو، حقا، أن معظمهم كان يأتى عقب أعمال الهجوم التى كان يشنها القراصنة الأندلسيون على السواحل الأوروبية فى وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط.

كانت عملية خصي هؤلاء الفتيان الذين يقومون بأعمال الخدمة لحريم القصر شيئا معتادا فى الغالب فى اسبانيا نفسها. وحول كيفية اجراء تلك العملية يوجد بين أيدينا سلسلة من الأخبار الغريبة للجغرافى المشرقى المقديسى(١٣٥). كان الشباب الذين يقع عليهم الاختيار لاجراء مثل هذه العملية لهم ينزلون فى ميناء بجّانة ويحملون بعد ذلك إلى مدينة داخلية، هى بكل تأكيد مدينة اللّسّانة، حيث كانت العملية تجرى بواسطة متخصصين من اليهود. كانت عملية خطرة للغاية، وغالبا ماكانت تؤدى إلى وفاة المريض، السبب الذى من أجله ارتفع سعر الخصيان بصورة رهيبة، فوصل فى بيزنطة، على سبيل المثال، أربعة أمثال سعر العبد العادى «الطبيعى». ومن ناحية أخرى، حسب الاشارة التى يذكرها القسيس لومباردو لويتبراندو(١٣٦)، فإن تجارة الخصيان قد انتشرت كذلك فى أوروبا المسيحية وكان تجار بردون **Verduín** هم الذين يقومون بعد إجراء عملية الخصى، ببيعهم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية أو يعهدون بهم إلى بعض الوسطاء الذين يقومون ببيعهم من جديد داخل قرطبة.

كان هؤلاء الأسرى فى ريعان الشباب حين وصولهم إلى إسبانيا. انخرط الجزء الأكبر منهم فى صفوف الخدمة الملكية، على الرغم من أنه لاشئ يحول دون تصديق أن بعض البيوت الأرستقراطية كانت تضم بين جنباتها بعضا منهم عقب شرائهم. تعلّم

الصقالبة اللغة العربية والرومانثية فى أسرع وقت، ومن المحتمل أنهم تحولوا إلى الإسلام. ومثلما كان الأمر بالنسبة للعبيد السود الذين تم جلبهم من أفريقيا، فقد ظلت تطلق عليهم أسماء تتسم بلطف شديد، عامة، وفى بعض الأحيان، على العبيد من الجنسين، مثل يمن أى «السعادة» وبشر «فرح»، ورشا «أمل»؛ أو أسماء حجارة كريمة، مثل عنبر وياقوت، أو حتى أسماء شعراء مشهورين من عهد الجاهلية، على سبيل المثال، طرفة، وزهير. وسواء أكانوا خصياناً أم لا، فكان الملك يعتقهم فى بعض الأحيان، فى حياتهم أوعند مماتهم، وكان يوصى بهذا فى بعض المراسيم. وبهذا، فقد تحولوا إلى موالى، وحتى يصبحوا متميزين عن المعتقين الآخرين، فقد أطلق عليهم لقب شاع بوفرة بين سطور كتب التاريخ ويبدو أنه لم يترجم جيدا فى الغالب : انه لقب خلفاء (مفرده خليفة). ومن جانب آخر، يمكن أن يكون هؤلاء الموالى الصقاليه وقد تم تنسيبهم أثناء عملية الخصى نسبا وهميّا يربطهم بسيدهم القديم. وهذا هو مايشرح أن اثنين من الصقالبة المهمين، وكانا محط كلام كثير أثناء عهدى الحكم الثانى وهشام الثانى – الأول الجنرال غالب الذى لم يكن، بداهة، من بين الخصيان، حيث أنجب بنتا، تدعى أسماء، تزوجت من محمد ابن أبى عامر، والثانى هو الحاجب جعفر، الذى كان حقا من الخصيان – قد أطلق عليهما سواء فى كتب التاريخ أو على النقوش، «ابن عبد الرحمن»، أى ابن عبد الرحمن الثالث، أول خليفة للأندلس، الذى يعتبر أول من منحهم وصفهم كرجال أحرار. كان طرفه المتحدث باسم العاهل نفسه، طرفة الصقلبى، قد أطلق عليه «ابن عبد الرحمن».

وصل عدد هؤلاء الصقالبة أثناء القرن العاشر إلى رقم يعتد به فى عاصمة الخلافة. وتبعا لما تذكره إحدى الروايات التاريخية، فقد بلغ إحصاؤهم فى قرطبة إلى الأرقام التالية : ٣٧٥٠ – ٦٠٨٧ – ١٣٧٥٠. وقد أصبح بعضهم يعتق شيئا فشيئا من عبوديته، وفى هذه الفترة أصبحوا يحتلون مناصب هامة فى المجتمع. بلغ بعضهم حد الثراء، فأصبح يمتلك عقارات شاسعة، ويمتلك، بدوره، صقالبة من بنى جنسه يعملون لخدمته. هذا إلى جانب أنهم، نظراً لاحتكاكهم بالمدينة الأندلسية، قد بدى عليهم شئ من الرقة فى الحس والثقافة، فكان من بينهم أدباء متميزون: الشعراء والمولعون بالكتب. كتب أحدهم، حبيب الصقلبى، عملا، خلال عهد هشام الثانى، خصصه للثناء على فضائل الطبقة وتفنيد الآراء التى بذلت مافى وسعها لتنفى تلك الفضائل عنها(١٣٧).

مامن شك فى أن الناصر لم يكن أول أمراء الأندلس الذين أحاطوا أنفسهم بالصقالبة، فقد رأيناهم ينتشرون فى بلاط غالبية أسلافه خلال فترة الإمارة : وكما

نعلم فإن عبد الرحمن الثانى قد اشترى عددا كبيرا، ووالده الحكم الأول لم يرفض خدمتهم له. ولكن فى بداية القرن العاشر بدأت الفترة التى بدأ الصقالبة يلعبون فيها أدوارا تزداد أهميتها رويدا رويدا، إلى جانب الخليفة، ومنذ اللحظة التى بدأ الملك يعهد إليهم، ملحقا الضرر بأمراء أسرته وممثلى كبار العائلات الأرستقراطية فى قرطبة، بمناصب هامة فى الجيش والإدارة، والتى كانت حتى تلك اللحظة قاصرة على النبلاء العرب. وسوف نرى أنهم، عند سقوط الخلافة، كانوايشكلون درجة إجتماعية مؤثرة للغاية مختلفة عن بقية السكان، وذلك حتى يتمكنوا من اقتسام ملكية تركة الأراضى التابعة للخلافة مع «الأحزاب» الأخرى، أو الطوائف العنصرية. وخلال عهدى الحكم الثانى وهشام الثانى، وكلما دعت الضرورة لذلك، ستكون لدينا الفرصة لابراز تدخلهم المشئوم فيهما. أما الآن، فسوف نقصر جهدنا على رسم النشاط الذى قاموا به داخل قصور الخلافة.

إن الرقم الذى أشرنا إليه من قبل، والذى يمثل عدد الصقالبة فى فترة ما، وهو ٣٧٥٠، تبعا لما ذكره أحد المؤرخين(١٣٨)، يشير إلى عدد الذين يعملون فى الخدمة الخاصة، سواء كانوا يعملون كخصيان أم لا، والذين أصبحوا فى النهاية، خلال حكم الناصر، يعملون فى خدمة العاهل نفسه، فى مقر إقامته بمدينة الزهراء فقط. وعلى جانب آخر، وحسب مايروى نفس المصدر التاريخى، كان حريم الملك يصل إلى ٦٣٠٠ امرأة، بما فيهن الصقلبيات. ومهما كان من دهشة لهذين الرقمين فى الوهلة الأولى، إلا أنهما لاينطويان على شئ من المبالغة، وذلك إذا مافكرنا فى العدد الهائل للأشخاص اللذين تضمهم حتى اليوم قصور المغرب. كما أننا نعلم، أيضا، أنه فى العالم الإسلامى، على مر العصور جميعها، كان الأمراء يأخذون مأخذ الجد عملية رعاية النساء اللاتى كن يمثلن جزءاً من حريم أسلافهم داخل قصور الخاصة بهم. ولتأمين الإمدادات الغذائية والخدمة وحتى النظام داخل البيوت المفعمة بالسكان، أصبح من الضرورى وجود حشد من المديرين والخدم والخادمات، والطاهيات والخصيان. هناك أعداد أخرى لاتقل دلالة عن هذه؛ وبغرض تجهيز الطعام لسكان مدينة الخلافة كان من الضرورى، تبعا لما يذكره بيّان(١٣٩)، الحصول على ١٣٠٠٠ رطل من اللحم، بصرف النظر عن الدجاج، أو طائر الحجل أو الأسماك. ففى كل يوم كان الطريق إلى مدينة الزهراء يزدحم بقافلة طويلة من الدواب تحمل المؤن وتبعا لما كان يصدره الكهرمانات من أوامر، أخذ الحرس والفتيان ينتقلون من مكان لآخر، مثلما يوجد اليوم على مدخل دار المخزن بالمغرب.

كان أكثر الصقالبة أهمية، أولئك الذين تمتعوا بامتياز مكنهم من القيام بتأمي الخدمة الشخصية للخليفة، والذى تم تنظيمه بواسطة بروتوكولات غاية فى التعقيد. كار ذلك البروتوكول، فى مجمله، مماثلا لذلك الذى كان سائدا فى بغداد فى ذلك الوقت والذى أخذه العباسيون عن التراث الفارسى الساسانى، والذى ظل حيا فى العصور الأولى للإسلام(١٤٠). وعلى رأس جهاز الخدمة فى قصر الخلافة جاءت شخصيتان علي درجة كبيرة من الأهمية : الفتيان الكبيران. وعلى الرغم من أنه لايوجد نص يذكر لن بالتفصيل الطبيعة الحقيقية وامتيازات مناصبهما، فبإمكاننا أن نفكر فى أنهما كان مثل قادة البيوت المدنية والعسكرية للخليفة، والمسئولين أمامه عن رقابة دقة النظا المتعلق بهذا الجمع المعقد والمتزاحم داخل القصر، أو ابتداء من المكان الذى تنتهى في الأجنحة المخصصة للمكاتب الإدارية. كان الفتيان الكبيران يقتسمان هكذا قيادة الدائرة أو الحراسة الشخصية للخليفة، التى ورثت الحراسة القديمة المعروفة باسم Jurs «خُرس» التى كان يقوم بها أسلافهم.

ومن بين الصقالبة اختار العاهل مجموعة أخرى من ذوى المكانة الرفيعة فى بيته، والذين كانوا يحملون ألقابا نجد لها نظيرا فى بلاطات أوروبا المسيحية فى نهايات العصور الوسطى والعصور الحديثة. ألقاب مثل : صاحب المطبخ، وصاحب البنيان، وصاحب الخيل، وصاحب البريد، الذى كان يدير حركة البريد الملكى. وصاحب البيازيزة، الذى كان مكلفا بتربية الصقور الأصيلة، والتى كانت مخصصة لعمليات الصيد التى يقوم بها الملك. وصاحب الصاغة، الذى يدير مجموعة الورش (دار الصناعة)، الموزعة بين المبانى الملحقة بالقصر، حيث يقوم فريق من العمال المتخصصين بصقل الأحجار الكريمة، ونقش المجوهرات التى كان يحتاجها الخليفة لتقديمها كهدايا بصفة مستمرة لزوجاته، والمفضلين لديه وزواره المتميزين. كان هناك ضابطان أو أكثر يضطلعون بمهمة حسن سير الأمور داخل مستودعات الأسلحة الملكية (خزانة السلاح)، حيث كانت تصنع وتخزن أسلحة بيضاء، ودروع، وسترات واقية. وأخيرا، فقد كان هناك صقلبى آخر من أصحاب الامتياز، يعرف بصاحب الطراز. كان يدير مصنعا أقيم فى مكان تابع للقصر، تنسج فيه الأقمشة الرائعة من الحرير والذهب، تحمل اسم الملك وألقابه منقوشة عليها، بينما يقوم عدد من الخياطين المهرة باعداد الكثير من بدل الشرف، من تلك الأقمشة الخاصة، والتى كان العاهل يوزعها، فى مناسبات الأعياد الدينية أو الأحداث السعيدة فى بيته، كهدية على أقربائه، وقواده وأصحاب الإمتياز داخل بلاطه.

قصر قرطبة، بيوت الضواحي ومدينة الزهراء :

حين تعرضنا لبعض الأمراء الأندلسيين، كانت لدينا الفرصة فى أكثر من مرة للحديث عن قصر قرطبة والاشارة إلى أعمال التوسيع والتنظيم التى أجريت عليه فى أواخر القرن الثامن. إن تاريخ هذا القصر(١٤١)، يتوافر بصورة كبيرة، بفضل الاشارات الغزيرة، رغم عدم دقتها، التى يمكن العثور عليها منثورة فى كتب التاريخ الخاصة بالأسرة الأموية - الاسبانية. ومع هذا، فليس بإمكاننا أن نبرهن على صحة مثل هذه الاشارات - كما ستكون لدينا الفرصة لعمل نفس الشئ مع المسجد الجامع المجاور-، حيث إن القصر المسيحى، الذى أصبح اليوم سجنا مؤقتا، يحتل جزءاً صغيرا فقط من مساحة القصر القديم، الذى كان يضم أيضا فى محيطه الأراضى التى يرتفع عليها اليوم القصر الأسقفى والمدرسة الاكليريكية للقديس بلاخيو، وحديقة الشهداء، التى أطلق عليها هذا الاسم المحلى لأنها كانت المكان الذى تم فيه اعدام الشهداء المستعربين فى القرن العاشر، ولو أن هذا لم يقم عليه دليل تاريخى لإثباته.

فى الركن الجنوبى الشرقى من العاصمة، فى الجانب المطل مباشرة على النهر، والمسجد الجامع، كان القصر الأموى يشكل مجموعة معمارية هامة، تحيطها الأسوار من كل جانب. وفى الوقت الذى بلغ فيه القصر أكبر سعة له كان محيطه قد بلغ ١١٠٠٠ ذراع. كان يشتمل على ثلاثة أجزاء متباينة، تتوالى وراء بعضها فى اتجاه العمق : كان الجزء الأول يتكون من الأجنحة التى تشغلها مكاتب أمانات سر الخلافة؛ أما الثانى فكان يشتمل على الحجرات الملكية، وعلى مسافة منها كانت توجد حدائق فسيحة تعرف ببستان الملك؛ كان القصر يطل بواجهته الجنوبية الشرقية على الطريق المرصوف، الذى كان يمتد على جانبى المعبر وحتى الشاطئ الأيمن لنهر الوادى الكبير. كانت أبوابه الخمسة لاتفتح كلها مرة واحدة فى نفس الوقت. وكان الباب الرئيسى منها، المطل، في أغلب الظن، على الطريق المرصوف، على امتداد سدّة النهر، يعرف باسم باب السدّة، وهو اسم لعله يرجع إلى سدّة النهر، على الرغم من أن هذه اللفظة تعنى أيضا فى اللغة العربية القائمة على أرض الأندلس «بلاط الملك». وعلى كل فقد أصبح الاسم فى النهاية يمتد إلى كل جنبات المبنى الذى كان ذلك الباب يؤدى إليه(١٤٢)، والذى قد تم تخصصيه فى القرن العاشر، على مايبدو، للمكاتب الادارية. وباب آخر، هو باب العدل، كان يطل على الشارع الكبير الذى كان يهبط من بداية وسط المدينة وحتى المعبر : كان ذلك الباب قد افتتح منذ عهد الأمير عبد الله، وكان موجودا على امتداد الممر المغطى الذى أعطى الأمير الأوامر بإنشائه حتى يتمكن من

المرور عبره إلى المسجد مباشرة، ودون حاجة إلى عبور الشارع(١٤٣). وفى عام ٩١٨م (٣٠٦هـ)، أقام عبد الرحمن الثالث إلى جوار ذلك الباب، نافورة، لها ثلاثة أحواض وفوّارة. وأخيرا نرى باب الحديد، وباب الوادى؛ وفى الجهة الشمالية، كان هناك باب صغير من الاستحكامات يسمى باب كوريّا Quriya. بالإضافة إلى باب صغير خاص، يسمى باب الصناعة، يؤدى إلى الورش والمصانع المقامة فى الأماكن الملحقة بالقصر.

إننا لانعلم شيئا كثيرا عن الامكانيات الداخلية للمبانى الخاصة التى شكلت معظم القصر. ويبقى لدينا بعض المعلومات عن أسماء مجموعة من صالات الاستقبال وبعض النباتات بالحديقة، مثل «مجلس كامل» الذى تلقى فيه عبد الرحمن الثالث التكريم المقام له من جانب البلاط بمناسبة وصوله إلى الحكم، أو قصر «الحائر» الذى أشرنا إليه فى مناسبة سابقة، وأماكن أخرى عديدة. كان الناصر وفيّا للتراث الذى تركه سابقوه، فأضاف بناية خاصة إلى تلك التى وجدت بقصر الأمراء. وحتى يحصل على الأرض اللازمة لذلك، فمن الواضح أنه قام بهدم بعض المبانى التى كانت مشيدة هناك. أصبحت البناية التى أضافها الأمير عبد الرحمن تعرف باسم دار الروضة، ولانعرف عنها شيئا سوى أنه كان يعمل بها متخصصون فى البناء تم استقدامهم من الشرق الاسلامى وقسطنطينة، وكان يتم احضار الماء اللازم لذلك، عبر قنوات ومواسير، من سلسلة الجبال الثلجية المجاورة.

وكذلك فقد تحدثنا، فى مناسبات عديدة، عن دور الاقامة «مُنية»، المشيدة فى أجوار قرطبة، حيث كان الأمراء يفضلون البقاء بها خلال فترة الربيع. كان بعض هذه المزارع معدا، فى فصل الاقامة بها، لاستقبال كبار الضيوف من الزوّار : على سبيل المثال، الرصافة، التى كانت عزيزة كل العزة على قلب عبد الرحمن الداخل(١٤٤). ومنية الناعورة كانت هى الأخرى مقر الإقامة المفضل لدى عبد الرحمن الثالث طوال الفترة الأولى من عهده. ويرجع تاريخ إقامتها إلى عهد الأمير عبد الله؛ كانت تقع على شواطئ نهر الوادى الكبير، بعد بطحاء «المصارة» Musara، على مساحة شاسعة من الأرض كان قد اشتراها جد الناصر قبل وصوله للحكم، وكان ترتفع وسط حدائق واسعة تروى بماكينة لضخ المياة من النهر. كانت الاقامة القديمة لنجى الخصىّ لعبد الرحمن الثالث، التى عرفت باسم منية ناصر، من بين الأماكن التى أحياها الأمير عبد الله. وبما أنها كانت مقامة على مساحة من أراضى الشاطئ الشرقى للوادى الكبير، والمجاورة لمدافن الربّض، كانت تشكل جزءا من ملحقات القصر(١٤٥). وبعد قليل من الزمن أصبحت موضوعة تحت تصرف الأمير الوريث للعرش.

وماتأخر الوقت بعبد الرحمن الثالث، فى قصر العاصمة، الذى حرص أسلافه جميعا، والناصر نفسه، على إدخال بعض التغييرات عليه وتجميله، حتى بدأ يشعر بالضيق. كانت المُنْيات المقامة بين الحدائق الخضراء، التى انتقل إليها مسروراً عندما كان يقيم فى قرطبة لبعض الوقت، قد بدت غير كافية فى نظر الخليفة، بل وأصبح يراها غير ملائمة وجديرة به بعد أن أصبح خليفة وأميراً للمؤمنين. ولهذا كله، وفى منتصف عهده، أخذ الناصر يشعر بضرورة أن تكون له إقامة جديدة ورحبة، وهو الأمر الذى دفعه إلى اتخاذ قرار ببناء مدينة الزهراء(١٤٦).

تم اختيار موقع هذه البناية الخلافية - والتى يفهم من اسمها أنها مدينة حقيقية، بواسطة الخليفة نفسه على مسافة خمسة كيلومترات شمال شرق العاصمة، فى موقع غير قابل لامتداد التطور والإزدحام العمرانى، إلا أنه يحظى باطلاله رائعة على الوادى الفسيح للنهر الكبير، ووراء النهر، تطل على منعطفات رحبة قرطبة. كان مكانا ملحقا بنهاية جبل صغير، وعر، ملاصق لسلسلة جبال قرطبة يعرف باسم «جبل العروس» بالنسبة للجغرافيين العرب، وعليه، فإن المدينة الجديدة، بعد الاستخدام الذكى للانحدارات الأرضية، أصبحت تتكون من سلسلة من البنايات المدرّجة، التى لايعوق بعضها البعض، وكانت تحظى جميعاً بشرفات واسعة تطل على المنظر الطبيعى المنسجم لمرج قرطبة.

إن مؤرخى عهد عبد الرحمن الناصر يتبسطون، على رغبة ومتعة منه، فى ذكر الأحداث التى واكبت بناء مدينة الزهراء، التى بدأت أعمال تشييدها فى ١٩ نوفمبر عام ٩٣٦م (الأول من محرم ٣٢٥هـ). وحسب مايذكر بعض المؤرخين، فإن إحدى محظيات الملك، قد تركت له مالا وفيرا، عند موتها، فأراد أن يستعمله فداءً لبعض الأسرى الأندلسيين فى أرض الفرنجة، أى، الثغر الاسبانى. وماوجد من بعثهم لهذا الغرض أى أسير يمكن افتداءه، وعليه، فقد نصحت الزهراء، إحدى المفضلات لدى الناصر فى ذلك الوقت، بأن ينفق هذا المال فى بناء مدينة جديدة تحمل اسمها. ولم يكن الخليفة ليتبع منها هذه النصيحة وحسب، بل، وحتى يحقق لها الأمل الذى تطلعت إليه محبوبة قلبه، فقد أمر بقطع حجارة سفح الجبل المجاور كى يزرعه بأشجار التين واللوز، وأكثر من ذلك، حيث أمر بتعليق تمثال للمحظية فوق الباب الرئيسى لأسوار المقر الجديد.

يبدو أننا قد انتقلنا إلى بلد الأساطير الخالصة، ولكن ليس من السهل أن نبرهن على أن مثل هذه التأكيدات كانت خيالا، أو كانت من صنع المؤرخين المتأخرين من بدايتها إلى نهايتها. إذ لو أن الناصر قد فكر فى أن يكون له مثل ماكان للملوك

المسلمين فى عهده، ولهذا بدأ فى بناء مدينة الزهراء، لكان من الأولى أن يطلق عليها اسم الناصرية، على غرار مدينة الفاطمى اسماعيل المنصور، فى افريقية، حيث سميت المنصورية(١٤٧). والآن، لقد أصبحت المدينة الاسبانية تعرف باسم مدينة الزهراء، و«الزهراء» يمكن أن يكون اسما لشئ غير أن يكون اسما لامرأة. وإلى جانب هذا، فإن لدينا البرهان الذى لاغنى عنه على أن تمثالا أنثويا كان يوجد حقيقة فوق باب المدينة (على غرار ماكان يوجد فوق باب المعبر من تمثال العذراء) وأنه، فى عام ١١٩٠م (٥٨٦هـ)، أو بمعنى آخر، بعد قرنين ونصف من الزمان على تأسيس مدينة الزهراء أمر خليفة الموحدين يعقوب المنصور، حين مر بقرطبة، وذهب لزيارة أطلال الديار الأموية القديمة – كما يذكر المؤرخ الذى يروى الزيارة(١٤٩)، بأن التمثال الذى نصب فوق باب المدينة لابد له من أن يزال، وهو مايعنى أن التمثال كان مايزال موجودا هناك حتى ذلك الوقت. وكثيرا ماكان أهالى قرطبة يعتبرون، فى القرن الثانى عشر، أن مثل هذا التمثال هو بمثابة الفأل الحسن وتكهنوا بأنه إذا ما أزيل، فسوف تحل الشرور الكبرى بالمدينة. فى مثل هذه الظروف يصبح من الصعب نفى وجود الزهراء المفضلة ووجود تمثالها، وبالتالى، عمق أصالة التراث الذى كان سائدا ومعروفا فى الغرب الإسلامى حول أصل الأسماء التى أطلقت على مقار إقامة الخلفاء.

تم تأسيس المدينة على مدى سنوات طويلة (من ١٣ إلى ٤٠ عاما، حسب مايذكره المؤرخون). وقد خصص الناصر لهذا العمل جزءً كبيرا من ميزانيته : ثلث المدخلات من الضرائب، أو بمعنى آخر، مبلغاً سنوياً يصل إلى ٨٠٠ر٠٠٠ ر١ دينار. وفى كل يوم كانت توضع أعداد هائلة من الحجارة المسومة التى بلغت ٦٠٠٠ حجرا، دون حساب الحجارة المصنوعة (الآجُر). كان بها مايقرب من ٤٠٠٠ عمود، وبلغ عدد البنائين والحمالين والحمارين إلى مايقرب من ١٠ر٠٠٠، كانت أجرة الواحد منهم تتراوح بين درهم ونصف وثلاثة دارهم. قام الأمير الوريث للعرش، الحكم الثانى بإدارة أعمال البناء، وكذلك، فقد وصل اسم المهندس المعمارى الأول، مسلمة بن عبد الله إلى ذاكرة التاريخ. وعند رسم خريطة المدينة أخذ فى الاعتبار موقعها، ويشير لنا المؤرخ الإدريسى – الذى لم يشاهد أكثر من أطلال المدينة المذكورة – كيف تم استخدام المنحدرات : حيث أقيمت المدينة على ثلاثة أجزاء مدرجة، خصص الجزء الأول منها، الأعلى، لقصر الخليفة وملحقاته؛ أما الجزء الأوسط فكانت تكسوه الحدائق، وكان الجزء الأسفل مشتملا على الحجرات الخاصة والمسجد الكبير.

لانعلم شيئا عن تاريخ انتقال عبد الرحمن الثالث وبيته كاملا وبلاطه إلى مدينة الزهراء، على الرغم من أنه، لم ينتظر بالانتقال إليها حتى تنتهى الأعمال الدائرة. ففى

عام ٩٤٥م (٣٣٣هـ)، أو بمعنى آخر، بعد تسع سنوات على تأسيسها، أصبح لدينا الدليل على أن هناك مراسم استقبال كبيرة أقيمت فى مقر الاقامة الجديد. وكذلك فقد تم نقل الخدمات العامة رويدا رويدا، بالإضافة إلى دار السكة. كما أمضى خليفة عبد الرحمن الثالث، ابنه الحكم الثانى مدة من عهده بها وأضاف إليها تسع بنايات. ومع هذا، فيبدو أن الدمار قد لحق بمدينة الزهراء فى وقت مبكر، بعد وصول الحكم الثانى إلى العرش، وخاصة منذ الوقت الذى وجدت فيه مدينة الزهراء كمدينة منافسة، والتى أسسها المنصور بن أبى عامر. وفى بدايات القرن الحادى عشر خُربت المدينة عدة مرات من جانب المرتزقة البربر المتمردين. وفى عام ١٠١٠م (٤٠١هـ) سقطت بصفة نهائية. وبعد ذلك بقرن ونصف، فى عهد الادريسى، لم يتبق منها سوى الأسوار، كانت القصور قد تهدمت، وأصبح لايسكنها إلا نفر قليل من الناس. يبدو أن اشارات المؤرخين، وخاصة المؤلف المقرى، فيما يتعلق بمدينة الزهراء فى فترة ازدهارها، قد تأكدت من خلال أعمال الحفر المنظمة التى بدأها المهندس المعمارى الاسبانى (بيلا ثكيت بوسكو – والذى ترجع إليه عملية اعادة تكوين بعض صالات الاستقبال فى الجزء العلوى–)، وقد تتابعت أعمال الحفر هذه على أيدى المهندسين الآخرين، ومازالت إلى الآن، وإن كانت تسير بخطى وئيدة، وينجم عنها أحيانا بعض الاكتشافات العظيمة.

كان الوصول إلى المدينة يتم بواسطة طريق يمتد إليها مباشرة من قرطبة وينتهى عند الباب الأول، باب الأقبية، وقد سمى بهذا الاسم نظرا لبعض الأروقة المقبية التى كانت تحيط به. وهناك على الجانب الآخر من بطحاء فسيحة، استخدمت كثيرا كميدان للسلاح أو فناء للتشريفات، كان يفتح الباب الرئيسى للمقر، والمسمى، مثلما فى قرطبة، باب السدّة، والذى كان يؤدى إلى رواق طويل يسمى السطح الممرد. كان ذلك الرواق يؤدى إلى صالونات الاستقبال الكبيرة. وكانت أسماؤها معروفة كالأسماء الأخرى. استخدمت فى تشييدها مواد غريبة وقيمة للغاية : كانت كل لوحة من المرمر تساوى ثلاثة دنانير، وكل عمود يساوى ثمانية؛ كانت الأعمدة تجلب فى معظمها من قرطاجة، ولكن تم احضار بعض الأعمدة من المرمر الوردى والأخضر أيضا من كنيسة صفاقس فى أفريقية. كما استخدم أيضا العقيق اليمانى المعرّق الذى جُلب من إقليم رية بالأندلس والمرمر الأبيض المستقطع من محاجر سلسلة جبال فيلا برس، فى مقاطعة الميرية. وسوف نرى، بعد ذلك، كيف أن القسيس المستعرب ربيع ابن زيد تمكن من احضار فنجان كبير وحوض منحوت، به نقوش تمثل أشكالا إنسانية، إلى الخليفة؛ وقد أعد كل ذلك فى سوريا أو قسطنطينة ونقل إلى الأندلس بعد تخطى آلاف الصعاب. كما نعلم، من ناحية أخرى، أنه، كترف لم يسمع به فى تلك الفترة، أمر عبد الرحمن الثالث

بعمل قفص فى محل اقامته بقصره الجديد يمتلئ بالعصافير النادرة وحديقة للحيوانات بها مجموعة من الحيوانات المفترسة تم احضارها من إفريقية بعد جهود مضنية(١٥٠).

كما اهتم عبد الرحمن الناصر بتحويل الجزء الأسفل من مدينة الزهراء إلى حى تجارى يليق بقصره، حيث أمر بإنشاء عدد من الأسواق ومنح كل تاجر من التجار الذين يزاولون نشاطهم بها مبلغا من المال وصل إلى ٤٠٠ درهم، وذلك بهدف تنشيط عملية إعمار المدينة. كان التنظيم لهذه المدينة مماثلا لما تم فى قرطبة، وعليه، فقد أصبح لها قاضيها، ورئيس شرطتها ومحافظها، باستثناء أفراد حراسة الخليفة الذين ظلوا مجتمعين داخل المعسكرات بالمدينة. وبكل هذه الاجراءات تحولت مدينة الزهراء ليس فقط إلى مدينة للمتعة، بل أيضا إلى مدينة تجارية وإدارية، رغم أنها لم تلحق بالتطور الاقتصادى لقرطبة القريبة منها أىّ نوع من الضرر.

كان عبد الرحمن الناصر، الذى كان اسمه غير قابل للانفصال عن مدينة الزهراء، من كبار المشيدين، على غرار غالبية الأمراء من أفراد أسرته، وللأسف الشديد، فإن كتب التاريخ تحدثنا فى مرات نادرة عن الانشاءات، سواء أكانت من نوع دينى أوذات نفع عام، والتى كانت قد شيدت بناء على أوامره. لقد أمر بتشييد مئذنة المسجد الجامع بقرطبة، كما أمر بإنشاء مظلة فى فناء هذا المسجد، تقى، فى أيام الحر الشديد، المصلين الذين لايجدون مكانا داخل تلك الأمكنة المعدة للصلاة(١٥١). وحسب ماهو موجود على أحد النقوش التى ترجع إلى عام ٩٥٨م (٣٤٦هـ) يتبين لنا أن عبد الرحمن الناصر قد أمر باقامة واجهة لنفس المسجد. ومثلما فعل فى قرطبة، فى العام التالى لمجيئه، أمر ابناء أبواب داخلية فى مواجهة الأبواب الموجودة بالأسوار. وبعد عامين أمر بفتح باب جديد، هو باب الأمير، فى سور العاصمة. فى عام ٩١٨م (٣٠٦هـ) أمر أيضا بإنشاء المحراب فى مصلى المصارة **Musara** فى الهواء الطلق. أما فيما يتعلق بانشاءاته فى مدن الأقاليم، فلا ندرى عنها شيئا أكثر مما ورد على بعض النقوش البسيطة؛ مثل إقامة نافورة فى إستجة عام ٩٣٠م (٣١٨هـ) وبعض الترسانات فى طرطوش عام ٩٤٤م (٣٣٣هـ)، وتأسيس الجامع الكبير فى طركونة، وانشاء برج القلعة فى طريفة عام ٩٦٠م (٣٤٩هـ)(١٥٢).

الحياة داخل البلاط الملكى فى عهد عبد الرحمن الناصر:

فيما يتعلق ببروتوكولات الاستقبالات فى قصر الخليفة بقرطبة أو بمدينة الزهراء، فأننا بعيدين كل البعد عن اقتناء أية وثيقة مماثلة لتلك الوثيقة القيمة : كتاب

الاحتفالات، المؤلف فى القرن العاشر بقلم الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بوروفيروجنينى؛ ولكن، فإن قراءة النصوص، فى كل الأحوال، والتى ليست بالقليلة؛ وتحتوى على وصف لتلك الاحتفالات المهيبة، قد سمحت لنا بالتأكد من أنها كانت احتفالات فاخرة، وأخذ الاهتمام بتنظيمها يتزايد فى اطار الآداب، كلما تقدم عبد الرحمن الثالث فى العمر. كانت تلك الاحتفالات تقام فى العام الواحد عدة مرات، فى أيام الاجازات الرسمية للمسلمين، أوبمناسبة بعض الأحداث الكبرى، كختان الأمراء، وعودة الحملات المنتصرة أو استقبال الخلفاء والملوك والسفراء الأجانب.

وخارج هذه الاحتفالات الصاخبة - التى كان الخليفة يتبنى خلالها موقفا حازما، وذلك تمشيا مع مكانته كراع للجميع -، أقيمت فى القصر احتفالات واستقبالات أخرى، اقتصرت على بعض المقربين من الخاصة - الوزراء، القادة، الأدباء-، فكان يسمح أثناءها بشئ من المودة وعدم التكلف. كما كان الموسيقيون من الجنسين، والراقصات، والشعراء المأجورون ومنشدو الشعر، يبدون مالديهم من مواهب أمام دائرة ضيقة من الخاصة، لم تكن للآداب العامة فيها نصيب كبير. وفى مرات أخرى، كان الخليفة، حين يرى نفسه فى حاجة للتسلية، يأمر بإحضار أحد المهرجين، أو يسعد بصحبة بعض العامة القاطنين بالقصر : من المفضلات المؤقتة، أو عمال الصقالبة. كما كان يسعد دائما بإغداق الهدايا على بطانته، ولم يكن يأبى تلقى الهدايا فى بعض المناسبات، من كبار رجال بلاطه. حظى أكبر موظفيه بلقب ذى الوزارتين، وهو ماسنشرحه فى حينه. حيث قدم له أحمد ابن شهيد، قبل أن ينال منصب «ذى الوزارتين» عام ٩٣٩م (٣٢٧هـ)، سلسلة من الهدايا القيمة، والتى إذا ما أحصيناها لكانت دليلا على درجة الثراء التى وصل إليها البعض فى تلك الفترة، ولا يتعلق الثراء بالعاهل الأموى فقط، وإنما بالبعض من ممثلى كبار الأسر داخل الأرستقراطية العربية، وكيف لها من ثراء، وحتى تستمر لهم أحقيتهم فى التمتع بثرواتهم الضخمة، كانوا يغدقون على الخليفة بكثير من الهدايا، وبهذا يحصلون منه. فى مقابل ذلك، على صلة أوثق وأقرب.

يبدو لنا ذات فائدة أن نضع أمام أعين القارئ قائمة للهدايا التى قدمها ابن شهيد للناصر، بالصورة التي حفظها لنا مؤرخو تلك الفترة[١٥٢]، وبهذا يمكننا - بالإضافة إلى القارئ - أن نكوّن فكرة عن الثراء الذى لم يسمع بمثله للعاصمة الأموية وعن الترف المطلق الزمام الذى كانت تعيش فيه بعض الطبقات العليا من المجتمع. إن ماتلقاه الخليفة من ابن شهيد هو : ٥٠٠ر٠٠٠ مثقال من الذهب المسكوك؛ ٤٠٠ رطل

من الذهب الخام؛ ٢٠٠ كيس من سبائك الفضة، والتى بلغت قيمتها ٤٥٠٠٠٠ دينار؛ وكمية كبيرة من الخشب طيب الرائحة، والمستعمل فى المباخر، والمسك والكافور؛ وثلاثين قطعة من الحرير المزركش، خمس عباءات ثقيلة من النوع الفاخر القيم، وعشر سترات من الجلد والفرو، سبعة منها من جلد الثعلب الأبيض لمنطقة خوراسان؛ وسبعة ملابس من حرير العراق، وثمانية وأربعون بذلة للنهار ومائة لليل؛ ومائة من قطع الفرو أو الخز السيبيرى، وثمانية وأربعون جلاً للخيل من الحرير والذهب و٤٠٠٠ رطل من الحرير المنسوج، و١٠٠٠ رطل من الحرير الخام، أرسلت إلى المصنع الملكى المعروف باسم طرازTiraz، وثلاثون بساطا من الصوف، ومائة سجادة للصلاة؛ وخمسة وعشرون بساطا من الحرير؛ ومائة درع واق لأيام العروض العسكرية وغيرها؛ وألف من تروس الحرب، ومائة ألف سهم؛ ومائة فرس، من بينهم خمسة عشر فرسا من أصول عربية وخمسة منها مدججة بكراس من الديباج؛ وخمس بغلات غالية الثمن؛ وستون عبدا؛ أربعون منهم من الذكور وعشرون من الاناث، وكميات كبيرة من الأحجار المنحوتة والأخشاب اللازمة للانشاءات الملكية.

إن هذا التقليد الذى ينطوى على قيام الأتباع الأوفياء من المقربين إلى الخليفة بتقديم الهدايا له، كان قائما على الدوام فى ظل الحكم الإسلامى وليس بإمكاننا أن نتجنب وضع هذا التقليد فى إطار علاقته ابنظام إنتعش واستمر خلاله بصفة متوافرة، وهو بيع الوظائف. وكذلك، فما كان لسفير قادم من بلد آخر يجد فرصة للقاء الخليفة إلا إذا كان محملا بالهدايا القيمة على الرغم من أنه لن يعود، بدوره، خالى الوفاض على الاطلاق، إلى بلده.

٥- علاقات إسبانيا الأموية بالبلاد الأوروبية الواقعة فيما وراء الجبال :

قرطبة وبيزنطة فى منتصف القرن العاشر :

لم يكد يمر عام، فى الحقبة الأخيرة لعهد عبد الرحمن الناصر، دون أن يأتى إلى قرطبة عدد من السفراء، المسلمين والمسيحيين، يطلبون مقابلة الخليفة. كان أغلب الوافدين من أرض المغرب المجاور، وعادة مايكونون زعماء قبائل من تلك التى لاتحظى بمكانة رفيعة، وسادة من أصل عريق أو جمع من العلماء من مواطنيه ممن يحظون بمكانة وعلم معروفين. وعند مرورهم بالعاصمة الأندلسية، كان هؤلاء النواب المسلمون يوقظون الفضول الحالم لدى السكان وماكانوا يسيرون أو يمرون قط دون علم الناس

للاحتفاء بمرورهم؛ ولكن هؤلاء العلماء لم يحتلوا مكانا واسعا مثلما احتل النواب المسيحيون فى كتب التاريخ، والذين كانوا يفدون إلى قرطبة من الجانب الآخر لجبال البرانس : من بروفنسا، وإيطاليا وألمانيا أو حتي عبر البحر أو البر، من بيزنطة البعيدة. كان هؤلاء النواب هم الذين يحدثون شعورا حقا لدى المواطنين الأندلسين فى قرطبة، إذ أنهم قد فسروا قدومهم إلى عاصمتهم على أنه دليل أو مظهر من مظاهر السلطان والمكانة اللذين يتمتع بهما الخليفة الأموى، على الرغم من أنهم ماكانوا يهتمون فى الغالب – مثلما كان يحدث من جانب المؤرخين العرب – بمعرفة الأسباب التى أدت إلى وفادتهم. وبتصديق ماذكرته كتب التاريخ الاسبانية – العربية، فإن السفارات المسيحية، فى عهد عبد الرحمن الثالث، كانت تأتى دائما فى شكل من يطلب المعروف، وماكانوا يكلفون بنقل أية بلاغات دبلوماسية، سواء بطريقة مهذبة، أو تهديدية، تتعلق بأى أمر محدد، إلى الخليفة الأندلسي. والآن، لن يكون صعبا علينا أن نأتى، بعد ذلك بقليل، بالدليل على أن مثل هذا الأمر كان هدفا لبعض السفارات التى وفدت إلى الأندلس، ولكن، فى كل الأحوال، وأيًا كانت الظروف التى أحاطت بمهمتهم، فقد كانت مثل تلك الوفادات تستقبل بالترحيب داخل قرطبة، وكانت مقابلاتهم مع العاهل المسلم محاطة بمظاهر الصخب والأبهة. مثلما حدث عند استقبال الملكة العجوز تودا، حين قدمت، يرافقها ابنها جارثيا وحفيدها سانشو، لتحية الخليفة الأندلسى فى عاصمته.

وبعد مرور عشر سنوات على هذه الزيارة التذكارية استؤنفت العلاقات الرسمية بين امبراطور قسطنطينة وخليفة قرطبة، والتى قطعت على مدى مايزيد على قرن كامل. وهنا نتذكر، ذلك الذى قام به تيوفيلو، عام ٨٤٠م (٢٢٥هـ) حيث أرسل فجأة إلى الأمير عبد الرحمن الثانى، والذى كلف، بدوره، اثنين من رجال بلاطه بحمل رده إلى قسطنطينة(١٥٤). يبدو أن مثل هذا التبادل للرسائل، المصحوبة بالهدايا المعتادة، لم يسفر عن أية نتائج. فالمساعى التى قام بها تيوفيلوكى تحظى باهتمام الأمير المروانى بمصير كريت Creta– التى سقطت قبل ثلاثة عشر عاما فى قبضة عصابة من المغامرين التى، عقب إحدى الحملات على مصر، قدمت من إسبانيا الاسلامية، كانت غير ملائمة تماما. فقد كان تجاوزا منه أن يطلب من أمير مسلم فى تلك الفترة، مهما يكن أمر عداوته المعلنة للعباسيين، أن يتدخل بالسلاح لمساعدة قوة مسيحية. ومن هنا، فإن الطلب البيزنطى قد قوبل بالرفض بأسلوب مهذب؛ وكذلك فما طمع خلفاء تيوفيلو فى إمكانية الحصول على مناصرة خليفة قرطبة لاستردادهم جزيرتهم المفقودة. وفي منتصف القرن العاشر، لم تكن بيزنطة قد استعادت بعد جزيرة كريت، رغم الجهود

المبذولة من جانب الأباطرة لطرد المحتلين المسلمين. استمرت الدولة التى أسسها أبو حفص عمر البلوطى فحكم الجزيرة، كما أن أحفاد المهاجرين الأندلسيين لم يفقدوا ذكراهم بوطنهم الأصلى، وأقاموا معه - تبعا للعديد من الدلائل(١٥٥)، علاقات اقتصادية وثقافية متبادلة. وقبل وفاة عبد الرحمن الثالث ببضعة أشهر، وبالتحديد فى السابع من مارس عام ٩٦١م، فى عهد الحكم القصير لرومانو الثانى، قام الجنرال والامبراطور القادم نيثفو وفوكاس باحتلال قلعة الخندق، التى تعرف اليوم باسم كانديا، وخلع الأمير عبد العزيز بن شعيب عن العرش، الذى كان الممثل الأخير للأسرة الاسبانية الكريتية(١٥٦). وقبل ذلك ببضعة أعوام، فى عام ٩٤٩م، قام قسطنطين السابع بورفيروخينيتى بمحاولة، جمع لها من الأسباب الكثير، إنزال حاسم فى كريت؛ لكن حملته قد فشلت. وفى هذا التاريخ بالتحديد تظهر أدلة على وجود علاقات دبلوماسية من جديد بين إسبانيا الاسلامية والامبراطورية البيزنطية.

لعل مثل هذا التوافق فى التواريخ لايأتى، مع هذا، عرضا. ففى منتصف القرن العاشر لم يكن لدى بتيوفيلو حتى مجرد حجة واهية ليحرك فى قرطبة القضية المتعلقة بكريت القديمة، والتى كانت تصفيتها أمرا خاصا ببيزنطة. كما أن المملكة المسلمة فى إسبانيا كانت، من ناحية أخرى، بعيدة جدا عن شرق البحر الأبيض المتوسط حتى تبدى الامبراطورية الاغريقية بها اهتماما ما. ومما لاشك فيه فإن قسطنطينة كانت تعلم جيدا ماهية التركة السياسية للامارة الأندلسية القديمة، وكذلك النفوذ الذى اكتسبه الخليفة الناصر، وثرواته المتنامية بوفرة كبيرة، هذا إلى جانب علمها بالوصاية المحكمة إلى حد ما من جانب العاهل الأموى على الممالك المسيحية الصغيرة فى شمال الجزيرة الأيبيرية - وكيف تظاهر علنا بعداوته للعباسيين والفاطميين، أى الأعداء المعلنين للسلطة البيزنطية. ولكن هذا الموقف للعاهل الأموى، رغم أنه من الممكن أن يؤدى إلى إيجاد تقارب مؤقت بين قسطنطينية وقرطبة، لم يكن ليبرر بمفرده المبادرة بالمساعى التى قام بها بوريفيرخنيتى من جانبه. إن تلك المبادرة، رغم صمت المحللين العرب الاسبان، ظلت تنسب إلى العاهل المسلم.

هناك، فى الواقع، بعض الأدلة التى تسمح لنا بكشف الأسباب الحقيقية التى أدت إلى حث عبد الرحمن الثالث ليستأنف مع بيزنطة علاقات قد توقفت لوقت طويل، ولكن يصبح بامكانه أن يحصل من ورائها على مصالح جّمة. ويأتى فى المقام الأول المكانة السامية التى كانت تتمتع بها مدينة قرطبة بوصفها عاصمة للخلافة. وكانت قسطنطينة ماتزال، خلال القرن العاشر، مالكة العالم المتحضر، والأكثر نشاطا والوارث

الرقيب للتراث العلمى والفلسفى لليونان والشرق الهلينى. أدى ازدهارها إلى اطفاء جذوة المدن الاسلامية الأكثر ثراء وازدهارا(١٥٧). ويشهد العديد من الأعمال الكبيرة بالعبقرية الفنية لمهندسيها المعمارين، ومهندسى الديكور، والنحاتين، والرسامين. وعليه ففى مجالى المعرفة بالعلوم الفنية والدنيوية، نجد دولة ناشئة ثقافيا مثل الأندلس يصبح بإمكانها أن تحصل فقط على فوائد جمّة من جرّاء اتصالها بالعالم البيزنطى، وخاصة إذا ماجرى مثل هذا الاتصال على المجال الرسمى.

إن تقاربا إسبانيا بيزنطيا كان يعنى، بالإضافة إلى ذلك، فائدة أخرى تكمن فى مساعدة العاهل الأموى فى نيل أغراضه السياسية، وخاصة رغبة مملكته فى الانفصال عن بقية العالم الإسلامى. وبالرغم من جهود عبد الرحمن الثالث لجعل الأندلس عالما منفصلا بذاته، فما استطاع أن يمنع التراث الشرقى من أن يظل حيا ومحتفظا بشفافيته، فى مظاهر عديدة فى اقتصاده : فقد ظلت قرطبة تمثل رافدا من روافد بغداد؛ فيما يتعلق بالجمال والزينة اللذان يبدو ان بوضوح فى حياة قرطبة الصاخبة، والملابس والأثاثات التى تستخدمها الطبقة العليا من المجتمع مازالت تحمل إلى الآن بصمة زرياب، كما أن الآثار التى أنتشرت فى جنباتها كانت من نتاج أعمال أولئك الذين كانوا يقومون بتجميل المدن الكبرى فى العراق أو فى القيروان القريبة. أو قد فهم الناصر أنه، لكى يفصل عاصمته عن التأثير القادم من الشرق، تصبح المعونة البيزنطية أمرا حتمياً ؟

إنه أمر يغرى بتصديقه؛ خاصة وأن علم الآثار يقدم لنا سلسلة من البراهين الكافية فى ذاتها للتدليل على هذه النظرية. إن مدينة الزهراء، التى تعد أكثر البنايات المدنية التى أقامها الناصر أهمية، تعطينا، لأول مرة فى تاريخ الفن الإسلامى الاسبانى، تأثيرا بيزنطيا لامجال للنقاش حوله. فديكور صالات الاستقبال الخاصة بمقر اقامة الخليفة – التى تشتمل على مجموعة من العناصر الزخرفية التى درسها المتخصصون، وذلك بفضل أعمال الحفر التى جرت فى السنوات الأخيرة – يبين لنا أنه، ابتداء من عام ٩٥٠م، قد أقدمت المملكة الأندلسية على قطع صلاتها بالتراث الفنى للعصر السابق، الأمر الذى جعلها تطلب من العمال اليونانيين بأن يطلعوا كبار الحرفيين من قرطبة على التقنيات التى يتخصصون بها. ففى زخرفة الأجزاء الأكبر أبهة فى مدينة قرطبة يبدو، فى الواقع، الحصى المعالج، والتطعيم الخشبى. وبهذه الطريقة، ستكون الفسيفساء المتعددة الألوان، والمستخدمة فى زينة الكنائس البيزنطية أبرز ماتضمنه الجامع الكبير بقرطبة، والذى تم توسيعه وتجديده على يد الخليفة الحكم الثانى.

وهناك شواهد أخرى، وللأسف فهي قليلة، تبرز، على جانب آخر، ما أثبته حديثا علماء الآثار. وعلى ذكر تأسيس مدينة الزهراء، فإن أحد المؤرخين يلمح لمهمة الربيع بن زيد – رجل مستعرب سنعود للحديث عنه بعد قليل – قام بها إلى قسطنطينة وسوريا، والتى عاد منها بعد أن أحضر معه إلى مقر الخلافة فنجانا كبيرا من المرمر المنحوت ومرصعا بالذهب، ونافورة من العقيق اليمنى الأخضر بها نقوش لصور بشرية. ويضيف المؤلف نفسه أن الورش الملكية للصاغة. من أن أجل أكمال هذه المجموعة، تلقت فى قرطبة تكليفا بصهر ١٢ تمثالا من الذهب، مع لآلئ مرصعة، تمثل كل واحدة منها حيوانا، سواء أكان هذا الحيوان طائرا، أم من ذوات الأربع أم من الزواحف(١٥٩). إن المهمة التى أوكلت إلى ربيع ابن زيد، بعد رفعها إلى هيئة الأساقفة، إلى الشرق المسيحى قد حدثت فى عام ٩٥٥م(١٦٠)، على وجه التقريب. والآن : هناك سلسلة من الشهادات غير العربية هذه المرة، تجعلنا نؤكد أنه بعد ذلك بست سنوات، فى ٩٤٩م، كانت هناك سفارات للناصر فى العاصمة البيزنطية. كما أن هناك إشارة فى كتاب إحتفالات قسطنطين السابع بورفيروخنيتى تسمح لنا، بالإضافة إلى هذا، أن نحدد بدقة بأن الرابع والعشرين من أكتوبر عام ٩٤٩ هو التاريخ الذى استقبل فيه النواب الأندلسيون من قبل قسطنطين داخل القصر المقدس. وفى نفس هذا العام رجع خصى يدعى سليمان إلى قسطنطينة، بعد أن قام بمهمة فى اسبانيا وساخونيا Sajo-nia، حيث مر، فى طريق عودته، بفينيسيا، حيث التقى بلويتبراندو(١٦١). وهكذا تجددت عادة تبادل السفراء، التى أرسى قواعدها عبد الرحمن الثانى.

إن المؤرخين العرب، حينما يعمدون إلى رواية استئناف العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة والامبراطورية اليونانية، يتحدثون عن سفارتين أو ثلاث مختلفة، فحسب مايذكره ابن خلدون، فى عام ٩٤٧-٩٤٨م (٣٣٨هـ) وصل عدد من الدبلوماسيين البيزنطيين إلى قرطبة محملين بالهداية للخليفة، واستقبلوا أحسن استقبال، وتمكنوا من مقابلة الخليفة، وثم توديعهم بعدها بعد أن حملوا بالهدايا لملكهم، يرافقهم أحد المستعربين، هشام بن هذيل أو «كليب»(١٦٢). وربما عاد المبعوث الاسبانى، بعد عامين، مع وفد بيزنطى آخر.

وتبعا لما يشير إليه الكاتب المشرقى ابن أبى أصيبعه، صاحب مجموعة التراجم للأطباء المسلمين(١٦٣)، فإن عبد الرحمن الثالث قد استقبل فى عام ٩٤٨ – ٩٤٩م (٣٣٧هـ) سفارة أحضرت له، بالإضافة إلى رسالة امبراطورة قسطنطنية له، عديدا من الهدايا، من بينها مخطوطين عظيمين : أحدهما باللغة اليونانية حول علم النبات لديو

سكريدس ونسخة من عمل باولو أوروسيو، المؤرخ الاسبانى اللاتينى للقرن الخامس. وبما أنه لم يكن هناك أحد يعرف اليونانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية فى تلك الآونة، فمن المرجح أن عبد الرحمن الناصر قد طلب من الامبراطور أن يرسل له من يعرف هذه اللغة جيدا، يكلفه بأن يعد فى قرطبة فريقا من المترجمين. قام الامبراطور رومانوس، تبعا للاسم الذى تذكره الروايات العربية، أى، رومانو الأول لبيكابينى بتلبية رغبة الناصر، فأرسل إلى إسبانيا راهبا يدعى نيكولاس، فوصل إلى قرطبة عام ٩٥١م (٣٤٠هـ) وبدأ يعمل بمساعدة العالم والدبلوماسى اليهودى حصادى ابن شبروت.

يبدو أن هاتين الروايتين اللتين انتهينا من سردهما تواً كانتا بمثابة النتيجة لتأثير لاحق مع السفارة التى وجهها قسطنطين السابع بورفيروخينتى إلى الناصر فى صيف عام ٩٤٩م (٣٣٨هـ)، والتى تحدث عنها ابن حيان فى كتابه، وخاصة المدة الطويلة التى أقامتها بقرطبة(١٦٤): نزل هؤلاء السفراء فى ميناء بَجَّانة فى أغسطس (صفر). أرسل الخليفة على الفور مبعوثا من رجال قصره للقائهم، هو يحيى بن محمد بن ليث. وحين أصبحوا على مسافة قصيرة من قرطبة، أقيمت تشريفات عسكرية لتحيتهم، وخرج الفتيان ياسر وتمام فى زيهما الأنيق للقائِّهم. وحين قدموا المدينة، أسكنوا منية ناصر، مقر الإقامة المفضل لدى الحكم، رغم التعليمات المشددة بألا تتاح الفرصة لهم بالاتصال بالخارج مطلقا. وبعد قليل، وفد الخليفة على عجل إلى قرطبة ليكون فى استقبالهم بالقصر، الذي أخذ زينته خصيصا لهذا الحفل. وفى اليوم التالى أقيم الحفل به، فى ٨ سبتمبر عام ٩٤٩م (١١ ربيع الأول ٣٣٨هـ) – وجهت الدعوة إلى جميع خاصة الخليفة لحضور حفل الاستقبال الذى أقيم فى بهو الجناح المسمى بمجلس الزاهر، كانت الأرض قد غطيت بالفرش، والحوائط بمعلقات من الحرير؛ والأبواب والنوافذ بستائر من استبرق. والخليفة جالس فى سريره يحيط به أبناؤه وجميع كبار رجال بلاطه. والسفراء حين أدخلوا، فزعوا، تبعا لما يرويه المؤرخ، من كل هذه الضجة، والتى ماكان لها أن تجد مثل هذا الصدى المفزع لدى موظفين من البلاط البيزنطى؛ قدموا رسالة عاهلهم إلى الناصر. «كانت الرسالة – يقول ابن حيان – مكتوبة باللغة اليونانية على رق مصبوغ باللون الأزرق، بحروف من ذهب. وبداخل «اللفافة» التى كانت الرسالة على هيئتها وجدت هناك وثيقة أخرى ملونة قد ملئت بكتابات يونانية، توضح وتعدد الهدايا المرسلة إلى الخليفة. حملت الرسالة خاتما معلقا من الذهب، يزن مقدار أربعة مثاقيل، رسم على أحد وجهيه صورة المسيح، وعلى الثانى، صورة الملك قسطنطين وابنه. كانت الرسالة التى وردت من الامبراطور موضوعة فى علبة من الفضة المنقوشة، ولها غطاء من الذهب، يحمل صورة الامبراطور

قسطنطين ذات الاطار المتعدد الألوان. كما كانت العلبة، بدورها، موضوعة داخل صندوق صغير على شكل أسطوانة يكسوه الاستبرق. كان عنوان الرسالة هو : فى سطر منها «قسطنطين وروماتو، من المؤمنين بالمسيح، ملكان مهيبان، ملكا الروم»(١٦٥)، وفى السطر الثانى : «إلى صاحب الأفضال الجليلة، إلى الرجل صاحب المكانة السامية، إلى النبيل الأصل، الخليفة عبد الرحمن الثالث، حاكم العرب فى الأندلس (أطال الله فى عمره!)».

السفارات الأوروبية. القرصنة الأندلسية ومغامرة المسلمين فى فراكسينيه:

ظل تبادل السفارات هذا مستمرا بين قرطبة وبيزنطة، تخللته بعض فترات انقطاع طالت أم قصرت، خلال عهد الحكم الثانى وحتى بدايات القرن الحادى عشر. ولكنها لم تكن الوحيدة. فيذكر لنا ابن خلدون – نقلا أو تلخيصا لما يورده ابن حيان – أنه دون أن نعدد وفادات السفير اليونانى، فقد وصلت إلى قرطبة وفود «من قبل ملك الصقالبة» أوتون ومن «ملك الألمان» ألمان؛ ومن هوجو «ملك الفرنجة الذين يتواجدون فى الغرب الأقصى» وجيدو «ملك الفرنجة القاطنين فى الشرق الأوروبى(١٦٧). ويضيف المؤرخ المسلم أن هذه السفارة الأخيرة تأتى إلى جانب وفاده كونت الفرنجة ببرشلونة(١٦٨). وبعد ذلك، قام صاحب روما بإرسال سفير إلى قرطبة كلفه بتوقيع معاهدة صداقة مع الخليفة.

عند هذه الإشارات المقتضبة التى ذكرها ابن خلدون تتوقف معرفتنا بالعلاقات التى أقامها عبد الرحمن الناصر، فى نهاية أيامه، مع رؤساء الدول الأوروبية، لو لم يكن هذا المصدر اللاتينى موجودا، بما فيه من تفصيلات أوسع، الذى أتى لسد العوز الذى ظهر بالرواية التاريخية العربية الاسبانية. هذا المصدر يعد بمثابة السيرة الذاتية للطوباى خوان دى جورتزى(١٦٩)، كتبها مؤرخ يدعى خوان، رئيس دير القديس أرنولفو(١٧٠). تشتمل هذه الوثيقة، التى حفظ بعضها، على معلومات فضولية للغاية حول العلاقات الدبلوماسية التى أشرنا إليها عام ٩٥٠م ابن الامبراطور أوتون الأول إمبراطور ألمانيا (٩٣٨-٩٣م) وعبد الرحمن الثالث، هذا إلى جانب الرواية المفصلة عن الاستقبال الذى أقامه خليفة قرطبة لسفير الفرنجة. إن حياة خوان دى جورتزى تعكس لنا المدى المحدد للمبادرة الى اتخذها العاهل السكسونى : ليس الأمر بالنسبة لهذا العاهل مجرد استمالة أو حتى دليل مجاملة من جانب العاهل المسلم، ولكن، على العكس، فقد وجه إليه تحذيرات محددة بشأن الأعمال المشينة التى اقترفها قراصنة

الأندلس على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط وماوراءها، في طرق جنوب فرنسا، وشمال إيطاليا، بل وصلت كذلك إلى سويسرا.

من الملائم هنا أن نفتح ملف النشاط الخاص بالقرصنة الاسبانية في القرن العاشر عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأن نرسم، بشكل خاص، المغامرة التى قام بها القراصنة المسلمون فى فراكسينيه، والذين أسسوا «دولة إسلامية غريبة وسط الأراضى المسيحية»(١٧١)، وكان عليها أن تستمر في وجودها لعقود طويلة من الزمن قبل أن تأتى نهايتها. ومن ثم فإنه من الإصرار الذى لاطائل يرجى من ورائه أن يبحث فى كتب التاريخ الإسلامية عن أدنى تلميح لهذه القرصنة والتى، إذا لم تكن نقدت بشكل منظم – كما يبدو، من جانب الدولة، – كما حدث فى العصور الحديثة فى الغرب الإسلامى–، فلا يجب أن نترك، من أجل هذا، دون عقاب، فى حالة ما إذا كانت لاتتلقى التشجيع من قبل الحكومة الأموية. إنه لمن العدل أن نضيف أن الامارات البحرية المسيحية فى العصور الوسطى قد سلكت نفس المسلك مع رعاياها الذين كرسوا حياتهم لأعمال القرصنة؛ وهكذا فإن القراصنة القطلونيين من أبناء برشلونة وأمبورياس والروسيين كانوا يتمتعون بهيبة لاتقل عن هيبة القراصنة الأندلسيين؛ تبعا لما يراه البحارة المسالمون، الذين من الممكن أن يكونوا من أبناء دينهم. يمكننا التفكير فى أن القرصنة المسلمة لم تكن لها أيه علاقة بما يمكن أن نسميه بالجهاد ضد الكفار، كما أن القرصنة المسيحية لم تكن منظمة تحت رعاية الكنيسة أو الصليب. كون الجانبان فى العصور الوسطى خطرا إضافيا على حياة البحارة المسالمين، كان ذلك بمثابة «نكبة بحرية». وعلى جانب آخر، لدينا من الأسباب مايجعلنا نفكر فى أن غالبية القراصنة الأندلسيين، ومن بينهم أكثرهم جرأة، لم يكونوا من العرب أو البربر، الذين يعد الميل من جانبهم إلى الحياة البحرية نادرا وقليلا، بل كانوا من الموحدين، أو من الأتباع المستعربين عند خليفة قرطبة، والذين ماكانوا يتحدثون سوى اللهجة الرومانثية. كما تثبتنا فى هذا الأمر فيما يتعلق باتحاد بحارة بجّانة فى أواخر القرن التاسع. ليست مهمتنا هنا، على الاطلاق، أن نلتمس العذر للقرصنة المسلمة؛ ولكن يبدو لنا أنه من غير العدل أن نعيب عليهم نشاطهم، وننسى فى نفس الوقت أن لهم منافسين على الجانب الآخر، القرصنة المسيحية، فى العصور الوسطى، صحيح أن هؤلاء لم تكن لهم نفس شجاعة وهيبة أقرانهم من قراصنة الأندلس؛ ولن تكفينا مطالعة مجموعات السير الذاتية للأدب الاسبانى العربى لكى نتأكد من أنهم أيضا، وبأكثر مما نعتقد، قد زرعوا الحزن والفزع والدمار بين الأسر المسلمة.

كانت عمليات السرقة في البحر والمفاوضات الدائرة من أجل الفدية الناجمة عنها تدخل في دائرة أخرى غير دائرة الملوك المسيحيين أو المسلمين؛ فما كانوا يبدون إهتماما بالأمر إلا في حالة نزول القراصنة على سواحل الأراضي الواقعة تحت نفوذهم – أي، عندما يقع انتهاك لحرمة الأراضي، وخاصة عندما يملك كل منهما القوة التي تمكنه من رد الفعل المناسب. وغالبا ماكان الأفراد العاديون الذين يقطنون المناطق الساحلية ينظمون فيما بينهم، حينما لايريدون رؤية أنفسهم ضحية إهمالهم، نظاما لمراقبة السواحل، ويبنون أبراجا للحراسة، فأقاموا بهذه جبهة بحرية حقيقية، ونقلوا التكتلات المدنية إلى مكان بعيد عن الساحل، فلم يتركوا عليه سوى المنشآت المؤقتة، البسيطه التي لاغنى عنها. ولكن كل هذه الاجراءات الاحتياطية الشائعة في العصور الوسطى، بين المسلمين أو المسيحيين، لم تكن كافية لوقف شهوة السلب لأولئك الذين كانوا يعيشون من وراء أعمال القرصنة.

كان الخطر مايزال في أوجه عندما قام القراصنة، بعد أن أعربوا عن سخطهم وعدم رضاهم بما حصلوه من غنائم على أثر الغارات التي يشنونها على مدى ساعات قليلة، بالتوغل في الأراضي. ومن أجل أن يفوزوا ببغيتهم هذه، كانوا يلجأون إما إلى ركوب البحر بما لديهم من سفن، على غرار ماقام به النورمان، وإما ينزلون عنوة في مكان يختارونه سلفا، مما يجعلهم يضمنون في الحال السيطرة على حصن طبيعي قريب من الساحل، فيأخذونه قاعدة تنطلق منها حملاتهم المتعمقة أو غيرها عبر الأقاليم المجاورة. ويبدو أن الطريقة النورمانية لم تكن تتبع إلا في حالات طارئة. أما الطريقة الثانية – الأشد رهبة في صدور الغير، والأضمن في امكانياتها ونتائجها، كانت الأكثر استخداما من قبل المغامرين الذين وفدوا، في العقد الأخير من القرن التاسع، للاستيلاء على فراكسينه، على ساحل بروڤانس.

تعكس لنا بعض الفقرات التي يوردها مؤلف «حوليات القديس برتي» أن بعض القراصنة «المسلمين» – تبعا للفظة التي يذكرها – ركبوا نهر الرودانو مرات عديدة خلال الثلث الثاني من القرن التاسع. وفي عام ٨٤٢م، إلى أجوار أرلس، وتمكنوا من وضع أقدامهم على شاطئ النهر وأطلقوا العنان لأنفسهم لممارسة أعمال السلب والنهب، وبعد فراغهم منها ركبوا سفنهم دون أن يتكبدوا أية خسائر. وفي عام ٨٥٠ أرادت مجموعة أخرى من القراصنة أن تجدد الضربة مرة أخرى، في أجوار نفس

المدينة، ولكنهم هلكوا جميعا على أثر هبوب رياح مضادة ذهبت بما لديهم من سفن. وفي عام ٨٦٩م تمكن بعض القراصنة من المسلمين من تثبيت أقدامهم في كامارجا، وبلغ بهم الأمر إلى القبض على مطران أرلس، المدعو رولاندو، الذي خرج على رأس مجموعة من الرجال، ليهاجم بها القوة التي نزلت لتوها بالمكان. لقي المطران حتفه في إحدى سفن القراصنة، في الوقت الذي كانت تجري فيه عمليات إنقاذه؛ قام القراصنة، حتى لايخسروا الفدية من بين أيديهم، فألبسوا جثة المطران لباس القساوسة ثم أنزلوه إلى الأرض، جالسا على كرسيه، ليسلموه إلى سكان أرلس الذين أتوا لافتدائه، فجعلوهم يعتقدون أنه مازال حيا.

إن الاشارات الأصلية والأساسية التي وصلت إلينا عن مستعمرة الأندلسيين المعروفة باسم فراكسينيه قد وردت في العمل الذي ألّفه راهب كريمونة، لويتبراندو، الذي أشرنا إليه عدة مرات. فمنذ أن قصّ رايموندو في عام ١٩٣٦، بإسهاب تاريخ الدولة التي احترفت القرصنة، كرست مجموعة من العلماء الفرنسيين جهودها لإكمال الرواية، مستغلة التقاليد المحلية والتحليلات الطبوغرافية والأخرى الخاصة بأسماء البلاد. وحول هذا الأدب المثمر أنجزت بعض الدراسات النقدية الموجزة في السنوات الأولى من القرن العشرين. نحيل القارئ إلى هذه الدراسات(١٧٢)، حتى نقتصر في حديثنا هنا على استعراض سريع للأحداث الرئيسية التي لها سند قوي من التاريخ.

في الفترة مابين ٨٩١-٨٩٤ نزلت مجموعة من القراصنة الأندلسيين، في ظروف غير معلومة، على ساحل بروڤانس، في خليج القديس (سان تروبيه) فاحتلت موقعا، زادته الطبيعة متانة، من الجبل المجاور، يعرف باسم فراكسينيه، الذي هو، بما لايدع مجالا للشك، جارد مزينيه الحالي. وبعد أن وصلتهم تعزيزات من شبه الجزيرة الأيبيرية، عاثوا، في مقاطعة فريجوس قتلا وتخريبا، ثم نهبوا عاصمتها. توغلوا بعد ذلك عبر أراضي مارسيلا، فدمروا المعبد الشهير المعروف باسم سان ڤيكتور ثم ركبوا نهر الرودانو، ناشرين أعمالهم التخريبية في ڤالينتينوس وفينوس. وفي السنوات الأولى من القرن العاشر امتد مجال نشاطهم إلى سلسلة جبال الألب، فأحرقوا معبد نوڤالايز، بالقرب من سوتيه، واحتلوا موانئ السهل الجبلي على مرأى من المسافرين والحجاج الذين رغبوا عبورها متوجهين إلى روما. كانت مناطق إميرون وجرايسيفا ودان أكثر المناطق تعرضا لأعمالهم التخريبية. أحدثت كل هذه النجاحات فيهم نوعا من الغطرسة

والغرور، فما هابوا التوغل فى مناطق الفالس الايطالية، فدمروا معبد أولكس، وتوغلو حتى أكوى وأستى.

كان هذا هو الوضع القائم حتى عام ٩٣٣ : حيث قامت قوات بسيطة، تميزت بتحركاتها القوية والسريعة، فأدت إلى نشر نوع من الخوف فى هذه المقاطعات، بينما تمركزت القوة الغاشمة لتلك المجموعات من القراصنة المسلمين فى الجزر الجبلى فى فاكسينيه، فى منطقة ملاصقة للبحر. وأمام هذه القوة، كانت ردود فعل البلاد المعنية بالمشكلة خجولة فى أول الأمر. فقد خرجت حملة عام ٩٣١م ضد الفرنينت، تؤازرها فى ذلك كتيبة يونانية، إلا أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية؛ وفى عام ٩٤٢م تم تجهيز حملة مشتركة بقيادة هوجو، ملك إيطاليا، وروماتو ليكابيني، امبراطورة قسطنطينة، حققت بعض النجاح، ولكنها لم تتمكن من طرد المسلمين من فراكسينية بصفة نهائية. فكان من الضرورى الانتظار حتى عام ٩٧٢م، العام السابق لموت أوتان الكبير، حتى يتمكن هذا من تحرير بروڤانس وأقاليم الألب من الخطر الإسلامى وأن يطرد إلى الأبد أولئك القراصنة من حصونهم فى خليج سان تروبيه(١٧٣).

وقبل ذلك، هناك فى منتصف القرن العاشر، رأى العاهل السكسونى أنه من المناسب أن يتدخل بنفسه لدى عبد الرحمن الثالث ليحيطه علما بأنه يجب على مملكة قرطبة أن تتحمل مسئوليتها عن أعمال القرصنة التى يقوم بها المسلمون القاطنون لبروڤانس. وكرد على هذا الطلب، أرسل عبد الرحمن الثالث، فى عام ٩٥٠م، إلى أوتان الأول راهبا من المستعربين، وافته منيته بالطريق، بعدأن حمل رسالة كانت تنطوى على كثير من الغطرسة، وكان لها الأثر السيئ فى نفس الامبراطور. فقام، بعد مدة من الزمن، بتكليف أخيه برونو، مطران كولونيا، بخط رسالة إلى الخليفة الاسبانى، وكلف الراهب خوان التابع لدير جورزى بلورينا بالخروج إلى قرطبة ليسلم الرسالة إلى من أرسلت إليه. وصل خوان إلى إسبانيا، يرافقه راهب آخر، ثم انتظر فى قرطبة حتى يتكرم الناصر باستقباله، إذ نزل ضيفا هو وصحبه بإحدى المزارع القريبة من العاصمة، وغير البعيدة من كنيسة سان مارتين، حيث سمح لهما بالمشاركة فى المراسم الدينية التى تجرى بها، أيام الأحد والاجازات فقط. وطبقا للعادة المعمول بها، فقبل أن تسلم الرسالة إلى الخليفة رسميا، نقل محتواها إليه(١٧٤). وجاء تقدير الناصر بأن الرسالة تحتوى على إهانة لكرامته وكرامة الإسلام، وأحاط خوان دى جورزى، عن

طريق أسقف من المستعربين، علما بأنه لن يستقبله إلا فى حالة أن تقتصر المقابلة على تقديم الهدايا التى أرسلها إليه أوتان الأول، دون الرسالة. رفض خوان دى جورزى، وحينئذ قرر عبد الرحمن الثالث أن يرسل نائبا إلى امبراطور ألمانيا، فعهد بهذه المهمة إلى ريتموندو، الذى رقىّ، كمقابل لهذه المهمة، إلى مرتبة الأسقف.

لم يكن ريتموندو هذا سوى ربيع بن زيد، الذى أشرنا إليه فى معرض حديثنا عن تأسيس مدينة الزهراء، والذى كما هو الحال بالنسبة لأغلبية المستعربين فى هذه الفترة، كان يستخدم اسما عربيا إلى جانب اسمه الأصلى. كان مسيحيا من قرطبة، يجيد العربية واللاتينية وغيورا غيرة عملية على دينه، وعمل فى مكاتب المستشارية الخاصة بالخليفة، قبل أن يعين أسقفا فى إلبيرة بأرض الأندلس. وسوف نرى الدور الذى لعبه فى تحرير التقويم العربى - اللاتينى - المعروف بتقويم قرطبة - للعام ٩٦١ من عهد الحكم الثانى(١٧٥).

بدأ ريتموندو رحلته فى ربيع عام ٩٥٥م، وبعد عشرة أسابيع، وصل إلى دير جورتزى، حيث استقبله رئيسه أحسن ستقبال، كما استقبل بعد ذلك من قبل أسقف متيز. وبعد عدة شهور وصل إلى فرانكفورت، بلاط الامبراطور، حيث سنحت له فرصة التعرف على الأسقف لومبارود لويتبراندو، الذى شجعه على كتابة مؤلفه التاريخى، فكان الإهداء من نصيبه(١٧٦). استقبل أوتويد الأول رسول الناصر أحسن استقبال ورجاه أن يعود إلى قرطبة بصحبة دودون دى فيردون. وصل الاثنان إلى قرطبة فى الأيام الأولى من شهر يونيو عام ٩٥٦م. وما إن وصلت التعليمات الجديدة من الامبراطور إلى خوان دى جورتزى حتى تخلى عن موقفه المتشدد وقرر الخليفة استقباله أخيرا. وفى اليوم المحدد للمقابلة - يقول أسقف سان أرنولفو - تحركت أكبر الفرق الملكية أبهة، من مقر إقامة خوان حتى قرطبة، ثم من قرطبة إلى مدينة الزهراء، كانت القوات المسلمة تغطى الطريق، كما كان هناك الفرسان الذين تظاهروا بالاشتباك فى مناوشات فأثاروا سحابات من التراب. ومن عتبة الباب، كان القصر مفروشا بالبسط حتى صالة العرش. وفيها استقبل الخليفة، «كسلطة إلهية لايمكن الوصول إليها» ضيفة، وكفضل منه كبير، مد إليه يده ليقبلها. إن النص الذى تحتويه السيرة الذاتية لخوان دى جورتزى مبتور، ونحن، بدورنا، نجهل ما إذا كان السفير قد عاد إلى ألمانيا مسرورا بالنتيجة التى حققتها مهمته.

أعمال عبد الرحمن الناصر :

حان الوقت لنغلق ملف حكاية عبد الرحمن الناصر ببضع كلمات هى بمثابة الخاتمة.

توفى العاهل العجوز فى قرطبة، فى الخامس عشر من أكتوبر عام ٩٦١م (٢ من رمضان عام ٣٥٠هـ) فى أوج شهرته وسلطانه، وكأسلافه، دفن فى ضريح العائلة، بالقصر. وخلال سنواته الأخيرة، استطاع أن يقيس على أوسع نطاق الأعمال التى أنجزها منذ ذلك اليوم، البعيد، الذى وصل فيه إلى العرش. لقد استطاع أن يجعل من قرطبة، التى تنازعها كثيرون وبلا هوادة عندما كانت فى أيدى أسلافه، وهددتها بصفة مستمرة حروب أهلية، ومنازعات ومنافسات بين العرقيات العربية وصدامات بين مجموعات من أجناس مختلفة أسفرت عن مواجهات دائمة ين بعضها البعض؛ دولة شاع فيها السلم والازدهار، وأصبحت تنعم بثراء لاحدود له. ودون أن يلتقط أنفاسه، شن حربا مقدسة ناجحة على أعداء الدين، وضمن بقوة جيشه أمن حدوده، وتجنب بكل مهارة التهديد الفاطمى. كانت قرطبة عاصمة إسلامية، تنافس القيروان والمدن الكبيرة فى المشرق، والتى تجاوزت بكثير العواصم الأوروبية الغربية الأخرى، وحظيت فى عالم البحر المتوسط بسمعة طيبة ومكانة يقارنان فقط بما كانت تتمتع به قسطنطينية.

من البديهى أن هذه النتيجة قد أتت فى جانب كبير منها راجعة إلى طول عهد عبد الرحمن الناصر غير المعهود. فقد سمحت تلك الفترة الطويلة لحكم عاهل اسبانيا المسلمة بأن يواصل، خلال عقود عدة لم تنقطع، سياسة موحدة، والتى، إذا ماكان قد أقامها على أساس من رغبة متحررة منه ومبدأ السلطة المطلقة، كانت، مع هذا، بعيدة عن الأخطاء التى كان بالامكان أن يقع فيها أمير لايتمتع بنفس الكفاءة ولايعرف واجباته جيدا. ومن ثم، فقد كان الخليفة بن السبعين عاما، خليفة السنوات الأخيرة، لايشبه كثيرا، فى مظاهر عديدة، الأمير الشاب الذى حكم السنوات الأولى، الممتلئ حيوية، وحماسا للقتال، يلقى بنفسه فى مقدمة الجيوش ويبدى استعدادا للتضحية بنفسه، يمكن تقسيم مدة حكمه التى امتدت لنصف قرن إلى ثلاث مراحل زمنية تكاد تكون متساوية فيما بينها : الفترة الأولى، وفيها فرض عاهل قرطبة سلطته على أتباعه ورفع نفسه إلى أعلى درجات الخلافة، أما الفترة الثانية فقد خصصها الخليفة لتنظيم المملكة، وإظهار نفسه، فيما وراء الحدود، كعدو مهاب، والذى يصبح من التعقل التعامل

معه بكل إحترام، وفى الفترة الثالثة، والأخيرة، تحول إلى حاكم مستبد بمعنى الكلمة، مزهوا وفطنا. وفى هذه الفترة الأخيرة لم يكن عبد الرحمن الناصر حقيقا بأن يقارن بأحد سوى بعاهل بيزنطة المستبد.

«فى دولة يصبح كل شئ تابعا للامبراطور، ويصبح القصر مركزا للحياة العامة، فعادة ماتقوم البطانة المقربة من الأمير، دون إمكانية تفادى مثل هذا الأمر، بممارسة نفوذ قوى عليه، وأن هذا البلاط المرسوم على نمط شرقى، يمتلئ بالخصيان والنساء، يصبح مسرحا لكل أنواع الدسائس والوقائع والرذائل. فى دولة تقرر فيها إرادة رجل واحد كل شئ، يصبح من الخطر جدا أن يكون هذا الرجل ضعيفا أو يجمع بين الضعف والقوة. أو أن يخضع لتأثير المقربين إليه. ولكن على العكس، إذا كان الأمير رجلا يتمتع بإرادة قوية، ويعرف كيف يؤمن وحدة الادارة فى الحكومة، واستمرار السياسة وثبات الاستيعاب والتنفيذ، وأن يحسن استخدام الموارد المتاحة أمامه، من حكوميه وعسكرية ودبلوماسية وإدارية؛ وهنا تصبح الامبراطورية رهينة القرار الذى يصدره هذا العاهل فى كل أمر من أمورها باعتباره قرارا لايقبل المناقشة. لقد عرف «بيزنطو» لأكثر من مرة، وخاصة فى القرن العاشر، أباطرة من النوع الأخير، ولكى يبتسم الحظ للامبراطورية البيزنطية، كان كافيا – لوقت طويل – أن يكون على رأسها أمير هو فى حقيقة الأمر زعيم»(١٧٧).

لانجد أفضل من هذه الكلمات نقولها، عند إشارتنا إلى نفس الفترة، التى شهدت الامبراطورية المسلمة فى قرطبة وتولى زمامها عبد الرحمن الثالث، أول الخلفاء الأمويين فى الأندلس تاريخا واستحقاقا.

هوامش الفصل الخامس :

١) حول فترة حكم عبد الرحمن الثالث الناصر يمكن الإطلاع على المصادر العربية: تاريخ : أريب بن سعيد، المدرج من قبل دوزي في نص البيان لابن عذاري الجزء الثاني، ص ١٣٣ - ١٣٥، ١٦١، ٢٤٨، الترجمة ص ٢١٣-٢٥٩؛ هذا بالإضافة إلى «تاريخ الناصر»، مجهولة المؤلف؛ ابن الخطيب، الأعمال، ص ٣٢-٤٧؛ ابن خلدون، العبر، ٤، ص ١٣٧-١٤٤؛ المقرى، وابن حيان في المقتبس. ويمكن الإطلاع على :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, pp. 93- 175.

٢) يمكن قراءة هذا الاسم ماريًا Mariya أو مارتا Marta، أم عبد الرحمن الثالث، ولاعلاقة لهذا الاسم باسم مُزنة Muzna، المتوفاه عام ٩٦٨ - ٩٦٩ (٣٥٨)، التي كانت السكرتيرة الكاتبة لنفس العاهل، والتي نرى إشارات إليها عند الضبي، في البغية، رقم ١٥٩٠، ٤٩٠).

٣) على الرغم من الرأى غير المنصف عنه والذى تتبناه الراهبة الإنجليزية هيروسويث، والذى تتهم فيه عبد الرحمن الثالث بأنه كان يتصرف بطريقة سيئة مع المسيحيين من أتباعه وهى سياسة مخالفة للحكام السابقين عليه.

٤) يمكن الإطلاع على : الخشني، قضاة قرطبة، النص، ص ١٨٨، والترجمة الإسبانية، ص ٣٢٤.

٥) يمكن مراجعة :

- Lévi - Provençal, Esp. Mus. X. Siécle, p. 51 y n. 2.

وذلك لمعرفة مايتعلق بالمهرج الأعمى للناصر «عمران بن أبى عمر».

٦) تعد كاراكويل Caracuel اليوم قرية متواضعة تابعة المُدَوَّر Almodóvar del campo، الواقعة على مسافة عشرين كيلومتر شمال شرق هذه القرية، التابعة لمحافظة ثيوداد ريال.

٧) حول هذا الموضوع يمكن مراجعة :

- Lévi - Provençal, La Penínsule Ibérique, p. 20 y nota 4.

٨) لايبدو أن هذا المعبر قد تم تدميره وتحول إلى أطلال في القرن العاشر، على الرغم من الاشارة المحددة عن هذا الأمر عند ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، ص ٣٠٩، الترجمة، ص ٤٨٠.

٩) حول هذه المحلة : أوبيدا دى ألبيرة، والتى كانت تدعى أوبيدا دى فاروا، للتمييز بينها وبين أوبيدا الواقعة فى اقليم جيان Jaén، وكانت واقعة بين بازا Baza ووادى آش Guadix، انظر: الادريسي، ص٢٠٢.

١٠) العمل المذكور، ص ٢٥٧.

١١) انظر، على وجه الخصوص :

- L. Torres Balbás, Hallazgos en la Alcazaba de Málaga, en Al-Andalus, II, 1934, pp. 344 - 57.

١٢) العمل المذكور، ص ٢١٧.

١٣) حول اخضاع ابن الشاليّة، يمكن مراجعة : ابن حيان، المقتبس، ص ١١. وبعد ذلك، انخرط هذا المتمرد فى الجنود وظل يعمل ضابطا حتى وفاته، فيما عدا فترة وجيزة من الزمن أرسله فيها عبد الرحمن الثالث فى مهمة إعادة النظام إلى الاقطاعية التابعة له.

١٤) لاعلاقة لها بالمحلة المعروفة باسم يليش بينا ودّالا Vélez-Benaudalla، الواقعة على مسافة ٢٠٠ كيلومتر جنوبا، بالقرب من موتريل Motril. انظر ترجمة البيان، الجزء الثانى، ص ٢٦٨، مرجع ٢.

١٥) أوخين Ojén تقع على مسافة تسعة كيلومترات من ميناء مَرْبلّة Marbella، على ارتفاع ٣٢٠ مترا. انظر :

- Coín y Ronda, trad. del Bayan, II, p. 273, n. I.

١٦) العمل المذكور، ص ٢٣٤.

١٧) حول هذا الموضوع، يمكن مراجعة :

- Lévi - Provençal, la Península Ibérique, p. 148.

١٨) طبقا للرازى، الذى يذكره ثانية ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، ص ١٣٤، الترجمة، ص ٢١٤ – ٥، وطبقا لروايات أخرى : انظر :

- Lévi - Provençal, la Península Ibérique, p. 26.

١٩) كانت هذه الكنيسة، حين إقامتها، منحوتة فى الصخر، حول هذا الموضوع يمكن مراجعة :

- C. de Mergelina, Arch. Esp. de Arte y Arqueología, Madrid, 1925, II. p. 25.

٢٠) ترد هذه التفاصيل الأخيرة من «تاريخ الناصر» ومن سيرة ابن حفصون التى يذكرها كتاب الاحاطة لابن الخطيب. بالنسبة لتاريخ وفاة زعيم التمرد. والذى حتى الآن لم يتم تحديده (٣٠٥ هـ، كما يذكر أريب بن سعد، ٣٠٦، كما يذكر ابن عبد ربه، وابن خلدون، وابن الخطيب، تم تحديده بفضل ماورد فى «الأعمال» (حيث أن وفاة جعفر بن حفصون وقعت فى ٣٠ أكتوبر ٩٢٠ – ١٣ جمادى الثانى، ٣٠٨)، فلم يستمر بعد وفاة والده إلا ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢١) ابن خامس، أيوب، تم اعدامه بأمر من «عمر بن حفصون»، كما ذكرا بن حزم فى : نقط العروس، ص ١٩. وبالنسبة لما يتعلق بتاريخ أبناء ابن حفصون يمكن مراجعة : ابن الخطيب، الأعمال، صفحات ٣٧–٣٨.

٢٢) حتى الآن لم يتم التحديد الدقيق والتعريف للمحلة المعروفة باسم Belda التابعة لاقليم مالقة، وكذلك المحلة المعروفة بمثل هذا الاسم التابعة لكابرا Belda de Cabra.

٢٣) حول تاريخ أرخنتيا Argéntea، يمكن الإطلاع على :

- Simonet, Hist. de los Mozárabes, p. 596- 8.

٢٤) العمل المذكور، ص ٢١٩.

٢٥) العمل المذكور، ص ٢٢٨، ١١٣.

٢٦) العمل المذكور، ص ٢١٧.

٢٧) كانت كايوسا دى سيجورا، على مسافة كيلومتر من أوريولا، على طريق أُلْش (لَقَنْت Alicante) منذ حكم عبد الله محتلة من قبل متمرد عربى هو محمد بن عبد الرحمن، والمعروف باسم الشيخ الإسلامى، والذى لم يخضع حتى عام ٩٢٨ (٣١٦) بعد أن توفى ابنه عبد الرحمن فى معركة ضد الجيوش الموالية.

٢٨) تاريخ الناصر، الصفحة الأخيرة.

٢٩) العمل المذكور، ص ٢٤٤، يمكن الإطلاع أيضا على :

- Codera, los Benimeruán en Mérida y Badajoz, en Est. Crit. hist, ár. esp. (IX), pp. 57 - 60, 73 - 4.

٣٠) العمل المذكور، ص ٢١٧.

٣١) انظر :

- Lévi - Provençal, Esp. Mus. Xa Siécle, p. 162.

٣٢) ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص، ص ١٨٤، الترجمة ص ٢٩٢.

٣٣) كان هذا المكان – طبقا لابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص، ص ٢١٨، الترجمة، ص ٣٣٦ – كانت المحطة الأخيرة على الطريق بين قرطبة وطليطلة. يمكن الإطلاع على :

- A. González Palencia, los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid, 1926, vol. I, núm. 258, p. 201.

٣٤) فى العربية «الفاهمين»؛ أما فى كتب التاريخ المسيحية فى العصور الوسطى فكانت «ألفا من Alfamen». أما اليوم فهى «آلامين» Alamín، فى سلسلة جبلية تحمل نفس الاسم، قلعة تحولت إلى أطلال، على مسافة عشرة كيلومترات شمال شرق إسكالونا Escaloña. يمكن الإطلاع على :

- Lévi - Provençal, la Península Ibérique, p. 172.

٣٥) حول هذه المحلة (Chozas) : يمكن مراجعة :

- A. González Palencia, los Mozárabes de Toledo, vd. prel, pp. 94-95, nº- 150.

٣٦) العمل المذكور، ص ٢٨٨.

٣٧) ابن عذارى، البيان، النص، صفحة ٢٤٨، الترجمة، ص ٣٨٣ – ٣٨٤.

٣٨) العمل المذكور، ص ٢٤٩.

٣٩) العمل المذكور، ص ٢٤٦.

٤٠) ابن حيان، المقتبس، طبعة أنطونيا، ص ١٨ – ١٩.

٤١) انظر :

- Dozy, Rech3, I, pp. 220-1;

- Codera, Est. hist. ár. esp. (VII), pp. 329 - 30.

٤٢) العمل المذكور، ص ٢٩٠ – ٢٩١.

٤٣) بالإضافة إلى المراجع العربية المذكورة، يمكن مراجعة :

- Sampiro, Esp. Sagr., XIV, pp. 462 - 70.

٤٤) انظر، على وجه الخصوص :

- Barrau - Dihigo, Royaume asturien, pp. 237-8 y n. I y 2.

٤٥) لانعلم شيئا عن هذه الحملة التى قام بها أوردونيو الثانى إلا من الرواية التى ترد فى «تاريخ الناصر» عام ٣٠١ هـ.

٤٦) العبر، الجزء الرابع، ص ١٤١، يمكن الإطلاع على :

- Dozy, Rech3, I, p. 146 y n. I.

- R. Menéndez Pidal, España del cid, p. 76 (nuena ed. p. 34).

٤٧) عن هذه القلعة، يمكن مراجعة العمل المذكور، ص ٢٥٣، رقم ٢٣.

٤٨) من بين المتطوعين للحرب المقدسة الذين لقوا حتفهم فى القتال ومعركة شنت إشتبن، يمكن أن نشير إلى مجاهد صالحى، عبد الرحمن بن صالح بن سعيد بن إدريس، وغيرهما من الفقهاء مثل محمد بن عبيد الجزيرى، ومحمد بن أحمد الشدهونى.

٤٩) يرد مثل هذه التفاصيل فى كتب التاريخ اللاتينية مثل :

- Huici, Crónicas lat. de la Reconquista, II, pp. 93, 95, 97.

٥٠) هذا العلم الجغرافى يظهر في الحوليات اللاتينية بالشكل:ميتونيا Mitenia انظر:

- Silense, c. 55; Gron. leonesa, II, 64.

٥١) على الأقل، إذا ماصدقنا إلى «تاريخ الناصر» (عام ٣٠٧هـ)، الوحيدة التى تشير إلى هذه الحملة التى قام بها اسحق بن محمد القرشى.

٥٢) انظر :

- Fagnan, trad. del Bayan, II, p. 291, n. I.

٥٣) مما لاشك فيه أنها قلعة هنارس أو قلعة عبّدالسلام Alcalá de Henares، الواقعة على مسافة ٢٦ كيلومتر جنوب شرق وادى الحجارة.

٥٤) العمل المذكور، ص ٢٧٦.

٥٥) بالإضافة إلى كوسما وسان إستيبان دى جورمان، حزب المسلمون أيضا القلعة التى تظهر هذه الأيام على الخريطة باسم ألكوبيادل ماركيز.

٥٦) يمكن الإطلاع على :

- Ignacio Calvo, En los ruinas de Clunia, en la R. A. B. M. de 1916.

- B. Taracena, El palacio romano de clunia, en Arch. Esp. de Arquología, nº- 62, 1946, pp. 29-49.

٥٧) العمل المذكور، ص ٢٧٨.

٥٨) يمكن، بهذا الخصوص، مراجعة :

- Dozy, Hist. Mus. Esp., II, p. 143, n. I.

٥٩) ورد هذا الخبر عند (sampiro, el Silense y la Gónica Leonesa).

٦٠) ليس لنا أن نخلط بين مويث Muiz مع مويس Mués، المحلة الواقعة على جنوب شرق يمين طريق إستيا صوب لوجرونيو، تظهر على الخريطة شمال الطريق الذى يربط بين استيا وبنبلونة، على مسافة ٢٥ كيلومتر جنوب هذه المدينة الأخيرة.

٦١) يمكننا أن نسأل إذا ماكان فاجنان Fangan (فى المرجع رقم ٢ فى ترجمته للبيان، الجزء الثانى، ص ٢٩٧) كان يتحدث حديثا جادا فى إشارته، كمحلة للقلعة القائمة فى بنبلونة، إلى أنه توجد فى إسبانيا محلتان تسميان باكيرة Baquira = بيجيرة (Baquira = Biguera) الأولى، فى اقليم ليبنتى Levante والثانية فى مالقة Málaga.

٦٢) فى جنوب لوجرونيو الحالية، بعد ألبيلدا بقليل Albelda. فى نفس هذه القلعة قام محمد بن لوبى بحبس عمه إسماعيل، قبل ذلك بنصف قرن، (أنظر، فاجنان، فى ترجمته للبيان، ص ١٧٨).

٦٣) حول هذه القلعة يمكن مراجعة، العمل المذكور، ص ١٧٨ – ٣٠.

٦٤) العمل المذكور، ص ٢٤٥ – ٦.

٦٥) أعيد ذكره عند ابن خلدون، العبر، الجزء الأول، ص ١٤١ – ١٤٢، ويمكن مراجعة :

- Dozy, Rech3, I, p. XXVII - I, p. 143.

٦٦) العمل المذكور، ص ٢٧٨.

٦٧) لايرد اسم هذه الملكة فى شجرة العائلة التى يذكرها منينديث بيدال، باعتبارها أما لجارثيا سانشيث الأول. ومع هذا، فرغم المصادر العربية، فإن تواجدها فيها يأتى مدعما بوثائق مسيحية عديدة، فيما بينها كاتالوج الملوك المدفونين فى ليرى Leire. إلى جانب ذلك، يمكن الإطلاع على :

- Cirot, Index ono mastique et géographique de la "Chronique léonaise", en Bull. Hisp., XXXVI, 1934, p. 423.

حيث تظهر هنا زوجة لسانشو آباركا ؟

٦٨) انظر :

Dozy, Rech3, I, p. 150 - 2.

٦٩) العمل المذكور، ص ٢٧٧.

٧٠) حول اتخاذ الألقاب الامبراطورية فى عائلة (دولة) أشتوريش وليون، بداية من النصف الأول للقرن العاشر يمكن الاطلاع على :

Menéndez Pidal, Esp. del Cid, p. 74.

٧١) على الرغم من أنها كانت المدينة الأهم فى هذه الفترة من القرن العاشر (إسبانيا المسيحية)، لم يتغير وضعها أبدا عن كونها عاصمة متواضعة. حول هذه المدينة فى هذه الفترة وإدارتها المحلية يمكن مراجعة

Sánchez, Albornoz, Estampas de la vida de león durante el siglo X, pp.7-16.

٧٢) ربما أن هذا الاحتلال لمدريد كان عابرا، حيث أنه فى السنوات التالية لهذا الحدث. كانت المحلة تحت حكم ضابط عينه عبد الرحمن الثالث يسمى أحمد بن عبد الله بن يحيى الليثى، الذى يتحدر مباشرة من نسل الفقيه الشهير يحيى بن يحيى. يمكن الإطلاع على (ابن الأبار، التكملة، الجزء الأول، رقم ١١).

٧٣) يمكن الإطلاع على :

Sampiro, C. 22; Silense, c. 60 ; Crón. Leonesa, II, p. 67.

(وكذلك، ابن الفرضى، التأريخ، ص ٣١ - ٣٤١).

٧٤) انظر :

Dozy, Rech3, I, pp. 152 - 6.

٧٥) العمل المذكور، ص ٢٧٨.

(٧٦) العمل المذكور، ص ٢٩٢.

٧٧) عن كل ماسبق يمكن الإطلاع على :

Dozy, Essai sur L' histoire des Todjibides, en Rech. 3, I, pp. 221 - 3.

٧٨) يمكن مراجعة : - Hist. Mus. Esp. 2, II, pp. 155-6.

(وكذلك، ابن حزم، نقط العروس، ص ١١).

٧٩) حول استخدام الطرق الرومانية من قبل الجيوش الاسبانية، والمسيحية، والإسلامية، حتى القرن العاشر انظر :

Sánchez Albornoz, Estampas de la vida en león, p. 107, n. 88.

٨٠) كل هذه البيانات غير المطبوعة السابقة أخذت من:الأعمال، لابن الخطيب، طبعة ليفى بروفنسال، ص ٤٢.

٨١) عن هذه النصوص، التى ترجم الجزء الأكبر منها فى كتاب دوزى، صفحات ١٥٦ – ١٧٠، توجد قائمة فى كتابه :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, p. 156, no. 3.

٨٢) انظر، على وجه الخصوص :

- Sampiro, C. 22 - 23.

- Silense, c. 61-62 y por la Ceón. Leonesa, II, 68 - 9.

٨٣) انظر : - R. Menéndez Pidal, Orígenes del español, pp. 465 -6.

٨٤) انظر : - Dozy, Rech, I, pp. 161-2.

٨٥) انظر : - Dozy, Hist. Mus. Esp., II, pp. 157 - 160 - 2.

٨٦) انظر : - Lévi - Provençal, Enc. Isl., III, p. 500.

٨٧) هذا التابع للناصر سيصبح فيما بعد قائدا لمنطقة الثغر الأعلى باسم المنصور بن أبى عامر، انظر (ابن عذارى، البيان، الجزء الأول، النص الأصلى، ص ١٦٩ – ١٧٣؛ الترجمة صفحات ٢٧٢ – ٢٨٢).

٨٨) ابن عذارى، البيان، الجزء الثاني، ص ١٣١.

٨٩) انظر : - Dozy, Rech, I, pp. 170 - 3.

٩٠) ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص الأصلى، ص ٢٣٣، الترجمة ص ٣٦٠.

٩١) حول هذه الزيجات ومانجم عنها من أسر، يمكن الإطلاع على :

- Cirot, Index Onomastique et géographique de la "Chronique léonaise", p. 412 (Florentina), 423 (Tarasia), y 244 (Varraca).

٩٢) انظر :- - Graetz, les Juifs d' Espagne, trad. Stenne, pp. 75 y ss.
Munk, Mélanges de philosophie juive et arabe, p. 480.

٩٣) حول هذه التواريخ أنظر :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. II, p. 166 y n. I.

- F. Fita, en B. R. A. H., XXXIV, 1899, pp. 458 - 61.

٩٤) انظر :

- T. Ximénez de Embun, Ensayo histórico acerca de los aríganes de Aragón y Navarra, zaragoza, 1878, p. 188.

٩٥) انظر :

- Maqqari, Analectes, I, p. 235.

- Dozy, Hist. Mus. Esp., II, p. 171, n. 2.

٩٦) - R. Meníndez Pidal, orígenes del españal, p. 502.

٩٧) العبر، الجزء الرابع، ص ١٤٣.

٩٨) انظر على وجه الخصوص :

- Soldevilla, Hist. de Catalunya, I, p. 58 - 60.

٩٩) انظر نفس المرجع السابق، ص ٦١.

١٠٠) انظر : - Levi - Provençal, Inscriptions arabes d' Espagne, n. 87, pp. 85 - 6.

١٠١) العمل المذكور، ص ٧٦ – ٧٧.

١٠٢) حول السياسة الخاصة بعبد الرحمن الثالث فى أفريقيا، أنظر المراجع العربية التى ورد ذكرها فى صفحة ٣٦٠، أنظر البكرى، وابن الأبار، وابن خلدون (العبر). وكذلك :

- R. Brunschvig, un aspect de la literature histórico-geographique de Islam, en Mélanges Gandefroy - Demombynes, Cairo, 1937, pp. 147 - 8.

- H. Terrasse, la polítique des califes de cordove au Maroc, en Bull. de L' Enseignement public du Maroc, núm 179, Tabat, 1944, pp. 1 - 11.

١٠٣) انظر :

- William Marçais, Revue Gritique d' histoire et de litterature, Paris, 1929, pp. 255 y ss.

١٠٤) كتذكار لوطنه، أطلق هذا المغامر اسم «وشاق» الاسم العربى لوَشْقة، على اللسان الذى احتمى به، والذى مازال يعرف بنفس الاسم (جبل وَشْقة)، فى قبيلة بنى آلاهام.

١٠٥) انظر، على وجه الخصوص :

- W. Ivanow, Isma'iliya, en el Supl. de la Enc Isl., Leyden - Paris, 1938, pp. 103 - 9.

١٠٦) انظر :

- J. Walker, Enc. Isl, III, pp. 125 - 6.

- M. Vonderheyden, La Berbérie Orientale ous la dynastie des Benou' L-Arlab, pp. 283 - 315.

١٠٧) العبر، الجزء الرابع، ص ١٣٩.

١٠٨) العمل المذكور، ص ٢٤٠.

١٠٩) العمل المذكور، ص ٢٤١ – ٢.

١١٠) العمل المذكور، ص ٣٠٥.

١١١) انظر المرجع الوحيد الذى يذكر هذا الحدث :

- Bakri, Description de L'Afr. Sept., texto, p. 89 ; trad. p. 178.

١١٢) انظر :

- Hist. des. Berb, texto, II, p. 36 ; trad. III, p. 231.

- Jushani, Qudat Qurtuba, texto, pp. 203 - 6. trad. esp. pp. 252 - 6.

١١٣) انظر : - Bakri, op. cit. p. 104 ; trad. pp. 204 - 5 y n. I.

١١٤) انظر : - Bakri, op. cit. texto, p. 78, trad. pp. 156 - 9.

١١٥) انظر، على وجه الخصوص :

- M. Bencheneb, en la Enc. Isl., I, pp. 489 - 90.

- G. Marçais, Recherches d' archiologie musulmane : Achir, en Rev. Africaine, 1922, pp. 21 - 40.

١١٦) حول أبو يزيد يمكن الإطلاع على :

- R. Basset, en la Enc. Isl., I, pp. 115 - 6.

١١٧) انظر، البيان، الجزء الثاني، ص ٢٢٨ – ٩؛ الترجمة ص ٢٥٢ – ٣.

١١٨) البيان، الجزء الثاني، النص، ص ٢٣٠، الترجمة، صفحة ٣٥٥ – ٦. وابن خلدون، تاريخ البربر، النص، الجزء الثاني، ص ١٩، الترجمة ص ٢٠٧ (الجزء الثالث).

١١٩) حول هذا الإدريسى الذى مارس نفوذه فى أحد أقاليم سبته، يمكن الإطلاع على :

- Bakri, Description..., texto, p. 130 ; trad. pp. 251 - 2.

١٢٠) حول إتخاذ الالقاب الخلافية والبروتوكول الرسمى الذى كان يقيمه عبد الرحمن الثالث، يمكن الإطلاع على :

- Lévi- Provençal, Inscriptions ..., pp. XVII - XIX.

١٢١) ظل النص محفوظا بواسطة ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص الأصلي، ص ٢١٢؛ الترجمة صفحات ٣٢٨ – ٩. كما حفظ جزئيا بواسطة ابن الخطيب، الأعمال، ص ٣٤.

١٢٢) لقد أشرنا فى ص ٣٢١ من هذا الكتاب، إلى أن العاهل الصغير المدراري لسيتشيلماسا، محمد بن الفتح، لم يكن لديه أى مانع من أن يتحلى، بعد ذلك بقليل (٩٥٢ – ٩٥٤) – ٣٤٢هـ)، بلقب الخليفة بالإضافة إلى اللقب الشرفي : الشاكر لله.

١٢٣) العمل المذكور، ص ٨٧.

١٢٤) انظر : - lévi - Provençal, Inscriptions..., ns. 28, 39 - 40.

١٢٥) حول الألقاب التي اتخذها لنفسه عبد الرحمن الثالث، أنظر : (إبن حزم، نقط العروس، ص ٣ - ٤).

١٢٦) العمل المذكور، ص ٢٨٨ - والمرجع المذكور فى رقم ٧٠.

١٢٧) انظر (ابن حزم، نقط العروس، ص ٢٣).

١٢٨) العمل المذكور، ص ١٠١.

١٢٩) إبن الأبار، الحلة، ص ١٠١.

١٣٠) المقرى، العمل المذكور، ص ٣٩٦. وابن حزم، جمهرة الأنساب، ص ٣٠.

١٣١) فى هذا الحال يتم ذكرها فى الدرجة الأولى، كما حدث مع أم الولد طروب بالنسبة لعبد الرحمن الثالث، ومع سيدة الكبرى صبح عند هاشم الثانى. وحول ماحدث فى الشرق العباسى، يمكن الإطلاع على :

- M. Gaudefroy - Demombynes, le monde musulman, pp. 366 - 7.

١٣٢) العمل المذكور، ص ١٧٠، المرجع رقم ٨٤.

١٣٣) حول الصقالبة فى إسبانيا، يمكن مراجعة :

- Lévi-Provençal, en la Enc..., IV, pp. 78-80, el mismo, Esp. Mus, Xa-, pp. 29- 30.

١٣٤) أنظر، المسالك، ص ٧٧، ٨٥. وكذلك :

- Alemany, la geografía de la Península Ibérica en los escritores árabes, p. 24 y n. 2.

١٣٥) انظر :

- Alemany, ob. cit. pp. 42 - 3.

١٣٦) - Antapodosis, VI, 6, ed. J. Becer, pp. 155 - 6.

١٣٧) - Maqqari, Analected, II, p. 57.

١٣٨) ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص الأصلى، ص ٢٤٧. الترجمة ص ٣٨٣.

١٣٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.

١٤٠) يمكن الإطلاع، بهذا الصدد، على :

- Lévi - Provençal, Esp. Mus. Xº-, siéle, pp. 53 - 6.

١٤١) انظر العمل المذكور، ليفى بروفنسال (ص ٢٢١ - ٤).

١٤٢) العمل المذكور، ص ١٦٧.

١٤٣) العمل المذكور، ص ٢١٣.

١٤٤) العمل المذكور، ص ٨٩.

١٤٥) توجد هذه التفاصيل في المقتبس لابن حيان، الذى يتحدث عن فترة حكم الأمير عبد الله (طبعة أنطونيا، ص ٣٨).

١٤٦) حول مدينة الزهراء يمكن الاطلاع على :

- G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 243 - 7.

- Lévi - Provençal, en la Enc. Isl. III, pp. 95 - 6.

١٤٧) حول المنصورية، يمكن مراجعة :

- G. Marçais, Manuel..., I, pp. 118 - 20 : el mismo, en la Enc. Isl. III, p. 273.

١٤٨) من حيث أتى الاشتقاق الزهراوى، الذى حمله، من بين آخرين، الطبيب الشهير والجراح القرطبى فى القرن العاشر، أبو القاسم.

١٤٩) مجهول المؤلف المدريدى والكوبنهاجنى، طبعة : (Huici, texto, pp. 60 -1 ; trad. Esp. p. 64).

١٥٠) حول بيوت السبع الحقيقة (الملكية) فى الشرق الإسلامى أنظر :

- Gaudefroy - Demombyses, le monde musulman, p. 383 y nota I.

١٥١) يوجد هذا التفصيل فقط عند ابن خلدون، العبر، الجزء الرابع، ص ١٤٤.

١٥٢) يمكن الإطلاع على :

- Lévi - Provençal, Inscriptions ..., ns. 29 - 86, 87 y 34.

- H. Terrasse, la mosquée des Andaloous á Fés, Paris, 1940, p. 8.

١٥٣) انظر : - Lévi - Provençal, Es. Mus...., Xº-, pp. 102 - 3.

١٥٤) العمل المذكور : ص ١٦١ – ٣.

١٥٥) يمكن الإطلاع على (ابن الفرضى، تأريخ، رقم ١٤١٣. وكذلك :

- E. De Zambaur, Manuel de généalogie et de chronologie pour L' histoire de L'Islam, Hamover, 1927, n. 98, p. 70.

١٥٦) انظر : - Diehl, le monde oriental de 395 a 1081, en Hist. du Moyen Age, de Glotz,. T. III, p. 462.

١٥٧) حول هذه المدينة فى القرن العاشر أنظر :

- Diehl, p. cit. pp. 519 - 22 ; el mismo, Btzance : grandeur et decadence, París, 1920, pp. 104 - 20.

١٥٨) انظر، على وجه الخصوص :

- H. Terrasse, L'art hispano - mauresque, pp. 97 - 103.

١٥٩) بهذا الصدد، يمكن الإطلاع على :

- Maqqari, Analectes, I, pp. 372 - 3.

- H. Terrasse, op. cit. p. 102.

١٦٠) العمل المذكور، ص ٣٥٧.

١٦١) انظر :

- El Libro de Cermonias, II, 15 (ed. de Bonn, 1829, p. 571 ; cf. II, pp. 651 - 2; luitprando, Antapodosis, VI, 2.

١٦٢) إذا ماصدقنا دوزى فى كتابه التاريخ الإسلامى، ص ١٨١، الجزء الثانى، فإن هذا هو اللقب الذى أطلق على أسقف قرطبة، ولكن سيمونى فى كتابه تاريخ المستعربين ص ١٢٦، لايقاسمه هذا الرأى.

١٦٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، طبعة مولير، كونسبرج، ١٨٨٤، الجزء الثانى، ص ٤٧.

١٦٤) ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص، ص ٢٣١، الترجمة ص ٣٥٧، والمقرى، الجزء الأول، ص ٢٢٥ - ٧.

١٦٥) مما يدهشنا التشابه بين هذا البروتوكول، كما يظهر فى ابن حيان، مع ذلك الذى يحفظ باللغة الاغريقية فى كتاب : الاحتفالات الرسمية «Libro de Ceremonias» :

- Constantino Porfirogeneta, II, 48 (ed. de Bonn, I, p. 686).

١٦٦) العبر، الجزء الرابع، ص ١٤٣.

١٦٧) يتعلق الأمر بهوجو أرلس Hugo de Arles، ماركيز بروڤانس، الذى طالب بأن يكون ملكا على إيطاليا فى بافيا عام ٩٢٦.

١٦٨) العمل المذكور، ص ٣٠٠.

١٦٩) حول مشوار خوان، راهب جورزى، يمكن الإطلاع على :

- A. Fliche, L' Europe occidentale de 888 a 1125, en la Hist. du Moyan Age de Glotz, t. II, Paris, 1930, pp. 129 - 30.

١٧٠) نشر هذا النص مرات عديدة، وخاصة فى :

- Monumenta Germaniae historica, script., IV, pp. 335 y ss.

١٧١) أنظر :

- J. Calmette, L'effondrement d'un empire et la naissance d'une Europe, p. 117.

١٧٢) أنظر، على وجه الخصوص :

- R. Pourpardin, le royaume de provénce sous les carolingiens, Paris, 1901, (Bibl. de L' Ecole part. des hautes études, Fasc. 131, pp. 243 - 73.

١٧٣) تم تدمير هذه القاعدة على يد روباى، الذى كان أخا للكونت الحاكم لبروڤانس، وذلك بمساعدة أردونيو، كونت تورين.

١٧٤) انظر : - Poupardin, Royaume de Bourgone, p. 95 n. 5.

١٧٥) حول ريثموندو نشر دوزى دراسة بعنوان :

- Die Cordovaner 'Arib Ibn sa'd der Secretar und Rabi' ibn Zaid der Bischof, en la Z. D. M. G. XX, 1866, p. 595 - 609.

١٧٦) حول لويتبراندو وماكتبه من أعماله، يمكن الاطلاع على :

- A. Fliche, op. cit. p. 642 y nota I.

١٧٧) انظر :

- Diehi, le monde oriental de 395 a 1081, en Hist. du Moyen Age, de Glotz, III, pp. 494 - 5.

الفصل السادس

عصر الخلافة

(٩٦١ - ١٠٠٨م)

عناوين الفصل السادس :

١- خلافة الحكم الثانى - المستنصر بالله (٩٦١ - ٩٧٦م) - الخليفة الثانى فى الأندلس - قرطبة وأسبانيا المسيحية أثناء ولاية الحكم الثانى - سياسة الحكم الثانى فى شمال أفريقيا - حداثة سن الخليفة هشام الثانى وإستيلاء رئيس بلاط القصر - ابن أبى عامر على السلطة (٩٧٦- ٩٨١).

٢- حداثة سن الخليفة هشام الثانى وصعودا ابن أبي عامر - كبير رجال البلاط إلى السلطة (٩٧٦- ٩٨١م) - ابن أبى عامر وبداية الطريق - ولاية الخليفة هشام الثانى.

٣- المنصور رئيس الدولة الأندلسية وبطل الجهاد ضد المسيحيين (٩٨١- ١٠٠٢م) - «ملك» محمد بن أبى عامر - النشاط العسكرى للمنصور فى أسبانيا المسيحية حتى عام ٩٩٥م - شنت ياقب وقلعة النسور وثيربيرا **Cervera**. موت المنصور.

٤- سياسة المنصور بن أبى عامر فى شمال أفريقيا - الحماية القرطبية لمنطقة البربر الغربية حتى انشقاق الزيرى بن عطية - نواب الملوك فى فاس.

٥- عبد الملك ابن وخليفة المنصور بن أبى عامر (١٠٠٢- ١٠٠٨م) - أسبانيا الأسلامية فى بداية القرن الحادى عشر - حملات عبد الملك المظفر ضد أسبانيا المسيحية.

١- خلافة الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١- ٩٧٦م)(١)

الخليفة الثاني في الأندلس :

يلاحظ في التاريخ السياسي لأسبانيا الأسلامية ـ خلال القرن العاشر الميلادي ـ طغيان شخصية الخليفة عبد الرحمن الثالث وحجبها بعض الشئ لشخصية ابنه وخليفتة من بعده الحكم الثاني. وقد ارتبط اسم هذا الأمير بمفخرة الفن الأسباني العربي ألا وهو الجامع الكبير في قرطبة. فقد أمر بتوسعته وتجميله بالنقوش البديعة، وقد اكتسب شهرة لازمت سيرته بفضل حرصه على تزيين المسجد وشدة عنايته بالآداب والفنون(٢). وربما بلغت قرطبة في عهده ـ وهي مركز النشاط الروحي ـ ازدهارا لم تبلغه على عهد الناصر.

لكن ما سبق قوله لا يعني أن الحكم، كرجل دولة، كان أصغر قامة أو أقل جدارة من سلفه الشهير. إذ كانت فترة ولايته هي الأكثر هدوءا وازدهارا طوال عهد الأسرة الأسبانية الأموية. وعند مقارنة الفترة التي حكم فيها بالفترة التي حكم فيها سلفه لوجدناها قصيرة إذ لم يكد يقضي خمسة عشر عاما. كان أمامه متسع من الوقت، قبل توليه السلطة، ليستكمل تعلّمة أمور الحكم، إذ عينه والده وهو صغير السن كوريث للخلافة، كما لم يتولّ السلطة إلا في سن الخمسين تقريبا. وأثناء هذه الفترة اكتسب خبرة طويلة ومباشرة بشئون الحكم، كما كان له رأى يؤخذ به في بعض أمور الدولة وهو في مرحلة النضج(٣). وعندما تولى الخلافة لقب بالمستنصر بالله وحرص كثيرا على عدم خرق القواعد التي أرساها والده واستمر على نفس السياسة سواء فيما يتعلق بالحدود الجغرافية للأندلس أو بالنسبة لشئون المنطقة الغربية من المغرب. لكن الحكم لم يكن ـ على ما يبدو ـ على نفس الدرجة من الحزم أو التسلط التي كان عليها عبد الرحمن الثالث. ففي دولة تنتهز فيها أي بادرة من بوادر الضعف يكون من الخطر على الخلافة أن ينزلق الحكم الثاني إلى اتخاذ مواقف فيها شئ من الليبرالية.حدث ذلك مرتين على الأقل ـ عام ٩٦٦م (٣٥٥هـ)، والعام التالي له ـ إذ لوحظ أن بعض ولاة الأقاليم الداخلية يتباطأون بعض الشئ في أداء مهامهم، فما كان من الخليفة إلا أن بعث إليهم برسائل قوية اللهجة لوضع حد لهذه التجاوزات التي طال أمدها. ونحن نعرف أن الناصر لم يكن ليتهاون في مثل هذه الأمور لحظة واحدة.

تتسم الصورة التي تركها لنا المؤرخون المسلمون، والخاصة بالأمراء المروانيين، بالواقعية الشديدة. فقد وصفوا الحكم الثاني وصوروه بشكل لا يتسم بالجاذبية فهو

أشقر يميل إلى الحمرة، واسع العينين السوداوين وأنفه على هيئة منقار معقوف وصوته قوى، قصير الساقين لكنه قوى البنية كما كان طويل العضدين وفى فكيه نتوء. كان على ما يبدو، معتل الصحة فقد حالت إصابته بشلل نصفى خلال عام ٩٧٤م (٣٦٤هـ) دون قيامه بأى نشاط طوال شهرين ثم أجهز عليه المرض بعد ذلك بعامين. وعندما رأى أن منيته قد قربت أمر بكثير من الأعمال الخيرية قبل انتقاله إلى الدار الآخرة مثل عتق الرقاب وإيقاف بعض أمواله على تعليم الأطفال المحتاجين ثم خفض أنواع الضرائب غير الشرعية إلى السدس تقريبا..إلا أن بوادر التقوى والورع ظهرت فى تصرفاته قبل توليه منصب الخلافة، وهو فى هذا المقام يبتعد عن سلوكيات والده الناصر. فكثيرا ما نراه فى رفقة اليسوعيين وعلماء اللاهوت والأدباء والعلماء من مختلف ميادين العلم. كما أنه بذل جهدا كبيرا ليكون للدين الأولوية الأولى فى عهده. إذ تقول بعض الأخبار أنه كان على وشك تحريم شرب النبيذ تحريما مطلقا فى كافة الولايات التابعة لملكه واللجوء إلى اقتلاع كافة مزارع الكروم. كان مشروعا جنونيا إلا أن العاهل لم يتخل عنه إلا عندما نصحه الكثيرون بعدم تنفيذه. وتعرضت قرطبة على عهده لسياط جفاف شديد عام ٩٦٤م)٣٥٣هـ) مما حدا به إلى توزيع المشروبات على المحتاجين.

اتسم الجو العام فى الأندلس ـ بما اصطلح عليه هذا المسمّى ـ بالهدوء والأستقرار طوال الخمسة عشر عاما التى تولاها الحكم الثانى مثلما كان عليه الحال خلال النصف الثانى من ولاية والده الناصر. ولم يكن هناك استثناء إلا ما حدث خلال عام ٩٦٦م (٣٥٥هـ) والذى تمثل فى إنزال مجوس ـ كانوا من أصل دانماركى هذه المرة ـ أرسل بهم ريكاردو الأول Ricardo I دوق نورمانديا وحفيد رولون Rollon وذلك بهدف تحرير ممتلكاته من الوطأة الثقيلة للحكم الثانى. كانت الأندلس مستعدة لمقاومة هؤلاء القراصنة إذ كانت هناك قوات كثيرة العدد ومجهزة العدة تقوم بدوريات مستمرة لمراقبة شواطئ الأطلنطى والبحر الأبيض المتوسط. كما كانت مدينة المرية Almería أول ثغر حربى مهيأ لمواجهة النورمانديين والأسطول الفاطمى. وفى عام ٩٦٤م (٣٥٣هـ) قام الحكم الثانى بزيارة هذا الثغر الذى أمر ببنائه كما زار الموقع الحصين المسمّى رباط القابضة Qabita والذى كان يتناوب المرابطة فيه العديد من المتطوعين المسلمين من مختلف الفئات الأجتماعية

جاء الدانماركيون على متن ثمانية وعشرين سفينة ونزلوا على شواطئ منطقة قصر أبى دنيس وهى المنطقة التى تسمى حاليا دوسال Alcacer Do Sal الواقعه جنوب

البرتغال، ثم غزوا بعد ذلك سهول لشبونة وحدث هناك صدام دموى مع القوات الإسلامية استطاعت إحدى الفصائل الأشبيلية اللحاق بسفن المجوس عند مصب نهر شلْب Silves فحطمت الكثير منها وحررّت الأسرى الذين كانوا على متن السفن. وبعد هذه العملية عاد أسطول المحيط للرسوّ فى مياه نهر الوادى الكبير. وبعد ذلك بسنوات قليله عاودت بعض السفن الدانماركية الظهور من جديد على الشواطئ الأسبانية. وعندئذ أصدر الحكم الثانى أوامره لقائده البحرى المكلف بقيادة الأسطول فى منطقة البحر الأبيض المتوسط عبد الرحمن بن رمحيس بأن ينضم إلى الأسطول الثانى فى أشبيلية والمرابط فى مياه نهر الوادى الكبير. ويبدو أن المجوس لم يتمكنوا من إنزال قواتهم هذه المرة[٥].

وصلت إلى أيدينا نسخة حديثة من تاريخ ابن حيان ورغم أن بها كثيرا من العيوب إلا أنها تضمن جزءا كبيرا مما كتبه والذى يلقى به الضوء على فترة ولاية الحكم الثانى (٩٧١- ٩٧٤م) (٣٦٠- ٣٦٤هـ). يتضمن هذا الجزء الباقى معلومات جديدة عن سياسة الحكم الثانى تجاه المسيحيين والشمال الأفريقي. أضف إلى ذلك أن رواية «المقتبس» تؤكد لنا الطبيعة المسالمة لهذا العاهل[٦] ولا يكاد هذا الجزء يتناول الحياة السياسية فى الأندلس لكنه يخصص جزءا كبيرا لسرد أخبار الحفلات الكثيرة التى كانت تعقد إما فى قصر الخلافة فى قرطبة أو فى مدينة الزهراء. ومنه يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن الحكم الثانى لم يحدث أى تغيير فى البروتوكول الدقيق المتبع والذى تسير عليه حياة الخليفة. كما لم يطرأ أى تغيير على الدور الذى يقوم به الضباط الصقالبة. وفى الفترة التى سبقت صعود نجم محمد بن أبى عامر، على عهد الخليفة الثانى، كانت هناك اثنتان من الشخصيات المسيطرة على زمام الأمور فى البلاد: أولها غالب العتيق الذى كان مكلفا فى مدينة سالم بالدفاع عن حدود الخلافة مع أشتوريش وليون والبشكنس. أما الثانية فكان الوزير المصحفى الذى يتولى مسئولية الحكم أثناء مرض العاهل. ومن المعروف أن ترقى القائد/ غالب بن عبد الرحمن إلى أعلى المناصب فى صفوف الجيش كانت قد بدأت أولى مراحله فى عهد الناصر وشهد عصر الحكم الثانى المزيد من صعود نجم هذا القائد الذى أعتقه الخليفة الأول. كما أن اسمه سوف يتردد كثيرا عندما نتحدث عن حملات فى الأراضى المسيحية وغرب المغرب. وقد ظل أحد كبار رجالات الدولة مع مجئ هشام الثانى.

وبالنسبة لأبى الحسن جعفر بن عثمان المصحفى فيرجع صعود نجمه بسرعة ملحوظة إلى علاقات شخصية وصداقة وطيدة تربطه بالحكم الثانى. إذ كان والده

عثمان بن نصر معلم الأمير، وقد أولاه هذا الأمير برعايته حتى قبل توليه عرش الخلافة إذ جعله أمينه الخاص قبل أن يقوم بممارسة ضغوطه حتى تعطى ولاية جزيرة ميورقة عام ٩٤٧م (٣٣٦هـ). كان المصحفى من أسرة رقيقة الحال من أصل بربرى. هذه الأسرة استقر بها المقام فى مدينة فالنسية. وقد عين المصحفى أمينا عاما للدوله عندما تولى الحكم الثانى الولاية بدرجة وزير، ثم نقل إلى إدارة الشرطة كما حظى بثقة الحكم الثانى طوال مدة حكمه إذ كان يثنى عليه لاستقامته وحرصه على عدم إثقال كاهل ميزانية الخلافة بنفقات عديمة الجدوى(٧).

لم يكن للحكم الثانى أبناء عندما صعد إلى كرسى الحكم وهو فى السادسة والأربعين من العمر. وهذا موقف شائك بالنسبة لمستقبل هذه الأسرة التى تعاقب فيها الحكام بطريقة مباشرة. ولذلك كانت سعادته غامرة عندما رزق بولد من إحد محظياته. كان ذلك عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) لكن الأمير الصغير وافته المنية بعد سنوات قلائل. ومن حسن الطالع أن تكون هذه المحظية نفسها الملقبة بـ «أم الولد» هى التى تنجب له طفلا بعد ذلك بثلاثة أعوام، وسمّى هذا الطفل «أبو الوليد هشام» الذى أحيط برعاية شديدة كما أن أمه كانت أكثر نساء القصر تأثيرا ودلالا. فهى أمة شابة من البشكنس تدعى صبح. إلا أن العاهل كان يفضل أن يطلق عليها اسما مذكرا هو «جعفر». وربما كان ذلك سيرا على تقليد كان سائدا فى بغداد. أو لأنها كانت ترتدى ملابس الغلمان. وصبح – جعفر هذه – هى التى أطلق عليها المؤرخ دوزى اسم «فجر» فى روايته لتاريخ هذه الفترة. وسوف نرى فيما بعد الدور الذى إضطلعت هى به مع مجيئ ابنها هشام الثانى إلى كرسى الحكم وقد تمثل هذا فى وصول صنيعتها ابن أبى عامر إلى أعلى الدرجات الشرفية. وعندما رأى الحكم الثانى ما به من علة أصابته بالهزال والضعف، ورغبة منه فى الاطمئنان على تولى ابنه من بعده قرر عام ٩٧٦م (٣٦٥هـ) أن يقوم ابنه بحلف يمين الولاء ليكون وريث العرش. تّم هذا فى حفل عظيم أقيم يوم الخامس من فبراير (غرة جمادى الثانية) فى قصر الخلافة فى قرطبة. وبعد ذلك بثمانية أشهر ـ أول أكتوبر الموافق الثالث من صفر ـ وافته المنية وهو فى الحادية والستين من العمر.

قرطبة وأسبانيا المسيحية أثناء ولاية الحكم الثانى :

ربما تذكرنا كيف كان وضع أسبانيا المسيحية على عهد عبد الرحمن الناصر. كان الملك سانشو الأول Sancho I ابن أوردونيو الثالث Ordono III ـ ملك ليون وأشتوريش قد أطيح بعرشه عام ٩٥٨هـ لكنه استطاع بفضل معونة الجيش الاسلامى

والتى وعد بها عندما كان فى قرطبة مرافقا لجدته تودا Toda، الملكة الوصية على نبرّة Navarra، أن يسترد عرشه عام ٩٦٠م وأجبر منافسه أوردونيو الرابع على اللجوء إلى أشتوريش أولا ثم الانتقال إلى برغش Burgos ثانيا. كما قام الباشكنس بمهاجمة فردلند القومس Fernan Gonzalez كونت قشتاله وأسروه فى نفس هذا العام (٩٦٠م) وقد وعدته قرطبة بمدّ يد العون العسكرى شريطة أن يتنازل لها عن عشرة من القلاع والحصون الواقعة على الحدود. لكن الاتفاق المذكور لم يتم تنفيذه حتى موت عبد الرحمن الثالث.

طالب الخليفة، كأول خطوة عملية بعد توليه شئون الحكم، بتسلم القلاع والحصون العشرة وإلا فسوف يكون فى حلّ من تنفيذ حلف الصداقة الموقع بين ليون وقرطبة. وظن الحكم الثانى أن باستطاعته الحصول من ملك بنبلونه Pamplona على وعد بتسليم أسيره الكونت القشتالى/ فردلند القومس لكن كلا من سانشو الأول وغرسيه ظنا قدرتهما على عدم الانصياع لنوايا قرطبة إذ كانا يعرفان أن الحاكم الجديد يميل إلى السلم والدّرس أكثر من ميله للحرب، ووصل الأمر بحاكم نبرّة إلى إطلاق سراح فردلند القومس الذى عاد مسرعا إلى برغش Burgos وتمكن من شخص زوج ابنته وهو أوردونيو الرابع فأطاح به وأرسله، ترافقه مجموعة من الفرسان، إلى أراضى المسلمين. ثم أعمل يد القسوة فى الأراضى التى سيطر عليها ودفع بالعصابات المسلحة من أهلها للقيام بغارات على أراضى الجوار. فاتخذت قرطبة إجراءات للقضاء على هذه الغارات وتمثل ذلك فى حملة سيرّتها. ففى عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) نودى فى أرجاء الخلافة بالجهاد المقدس.

عندما طرد أوردونيو الرابع من قتشاله إلى أسبانيا الأسلامية توجه إلى مدينه سالم وطلب من القائد غالب الموافقه على الانتقال إلى قرطبة بغية طلب العون من الخليفة الذى أمر قائد حرس الحدود - عند إبلاغه بالموقف - بأن يرافق الأمير الليّونى دون أن يعده بشئ. وفى الثامن من أبريل عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) وصل الاثنان كلاهما إلى قرطبة. كانا أوردونيو الرابع على استعداد كامل للرضوخ لأى مطلب، فإذا ما أخذنا برواية ابن حيان[٩] والتى تحدثت عن زيارة ذلك الأمير للحكم الثانى، فأول شئ فعله الملك المخلوع عندما وطئت قدماه أرض قرطبة يرافقه حرس شرف خرج لاستقباله سأل عن المكان الذى دفن فيه الناصر. وعندما مرّ أمام القصر من طريق يقع على الجانب الآخر من الضريح الملكى توقف وخلع قلنسوته ثم تلا بعض الصلوات بصوت خفيض. ثم ذهبوا به للإقامة فى منية الناعوره يرافقه عشرون من علية القوم الذين أتوا

معه. كما عومل أحسن معاملة. وبعد ذلك بيومين ذهبوا به إلى حضرة الخليفة فى مدينة الزهراء. وهناك لم تدخر الخلافة أى جهد لإبهار هذا الأمير الذى اتسم بالجلافة الشديدة والذى لم يشهد فى حياته فخامة بهو الأستقبال فى البلاط الأسلامى. والمعلومات المتوفرة لدينا عن لقائه بالخليفة الحكم الثانى تدور كلها، بالطبع - مع شىء من المبالغة غير الجيدة التوريه - حول ما أظهره أوردونيو الرابع من تواضع شديد أمام عظمة خليفة الأندلس الذى وعده بكل ما يريد ليبلغ مراده. وقد تحدث إليه الخليفة باللغة العربية وقام بالترجمة المستعرب وليد بن خيرون **Walid ben Jayzuran** قاضى المستعربين فى قرطبة. ومن الوعود التى تلقاها قيام جيش بمساعدة الأمير استعادة العرش الذى سلبه منه سانشو الأول. كما أن علاقاته بقرطبة سوف تكون علاقة سليمة. ووعد الأمير بألا يتحالف مع كونت قشتاله ضد الإسلام. ولتأكيد ذلك عليه أن يقدم ابنه غرسيه كرهينة وعليه أن يقوم بطلب المشورة فى الأمور الهامه وذلك من خلال مجلس له نوع من الوصاية، مؤلف من ثلاثة من كبار المستعربين وهم قاضى الذمه فى قرطبة/ وليد وأسقف العاصمة/ أصبغ بن عبد الله بن نبيل، ومطران أشبيلية/ عبيد الله بن قاسم.

أصاب الخوف سانشو الأول عندما علم بهذا الاتفاق فسارع بإرسال سفارة إلى الخليفة مؤلفة من كونت جليقية وسمّورة **Galicia y Zamora** وبعض النبلاء. كانت مهمة السفارة هى الاعتراف للحكم الثانى بسيادته والتعهد أمامه بالتنفيذ الدقيق لكل بنود المعاهدة التى وقعت مع الناصر. ومنذ هذه اللحظة لم يعد أحد فى قرطبة يولى أى اهتمام بأوردونيو الرابع الذى مات بطريقة غامضة - دون أن يخرج على ما يبدو من قرطبة - كان ذلك قبل نهاية عام ٩٦٢م. وأدى اختفاؤه المبكرّ من الساحة إلى تبديد مخاوف ملك أشتوريش وليون، فعند اختفاء منافسه يمكن له أن يعاود الكرّة مرة أخرى فى عدم الوفاء بما قطع على نفسه من عهود ووعود أمام العاهل المسلم. والخطوة التالية هى المسارعة فى عقد حلف مع كونت قشتاله وملك نبرّة وكل من الكونت بوريّل **Borrel** والكونت ميرون **Mirón** قائدى برشلونه.

ولمواجهة هذا التحالف لم يكن أمام الحكم الثانى مخرج آخر إلا الحرب. وعندما حسم أمره قام بمهاجمتهم والسيطرة عليهم الواحد تلو الآخر وقد ترأس بنفسه الحملة التى سيّرها وكانت قشتاله أول أهدافها(صيف ٩٦٣م - ٣٥٢هـ) ولاتتوافر لدينا الكثير من المعلومات حول أولى الحملات التى قام بها الخليفة الثانى ولا حتى عن الحملات التى تلتها(١٠). استولت الجيوش الأسلامية على بلدة شنت إشتبن دى غورماج **San**

Esteban de Gormaz الواقعة على نهر دويرة Duero وأجبر الكونت فردلند القومس على توقيع معاهدة سلام سرعان ما خرق بنودها بعد ذلك وبالتالى ظهرت الحاجة إلى منازلته من جديد فاستولى المسلمون هذه المرة على بلدة أتينثا Atienza الاستراتيجية كما هوجم غرثيه سانشيث الأول وألحق به الهزيمة. يحيى بن محمد التوشيبى حاكم سرقسطة zaragoza. وبعد ذلك بقليل قام كل من القائد غالب والقائد سعيد ـ أحد عتقاء العاهل ـ بمعاودة الهجوم واستوليا على قلعة قلهرّة Calahorra التى كانت قد تحصنت جيدا وتم تزويدها بحامية قوية(١١). وبلدة غرماج Gormaz هى من المواقع الهامة على نهر الدويرة Duero(١٢)، بالقرب من شنت إشتبن San Esteban. وقد جهز هذا الموقع تجهيزا قويا لمواجهة السلوكيات العدوانية التى يقوم بها الكونت فردلند القومس(١٣).

كان لتفوق الجيش الاسلامى فى الأسلحة والعتاد نتيجة مؤداها هى الأمان الكامل لحدود دولة الإسلام بفرض الهدنة على أسبانيا المسيحية وذلك بعد أن تولى الحكم الثانى عرش الخلافة بوقت قصير. وفى نهاية عام ٩٦٥م، وربما كان العام التالى له، (٩٦٦م) توفى سانشو الأول ملك ليون بعد أن قام الكونت الجليقى/ غونثالو بدسّ السمّ له. فخلفه ابنه راميرو الثالث Ramiro III الذى لم يتجاوز الثالثة من العمر. فكانت عمته السيدة/ إلبيرا Elvira هى الوصيةً على الملك. كانت هذه المرأة قد ارتدت الحجاب وعاشت حياة العزلة فى دير القديس سلبا دور San Salvador فى ليون. وأدى هذا الأمر إلى أن يعلن سادة مملكة ليون استقلالهم لأنهم رفضوا الدخول تحت إمرة طفل ووصاية امرأة. وأخذ كل واحد منهم يتصرف بمعزل عن الآخر ويجرى مفاوضات مباشرة مع قرطبة. وابتداء من عام ٩٦٦م كثرت السفارات الوافدة إلى العاصمة الأموية التى أرسلت بها بعض الشخصيات المسيحية معلنة نفسها من رعايا الخليفة وطالبة منه الدخول كحكم فى المنازعات الداخلية التى أدت إلى تشرذمهم. كما كانت كل من جيلقية وأشتوريش تعيشان مرحلة حرجة إذ كانتا تتعرضان لهجمات النورمانديين من البحر. وفى عام ٩٧٠م أى بعد وفاة الكونت فردلند القومس، بعد أن أصابه الهزال وتقدّم به العمر خلفه ابنه غارثى فرنانديث Garci Fernandez. وفى العام نفسه يموت ملك نبرّة Narvarra غرثيا سانشيث ويؤول عرش بنبلونه إلى سانشو غارثيا الثانى الذى لقب بـ «النعل».

لم يكد الحكم الثانى يتقلد منصب الخلافة حتى سارع الأمراء الجدد للتعبير والإعراب عن ولائهم. وعلى الجانب الآخر من الحدود نرى مشاهد الانحطاط السياسى المؤقت لمملكتى ليون ونبرّة، «فى الوقت الذى تصل فيه الخلافة الأموية إلى أوج

ازدهارها وممارسة سطوتها السلمية على كافة الأراضى الأسبانية وتحقق بذلك انتشار الأمان فى ربوعها»(١٤). وفى الجزء الخاص بالحكم الثانى والذى أورده ابن حيان فى كتابه «المقتبس» [يبدأ اعتبارا من عام ٩٧٠م – ٣٦٠هـ] نرى تأكيدا لما ذكر قبل ذلك، مع إضافة الكثير من التفاصيل ومنها كثرة السفارات الوافدة إلى قرطبة من أسبانيا المسيحية(١٥) واستمر ذلك الأمر حتى عام ٩٧٤م (٣٦٣هـ). أو أن هذه السفارات كانت تلك التي أرسل بها الكونت بورّيل كونت برشلونه. ثم سفارة الملك سانشو غرثيا الأول ملك نبرّة، أما السفارة الثالثة فأرسلت بها السيدة إلبيرة الوصية على عرش الملك الأسنتورى الليونى. ثم سفارة فرنان لاينث Fernan lainz كونت شلمنقة Salamanca وسفارة غارثى فرنانديث صاحب قشتالة. وسفارة فرناندو أنسوريث-Fernando Ansurez كونت مُنتشون Monzon وسفارة جليقية. وتشهد قرطبة عام ٩٧٣م وصول وفود جديدة أرسلها كل من سانشو صاحب نبرّة وإلبيرة الليونية وفرناندو آن سوريث وروى بيلاثكيث Ruy Velazquez من جليقية وبنى غوميث Gomez وكل واحد منهما كونت كاريّون Carrion. وفى العام التالى أيضا قام الكثير من هؤلاء السادة بتجديد تأكيد مواقفهم. وقد تزامن مع تلك الوفود وهذه السفارات مجئ سفارتين قادمتين من بعيد إلى بلاد الحكم الثانى: أولاهما سفارة قدمت فى شهر مارس (٩٧٢م) جمادى الأولى ٣٦١هـ تحمل رسالة بعث بها البيزنطى يوحنا زيمسكى Juan Tzimisces. أما السفارة الثانية فقد وصلت فى شهر يوليو لعام ٩٧٤ (ذى القعدة ٣٦٣هـ) وتحمل رسالة من الأمبراطور أتون الثانى Oton II الممثل الجديد للبيت السكسونى Sajonía الذى تولى العرش بعد وفاة والده أتون الأول منذ أقل من عام.

تعكر صفو حالة السلم فى هذه الفترة بطريقة مفاجئة، وبالتحديد خلال عام ٩٧٤م (نهاية ٣٦٣هـ) وكان السبب هو موقف الكونت الجديد لقشتاله غارثى فرنانديث الذى كان قد أرسل سفارة إلى قرطبة. فلم تكد هذه السفارة تنتهى من مهمتها فى العاصمة وتخرج منها حتى وصلت أنباء تقول بأن هذا الحاكم القشتالى شن هجوما مفاجئا على المعاقل الإسلامية منذ ثلاثة أسابيع. هذا المعقل يسمى ديثا Deza وهو مكان يقع حاليا فى محافظة سورية Soria على بعد خمسين كيلو مترا شمال شرق مدينة سالم. كان هذا الموقع الحصين وكذا موقع أتيكا Ateca الواقع بالقرب من قلعة أيوب من الناحية الغربية بمثابة مقاطعة يحكمها عمير بن تملاط ـ ذو الأصل البربرى ـ تركتها له الخلافة الأموية فى قرطبة مقابل ضمان سلامة حدود الخلافة فى تلك النواحى. كما أن الحكم الثانى قد أكد سير الأوضاع على ما هى عليه فى هذه المقاطعة بعد وفاه عمير بن تملاط فآلت كأرث لأبنائه الخمسة من بعده. وقد اضطر اثنان من

هؤلاء الأبناء وهما زروال ومدع إلى الانسحاب أمام الهجوم القشتالي فأصيب الأول إصابة قاتلة. عندما وصلت هذه الأنباء إلى قرطبة أمر الخليفة بالقبض فورا على سفارة غارثي فرنانديث وهى فى طريق العودة إلى قشتاله والرجوع بها إلى قرطبة وإيداعها السجن(١٦).

هذا التغير المفاجئ فى موقف كونت قشتاله لم يكن غير عقلانى بالمرة إذ كان يحاول الإفادة من غيبة غالب، قائد قوات حرس الحدود، التى طال أمدها، فقد أرسله الخليفة على رأس حملة إلى شمال المغرب للقضاء على تمرّد الأمراء الأدارسة. غير أنه سرعان ما طلب منه العودة إلى موقعه السابق فى مدينة سالم وأن يعمل على أن تعى الممالك المسيحية جيدا قوة ومقدرة الجيوش الأسلامية. إلا أن غارثى فرندنديث كان قد أقنع جيرانه فى ليون ونبرّة بالوقوف إلى جانبه، وفى شهر إبريل (٩٧٥م) (شعبان ٣٦٤هـ) اجتمعت قوات قادمة من قشتالة وجليقية والبشكنس قوامها ستون ألف رجل طبقا لتقديرات ابن حيان وقامت بحصار حصن غورماج **Gormag**. سار غالب فورا وهو يحمل مهمة كسر طوق الحصار المفروض على هذه المنطقة وقد رافقه فى حملته هذه كل من يحيى التجيبى والى سرقسطة ورشيق البرغواتى **al Bargawati** فاستولى الجيش الإسلامى على بلده براهونا **Barahona** الواقعة شمال مدينة سالم ثم على بيرلانغا **Berlanga** الواقعة جنوب نهر الدويرة بقليل. وفى الوقت ذاته أبدت القوات الإسلامية المحاصرة فى غورماج **Gormaz** مقاومة عنيده أمام القوات المحاصرة. ودارت المعركة الفاصلة بين قوات الجانبين أمام جدران القلعة فى ٢٨/ ٦/ ٩٧٥م (١٥ شوال ٣٦٤هـ) وكانت المحصلة خسارة فادحة فى صفوف المسيحيين، وأراد غالب الإفادة من هذا الأنتصار إلى أقصى حد ممكن فقام بمهاجمة الأراضى التابعة لغارثى فرنانديث وألحق به هزيمة جديدة فى بيرلانغا **Berlanga** الواقعة على نهر الدويرة كما قام والى سرقسطة بمطاردة القوات البشكنسية وهى عائدة إلى أراضيها ملحقا بها هزيمة بالقرب من تطيلة **Tudela** فى مكان يسمى إستركويل **Estercuel**(١٧) وبهذا أعاد للسيطرة الإسلامية وضعها السابق الذى استمر حتى مجئ هشام الثانى الذى تولى العرش فى العام التالى.

سياسة الحكم الثانى فى شمال أفريقيا(١٨):

يذكر أن عبد الرحمن الناصر - فى أواخر عهده - فقد فجأة نتائج جهوده المستمرة التى كان يبذلها فى المغرب لاستمالة مجموعة قبائل الزناته وجعلها تدور فى

فلك قرطبة وضمان ولاء هؤلاء السادة الأدارسة له وهم الذين أفادوا جيدا من أصولهم العريقة فاستطاعوا الاحتفاظ لأنفسهم بإقطاعيات هامه. وقد أدى الاستعراض البسيط لقوة الفاطميين والذى خطط له ونفذه إستراتيجى له سمعته وهو المولى جوهر إلى الإعلاء من سمعة ومكانة سيد أفريقيا والتقليل فى الوقت نفسه من شأن أمير الأندلس بدءا بالفيافى الجزائرية وحتى شواطئ المحيط الأطلنطى. وعندما تولى الحكم الثانى عرش الخلافة لم يرث عن أبيه فى أفريقيا إلا منطقتى سبته ومليلة بالإضافة إلى بعض الأراضى الأخرى، وقد التزم التزاما مطلقا بالنهج الذى اتبعه والده فيما يتعلق بالشئون الأفريقية ونفذ الخطط بحذافيرها طيلة العشرة أعوام التاليه إذ نراه مستمرا فى بعث رسله إلى الشاطئ الآخر. وتخصيص الهبات الثابتة للبعض ومحاولة إيجاد مناخ يساعد على التوسع القرطبى. وفيما يتعلق بالصراع القائم منذ عقود طويلة مضت بين الرؤوس الكبيرة على الشاطئ الأفريقى أو ما يطلق عليه المؤرخون العرب ـ الأسبان «العدوه» فقد استمر طوال عهد الخليفة الثانى متمثلا فيما عرف عنهم بالمناوشات والاستفزازات بين كبار القادة المغربيين. كذلك كان الأمر بالنسبه لتوزيع الذهب، وقد تقتضى الأمور الدخول فى صراع مسلّح وانتهاج سياسة تتسم بشئ من المخاطرة وتؤدى إلى نتائج غير مؤكدة وذات طبيعه مؤقتة. كان وراء هذا الموقف الآخذ فى التوتر واقعة هامة للغاية ألا وهى انتقال الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة.

كانت اهتمامات العاهل الفاطمى مركزة كلها فى الشرق الأسلامى، عندما تولى الحكم الثانى السلطة فى الأندلس. فاتجه القائد جوهر الصقلى، الذى لبس تاج الفخار لسيطرته على المغرب، إلى مصر لغزوهاوالعمل على ضم سوريا للسلطة الفاطمية. فدخل الفسطاط منتصرا فى شهر يوليو ٩٦٩م (شعبان ٣٥٨هـ) وشرع على الفور فى بناء مدينة تكون مقرا لسيده عندما يأتى للإقامة بصفة مستديمة فى مصر. وأطلق على العاصمة الجديدة اسما موحيا هو القاهرة.

وبعد ذلك بثلاثة أعوام ينتقل المعز لدين الله إليها ومعه كافة أفراد بلاطه. ولم يكتف بهذا فقط بل حمل معه رفات من سبقوه على العرش الفاطمى، ومنذ ذلك الحين أضحت منطقة البربر الشرقية واحدة من الولايات التابعة للأمبراطورية الشيعية ثم أصبحت بعد ذلك إمارة تدور فى الفلك الشيعى.

أما الشخص الذى عهد إليه الخليفة الفاطمى بإدارة شئون تلك الولاية فى الفترة التى نتحدث عنها، فقد كان واحدا من الشخصيات السياسية الهامة فى المغرب ألا وهو

الصنهاجي الثرى المدعو زيرى بن مناد التلقطى الذى كان يقيم فى مدينة أشير Ashir وهى مدينة كما سبق أن رأينا، أسسها هو فيما بين عامى ٩٣٦م، ٩٤٦م (٣٢٤ – ٣٣٤هـ). وقد أسلم الرجل نفسه روحا وجسدا للقضية الفاطمية ودائما ما قاوم أى إتفاق مع الأمويين فى أسبانيا، أما الشخصية الأخرى التى ضمت تحت لوائها الزناتية، الأعداء التقليديون للصنهاجة، فهو محمد بن خاير حفيد محمد بن خزار المقراوى. فرغم انضوائه المتأخر تحت لواء الفاطميين لم يصمّ أذنيه عن النوايا التى كانت تصل إليه من العاهل الأندلسى، إذ كانت هناك صلات مصالح قائمة بين المروانيين وسادة الزناته.

وقد تمكن بفضل الدعم الهام الذى كان يتلقاه من قرطبة من تكوين جيش قوى كان بمثابة العصا التى يغير بها على الأملاك التابعة للأمراء الدائرين في الفلك الفاطمى. وعندما شعر الخليفة الفاطمى بالقلق من هذه الغارات سمح بأن يقوم الصنهاجى الزيرى بتأديبهم وقدم له إمكانية الأحتفاظ بالأراضى التى يستولى عليها منهم لتصبح ملكا خاصا به. وعلى ذلك كلف زيرى ابنه أبو الفتوح بلوكين بالقيام بغزو الأقليم الذى يسيطر عليه الزناته. والتقى الجيشان المتحاربان يوم الخامس عشر من فبراير عام ٩٧١م (١٥ ربيع الثانى ٣٦٠هـ) وحقق الصنهاجة نصراً مؤزرا. وعندما رأى محمد بن خاير خسارته للمعركة وأنه لا حول له ولا قوة وأن حريمه على وشك السقوط فى أيدى أعدائه قتل نفسه بسيفه. كما بقيت على أرض المعركة جثث عشرة من الأمراء الصنهاجة بالإضافة إلى جثث جنود الجيش المهزوم. ولسنا نعرف مكان المعركة فلم يقم أى من المؤرخين بهذه الخطوة.

شعر الحكم الثانى بخيبة أمل ومرارة شديدتين عندما خسر أتباعه فى المغرب هذه المعركة أما الزيرى بن مناد فقد دعم قدرته العسكرية التى ساعدت على انتصار ابنه وأخذ يطارد الزناته وخاصة الذين كانوا يقيمون فى منطقة الزاب التى تقع جنوب غرب المحافظة التى تسمى حاليا محافظة القسطنطينية إذ كان ذلك الأقليم معقلا لأحد القادة الفاطميين الذى لم يكن من أصل عربى خالص بل ترجع بعض أصوله إلى الأندلس. هذا القائد هو جعفر بن على بن حمدون الذى اشتهر بلقب ابن الأندلس. أما والده على وجدّه حمدون فقد هاجرا من الأندلس بحثا عن موطن جديد فى المغرب، وارتبط حظهما بالداعية أبى عبد الله والرّحالة الأول فى الأسرة الفاطمية. وفى عام ٩٢٧م (٣١٥هـ) تلقى على بن حمدون الأوامر من سيده بأن يقوم ببناء مدينة أطلق عليها «المحمدية» وهى الآن «مسيلة» الواقعة جنوب غرب السقطنطينية، وقد تعرض على

بن حمدون لحادثة فى هذه المدينة بعد ثمانية عشر عاما أدت إلى وفاته. ثم خلفه ابنه جعفر كحاكم على مسيلة. فى عام ٩٧١م (٣٦٠هـ). شعر بالغيرة من استمرار صعود نجم الصنهاجى الزيرى بن مناد الأمر الذى جعله يرفض الهيمنة الفاطمية، واتفق فى الهدف مع الزناته المقيمين فى المنطقة الساحلية وأعلن دون مواربة انضمامه إلى الأمويين فى الأندلس. فأراد الزيرى سحق هذا الخصم الجديد المناوئ للقضية التى دافع عنها لكن تأت الرياح بما لا تشتهى السفن ففى المعركة التى دارت بينه وبين جعفر وحلفائه من الزناته سقط حصان الزيرى واستسلم على أيدى أعدائه (يوليو ٩٧١م - رمضان ٣٦٠هـ) وأعمل هؤلاء سيوفهم في الصنهاجة فذبحوا الكثير منهم. ثم قام أحد إخوة جعفر وهو المدعو يحيى بالسفر إلى قرطبة وقد حمل إلى الحكم الثانى نياشين النصر وخاصة رأس الزيرى الملطخة بالدماء. واستقبل هذا الوفد استقبالا حاراً فى قرطبة ثم إنضم إليه بعد قليل جعفر الأندلسى بنفسه. ومما لاشك فيه أنه أحسن التقدير فى قراره بعدم البقاء فى المغرب لدواعى أمنية إذا انتقل إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بحثا عن ملجأ مؤقت.

لم تكد تمر فترة طويلة حتى جاء ردّ فعل المعز لدين الله الفاطمى للرّد على الإهانة المزدوجة والتى تمثلت فى مقتل الزيرى وخيانة جعفر الأندلسى فأمر بلوغين بن الزيرى بأن يجهز حملة ضد المغرب. القمع والمناهضة كانا من سمات موقف الزيرى ضد الزناته وقد طبقّ ذلك فى كل المدن التى احتلها - تاهرت ومسيلة وتبنه وبجاية وبوجبة وبسكرا - والتى سقطت الواحدة تلو الأخرى: إذ أعمل القتل فى البداية فقضى على الآلاف منهم، «وألا يقوم أى من البربر بتربية الخيل أو ركوبها . وقد قال بلكين هذه المقولة التى أضاف إليها «وقبل أن يقدم أحدهم على ذلك لابد أن أعطيه الأمان». أدت هذه المناهضة وهذا التعطشّ للدماء إلى أفول نجم قرطبة فى تلك النواحى. لكن كان على بلكين أن يعود من داخل المغرب الذى قدم إليه تلبية لنداء الخليفة المعز لدين الله الذى أبلغه بتعيينه واليا على إفريقية، أو بتعبير أدق نائبا للخليفة فى هذا الأقليم، وذلك قبل رحيله إلى مصر. فقام بلكين، الذى أطلق على نفسه اسم يوسف، بالعمل بنصيحة سيده وسار من جديد لاحلال السلام فى المغرب لكن لم يكد يصل فى مصادرته للزناته إلى ترمذان حتى وصلته رساله أخرى من المعز يدعوه فيها للعودة إلى الشرق. فلم تعد المغرب تهم الفاطميين وتركوا يد الأمويين لتعمل بحرية فيها .

وأمام هذا الوضع الجديد تراخى الحكم - على مايدو - فى خطواته إذ لم تعد هناك مخاوف من تدخل شيعى فى شئون أسبانيا الإسلامية غير أن القضية الرئيسية

تمثلت في هيبة قرطبة. كما أن الخليفة لم ير مايشين في استمرار قرطبة في دورها كحكم في الشئون السياسية في المغرب. واستقبل في بداية عهده سفارة من أبي منصور عيسى - أمير البرجواته - وهي سابقة لم تحدث سلفا في تاريخ الخلافة الأموية. كان على رأس هذا الوفد رئيس الدير المدعو صالح زمور وكان يرافقه مترجم لينقل إلى العربية مايتحدّث به. جاءت الزيارة في خريف عام ٩٦٣م (شوال ٣٥٢هـ) ومثلت خطوة هامة، إذ كان أمير أولئك القوم يريد إقامة أواصر صداقة مع الخلافة الأموية الأسبانية. وربما كانت إجابه الحكم فيها نوع من التهرّب لا يعرّض نفسه لتأنيب الفقهاء المتشددين في المملكة، وقد أفاد كثيرا من إقامة هذا الوفد في قرطبة بأن حصل على معلومات حقيقية عن معتقدات هولاء الملاحدة. وكان وقع ما قصه ورواه هؤلاء الناس وقع الصاعقة على البلاط الأموي والعاصمة قرطبة، وهذا ما أورده الجغرافي البكري في مؤلفاته. ويمكن إيجاز القول في معتقداتهم بأنها تقليد ساذج جدا للإسلام وأن كتابهم المقدس ليس إلا مقابلة تتّسم بالسذاجة إن لم تقل إنها مقابلة فجة للقرآن[١٩].

عندما خرج المعز لدين الله متوجها إلى مصر كان العلم الأموي الأبيض لايزال يرفرف على أبراج مدينة سبته التي انتهى العمل في بنائها عام ٩٦٢م (٣٥١هـ). وكافأ الحكم أهلها على ولائهم بإعفائهم من بعض الضرائب[٢٠]. أما عن أهالي طنجة فلم يتسم سلوكهم بالوفاء المطلق للخليفة الأندلسي إذ قاموا - بعد توليه الخلافة بفترة قصيرة - بطرد الحامية الأسبانية التي احتلت المدينة منذ عام ٩٥١م (٣٣٩هـ). ويتحدث الجغرافي المشرقي ابن حوقل عن رحلته خلال هذه الفترة التي نحن بصدد معالجتها - والتي زار فيها مدينة سبته، إلى أنها كانت المدينة الأفريقية الوحيدة التابعة لسلطة الأمويين بالإضافة إلى ميناء صغير مجاور يطلق عليه مرسى موسى[٢١]. هذا المعقل البيزنطي القديم سرعان ماسيقوم بأداء الدور الذي ألقته قرطبة على عاتقه فقد احتمت خلف أسوارها الجيوش التي أرسلها الحكم الثاني عام ٩٧٢م (٣٦١هـ) إلى المغرب لمواجهة أوضاع سوف نعرض لها الآن.

كان الحسن بن كنون واحدا من أبرز أمراء الأدارسة في شمال المغرب وسيد «أرثيلة» Arcila التابعة للبصرة «ولعُش الصقر» «حجر النصر». أشرنا سلفا إلى أنه بعد إعلانه الانضمام للأمويين اضطر بعد الغارة التي قام بها جوهر الصقلي إلى الاعتراف من جديد بسيادة الفاطميين. لكنه بذل ما في وسعه، بعد ذلك، للتحرر من أي وصاية سياسية وحاول مدّ نفوذه في السهول المغربية المسماة بالغرب وكذا في المناطق

الجبلية المتدة شمال وادى اللكّوس Lukkus ومارس سيادته على طنجة وتطوان. وبدا من تصرفاته عزمه على أن يعيد للأدارسة أمجادهم. عندئذ شعرت قرطبة بالقلق تجاه تصرفاته، فتلقى القائد محمد بن القاسم بن طلمس، قائد مجموعات المرتزقة، أوامر بالاتجاه إلى سبته ترافقه القوات النظامية وفى الوقت نفسه يقوم القائد البحرى ابن الرميحس بالابحار بمجموعة من السفن والسير قبالة الشواطئ الأفريقية فى المنطقة المواجهة لجبل طارق. وقد عبّر ابن الرميحس من أسبانيا إلى سبته فى الثانى من أغسطس ٩٧٢م (٨ شوال ٣٦١هـ). وبعد ذلك بأسبوعين وصلت الأنباء إلى الحكم الثانى تفيد باستيلاء هذا القائد على طنجة بينما قام الجيش الذى يقود ابن طملس بتفريق قوات الأدارسة فى الطريق الموصل بين سبته وتطوان واستمر فى تقدمه متوجها نحو شواطئ الأطلنطى. واستمرت الطوابير الأموية تطارد الحسن بن غنوم وتضيقّ الخناق عليه واستولت على غنائم كثيرة. كما استطاع ابن طملس دخول أرثيلا Arcila. وأرسل إلى العاهل الأموى الجزء العلوى من منبر مسجد هذه المدينة والذى كان منقوشا عليه اسم الخليفة الفاطمى. لكن لم يستسلم الحسن بن غنوم ففى الثانى والعشرين من الشهر التالى (ديسمبر) [٢٣ ربيع الأول ٣٦٢هـ) قام بمهاجمة القوات الأسبانية فى منطقة مهران [وهى منطقة لم تعرف معالمها فى فحص Fahs طنجة] واستطاع قتل ألف وخمسمائة وكان من بين القتلى ابن طملس قائد الحملة. وفرّ من بقى على قيد الحياة إلى سبته ومن هناك بعثوا فى طلب النجدة من قرطبة.

وحتى ينتقم الحكم الثانى لهذه الخسارة الفادحة قرر قيام أفضل قادته وهو المولى غالب القائد العام للثغر الأوسط بعبور مضيق جبل طارق. حضر غالب أولا من قرطبة قادما من مدينة سالم وسمع من العاهل قوله «اذهب يا غالب ولا تعد حيا إلا ومعك النصر والا فليس أمامك حجة إلا الموت على أرض المعركة؛ أنفق الذهب بسخاء بين من يؤيدون الأمـــويين. واقض على كل الأدارســـة وأرسل بمن بقى منهم إلى الأندلس». ولم يكد غالب يصل إلى الشاطئ الآخر حتى سارع إلى حصار الحسن بن غنوم الذى أسرع للاحتماء بقلعة حجر النصر. وطال أمد حصار هذا الحصن الطبيعى وازدادت الأمور صعوبة إذ كان الأدريسيّ يتميز بشجاعة الجندية والقسوة فى آن واحد. فكان يقوم بالعديد من محاولات الخروج من الأسوار وكان مصير الجنود الذين يأسرهم من الجيش المحاصر هو الالقاء بهم من أعلى أبراج أسوار القلعة. وبعد مرور فترة قصيرة تلقى غالب أموالا استطاع بها شراء ولاء بعض السادة فى الأقليم وهم

الذين كانوا يدورون بشكل ما فى فلك ابن غنوم. وفى شهر أكتوبر ٩٧٣م (محرم ٣٦٣هـ) أرسل الخليفة بتعزيزات عبارة عن جيش جمع أفراده من الثغر الأعلى وعلى رأسه يحيى بن محمد التوجيبى. ولم يكن بوسع الحسن بن غنوم إلا الاستسلام بعد أن ضاق الخناق عليه. واحتلت بعض القوات الأموية البصرة وأدى هذا الأدريسىّ صلاة الجمعة برفقة غالب فى مسجد حجر النصر يوم ٢٧ مارس ٩٧٤م (٢٩ جمادى الثانية٣٦٢هـ) وأثناء الصلاة دعى للحكم الثانى على المنبر. وبعد ذلك عاد غالب إلى أسبانيا وقد أخذ معه القائد المهزوم ويرفقته أسرته وخاصة منهم من فرع بنى محمد كان وصول الأدراسة المخلوعين إلى قرطبة مثار بهجة كبيرة حيث قام هولاء بالتعبير عن ولائهم الشديد للخليفة فى قصره بمدينة الزهراء. ثم مكثوا فى العاصمة وعوملوا كعلية القوم. أما غالب فقد استقبل استقبال القادة الفاتحين إذ منحه الخليفة أعلى الدرجات العسكرية «ذو السيفين»[٢٢]. وهى درجة تشبه «عصا المارشالية»، وسمح له بالعودة إلى مقر قيادته فى مدينة سالم. بينما أسندت قيادة قوات الاحتلال الأموى فى المغرب إلى يحيى التوجيبى.

ولما أخذت تعتل صحة الحكم بعد ذلك ببضعة شهور تولى جعفر بن عثمان المصحفى ـ عمليا ـ إدارة الشئون العامة. فى هذه الأثناء جاءت له أخبار من الثغر الأعلى بدت له مبررا كافيا لاستدعاء يحيى التوجيبى إلى مقره السابق فى سرقسطة وسحب القوات الأرغونية المتمركزة معه هناك ذلك لأن نفقات إبقاء القوات الأموية فى الجانب الآخر من العدوة كانت تثقل كاهل بيت المال وبدا من المناسب أن يحل محل هذه القوات قوات أخرى جمعها من أبناء المغرب. وقد أعطيت للجنود المشاركين فيها بعض الحقوق، على شاكلة الجند المرابطين على السواحل الجنوبية لأسبانيا. واختارت قرطبة لقيادة هذا الجيش الجديد جعفر بن على بن حمدون ـ القائد الأفريقى ذا الأصل الأندلسى والذى انتقل إلى شبه جزيرة أيبيريا منذ عدة أعوام ـ إلى جانب أخيه يحيى. غادر الاثنان قرطبة فى نهاية عام ٩٧٥م (٣٦٥هـ) وهما محمّلين بالهدايا والأموال وتوجها إلى الأخطبوط المغربى. وحملا أيضا تفويضا يخوّل لهما إقطاعيات شخصية هامة فى تلك النواحى. واستقبل الزناته جعفر ويحيى استقبالا طيبا وزوّداهما بحوالى سته آلاف فارس. واعترف كل من المجراوه **Magracea** بنو عفران **Ifran** ـ يمثل كل طرف منهم رئيسه فهناك الزيرى بن عطيه وأخيه مقاتل ومن الطرف الآخر هناك جادو بن يعلى ـ بابنى على بن حمدون كممثلّين رسميّين للنظام الأندلسى. وبعد ذلك ببضعة

شهور وصل إلى شمال أفريقيا نبأ وفاة الحكم الثانى.

قام الوزير المصحفى، قبل وفاة الحكم الثانى بوقت قصير، باتخاذ ما يجب بشأن الأمراء الأدارسة الذين أتى بهم غالب إلى أسبانيا فقد بدأ الحسن بن غنوم، الى إظهار ولائه الشديد عند وصوله إلى حاضرة الخلافة، فى اتخاذ موقف يتسم بالتحفظ والدهاء، إذْ عَنّ للحكم الثانى ذات مرة أن يأمرة بأن يأتى له بقطعه من العنبر كبيرة الحجم كانت فى حوزته وذلك حتى يستعملها الخليفة. لم يكن أمام ابن غنوم إلا الرضوخ رغم شعوره العميق بالإهانة. وهنا بدا من المستحب إبعاد هذا الضيف سريع الغضب وكذا باقى أفراد عشيرته وفوق هذا كانت تكلفة إقامتهم باهظة فى نظر الوزير المختص بشئون المالية. وانتهى الأمر بأن دعاهم المصحفى - وهذا معناه أمرهم - بأن يهاجروا جميعا إلى المشرق. وانتهى المطاف بالأدريسى وأهله فى المريّة. ومن هناك ركبوا البحر إلى أفريقية ثم سافروا ... بطريق البر إلى مصر، فاستقبلهم الخليفة الفاطمى العزيز استقبالا طيبا. وعد العزيزُ ابنَ غنوم بمساعدته على استعادة عرش أجداده. وكما سنرى لاحقا، نجده يظهر فى المغرب بعد عشر سنوات. إلا أن هذا الظهور استمر لبضعة شهور.

٢-حداثة سنّ الخليفة هشام الثانى وصعود ابن أبى عامر كبير رجال البلاط إلى السلطة (٩٧٦- ٩٨١م)[٢٣].

- ابن أبى عامر وبداية الطريق[٢٤]:

عاشت أسبانيا الأسلامية مرحلة جديدة بعد وفاة الحكم الثانى. فسلطة الخليفة أصبحت على وشك تلقى ضربة غير مسبوقة. فلماّ كان العاهل الجديد حدثا وأضعف من أن يوجّه دفة الحكم بنفسه أو المطالبة بها عندما يصل إلى سن الرشد، تولى إدارة البلاد دكتاتور حقيقى، أو كبير رجال البلاط، العبقرى الذى لا يتورّع عن فعل أى شىء. وهو رجل انتقل به الحال من مجرد موظف صغير اتسم بطموح لا حدود له وإرادة حديدية وحنكة سياسية ملحوظة وقدرة عسكرية لاجدال فى جدارتها. كما كانت له قدرات خاصة على إجهاض الدسائس والمؤامرات. فوصل إلى أعلى قمم الشرف والفخار بسرعة كبيرة. واستطاع فى أعوام قليلة الإطاحة بمنافسيه والقيام بانقلاب

يهيئ له الإدارة الكاملة لدفة الحكم فى الأندلس وبعد ذلك يتسم مسار حياته بالعلّو والفخار فذاع صيته كبطل للاسلام والمسلمين فى شبه الجزيرة الأيبرية. وربما زاد فى هذا عن عبد الرحمن الناصر. كما سجل معاركه وانتصاراته على المسيحيين فى أفضل سجلات النصر والفخار التى حققتها الأمبراطورية الأسبانية - الأموية - وسيطر بيد من حديد على الوضع الداخلى وخاصة على الدهماء وقضى على المزايا العرقية وأذل الأرستقراطية العربية والصقلبية وأعاد تنظيم الجيش حيث أدخل فى صفوفه العديد من الجنود الذين دانوا له بالولاء المطلق. وظل طوال عشرين عاما كأنه العاهل الوحيد فى الأندلس بينما الخليفة حامل اللقب ليس إلا دمية احتلت آخر الصفوف على المسرح السياسى.

هذا الرجل القوى «رجل البلاط» هو أبو أمير محمد بن أبى عامر المغفرى وهو الذى سرعان مايلقبونه بالمنصور (إنه ذلك المنصور الذى يظهر اسمه فى أخبار المؤرخين المسيحيين). إلا أن ما بقى لدينا من روايات تتعلق بهذه الفترة الثرية والمليئة بالمجد والفخار التى تعتبر تتويجا للقرن العاشر الميلادى فى أسبانيا ليس إلا أخبارا موجزة. كما لا تتوفر إلا معلومات ضئيلة ومشكوك فى صحتها عن أخبار حروبه التى خاضها فى شمال شبه جزيره أيبريا. نعرف أيضا أن ابن حيان خصص جزءا كاملا للحديث عن ابن أبى عامر وأبنائه لكن لم يصل إلى أيدينا من هذا الجزء إلا القليل مما نقله عنه ابن بسّام. وبعد ذلك بوقت طويل فعل نفس الشئ كل من ابن الخطيب وابن عذارى. أما بالنسبة لمن قاموا بدراسة إسبانيا المسيحية فيبدو أنهم اتفقوا على الإيجاز الشديد عند الحديث عن أكثر المحاربين قوة ومهابة لكل من ليون وقشتالة ونبرّة ومقاطعة برشلونه وإيجازا للقول فما يتوفر لدينا من وثائق عن أسبانيا الأسلامية زمن المنصور لا يمكن مقارنته ولو من بعيد بالفترة التى تتعلق بالثلثين الأولين من القرن العاشر الميلادى. حقا لقد زاد عدد هذه المصادر بعض الشئ على أيام المؤرخ دوزى إلا أن هناك فقدان توازن واضح فيها إذ نجد التفاصيل الكثيرة عن الظروف التى أدت إلى صعود نجم ابن أبى عامر وسيطرته على السلطة لكن الندرة وعدم الدقة هما حصادنا عندما يتعلق الأمر بالنشاط المكثف الذى قام به ذلك الرجل منذ صعود نجمه وحتى وفاته.

بدأت بوادر صعود نجم ابن أبى عامر فى عهد الحكم الثانى. إذ نراه يصعد درجات سلّم المجد بسرعة غير معهودة آنذاك. بلغ ابن أبى عامر سن الرشد عند تولى الحكم الثانى عرش الخلافة (ولد عام ٩٤٠م– ٣٢٨هـ). وهو من أسرة عربية عريقة

النسب من أصل يمني هو من فرع قبيلة معافير Ma afir وكان حقه المطالبه بالمساواة بنبلاء الأندلس فالفرع الذى ينحدر منه بشكل مباشر كان قد شارك مشاركه فعلية فى غزو شبه الجزيرة الأيبيرية. ويقدم كتاب السيّر صورة هذا المهاجر «عبد المالك» على أنه أحد القلائل من العرب الذين رافقوا طارق ابن زياد وقد برز فى عملية الاستيلاء على كارتيه Carteya عام ٧١١م (٩٢هـ) وذلك قبل اللقاء الحاسم على ضفاف نهر بَرْباط. وأمام ذلك الإقدام تلقى إقطاعية من الأراضى الواقعة فى طُرُش على ضفاف نهر وادى يارة الكائن شمال شرق الجزيرة. وظل أبناء وأحفاد عبد المالك يعيشون على هذه البقعة من الأرض وتلقبوا بعد ذلك ببني عامر كناية عن أبى عامر والتى كان المنصور ينسب إليها أيضا. هؤلاء الأغنياء الذين سكنوا جنوب الأندلس كانوا يميلون منذ أجيالهم الأولى إلى الدرس أكثر من حمل السلاح. فبرز بعضهم فى مناصب القضاة والفقهاء حتى أن بعضهم وصل إلى منصب والى أحد الأقاليم أثناء حكم محمد الأول. أما والد المنصور فهو عبد الله بن أبى عامر الرجل الذى حاز بعض الشهرة في نقل الأحاديث النبوية وأدى فريضة الحج ووافته المنية فى رحلة العودة عند طرابلس البربر فى نهاية حكم عبد الرحمن الناصر. كان الرجل متزوجا من امرأة ذات نسب كريم كان اسمها بريحة ابنه يحيى التميمى الملقب بابن برطل. كانت هذه المرأة أما للمنصور ولشقيقه الثانى يحيى.

ترك محمد منزل الأسرة الكائن فى الجزيرة وهو صغير السن وتوجه إلى قرطبة بهدف الدراسة. وأشرف عليه أعمامه وأخواله. لم يتأخر كثيرا فى إحراز تقدم ملحوظ فى ميدانى الفقه والأدب إذ درس على يد الفقيه أبى بكر بن معاوية القرشى الذى جاء إلى أسبانيا بكتاب «السنن» للنسائى(٢٥) كما درس على يد البغدادى أبى على القالى أحد العلماء الذين حظوا برعاية الحكم الثانى الذى إستقدمه من المشرق(٢٦). وهناك من الأساتذة أيضا أبو بكر ابن القوطية الذى أخذ بيد الطالب الشاب فى إتقان اللغة العربية ومعرفة دروب بلاغتها. تلقى ابن أبى عامر إذن تربية راقية تهيئوه ليكون قاضيا وأديبا. وبعد بضع سنوات أنهى دراسته الأدبية التى مهدت له الطريق إلى الدخول فى عالم الفقهاء وعالم الأدباء إذا ما أراد الارتقاء فى مصاف هاتين المهنتين.

يورد مؤرخو سيرة المنصور بعض الطرائف(٢٧) التى تتعلق به عندما كان فى عاصمة الخلافة. والتى كان مردها رغبته فى التفوق على أقرانه وهزيمة العقبات التى قد تصادفه فى الطريق الذى رسمه لنفسه وحدّد الغاية من ورائه وسعى إليها بكل ما أوتى من قوة العزيمة والألمعية: ذلك الهدف هو بلوغ المركز الأول فى الدولة الأندلسية.

ربما كان هدفا جنونيا إذا كانت العقلية التي وراءه متواضعة لكن الأمر يختلف إذا ما وجدنا أمامنا فتى شابا متوازنا وصلب العزيمة ودقيقا في حساباته. وتعكس كل تلك الصفات وجود شخصية عظيمة وليس هوس أحد المرضى. وبمرور السنوات نجد أن كل خطوات ابن أبي عامر تتركز حول هدفه الرئيسي وأن لا شئ يمكن أن يحول دونه، ولهذا كان يعرف جيدا قيمة إمكانياته والتمييز بوضوح بين من هم مؤيدوه ومن هم معارضوه والقدرة على أن يحسب بدقة ماسيعود عليه من الدسائس التي كانت العملة السائدة بين علية القوم. وفي مرحلة العمر التي يلعب فيها الأقران ويلمعون نجد دكتاتور أسبانيا القادم يجهز خططه ومراحلها المختلفة بدقة، ويرسمها لأمد بعيد وربما أقرها ميكافيللي إذا ما عرضت عليه. كانت الخطوة الأولى مفتعلة: إذ كان عليه أن يدخل نفسه في دائرة الإدارة المركزية حتى ولو كانت الوظيفة صغيرة. وعندما يتم له هذا سوف يعرف كيفية صعود درجات السلم الواحدة تلو الأخرى دون أي توقف وقد أزاح من أمامه كل منافسيه ومعارضيه ومن يعرقلون مسيرته.

كان الحظ حليفه فسرعان ما استجاب لآماله ومحا عنه مررة البداية المتواضعة. إذ كان على ابن أبي عامر أن يرتجل في البداية وأن يكون مكانه موقعا شديد التواضع بالقرب من القصر. فهو يتولى تحرير الصحائف والطلبات وعليه أن يرضى بالراتب البسيط الذي يحصل عليه كاتب عمومي. ثم دخل رويدا رويدا - ربما ليشغل منصب مساعد إدارة التوثيق - في دائرة موظفي قاضي قضاة العاصمة محمد بن سالم. فهل خمّن هذا القاضي - كما قيل - الصفات التي عليها هذا المساعد الشاب والتي جعلته يشعر بالغيرة منه؟ ماحدث هو أن عيّنه القاضي ليكون أحد المساعدين في دائرة الوزير المصحفي - الرجل الأول في الإدارة المدنية - ومنذ هذه اللحظة سارت الشهرة والحظ إلى جوار ابن أبي عامر.

ذكرنا قبل ذلك أن الحكم الثاني ظل فترة طويلة بدون إنجاب، وسعد كثيرا بطفله الأول الذي سماه عبد الرحمن الذي ولد عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) لكن هذا الطفل الأول مات صبيا. وبعد ذلك بثلاثة أعوام رزق بطفل آخر خلفه في الحكم هو هشام. فما كان من والدة الطفلين إلا أن تطلب منه الإسراف في هباته لابنه. ولادارة شئون هذه الثروة وكذا ثروة ولدها - إذ وهب الحكم الثاني الكثير لأم الولد - كان من الضروري البحث عن شخص ذكي ومؤدب ومستقيم ليقوم بهذه المهمة، النِّظارة، ويعرض شئونها على الأميرة الأم. فكان الوضع الطبيعي تعيين أحد الصقالبة لمثل هذه المهام. لكن المصحفي، وقد أخذته المفاجأة بما طلبت منه صبح، عرض عليها عددا من المرشحين ومن بينهم ابن

أبى عامر. فقبلت تعيينه. تلقى ابن أبى عامر تعيينه ناظرا لأموال الأمير عبد الرحمن براتب شهرى قدره خمسة عشر دينارا يوم الثانى والعشرين من فبراير عام ٩٦٧م (التاسع من ربيع الأول ٣٥٦هـ) ولما بلغ السابعة والعشرين من العمر. كان منصبا مؤقتا لمبتدئ وبعد ذلك بسبعة أشهرأضيف إلى أعبائه منصب مدير دار ضرب النقود[٢٨] وهو منصب ممتاز ذو عائد مادى مرتفع. وفى نهاية العام التالى تولى إلى جانب ذلك مسئولية الخزانة والوصىّ على المواريث. وبعد ذلك بقليل عيّن قاضيا لدائرة أشبيلية ولبلة **Niebla**. وفى الحادى عشر من شهر يوليو ٩٧٠م (٤ رمضان ٣٥٩هـ) تولى الإشراف بشكل رسمى على أموال الأمير الشاب هشام ولى العهد، بعد وفاة الأمير عبد الرحمن.

لا يمكن أن نرجع هذا الصعود السريع وتولى العديد من المناصب الهامة والمتنوعة فى وقت واحد إلى القدرات التى يتوفر عليها ابن أبى عامر. ففى رأينا أن صبح «أم الولد» كانت تحميه بقوة وفعالية، وتشير كل الدلائل إلى الشك فى أنه كان عشيقها حتى ولو كان ذلك بعد وفاة الحكم الثانى. اننا نعتمد فى هذا الرأى على بعض التنويهات والتحفظات التى أبداها بعض المؤرخين العرب، إذ وصل الأمر بالبعض منهم إلى الإشارة بأن المجتمع القرطبى شعر بالقلق إزاء إسراف السلطانة الأم فى عطاياها للناظر الشاب، الذى لم يكد يدخل القصر حتى استفاد من كل الفرص المتاحة ليظهر قدراته ومواهبه. ولما كانت هذه الصفات ترافقها الصدف المحضة فقد فتح باب الحريم التابع للخليفة فلم يكن أمام ابن أبى عامر إلا المغامرة بكل شئ رغبة فى إرضاء نزوات نساء القصر بتوزيع الهدايا عليهن والإسراف فى تخصيص الأموال لهن من أجل المصروفات الشخصية. ويصف ابن حيان هذا الأمر بوضوح فبعد الإشارة إلى أن ابن أبى عامر خطرت له فكرة صنع قصر صغير من فضة وتقديمه هدية لصبح الأمر الذى أثار إعجاب أهل قرطبة، يضيف - ابن حيان - على لسان الخليفة الحكم الثانى، بما أفضى به إلى بعض مقربيه ذات يوم متسائلا «عن الصفات التى يتحلى بها هذا الفتى حتى يستحوذ على إهتمام نسائى ويخلب لبهن؟ لا تعجبهن إلا هداياه رغم ما يحيط بهن من كل ما لذ وطاب. ولا يسعدهن إلا ما يأتى هو به، فهل لنا أن نظن أنه ساحر يتقن فنه أو أنه خادم متمرّس؟ إننى أشعر بالقلق على الأموال العامة التى يشرف عليها[٢٩].

كان حكم الخليفة صائبا إذ كان على ابن أبى عامر أن يعتذر بشدة بعد ما تم الإبلاغ عنه من عدم دقة الحسابات ومن الممكن أن يكون الموقف قد كلفه كثيرا لولا أن

أحد أصدقائه، وهو الوزير ابن حضير، قام بسدّ العجز الموجود فى الحسابات فى الوقت المناسب وعندما خرج ابن أبى عامر مرفوع الرأس من هذا المأزق الذى كان يمكن أن يكلفه حريته أو منصبه فى البلاط استرد ثقة العاهل الأموى فيه، ففى عام ٩٧٢م (٣٦١هـ) ترقى إلى قيادة الشرطة المتوسطة ـ وتحول بذلك إلى واحد من كبار رجالات الدولة. فأصبح الطالب البائس شخصية لها مهابتها ومحاطة بالعديد من الأتباع، وأصبحت أملاكه واسعة فأمر بأن يبنى له فى حى الرصافة بيتا منيفا وضع فيه مائدة مفتوحة لكل من أراد. ولم يدخر وسعا فى توسيع دائرة صداقاته وصداقات من يحيطون به كما استمرت علاقته الممتازة برئيس وزراء الخلافة المصحفى.

وسرعان ما أوكلت إليه مهمة خاصة ستجعل منه أحد رجالات الصف الأول وخاصة إتاحة الفرصة للتعامل مع كبار قادة الجيش من ذوى التأثير فى شئون الخلافة وخاصة المولى غالب القائد العام للثغر الأوسط. وقد رأينا أنه عندما تم إرسال غالب لمعاقبة الأمراء الأدارسة تم التفكير فى تعيين شخص إلى جواره يتولى الإشراف العام أو مراقبا ماليا ليشرف على الأرصدة المخصصة لشراء ذمم المتمردين. كانت القيادة العامة الأموية تتمتع بحرية التصرف فى مثل هذه الأرصدة ولا تخضع إلا للإشراف الشكلى من قبل الوزير المصحفى. فتم تعيين ابن أبى عامر للقيام بهذه المهمة الحساسه. فرحل إلى شمال أفريقيا وهو يحمل اللقب الرسمى: قاضى القضاة المشرف على أملاك الخلافة الواقعة فى المغرب الغربى. وقد أدى هذه المهمة بحساسية ودقة. وعنى بتفادى أيه حساسيات قد تحدث بينه وبين القادة، ولم يتوان هؤلاء فى الثناء عليه. واستطاع بذلك أن يوطد علاقته بهم وهى علاقات هامة بالنسبه له. كما هيأت له هذه الرحلة التعرف عن كثب على الموقف السياسى للبلاد، وعقد صداقات مع كبار القادة فى الشمال الأفريقى من هؤلاء الذين يدورون فى الفلك الأموى. وعندما عاد إلى قرطبة ـ كان ذلك قبل وفاة الحكم الثانى ببضعه أشهر ـ تم تعيينه مفتشا عاماً على قوات الهجّامة المتمركزة فى العاصمة ولم يكد يبلغ الأربعين من العمر بعد.

– ولاية الخليفة هشام الثانى :

فاضت روح الحكم الثانى إلى بارئها ليلة أول أكتوبر عام ٩٧٦م (الثالث من صفر عام ٣٦٦هـ) وهو بين أذرع اثنين من المقرّبين من الصقالبة: فايق النظامى وجؤذر، إذ كان الأول منهما يدير صناعة الطراز أما الثانى فهو خبير بالصناعات اليدوية الدقيقة وخبير أيضا بتربية الصقور. كما كانا يتقاسمان فيما بينهما قيادة

الحرس من الصقالبة المرابطين على أبواب القصر. وبدلا من إبلاغ الوزير المصحفى أولا بوفاة الخليفة اتفق كلاهما على أن يتولى السلطة شقيق شاب للحكم الثانى اسمه المغيرة، وتصورا أن العاهل الذى سيساعدنه فى تولى شئون الحكم لن يبعدهما عن مناصبهما وسوف يلتزم بتولية هشام الثانى كوريث للعرش. كان اقتراحا وفكرة لها وجاهتها وقد يجتمع عليها الكثير من الرعية التى لم تكن ترضى بأن يكون مصير البلاد فى يد طفل. إلا أنه كان من الضرورى الحصول على موافقة صاحب المصلحة ألا وهو الوزير المصحفى الرجل الذى أخذ يمارس فعليا سلطات الوصى على العرش أثناء مرض الخليفة فبعثا أيضا فى طلب الوزير من منزله لابلاغه بالقرار الذى اتخذاه واستعدادهما فى الوقت ذاته للتخلى عن الفكرة إذا ما رفض الوزير الموافقة على الخطة فما كان من المصحفى إلا تمثيل كوميديا كاملة الأركان فتصنّع الموافقة على الخطة وعرض عليهما القيام بتولى حراسة مخارج القصر بنفسيهما وبمجرد وصولهما إلى البوابات سارع المصحفى بإبلاغ كبار رجالات الدولة من العرب وكذلك قادة كتائب البربر وهم بنو برزال(٣٠) واتخذ هذا المجلس الذى حضره ابن أبى عامر قرارا باستبعاد مرشح الصقالبة ذلك أن ارتقاء عرش الخلافة يمكن أن يعرض المزايا التى عليها المجتمعون للخطر. وبدلا من ذلك، القيام بتولية الوريث الشرعى للحكم الثانى بشكل فورى، وهو الفتى الصغير الذى طلب منهم الحلف بيمين الولاء له منذ شهور مضت. وحتى يتم القضاء بشكل حاسم على مشروع الصقالبة اقترح المصحفى وجوب التخلّص سريعا من المغيرة باغتياله وأن يكون ابن أبى عامر هو الذى يتولى هذه المهمة الإجرامية.

كان المغيرة واحدا من آخر أبناء الخليفة الناصر وكان عمره آنذاك سبعة وعشرون عاما. كان يعيش فى منزل العاصمة ولا يدرى شيئا عن المصير الذى ينتظره فقام ابن أبى عامر باصطحاب بعض الجنود الذين أحاطوا بمنزل المغيرة، فدخل عليه وأبلغه بوفاة أخيه الحكم الثانى وتولية ابنه هشام الثانى عرش الخلافة. ثم سأله عن نواياه فما كان من الأمير المسكين الذى كانت ترتعد فرائصه إلا الإعلان عن ولائه الكامل لتعيين الخليفة الجديد. فداخل الشك ابن أبى عامر. وعندئذ أرسل إلى المصحفى يطلب العفو عن الأمير البرئ لكن الإجابة كانت بالنفى مما أدى بابن أبى عامر إلى مغادرة الحجرة التى كان فيها المغيرة وترك للجنود الذين كانوا معه مهمة خنق الأمير أمام أعين زوجاته. وبهذا غرقت خطة الصقالبة فى الدماء، وصل الخبر سريعا إلى كل من فايق وجؤذر فأصيبا بالهلع وسارعا بإبلاغ جعفر المصحفى بانضمامهما إلى ما قرره هو وتأييد الخليفة الجديد.

تم تقليد هشام الثاني منصب الخليفة صباح اليوم التالي، في قصر قرطبة ولقب شرفيا بـ «المؤيد بالله». وحضر التنصيب رجال البلاط جميعهم وعلى رأسهم المصحفي الذي كان يحيط به كلا الصقلبيين. وقام ابن أبي عامر بكتابة نص تولية هشام الثاني وتلاه بعد ذلك بصوت مرتفع على الحضور ثم أعقب ذلك بيعة كبار رجالات الدولة في حضور قاضي القضاة ابن سالم. وقد أورد ابن الخطيب أسماء الحضور نقلا عن ابن حيان وهم الفقهاء والعلماء الذين شاركوا في مبايعة الخليفة الثالث. واستمرت تلك البيعة لعدة جلسات ولم تعكر مسارها أية أحداث كما لم يجرؤ أحد على الإفصاح عن إدانته لاغتيال المغيرة رغم أن الأمر لم يكن سرًا على أحد، ولم ينبس أحد ببنت شفه بشأن تولي طفل لم يبلغ الثانية عشرة بعد عرش الخلافة ومن المستحيل عليه إدارة شئون الدولة لسنوات طويلة.

كان التحالف بين ابن أبي عامر والمصحفي كاملا في البداية. إذ أدرك كل واحد منهما حاجته للآخر للكشف عن الدسائس والقضاء عليها، وهي دسائس سيتمخض عنها الموقف الجديد وخاصة من قبل كبار القادة الصقالبة في القصر. بدأ الوصيان السياسيان على هشام الثاني، تساندهما والدة الخليفة صبح التي لقبّت بالسيدة الكبيرة، بالعمل أن تشيع صورة حسنة للخليفة بين الناس في العاصمة. ففي اليوم الثاني من أكتوبر ٩٧٦م (العاشر من صفر ٣٦٦هـ) ظهر الخليفة أمام أهالي قرطبة يحيط به ركب مهيب، وقد لبس الحرير وامتطى صهوة جواد مسرج بعنايه وفخامة وفي اليوم نفسه أذيع على الملأ نبأ إلغاء ضريبة الزيت التي كان يعترض الناس عليها بشدة. كما تمت ترقية المصحفي وتقليده أعلى المراتب فأصبح «الحاجب» كما مُنِحَ ابن أبي عامر منصب وزير وأصبح مساعدا لرئيس الوزراء لتصريف شئون الخلافة.

اتفق كل من المصحفي وابن أبي عامر على استحداث نوع جديد من السياسة تجاه الصقالبة والتي تمثلت أبرز ملامحها في تقييد حركة قادتهم الذين أخذوا يظهرون نوعا من الفتور في التعامل مع الوزراء رغم مؤازرتهم للمشروع السابق الإشارة اليه. كانت هناك العديد من العيون التي أطلعت المصحفي وابن أبي عامر على المشاعر الحقيقة لهم والاتصالات التي يجرونها مع زملائهم من حرس الخلافة وكذا الاتصالات التي تتم بين من هم في داخل القصر ومن هم في المعسكرات المجاورة واستنادا إلى المعلومات المتوفرة صدرت الأوامر ببناء حائط مكان الباب الحديدي وإغلاقه نهائيا إذ كان أحد الأماكن التي تتم الاتصالات من خلالها. كما قام ابن أبي عامر ببث رسله بين الجنود الصقالبة واستطاع أن يجعل الكثير منهم تحت إمرته بفضل ما بذل لهم من

وعود، واستطاع النفاذ إلى صفوف الهجامة من البربر. وشيئا فشيئا أخذ يجمع حوله حرسا خاصا حقيقيا يقوم هو بإعاشته ودفع رواتبه. وكان مؤدى كل هذه الإجراءات هو القضاء بشكل حاسم على قائدى حرس القصر الصقلبيين، إذ قدم جؤذر استقالته، فحاول درّى أحد أتباعه التعبير عن احتجاجه، إلا أن الاتهام الموجه اليه بالتبديد وثبوت ذلك أدى إلى الحكم عليه بالموت. أما بالنسبه لفايق النظامى فقد نفى إلى إحدى جزر البليار ولم يمض عليه وقت طويل حتى وافته المنية. ولم يبق فى القصر من السلافيين إلا من هم قليلو التأثير. وفرح أهالى قرطبة فرحا شديدا للفاجعة التى حلت بالصقالبة الذين ظلوا لوقت طويل يشغلون أهم مراكز العاصمة ويظهر عليهم البذخ المثير ويتعالون على الآخرين لحداثة ما هم فيه من نعمة وشعورا منهم بأنهم ناجون من كل هجوم عليهم.

ورغم هذا النجاح لم يشعر ابن أبى عامر بالراحة الكاملة فإلى جانب المناصب الكثيرة التى يشغلها بصفته الوزير الثانى فى الدولة أراد أن يضيف إليها بعض المناصب العسكرية. ومن الناحية الشكلية لم يكن هناك ما يستدعى شغله أى قيادة عسكرية رغم أنه قد احتك فى المغرب بالكثير من القادة وخطا بضع خطوات فى هذا الميدان. كان الوزير يدرك حسن طالعه ومع ذلك لن يصل إلى غايته الكبرى إلا من خلال نصر مؤزر على المسيحيين. فكان أن عقد العزم على إنتهاز أى فرصة تسنح له للجهاد ضد الكفاّر.

لم يمرّ موت الحكم الثانى واعتلاء ابنه الطفل الصغير عرش الخلافة مرّ الكرام على أسبانيا المسيحية ففى العام السابق أوقف كل من القائد غالب وحاكم سرقسطة يحيى التوجيبى المناوشات العدوانية لمالك ليون وقشتالة والبشكنس. أما بالنسبة لمدينة يزيد والثغر الأعلى نلاحظ أن الحدود الخاصة بالدولة الأسلامية لاتوجد بها نقطة ضعف واحدة. ومع هذا كانت تقع حوادث مماثلة لتلك التى تقع على الحدود الشمالية الغربية وخاصة فى المنطقة الواقعة بين نهر التاجه ونهر الدويرة. فبعد موت الحكم الثانى بوقت قصير قام بعض السادة من الجليقيين بالاعتداء على الأملاك الإسلامية والقيام بغارات جريئة تجاه منطقة جبال الشارات **Sierra Morena**. أثار هذا النشاط العسكرى القلق فى قرطبة وخاصة لدى الأميرة صبح التى تخشى على عرش ابنها. فهدأً ابن أبى عامر من روعها ووعدها بأن يستعيد هيبة الخلافة على الثغور شريطة إمداده بالوسائل الضرورية لهذا الغرض. ورغم أن المصحفى كان من أنصار المسالمة والتروّى فإنه رضخ فى النهاية إلى طلب عقد مجلس الحرب(٣٢). واتخذت قرارات منها

إعداد حملة يتولى قيادتها ذلك الذى تحميه صبح أو من هو عشيقها ولمّا كانت خزائن الدولة قد فتحت أمامه أبوابها استطاع أن يعد حملته إعداد جيدا وأن يختار أفضل الجنود وأفضل العتاد وأن يجزيهم مسبقا بالرواتب والمنح. وفي نهاية فبراير عام ٩٧٧م (بداية شهر رجب ٣٦٦هـ) اتجهت الحملة إلى الشمال الغربى فعبرت أولا نهر وادى يانه ثم نهر التاجه ثانيا وقامت بحصار حصن «الحمام» الواقع اليوم داخل محافظة شلمنقة وبالتحديد جنوب بلدة بخار Béjer على الحدود الفاصلة بين ليون وإكستريما دوراExtremadura فى السفح الغربى لجبال جريدوس Gredos(٣٣). تولى ابن أبى عامر تدمير هذا الموقع المتقدّم الذى كان قد تم إعماره أثناء خلافة الناصر، وقام بهذا العمل الملك راميرو Ramiro ملك أشتوريش وليون بعد انتصاره فى موقعه سيمانقةSimancas وحاز غنائم كثيرة بما فى ذلك الأسرى وعاد محملا بها إلى قرطبة بعد ثلاثة وخمسين يوما.

لم تكن هذه الحملة ذات نتائج قوية لذلك القائد المرتجل رغم أنها بدت له كافية. إذ هيأت له ما يريد فزادت شعبيته فى قرطبة لكن أهم النتائج تمثلت فى الاحتكاك المباشر مع الجيش واستطاع بفضل لباقته وحنكته أن يجنى تعاطف القادة معه. لم يكن هناك شئ يقف أمامه إلا المصحفى. إذن كانت لديه أولويات منها إزاحة المصحفى من طريقه، ولم يتردد الوزير الطموح فى القضاء على الشخص الذى كان له أكبر الأثر فى صعود نجمه بسرعة.

– ابن أبى عامر الطريق إلى الدكتاتورية ـ بناء المدينة الزاهرة :

كان من السهل السيطرة على المصحفى فكما رأينا قبل ذلك هو رجل تعود جذور نسبه إلى أصل مجهول كما أن جزءا كبيرا مما هو عليه يرجع الفضل فيه إلى أنه كان محط ثقة الحكم الثانى، وبموته فقد المصحفى أهم سند له. وأصبح محط عداوات رجال القصر الذين لم يغفروا لهذا البربرى بعض المواقف، وكذا إفادته من موت سيده وارتقائه إلى درجة حاجب التي كانت أعلى درجة فى السلم الوظيفى فى عهد الخلافة. كما كانوا يتهمونه بأنه جعل بعض أقربائه يشغلون بعض المناصب الهامة وذات النفع المادى الممتاز فقد تحوّل كل من محمد وعثمان وعبد الرحمن ـ أبناؤه ـ وكذا ابن أخته هشام وأخَوَاه سعيد ومحمد إلى كبار الموظفين مع مجيىء هشام الثانى إلى كرّسى الخلافة. وإذا ما اعترف الجميع بسبقه فى الأدب واللغه إلا أنه كان خلوا من الصفات التى تؤهله ليكون سياسيا من الطراز الأول. كان غالب أحد الذين لا يخفون

احتقارهم للمصحفي. وكان هذا القائد يتمتع بحرية الحركة وله سلطة مطلقة على قوات الثغور كما كان هذا المولى ينظر بعين الغضب ليرى كيف أن سلطة الخلافه قد انتقلت بالفعل إلى يد هذا الوصولي المتواضع الشأن. ولهذا كان يشعر بسعادة بإثارة القلاقل ضده لدرجة أنه قلل عمدا الرقابة على الثغور وهو في مقره بمدينة يزيد. كما أوقف المسيحيين عند حدودهم المتاخمة لحدود الدولة الإسلامية في الأندلس. وأدرك المصحفي الخطر وأراد أن يفوز برضى قائد القوات قبل أن يقوم هذا الأخير ـ كما هو من المتوقع ـ بالتمرّد على النظام بشكل علني. ونظرا لما يتمتع به ابن أبي عامر من مهارة وحسن تدبير أراد الإفادة من هذا الوضع باقترابه من غالب لتكون إزاحته للمصحفي أكثر سهولة ويسرا، لكنه أخفى خطته للحظة الأخيرة. ولهذا استثار اتجاها في داخل القصر يؤيد المولى الأموي نظرا للخدمات الجليلة التي قدمها لأسرة الخلافة، وسرعان ما حصل على النتائج المرجوّة إذ فاز غالب بلقب «ذو الوزارتين» من خلال مرسوم صدر عن الخليفة، وتم إبلاغ القائد بتزويده بالكثير من قوات العاصمة «جيش الحضرة» والتي ستخضع لإشراف ابن أبي عامر.

في ظل هذه الظروف شارك ابن أبي عامر في الصوائف لعام ٩٧٧م (٣٦٦هـ) والتي كان هدفها قلعة تسمى موله **Mola**، وهي قلعة لم نستطع تحديد مكانها حتى الآن. واجتمع ابن أبي عامر مع غالب في مجريط **Madrid** وحرص على ألا يقوم بأية مبادأة عسكرية مكتفيا بما قام به القائد العجوز. كنت الحملة ناجحة إذ تم الاستيلاء على القلعه وأسر عدد كبير والاستيلاء على الكثير من الغنائم. وأخذ كل من ابن أبي عامر وغالب يثني على الآخر جهوده في هذه الحملة. فوصلت إلى قرطبة رساله بعث بها قائد مدينة يزيد أسهمت في فوز ابن أبي عامر بالمجد والفخار كما تم منحه لقب «صاحب المدينة» وبدأ في ممارسة عمله في غيبة من كان يشغل ذلك المنصب قبله وهو محمد أحد أبناء المصحفي.

الحزم كان واحدا من أسلحة ابن أبي عامر في هذه الوظيفة الجديده الأمر الى أدى إلى زيادة شعبيته بين أهالي قرطبة الذين كانوا يشكون من ضعف الأمن فيها فقد تعددت حوادث الاعتداءات والسرقات الليلية، أعاد الحاكم الجديد الأمن إلى ربوع المدينة بنفس الصرامة المعهودة فيه. وإذا ما اتفقنا في الرأى مع الرواية التي أوجزناها لأحد المؤرخين(٣٤) فإن ابن أبي عامر لم يتردد في قتل ابنه ضربا بالسياط إذ كانت تربطه علاقة ما ببعض الخارجين على النظام. ولاتبدو لنا هذه المعلومات صحيحة أو على الأقل لم يشأ المؤرخ الإفصاح عن طبيعة هذه الشخصية.

أدى طرد محمد المصحفى من منصبه لصالح ابن أبى عامر إلى يقظة المصحفى نفسه الذى أخذ يرى فى مساعده القديم عدوا يخشى جانبه خاصة وأنه يحظى بمساندة نساء القصر. كما أن جذوره الأسرية عربية. ولم يبق لدى المصحفى من مؤيد يمكن أن يشد عضده فى وضعه هذا إلا القائد غالب. وحتى يستطيع ذلك أرسل خطابا يثنى عليه ويطلب منه زواج أحد أبنائه من ابنته أسماء، آملا أن تكون هذه الخطوة وسيلة لدعم موقفه والقضاء على جذور الدسائس التى شعر بأنها أخذت تحاك ضده. لكن لم يكن يدرى أن منافسه قد وجّه إليه ضربه قوية: فعندما أوشك عقد الزواج على السير فى الخطوات النهائية، أقنع ابن أبى عامر غالب بسحب كلمته وتزويج ابنته له هو وبعد بشهور (بداية عام ٩٧٨م– ٣٦٧هـ) تم زفاف العروس فى حفل بهيج فى العاصمة قرطبه وتولت نساء القصر وضع اللمسات الخاصة بالزفاف كما أن صبح لم تعارضه. واختير موعد الزفاف ليتوافق مع أعياد العام الجديد. وأصبحت أسماء منذ تلك اللحظة المرأة الأكثر تدليلا تحيط بها هالات الفخار بين كل نساء ابن أبى عامر[٣٥].

خلال هذه الفترة قام ابن أبى عامر ومعه غالب بحملة ناجحة[٣٦] كانت السبب فى منح ابن أبى عامر لقب «ذو الوزارتين» وهو لقب لم يكن يحمله إلا قائد حرس الحدود حتى الآن. كما أن صبح اقترحت حصول ابن أبى عامر على نفس الراتب الذى كان يحصل عليه الحاجب المصحفى الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من السقوط الذى تم يوم ٢٩ مارس ٩٧٨م (١٣ شعبان ٣٦٧هـ) إذ قبض عليه هو وأبناؤه وابن أخته كما تمت مصادرة أموال الأبناء وابنى الأخت والحكم عليهم بسداد غرامات كبيرة لعدم توضيح كشوف الحسابات فى المناصب التى يتولون إدارتها. وانتقلت كل المزايا التى كان يحصل عليها الحاجب وكذا لقبه إلى ابن أبى عامر.

أكدّ جعفر المصحفى مرة أخرى أنه ضعيف الشخصية إذ استطاع من كان يحظى بحمايته سابقا أن يقضى عليه ويلطخ شرفه ويحرمه من الحرية، وبدلا من اتخاذ موقف يحافظ فيه على ما بقى من كبريائه فضل إذلال نفسه طالبا ممن خلفه فى المنصب أن يتولى مهمة «مؤدب» ابنيه عبد الله وعبد الملك. وطال به الوقت ومرت السنون ـ خمس سنوات ـ فى انتظار أن تكون وفاته طبيعيه. لكن لم يكن هناك مخرج إلا خنقه فى السجن أو دسّ السم له عام ٩٨٣م (٣٧٢هـ).

وبعد السقوط المدوّى لجعفر المصحفى بعام أى عام ٩٧٩م (٣٦٨هـ) وقعت مؤامرة كانت على وشك الإطاحة بالخليفة الصغير الحكم الثانى وتولية حفيد صغير من أحفاد عبد الرحمن الناصر، يدعى عبد الرحمن بن عبيد الله. وكان من بين المشاركين

فى المؤامرة بعض الذى يتبعون ويؤيدون الوزير السابق ـ المصحفى ـ ومنهم كذلك القائد الصقلبى جؤذر وزياد بن أفلح صاحب المدينة الجديد وعبد الملك صاحب الردّ، وهو ابن قاضى الناصر الشهير/ ابن سعيد البلوطى، والذى اتهم هو وإخوته بالأنضمام إلى جماعة المعتزلة. كما نجد من المشاركين فى هذه المؤامرة الشاعر يوسف ابن هارون الرمادى. لكن فشلت محاولة اغتيال هشام الثانى داخل القصر. وحتى ينجو زياد بن أفلح ويقدّم اعتذاره قام بوضع جميع المتآمرين فى السجن، وحكم بالموت على المرشح للخلافة وعلى شريكه الرئيس جؤذر. بالنسبه لعبد المالك بن فندر فقد صلب عند باب السدة يوم الثامن عشر من يناير عام ٩٧٩م (منتصف جمادى الثانية ٣٦٨هـ)[٣٨]. لم يكن مردّ هذا الحكم الصارم الذى صدر عن ابن أبى عامر، أسباب تتعلق بمصالح الدولة؛ فقد أراد أن يقدم كبش فداء من المعتزله ليحظى برضى فقهاء قرطبة الذين ساروا فى الدائرة الضيقة للمالكية التقليدية. وكانوا يعارضون أى تطوير للنظام القضائى. كما أن عامة قرطبة كانوا يتصورن ـ عن حق أم لا ـ أن إيمان سيد أسبانيا الإسلامية الجديد مشكوك فى صحته. كان من الضرورى أن يثبت عكس هذا فتظاهر بالتقوى والورع ـ ليس لدرجة كبيرة ـ فقام بنسخ القرآن الكريم بخط يده وخصص النسخة التى كتبها ليحملها معه فى غزواته. وأمر فى الوقت نفسه بحملة تطهير واسعة النطاق لمكتبة الحكم الثانى المعاصرة وأمر، بالاحراق أو الألقاء فى الآبار، بكل الكتب التى كانت تتناول موضوعات غير مشروعة أو مقبوله فى نظر العامة. وسوف نعود لمعالجة هذه النقطة. وعموما نلاحظ أن المؤامرة التى كانت تبحث عن مشروعيتها أخمدت فى الوقت المناسب كماأن العاصمة سيطر عليها جو عام من التزمت. كل ذلك يشير إلى وجود حزب معارض يجب تحييد نشاطه بسرعه. ومن هنا نعتقد أن ابن أبى عامر لم يتردد لحظة فى الضرب بيد من حديد إذا ما تطلبت بعض المواقف ذلك. إلا أن كل الدلائل والبراهين التى تتوفر أمام رئيس الوزراء تشير إلى أن الأهالى يتحدثون ويتهامسون فيما بينهم عن فضائح القصر ومنها السلوك غير السوّى للأميرة صبح والقول بأنها كانت حاملا من ابن أبى عامر، والعادات غير الطبيعية التى عليها قاضى القضاة محمد بن السالم الذى ظل فى منصبه رغم عدم استطاعته الوفاء بالمهام الموكلة إليه[٣٩].

بدأ الحاجب الاهتمام بالخليفة الصغير الذى لن يصل إلى سن الرشد إلا بعد بضع سنوات. إنه هذا الطفل الأشقر ذو العينين الزرقاوين اللتين لم تخلوا من الألمعية. فقد أثنى معلمه الزبيدى على قدراته واستعداده للدرس[٤٠]. وربمًا أمكن تطوير وتنمية هذه القدرات بمرور الأعوام لكن فى مناخ أفضل من مناخ القصر القرطبى. لكن هذا

الملك الصغير الذى ينظر إليه على أنه القدوه كان يعيش فى جو بعيد عن متاعب الحياة وملئ بكل ألوان الترف والملذات الحسية والجسدية والكثير من الحريم، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرته الجنسية فيما بعد. وهى نقطة أشار إليها المؤرخون جميعا. لم يفعل ابن أبى عامر شيئا لإيقاف هذا الاتجاه الذى كان عليه العاهل ولم يأل جهدا فى تشجيعه. لكن والدة الطفل أدركت هذا الخطر وهيهات فقد فات الأوان. ومنذ هذه اللحظة فترت علاقتها بمن كان عشيقها قبل ذلك وتحول الحب شيئا فشيئا إلى كراهية شديدة. إلا أن رئيس الوزراء كان حريصا على إخفاء لعبته وأبدى الاحترام الظاهرى للسلطة المطلقة للخليفة. كانت الإدارة العليا لشئون الأندلس تتم داخل القصر لكن سرعان ما أعلن الوزير ذو السطوة المطلقة اتخاذ إجراء فيه جرأة غير معهودة، لم يستطع أحد معارضته فيه ألا وهو نقل مقر الإدارة خارج القصر والذهاب بها إلى مكان جديد خارج قرطبة حيث يقوم الحاجب بممارسة سلطته بشكل مطلق ويتحررّ من تقديم فروض الولاء والطاعة للخليفة الأسمى للبلاد كل يوم.

كان ابن أبى عامر قد ترك منزله فى الرصافة منذ عدة شهور ليذهب للإقامه فى «منية» أكبر أمر ببنائها بالقرب من مدينة الزهراء وأطلق عليها «العامرية»(٤١). ثم كانت هناك حاجة إلى بناء مقرّ إدارى أطلق عليه «المدينة الزاهرة» على غرار اسم مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر(٤٢).

بدأ العمل فى هذه المدينة عام ٩٧٩م (٣٦٨هـ) وانتهى بعد ذلك بعامين. واختار لهذه المدينة مكانا يعرف القرطبيون عنه نبوءة تقول بأنه سوف يكون المقر الجديد للأسرة المالكة فى الأندلس: المكان عبارة عن منطقة وعرة بعض الشئ واقعة على أحد منحنيات نهر الوادى الكبير جنوب قرطبة ويطلق عليه منزل ابن بدر. كان الحكم الثانى قد عرف المكان قبل وفاته بسنوات قليلة وذلك من خلال الحسابات المتعلقة بالعرافة والتنبؤ بالمستقبل وهى هواية كان عليها الكثير من أمراء هذه الأسرة الأموية. وهذا هو ما يرويه لنا ابن حيان حين يقول بأن لا شئ يوقف مشيئة القدر(٤٣).

واليوم من الصعوبة بمكان تحديد مكان هذه المدينة «الزاهرة. حيث لم تستمر إلا القليل من الزمن فلم تعش أكثر من ثلاثين عاما وبعد ذلك تعرضت للسلب والنهب والدمار ولم يبق من أثرها شئ ويصرّ الدراسون على أن «العامرية» تقع غرب قرطبة وليس شرقها رغم أن بعض المعطيات التاريخية تؤكد هذا الموقع الأخير. وعلى كل حال لسنا ندرى شيئا عن بنائها إلا من خلال الروايات غير المحددة التى وردت إلينا على لسان بعض المؤرخين العرب. إذ تم تمهيد الأرض وبناء مقر قوى كأنه الحصن. وأمر ابن أبى عامر أن ينشأ داخله قصرا منيفا ومنازل فسيحة الأرجاء لأبنائه وكبار رجالات الدولة التابعين له. وكانت هناك مقارّ للمكاتب الإدارية ومعسكرات للفرسان الذين

يقومون بحراسة الحاجب بالإضافة إلى مخازن كبيرة لتشوين الغلال والأسلحة. ويقصّ علينا المولى الفتح بن خاقان قائلا «وسرعان ما خرجت هذه المدينة عن حدودها العمرانية المرسومة لها فتم بناء أسواق وتدفقت عليها رؤوس الأموال والناس للاقامة فيها أو حولها ليكونوا بالقرب من مراكز السلطة وتمثل هذا التبارى فى المبانى فى أنها شغلت المسافة الفاصلة بين «المدينة الزاهرة» والعاصمة قرطبة(٤٤).

كان انتقال ابن أبى عامر إلى المدينة الزاهرة عام ٩٨١م (٣٧٠هـ) بمثابة عهد جديد فى حياته وكذلك بداية «الوحشة» بين هشام الثانى ورئيس وزرائه. ومنذ هذه اللحظة تولى الحاجب الإدارة المطلقة لشئون الدولة وإعداد الميزانية على هواه ومركزية موارد الدولة وتنظيم النفقات والصوائف دون أن يلتزم بالانصياع للموافقة الشكلية للعاهل الشاب. وهكذا نجد أنه يسلب اللقب من العاهل ويستولى عليه ولكن لم تبق إلا خطوة واحدة لم يقدم أبدا على اتخاذها، رغم شدة ثقته بنفسه، إلا بعد وفاة الخليفة. هنا ندرك علوّ مهارته وحنكته السياسية وربما كان هذا سرّ نجاحه واستمراره.

٣- المنصور رئيس الدولة الأندلسية وبطل الجهاد ضد أسبانيا المسيحية (٩٨١ - ١٠٠٢م).

- «ملك» محمد ابن أبى عامر :

عشرون عاما هى الفترة الحقيقة لملك محمد بن أبى عامر، وقد قام أثناءها ذلك الدكتاتور بحرب، لاهوادة فيها ضد الأراضى المسيحية فى شبه الجزيرة الأيبيرية. كان فيها الأكثر إقداما وجسارة وحالفه الحظ فى هذا الجهاد. وكما سبقت الإشارة لا يمكن أن نستعيد بدقة شديدة تلك الأحداث، إلا أنه اعتمادا على مالدينا من القليل يمكن القيام بعمل رسم كروكى بدلا من رسم صورة كاملة ودقيقة: وهنا لابد أن نذكر بالعرفان مرة أخرى جهود دوزى حيث استطاع إعادة بناء الصورة اعتمادا على المعلومات الضيئلة المتناثرة فى الأخبار الأسلامية وخاصة الصورة المتعلقة بالعلاقات القائمة بين أسبانيا المسيحية والأندلس فى نهاية القرن العاشر الميلادى. وقد حظيت رؤية دوزى بالثناء من قبل المؤرخين والدارسين ولم يطرأ عليها تغيير جوهرى بعد.

واعتبارا من عام ٩٨١م لوحظ أن النشاط السياسى الداخلى لكبير الياوران فى القصر أخذ يقل شيئا فشيئا بينما يتزايد نشاطه شمال شبة الجزيرة وفى المحمية

الأندلسية الكائنة في منطقة البربر الغربية. أما بالنسبة للوضع الداخلي فقد عرفت الأندلس أمانا ربما كان أكبر درجة مما عرفته في منتصف القرن أخذت شئون المملكة تزدهر من خلال إدارة قوية وحاسمة لكنها عادلة أيضا وأخذت خزائنها تمتلئ بالأموال. وازداد النشاط الاقتصادي وكثرت الثروات في المدن والقرى وانخفض سعر الرقيق من المسيحيين لدرجة لم يسبق لها مثيل فقد جلبهم القائد المنتصر إلى قرطبة بالآلاف في كل حملة يقوم بها(٤٥).

لم يكد ابن أبي عامر يستقر به المقام في المدينة الزاهرة حتى اتخذ التدابير اللازمة للقضاء نهائيا على أي تأثير للخليفة الصغير، فقد بدأ بالإعلان على الناس أجمعين عن أن نشاط هشام الثاني يقتصر على أعمال البرّ، وتوكيل ابن أبي عامر إدارة شئون الدولة. كما عني باتخاذ الإجراءات للمزيد من عزلة الخليفة. فلم يتخذ أي قرار سياسي سواء في قصر قرطبة أو في مدينة الزهراء. وبذلك ابتعد الزائرون عن كلتا المدينتين. وبناء على أوامر السيد القائم بدور الحاكم تم بناء سور يحيط بالقصر بالإضافة إلى وجود خندقين حول السور أحدهما داخلي والآخر خارجي. كما تلقت الشرطة تعليمات محددة لعدم السماح لأحد بالدخول إلى الخليفة أو الحريم إلا بناء على تصريح. ومما لا شك فيه أن همهمة أهالي قرطبة قد قلت، فهم يعرفون أن الوسيلة الوحيدة لهذا هي الصرامة وتأكد لهم أن مدينتهم لم تحظ قبل ذلك بهذه الدرجة من الأمن وأنها تدار بشرف ونزاهة.

ومع هذا كان هناك أحد أتباع البيت الأموي الذي رأى أن ابن أبي عامر قد تجاوز الحد: إنه القائد غالب والي مدينة زيد الذي قارب الثمانين من العمر. ورغم أنه زوج ابنته للسيد الجديد للأندلس فإنه ظل يعبّر عن تأثره الشديد بالإهانة التي تعرضت لها الأسرة الأموية والتي كان يشعر نحوها بأنه يدين لها بكل ما يملك. تزداد الأمور عسرا عندما تدب المتاعب بين غالب وابن أبي عامر خاصة إذا ما ظهرت للنور. لكن «كبير الياوران» اتخذ حيطته، فمن أجل الوقوف في مواجهة قائد قوات الثغور طلب - على عجل - مقدم جعفر بن علي بن حمدون وعودته من شمال أفريقيا، ذلك المكان الذي كان يحظى فيه بسطوته العسكرية. وقد رافقته في رحلة العودة إلى قرطبة قوات كثيرة من البربر. استقبلت هذه القوات بالترحاب، وتم تسليمها الجياد الأصيلة وأصبح قادتها من أشد الناس ولاء للعامري الذي وضع خطة كاملة لاعادة تنظيم الجيش الأموي والتي تجعل من البربر والفرق المكونة من المرتزقة المسيحيين بمثابة النواة الرئيسية للقوات بينما تتحول الكتائب العربية إلى قوات مطعمة بوحدات مختلطة دون أي اعتبار للأصول القبلية. وهذا هو خرق واضح للوائح الجندية.

تلاحقت الأحداث فى العام نفسه الذى استقر خلاله المقام بابن أبى عامر فى المدينة الزاهرة، ولم تمض عدة شهور حتى استطاع الدكتاتور أن يقضى على القائد العجوز أحد أتباع الأمويين. وتشير أغلب الروايات العربية المتوفرة لدينا إلى الموقف الذى اتخذه غالب وإلى واقعة ـ يشك فى صحتها ـ تتسم بالجمع بين المأساوية والكوميدية وهى: أنه عندما التقى كلا المتنافسين وجها لوجه فى أحد أبراج أحد الحصون الواقعة على الحدود أخذا يؤنبان بعضهما ويعد أن وجه غالب للحاجب نقدا لاذعا بسبب اغتصاب هذا الأخير السلطة من الأمويين، استل سيفه ووجهه إليه ليجرحه فتملك الرعب ابن أبى عامر ولم يكن أمامه مفر إلا بالقاء نفسه فى هوة نجا منها بمعجزة إذ اصطدم جسمه بحجر بارز قبل الوصول إلى قرار الهوة. ويروى لنا ابن الطيب هذه الطرفة ولكن بطريقة قابلة للتصديق(٤٦): توجه ابن أبى عامر إلى قلعة «أنْتيسة» Atienza الواقعة شمال غرب مدينة سالم بأربعين كيلو مترا تلبية لدعوة من غالب وذلك لحضور حفل أسرى، وأثناء الحفل وجه إليه غالب نقدا لاذعا وضربه بحسامه ضربة قوية على يده. فما كان من الحاجب إلا الفرار بعد أن سقط من على حصانه. ومنذ هذه اللحظة بدأت بينهما حرب لا هوادة فيها فاحتل الدكتاتور مدينة سالم واستولى على ثروة منافسة وقام بتوزيعها بين أفراد قواته. أما غالب فقد طلب العون من كونت قشتاله ومن ملك بنبلونه؛ ويبدو أن اللقاء الأول بين غالب وصهره كان لصالح الأول لكن ابن أبى عامر الذى اعتاد على المقامرة بكل شئ أعاد الكرة من جديد حتى تكون فاصلة ويقضى بها على صهره نهائياً.

ورحل بعد ذلك يرافقه كل من جعفر بن على بن حمدون القائد الأفريقى وكذا القائد الأرغونى أبو الأحواس معن بن عبد العزيز التوجيبى(٤٧)، وحسن بن أحمد بن عبد الودود القائد الذى أظهر مهارة كبيرة. وقد اتجه ابن أبى عامر ومن يرافقونه إلى أنْتيسة Atienza ثم أقام معسكره أمام القلعة المجاورة المسماة بقلعة سان بيثن (شنت بجنت) San Vicent. كان ذلك يوم ٩٨١/٧/٨م ٢٠ محرّم ٣٧١هـ)(٤٨). اتخذ جيشه وضع القتال: ففى قلب الجيش كانت الميليشيا المسيحية (الغلمان) وأفضل عناصر القوات القرطبية «جيش الحضرة» أما الميمنة فقد تولى قيادتها جعفر بن الأندلس ومعه جنوده من البربر، وكانت الميسرة تضم قوات الثغر الأعلى ويقودها معن التوجيبى وابن عبد الودود. أما غالب فكانت معه قواته التى ظلت على ولائها له تدعمها بعض القوات القشتالية التى جاء بها الكونت غارسية فرنانديث Garci Fernandez بنفسه وكذا بعض قوات البشكنس تحت قيادة راميرو ابن سانشو غارثيس الثانى. وقعت المعركة فى اليوم التالى أى العاشر من يوليو (الرابع من المحرّم)، وكعهدنا بغالب دائما نجد أنه استخدم

كل ما لديه من قوة وأظهر جرأة واضحة معهودة وإقداما لا يصدق. كان قد ارتدى بزّة من الشبك الواقى ووضع على رأسه خوذة مذهبّة يحيط بها شريط أحمر وأخذ يصول ويجول فى ميدان المعركة ليحمسّ جنوده غير أنه سرعان ما تنبه إلى أنه لا يمكن القضاء على عدوّه «الأحدب الملعون»(٤٩) الذى ولد ومعه طالع السعد. إذكبا جواد غالب عندما قام بهجوم غاضب وأدى ذلك إلى أن انشق صدره بواسطة مسند سرجه. وعندئذ قطع أعداؤه يده وبها أحد الخواتم ثم رأسه وذهبوا بكل ذلك إلى ابن أبى عامر الذى حاول التعبير عن شكره بكل ما أوتى من وسيلة(٥٠). تفرق شمل المسيحيين وهربوا من ميدان المعركة فرادى وجماعات بعد أن قتل منهم الكثير وكان أمير بنبلونه من بين القتلى لكن غارثى فرنانديث كان أوفر حظا فقد نجا من الموت. رغم أن القائد القرطبى سلب كل ممتلكاته قبل العودة إلى العاصمة.

أدت النهاية المأساوية لغالب الشجاع إلى إزاحة آخر وأهم العقبات فى طريق ديكتاتور قرطبة وأخذ يحقق طموحاته التى لا تقف عند حد. فبعد ذلك بعدة شهور رأى أن اللقب الأعلى وهو «الحاجب» ليس كافيا وأن عليه أن يحيط نفسه بهالة من البرتوكول كأنه العاهل الحقيقى، ففكّر فى لقب شرفى أطلقه على نفسه اعتبارا من تلك اللحظة ألا وهو «المنصور بالله» وهذا ماجعله مشهورا بين الناس(٥١) حيث كان اسمه هذا يذكر بعد اسم الخليفة هشام الثانى المؤيد عند الدعاء للخليفة على المنابر فى جميع مساجد الأندلس. وأمر أن تخضع اللقاءات والمقابلات لقواعد ومراسم صارمة، إن من يحظى بشرف استقباله عليه أن يقبّل يده ويناديه بـ «مَوْلاى» ولم يرفض المنصور درجته «كحاجب» فى هذه اللحظة بل كان بعد ذلك حيث أعطيت الدرجة لابنه عبد الملك عام ٩٩١م (٣٨١هـ)(٥٢). وفى عام ٩٩٦م (٣٨٦هـ) ضم إلى ألقابه اثنين آخرين هما «السيدّ» و«مالك كريم».

اتخذ المنصور العديد من القرارات السياسية الهامة رغم انشغاله الدائم بالجهاد ضد المسيحيين الأسبان ومشاركته شخصيا عمليات الجهاد. لكننا لا نعرف شيئا عن هذه القرارات السياسية ما عدا الخاصة بالإصلاح العسكرى الذى جرى عام ٩٩١م (٣٨١هـ) وهو موضوع سنتناوله بالتفصيل فيما بعد. ولم يهمل الديكتاتور العناية بصورته بين الناس وخاصة فى دوائر الفقهاء القرطبيين حيث أظهر التقوى، وقام بتوسعة الجامع الكبير مرة أخرى عام ٩٨٨م (٣٧٧هـ) وفى العام التالى قام بإصلاح الجسر الذى يمر فوق نهر الوادى الكبير.

وفى عام ٩٩٦م (٣٨٦هـ) جرت محاولة غير جريئة من قبل الخليفة الرّسمى لاستعادة سلطانه وكان ذلك تلبية لطلب والدته صبح التى تحولت من عاشقة سابقة إلى

عدوة تجاهر بعدائها إذن لم تلق تلك المرأة السلاح بعد فقد بلغ ابنها سن الرشد منذ فترة وأوشك أن يصل إلى الثلاثين. وعلى هذا فإن الوصاية التى مارسها المنصور قبل ذلك أصبحت الآن غير شرعية الاستمرار. أشاع رسل صبح الذين كان يقودهم أخوها الفتى رائق أنباء تقول بوشوك حدوث انقلاب من أجل استعادة السلطة الفعلية لوريث الخلفاء الشرعيين للأندلس فأبلغت الشرطة السرية المنصور بالشائعات التى تدور، كما أبلغ أن صبح حاولت أن تخرج من القصر مبالغ مالية كبيرة حتى تدفع لمن يقومون بالدعاية لها وتفوز بتأييد بعض من يشغلون المناصب الهامة. فما كان منه إلا أن أصدر قرارا بعدم أحقيتها فيما تفعل، وذلك من خلال مجلس حكم عقد فورا وتم إعادة الذهب إلى خزانه الدولة(٥٣). وفى محاولة لتهدئة النفوس رأى المنصور أن من المناسب أن يظهر هشام الثانى فى محمل مهيب أمام أهالى قرطبة الذين لم ير الكثير منهم هذا العاهل الشبح وطاف بالشوارع الرئيسية فى المدينة وهو يحمل الصولجان فى يده ويغطى رأسه شال كبير حتى كأنه عمامة. كما صدر قرار يتضمن-كافة الخطوات الرسمية وقعه العاهل العاجز عن فعل شئ، ويؤكد القرار على أن المنصور - كما كان فى الماضى - هو الشخص الوحيد المخوّل بإدارة الشئون العامة للبلاد.

ومنذ هذا التاريخ وحتى وفاته عام ١٠٠٢م (٣٩٢هـ) لم تبدر من القصر أية بادرة أخرى لتذكر المنصور بأن هذا المكان يسكنه خليفة. كما أن كل من سولت له نفسه من رجالات الدوله فى تعكير مسار رئيس الدولة القرطبية أو يؤثر سلبا على هيبته لا يكون مصيره إلا الذهاب من الساحة دون شفقة ودون كلمة شكر لما يمكن أن يكون قد قدّمه من خدمات. ومن هذه الحالات نجد وضع السيد المغربى جعفر بن على بن حمدون، إذ لم يكد يمضى عام على ما أظهره من بسالة فى معركة شنت بَجَنْت San Vicente حتى دفع حياته ثمنا للشعبية الجارفة التى حظى بها فى أرض الأندلس، إذ دعى يوم ٢١ يناير ٩٨٣م (٣ شعبان ٣٧٢هـ) إلى حفل فى قصر المنصور خرج منه وهو يترنح ثم يتعرض بعد ذلك لضربات كالها له بعض أعوان المنصور الذين وضعهم فى طريقه. ووصل الدهاء بابن أبى عامر إلى درجة أنه نعى على الملأ نبأ وفاة واحد من أجلّ أتباعه. وفى عام ٩٨٩م (٣٧٩هـ) كان هناك شخص من أصل مروانى شارك فى الكثير من الحملات إلى جوار المنصور، لكنه كان بعد ذلك المحرّك الأول فى دسيسة تم تدبيرها ضد من وضع يده على الحكم. تم كشف هذه المؤامرة بسهولة: تعاون فيها كل من قائد الحدود العليا - عبد الرحمن بن مطرّف من الأسرة الهاشمية(٥٤) - وأحد أحفاد الأمير الحكم الأول وهو المدعو عبد الله بن عبد العزيز والشهير بلقبه «الرومانثى» الحجر الصلد Piedra seca(٥٥) والذى كان حاكما لطليطلة، ووعد أحد الابناء الشبان

للمنصور وهو/ عبد الله الذى لم يكد يبلغ الثانية والعشرين بمساعدته للاطاحة بوالده وتوليه مكانه. وسوف نرى فى الصفحات التالية كيف أن عبد الله ابن أبى عامر لجأ إلى أراضى كونت قتشاله غارثى فرنانديث وانتهى الأمر به إلى تسليمه إلى والده الذى أمر بإعدامه دون أن يظهر عليه أى تأثر. أما بالنسبه لوالى سرقسطة فقد أقصى عن منصبه وعينّ ابنه يحيى مكانه والذى كان يدعى سامشا Samacha قبل قتله.. وأخيرا نجد أن عبد الله «الحجر الصلد» الذى لجأ إلى أراضى الملك برمودو الثانى ملك ليون تم اقتياده فى النهاية إلى قرطبة حيث قضى ما بقى من عمره فى السجن. وسوف نرى أيضا أن المنصور لم يشعر بأى حرج فى التخلص من ابن عمه عسكلاجه الذى كان يمثله فى شمال أفريقيا وعلى ابن رميحيس القائد البحرى للأسطول التابع للخلافة. هذه الجرائم التى يوردها كتاب سيرة دكتاتور أسبانيا الأسلامية بالتفصيل أو بشكل موجز لا تمثل شيئا فى نظرهم ولم تحل دون قيامهم بتخصيص فقرات طويلة للثناء على العامرى.

- النشاط العسكرى للمنصور فى أسبانيا المسيحية حتى عام ٩٩٥م :

كم كنّا نودّ أن يزيد كُتّاب سيرة المنصور من التفاصيل المتعلقة بدوره فى الجهاد. كما نلاحظ أن الأرقام المتداولة بشأن عدد حملاته ضد المسيحية الأسبانية لا تقل عن خمسين حملة مظفرة سواء فى الصيف أو فى الشتاء وطوال فترة تزيد على عشرين عاما وهى الفترة التى مارس فيها الحكم. ومع ذلك لا تتوافر لدينا الكثير من المعلومات حول أغلب هذه الحملات. نعرف أيضا أن تلك الحملة التى تمت عام ٩٨١م (٣٧١هـ) أدت إلى الاستيلاء على سرقسطة وشنت منكش Simancas كانت الرابعة وأن الحملة الشهيرة على شنت ياقب Santiago دى كومبو ستيلا كانت عام ٩٩٧م (٣٨٧هـ)وكانت تحمل رقم الحملة الثامنة والأربعين. ومازالت الحملات بين هذه وتلك فهى غير معروفة التفاصيل. وبالتالى فالصورة التى سنقوم برسم تفاصيلها على الصفحات التالية ستكون - رغما عنا - مؤقتة وغير كاملة حيث ستظل على هذا الحال حتى يأتى اليوم، نرجو أن يكون قريبا، الذى تكشف لنا فيه بعض التراجم عن العامريين تفاصيل النشاط العسكرى للمنصور، وبذلك تسهم فى إلقاء الضوء على فترة هامة من تاريخ أسبانيا المسيحية ذلك أن المصادر اللاتينية تشير إلى تلك الأحداث باقتضاب شديد وغير معهود.

كان أولى الانتصارات الهامة للمنصور فى مناطق الثغور هى موقعة شنت بشنت San Vicente التى تخلص فيها من منافسه غالب وقتل أثناءها أمير البشكنس

راميرو ابن سانشو أباركا، وشتت قوات كونت قشتاله - غارثى فرنانديث. ويحدد لنا ابن الخطيب تاريخ هذه الحملة: تمت هذه الحملة كما سبق أن ذكرنا يوم ٩٨١/٧/١٠ (٤ محرم ٣٧١هـ) وربما أخطأ الدكتاتور القرطبي في موقفه لو لم يحاول الإفادة الفوريّة من هذا الانتصار. وعلى ذلك هاجم أراضى القشتالى وتبعها بالهجوم على أراضى ملك ليون الشاب: راميرو الثالث. كما أرسل بقوات لدعم القائد الإسلامى فى منطقة الثغور الوسطى. وفى اللحظة التى عاد فيها العامرىّ إلى قرطبة لبعض الوقت قام القائد عبد الله «الحجر الصلد» الذى يتقدم طليعة جيشه، يرافقه فرسان طليطلة وبعض الجند وكذا مجموعة أخرى من المقاتلين بالتوجّه سريعا إلى سمّورة **Zamora** وحاصرها خلال شهر يوليو من العام نفسه، وهى المدينة التى لجأ إليها راميرو الثالث. قاوم حصن سمورة مقاومة شديدة رغم أن المدينة نفسها قد استسلمت ومعها القرى المجاورة. وتم إحراق الكثير من القرى - ألف قرية طبقا لبعض التقديرات المبالغ فيها من قبل أحد المؤلفين من المسلمين الأسبان(٥٦) - والكنائس والأديرة. وبعد ذلك سلك عبد الله طريقه إلى قرطبة وقد أخذ معه مالا يقل عن أربعة آلاف أسير.

وبعد ذلك بأسابيع وصلت الأخبار إلى ابن أبى عامر تشير إلى الحلف الهجومى ضد مسلمى الأندلس والذى تم بين كل من راميرو الثالث وكونت قشتالة/ غرثى فرنانديث والملك سانشو أباركا ملك بنبلونة. فأسرع إلى ذلك اللقاء وسار عن طريق طليطلة حتى وصل إلى منتصف وادى نهر الدويرة إذ كان يعرف أن القوات المسيحية متمركزة هناك. وكانت نتيجة اللقاء - الذى وقع خلال شهر أغسطس من عام ٩٨١م رويدا **Rueda**، وهى المحافظة المعروفة حاليا ببلد الوليد، جنوب شرق شنت منكش**Simancas** بحوالى ٢٥ كم - كارثة على المتحالفين. وبعد ذلك توجه الدكتاتور مباشرة إلى شنت منكش واستولى عليها ودمرّها وأسر منها عدة آلاف. وعندما عاد إلى حاضرة الخلافة ظن أن نصره هذا يؤهله لأن يحظى بلقب «المنصور». وبعد وقت قليل عاود هجماته من جديد، فحاصر مدينة ليون عاصمة الملك راميرو الثالث ورغم ذلك فشلت هذه المحاولة، وهذه الرؤية تعتمد على بعض التفاصيل التى أوردها راهب دير سيلوس **Silos**(٥٧).

أدت الهزائم المتلاحقة التى منى بها الملك راميرو الثالث فى كل من سمّورة ورويدا وشنت منكش إلى ابتعاد أغلب الرؤس الكبيرة عنه. كما وقع تمرّد فى جليقية قام خلاله النبلاء باختيار أحد ابناء عمومة الأمير الضعيف، وهو برموندو الثانى ابن أوردوينو الثالث(٥٨). فحاول راميرو الثالث مواجهة منافسه بناء على ما طلبته منه

والدته. والتقى الجيشان بعد ذلك فى إحدى القرى الواقعة على حدود جليقية يطلق عليها بورتيا دى أريناس Portella de Arenas لكن لم يستطع أى من ابناء العمومة تحقيق نصر حاسم على الآخر. وفى شهر مارس أو إبريل عام ٩٨٤م استطاع الجليقى أن ينتزع من راميرو الثالث عاصمته ليون فما كان من راميرو إلا اللجوء إلى أستورغا «استرقة» Astorga بعد أن قام بجسّ نبض المنصور فى الأمر وتوفى بعد ذلك ببضعة أسابيع أى فى ٧/٦ فى مكان ليس ببعيد عن أسترقة يسمى ديستريانا Destriana. ومنذ ذلك الحين حكم برموندو الثانى بدون منافس ثم تفاوض مع المنصور وانتهى الأمر بين ليون وقرطبة بتوقيع معاهدة انتقلت ليون بمقتضاها إلى حكم ملك ليون. وكان ذلك مقابل الوعد بدفع جزية كبيرة سنويا. كما حصل الملك الليونى على مساعدة الجيش الإسلامى للقضاء على مقاومة بعض السادة الذين كانوا يرفضون الاعتراف بسلطانه. قام هذا الجيش باختيار الأراضى التى يعسكر فيها فى الأراضى المسيحية التابعة لبرموندو الثانى ومارس رقابة حقيقة واستمر الحال على ما هو عليه حتى عام ٩٨٧م.

وخلال هذه الفترة تم تسيير الحملة الكبرى الموجهة ضد برشلونه فكانت الحملة الثالثة والعشرين طبقا لروايات بعض المؤرخين المسلمين. ولسنا ندرى شيئا عن الأسباب التى حدت بالدكتاتور لمهاجمة المدينة التى انتزعت من المسلمين منذ فترة طويلة والتى كان يحكمها الملك بورّيل Borrell منذ عام ٩٥٤م تحت الوصاية الفرنجية وهى وصاية أصبحت اسمية بمرور الزمن. كما كان على علاقة جيدة بالخليفة فى قرطبة منذ مجيئه إلى السلطة. وقد أعدّ المنصور حملته إعداداً جيداً وأكثر من أعداد الجند والقوات. وبدلا من التوجه مباشرة إلى هدفه قام بعملية اتفاق فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة الأيبيرية مستعرضا عضلاته الحربية التى كان يظن أنها ستجعل الجميع يكنون له المزيد من المهابة. خرجت الحملة من العاصمة يوم الخامس من شهر مايو عام ٩٨٥م ٠الثانى عشر من ذى الحجة عام ٣٧٤هـ) ومرت بالمدن التالية الواحدة وراء الأخرى: البيرة وباثا Baza ومرسية. وقد مكث فى هذه المدينة الأخيرة ثلاثة وعشرين يوما فى ضيافة أحد الأثرياء ويدعى ابن خطّاب الذى تحمل إعاشه كافة القوات المرافقة(٥٩). ثم واصل المنصور طريقه موازيا للشاطئ الشرقى المطل على البحر المتوسط. وعندما علم الكونت بورّيل بأنباء الحملة عمل على إيقافها فى الأراضى التابعة للمسلمين إلا أن جهوده ضاعت سدى فقد منى بخسارة فادحة ففى اليوم الأول من شهر يوليو من العام التالى وصلت القوات القرطبية إلى أسوار برشلونة التى كانت قد عَسْكرت أمامها مجموعة من القوات الإسلامية. وبعد ذلك بثلاثة أيام استسلمت المدينة وأشعلت فيها الحرائق بينما مات سكانها وتم أسر من بقى على قيد الحياة.

وكـــان من بين الأســـرى أودالارت **Udalarte** نائب الكونت وأرنولفـو **Arnolfo** رئيس الشمامسة. لكن احتلال المنصور لبرشلونة لم يدم طويلا فبعد ستة أشهر ـ أو عامين طبقا لراوية أخرى ـ انسحبت الحامية التى تحركت فى اتجاه نهر إبرة وقامت بسلب ونهب وإحراق أديرة كثيرة نذكر منها دير شنت كوجات **S.Cugat** ودير بطرس دى ليبويبس **S.Pedro des puelles**(٦٠).

لم يدم رضا ملك ليون برمو الثانى عن وجود جيش إسلامى أرسله إليه المنصور، حيث كان ينظر إليه على أنه جيش احتلال. كما أن نداءاته التى وجهّها للمنصور لم تلق أى صدى فما كان منه إلا أن قام بطرد هذا الجيش والنكوص بالعهد الذى ربطه بسيد الأندلس. كانت هذه الخطوة بمثابة إعلان الحرب وجاء ردّ المنصور فوريا إذ أرسل حملة استولت على مدينة قلمرية **Coimbra** خلال شهر يونيو عام ٩٨٧م وهذا طبقا لما ورد فى «أخبار قلمرية» **Chronicon Conimbricense**(٦١)، وأشار المصدر إلى أن المدينة دمرت تماما لدرجة أصبحت معها بلا سكان خلال السبع سنوات التالية. ثم جهز المنصور حملة أخرى عام ٩٨٨م (٣٧٨هـ) استهدفت ليون عاصمة الملك برمودو الثانى، وقد نزح عنها هذا العاهل ليقيم فى سمّورة **Zamora** وتركها تحت حماية كونت جيليقية/ غونثالو غونثاليث. أخذت المدينة تقاوم لأربعة أيام متوالية ثم استسلمت بعد ذلك وتم تدميرها(٦٢) ولم تقاوم مدينة سمّورة **Zamora** بنفس الدرجة الأمر الذى دفع برمودو الثانى إلى الفرار قبل استسلامها. وفى المنطقة الواقعة بين المدينتين قام المسلمون بإعمال يد التدمير فى كل شئ ومن ذلك إحراق دير شنت بطرس دى إسلونثا **S. Pedro de Eslonza** ودير ساهاجون **Sahagun**.

كان العام التالى زمن تدبير المؤامرة ضد المنصور من قبل ابنه عبد الله الذى اعتاد الإقامة فى سرقسطة، وقد عاونه فيها والى المدينة عبد الرحمن بن مطرّف وكذلك عبد الله «الحجر الصلد» والى طليطلة. وعندما ترامت إلى أسماع الدكتاتور أنباء المؤامرة اتخذ خطوات تدل على مكره ودهائه دون أن تتسارع الأحداث فجهز حملة ضد غارثى فرنانديث كونت قشتالة وتوجه بالقوات القرطبية إلى وادى الحجارة **Guadalaja-ra** وهناك إنضمت إليه قوات الثغر الأعلى. وأدت الاتهامات التى وجهها رسله إلى إقصاء عبد الرحمن بن مطرّف وإيداعه السجن بعد ذلك، يوم ٢٠ يونيو ٩٨٩م (١٢ربيع الأول ٣٧٩هـ) كما حث ابنه ليكون إلى جواره فى حصار شنت إشتيبن دى غرماج **S.Esteban de Gormaz** وبمجرد أن وصل عبد الله إلى هناك يرافقه ستة من الفتيان الموالين له انشق على الجيش الإسلامى وذهب ليكون فى حماية الكونت

القشتالى الذى رفض تسليمه. وعندئذ قام المنصور بغزو أملاكه مستوليا على أوسمه Osma خلال شهر أغسطس وعلى ألكوبا دى لا تورّى Alcoba de la Torre القريبة من كلونيا Clunia خلال شهر أكتوبر ثم قام بتوجيه ضغوط شديدة على أراضى ألبه Alava ولم يكن أمام غارثى فرنانديث إلا عقد معاهدات خلال العام التالى تم بمقتضاها تسليم عبد الله إلى أحد القادة المقرّبين من المنصور فقام على الفور بفصل رأسه عن جسده فى منطقة قريبة من نهر الدويرة طبقا لتعليمات المنصور. حدث ذلك فى الثامن من شهر سبتمبر عام ٩٩٠م (١٤ جمادى الثانية ٣٨٠هـ) كانت هذه الغزوة هى الخامسة والأربعين وأصرّ الدكتاتور أن يرسل برأس ابنه إلى الخليفة هشام الثانى ترافقها رسالة تتحدث عن النصر المؤزر. ويبدو أن اغتيال الابن أثار استياء أهل قرطبة؛ وإذا ما كان لنا أن نأخذ برواية أحد المؤرخين فإن المنصور حاول تبرير ما فعل بالتشكيك فى بنوّة عبد الله(٦٣). ولد هذا الابن عام ٩٦٩م (٣٥٨هـ) وكان أكبر من شقيقه عبد الملك بحوالى ستة أعوام. هذا الابن الأخير سوف يلقب فى المستقبل بالمظفّر. كان للمنصور ابنا ثالثا اسمه عبد الرحمن ومن المفترض أن يكون الوريث الثانى. ولد هذا الابن بعد بضعة أعوام من الفترة التى نحن بصدد معالجتها وكانت أمه أميرة مسيحية نعرف اليوم، عن يقين، بأنها كانت ابنه ملك بنبلونة سانشو غارثيس الثانى الملقب بـ أباركا Abarca. وضعت هذه الأميرة - التى اتخذت لنفسها اسم «عبدة» واعتنقت الإسلام وأطلق عليها مؤرخو العصر البشكنسيه - طفلها عبد الرحمن فى تاريخ غير محدد، من المحتمل أن يكون عام ٩٨٤م (٣٧٤هـ) وأسمته سانشويلو San-chuelo على اسم والدها سانشو(٦٤). ومن المفترض أن تكون هذه الزيجة قد أدت إلى هدنة سياسية استمرت بعض الوقت بين قرطبة وبنبلونة، فهل تم خرق هذه الهدنة لأسباب نجهلها؟ ما حدث عام ٩٩٢م (٣٨٢هـ) هو أن ملك البشكنس أعلن عن قيامه بزيارة رسمية لصهره فى قرطبة. وطبقا لرواية ابن الخطيب(٦٥) فإن المنصور الذى كان قد ألحق هزيمة كبيرة بسانشو أباركا رحّب بمشروع الزيارة الى العاصمة الأندلسية وأعد له استقبالا عظيما. ووصل البشكنس إلى قرطبة يوم الرابع من سبتمبر (الثالث من رجب) وإتجه إلى المدينة الزاهرة ترافقه قوات كثيرة خصصت لاستقباله. فخرج عبد الرحمن (شنجول)، الذى حصل على لقب وزير خلال العام السابق رغم حداثة سنه، لاستقبال جده لأمه فى موكب مهيب يضم علية القوم وكبار القادة فنزل ملك بنبلونة عن صهوة جواده أمام حفيده وقبل قدمه تعبيرا عن التواضع. كما أن الرّكب الذى رافقه حتى حضرة المنصور كان ملكيا. كان الدكتاتور يجلس على عرشه ويحيط به وزراؤه، واصطف الحرس الأسود والحرس الصقلبى فى طابورين ابتداء من باب

القصر وحتى بهو الاستقبال وعندما رأى المنصور قام بتقبيل الأرض أكثر من مرة ثم قبل يدى صهره وقدميه. وبعد ذلك قدم للضيف مقعدا مذهّبا وبعد أن انفض من كان بالمجلس لم يسمع الملك المسيحى إلا عبارات التأنيب التى وجهها له رجل الدولة المسلم على موقفه الأخير. وبعد ذلك غادر القصر تحيط به نفس الأبّهة بينما ستقوم مجموعة من البغال بنقل الهدايا الفاخرة إليه فى مقر ضيافته.

وفى العام التالى ٩٩٣م (٣٨٣هـ) نجد أن ابن خلدون ـ فيما ذكره عن تاريخ المسيحيين فى أسبانيا موردا موجزا لما ذكره ابن حيان ـ يسجل زيجة أخرى للمنصور من أميرة مسيحية وهى ابنه ملك ليون برمودو الثانى والذى أرسل ابنته إلى المنصور عام ٣٨٣هـ، فأصبحت جارية ثم أعتقها ودخل بها(٦٦). وقد حدد المؤرخ دوزى اسم هذه الأميرة الليونية التى يبدو أنها لم تنجب أولادا من المنصور فكان اسمها تيريز أو تارازيا **Teresa o Tarasia** وهى التى تتحدث عنها سيرة بيلايودى أو بيدو **Pelayo de oviedo**. وبعد وفاة زوجها أعادها عبد المالك الذى خلف والده على كرسى الحكم إلى بلدتها الأصلية. وارتدت الحجاب عند وصولها ولزمت أحد الأديرة فى عاصمة أشتوريش. ثم وافتها المنية فى ٢٥ابريل عام ١٠٣٩م(٦٧). كما أورد أحد المؤلفين العرب من العصور المتأخرة ـ استنادا إلى مصادر قديمة ـ مشيرا إلى عبارات الكبرياء الشديد التى أطلقتها ابنة برمودو الثانى فى وجه بعض نبلاء ليون من الذين كانوا يرافقونها إلى قرطبة ويرجونها أن تتدخل لدى المنصور لصالح مواطنيها إذ قالت معبرّة عن استيائها الشديد «أن الأمة يجب أن تحافظ على شرفها بحراب رجالها وليس بجمال نسائها»(٦٨).

فى قشتالة، وقعت أحداث كثيرة عام ٩٩٤م (٣٨٤هـ) إذْ تمرّد سانشو غارثيه ابن الكونت غارثى فرنانديث على والده بإيعاز من المنصور وانضم إلى صفوفه رجال البلاط الذين كانوا إلى جوار الأخير وكما هى العادة انتهز الدكتاتور القرطبى هذه الفرصة للاستيلاء على قلعة شنت إشتبن دو غورماج مرة أخرى وعلى حصن كلونيا **Clunia** بعدها. إلا أن غارثى فرنانديث لم يستسلم وحاول مرارا القيام بغارات على الحدود الإسلامية بالقرب من مدينة سالم حيث كان المنصور قد عين هناك قائدا صقلبيا هو الوزير كاند **Qand**(٦٩). وكان من إحدى نتائج هذه الغارات وقوع الأمير القشتالى فى موقف درامى، إذْ جرح يوم ١٩/٥/٩٥م (١٥ ربيع الثانى ٣٨٥هـ) على ضفاف نهر الدويرة فى المنطقة الواقعة بين لانقا **Langa** وألكوثار **Alcozar** ـ محافظة سورية **Soria** حاليا ـ ؛ وتم أسره واقتياده إلى مدينة سالم حيث مات هناك بعد عدة

أيام رغم العناية الكبيرة به. وبعد ذلك فصلت رأسه عن جسده ووضعت فى صندوق ثم أرسلت إلى قرطبة؛ أما باقى جسده فقد ظل فى مدينة سالم بعض الوقت ثم أعيد إلى ابنه سانشو غارثيا الذى قام بدفنة فى كاردينيا Cardena(٧٠).

سار المنصور فى العام نفسه على رأس حملة متوجها إلى بنى غوميث Beni Gomez. وكان المسلمون والمسيحيون يطلقون هذا الاسم على سلالة رجل يدعى غوميث دياث G.Diaz كونت سالدانيا Saldaña والذى كان قبل ذلك بستين عاما صهرا وفارسا وحامل الراية لكونت قشتاله/ فرنان غونثاليث. وبمرور الزمن ابتسم الحظ لابنائه وأحفاده وأصبحوا سادة يتمتعون باستقلالية شبه كامله ليس فقط فى سالداينا بل فى ليبنا Liébana وكاريّون Carrion (هى اليوم بلدة كاريّون دى لوس كوندس Carrion de los condes) التى كانت تسمى قبل ذلك شنتمرية Santa Maria . قام المنصور بتدمير كاريّون ولم نعد نعرف شيئا عن بنى غوميث حتى منتصف القرن الحادى عشر(٧١). حيث سنرى أحدهم وهو يتعرض لمصير مأساوى بعد خمسة عشر عاما وهو عبد الرحمن شنجول.

توفى ملك بنبلونة سانشو غارثيس الثانى أباركه عام ٩٩٥م وخلفه على العرش غارثيا سانشيث الثانى الملقب بـ "Temblon" وقد استمر فى الحكم أكثر من خمس سنوات ثم توفى قبل أن يقضى المنصور نحبه ببضعه شهور.

كانت آخر الأحداث فى العام نفسه قيام سيد الأندلس بمهاجمة برمودو الثانى مرة أخرى دون أن يضع أى اعتبار لعلاقة النسب الأخيرة. وكان ملك ليون قد فقد البقية الباقية من السلطة التى تركها له المنصور الذى قام بتأديبه لاستمراره فى إيواء عبد الله «الحجر الصلد» رغم أن هذا قد يغضب المنصور. قامت القوات الإسلامية بتدمير مدينة أسْتُرقة Astorga التى اختارها برمودو الثانى كعاصمة بدلا من ليون. وأحاطت به القوات الأسلامية فى الوقت الذى تخلّى عنه الكثير من رجاله الذين أعلنوا تبعية مقاطعاتهم لقرطبة بشكل مباشر، فلم يبق أمام الملك الأستورى الليّونى إلا تسوّل السلام والقيام بتسليم عبد الله «الحجر الصلد» لقوات المنصور والقبول بدفع جزية سنوية.

– شنت ياقب، قلعت النسور وثيربيرا Cervera ـ موت المنصور :

وبعد ذلك بعامين قام المنصور بأشهر حملة له على دول أسبانيا المسيحية، وبالتحديد فى صيف عام (٩٩٧م – ٣٨٧هـ) حيث وصلت جيوش المسلمين مظفرة إلى

أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة أى إلى قلب جليقية. كانت الحملة تسمى حملة شنت ياقب. وتوافرت لدينا ـ لحسن الحظ ـ معلومات دقيقة ومفصّلة من مصادر عربية(٧٢).

لم يكتف المنصور هذه المرة ـ كما اعتاد إنزال العقاب ببرمودو الثانى لعدم وفائه ببعض شروط الهدنة مع قرطبة ـ بالغارات الناجحة على أراضى مملكة ليون ونهب المزارع والقرى وإحراق المحاصيل وأسْر العديد واقتيادهم أسرى إلى قرطبة، بل كان هدفه هذه المرة توجيه ضربة قاصمة، وإهانة يكون لها صدى واسعا فى العالم المسيحى إذ وصل به الأمر إلى تدنيس أحد أكثر الأماكن قدسية لدى المسيحيين(٧٣). كانت شنت ياقب قد تحولت اعتبارا من القرن التاسع الميلادى إلى مركز للحجيج الذين يأتون من كل فج عميق وظل هذا الوضع طوال العصور الوسطى. وقصة شنت ياقب الرسول كانت معروفة فى التراث ووجدت صدى لها حتى بين بعض المؤلفين المسلمين. فعندما جاء هذا الرسول للتبشير فى أسبانيا نزل فى أحد الموانى فى جليقية وهى إيريا Iria والتى تسمى حاليا بـ بادرون Padron. وكان أحد الأساقفة ويدعى تيودوميرو Teodomiro من البلدة المذكورة، قد اكتشف قبر الرسول فيما يشبه المعجزة وقام بنقل رفاته إلى المكان الذى أقيمت فيه بعد ذلك مدينة شنت ياقب دى مومبوستيلا (أى حقل النجوم) وتحوّلت الكنيسة المتواضعة التى قام بإنشائها ألفونسو الثانى ملك أشتوريش وليون إلى كنيسة ضخمة على يد من خلفوه ومنهم ألفوسو الثالث الكبير. وقع ذلك عام ٩١٠م. وأراد المنصور هدمها وتسويتها بالأرض.

خرج العامرى من قرطبة على رأس قوات الفرسان يوم الثالث من يوليو عام ٩٩٧م (٢٣ جمادى الثانية لعام ٣٨٧هـ) واجتاز كلا من قورية Coria وبيسيو Viseo. وفى هذه البلدة الأخيرة انضم إليه بعض النبلاء المسيحيين فى هذه المنطقة التى أعلنت تبعيتها له. واستمر فى سيره حتى بلدة أوبرتو Oporto حيث انضم إليه الرجال الذين تم نقلهم من ميناء قصر أبى دانيس Alcazar do sol بكل ما يحملون من مؤن وعتاد. وعبر نهر منهو Miño عند بلدة بيّادارس واجتاز وطاف حول بعض مصبّات الأنهار فى جليقية وكان منها أنهار عميقة وأخرى ضحلة، وأثناء سيره كان يقوم بتدمير كل ما يصادفه من قلاع وحصون مثل حصن شنت بايو S. Payo وكذا الأديرة مثل دير كوسمى Cosme وشنت ايمان، وواصل تقدمه حتى وصل إلى شبه جزيرة مورّاثو Mor-razo الكائنة أمام مدينة بيغو Vigo حاليا وقضى على بعض أهالى جليقية الذين حاولوا التحصّن هناك ثم عبر نهر أوياً Ulla ونهب مدينة إيريا Iria وهى مدينة مقدسة

لم تطأها أقدام المسلمين قبل ذلك. وفى العاشر من أغسطس (الثانى من شعبان) شاهد المنصور مدينة شنت ياقب من بعيد، وكان سكانها قد نزحوا عنها فاستسلمت وأحرقت. وتم تدمير الكنيسة الضخمة ما عدا قبر الرسول بناء على أوامر صريحة من الدكتاتور المسلم. كما لم يفعلوا شيئا لأى من الرهبان الذين تولوا العناية بالقبر. كانت الأيام السبعة كافية لتدمير المدينة فى الوقت الذى قامت فيه بعض مجموعات المقاتلين بالتوجه نحو الشمال حتى وصلت إلى المحيط بالقرب من لاكرونيا **La coruña**.

أمر المنصور جيشه بالانسحاب والتوجه إلى لا ميغو **Lamego** حيث قام بتوديع النبلاء المسيحيين الذين رافقوه ووزع عليهم هدايا هى عبارة عن ملابس فاخره، وأخذ طريق العودة إلى قرطبة بعد ذلك ببضعة أسابيع وقد حمل معه أعدادا كبيرة من الأسرى وكذا أجراس كنيسة شنت ياقب والأبواب الخشبية للمدينة، حيث استخدمت بعد ذلك كدعائم لسقف بعض الأروقة الجديدة التى ضمها إلى مسجد قرطبة(٧٤).

ويشير ابن خلدون إلى أن المنصور - بعد عامين من هذا التاريخ(٧٥) - أقام فى منطقة سمّورة قرية يسكنها مسلمون وكذا قوات كافية جعل على رأسها «أبا الأحواس ومعن بن عبد العزيز التوجيبى.

وفى عام ٩٩٩ (٣٨٩هـ) - طبقا لرواية نسبت إلى ابن حيان -(٧٦) تم تسيير حملة قرطبية ضد بنبلونة. لكن لا تتوافر لدينا أيه معلومات عن هذه الحملة التى تعتبر الحادية والخمسين. وربما كان تاريخ هذه الحملة قبل وفاة الملك البشكنسى غارثيا سانشيت الثانى بعدة أشهر، أى أنها جرت عام ١٠٠٠م. وقد فتحت الطريق أمام ابنه وخلفه سانشو غرثيس الملقب بالأكبر **Mayor** والذى كان مفخرة هذه الأسرة فى بنبلونة. كما توفى أيضا الملك برمودو الثانى ملك ليون عام ٩٩٩ وهو الملك الذى وجد نفسه مضطراً لطلب السلام من المنصور بعدموقعة شنت ياقب وأرسل له ابنه - المولود سفاحا المسمّى بيلايو - ورغم الهزائم التى تعرض لها هذا الملك فإن الكتاب الذى ينسب إلى راهب دير سيلوس **Silos** يكثر من الثناء عليه. لكن الموقف لم يكن على نفس الوتيرة بالنسبة لبيلايودى أوبيدو **Pelayo de Oviedo** الذى وصف بأنه طاغية واتّهم بتعدد الزوجات. فبعد أن تزوج عام ٩٨٣م بامرأة تدعى بيلاسكيتا **Velasqiuta** هجرها ليعيش بشكل مستمر مع إحدى بنات غارثى فرنانديثو تدعى إلبيرة **Elvira** حيث ولدت له ابنا عام ٩٩٤م أسماه ألفونسو وهو الخامس فى هذه السلسلة. وأعلنت تولية هذا الأخير عرش والده بعد وفاته وهو لم يبلغ الخامسة من العمر وظل فى جليقية تحت وصاية الكونت ميندو غونثاليث**Menendo Gonzalez** الذى قام بتربيته وشاركته امرأته السيدة/ مايور فى هذه المهمة.

وخلال صيف عام ١٠٠٠م (٣٩٠هـ) عقد سانشو غارثيا كونت قشتاله عدة تحالفات مناهضة للمسلمين بعد أن فترت علاقاته تدريجيا بقرطبة، فما كان من المنصور إلا الهجوم الفورى وأطلق على هذه الحملة ثيربيرا **Cervera**(جذوة شيربيره) ولولا العقلانية والحذر اللذان هما من صفات الدكتاتور الأندلسى لكانت القوات القرطبية قد تعرضت لهزيمة كبيرة. وتتوافر لدينا بعض التفاصيل عن هذه الحملة وذلك من خلال ما رواه ابن الخطيب عن ابن حيان وهى مخطوطة لم تنشر حتى الآن(٧٧).

وطبقا لما رواه هذا المؤرخ فإن كونت قشتاله لم يفقد الأمل فى أن يكيل ضربة قوية للمنصور فقام بإعداد جيش قوى مكوّن من مواطنيه ومن كل من هو قادر على حمل السلاح فى النواحى المجاورة ابتداء من بنبلونة وحتى أستورقة **Astorga**، فاستجاب له نبلاء ليون والبشكنس وأقسموا معه على مقاومة الزحف الإسلامى بكل ما أوتوا من قوة. تجمعت قوات سانشو غرثيا فى المنطقة الوسطى لوادى نهر الدويرة بعيدا بعض الشئ عن بلدة كلونيا **Clunia** وبالتحديد فى المنطقة الجبلية المسماة صخرة ثيربيرا **Peña cervera** والتى يبلغ أقصى ارتفاع لها ١٤١٥ مترا. توجه المنصور إلى مدينة سالم(٧٨) وتقدم بسرعة كبيرة نحو القلعة الطبيعية التى تجمع فيها أعداؤه الذين كانوا يعتمدون فى مؤنهم على السهول الخصبة فى المنطقة. وفى يوم الاثنين أى الموافق الثلاثين من شهر يوليو لعام ١٠٠٠م /٢٥ شعبان ٣٩٠هـ) التقت القوات الأسلامية بأعدائها واتخذت مواقع قتاليه. وبادر سانشو غرثيه بالهجوم على جناحى الجيش القرطبى، وأضعفت الهجمات المتكررة التى قام بها الفرسان المسيحيون الجناح الأيمن للجيش القرطبى. كان المنصور يتخذ موضعا لمراقبة سير المعركة وشعر بالقلق عندما رأى كيف أن هذه الهجمات قد أحدثت تأثيرها فى صفوف هذا الجناح الذى لقى فيه بعض أفراده حتفهم، فأكثر من التضرع إلى الله وأخذ ينتظر - وهو شديد القلق - قيام جنود جيشه بهجوم مضاد ومباغت ولكن دون جدوى. ولم يطل به الوقت حتى استرد حماسه وأرسل بابنيه عبد الملك وعبد الرحمن للمشاركة فى وطيس المعركة الدائرة فى هذا الجناح فأظهرا بسالة وإقداما فائقين ثم قام قائد من البربر وهو الدمارّى بهجوم مباغت وشجاع على أحد نبلاء بنى غوميث فأرداه قتيلا وعاد برأسه كما وقع سانشو غرثيه فى خطأ قاتل عندما وقع فى خدعة مناسبة. إذ رأى المنصور وهو يأمر بنقل خيمة القيادة من أسفل إلى ربوة عالية فظن أن الغرض هو قيادة قوات أخرى جاءت للعون والنجدة وعندئذأخذ الجيش المسيحى فى الانسحاب بشكل غير منظم وهرب الجنود القادمين من ليون وقشتالة والبشكنس بعد أن كانوا يحملون فى أيديهم الحبال التى كانوا سيستخدمونها فى ربط الأعداد الكبيرة من الأسرى المسلمين. وطاردهم

الجيش الأسلامى الذى استولى على الكثير من العتاد والمؤن وقطعان الماشية. كان الموقف حرجا رغم النصر فقد فقد الجيش القرطبي ما يقرب من سبعمائة من رجاله، ورغبة من المنصور فى الإفادة من هذا النصر أرسل بمجموعات للإغارة على مناطق مختلفة فى قشتاله. وظل طوال الشهر التالى (رمضان ـ أغسطس) يجوب أراضى ذلك الإقليم محدثا فيها الخراب والدمار ودخل مدينة برغش Burgos(٧٩)، يوم عيد الفطر بعد أن قام بتطويقها عن طريق سرقسطة. وذهب من هناك إلى بنبلونة ثم عاد إلى قرطبة بعد غيبة استمرت مائة وتسعة أيام. وقام بإصدار أحكام صارمة على بعض أفراد قواته مدينا إياهم على موقفهم غير الشجاع يوم معركة ثيربيرا Cervera.

وفى بداية صيف عام ١٠٠٢م وقعت آخر الحملات التى قام بها المنصور ضد أسبانيا المسيحية. وكانت موجهة ضد أراضى إقليم ريوخا Rioja التابع لقشتاله. ولا تتوافر لدينا أيه معلومات عن هذه الحملة اللهم إلا أن الجيش الإسلامى تقدم نحو كاناليس Canales الواقعة جنوب غربى ناجرة Najera بحوالى خمسين كيلو مترا. وعندما عرج على برغش Burgos قام بنهب دير شنت ميان S. Millañ(٨٠) وبعد انتهاء هذه الحملة والعودة إلى قرطبة كان الموت هو الذى وضع النهاية لحياة الدكتاتور القرطبى الحافلة.

كان المنصور يشعر بوطأة تقدم العمر به إذ تجاوز الستين عاما وقد أثرت عليه آلام لم يفصح لنا المؤلفون عن طبيعتها، اكنها جعلته يشعر بقرب النهاية الأمر الذى حدا به إلى الإكثار من أعمال البرّ. وطبقا لبعض الروايات ـ غير الجديرة بالتصديق فإنه طلب كنوع من التكريم له أن تقوم بناته بشراء القماش الذى سيوارى جسده آى الكفن من أموالهن الشخصية. ومن المعروف أنه كان يحرص على جمع الأتربة العالقة بثيابه فى كل حملة من الحملات التى يقوم بها حتى يغطى بها قبره. تدهورت أحواله الصحية عندما وصل فى طريق العودة إلى مدينة سالم لدرجة أنه حمل على محفة طوال رحلة صعبة استمرت أسبوعين. وعندما وصل إلى هذه النقطة من الحدود مكث بضعة أيام ثم وافته المنية فى الحادى عشر من أغسطس عام ١٠٠٢م (٢٧ رمضان ٣٩٢هـ) ودفن بناء على وصيته فى صحن قصر مدينة سالم وقد وضع على القبر شاهد نقش عليه بيتان من الشعر يذكران مفاخره كمحارب من أجل الإسلام والدفاع عن حدوده(٨١).

قام بعض المورخين فى أسبانيا المسيحية بالإشاره إلى الظروف التى أحاطت بموت المنصور عندما عاد من هذه الحملة المظفرة. والتى تتمثل فى العلاقة بين موته

وبين هزيمة تعرض لها فى قلعة النسور **Calatañazar** وهى قرية متواضعة تقع فى محافظة سورية **Soria** فى الطريق الموصل بين هذه المدينة الأخيرة ونهر الدويرة متجهين نحو شنت إشتبن دى غرماج. ومن بين هؤلاء المؤرخين الذين أوردوا هذه الرواية نجد لوكاس دى توى **Lucas de Tuy** ورود ريغودى توليدو **R. de Toledo** (القرن الثالث عشر) وكانا أول مؤرخين يشيران إلى وجود هذا النصر المسيحيى على المنصور. وفى الوقت نفسه نجد مؤلفين آخرين أقدم من هذين السابقين مثل راهب سيلوس **Silos** أو بيلايو دى أوبيد **Pelayo de Oviedo** لم يذكرا شيئا عن هذه المعركة. وطبقا لرواية لوكاس دى توى فإن الدكتاتور القرطبى وجد نفسه مضطرا لمواجهة تحالف جيرانه فى الشمال ضده وهم برمودو الثانى ملك ليون وغارثى فرنانديث كونت قشتاله وغرثيه سانشيث الثانى ملك نبرّة. وقع الصدام بالقرب من قلعة النسور حيث تم القضاء على آلاف المسلمين ولم ينجح المنصور إلا عندما فرّ تحت جنح الظلام. وفى اليوم التالى تم الاستيلاء على المعسكر القرطبى(٨٢). وحزن المنصور حزنا شديدا لهذه الهزيمة لدرجة أنه توفى عندما وصل إلى مدينه سالم.

لم يقبل دوزى بصحة هذه الرواية(٨٣) فهى مشكوك فى طبيعتها كما أنها مليئة بالتناقضات إذ أن غارثى فرنانديث وافته المنية عام ٩٩٢م وبرمودو الثانى عام ٩٩٩م وغارثيا سانشيث عام ١٠٠٠م ويرى دوزى - عن حق - أن هذه الرواية ليست إلا بقية من أسطورة تحاول تفسير الموت المفاجئ للمنصور وتصوره على أنه عقاب من السماء جزاء له على ما فعل بالمسيحية بتدميره شنت ياقب. إلا أن الحجج الواقعية التى يسوقها العلاّمة الهولندى والصمت الواضح للمؤرخين العرب وكذا الروايات اللاتينية القديمة لم تسهم فى إقتناع كل من سأبدرا **Saavedra**(٨٤) وكوديرا **Codera**(٨٥) اقتناعا كاملا حيث حاول هذان المؤرخان البحث عن خيط يحدد حقيقة موقعة قلعة النسور. وخلال الفترة الأخيرة نجد أن العلامة مينينديث بيدال **M. Pidal** يتخذ موقفا أكثر عقلانية إزاء هذه القضية إذ وصف الموقعة المفترضة بأنها «تناقض ما بعده تناقض» وحاول أن يبحث جذور هذا الخبر فى الموقف العدوانى للكونت سانشو غرشية الذى ربما حقق بعض النجاح إلا أن الملاحم القشتالية ضخمت منه فيما بعد.

إننا نتفق بشكل كبير مع النتائج التى توصل إليها هذا المؤرخ للعصور الوسطى الأسبانية، وربما ذهبنا إلى أبعد من هذا قائلين بأن قصة معركة قلعة النسور ربما كان أصلها ذكرى الهزيمة التى كان المنصور على وشك التعرض لها خلال شهر يوليو عام ١٠٠٠م وذلك قبل وفاته بما يقرب من عامين. وبالتحديد فى منطقة **Cervera** ثيربير

عندما قام بمواجهة التحالف المسيحى ضده والذى قاده كونت قشتالة سانشو غارثية والتى تعرضنا لها فى السطور السابقة معتمدين على رواية ابن الخطيب. هذه المعركة التى كانت نتائجها النهائية فى غير صالح المسيحيين الأسبان، كانت تمثل، ولأول مرة منذ أعوام طويلة مضت، الرغبة فى المقاومة والتضامن بين كل من قشتالة وليون ونبرّة لمواجهة الهجوم الأسبانى الإسلامى. ومن الطبيعى أن تمجد الروايات والقصص هذه المقاومة وفى الوقت نفسه تغير مضمونها وحقائقها. ويضاف إلى ما سبق عنصر آخر وهو القرب الجغرافى بين المكانين فقلعة النسور تبتعد عن صخرة ثيربيرا peña Cer-vera بحوالى ٦٠ كم وهى مسافة قريبة. وربما تكون فى الطريق الذى سلكه القائد المسلم متوجها إلى مدينة سالم.

٤- سياسة المنصور ابن أبى عامر فى شمال أفريقيا

- الحماية القرطبية لمنطقة البربر الغربية حتى انشقاق الزيرى بن عطية :

تتوفر بين أيدينا معلومات أكثر بشأن سياسة المنصور فى شمال أفريقيا. ويرجع هذا إلى أن المؤلف المجهول الذى جمع الأخبار الخاصة بـ «حوليّات أمة البربر» عام ١٣١٢م (٧١٢هـ) عنّ له أن ينقل لنا الفصل الذى خصصه ابن حيان للحديث عن العلاقات بين قرطبة والشمال الأفريقى خلال فترة الخلافة الأسبانية الأموية. وتلقى التفاصيل التى وجدناها فى هذا الجزء المتعلق بالوضع الداخلى لمنطقة البربر الغربية فى نهاية القرن العاشر الميلادى وكذا المتعلق بموقف الدكتاتور الأندلسى من الرؤساء المحليين. هذه التفاصيل تلقى ضوءا كافيا على فترة إعتبرت غامضة ومجهولة لزمن طويل وتفّسر السرّ وراء قدوم العديد من المرتزقة من شمال أفريقيا إلى إسبانيا والذين سرعان ما تطوّر بهم الأمر ليتحولوا إلى جنود حقيقيين كان لهم الأثر الواضح فى تحديد مصير الأمبراطورية القرطبية.

ومما يذكر أنه قبل وفاة الحكم الثانى بقليل تم إعادة كل من جعفر بن على بن حمدون وأخيه يحيى إلى المغرب الغربى حتى يقوما بتمثيل الحكومة الأموية فى هذه البقعة وأحسن أهالى المنطقة إستقبالهم وهم الزناته وبنو عفران والمكانسة(٨٨) وعندما تولّى ابن أبى عامر زمام الأمور لم يحاول تغيير الأوضاع بسرعة فلم يحتفظ فى المغرب - تلك المنطقة التابعة للسيادة الأندلسية - بأية قوات إلا تلك التى ترابط فى سبته والمكونة من أفضل القادة الموالين له. وبالنسبة لكبار القوم فى الزناته عاملهم معاملة

حاول فيها إستقطابهم فرحب بهم وأظهر مودته لهم عندما كانوا يحلّون بقرطبة وكان يأمر بتسجيلهم ضمن صفوف الجيش النظامي. ما كان يهدف إليه الدكتاتور هو اجتذاب اكبر عدد من المرتزقة من منطقة البربر الغربية ليكونوا بمثابة وقود من الرجال يستخدمه في أوار الحملات التي يقوم بها ضد المسيحيين الإسبان. كما استطاع الإفادة من الخلاف الذي حدث بين جعفر بن حمدون وأخيه يحيى فقد قام هذا الأخير بالذهاب إلى البصرة للاقامة فيها في الوقت الذي بدأ أخوه جعفر حملة فاشلة ضد البرغواطة بمنطقة المغرب الأطلسي وبالتالي فقد هيبته بعض الشئ. وبناء على هذا نصحة ابن أبي عامر بالعودة إلى أسبانيا وافق جعفر بعد تردد وسلم أخاه حكومة المغرب في نهاية عام ٩٧٨م (٣٦٧هـ)(٨٩).

وبعد ذلك بعامين ـ ربيع عام٩٨٠م (شعبان ٣٦٩هـ) ـ قام المغراوي جزرون بن فلفول معه أحد القادة أصحاب الإقطاعيات التابعة لأسبانيا الأموية بالهجوم على واحات سيشلماس التي كان يحكمها المدراري محمد المعتز اعتبارا من ٩٦٣م (٣٥٢هـ). ونجحت الحملة حيث تم الأستيلاء على المدينة وقتل المدراري وفصل رأسه عن جسده وإرسالها إلى قرطبة. ولأول مرة يدعى للخليفة القرطبي على المنابر في هذه المدينة. ومكافأة لجزرون على ما قام به ظل محتفظا بسيادته على الأقليم الذي غزاه حتى وفاته كما أرسلت قرطبة موافقتها على ولايته على المناطق المدرارية القديمة. وجاء بعده ابنه نودين(٩٠).

قررّ بلوغين بن زيري ـ العاهل الزيري لأفريقيا ـ القيام باستعراض للقوة في أقاصي المغرب آملا أن يعيد السلطة الفاطمية إلى هذه المنطقة ـ فخرج على رأس ستة آلاف فارس انتقاهم وتوجه إلى الغرب مجبرا قادة الزناته الذين وجدهم في طريقه إلى التراجع والبحث عن ملجأ في الحامية الأموية سبته، حيث كان ينتظرهم هناك يحيى بن حمدون سيد البصرة. وصل بلوغين بسرعة شديدة إلى أسوارهذه المدينة حيث لم يعترض طريقه أحد. كان ابن أبي عامر على علم كامل بكل ما يحدث ولذلك هبّ على الفور بإرسال فرقة إلى الجزيرة ثم عبرت البحر متوجهة إلى سبتة تحت قيادة جعفر بن حمدون الذي أخذ على عاتقه إدارة دفة القتال. كما حمّله العامري مبلغا كبيرا من المال يبلغ مائة «وسق» من الذهب. وأمام هذا المدد الضخم لم يجرؤ وانضم إلى العامري في الجزيرة مع بداية عام ٩٨٠م (جمادى الثانية عام ٣٦٩هـ) قرر الدكتاتور تعيين خالد بن محمد بن برطل، ابن اخته على سبته ونادى بالقائد البحري لمجموعة المرّية Almería ـ عبد الرحمن بن رميحس، ذلك العجوز الشهير الذي كان يقف دائما في خدمة الأسرة المالكة، حتى يحضر إليه وعندئذ دسّ له السمّ في الطعام.

اتسمت الفترة التي قضاها بن برطل في سبته بالهدوء فعلى مدار ست سنوات لم يحدث في المغرب أي شئ ذو بال يستدعى اهتمام وعناية الدكتاتور الأندلسي. وفي عام ٩٨٥م (٣٧٥هـ) ظهر في الأفق مايمكن أن يكون تهديدا: فقد عاد الأدريسي الحسن بن غنوم إلى أملاكه القيمة. ومما يذكر أن هذا الإدريسي قد عاد من آسبانيا بصحبة الكثيرين من أقربائه؛ كان هذا قبل موت الخليفة الحكم الثاني بقليل. وانتقل الإدريسي إلى أفريقيا ثم توجه من هذا الشاطئ إلى مصر طلبا للحماية الفاطمية[٩١]. وقد وافق العاهل المصري - الخليفة العزيز - في النهاية على تلبية مطالب الإدريسي فسمح له بالانتقال إلى جوار بلوغين الزيري الأفريقي التابع للفاطميين. وأرسل إلى هذا الأخير ليمدّ يد العون في القيام بحملة على منطقة المغرب الغربي. ولا تتوافر لدينا أيه معلومات بشأن ما قام به ابن غنوم من أعمال وخطوات خلال هذه الفترة.وكل ما توصلنا إليه هو أنه بوفاة بلوغين نجد ابنه المنصور يخلفه في الحكم ولا يعير أي اهتمام بالإدريسي. إلا أن هذا الأخير نجح في أن يضم حوله عددا من المؤيدين الأمر الذي حدا بابن أبي عامر إلى القيام بقطع الطريق عليه. فأمر بتجهيز جيش قوي أرسله إلى سبته وجعل على رأس هذا الجيش ابن عمه عمر بن عبد الله المسمى بعسقلجة. كما كان من بين القادة عبد الله ابن الدكتاتور وعبد الرحمن التوجيبي والي سرقسطة، ولم يكن باستطاعة الحسن بن غنوم مقاومة قوات أندلسية بهذه الضخامة فما كان منه إلا الاستسلام فلم يقتله عسقلجة وأرسله إلى قرطبة[٩٢]. إلا أن المنصور لم يكن مستعدا للغفران ورغم أن ابن العم قد أقسم ووعد بألا يحدث أذى لابن غنوم نجد المنصور يرسل بأحد قادته إلى منطقة مخصصة للراحة من عناء الأسفار تقع بين الجزيرة وقرطبة ليقضي على ابن غنوم ويقطع رأسه. وبموت هذا الرجل فقد الأدارسة أي أمل لهم في وجود قيادة جيدة فما كان منهم إلا أن انخرطوا في صفوف النظام القرطبي حصل الكثير منهم على تصريح بدخول أسبانيا والانضمام للمجوعات المغربية في الجيش النظامي. أما ابن عسقلجة فقد غضب غضبا شديدا لأن ابن أبي عامر لم يأبه بالأمان الذي أعطاه لابن غنوم وتلفظ بعبارات مبالغ فيها كلفته ثمنا غاليا. إذ تم استدعاؤه إلى قرطبة لتوضيح الموقف ودفع ثمن تهوره وحلّ محله الوزير محمد بن أحمد بن عبد الودود السلامي على رأس قيادة الجيش في أفريقيا.

وسرعان ما أظهر هذا القائد مهارته وحزمه في منطقة المغرب. فنقل القيادة من سبته إلى فاس وأجبر الرؤساء المحليين على احترامه متبعا في هذا أسلوبا ماهرا لدرجة أن المنصور شعر بغيرة منه، فتم الاتصال به للحضور إلى قرطبة ليوضح الخطوات التي قام بها. واستطاع بسهولة أن يقارع منافسيه حجة بحجة ثم عاد إلى

موقعه بعد أن أعطاه المنصور المزيد من الصلاحيات وخاصة مهمة تأييد القبائل المغراوة على حساب بعض قادة الزناته وخاصه ضد جدّو بن يعلى الذى اشتهر بميوله التمردية. وكان من أبرز رجال المغراوة فى هذه الآونة كل من مقائل بن عطية وأخية الزيرى. تولى الزيرى قيادة هذا الاتحاد الكونفدرالى(٩٣) بعد وفاة أخيه عام ٩٨٨م (٣٧٨هـ). وفى العام التالى دعاه المنصور ليقوم برحلة رسمية إلى قرطبة. وعومل هذا القائد البربرى كأنه أمير. فقد حلّ بالقصر الذى كان يعيش فيه جعفر بن حمدون الأندلسى قبل أن يلقى حتفه المشئوم. وهو قصر يقع فى حى Kutah rasho.(٩٤) وأغرق بالهدايا ومُنِحَ لقب وزير. ومن المعروف أنه جاء إلى الأندلس بالكثير من الرجال لينخرطوا فى صفوف جيش الدكتاتور. لكن السيد المغراوى الذى اتسم بالجلافة لم يتأثر بما رآه، لأول مرة فى حياته فى قرطبة ولكل ما هناك من حضارة وتقدم. واضطر أن يغير من عاداته العسكرية ويسير على تقاليد نبلاء الأندلس ومما يحكى عنه أنه بمجرد عودته من الأندلس إلى الأراضى الأفريقية قام بحلق شعر رأسه ووضع العمامة ثم قال «آه يا رأسى، أعرف الآن أنك رأسى». كما وجهّ سبّا علنيا للمنصور متهما إياه بالبخل وأبدى احتقاره للقب الوزير وأنها درجة لا تساوى أمام لقب الأمير الوريث بين أهله. لم يبد المنصور امتعاضا كبيرا مما قيل له عمّا جاء على لسان القائد البربرى. وكل ما فعله هو العمل على استقطاب جدو بن يعلى. ودعاه إلى قرطبة لكن هذا الأخير طلب من الرسول أن ينقل إليه هذه الإجابة الغريبة «منذ متى يذهب الناس بالحمار إلى منزل الحدادّ؟» ثم انضم إلى فريق المنشقين. وبناء على ذلك تلقى ابن عبد الودود أمرا بمحاربته وطلب لذلك عون الزيرى بن عطية. ووقعت المواجهة يوم ٩٩١/٤/٦م (١٨ محرم ٣٨١هـ) على ضفاف نهر مولويه Muluya واستطاع جدو بن يعلى إلحاق الهزيمة بالجيش القرطبى وبالدعم الذى أتى بقيادة المغراوى كما تلقى ابن عبد الودود طعنة قاتلة.

تمت معالجة هذه الهزيمة بعض الشئ وذلك بانضمام غير متوقع لأمير صنهاجى من أفريقيا. إنه عمّ الملك الزيرى المنصور بن بلوغين الذى يدعى أبو البحر زيرى والذى كان قد خرج عن طوع حكومة القيروان وأعلن انضمامه إلى قرطبة. وبمساعدة القائد الزيرى جلو بن أبى بكر حاكم تاهارت انتزع من ابن أخيه جزءا كبيرا من منطقة وهران التى أعلن تبعيتها للسيادة الأموية. وشجعه المنصور على البقاء والصمود وأرسل إليه بالمدد والعون. وبعد ذلك قام أبو بكر بإرسال ابن أخيه أبا بكر بن حبوس بن زيرى إلى قرطبة بوصفه سفيرا له ويرافقه عدد كبير من المحاربين الصنهاجة الذين انضموا إلى صفوف الجيش الأندلسى. ولم يعد السفير خاوى الوفاض فقد جاء إلى

عمه بخمس وعشرين ألف قطعة عملة ذهبية وهدايا ثمينة وجواهر تبلغ قيمتها عشرة آلاف دينار بالإضافة إلى خمسمائة ثوب من الحرير. كما أن المنصور خوّل أبا بكر صلاحيات مثل تلك التي كانت للزيرى بن عطية فقد تولى كلاهما مهمة القضاء على الأنشطة المعادية التى يقوم بها بنو يفرو وقائدهم جدّو الأمر الذى أدى إلى أن يمنى هذا الأمير بهزيمة خطيرة فى نهاية ٩٩١م (٣٨١هـ) حيث قتل ثلاثة آلاف رجل من رجاله ولم يجد بدا من اللجوء إلى الصحراء الكبرى.ثم وافته المنية بعد قليل. وتولى مكانه ابن أخيه حبوس بن زيرى الذى سرعان ما اغتاله أخوه أبو Yadas بن دوناس الذى كان يطمع ليشغل مكانه. ولما لم يستطع نيل مراده انتقل إلى أسبانيا ومعه مؤيدوه حيث سارع المنصور بضمهم إلى صفوف جيشه.

لم يدم طويلا الوفاق بين الصنهاجي أبو بكر والمغراوى زيرى بن عطية إذ تصارعا فلحقت الهزيمة بأبى بكر فلجأ بعدها إلى سبته فى نهاية عام ٩٩٢م (شوال ٣٨٢هـ) ومن هناك انتقل إلى منطقة الريف ثم تصالح مع أقربائه فى افريقية وعاد إلى بلده. أمّا الزيرى فقد أصبح المغرب الغربى مفتوحا أمامه وظن المنصور أن هذا القائد يمكن أن يكون الممثل الوحيد لقرطبة فى تلك النواحي ومن أجل هذا يجب تمويل كافة المعارك التى يخوضها فكان ردّ الزيرى إظهار أفضل ما عنده من مواهب. ففى شهر نوفمبر عام ٩٩٤م ٠شوال ٣٣٤هـ) أرسل إلى قرطبة بسفير يحمل معه بعض الهدايا التى ذكرها لنا بعض المؤرخين: مائة جواد أصيل - منها عشرون مسرجة - وجمالا وأسلحة ودورعا مكسوّة بجلد الظباء. ثم أضاف إلى تلك الهدايا بعض الحيوانات الأخرى لتكون جزءا من حديقة الحيوان التابعة لقصر الخلافة منها ببغاء وقطاً بريا وفهدا ضخما وزرافة لم تتحمّل مشاق الرحلة فنفقت وتم تحنيطها وشهدها أهالى قرطبة وقد اعتلت الدهشة وجوههم.

ازدادت قبضة الزيرى وسيطرته على شمال المغرب ووهران ورأى أن وضع منطقة فاس غير مناسب جغرافيا بين الأقاليم التى تعترف بسلطانه عليها فقام فى عام ٩٩٤م (٣٨٤هـ) بتأسيس مدينة وجدة التى لا تبعد كثيرا عن الحدود المغربية الجزائرية لتكون مقرا لاقامته ومخزنا للاحتياطى من العتاد. كان القائد المغرواى يتسّم بطبيعة إستقلالية بحيث يتعذر عليه أن يقبل - إلى ما لا نهاية - إحتفاظ سيد أسبانيا بحقه فى التدخل فى أنشطته السياسية. وطوال ٩٩٧م (٣٨٦هـ) أخذت تصدر عنه بوادر عدم الأذعان. وحتى يتقى المنصور الضربة القادمة سارع بإرسال قوات إلى المغرب يقودها أحد المقربين إليه وهو الأمين عيسى بن سعيد اليعسوبى طمعا منه أن يؤدى إرسال

هذه القوات إلى إرعواء الزيرى بن عطية والعودة إلى رشده، لكن لم تأخذ الأمور الطريق المرسوم لها ذلك أن المغرواى قطع كل صلة له بقرطبة دون الإعلان صراحة عن رفض السيادة الأموية وقسمه على الولاء أمام هشام الثانى. وأبلغ المنصور بأنه يستعيد حرية الحركة.وكنوع من العقاب قام الدكتاتور فى أكتوبر٩٩٧م (شوال ٣٨٧هـ) يسحب لقب الوزير منه وقرر أن يوجه ضده كل القوات والأسلحة الأندلسية.

– نواب الملوك فى فاس :

حتى يستطيع المنصور أن يقود هجومه المزمع على الزيرى بن عطية أمر واحدا من أفضل قادته وهو الصقلبى واضح قائد الثغور الوسطى والذى يتمركز فى مدينة سالم أن يتوجه إلى المغرب وهو يحمل لقب قائد بلاد ما وراء البحار. وعندما وصل إلى ميناء طنجة أخذ يعمل على تجميع كل قواته القادمة من شبه الجزيرة فى هذه المنطقة ثم تلقى أموالا طائلة والكثير من الهدايا المخصصة لكبار القوم فى هذه المناطق والذين قد ينضمون إليه. وبعد ذلك بقليل بعث إليه المنصور فرقة من جنود البربر يقودها رجال من ذوى الخبرة سواء كانوا من أصل أندلسى أو أفريقى تولى واضح قيادة حملته ضد البربرى الذى كان استقر به المقام فى منطقة جبلية شمال المغرب تسمى «جبل حبيب»(٩٥).

استمرت الأوضاع على ما هى عليه طوال شهور ثلاثة دون أن يكون هناك لقاء حاسم واقتصر نشاط كلا الطرفين على هجمات صغيرة ومع ذلك استولى واضح على أرثيلا Arcila الواقعة على شاطئ الأطلنطى وعلى الناقورة Nakur الواقعه على شاطئ المتوسط وفى شهر يوليو عام ٩٩٨م (رجب ٣٨٨هـ) استطاع مفاجأة القوات التابعة لزيرى بن عطية عند شعب يطلق عليه مدق الحية وألحق بها هزيمة كبيرة.

أراد المنصور الإفادة من هذا النصر، فبعد عدة أسابيع توجه إلى الجزيرة وأرسل المزيد من القوات ووضع ابنه عبد الملك قائدا لها وقد أظهر الابن قدرات عسكرية جيدة. فوصل الفتى العامرى إلى طنجة وانضم إلى واضح ثم قام كلاهما بالهجوم على الزيرى الذى ظل فى جبل حبيب.

وقعت المعركة فى الثالث عشر من شهر أكتوبر ٩٩م (١٩ شوال ٣٨٨هـ) وكانت نتائجها الأولية غير حاسمة لكن عبد الملك رأى أن أحد أجنحة جيشه تعرض لضربات موجعة فحمل حملته يرافقه عدد من الفرسان وأعاد الأمور إلى نصابها. وبعد ذلك عرف

جيش الزيرى أن قائده أصيب إصابة بالغة من طعنة وجهها له أحد السود كنوع من الانتقام الشخصى. كان الخبر احباطا للجنود الزناتية الذين أخذوا فى التراجع بشكل غير متنظم. ووجد الزيرى نفسه مضطرا للهرب وترك للقرطبيين معسكره وثرواته وبحث عن ملجأ بالقرب من مكناس وحاول بعد ذلك أن يعيد جمع صفوف قواته لتحقق نصرا ولكن هيهات وفاجأه وديع مرة أخرى وهو فى معسكره وأسر عددا كبيرا من قواته التى وافقت على الأنخراط فى صفوف جيش الأندلس. وعندما رأى الزيرى أنه فقد كل شئ اتجه. وهو كسير الجناح، إلى فاس ليحمل معه نساءه وأولاده ثم توغل فى الصحراء. أما عبد الملك فقد عاد إلى العاصمة الأداريسية القديمة ودخلها دخول الفاتحين. وكان لهذا النصر صدى عظيما فى قرطبة. وقد عبر المنصور عن هذا الابتهاج باعتاقه ألف وخمسمائة عبد صقلبى وأمر بتوزيع الصدقات على كافة المحتاجين فى الأمبراطورية. كما عيّن عبد الملك واليا على المغرب بينما عاد وديع إلى موقعه فى الثغر الأوسط فى أسبانيا.

أقام عبد الملك فى فاس كأنه نائب ملك وقام بتعيين رؤساء أقاليم، فعلى سبيل المثال قام بتعيين محمد بن حسن بن عبد الودود على تادلا، وعين الكتامى حميد بن يصال على سيشلماسا. وفرض الخراج على الأهالى وأمر بأن يبنى فى هذه المدينة بعض المنشآت الهامه كان بعضها أفضل مما هو قائم فى المسجد الجامع بقرطبة وأطلق على المدينة اسم «القرويين»[٩٦]، ومع ذلك لم يتأخر والده كثيرا فى دعوته إلى العودة إلى قرطبة التى وصل إليها فى الثامن عشر من أبريل ٩٩٩م (٢٢ ربيع الثانى ٣٩٨هـ). ثم ذهب وديع إلى المغرب ليحل محله ولم يشأ القائد الأسلامى أن يظل ساكنا بلا أى نشاط فقام بمهاجمة البرغواطه وألحق بهم هزائم نكراء، وفى نهاية العام نفسه عاد إلى موقعه فى مدينة سالم ليحل محله أحد ابناء إخوة المنصور ويدعى عبد الله بن يحيى بن أبى عامر. ونلاحظ أنه بعد هذا القائد تعاقب على حكم المغرب بعض القادة الأندلسيين نذكر منهم إسماعيل بن البورى ومعن بن عبد العزيز التوجيبى وظل الأمر على هذا الحال حتى موت الدكتاتور.

أما فيما يتعلق بالزيرى بن عطية الذى لم يبرأ من جراحه ولجأ إلى الصحراء، فلم يفقد الأمل فى تغير الأحوال وظل على حالة السكون هذه أمدا دون أى محاولة لاتخاذ خطوة ضد شمال المغرب وهى المنطقة التى يسيطر عليها الجيش القرطبى. ولم يفعل شيئا الا التوجه نحو الشرق حيث كانت الفُرقة سائدة بين أفراد الأسرة الحاكمة فى أفريقية ويمكن أن يفيد إذا ما تدخل فى الموقف فقد مات الملك الزيرى المنصور بن

بلوغين وعندما تولى ابنه بادس وجد أن هناك آخرين يقفون له بالمرصاد وهم بعض أقربائه وخاصة الأعمام ماكسان والزاوى. فقام الزيرى بن عطية يسانده هذان الرجلان بحصار تاهرت واستولى عليها وغزا بعد ذلك باقى المدن الصنهاجية وهى ترمذان وتنيس ومسله. ثم حاول تجاوز الأحقاد والضغائن القديمة فأعلن سيادة هشام الثانى والمنصور على المنطقة وأرسل إلى العامرى خطابا يرجو فيه الصفح ويطلب العودة إلى ما كان عليه سابقا. فوافق المنصور ودعا كافة الابناء الزيديين الذين انشقوا على قيروان إلى الانضمام للجيش الأسبانى(٩٧). وسوف نرى فى الصفحات التالية كيف أن هؤلاء لعبوا دورا هاما قبل أن يؤسسوا فى غرناطة أسرة قوية ومحترمة اعتبارا من القرن الحادى عشر. أما بالنسبة للمغراوى فقد قام بحصار أشير. غير أن حالته الصحية أجبرته على رفع الحصار ووافته المنية قبل الوصول إلى وهران فخلفه ابنه المعزّ وترأس الوحدة الكونفدرالية للمغروايين معلنا تبعيته لقرطبة، ثم واصل، بنجاح، حملاته ضد الصنهاجة حتى وفاة المنصور بن أبى عامر وبعد ذلك طلب المعز من عبد المالك، الدكتاتور الأندلسى الجديد، أن يخوله حكم منطقة البربر الغربية وعرض عليه أن يقدم ابنه معنصر كرهينة ودليل على حسن نيته فوافق عبد المالك ثم بعث فى أغسطس ١٠٠٦مـ (ذى القعدة ٣٩٦هـ)(٩٨) برسالة، وصل إلينا نصها، حملها الوزير على بن حظلم Hadhlam إلى أهالى فاس يدعوهم فيها إلى الاعتراف بالمعز الزيرى عطية كنائب للملك على كافة أنحاء المغرب باستثناء الأراضى التابعة لسيشلماسا، وهى إقطاعية خاصة بوانودين بن جزرون بن فلفول. كانت الفترة التى حكم فيها المعتز مليئة بالاضطرابات وعندما وافته المنية ١٠٢٠م (٤١٧هـ) كانت الثورة العامة التى وقعت فى الأندلس قد قضت بشكل نهائى على الروابط التى امتدت ما يقرب من قرن من الزمان بين مجموعة الزناته فى شمال أفريقيا والخلافة الأموية فى قرطبة بما فى ذلك الفترة التى أغتضب فيها العامريون عرش الخلافة.

٥- عبد الملك المظفر ابن وخليفة المنصور بن أبى عامر (١٠٠٢م - ١٠٠٨م) (٩٩)

- أسبانيا الاسلامية فى بداية القرن الحادى عشر :

لم تتوفر لدينا، حتى وقت قريب، معلومات كافية عن الفترة التى حكم فيها العامرى الثانى سيف الدولة أبو مروان عبد الملك المظفر والذى تولى شئون الحكم بعد وفاه والده وحافظ عليه لمدة سته أعوام تقريبا حتى وفاته المبكرة. واليوم نجد الحال

يتغير وأصبحنا على علم بكل التفاصيل الخاصة بفترة حكمه القصيرة وذلك بفضل مصدرين عربيين تم الكشف عنهما حديثاً. وقد خصصا لهذه الفترة مساحات كبيرة لمتابعة نشاط هذا الحاكم وخاصة العسكرى منه الموجه ضد إسبانيا المسيحية. وبقراءة هذه المراجع نجد أن الأندلس قد عاشت فى جوّ من الغليان فى ظل هذا الدكتاتور الجديد. وهو جوّ يسبق الاضطرابات السياسية وبدء الصراعات الداخلية. ولقد ركز هذان المصدران على الهدوء الذى يعمّ أرجاء البلاد أثناء الأعوام السبعة لحكم المظفّروهى الفترة السابقة على المرحلة المحزنة التى تعرضت فيها الأقاليم المختلفة وخاصة العاصمة لحالة من الفوضى والشطط الذى لاضابط له. وإذا ما نظرنا للأمور عن قرب من خلال الروايات التاريخية التى ظهرت لنا فإننا إذا لم نكن نضع أيدينا على البدايات الأولية للثورة القادمة فإننا نشهد بوادر ودلائل قاطعة تشير إلى قدومها مثل تغير النفوس فى الريف والحضر، وتنامى حالة الغضب بين صفوف الأرستقراطية العربية والأرستقراطية الصقلبية الجديدة وذلك كردّ فعل على الأهمية الاجتماعية التى بدأت تحظى بها فى قرطبة طبقة العسكر ذات الأصول البربرية والتى قدمت إلى شبه الجزيرة من المغرب أو أفريقية وهى عازمة على عدم العودة، وهناك الدسائس التى يتم تدبيرها فى الخفاء. ورغم أن عبد الملك لم يكن مثل والده، فإنه - لحسن الحظ - يتمتع ببعض صفاته فقد أظهر احترامه للقيم والتقاليد الأموية وأبلى بلاءً حسناً فى ميدان القتال والغيرة على دينه. وأدى كل ذلك إلى تمتعه بشعبية جيدة بين مواطنيه. وكان ذلك كافيا بضمان عدم تأرجح البناء الهش الأساس الذى أقيم على عجل بواسطة المنصور. وتتمتع أسبانيا بمزايا العيش فى سلام والحياة الوادعة قبل أن تستيقظ على غير ذلك.

لقد أظهر عبد الملك قدراته وجدارته قبل تولى شئون الحكم سواء كان ذلك على مستوى أسبانيا المسيحية أم فى منطقة المغرب - كقائد وكتائب ملك - وكان الابن المفضلّ للمنصور الذى لم يتردد لحظة واحدة فى التخلص من أول أبنائه من أجله - ولد عبد الملك عام ٩٧٥م - ٣٦٤هـ) أما أمه التى عاشت طويلا فكان اسمها «الدلفى» وكانت إلى جوار المنصور عندما وافته المنية فى مدينة سالم. وقد أسدى المنصور العديد من النصائح لابنه قبل وفاته، وقد وردت لنا هذه النصائح[100] وهى تعتبر وصية سياسية حقيقية أملاها وهو بكامل قواه العقلية ويعيش لحظة من لحظات التجلى. وتبيّن هذه الوصايا أن ما فعله العامرى الأول كان يتضمنّ بعض التفاصيل المذهلة. فهو يحث ابنه على السير فى نفس الطريق الذى اختطه أبوه ومهّده فقد ترك له ملكا زاهرا كما أن مخازن الغلال والسلاح مليئة عن آخرها وتم القضاء على الأرستقراطية ولا يمكن لها العودة للتمتع بالمزايا العسكرية التى كانت لها قبل ذلك. ورغم هذا لابد من الحفاظ على

موارد الدولة وعدم التبذير في إنفاقها ويجب مراقبة القائمين على جباية الضرائب. كما ينصح المنصور ابنه بأن يعمل ما وسعه على الإبقاء على الخليفة هشام الثاني الذي يعتبر الغطاء الخارجي وألا يخشى شيئا في هذا المقام لكنه يجب أن يراقب ويحذر الثلة المحيطة بالأمير التي قد تحاول الافادة من قربها منه. وقد اتسمت فترة حكم عبد الملك بالقوة والتماسك إذا ما حافظ على الوصايا ونفذها وهي تلك التي أقسم على الوفاء بها أمام العاهل حامل لقب الحكم لكن بشرط أن يظل مبعدا عن الإدارة العامة للدولة كما تسير الأمور الآن. وأخيرا يجب على عبد الملك أن يعامل أخاه عبد الرحمن برفق ـ فهو شقيق أصغر من عبد الملك سنا وشأنا ـ وعليه أيضا أن يترفق بأتباع العامريين الذين كانوا أمناء مع هذا البيت وأن يوليهم المناصب الحسّاسة سواء في قرطبة أم على الثغور المجاورة لأسبانيا المسيحية.

تلقى عبد الملك هذه الوصية وترك أخاه الأصغر ليقوم بباقي المهام المتعلقة بوفاة والده. وبعد أن يتم وضع الجيش في المؤخرة، وعاد مسرعا إلى قرطبة ليحصل على تصديق هشام الثاني على أن يخلف والده المنصور. وقد أحدثت وفاة الدكتاتور رد فعل واسع المدى بين سكان العاصمة وارتدت النساء في المدينة الزاهرة، الحرائر منهن والأماء، ملابس الحداد. فتركن الملابس الزاهية وارتدين الملابس الصوفية الخشنة. أما في قصر الخلافة فقد ظن القادة الصقالية والمروانية أن آمالهم على وشك أن تتحقق لكنهم سرعان ما رأوا هذه الآمال وهي تتحطم. إذ سارع هشام الثاني، الذي كان يفضل العيش في سلام على أي شئ آخر، باستقبال عبد الملك وسلمه مرسوما يخوله نفس الصلاحيات التي كانت لوالده. وطلب منه أن يعمل على الحيلولة دون إراقة الدماء. وقد أعلن المرسوم على الملأ وقرئ من منبر المسجد الجامع. أما الفتية الذين تهوّروا واتخذوا مواقف معادية للوصيّ الجديد فقد أبعدوا إلى سبته. ويمكن أن تقول بإيجاز إن عملية نقل السلطة تمت دون عقبات تذكر وحظيت بصعود نجم العاهل الأسميّ وعندما وصل موالي العامريين إلى العاصمة ترافقهم قوات باقي الجيش لم يجدوا ما يستدعي التدخل.

يبدو أن عبد الملك قد أظهر شكره لهشام الثاني على تسهيل مهمة نقل السلطات إليه بعد وفاة والده فأحسن معاملته ورعايته بأفضل مما كان عليه المنصور فكان يدعوه إلى بعض الحفلات التي كانت تقام في مقر الزاهرة رغم أنه كان يجعله يعبر شوارع قرطبة متخفيا بالسير في الشوارع الخالية من المارّة. فأفضل شئ هو أن يعيش الغطاء الخارجي في لهو وأن يكون بعيدا عمّا يصبو إليه ما أمكن، كما عمل عبد الملك على

كسب ودّ نساء القصر. وإذا ماكان لنا أن نأخذ برواية ابن حيان فإن هذا العالم الصغير الذى يعيش بعيدا عن قرطبة سواء فى قصرالخلافة أم فى المدينة الزاهرة يقضى العام كله وهو يمارس هوايات صبيانيه، فإلى جوار الخليفة الذى كرّس وقته للعبادة نجد هناك مجموعة من الأتباع الذين يحملون أسماء غير شائعه مثل عبد النور وعبد المنعم وحزب الله وياسين. كما أن الأميرات تهفو أنفسهن إلى كل ما هو غريب مثل قيام بعض تجار التحف بجلب لوح خشبى قبل إنه جزء من سفينة نوح وباع اللوح لهن بسهوله؛ أو حافر حمار عزير(١٠١). ومن أجل الحصول على كل هذه التحف لم يبخل عليهن السيد الجديد ببعض من موارد الدولة.

سوف تعيش قرطبة فى هذه الفترة حالة بذخ لا حدود له فالصباغون وتجار الأقمشة الفاخرة لم يشهدوا قبل ذلك جمهورا ضخما من المشترين مثل ماالديهم الآن. وكان عبد الملك أحد الروّاد فى هذا المجال. فقد ظل الناس فى قرطبة يتذكرون رحيله فى بعض الحملات وقد ظهر أمام جمهور فغرفاه وعلا الوجوه الإعجاب وهو يمتطى صهوة جواد أصيل ويرتدى شبكة واقعة صنعت من الفضة المذهبة وغطى رأسه بخوذة ثُمَانية الشكل ومرصعة بالأحجار الثمينة وفى وسطها ياقوته تتلألأ أما حرسه المحيط به فلم يكن أقل مما عليه سيده ورغم مظاهر البذخ تلك نجدأن خليفة المنصور يعرف كيف يظهر تواضعه فى الوقت المناسب بزيارة المتصوفة الذين يعيشون حياة الزهد(١٠٢) ويسكنون المقابر. أو الاهتمام شخصيا بحالة السجون والتأكد بأن لا أحد من المساجين قد ترك فى غياهب السجن طوال عمره. ثم نجده يحذو حذو والده فى الميدان الثقافى رغم أنه أقل منه قامة بشكل واضح، إذ ظل على ما كان عليه والده فى دفع أرزاق الشعراء والأدباء وكذلك علماء الفلك ومحترفو لعبة الشطرنج المحيطين به. إلا أن عبد الملك ظل رغم كل هذا، بتربيته وميوله، جنديا. فلا نكاد نجده سعيدا إلا وهو فى رفقه ضباط كتائبه وهم فى أغلبهم من المسيحيين أو البربر الذين شاركهم الشراب فى العديد من المناسبات و كان الخمر يسيطر عليه - طبقا لأحد مورخى سيرته - فينخرط فى اللهو ويخرج عن وعيه»(١٠٣) كان الناس يعرفون ذلك لكنهم يتغاضون عنه ذلك أن الدكتاتور الشاب قد راعى عندما تولى مقاليد الحكم القيام بتخفيض سدس الضرائب التى يجب على رعايا المملكة سدادها.

كان إلى جوار عبد الملك شخصان يحتلان فى البداية أعلى المراكز فى الدولة. ولم يكن لأخيه الأصغر عبد الرحمن إلا دور غير واضح. هاتان الشخصيتان هما الفتى الصقلبى «طرفة» والوزير العربى، عيسى بن اليعسوبى المشهور بـ «ابن القطاع»

كلاهما كان صنيعة المنصور، لكن صلات القرابة التى تربطهم بالأسرة العامرية لم تحل دون قيامهم بتدبير بعض الدسائس ضد من يمثلهم محاولين الإطاحة به.

كان «طرفة» أحد القادة السبعة «الفتى الكبير» من الصقالبة الذين أعلى العامرى من شأنهم بين ذويهم من السلافيين وهم الذين كان يطلق عليهم «خليفة». فبعد أن قام المنصور، فى بداية عهده، بتحييد نشاط الفتية التابعين للحكم الثانى وجد نفسه مضطرا إلى اللجوء لخدمات بعضهم لحراسة مقرّه الجديد فى الزاهرة. ثم أخذوا يترقون فى مناصبهم شيئا فشيئا. وعندما جاء عبد الملك زاد من أعدادهم(١٠٤) وخصص لهم رواتب مجزية. كما كانت هناك بعض الشخصيات الأخرى من الصقالبة الذين أوكلت لهم مهام سياسية من الطراز الأول ومنهم وديع قائد منطقة الثغور الوسطى، وهو الذى تحدثنا عن نشاطه العسكرى فى المغرب؛ كما نجد أيضا زهير أو خيران أومشاهد. وهذا الأخير هو الذى أنشأ فيما بعد الإمارة البحرية فى دانية Denia جزر البليار. وأخذت هذه الأرستقراطية السلافية التى إستعادت وضعها، تلعب دورا نشطا تمثل فى محاولة القضاء على النفوذ الذى أخذت تستعيده ـ رويدا رويدا ـ بعض الأسر ذات الأصول العربية والتى كان معظم أفرادها يعملون فى وظائف إدارية رفيعة. إلا أن طرفة رئيس الصقالبة العامريين تجاوز حدوده إذ بعد حصوله على درجة «حاجب» التى منحها له عبد الملك أخذ يتصل ببعض المتآمرين الذين كان من بينهم عبد الملك بن إدريس الجزيرى(١٠٥) ورتب خطة تآمرية لسنا ندرى الكثير عن تفاصيلها وفي اللحظة المناسبة تم الإبلاغ عنه. فأبعد إلى ميورقة. ونفذ فيه حكم الإعدام بعدها بوقت قصير. أما الرجل الثانى فهو عيسى بن سعيدالذى لم يستطع هو الآخر مقاومة إغراء التآمر على ابن المنصور الذى يدين له بكل شئ. كان عربيا من أصل متواضع، إذ كان والده معلما وقد شغل فى عهد المنصور بعض المراكز الهامة وجمع ثروة ضخمة. ووكلّه عبد الملك بالإشراف على إدارة الدولة ومنحه درجة وزير كما زوّج عبد الملك إحدى بناته لابن عيسى. لكن سرعان ما اكتشف ابن القطاع أن السيد الجديد لأسبانيا الإسلامية ليس مثل أبيه، فأخذ يميل إلى توجّهات بعض الأرستقراطيين فى قرطبة وهم بنو خضير وبنو فطيس واتخذ موقفا فيه استقلاليه كاملة وأخذ يلاحق الصقالبة ويعمل على أن ينضم إلى صفوف الجيش بعض القيادات العربية. ولما كان عبد الملك يثق فى وكلائه لم يعر أذناً صاغية للشكاوى التى تقدم ضد الوزير، لكن والدته «الدلفى» فطنت لما يحدث وسرعان ما توافرت لديها الأدلة التى تقول بأن عيسى يحاول القيام بعملية انقلابية. وعندما أدرك الوزير الخطر المحدق به أزاح القناع من على وجهه واتضحت معالم المؤامره: القضاء على عبد الملك وعلى هشام الثانى فى وقت واحد وأن يحتّل

عرش الخلافة أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر والذى يدعى هشام بن عبد الجبار؛ إلا أنه كان فى حاجة لمزيد من الوقت حتى ينفذ خطته. فتم اغتياله على يد رجال من العامريين فى قصر عبد الملك نفسه وفى حضوره وذلك فى اليوم الرابع من ديسمبر ١٠٠٦م (١٠ ربيع الأول ٣٩٧هـ) وبعد ذلك بثلاثة أيام تم القبض على المتآمر المروانى وحبسه فى غياهب السجن فى قرطبة حيث مات إما جوعا أو خنقا(١٠٦). وبعد قليل من عودة عبد الملك المظفرة من حملة على كلونيا طلب من هشام الثانى أن يمنحه لقب المظفّر فأعطى له. وهو اللقب الذى يستخدمه المؤرخون العرب عندما يتحدثون عنه. وكان عبد الملك سعيدا حتى هذه الآونه بلقب سيف الدولة الذى حصل عليه أثناء حياة والده المنصور. صدر مرسوم الخليفة بمنحه اللقب الجديد فى أكتوبر ١٠٠٦م (محرم ٣٩٨هـ) ومنح ابنه الشاب أبى عامر محمد درجة «الوزارة المزدوجة»(١٠٧). لكن المظّفر لم يتمتع بهذا اللقب إلا وقتا قصيرا، فسرعان ما ظهرت عليه أعراض مرض من الأمراض الصدرية أودت بحياته فى العام التالى عندما خرج فى حملة شتوية ضد سانشو غرثية. ووافته المنية فى مكان غير بعيد عن قرطبة وبالتحديد بجوار دير Gua-dalmellato (Armelat(١٠٨) يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٠٠٨ (١٦ صفر ٣٩٩هـ) ولم يتجاوز عمره بعد ثلاثة وثلاثين عاما. ويرى بعض المؤرخين ـ ربما عن حق ـ أن عبد الرحمن شنجول الابن الثانى للمنصور كان وراء الموت المبكرّ لأخيه الأصغر(١٠٩). وعلى أى الأحوال فعندما ذهب المظفر من الساحة(١١٠) بدأ فى أسبانيا عصر الهمّ والكرب المسمّى بـ «الفتنة» وأخذت الخلافة تحتضر.

– حملات عبد الملك المظفر ضد أسبانيا المسيحية :

إذا كان عبد الملك قد أظهر اهتمامه بالاستمرار على خط والده والحفاظ على ما تركه فذلك مردّه إلى النشاط الذى قام به طوال مدة حكمة القصيرة ضد المسيحية الأسبانية. إذ استطاع – ولعدة أعوام – أن يحتفظ لقرطبة بهيمنتها العسكرية على الممالك المسيحية التى أضعفتها الصراعات الداخلية وأصبحت غير قادرة على التلاحم فيما بينها لمواجهة عدوانية أعدائها التقليديين.

كانت وفاة المنصور خبرا له وقعه الشديد سواء فى أسبانيا المسيحية أو المسلمة، فلن تعانى ليون وقشتاله ونبرّة وباقى الثغور من وقع الضربات التى كان يكيلها لهم المناوئ الجرئ الذى يمثل المسلمين. وبعد أن ذهبوا بالعامرى «ودفنوه فى الجحيم» ـ طبقا لعبارة(١١٩) وردت فى أحد كتب التاريخ باللغة اللاتينية نجد أن

التحالف الذى أنشأه الكونت سانشو غرثيه يعود للظهور من جديد والقيام بهجوم على الحدود الأندلسية. لكن الأحداث لم تَسِرْ كما تتصورّ وربما كان لشهرة عبد الملك العسكرية دخل في تخوف بعض الممالك في الشمال من القيام بهجوم عندما علمت أنه تولى السلطة بعد أبيه. والاستثناء الوحيد نجده في مسلك كونت برشلونه الذى كان قد وقع هدنة مع المنصور منذ وقت قصير. فظن نفسه قادرا على إلغائها والقيام بهجوم على الأراضى الإسلامية المجاورة. أما سانشو غرثية فقد قبل التفاوض كوسيلة لوقف الاعتداءات وتفاوض مع وديع قائد مدينة سالم. أما الكونت منندو غونثاليث الوصيّ على الملك الشاب ألفونسو الخامس ملك ليون فقد تشكك عبد الملك في نيته وأرسل جيشه متجها إلى قلمرية Coimbra لتهديد أراضى جليقية والحيلولة دون وقوع هجوم مسيحى على الثغور الجنوبية للأندلس. وانتظر عبد الملك تحسن الأحوال الجوية حتى يذهب لتأديب كونت برشلونة لخرقه معاهدة السلام.

جاءت الحملة التى سيرها العامرى الثانى ضد قطلونية Cataluña في صيف عام ١٠٠٢م (٣٩٣هـ) بعد أن أحسن الأعداد لها واستدعى من يريد التطوّع للمشاركة في الجهاد وفي السابع عشر من شهر يونيو (الثالث عشر من شعبان) خرج من قرطبة مارا بطيطلة وحلّ بمدينة سالم حيث إنضمت إليه القوات الأخرى من المسيحيين والتى بعث بها إليه سانشو غرثية وفاء الأحد شروط المعاهدة التى تم توقيعها مؤخرا مع قشتاله(١١٢). كما رافقه أيضا القائد وديع متوجها إلى سرقسطة وليريدا Lérida بغية الهجوم على الثغور الأسبانية من الناحية الغربية واجتياز جبال قطلونية وصولا إلى السهول المحيطة ببرشلونة.

كانت بعض الحصون هى الأهداف الأولى لعبد الملك وهى: حصن موما قصر Mumaqasr وحصن مادانيش Madanich وقد تم تحديد مكان هذين الحصنين مؤخرا بطريقة تدعوا للاعجاب(١١٣) إذ هما في مكانين يقعان جنوب سلسلة جبال Montsech يفصل بينهما نهر نوغيرا باياريسا Noguera pauresa وتسمى القرية الأولى مون ماسترى أما الثانية فهى ميا Meyá. استولى وديع ـ دون عناء ـ على الحصن الثانى أما العامرى فقد إستولى على الحصن الأول وذبح الحامية المسيحية الموجودة. وواصلا زحفهما نحو الشرق حتى وصلا إلى قشتيولى Castelloli القريبة من إيغوالادا Igualada ومن منْريسه Manresa قبل أن يتم إصدار الأوامر للجيش بالتقدم نحو لاردة. ثم غادر هذه المدينة يوم الخامس من سبتمبر (٥ ذى القعدة) عائدا إلى قرطبة وكان قد أرسل قبل عودته رسالة موجهة إلى هشام الثانى يبلغه فيها بنتائج

الحملة الأولى التى أشارت إليها المصادر المسيحية ولو بشكل موجز(١١٤). وطبقا لابن حيان فإن بورّيل الثالث كونت برشلونه عرض على عبد الملك بعض مقترحات السلام من خلال سفارة بعث بها إلى قرطبة. استقبل أعضاء السفارة وأجرى عرضا عسكريا لاستعراض القوة، وهذا النوع من الوقائع حدث لآخر مرة فى قرطبة وقد شهد بعض التجار من المصريين والعراقيين الذين قدموا إلى أسبانيا بغرض التجاره مظاهر الأبهة فى الخلافة وحملوها كذكريات ارتسمت إلى الأبد.

تم الأتصال بعبد الملك عام ١٠٠٤م (٣٩٤هـ) ليقوم بدور الحكم فى مشادة وقعت بين كونت قشتاله غرثية سانشيث، ومنديث غونثاليث الوصىّ على الملك الشاب ألفونسو الخامس ملك ليون الذى لم يبلغ العاشرة بعد. ولما كانت أمه «البيرة» أختا لسانشو غرثيه فإن الكونت القشتالى أراد أن يزيح الكونت الجليقى ويمارس هو باسم أخته وصايته على مملكة ليون. وللخروج من هذه الأزمة أرسل إليهما العامرى بقاضى أهل الذمة فى قرطبة والذى يدعى أصبغ بن عبد الله بن نبيل. وقد حكم لصالح منديث غونثاليث(١١٥) فظل الكونت الجليقى وصيا على وريث عرش ليون الشاب حتى اغتياله عام ١٠٠٨م (٣٩٨هـ)

ويشير ابن حيان باقتضاب إلى إحدى الصوائف التى وقعت فى العام نفسه ١٠٠٤م (٣٩٤هـ) قام بها عبد الملك ضد سانشو غرثية حيث طافت القوات الإسلامية بأراضى ذلك الأخير دون أن تجد أية مقاومة. وربما كان سبب هذه الحملة غضب سانشو غرثية من الحكم الذى قضى به القاضى فنقض عهده مع الأندلس. لكنه لم يتأخر كثيرا فى طلب تجديد العهد، ولهذا ذهب بنفسه إلى قرطبة ووعد بأن يشارك فى الحملات المقبلة التى قد يسيّرها عبد الملك ضد مملكة ليون أو ضد أملاك مناوئيه من بنى غومث دى كاريون. وبالفعل نجد أنه فى عام ١٠٠٥م ٣٩٥٠هـ) سيرّ الدكتاتور العامرى إحدى الصوائف على الحدود الجليقية وانضم، فى طيطلة، إلى وديع وسانشو غرثية ثم اتخذ طريقه نحو الشمال الغربى. وأرسل بقائده السلافى لتدمير إقليم سمّورة ذلك أن المدينة كانت لا تزال على حالة التهدم منذ عام ٩٨١م (٣٧١هـ) التى ألحقها بها جيش المنصور. وأخذ يتوغل نحو الشمال والوديان الليونية حتى وصل عبد الملك وسانشو غرثية إلى قلعة اشتهرت بأنها محصنة تحصينا شديدا وهى قلعة لونا Luna(١١٦) الواقعه على النهر الذى يحمل نفس الاسم وهو أحدروافد نهر أوربيغو Orbigo. ولا يبدو أن هذا التوغل الجرئ فى أراضى مملكة ليون كان الهدف منه تحقيق مكاسب مادية بالنسبة للقائد المسلم. فمنذ زمن طويل لم يتوغل جيش إسلامى بهذا الشكل فى سلسلة جبال كنتبريا Cantabria.

وفى صيف عام ١٠٠٦م (٣٩٦هـ) سيّر عبد الملك حملة أخرى كان هدفها بنبلونة طبقا للمؤرخ ابن عذارى؛ لكن المسار الذى اتخذته هذه الحملة يجعلنا نظن بأن مملكة بَسْكونية لم تكن هى المقصودة بالهجوم إذ أن العامرى توجه أولا إلى سرقسطة وبعد ذلك إلى وشقة Huesca وببشتر Barbastro ليتوغل بعد ذلك فى أراضى العدو. وهدم حصن ابينيواناس Abinyunash وهدد بلدة أخرى اسمها شنت يوانش San Juan ورغم أنه من الصعب حتى اليوم تحديد هذين المكانيين جغرافيا فإن هناك قرية تسمى بهذا الاسم إلى الشرق من بويانيا Ballania ومن المحتمل أن يكون الهجوم الذى وقع عام ١٠٠٦ كان موجها إلى المنطقة المستقلة ريباغورثا Ribagorza الواقعة شمال شرق بلدة بيبشتر. وفى هذه المرة تعرضت بلدة روضة Roda الواقعة فى وادى نهر إيسابينا Isabina للاحتلال الإسلامى ولو بشكل مؤقت(١١٧).

حظيت الحملة الصيفية لعام ١٠٠٧م (٣٩٧هـ) باهتمام مورخو سيرة عبد الملك إذ يرونها على أنها أكبر الحملات التى تمت فى عهده فقد نال بعدها لقب «المظفر» إلا أننا نجهل تفاصيلها وكل ما نعرفه هو أن الجيوش القرطبية ربما قامت بمواجهة تحالف مسيحى يقوده ـ كالعادة ـ سانشو غرثية الذى استعاد قدرته على الحركة من جديد بعد ثلاثة أعوام من الهدنة. وأن هذا الكونت القشتالى تعرض لهزيمة نكراء على أرضه كما أن بلدة كلونية الواقعة على الجانب الآخر من نهر الدويرة قد تم الاستيلاء عليها ونهبها من جديد. وبالرغم من هذه النتائج وجد عبد الملك نفسه مضطرا لحمل السلاح ضد قشتالة بعد عودته إلى قرطبة بوقت قليل، أى خلال خريف العام نفسه (صفر ربيع الأول ٣٩٨هـ) إلا أنه يبدو أن حملته اقتصرت على حصار قلعة فى شنت مارتين والاستيلاء عليها. وربما كان ذلك المكان هو المعروف الآن بـ شنت مارتين دى روبيالس S.M.D. Rubiales الواقع يمين نهر الدويرة أى بين روا Roa وبينيا فييل Peñafiel إلا أن هذا الانتصار لم يثر الطمأنينة على كافة الحدود الوسطى، إذ ظل سانشو غرثية على سياسته العدوانية فما كان من المظفر إلا مهاجمته مرة أخرى فى بداية صيف عام ١٠٠٨م ،شوال عام ٣٩٩هـ) وكانت نتيجة المعركة فى رأينا هزيمة المظفرّ ذلك أن المؤرخين المسلمين أوعزوا ماحدث إلى مرضه وعدم التزام بعض الجند بالأوامر. وعاد إلى قرطبة فى سبتمبر من العام نفسه (المحرم) بعد أن قضى فترة طويلة دون القيام بأيه أنشطة عسكرية تذكر وبقى مرابطا فى مدينة سالم. وقرر بعد ذلك بشهرين القيام بحملة عسكرية أخرى لمحاربة قشتاله. وقد رأينا أن المنية وافته وهو فى بداية الطريق إذ كان يعانى من مرض فى صدره. وكانت الظروف التى أحاطت

بوفاته غامضة للغاية. وعلى ذلك فإن التهديد الذى ظل يمثله الإسلام بالنسبة للمسيحية الأسبانية سوف يظل التآمر ضده قائما لمدة طويلة.

يقص ابن حيان أنه فى عام (١٠٠٦م – ٣٩٦هـ) عندما كان عبد الملك متواجدا فى مدينة سالم التقى به سفير بيزنطى سلّمه رسالة من الأمبراطور باسيليو الثانى[١١٨] وأنه جاء إلى أسبانيا ببعض رجال البحرية الأندلسيين الذين تم أسرهم على سواحل جزيرتى سردينيا وكورسيكا. ومن المحتمل أن هذا الرسول جاء فى مهمة تبادل الأسرى أو أنه كان يريد من الدكتاتور القرطبى، إصدار الأوامر بمنع مواطنيه من سكان المناطق الساحلية من ممارسة أعمال القرصنة فى البحر المتوسط. وعلى أى الأحوال يبدو لنا أن هذه هى المرة الأخيرة التى يمثل فيها سفير بيزنطى أمام رئيس دولة إسلامى فى شبة الجزيرة الأيبيرية.

هوامش الفصل السادس :

١) المصادر العربية: بالإضافة إلى «النسخة» المتداولة قليلا من المقتبس لابن حيان والخلاصة ببضع سنوات من ولاية الحكم الثاني والمحفوظة في الأكاديمية الملكية التاريخ بمدريد (أما النسخة الأصلية التي كانت موجودة في القسطنطينية - الجزائر - فيبدو أنها فقدت، ويمكن الرجوع لابن عذاري في كتابه البيان الجزء الثالث ص ٢٤٨- ٢٦٩ من النص الأصلي - وابن الخطيب «أعمال» ص ٤٧- ٤٨ - وابن خلدون «العبر» ص ١١٤-١٤٧ - وابن الأبار «الحلة» ص ١٠١- ١٠٥ - والنويري «تاريخ أسبانيا ص ٢١٦- ٢١٧ من النص الأصلي والمقري «الحوليات» الجزء الأول ص ٢٤٧- ٢٥٧

وانظر الفهرست أيضا.

المصادر غير العربية :

- Dozy Hist. Mus. Esp. II. págs 176- 99; los tarbajos de CODERA agrupados en Est. crit. hist. ár. esp. (IX) pags 151. 263 (vease infra, ns 15. 16 y 17 de este capitulo): lévi Provençal. Esp. Mus. X.saiecle passim.

٢) تجنبنا - عمدا - الحديث بالتفصيل عن الأمير الأديب وهاوي جمع الكتب. وسوف نتناول هذا الجانب من حياته وكذا إسهامه في تطوير قرطبة فنيا في مكان آخر.

٣) Cf supra ص ٢٢٦- ٢٢٧.

٤) ليفي بروفنسال «أسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر الميلادي ص ١٦٨ ورقم ١. انظر أيضا الشقندي في «الرسالة».

٥) انظر دوزي «النورمانديون في أسبانيا» الجزء الرابع - غزوه ٩٦٦- ٩٧١) في - Rech.II pags 286 290.

٦) قام المؤرخ كوديرا Codera بنشر قائمة الفصول الخاصة بهذا الجزء من المقتبس في «مكتبة ورثة سيدي حمودة في القسطنطينية apud B.R.A.H., XIII 1888 pags 53- 61.

٧) للحصول على رؤية شاملة وعامة الحياة الصحفي انظر ليفي بروفنسال- أسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر ص ٩-١٠.

٨) ربما أمكن لنا أن نربط علاقة وضع أسماء مذكرة لبعض الجواري في القصر بوجود بعض الغلاميات بين الحريم الملكي. انظر في هذا القام دوزي Suppl. Dict. arabes II pag 225 وبالنسبة «لجعفر» كاسم حربي أطلق على صبح. وهي تسمية تفسر لنا كيف أن عتقاء أم الولد هذه كانوا يحملون لقب الجعفري- انظر أيضا دوزي تاريخ أسبانيا الأسلامية الجزء الثالث ص ١٩٩ عدد ٢ - وهناك شئ من الحقيقة فيما أورده مؤرخ إسلامي (المقري- الحوليات الجزء الثالث ص ٥٩) بشأن «حب الولد» عند الحكم الثاني قبل توليه الحكم، وعلى أي الأحوال فإنه لم يهتم بهذا الأمر إلا بعد توليه الحكم ليخلفه على الكرسي فهل يمكن الاعتقاد - طبقا المؤرخ - بأن الممارسة الدائمة لتلك العادة التي كانت شائعة في أسبانيا على مر العصور،

هى التى أدت إلى تأخر وجود ولد للحكم الثانى؟ ومع هذا انظر ابن حزم فى طوق الحمامة ص ٦ حيث تحدث عما كان يشعر به الخليفة من ولع وشغف بمحظيته صبح.

٩) أورده المقرّى فى نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٥٢– ٢٥٦ وترجمة دوزى.

١٠) يذكر بن الفرضى بشكل عابر عزوة أطلق عليها «غزوة الدور» كان على رأسها الحكم الثانى ووقعت عام ٩٦٦م (٣٥٣هـ) والتى مرّ أثناءها بمدينة Sidona ـ شذونه ومن الصعب فهم المغزى من تلك الحملة فهل كان الهدف هو السيطرة على بعض جيوب الأنشقاق داخل المملكة أم كان الهجوم على النقاط المتقدمة نحو الجنوب والتابعة لجيلقية الليونية ؟

١١) ابن خلدون ـ العبر الجزء الرابع ص ١٤٥وأورده المقرّى فى نفح الطيب Analectes الجزء الأول ـ ص ٢٤٨ـ وبعد ذلك مباشرة قام والى Huesca المسلم بحملة على حصن جبرة Yebra (يقرأ فى النص العربى: حصن جبّة) وهى بلدة تقع في داخل التقسيم الأدارى لـ Jaca فى الجنوب الشرقى لهذه المدينة. وأسفرت الغارة عن الحصول على غنائم وفيرة سواء من داخل الحصن أم من الحقول المجاورة.

١٢) تم استعاده غورماج من أيدى المسيحيين فى ٧ يوليو عام ٩٤٠م وذلك طبقا للحوليات (Huici, Crom. lat de la Recomquista I, pag 42) Complutenses هذا الحصن الأموى قد درّس أثريا من قبل بعض المتخصصين.

- Isidro GIL, Gormaz, en Arte Español, I,Madrid, 1913, paginas 408y sigs. ; Narciso SENTENACH, Gormaz : estudio histórico-arqueológico, en B : R. A. H., LXXX, 1922, págs. 53-68, y últimamente, Juan Antonio GAYA NUÑO, Gormaz, castillo califal, en Grónica arqueológica de la España musulmana, apud Al-Andalus, VIII, 1943, págs. 431-50 (Con buenas fotografias), —Un fragmento de la inscripción conmemorativa de la restauración del castillo de Gormaz, por orden de al-Hakam II, ha sido publicada ibid., págs. 450-2, por M. OCAÑA JIMÉNEZ, Lápida árabe de la ermita de San Miguel de Gormaz (Soria).

١٣) عن الفترة بين مقدم الحكم الثانى إلى كرسى الحكم وبين عام ٩٦٥م (٥٣٤) انظر ابن خلدون ـ العبر ـ الجزء الرابع ص ١٤٤ [أوردها أيضا المقرّى فى الحوليات الجزء الأول ص ٢٤٨] حيث يشير ـ دونما تفصيل ـ إلى هجوم إسلامى على قورية Coria فى إقليم برشلونه.

١٤) بيدال . م. «أسطورة أمراء Lara ـ (ص ٤٥٤– ٥) مع إضافات لاحقة.

١٥) قام بدراسة هذه السفارات التى وردت فى المقتبس لابن حيان العلامة.

- CODERA, Embajada de príncipes cristianos en Córdoba en los últimos años de Alhaquem II, en B. R. A. H., XIII, 1888 (artículo reproducido en Est. crít. hist. ár. esp. (IX), págs, 171-205).— Sobre la embajada catalana de junio de 971 (sha'ban 360), véase J. MILLÁS VALLICOSA, Els textos d'historiadors musulmans referents a la Catalunya carolingia, pág. 35 ; el mismo, Assaig d'historia

de les idees fisiques i matemátiques a Calalunya, Barcelona, 1931, pág. 102.

١٦) انظر - "Embajadores de Castilla encarcelades en Cordoba," Codera en les ultimes ans de Alhakem II en B.R.A.H. XTV 1889 pags y sigs.

١٧) - Codera "Campana de Goraz en el ano 364 H en B.R.A.H. XIV 1889 (Repraducido ibid pag 223- 63.

١٨) فيما يتعلق بسياسة الحكم الثانى فى شمال أفريقيا. نجد أنه بالأضافة إلى المراجع العربية المشار إليها فى رقم ١ من هوامش هذا الفصل يمكن الرجوع إلى:ابن عذارى فى كتاب البيان الجزء الأول (انظر فهرست الترجمة - وابن خلدون فى تاريخ البربر الجزءين الثانى والثالث من الترجمة (انظر الفهارس) - ابن إبى ذرع فى روحى القرطاس» Passim ويبدو أن تلك المصادر جميعها قد إعتمدت على ابن حيان والذى أورده ليفي بروفنسال.

- Fragments historiques sur les Berbères au Moyen Age, págs. 5-15 Muchos detalles sobre los acontecimientos que mencionaremos, para el período comprendido entre 360 y 364, la Berbers, págs. 334 y sigs. (passim).

كما أن الكثير من الفقرات الواردة لازالت هناك فى الصورة المحفوظة لدى الأكاديمية الملكية للتاريخ فى مدريد (انظر أيضا GOURNEL, Les Ber bers, pag 334- y sigs (Passim)

١٩) فيما يتعلق بالبرغوات - Cf supra ص ١٦٠ والأشارات الخاصة بالسفير أبو صالح زمور فقد أوردها فى الموسوعة الأسلامية الجزء الأول ص ٧٢٤- ٧٢٥.Basset

٢٠) ابن عذارى - البيان - الجزء الأول - النص ص ٢٣٦ (الترجمة ص ٩٣٣١

٢١) «جوقل» «المسالك» الطبعة الجديدة لـ J.H. Kramers, Leyde, 1938 pa 79 cf ALEMANY. La geografia de la peninsula Iberica en los escriteres àrabes pag 20.

٢٢) Cf supra ص ٣٦٠ عدد ١٢٧.

٢٣) المصادر العربية بالنسبة لصغر سن هشام الثانى والدور الذى لعبه ابن أبى عامر حتى عام ٩٨١م فإن المصدر الرئيسى من ابن حيان لابن عذارى – البيان – الجزء الثانى النص - ص٢٦٩- ٢٩١ (الترجمة ٤١٨-٤٥٢) إنظر أيضا ابن الخطيب أعمال - ص ٤٩- ٦٦- ابن خلدون - العبر - ص ١٤٧ - المقرّى: الحوليات الجزء الأول ص ٢٥٧ ومابعدها.

انظر أيضا دوزى: تاريخ أسبانيا الأسلامية الجزء الثانى ص ٢٠٠-٢٢١.

٢٤) فيما يتعلق بكافة أنشطة ابن أبى عامر نلاحظ أن المصدر الرئيسى هو ابن عذارى فى البيان - الجزء الثانى - ص٢٢٦٧- ٢٦٩ من النص الأصلى. - أضف إلى ما سبق النص الذى ورد حول تاريخ العامريين عند ابن حيان والذى ورد إلينا فى «الذخيرة» لابن بسام الجزء الرابع) وكذا الاشارات الهامة التى وردت فى «الأعمال» لابن الخطيب ص ٦٧- ٩٦.

انظر أيضا ابن الأبار فى الحلة ص ١٤٨-١٥٣ - ابن الأثير: الحوليات ص ٣٨٣- ٣٨٤ - عبد الواحد المراكشي «المعجب ص ١٧- ٢٨ من النص - وابن خلدون فى العبر الجزء الرابع ص١٤٧- ١٤٨-

النويري: تاريخ أسبانيا ص ٢١٨– ٢٢٠ من النص. المقري: نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٥٧– ٢٧٢ وما يليها. كما أن هناك بعض الطرائف عن ابن أبي عامر وردت في مؤلفين غرناطة خلال القرن الثاني عشر وهما «كتاب المرقبة العليا» لابن الحسن النباهي. والمختارات مجهولة المؤلف بعنوان «كتاب الزهرة المنثورة في الأخبار المأثورة» (رجع إليها المقري).

المراجع الأجنبية :

- BIBLIOGRAFIA : DOZY, Hist. Mus. Esp., II, págs. 186-275. Una biografia por LÉVI- PROVENÇAL de Ibn Abi 'Amir figura en la Enc. Isl., III, págs. 269-72, s. v. al-Mansur. Véase también R. MENÉNDEZ PIDAL, España del Cid, I, Págs. 79-80.

٢٥) Cf. la semblanza de A. J. WENSINCK, en la Enc. Isl., III, pág. 906, s. v.

٢٦) Cf. la semblanza de M. BENCHENEB, en la Enc. Isl., II, pág. 936, s. v.

٢٧) أورد دوزي هذه الطرائف في تاريخ أسبانيا الأسلامية ص ١٨٦– ١٨٧ طبقا لرواية «المعجب» لعبد الوهاب المراكشي. أيضا في «الأعمال» لابن الخطيب ص ٨٩– ٩٠.

٢٨) طبقا لما أشار دوزي. نفس المصدر، الجزء الثاني ص ١٩١ رقم ١ . فإن اسم عامر ظهر في العملات الخاصة بعهد الحكم الثاني والتي تم سكها اعتبارا من عام ٣٥٦هـ. إلا أن هذا الاسم سوف يظل أيضا في نفس المكان على العملات التي تم سكها بعد ذلك حتى عام وفاة المنصور. فعلى سبيل المثال نجده في درهم يعود إلى عام ٣٩٢هـ (عام ١٠٠١– ١٠٠٢م) محفوظ في متحف الآثار بمدريد Cf. J.De la RA-D'AY DELGADO, Catalogo de minedas arabigas espanolas- Madrid 892 pag 56 .

٢٩) ابن عذاري. البيان، الجزء الثاني ص ٢٦٨ من النص. انظر أيضا المقري في الحوليات ص ٦١. و Cf M. Pidal :Historia y epopeya pags 19, 18.

٣٠) هي عبارة عن فخذ من قبائل بربر إفريقية من بني دمّور Dammur والتي قامت بتزويد ميليشيات الحكم الثاني بأعداد كبيرة وقد رافق هؤلاء الجنود جعفر بن علي بن حمدون عندما عبر إلى أسبانيا. أما بنو برزال فقد أسسوا خلال النصف الأول من القرن التاسع ـ كما سنرى في حينه ـ أسره في قرمونة Carmona. انظر ابن خلدون : تاريخ البربر الجزء الثالث ص ٢٩١– ٢٩٢.

٣١) الأعمال ص ٥٦– ٦٥ ـ نجد في نفس المؤلف ص ٥١– ٥٦ حيث يقوم ابن الخطيب بإيراد فقرة مطولة عن الوضع الأجتماعي في قرطبة عند وفاة الحكم الثاني؛ ويقوم في هذه الفقرة بتصنيف سكان العاصمة إلى ستة صفوف ...... وقد قام H. Péres بشرح هذه الفقرات موبخا بعض الأخطاء الخطيرة في مؤلفة Poesie Andalause.٣ ملاحظة ـ ١٧ ص

٣٢) طبقا لابن الخطيب «الأعمال». ص ٦٨. فإن علية القوم في القصر قد نصحوا المصحفي أن يقوم بتدمير الجسر الذي يربط بين شاطئ نهر والذي أنه بغية الحفاظ على أمن الأراضي القرطبية. فأي جسر كان ذلك؟ لانجد ما يساعدنا على تحديده.

٣٣) لازالت النقطة المرتفعة في هذه السلسلة الجبلية تحمل اسم «محلة العربي المنصور».

٣٤) ابن عذاري ـ البيان الجزء الثاني ص ٢٨٤ من النص.

٣٥) نفس المصدر ص ٢٨٥[

- (No hay biografía de Asma' en la Takmila de IBN AL'ABBAR, por lo menos en el suplemento publicado en 1915 en la Miscelánea de estudios y textos árabes); MAQQARI, Analectes, II, pág. 62. Las principales noticias sobre Asma' nos las da IBN 'ABD AL-MALIK AL-MARRAKUSHI, al-Dhayl wa-l-Takmila, V (ms. de Rabat)., pág. 246. Por ellas sabemos que, antes de ser esposa de Ibn Abi 'Amir, la hija de Galb estuvo casada con el visir 'Abd al-Rahman ben Musa ben Hudayr, que la repudió viviendo todavía al-Hakam II. El biógrafo añade que, durante toda su vida, Almanzor no se separó nunca de Asma', que era mujer culta y particularmente inteligente.

٣٦) لا نعرف عنها إلا القليل ـ ابن عذاري: البيان الجزء الثاني ص ٢٨٥ من النص يقتصر هذا المؤلف على الاشارة إلى أن ابن أبي عامر أخذ طريقه إلى طليطلة يوم ١٨/ ٩/ ٩٧٧ (أول صفر ٣٦٧هـ) اجتمع بغالب واتجه كلاهما إلى شلمنقة حيث قاما باحتلال أرباضها بعد الأستيلاء على حصني المال و Z.n.b. (لم يتم تحديد مكانها) وكانت هذه الحملة قصيرة حيث عاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد أربعة.g وثلاثين يوما.

٣٧) سوف نعالج لاحقا تلك الموضوع.

٣٨) أورد ابن القرطي هذه الأشارة التاريخية المحدده في كتابه «تاريخ» عدد ٨٢١ ـ أيضا أسين بلاثيوس في «ابن مسرّه ومدرسته ص ٩٥ ـ وفيما يتعلق بهذه الدسيسة فقد أوردها ابن حزم في طوق الحمامة ص ٤١ ـ ٤٢.

٣٩) طبقا لما فهمناه من بيت من الشعر الهجائي ورد في ابن حيان من خلال ابن عذارى في كتاب البيان الجزء الثاني ـ ص ٣٠٠ من النص ـ والمقرّي نفح الطيب Analectes الجزء الأول ص ٣٩٦ ـ ابن حزم : طوق الحمامة ص ٣٥ وقد أورد طرفة مفادها أنه قد قدّمت للمنصور إحدى المغنيات التي كان يريد الحصول عليها وطلب منها أن تبرز مواهبها فبدأت إنشاد بعض الأبيات الغزلية التي تتحدث عن صبح. فالتاب الغضب الدكتاتور وأمر بضرب عنقها في الحال.

٤٠) المقرى ـ الحوليات الجزء الثاني ص ١٥ ـ دوزي: تاريخ أسبانيا الأسلامية الجزء الثاني ص ٢٢٦.

٤١) ليفي بروفنسال: أسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

٤٢) أخبار حول المدينة الزاهرة أوردها ليفي بروفنسال في الموسوعة الأسلامية الجزء الثالث ص ٩٥ والتالية.

٤٣) ليفي بروفنسال: شبه الجزيرة الأيبرية ص ١٠٠، ١٠١.

٤٤) نفس المصدر ١٠١ ـ ١٠٢.

٤٥) ما يقوله ابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ١٣ من النص يتحدث عن المنصور (مات من يهمنا معشر العبيد)

٤٦) الأعمال ص ٧١.

٤٧) ربما كانت الشخصية ـ التي هي من مواليد سرقسطة ـ من التوجيبيين. وقد أثار بعض المتاعب أثناء خلافة الحكم الثانى إذ إنتقل إلى معسكر البشكنس والقشتاليين وساعدهما على معرفة بعض النقاط الضعيفة التى أمكن المرور منها ودخول الأراضى الأسلامية. وفى النهاية هزم وأسرٌ بواسطة ـ حاكم لاردة رشيق البراغواته وذهبوا به إلى أحد سجون قرطبة عام ٩٧٥م وخرج منه فى العالم التالى ومنذ ذلك الحين أصبح من أشد أنصار ابن أبى عامر (ابن عذارى البيان، الجزء الثانى ص ٢٦٥– ٢٦٦ من النص.

٤٨) لم يرد التاريخ إلا فى «الأعمال» لابن الخطيب وهذه الرواية (ص ٧١– ٧٤) نشير بإسهاب إلى اللقاء المسمى شنت بشنت وبالنسبة للتاريخ الخاص بذلك انظر Codera فى B.R.A.H. XXX11 1898 pa 101.

٤٩) «الأعمال» ص ٧٥: الأحدب الملعون ـ ثم نعت ابن أبى عامر بالأحدب فى إحدى القصائد الهجائية للادريسى إبراهيم بن إدريس ـ والتى قام دوزى بترجمة جزء منها «تاريخ أسبانيا الأسلامية» الجزء الثانى ص ٢٤٢، كما أورد ذلك ليفى بروفنسال Fragments Historiques sur les Berberes au moyen age pag 21 ويبدو أن هذه الأشارة التى وردت فى أكثر من مصدر تؤكد على أن المنصور كان أحدب رغم أن دوزى (نفس المصدر رقم ١) لايرى فى ذلك إلا نوعا من اللعنة. أما الأخبار العربية فلم تورد لنا أى وصف للهيئة الجسدية التى كان عليها الحاجب رغم أن البعض كان يشير إليه بعبارة موجزة «هو رجل وسيم» ويسترعى انتباهنا أيضا أن ابن حزم تحدث فى موضعين من «طوق الحمامه» ص ٦٩، ١٢٥ عن الوجه الوسيم للمنصور وما كانت تشيعه نظراته من شغف لدى القرطبيات.

٥٠) وتشير سيرة «أسماء» التى أوردها ابن عبد المالك المراكشى إلى أن ابن أبى عامر أمر بأن يأتوا إلى قرطبة برأس غالب وبلغت به القسوة أن قدمها إلى ابنة القائد العجوز لكن لم تبد عليها علامات التأثر وأظهرت نفسها كزوجة طيبة وكواحدة من أنصار النظام القائم وحمدت الله على هذه النهاية التى أصبح عليها والدها الذى تحول إلى متمرّد. وأيا كان هذا الخبر، حقيقيا أو ملفقا، إذ هو ملمح أسبانى أصيل ربما كان قد حدث وكان مصدر إلهام للشاعر المسرحى لوبى دى بيجا.

٥١) وحتى لا نتحدث عن شعبية إسم المنصور فى أسبانيا المسيحية نشير إلى F. Lot y Ganshof : Hist. du Moyen Age, de Glotz I pág. 768 y n 19 كما أن هذا الاسم أصابه بعض التحريف وأصبح فى فرنسا الأسم الذى يطلق على أى قائد عربى.

٥٢) وطبقا لابن أبى زرع فى «روض القرطاس» فإن المنصور قرر عام ٩٩٢م (٣٨٢هـ) ألايوضع ختم هشام الثانى المؤيد على المكاتبات الرسمية وألا تحمل اعتبارا من ذلك التاريخ إلا ختمه. ويضيف نفس المؤلف أن المنصور تلقب منذ هذه اللحظة بـ المؤيد، وهو خبر لم تؤكده أى من المصادر الأخرى.

٥٣) أشار دوزى فى «تاريخ مسلمى أسبانيا الجزء الثانى ـ ٢٥٤– ٢٥٥» إلى التفاصيل الكاملة لهذا الموضوع نقلا عن المقرّى نفح الطيب الجزء الثانى ص ٦٤ وهذا الأمير يقوم بتلخيص فقرة مطوّله نقلا عن

«الذخيرة» لابن بسّام: إلاأن التفاصيل الخاصة بالتعاون المظنون بين صبح مع السيد المغربي/ زيدى بن عطية للقضاء على الدكتاتور كان محض اختلاق المؤرخ الهولندى، ذلك أن المصادر العربية المتوفرة لدينا حتى الان لا تشير إلى تلك الأحداث من قريب أو بعيد. إلا أن من الممكن أن يكون الزعيم المغراوى تقلدّ وضع البطل فى صف هشام الثانى عند مطالبته بحقوقه لدى المنصور وكان ذلك فى ظروف لا نعلم عنها شيئا. والسبب هو أنه اثناء المعركة التى دارت بينه وبين القائد وديع شمال المغرب عام ٩٩٨م(٣٨٨هـ) كانت صيحة الحرب عنده : هشام يامنصور! بينما كان شعار العامريين «يامنصور!

[Léve provençal, Fragments historiques sur les Berberes au mayen- pag 389].

وقد توفيت صبح بعد ثلاثة أعوام وبالتحديد الحادى عشر من ديسمبر ٩٩٩م (٢٩ ذو الحجة عام ٣٨٩هـ) وذلك من خلال إشارة عابرة لكاتب السير ابن الفرضى «تاريخ» عدد ٥٣٣ ص ١٥٢ وردت فى نهاية خبر أورده عن شخصية توفيت فى قرطبة فى نفس اليوم الذى كانت فيه «السيدة الكبرى».

٥٤) انظر فى المقام الأول: دوزى Rech3 I pags 224- 6.

٥٥) خصص ابن الأبار «الحلة» ص ١١١- ١١٤ لعبد الله هذا بضع فقرات عن حياته لكنها لم ترد فى طبعة دوزى التى كان قد أدخلها فى.

٥٦) ابن الأبار من خلال دوزى فى Rech3 I pags 175 y xxx .

٥٧) Crónica de Silos, c. 71 (en HUICI, Crón. lat. de la Reconquista, II, pág. 103, of. Dozy, Hist. Mus. Esp.2, II, pág. 235).— Sobre lo precedente, cf., Dozy, Rech.3, I, pág. 173-81 ("Toma de Zamora por Almanzor, batalla de Rueda, toma de Simancas, primer sitio de León").

٥٨) Cg Dozy, Rech3 pag 99 m.1.

٥٩) أخبار أوردها ابن الأبار «الحلة» ص ٢٥١- ٢٥٣ (دوزى تاريخ أسبانيا الأسلامية ـ الجزء الثانى ص ٢٣٨- ٢٣٩.

٦٠) بالنسبة للأستيلاء على برشلونة قام Millás بجمع المصادر العربية التى تحدثت عنها :

- Vindicados (Textos, pág. 164), ef. P. DE BOFARULL. Los-Condes de Barcelona 1836, pág. 277 ; F. FITA, Destrucción de Bárcelona por Almanzor, 6 de julio 983. en B. R. A. H., 1885, VII, págs. 189 sigs. (cita un documento del archivo de la catedral de Barcelona en que se declara que "mortui vel capti sunt omnes habitantibus de eadem civitate vel de jusdem comitatur [sic]"); CARRERAS Y CANDI, Relaciones de los vizcondes de Barcelona con los árabes, en Homenaje a don Francisco Codera, Zaragoza, 1904, páginas 207-9: SOLDEVILA, Hist. de Catalunya, I, págs. 62-3.

٦١) ورد فى España sagrada T. xx111 I y IV طبقا لابن عذارى ـ البيان: الجزء الثانى ص ٢٣٨. فقد تم الاستيلاء على قلمرية Colmbra ٩٨٥م (ص ٣٧٥) وقد فعل هذا المنصور. إلا أن هذا التاريخ هو

الخاص بأول حملة غزا فيها المدينة لدرجة أنها لم تكد تنقض عن نفسها تراب النيران الأسلامية. وبعد تلك بعامين قام المنصور بحصارها والاستيلاء عليها بعد معركة فاصلة وقعت يوم ٢٧ يونيو ٩٨٧ (٢٧ صفر٣٧٧هـ) وهذا التاريخ الذى يتوافق مع Chronicon conimbricense قد أورد ابن الفرضى فى «التاريخ» عدد ١٤٦٧ وذلك أثناء روايته سيرة أحد العلماء القرطبيين الذى استشهد أثناء الحملة الثانية على المدينة».

٦٢) فيما يتعلق بالأستيلاء على ليون تتوافر لدينا معلومات وافية من خلال Lucas de Tuy (انظر دوزى فىRech3 I p 181. وهناك رواية أخرى غير جديرة بالتصديق عن ابن الأثير: «الحوليات» ص ٣٩٢– ٣٩٤. وأثناء تلك الحملة التى وقعت عام ٩٨٩م وصل الجيش الأسلامى إلى أستُرقة هنا إننا ما أخذنا بالأشارة الموجزة الواردة فى «تاريخ» عن ابن الفرضى عدد ١٣٤٩.

٦٣) المصدر الرئيسى لنا فى سرد وقائع النهاية المأسوية لعبد الله بن أبى عامر هو ابن عذارى البيان ـ الجزء الثانى من النص ص ٣٠٢– ٣٠٦.

٦٤) تشير هنا إلى أن المصادر الجديدة التى لم ترد لدى دوزى بشأن زواج المنصور بابنة سانشو أباركا وهى: ابن عذارى:البيان ـ الجزء الثالث ص ٣٨، ٤٢ ـ إبن الخطيب: أعمال ص ٧٦.

٦٥) «أعمال» ص ٨٤– ٨٥ والتفاصيل التالية ـ استقيناها من هذا المرجع.

٦٦) Cf Dozy Rech3 I pag 101.

٦٧) المصدر السابق ـ الجزء الأول ص ١٨٤– ١٨٧– وفيما يتعلق بزواج المنصور من Teresa de León انظر :

- E. COTABELO, El casamiento de Almanzor con una hija de Bermudo II, en España moderna, 1903 R.M. Pidal hist. y epopeya pags 18-12.

٦٨) النحاس السيلطى «مشاريع الأسواق (cf. supra pag 123 n.22) الفصل الحادى والثلاثون ـ هذه العبارة توجد أيضا فى بدائع السلك لابن الأزرق الغرناطى. Fo 118 ve del ms. المجموعة المؤلف.

٦٩) فيما يتعلق بـ Qand هنا انظر Supra pag 296 y nota 87.

٧٠) الخبر الأخير ورد فى Chronicon Burgense (en Huici, cronicas latinas de la reconquista I pag 33 والمصدر الرئيسى حول موت غرثى فرناندث هو ابن حيان ـ من خلال ابن بسّام فى الذخيرة الجزء الرابع ms فاس ـ القرويين Fo 145 vo أما التاريخ بالتحديد فقد ورد فى «الأعمال» لابن الخطيب ص ٧٩. وهناك مؤرخون آخرون من العرب الذى سجلوا وفاة الكونت القشتالى وذلك ضمن إشارة وردت فى قصيدة الشاعر سعيد البغدادى يمدح فيها المنصور ويتنبأ بوقوع خصمه القشتالى انظر:

- R. BLACHÉRE. Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X'siècle : Sa'id de Bagdad, en Hespéris, X, 1930, págs. 28-9.

٧١) Cf. R. MENÉNDEZ PIDAL, España del Cid, 1.a ed., I, pág. 189, —— Más arriba, pág. 383, hemos visto que los Beni Gòmez habian en viado una diputación al califa al-Hakam II.

٧٢) ابن عذارى ـ البيان: الجزء الثانى النص ص ٣١٦– ٣٣١)

٧٣) طبقا لـ «مفاخر البربر» [طبعة ليڤى بروفنسال] فإن ابنى المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ربما شاركا أثناء هذه السنة – ٩٨٧ فى حملة على جليقية وهى حملة يبدو أنها غير الحملة التى سيُرت ضد شنت ياقب.

٧٤) ابن خلدون، من خلال دوزى Rech3. I pag 101.

٧٥) نفس المصدر ص ١٠٠.

٧٦) ليڤى بروفنسال "Fragmento Historiques sur les Berberes au mayen âge pag 34" إننا نجهل الدرجة التى تربط بن الأشارة الوجيزة لهذه الحملة ضد بنبلونة وبين إحدى الطرائف التى أوردها ابن عذارى فى البيان الجزء الثانى ص ٣٢٠–٣٢١ من النص والتى تفيد بأن المنصور أرسل إلى الملك غرثية سانشو الثانى أحد السفراء الذى قصّ عليه عندما عاد إلى قرطبة كيف أنه وجد امرأة عجوزا مسلمة أسيرة منذ زمن طويل فى إحدى الكنائس وأنها توسلت إليه أن يحكى قصتها للمنصور الذى شعر بسخط شديد عندما عرف بهذه الواقعة وتوجه على الفور إلى الحدود مع مملكة البشكنس وطالب غرثية إطلاق سراح الأسيرات المسلمات اللاتى قد تكنّ هناك.

٧٧) "أعمال" ص ٧٩– ١٨٣ وهناك بعض التفاصيل التى أوردها ابن الخطيب، كما وردت أيضا فى كتاب «المرتبة العليا» لأبى الحسن النبيهى (مخطوط رقم ١٤٢٤ فى مكتبة Cherifiana الرباط Fº- 46- vº 47 vº) – وفيما يتعلق بالقاضى الحسن بن عبد اله الجدعمى الذى شارك إلى جانب المنصور فى معركة Cervera واستشهد أثناها. وهناك إشارة موجزة عن هذه الحملة وردت فى :

Annales Complutenses (apud HUICI, Crónicas latinas de la Reconquista, I, pág. 43) : "In era MXXXVIII (= 1000 J. C.) fuit arraneada de Cervera super conde sancium Garsia, et Garsia Gomeza.

٧٨) كان الخروج من قرطبة يوم الثانى والعشرين من يونيو (١٥ رجب) – ابن الفرض : تاريخ عدد ٧٠٠ in fine.

٧٩) هكذا يمكن لنا أن نفسرّ نص المؤرخ الذى أطلق لفظ قشتاله (Castilla) على المدينة التى استولى عليها المنصور بالقوة فى أول شوال عام ٣٩٠هـ.

٨٠) كان ابن الخطيب، عند الحديث عن سيرة المنصور فى «الإحاطة»، (طبعة ملخصّة فى القاهرة الجزء الثانى ص ٧٢ – علما بأن النص أدخلت عليه تعديلات كبيرة) هو الذى أورد تلك الأشارات ورغم ذلك لم يتحدث إلا عن دير. وقد أشار دوزى إلى أن هذا الدير هو دير San Millen وذلك إعتمادا على نص يتعلق بسانشو الأكبر ملك نبرّة يعود تاريخه إلى ١٠٢٧م.

٨١) ابن الخطيب «الأعمال» ص ٩٣ : حيث يروى أنه فى الفترة التى كان فيه الوزير الأول فى المملكة الناصرية فى غرناطة كلف أحد المفاوضين الذين أرسل بهم إلى قشتاله بأن يسأل عند مروره بمدينة سالم فيما إذا كان قبر المنصور باقيا أم لا. وقد ساعدوا ابن غرناطة فى رؤية هذه المقبرة إلا أن شاهد القبر لم يكن يحمل أى كتابة سواء تاريخية أم شعرية.

٨٢) طبقا لـ Lucas de Tuy فإن اليوم الذى هزم فيه المنصور فى قلعة النسور كان هناك أحد صيادى السمك يصيح بصوت فيه نبرة ألم وهو يسير على ضفاف نهر الوادى الكبير (أحيانا بالعربية وأخرى بالإسبانية قائلا :

فى قلعة النسور

فقد المنصور

الطنبور

وهذا يعنى أن المنصور فقد هناك طبول الحرب أى ضاعت منه السعادة فاقترب منه بربر قرطبة لكنه كان يتوارى عنهم ثم يعاود الظهور من جديد وهو يكرر نفس الأبيات.

٨٣) - En su memoria "Sobre la batalla de Calatañazor", apénd., Rech.3, I, págs. 193-202. Los argumentos de DOZY, SAAVEDRA Y CODERA aparecen detalladamente expuestos en A. BALLESTEROS, Hist. de España, II, págs. 61-2. Véase tambièn A. GONZALEZ PALENCIA, Hist. de la España musulmana, págs. 49-51.

٨٤) - E. SAAVEDRA, La batalla de Calatañazor, en Mélanges Hartwig Derenbourg, París, 1909, páginas 335-41.

٨٥) - F. CODERA, La batalla de Calatañazor, en B. R. A. H., LVI, 1910, págs. 197-200 (reseña del Estudio de SAAVEDRA).

٨٦) Historia y epopeya, págs. 21-2.

٨٧) المصادر العربية . ابن حيان من خلال المؤلف المجهول لـ «مفاخر البربر» – ومن خلال عبد المالك الورّاق عندما تحدث عن زيد بن عطية – كما أن ابن خلدون نقل أيضا عن ابن حيان.«تاريخ البربر – وأورد ابن أبى ذرع فى كتابه «روض القرطاس» فقرات عن ابن حيان. المصادر الأخرى :

- Poca cosa en DOZY, Hist. Mus. Esp.2, II, págs. 229-32, 239-42,253-6 y 261-2. Algunos puntos de vista interesantes en E. F. GAUTIER, Les siècles obscurs du Maghreb, págs. 363-73 y 376-7. Véase también H. TEERRASSE, La mosquée des Andalous à Fés, págs. 36-9.

٨٨) - cf supra pag. 296.

٨٩) ابن خلدون – تاريخ البربر – الترجمة الجزء الثانى ٥٥٦ – ٥٥٧.

٩٠) ابن خلدون – تاريخ البربر – الترجمة الجزء الثالث ٢٥٥ – ٢٥٦ وهو يذكر تاريخا سابقا بعض الشئ عن تلك الأحداث ٩٧٦ – ٩٧٧م (٣٦٦هـ).

٩١) - cf supra pag. 397.

٩٢) إذا كان لنا الأخذ برواية ابن أبى زرع «روضى القرطاس» فإن عسقلجة قد أستولى أثناء حملته، على نصف مدينة فاس «شاطئ الأندلسيين» بينما بقى الشاطئ الآخر «شاطئ القرويين» تحت سيطره القائد الفاطمى محمد بن عامر المكناس حتى العام التالي، حيث قام قائد من المغراوه باحتلال هذا الجزء لصالح الامويين. وقد أفاد من هذه المعلومات H. Terrasse op. cit. pag 38-9 وذلك فى تفسير وشرح قصة منبر مسجد الأندلسيين فى فاس.

٩٣) طبقا للمؤرخ «الورّاق» فإن الزيرى بن عطيه كان يكنى «الفرطس».

٩٤) بالنسبة لهذا الحي القرطبي انظر «ليفى بروفنسال - تاريخ أسبانيا الأسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٦ ملاحظة : ,R. Castejon, Córdoba Califal pag 42.

٩٥) طبقا لابن خلدون فى «تاريخ البربر» الجزء الثالث ص ٢٤٤ - فقد وصل وديع إلى أقصى الجنوب حتى «وادى رده» وهو رافد صغير يقع على الشاطئ الأيمن لنهر وادى صبو فى السهل الغربى. وقد أورد ابن أبى زرع نفس التفاصيل فى روض القرطاس. ومما يذكر أن رواية هذا الأخير لاتتوافق دائما مع مايورده ابن حيان.

٩٦) انظر فى المقام الأول «Al-Chazna, 1, Zahrat al-as» الذى ينسب لعبد المالك بناء قبلة ومنبر فى المسجد الكبير فى القرويين، ويحمل كل من القبلة والمنبر نقشا يشير إلى عام ٩٩٧م (٣٨٨هـ) - وطبقا لروض القرطاس فإن عبد المالك دخل فاس في الرابع من نوفمبر ٩٩٧م (نهاية شوال ٣٨٧هـ) وظل فيها حتى يناير ٩٩٩م (صفر ٣٨٤٩هـ).

٩٧) ومع هذا لم يعترض المنصور على أن يعود أحد ابناء الزيرى بن مناء إلى قرطبة وهو أبو البحر الذى خان القضية الأموية - كما رأينا - منذ أعوام مضت بعد أن قام بالزّود عنها لبعض الوقت.

٩٨) انظر ابن خلدون «تاريخ البربر - الجزء الثالث ص ٢٤٨ - ٢٥٠. كما أن نص الرسالة ورد أيضا عند الوراق وكان تاريخ تحريرها ٣٩٧هـ وليس ٣٩٦هـ.

٩٩) المصادر العربية هى : ابن حيان من خلال الجزء الرابع من الذخيرة لابن بسّام (عدة مخطوطات فى المغرب وكذلك ضمن مجموعة المؤلف) - ابن عذارى فى البيان المغرب الجزء الثالث النص ص ٣-٣٧ - ابن الخطيب «أعمال» ص ٩٧-١٠٤ - أما المصادر الفرعية فهى ابن خلدون: «العبر» الجزء الرابع ص ١٤٨ ومايليها - النواوى : تاريخ إسبانيا النص ص ٢٢٠. المراجع :

- Unas cnantas líneas nada más en Dozy, Hist. Mus. Esp.2, II, pág. 276. Véase también LÉVI. PROVENÇAL, en la Enc. Isl., III, pág. 851, s. v. al-Muzaffar. Sobre las campañas de 'Abd al-Malik en la España cristiana, según los datos del tomo III del Bayan de 'IBN IDHARI : P. Melchor M. ANTUÑA, El canciller de Córdoba Almadáfar y sus expediciones contra los cristianos, en Religión y Cultura, revista de los PP. Agustinos del Escorial, XIV, 1931, pág. 321-30, y XVII, 1932, PAGINAS 5-16. Véasetambién F. HERNANDEZ JIMÉNEZ, Estudios de geografia histórica española, IV : Mumaqsar y Madanis = Monmagastre y Meyá, en Al-Andalus, VI, 1941, págs. 339-55.

١٠٠) أورد ابن حيان نص هذه الوصية (من خلال ابن بسّام) ونقلها ابن الخطيب فى الأعمال ص ٩٣- ٩٥.

١٠١) بالنسبة لهذه الشخصية الأسطورية التى ورد ذكرها فى القرآن .... انظر :

B. Heller, en la Enc. Isl. IV págs. 1120-1.

١٠٢) ابن الخطيب «الأعمال» ص ٩٨ – ١٠٠ : نجده يتحدث باسهاب عن الزيارة التى قام بها عبد الملك إلى أحد العارفين بالله فى قرطبة وهو أبو أيوب سليمان بن عبد الغفار الفرنجى (المتوفى عام ١٠١٠م – ٤٠٠هـ).

١٠٣) ابن عذارى : البيان – الجزء الثالث ص ٣ من النص (من خلال دوزى).

١٠٤) ابن الخطيب : «الأعمال» ص ١٢١ وقد أورد قائمة بالأسماء طبقا للتيجانى.

١٠٥) فيما يتعلق بهذه الشخصية انظر فى المقام الأول : ابن بشكوال Sila n' 757 بغية الدبى ملاحظة ١٠٥٨ – وتاريخ وفاتها أورده أول هذين المؤرخين (أغسطس Dabbi Bugya سبتمبر عام ١٠٠٤) (ذو القعدة عام ٣٩٤هـ).

١٠٦) بالإضافة إلى الرواية المطوله التى أوردها ابن عذارى فى الجزء الثالث من البيان والخاصة بالدسيسة التى دبرّها عيسى بن سعيد وهشام بن عبد الجبار، تتوفر لدينا تفاصيل كاملة عن الظروف التى أحاطت بالحكم على أولهما بالموت. ويرجع الفضل فى هذه التفاصيل لابن حيان والتى وردت إلينا من خلال الجزء الأول من كتاب الذخيرة لابن بسّام (طبعة الجامعة المصرية ص ١٠٢ – ١٠٧).

١٠٧) أورد ابن عذارى فى كتابه البيان الجزء الثالث ص ١٦، ١٧ نص هذا المرسوم.

١٠٨) هذا الدير الخاص بأهل الذمة (دير أرميلاط) كان يقع على بعد خمسة عشر كيلومترا شمال أرميلاط وكان أول مكان يتخذ للراحة بعد الخروج من قرطبة طريق طليطلة. طبقا ليفى بروفنسال.

- Esp. Mus. X' siéle, pág.36; CASSTEJÓN, Córdoba califal, pág.24; HERNÁNDEZ JIMÉNEZ, Est. de geogr. hist. esp., IV, en Al-Andalus, VI, pág. 342, n. 1.

١٠٩) ربما أمر عبد الرحمن بأن يتم قتل المظفّر بالسّم من خلال إحدى نساء القصر، أو ربما قدّم لأخيه نصف تفاحة قطعها بسكين غمس نصله فى أحد المواد السامه – انظر فى هذا المقام ابن الأثير فى الحوليات. ص ٣٨٤ – ٣٨٥ (من خلال دوزى).

١١٠) لايبدو أن عبد الملك قد خلفّ وراءه ذرّية من الصبيان. فقد تحدث إن حزم فى «طوق الحمامة» ص ٦ عن شغفه بفتاة اسمها «وجيد» ابنة أحد عمال الحدائق وإتخذها زوجة له. وبعد موت المظفّر تزوجت هذه المرأة من قائد البوليس فى المدينة الزاهرة وهو عبد الله بن مسلمة، وبعد إغتيال ذلك الرجل تزوجت بأحد القادة البربر الذى ربما كان من المجموعة المرافقة لسليمان المستعين.

١١١) - Chronicon Burgense (en HUICI, Crónicas latinas de la Reconquista, I, pág. 33) :"Era MXL : mortuus est Almanzor, et sepultus est in infemo". Esta frase fué ya citada por Dozy, Hist. Mus. Esp.2, II, pág. 265.

١١٢) البيان لابن عذارى وقد أورد ابن حيان. ويضيف أيضا أن ألفونسو الخامس أرسل بتعزيزات. وهذا مايدخل فى تناقض مع ماسبق أن قلناه سلفا. فطبقا لما أورده ابن بسّام فى الذخيرة كان هناك تهديد جليقى ضد الأراضى الأسلامية. ومع هذا يبدو أن كان هناك خلال تلك الفترة إتفاق بين ليون وقرطبة

وذلك بسبب عودة تيرزا Teresa أو تاراسيا Tarasia ابنة فرموندو الثانى وشقيقة ألفونسو الخامس إلى بلادها، والتى كانت قد تزوجت عام ٩٢٣ (٣٨٣هـ) من المنصور.

- (cf. supra, pág. 421). Céase Dozy, Rech.3, I, pág. 187, y M. M. ANTUÑA, El canciller de Córdoba Almodáfar (primer artículo), pág, 323.

١١٣) Por F. HERNÁNDEZ JIMÉNEZ, en articulo citado supra, nota 99. A proposito de esta expedición, IBN AL-JATIB, A'mal, pág. 101, habla de una localidad de la Marca hispánica, a la que llegó 'Abd al-Malik, llamada Mangas. Debe de tratarse de una transcripeión defectuosa de Monmagastre. Podría pensarse en Manresa, si la presencia del gayn no presentase fonéticamente grave dificultad.

١١٤) Véase, sobre todo, BALARI, Origenes históricos de Cataluña, págs. 277-8; BALLESTEROS, Hist. de España, II, pág. 353. Según CODERA Límites probables de la conquista árabe en la Cordillera. pirenaica (en Est. crit. hist. ár. esp., VIII, pág. 264).

«أثناء هذه الحملة ربّما وقعت معركة فى Albesa مات فيها Berenguer أسقف Elne لكن طبقا لابن الفرضى «التاريخ» رقم ٥٣١ كان تاريخ هذه المعركة يعود لعدة أشهر مثل الحملة التى قام بها عبد الملك على هذا الثغر وبالتحديد يوم ٢٧ فبراير عام ١٠٠٣م (٢٠ ربيع الثانى عام ٣٩٣هـ). ومما لاشك فيه أن الأمر لايعدو مجرد حرب بين قوات محلية. وعلى أى الأحوال يبدو من المجازفة الواضحة القول بأنAlbesa هى «البطحاء» التى ذكرها البيان عند الحديث عن حملة عبد الملك. Albesa هى محلة صغيرة تابعة إداريا لـ Balaguer محافظة ليريدا.

١١٥) فيما يتعلق بهذا التحكم الذى يشير إليه البيان لعام ٣٩٤هـ فإن النص الأدق والأكثر تفصيلا هو الذى أورده ابن خلدون فى كتابه العبر الجزء الخامس ص ١٨١ وذلك فى سياق عرضه لموجز تاريخى عن الملوك المسيحيين فى أسبانيا (دوزى Rech الجزء الأول ص ١٠٢ - النص العربى - المصدر السابق - ص XV-XVI تاريخ نصارىSimonet والذى أورد القلقشندى فى صبح الأعشى ص ٢٦٦ انظر أيضا أسبانيا ص ٦٣٦.

١١٦) ظل اسم «Luna» حتى الآن إذ نجد ذلك فى رسم القرية الحالية Los Barries de Luna محافظة ليون - كما نجد إشارة إلى حملة Luna ضمنى قصيدة لابن درّاج القسطلى يمدح فيها عبد الملك (أورده أبو الوليد الحميرى، فى «البديع فى وصف الربيع». طبعة H. Perés الرباط ١٩٤٠ ص ١٢٣) فى هذا الحصن [الذى لايجب أن نخلط بينه وبين قرية أخرى تحمل نفس الأسم تقع فى محافظة سرقسطة] قام ملك قشتالة / ألفونسو الرابع عام ١٠٧٣ يسجن أخيه غرثية : cf. R. M. Pidal, Esp. del Cid, I pág 226.

١١٧) انظر : Hernandez op. cit. pags 352-3.

١١٨) وبهذه المناسبة فرض سعيد البغدادى شاعر البلاط قصيدة مدح لعبد الملك R. Blachére, Sa 'id de Bagdad, en Hesperis, t. x, 1930, pags. 31-32..



الفصل السابع

تدهورّ الخلافة في قرطبة وسقوطها[1]

عناوين الفصل السابع :

١- العامّرى عبد الرحمن شنجول - الانقلاب الذى قام به محمد الثانى المهدى - عبد الرحمن شنجول الوريث المفترض لهشام الثانى - تولى محمد الثانى المهدى ونهاية عبد الرحمن شنجول.

٢- ردّ فعل البربر - سليمان المستعين - الخلافة الأولى لمحمد المهدى - سليمان المستعين، الخلافة الثانية لمحمد المهدى - الخلافة الثانية لهشام الثانى (١٠١٠-١٠١٣م) حصار قرطبة - وفاه الخليفة هشام الثاني والولاية الثانية لسليمان المستعين.

٣- بنى حمود وآخر الأمويين القرطبيين (١٠١٦- ١٠٣١م) - حكم على بن حمود - الأموى المرتضى والحموديان القاسم ويحيى - الأمويان المستظهر والمستكفى - هشام الثالث المعتمد؛ إلغاء الخلافة الأموية.

١- العامرّى عبد الرحمن شنجول ـ الانقلاب الذى قام به محمد الثاني المهدى

- عبد الرحمن شنجول الوريث المفترض لهشام الثانى :

أثناء الخلافة الاسمية لهشام الثانى استطاع ثالث العامريين عبد الرحمن شنجول الأستيلاء على السلطة فى قرطبة بعد فاة أخيه عبد الملك «المظفرّ». لكن مدة الحكم استمرت لشهور قليلة حدثت بعدها أزمة سياسية خطيرة للغاية واستمرت لأكثر من عشرين عاما مسفرة عن سقوط الخلافة الأموية فى المغرب نهائيا. لم تعش أسبانيا حياة كلها إضطرابات ومأساوية مثلما عاشتها فى تلك الفترة. فعندما صدرت صيحة التمرد فى قرطبة امتد صداها إلى كافة الأقاليم والنواحى الواقعة على حدود المملكة ويسبب التناحر تتابع العديد من الحكام غير الأقوياء على كرسى الحكم وانتهت أغلب الفترات بحمام من الدمّ وكلما مضى الوقت يمكننا أن نعد فترات حكم بعضهم بالشهور وليس بالأعوام. وربما ظل بعض هؤلاء الحكام فى الظل لفترة ثم عاد للظهور من جديد. كان الأمر ببساطة هو الفوضى بعينها والتى أدت إلى غرق العمل الدؤوب الذى أقامه الأمراء العظام من الأمويين وإلى إنهاء الوحدة السياسية التى تحققت بفضل جهدهم وعنائهم. هاجمت «الفتنة» ـ وهى العبارة التى عادة ما تستخدم فى النصوص العربية إشارة إلى الثورة الأندلسية فى القرن الحادى عشر ـ البلاد فى أكثر قوتها حيوية وأنهكتها بحيث لم تسترد عافيتها بالكامل من جديد أبدا.

هذا هو ما فهمه مؤرخو ذلك العصر وكانوا على حق فيما قالوه ومن بينهم ابن حيان الذى عايش فى شبابه تلك الأحداث. وعندما قام بوصف الفوضى القائمة أخذ يكيل الاتهامات لدرجة أن روايته تتسم أحيانا بالسخرية المرّة والهجوم على مواطنيه بلا رحمة وهو هجوم لم ينج أحد منه حتى هؤلاء الكبار الذين كرّسوا كل همهم ليكونوا إلى جانب الأقوى. كما لم تسلم البرجوازية بسلبيتها، وكذلك العامة فى الشوارع والأسواق فقد كان العامة تواقون للمذابح وعمليات السلب والنهب. لقد رسم المؤلف الفتنة القرطبية بمداد أسود فى أغلب الأحيان الأمر الذى يشير بوضوح إلى أنه تتوافر فيه صفات المؤلف. وعموما فإن تفاصيل هذه الفترة التاريخية المحزنة تتسم بالفظاعة والتعقيد. ثم بعد ذلك سرعان ما تخبو جذوة الاهتمام. لكن رغم ذلك من الواجب أن نروى على هذه الصفحات الأحداث الهامة التى من السهل العثور على معطياتها فى تاريخ الدول الأسلامية خلال العصور الوسطى وعصرنا الحديث.

عندما تولى أبو المطرّف عبد الرحمن بن أبي عامر شئون الحكم ـ في اليوم الثاني لوفاة أخيه في ظروف غامضة ـ كان لا يزال رجلا شابا فلم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر. كانوا ينادونه في الأسرة بشنجول الصغير فهو كما سبق القول حفيد[٢] ـ من جهة الأم ـ للملك بنبلونة سانشو غرثيه الثاني أباركا. لم يكن يدر بخلد المنصور أبدا أي ثقة في قدرة ابنه الصغير لأنه كان متواضع الذكاء ومغرورا وتتسم حياته بعدم الانتظام. لم يكن يثق في طموحاته واهتمامه بالحياة السياسية. وسرعان ما اكتشف أنه لا يمكن إيذاء شعور العامة في قرطبة دون أن يناله أذى.

يبدو أن هشام الثاني وشنجول قد خلقا التفاهم فيما بينهما إذ أن كلتا الوالدتين من نبرّة. وكانت هذه القرابة البعيدة هي الأساس الذي كان يلتقيان عليه ويدعو كل منهما الآخر إلى بعض الاحتفالات التي كثيرا ما شارك فيها الحريم الخاص بكل واحد منهما. وعندما كان القرطبيون يرون مجموعة تسير عن بعد وقد تخفت في دثار أبيض وتحيط بها حراسة يدركون أن خليفتهم الذي تخفى عن الأنظار بارتدائه البرنس ذاهب للهو في منزل الوصي العامري. فكانت النقمة تولد في النفوس وتظهر أحيانا إلى الوجود وقد امتلأت حيوية أندلسية. كما أنهم ـ أهالي قرطبة ـ كانت تصل إلى أسماعهم كل يوم أنباء محزنة أو أخبار عن الفسق الذي كان عليه السيد الجديد لأسبانيا: كان يحب شرب الخمر لدرجة السكر ومرافقة الراقصات ليلا ونهارا والمغنين والمهرّجين ومن يمارسون اللواط. وقد حصل منذ اليوم الأول لتوليه السلطة على لقب «نصير الدولة» ثم أضيف إليه لقب آخر هو لقب «المأمول» بعد ذلك سرت في قرطبة شائعة أحدثت دوياً كبيرا بعد شهر ونصف من حصوله على اللقب الثاني، وتقول الشائعة بأن عبد الرحمن قد صدر بشأنه مرسوم مستوفيا كافة الشروط الشرعية يفيد موافقة هشام الثاني على تعيين عبد الرحمن وريثا لمملكة الأندلس.

لم يخطر أبدا ببال المظفر أو ببال المنصور أن يتقدما إلى قصر الخلافة بطلب خارج عن العرف، إذ كانا يدركان أن خطوة مثل هذه تعتبر مغامرة غير محسوبة. وذلك تقديرا منهما لأهالي الأندلس ولهؤلاء الذين كانوا يكنون لهما الاحترام. كما كان يشعران بالولاء والثقة ـ ولو على سبيل التخيلّ ـ في حقوق الوراثة في الأسرة الأموية ـ إلا أن التقدير والولاء لم يكونا كافيين لايقاف الطموح المجنون الذي كان عليه شنجول. تأكد استمرار الأوضاع لاثنين من كبار رجال الدولة وهما أحمد بن عبد الله بن تكوان كبير قضاة العاصمة، والأمين الرسمي أحمد بن برد، وطلب عبد الرحمن منهما ومن بعض رجال حاشيته أن يمهداً له الطريق. ورغم أن هشام الثاني لم يكن له ولد إلا أنه

يبدو أن كان له ردٌ فعل معينٌ على المقترحات التى قدمت له. وصدرت الفتوى عن الفقهاء الذين اشتراهم عبد الرحمن واختارهم كأتباع له فى هذه المهمة. هذه الفتوى قضت على التحفظات التى قد تعوق الخليفة عن اتخاذ قرار خطير بشأن مستقبل الأسرة الملكة. وتولى أحمد بن برد تحرير محضر التولية – الذى نقل لنا نصّه بعض المؤلفين[٣] ـ وبعد ذلك تُلِيَ علنا فى بهو الشرف بقصر قرطبة ووقع عليه كل من حضر من كبار رجال الدولة.

صدر هذا المرسوم عن الخليفة فى شهر نوفمبر ١٠٠٨م (ربيع الأول ٣٩٩هـ) وهو وثيقة مثيرة للفضول، إذ يعلن هشام الثانى من خلال سطور الوثيقة رغبته الشديدة فى إرضاء رعيته بإبلاغها باسم من سيخلفه. وأنه اتخذ هذا القرار بعد تمعن واهتدى إليه من خلال إلهام إلهى. كما أن فترة الاستخارة التى منح نفسه إياها بعيدا عن أية تأثيرات لم يخرج منها باختيار أى من أفراد الأسرة المروانية. وأنه إذا ما استبعد أقرباءه من تولى عرش الخلافة، فإن ذلك سوف يغضبهم، إلا أنه يفضل السيرعلى ما يمليه عليه إيمانه الذى لا يتزعزع وأن لا أحد يستحق هذا المكان بعد وفاته إلا عبد الرحمن بن أبى عامر الذى هو من سلالة القحطانيين العربية. ومن حقه أن يتولى الصولجان وهذا ما تؤيده بعض الأحاديث النبوية[٤]. ويمكن أن نستنتج ـ من خلال هذه الحجج وذلك التصنع الذى بولغ فيه باسم مصلحة القضية ـ أن اختيار شنجول كان بعنايه إلهية وما على الرعيّة إلا أن تطرب لهذا القرار وتباركه.

لكن أصحاب المصلحة الأولى وهم القرطبيون لم يباركوا القرار إذ بدأت فى المدينة حالة هياج عظيم، فالمروانيون وخاصة المنحدرون بطريق مباشر من عبد الرحمن الثالث، وهم كثر، لم يتوانوا عن إحداث القلق وتغذيته وترقب الفرصة السانحة للقيام بانقلاب. كان من الممكن لشنجول، بعد الحصول على ما يرغب فيه. التصرف بحكمة والعمل على تهدئة ثائرة سكان العاصمة الأندلسية. لكنه اتخذ بعد ذلك عدة إجراءات زادت من حدة الناقمين عليه من العامة. ففى اليوم الثالث عشر من يناير ١٠٠٩م (الثالث عشر من جمادى الأولى ٣٩٩هـ) أبلغ كبار رجال الدولة وكبار الموظفين أن عليهم عند حضورهم إلى مقام الخليفة فى اليوم التالى (الجمعة) أن يغطوا رؤوسهم بالشال البربرى وليس العمامة زاهية الألوان كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين. لم يكن هذا التعديل الذى ربما نوّه له به الزواى بن زناته وباقى القادة من الشمال الأفريقى من الصنهاجة أو الزناتة فقد كانوا يشكلون جزءاهاما من الجيش إلا الخطوة الأولى كما عبرّ عن ذلك أحد المؤرخين المسلمين بلهْجة مليئة بالمرارة[٥]. كان هذا اليوم هو بمثابة عشية اليوم الذى يقوم فيه البربر بخطوات يسومون فيها الأندلس سوء العذاب.

لم تتأخر الفرصة السانحة فى الظهور أمام الحزب المعارض إذ بدأ ملوك أسبانيا الذين كانوا على علم بكل ما يجرى فى قرطبة بتوجيه ضرباتهم المعهودة الى الحدود مع الخلافة حتى يعرفوا ماهية ردّ فعل الوصيّ الجديد(٦). لم يخْف سانشو غرثية كونت قشتاله ورجلها الشجاع استخفافه بشنجول إذ كان متأكدا من شَخصيته من قبل. فذات مرة وأثناء فصل الشتاء أدى هطول الأمطار الغزيرة إلى تدمير الكثير من الطرق فما كان من عبد الرحمن إلا اتخاذ قرار بالسير قدما فى حملته الأولى ضد المسيحيين الأسبان رغم هذه الموانع. ففى اليوم التالى لقرار إرتداء الشال البربرى اتجه على رأس جيشه فى الطريق نحو طليطلة دون إعتبار لتحذيرات الضباط الصقالبة وأن لديهم دلائل قوية تشير إلى أن القرطبيين يعدون العدة سرّا للقيام بخطوات خطيرة(٧).

– تولى محمد الثانى المهدى ونهاية عبد الرحمن شنجول :

وجد المروانيون المستبعدون من العُرس عنصر مساعدة نشط للغاية تمثل فى «دلفى» والدة عبد الملك المظفّر. كانت لدى «أم الولد» رغبة عارمة فى الانتقام لموت ابنها إذ كانت تشك فى أنهم دسوا له السم بناء على إيعاز من شنجول فقامت بالأتصال بالأمويين المنحدرين من الناصر، وقام بهذه المهمة عبدُ عامرِى كان يكن لها كل التأييد وهو الخصى بشرى. ووعدتهم دلفى بالمساعدة المادية إذ كانت واسعة الثراء. فاقترحوا عليها أن يكون أحد أحفاد عبد الرحمن الثالث هو المنظم والمدبر لهذا الأنقلاب ويدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار(٨). كان والده قد شارك ـ كما سبق القول فى دسيسة ضد العامرى الثانى إلا أن المؤامرة كلفته حياته. كان محمد سوقى الأخلاق به القليل من الحياء وكان مشهورا لدى السافلة فى المدينة رغم عراقة أصله. لكن فى لحظة ما بدا أنه أنسب أفراد الأسرة للقيام بانقلاب على الحكم معتمدا على السافلة فى المجتمع القرطبى فأجزل لهم الأموال التى تلقاها من دلفى فزاد عدد الذين انضموا إليه. وتم الاتفاق على اللقاء يوميا فى أحد الأماكن المنعزلة خارج قرطبة للإعداد للعملية. وتم اتخاذ قرار البدء بالتمرد عند وصول شنجول إلى الحدود مع الأعداء.

ترك الوصى العامرِّى ثلاثة من النواب ممن يثق فيهم فى المدينة الزاهرة وذلك لتولى الأمور أثناء غيابه وهم: الوزير أحمد بن سعيد بن حزم. وأمين الدوله أحمد بن برد والمشرف على مقرّ إقامته عبد الله بن مسلمة. لكن محمد بن هشام بن عبد الجبار لم يهاجم الزاهرة أولا بل كانت أولى خطواته التوجه إلى قصر الخلافة حيث الخليفة

الاسمي يقضي الشتاء هناك. ففي الخامس عشر من شهر فبراير عام ١٠٠٩م (١٦ جمادى الثانية ٣٩٩هـ) جاء البريد برسالة مفادها أن شنجول كان يستعد للدخول في الأراضي المسيحية. فلم يتوان المتآمرون لحظة واحدة وأحاطوا بقصر الخلافة وهم أناس تبدو عليهم سمات البلاهة، وفي الوقت نفسه أخذ بعض الموالين لهم ينادون العامة في الأسواق والأحياء المختلفة بحمل السلاح. وتم فتح سجون الدولة حيث انضم المساجين إلى الحركة. كان التمرّد قد بدأ. وعندما علم هشام الثاني بالخطر المحدق به أمر بإغلاق القصر وصعد إلى إحدى الشرفات وأطل منها على الجماهير آملا - بلا جدوى - تهدئتها وقد ظهر بين اثنين من الخدم يحملان نسخا من المصحف. لكن العاهل الاسمي سرت في جسده رعدة جعلته ينزل إلى مصلاّه الخاص. كما أصدر أوامره للحرس بألا يستخدموا السلاح ولا يقذفوا المتمردين بالسهام أو أي نوع من أنواع القذائف. أما قائد التمرّد فقد أعطى تعليماته باحتلال القصر بأقصى سرعة ممكنة وذلك بالصعود على سلالم كانوا قد وضعوها على الأسوار وأخذت الجموع تدخل من السطح العلوي إلى القصر دون أن تقدر الدفاعات البسيطة عن من هم في الداخل إيقاف هذا السيل. قام المتمردون بالتوجه إلى مخازن السلاح حيث وجدوا الكثير من الخناجر والسيوف وهنا بدأت عملية نهب الأثاث الموجود في صالات وأبهاء القصر. ولما رأى الخليفة أن لا مخرج أمامه أرسل إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار يطلب منه الجلاء عن القصر مقابل قيامه بانتزاع السلطة من العامريين وأن يعيد أقرباءه المروانيين إلى مناصبهم وأن يقوم بتعيين قائد الحركة وريثا للعرش. لكن محمد رفض العرض وأرسل إلى هشام الثاني بشروطه التي لم يجد الخليفة مناصا من قبولها. بقيت أبواب القصر مفتوحة وجلس قائد الحركة في أحد أبهاء القصر حتى اليوم التالي وهو يصدر التعليمات إلى كبار أتباعه.

وصل نبأ الانقلاب إلى المدينة الزاهرة فما كان من المشرف على القصر/ عبد الله بن مسلمة إلا العمل على اتخاذ الأجراءات للدفاع عن مقر العامريين عندما وصلت إلى الزاهرة بعض جماعات من المتمردين فتم تفريق بعضها إذ خرج بعض أفراد الحامية لقائها وعندما حل الظلام توقفت العمليات حتى اليوم التالي.

اتسمت الإجراءات التي اتخذها محمد بن هشام بن عبد الجبار منذ وصوله إلى قصر الخلافة بالعقلانية الشديده. إذ أمر الجماهير بالخروج من القصر ووضع حراسة عند مداخله وأن تتم حماية البوابات المؤدية إلى سكن الحريم، كما أرسل أحد الخصيان إلى هشام الثاني الذي ظل ملازما مصلاه ليبلغه بأنه تولى مقاليد الحكم

ويدعوه للتنازل عن السلطة. لم يَنْبس الخليفة بشئ وأمر بأن يذهبوا إلى المغتصب بملابس رسمية يرتديها عندما يتولى عرش الخلافة. وفى نفس الليله تم استدعاء الأعيان والفقهاء وفى العاصمة على عجل لحلف يمين الولاء للعاهل الجديد. وذهب اثنان من الكتبة إلى هشام لكتابة الاستقالة التى نطق بها شفهيا وصاغوها فى محضر تنازل. وبعد ذلك بدأت مراسم لتنصيب محمد طبقا للقواعد التقليدية وأعلن الخليفة الجديد أنه سيلقب بالمهدى بالله.

وأراد محمد أن يعبرّ عن إمتنانه للعامة فى قرطبة وهى التى ساعدته على تولى السلطة بسهولة فأمر بتسجيلهم فى صفوف الجيش النظامى. فوجد عددا كبيرا من ابناء هذه الطبقة، والتى لم تكن تمارس إلا مهنا متواضعة، أنفسهم وقد ارتفع شأنهم بأن أصبحوا من الكتائب التى تجرى لها الأرزاق. إلا أنهم لم يكونوا على مستوى الجندية من التدريب ومهارات القتال. وهذا ما سيتضح قريبا. وعين المهدى ابن عمه/ عبد الجبار بن المغيرة ليكون على رأس هؤلاء الدهماء من أحياء قرطبة للقيام بمهاجمة المدينة الزاهرة. وانضم إلى هذه القوات التى تم ارتجالها كل هؤلاء الذين لم يقبلوا إلا بشق الأنفس عملية اغتصاب شنجول حقوق الأسرة الملكة. فهم يعرفون أن الجيش النظامى متواجد الآن بعيدا عن قرطبة وبالتالى لن يخسروا الكثير. أما الحامية المتواجدة فى الزاهرة والتى كانت تشعر بالقلق الشديد قبل ذلك فلم تظهر أى روح للمقاومة وعرضت تقديم القصر العامرى مقابل إبقائهم على قيد الحياة. وأجلوا عن المقر بعد أن جاءهم الأمان كتابيا من المهدى. وبعد ذلك بدأت عملية نهب واسعة النطاق لكل محتويات المقرّ وقد سمح المهدى بذلك فقد كان يشعر بحاجته إلى الإفادة من الجزء الذى يخصه من هذه الغنائم فى بند توزيع الهدايا احتفالا بمقدمه وعندما أمر فى المساء بإيقاف عمليات السلب والنهب للمدينة العامرية، كانت الثروات التى جمعها العامريون من عملات ذهبية وفضية وأحجار ثمينة وجواهر وبسط وقماش الأستيرق قد ذهبت إلى قرطبة. ولم يسلم حريم القصور وحريم ابنائه من تلك الأحداث. وما حدث هو أن أخلى سبيل الحرائر منهن وأمرن بمغادرة القصر أما الإماء فقد ذهبوا بهن إلى العاهل الجديد لكن «الدلفى» والدة المظفر حظيت بمعاملة خاصة، كما سبق أن أخذت حيطتها وأرسلت قبل ذلك إلى قرطبة بجزء كبير من أموالها الخاصة.

وعندما لم يتبق فى الزاهرة أى شئ يمكن حمله أمر محمد المهدى بهدم المدينة بالكامل فى أسرع وقت ممكن وقد وعد القائمون على عملية الهدم بالحصول على الأعمدة والتيجان الرخامية والدعائم الخشبية المشغولة والأبواب المُطَعّمة بالمعادن الأمر

الذى جعلهم يتسابقون فى العمل على هدم المقر العامرى الذى لم يتبق منه إلا الأنقاض، وكأننا نجد أن حديث المنصور بشأن قِصَر عمر هذا المقرّ وقد تحقق[٩].

لكن إذا ما كانت الزاهرة قد أصبحت أنقاضا فإن عبد الرحمن كان لا يزال حيا تحيط به أفضل عناصر الجيش النظامي. ألم تكن عودته القريبة متنظرة ـ بعدما وصلته الأنباء عما حدث فى قرطبة ـ حتى يسترد العاصمة ويعاقب المغتصب وأتباعه؟ كانت هناك حاجة لقيام المدينة بمقاومته مقاومة شديدة وقيام كافة السكان بما فيهم الذين وقفوا بشئ من الفتور إلى جانب النظام الجديد وأن يقف الجميع صفا واحدا فى مواجهته. وحاول المهدى الدعاية لنظامه بأن أعلن إلغاء بعض الضرائب التى فرضها العامرى منذ فترة قصيرة وأن يتم لَعْنُ ذلك الدعّى على المنابر.

كان شنجول فى طليطلة عندما وصلته أنباء الثورة القرطبية ومجئ محمد الثانى المهدى، فلم تكن مفاجأة كبيرة فى نظر المقربين إليه لكنه اعتقد أن الأرض تدور من حوله فاتجه صوب «قلعه رباح» بغية الاقتراب من العاصمة وعندما وصل إلى هناك ظل بضعة أيام مضيعا بذلك وقته الثمين فى تلقى قسم الولاء من جميع أفراد جيشه. ويقول ابن حيان إن جنوده رأوا أن فى هذا السلوك دليل تخبطه أكثر من تخبط ناقة عمياء[١٠] ثم بدأت تحدث حالات انشقاق فابلغ القائد الزناتى محمد بن يعلى ذويه بأنهم لن يتمكنوا من قتال القرطبيين وإلا أنزلوا بأهليهم الذين لازالوا هناك غضب الدهماء كما أعلن القاضى ابن ذكوان، الذى رافق الحملة أن شنجول إذا هاجم قرطبة وعرّض حياة الآلاف من الأبرياء للخطر وفظائع الحرب فهو بذلك يكون قد خرج عن شرع الله. وسرت الأوقايل بأن العامرى منذ توليه السلطة لم يكن إلا مسلما سيئا حتى يلتزم فعلا بيمين الولاء التى أقسم الجميع بها أمامه. ألم يره أحد فى يوم من الأيام عندما رأى المؤذن ينادى فى الناس بالصلاة فرد ساخرا بأن من الأفضل ان يدعوهم إلى الحانة[١١] ؟

ومحصلة ماسبق أن شنجول وجد نفسه فى موقف حرج يوم أن اتخذ قراره بالسير نحو قرطبة ففى يوم ٢٨ فبراير ١٠٠٩م (نهاية جمادى الثانية ٣٩٩هـ) وصل إلى منزل هانئ، هو مكان على بعد مسيرة يومين من العاصمة، وأثناء هذه الليلة اتفق جميع البربر الذين كانوا فى صفوف الجيش على الخروج عن طاعته والتوجه إلى قرطبة التى استقبلتهم بالترحاب. شعر العامرى بأن الناس قد انفضوا عنه عندما شهد مسلك من كان يثق فيهم وبقى له السند الوحيد وهو وديع قائد مدينه سالم.فلماذا لم يحاول الانضمام إليه؟ كانت هذه هى النصيحة التى أسداها إليه كونت نصرانى من أسرة

غومث دى كاريّون والذى كان يرافقه ـ لسنا ندرى سّر ذلك ـ ولم يشأ أن يتخلى عنه. لكن شنجول أصرّ على مواصلة رحلته إلى قرطبة. فهل كان ينتظر معجزة؟ كانت نهاية مغامرته محزنة، إذ سار برفقة عدد صغير من الحرس الصقلبى متجها إلى بلدة أخرى هى «أرميلاط» وهى المحطة الأخيرة قبل وصوله إلى العاصمة، إذ كانت هناك «منية» تابعة للدولة وهى التي لفظ فيها أخوه أنفاسه منذ أربعه شهور فاتخذها مأوى لحريمه الذى يبلغ ستين امرأة فقد ظن من الضرورى مرافقتهن له فى الحملة، ثم ذهب ليطلب من رهبان الدير التابع للمستعربيين والذى يقع في المنطقة المجاورة استضافته. وفى يوم الثالث من مارس (٣ رجب) جاءت نحوه قوات أرسل بها محمد المهدى للامساك به. وبالفعل استطاع القائد الذى يتولى هذه القوة تحقيق الهدف وقبض أيضا على الكونت المرافق له. وعندما تم اقتياد الأسرى إلى قرطبة قام العامرى الذى استطاع إقناع القوات بفك وثاقه لبضع لحظات باخراج خنجره من غمده ليضع نهاية لحياته وبناء على ذلك تم قتله في الحال. وكان للكونت المرافق نفس المآل دون أن ينطق بكلمه. ثم ذهبوا بجثتى شنجول ومرافقه التعس الحظ إلى قرطبة وتم رفع الجثتين على حوامل خشبية حيث تعرضتا لأقسى أنواع السباب والإهانة من قبل الدهماء.

هكذا انتهت حياة هذا الخلف غير الجدير بالانتساب للمنصور.

٢- رد فعل البربر ـ سليمان المستعين

- الخلافة الأولى لمحمد المهدى :

سعد العامة فى قرطبة لاستطاعتهم اختيار أحد الأمويين ووضعه على عرش الخلافة، لكن لم يدم طعم السعادة فبعد أن ملأ غرور المنصب المهدى تحول إلى عاهل غير مرغوب فيه. وأول خطأ ارتكبه هو أنه أحاط نفسه بأناس لاكفاءة لهم وضرب عرض الحائط بالمصلحةالعامة. فابناء الشعب الذين جندهم ليكونوا حرس القصر أخذوا يعاملون أهل قرطبة بغلظة وخاصة البرجوازيين والأرستقراطيين الذين كانوا يترددون على القصر لحل مشاكلهم، كما لم يحسن الحرس معاملة الضباط الأفريقيين الذين انضموا إلى النظام الجديد طواعية ووصل بهم الأمر إلى أن يطلبوا منهم تسليم أسلحتهم قبل دخول القصر. كما أن العامة من أهل قرطبة كانوا يعربون عن بغضهم للجنود البربر دون مواربة. فذات يوم جاء الزاوى بن زيدى وهو يمتطى جواده وحاول أن يأخذ لنفسه طريقا وسط الناس فعومل معاملة سيئة من قبل الحرس الأهلى؛ وبعد

ذلك بقليل تعرض حيّ الرصافة الذى كان يقيم فيه الصنهاجة لعمليات سطو. لم تكن الأمور فى حاجة لمزيد من التدهور حتى يتمّ الوقوف بشدة فى وجه محمد المهدى الذى لم يقدم إلا حججا واهية للبربر الغاضبين وهم أقرباء عاهل إفريقية، فى الوقت الذى كان على الخليفة الجديد ـ بشئ من الحنكة ـ أن يربطهم به ويجعل مصير كلا الطرفين مشتركا. كما لم يكن المهدى على كثير من الذكاء فى موقفه من الضباط الصقالبة أتباع العامريين والذين عاهدوه على الولاء والطاعة، ففى اللحظة التى تلقى فيها النبأ السار بانضمام وديع إليه وقراره بأنه سيستمر فى منصبه ـ فى نهاية مارس ١٠٠٩م (رجب ٣٩٩هـ) ـ اتخذ قرارا ليس من الحكمة فى شئ ويتمثل فى إبعاد الفتيان من قرطبة وهم الذين كانوا فى خدمة المنصور وابنائه مما جعلهم يتجهون إلى المنطقة الشرقية للأندلس والقيام بحملة دعايه سياسية لصالحهم آتت ثمارها بعد وقت قليل.

تم تولى المهدى بعد ذلك موضوع الخليفة الأسير هشام الثانى فأطلق سراحه داخل دائرته الخاصة وأمره بترك القصر وليس من حقه أية نساء إلا واحدة من المحظيات ترافقها خادمتان ثم وضع الجميع تحت الحراسة فى أحد المنازل فى المدينة. ثم أمر بأن يذهبوا إلى القصر بجثة مسيحى أو يهودى كان يشبه الخليفة المخلوع وأمر بأن يحضر بعض علية القوم ومنهم القاضى ابن ذكوان ليشهدوا على أن الخليفة هشام الثانى قد وافته المنية. وأُمرَ بدفن هذه الجثة فى مدافن القصر يوم ٢٦ ابريل (٢٧ شبعان)[١٢]. لكن المروانيينَ لم ينخدعوا بهذه الأكذوبة الصبيانية وحتى يقضى المهدى على الشائعات الدائرة قام بإيداع بعضهم السجن ومنهم عميد الأسرة نفسها ويدعى سليمان الذى هو أحد ابناء عبد الرحمن الثالث؛ كان رجلا طاعنا فى السن وكان المهدى قد عينه على أنه الوريث الشرعى للعرش بعد توليه.

لماّ فاضت الكأس قام أحد ابناء سليمان ويدعى هشام بتزعم مجموعة معارضة هدفها الإطاحة بالمهدى وهى مجموعة أخذ يزيد عددها يوما بعد يوم. ولما كان العاهل يدرك أن الجنود النظاميين الذين انتقاهم من بين صفوف العامة من أهل قرطبة لا يمثلون بالنسبه له إلا قوة شديدة التواضع قام باتخاذ قرار سرّح فيه سبعة آلاف منهم، فما كان من هؤلاء إلا الانضمام إلى صفوف المتذمرين الذين انحازوا إلى جوار مناوئه. فقام هذا الأخير بجعل «فحص السرادق» كمركز للقيادة العامة لجيشه وهو سهل يقع على مقربة من قرطبة ناحية الشمال[١٣]. وكان الخلفاء يتخذونه قبل ذلك كمقر لاستعراض القوات قبل تسيير الحملات العسكرية. وهناك انضمت إليه الميليشيات التى تم تسريحها وكذا البربر الغاضبون من الخليفة الجديد. علم المهدى بالخطر المحدق به

فحاول إجراء حوار مع هشام ـ الذى لقبه أنصاره بالراشد ـ وأطلق سراح سليمان والده. لكن مطالب هشام كانت كثيرة لدرجة أن الرسولين اللذين بعث بهما المهدى ـ وهما الوزير أبو عمر ابن حزم والقاضى ابن ذكوان ـ عادا إلى القصر دون التوصل إلى أى اتفاق. إلا أن حظَّ الراشد كان سيئا فقد تم أسره وهو يحاول الهجوم على القصر وتم اقتياده إلى المهدى الذى أمر بقتله أمام عينيه وأعلن خروج البربر على القانون. فانسحب هؤلاء إلى Guadamellato لكن ذويهم فى قرطبة تعرضوا لمعاملة عنيفة لدرجة ذبح معها بعضهم. وقعت هذه الأحداث فى بداية يونيو ١٠٠٩م (شوال ٣٩٩هـ)

ومنذ هذه اللحظة لم يرغب البربر فى شئ آخر إلا القيام بغزو المدينة وتنصيب أحد الأمويين الموالين لهم، ولهذا طلبوا كافة أنواع المدد من كل صوب بما فى ذلك مساعدة الكونت سانشو غرثية القشتالى وأعلنوا استعدادهم مكافأته بشكل مجزى على هذا العون كما عملوا على إكساب حركتهم صبغة الشرعية، فكان من السهل العثور على واحد من سلالة عبد الرحمن الناصر ممن انضموا إلى صفوفهم واستقر رأيهم على سليمان بن الحكم بن سليمان حفيد الناصر وابن أخو هشام الراشد. كان سليمان هذا يبلغ من العمر خمسين عاما، فجعلوا منه طبقا لتعبير أحد المؤرخين «إمام مجموعة البربر» واتجهوا به نحو شمال الأندلس حتى وصلوا إلى قلعة رباح. وهناك جاءهم رسول من المهدى يحمل رسالة تعد بالعفو عنهم لكنهم رفضوا العرض وأعلنوا استهزاءهم به. ثم انتقلوا إلى «وادى الحجارة» وسيطروا على المقاومة فيها بسهولة ومن هناك وصلوا إلى أسوار مدينة سالم. إلا أن وديع قام بطردهم رافضا التعامل معهم. وأصدر تعليماته إلى منطقة الحدود الوسطى برفض التعامل معهم أو تركهم ليعيشوا فى هذه النواحى.

كان سانشو غرثية[١٤] يتابع باهتمام بالغ المراحل المتتالية للأزمة القائمة فى صفوف جيرانه المسلمين. فلم يذهب إليه البربر الذين يؤيدون سليمان بن الحكم طلبا للعون بل لجأ إليه أيضا وديع وكذلك المهدى، فقد استقبل كونت قشتالة سفارة من سليمان وأخرى من قائد حرس الحدود الوسطى وثالثة من خليفة قرطبة، ثم قرر الوقوف إلى جانب البربر على أساس أن النجاح إذا ما حالف محاولتهم فإن عليهم أن يسلموه بعض الحصون الأسلامية الواقعة على حدود نهر الدويرة لتكون ملكا خالصا له. وأخذ يمدهم بأعداد من قطعان الماشية وحمولة ألف عربة دقيق. وبعد ذلك ضم إليهم جيشا وأبلغ وديع بذلك. إلا أن هذا الأخير رفض الانضمام إلى القوات البربرية

والقشتالية وفضل التحرك ضدها ومعه قوات الحدود التى يتولى قيادتها. فبعد أن وصلته إمدادات من قرطبة ذهب لمهاجمة سانشو والبربر الذين توقفوا بالقرب من مجريط (Madrid) ناحية الشرق وبالتحديد بالقرب من قلعة هنارس Alcala de Henares [قلعة عبد السلام] وانتهى اللقاء بهزيمة وديع الذى انسحب صوب قرطبة.

لم يكن هناك أى عائق أمام سانشو غرثية والبربر إذا ما أرادوا الزحف نحو العاصمة الأندلسية ففى الثالث من نوفمبر ١٠٠٩هـ (١١ ربيع الأول ٤٠٠هـ) وصلت هذه القوات إلى Guadamellato وحاول المهدى خلال الأسابيع التالية دعم دفاعات قرطبة فأمر بحفر خندق عند مخارج الأرباض فى الشمال وفى «فحص السرادق» وزاد عدد قواته النظامية بأن ألحق بها قوات أخرى لم تكن قد تلقت أى تدريب عسكرى وخرج للقاء المتمردين يوم الخامس من نوفمبر عند بلدة Qandiclr(١٥) الواقعة شمال شرق القليعة Alcolea التى تقع بالقرب من ملتقى نهر Guadamellato مع نهر الوادى الكبير. كانت نتيجة المعركة كارثة على القرطبيين حيث مات منهم مالا يقل عن عشرة آلاف أو غرقوا عند محاولتهم عبور النهر هربا من جنود الجيش المعادى.

أصبح محمد المهدى لا حول له ولا قوة، وأصبح سليمان بن الحكم سيد الموقف وإمام البربر، أو بعبارة أدق إمام رئيس هؤلاء وهو الزواى بن الزيرى. ثم حاول الاتفاق مع مناوئيه وكان ملاذه الأخير هو الحضور إلى هشام الثانى وطلب منه الخروج من المكان الذى يتعبد فيه والظهور فى إحدى شرفات القصر منوها بهذا - أمام البربر - أنه ليس إلا رجلا يحمل تعليمات أمير المؤمنين. إلا أن الرجل الذى كلف بهذه المهمة وهو القاضى ابن ذكوان لم يسعه إلا الاستهزاء بما يحدث «كيف يصدر ذلك منك؟ - قال لهم - ألم يمتْ هشام وكنت أنت أول من أدى صلاة الجنازة عليه؟ أى الألقاب يمكن أن يعطيها للخلافة. ولم يكن أمام المهدى إلا الاختفاء عن الأنظار فهرب إلى أحد المنازل فى قرطبة وظل ساكنا بعض الوقت.

وفى الثامن من نوفمبر (١٦ ربيع الأول) دخل الزواى بن زير قصر الخلافة حيث انضم إليه سليمان فى الحال وفى اليوم التالى نُودِىَ بسليمان خليفة فى المسجد الجامع وتم منحه لقب «المستعين بالله» كانت أول خطوة اتخذها هى إنزال جسد العامرى شنجول من الحامل المعلقة به وأمر بدفنها وأداء حقوق الدفن الشرعية. كما أحسن وفادة الكونت غارثيا وإستقبله فى أحد صالونات القصر. وقد وافق الكونت على تأخير تسليم الحصون التى وعده بها. ولما عاد الكونت إلى قشتاله ترك فى قرطبة مائه رجل مسلح أقاموا فى منية بالناحية. وكانت لديه كافة الأدوات التى تساعده على كسب

المباراه ولم يخف احتقاره للموقف الذليل وعدم الحمية وما ترتب على ذلك من أثر فى مسلك القرطبيين.

- سليمان المستعين ـ الخلافة الثانية لمحمد المهدى :

لم تقبل الأقاليم والولايات المختلفة بتولية سليمان المستعين عرش الخلافة فى قرطبة ماعدا محافظات الجنوب. كما أن سكان العاصمة كانوا يشعرون بنقمة على البربر الذين أصبحوا الآن الحكام المستترين وبذلك كثرت الحوادث التى ساعدت على تعقيد الموقف فكل يوم تقع اعتداءات على الأفريقيين بشكل فردى رغم أن زواى بن زيرى قد غادر هو وقواته المدنية ليعيشوا فى مدينة الزهراء محاولين بذلك تفادى كل ما من شأنه الاحتكاك بالعامة فى أسواق المدينة وأرباضها. أما محمد المهدى فقد استطاع تضليل رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه ووصل إلى طليطلة مع نهاية العام وقد استقبلته هذه المدينة بالترحاب واعتبرته الوريث الشرعى الوحيد للخلافة الأموية.

استمرت منطقة الثغور الوسطى التى يسيطر عليها وديع بعد عودته إلى مدينة سالم على ولائها للمهدى. وإذا ما استمرت الأمور على هذا المنوال يمكن أن يتعرض عرش سليمان المستعين للتهديد وبالتالى قرر هذا الأخير القيام بحملة ضد سابقه وضد من يؤيدونه. ففى نهاية شهر يناير ١٠١٠م (١١ جمادى الثانية٤٠٠هـ) اتخذ طريقه صوب وادى نهر التاجه، لكن التهديدات التى وجهت إلى أهالى طليطلة لم تؤت ثمارها ولم تسفر الحملة ضد مدينة سالم عن نتائج تذكر. ولما كانت الظروف المناخية غير مواتية، فقد كان المطر يهطل بغزارة وتتساقط الثلوج، عاد سليمان المستعين أدراجه إلى قرطبة فى الرابع عشر من شهر أبريل (٢٧شعبان).

سار وديع صوب طرطوشة **Tatrosa** الواقعة على حدود قطلونية وأجرى مباحثات مع اثنين من أهم قادة ثغر الفرنجة فى المنطقة الأسبانية وهما رامون بوريّل الثالث **Ramon Borrell** كونت برشلونه وإير منغول دى أورجيل **Ermangol de Urgel** واستطاع بعد لأى الحصول على مساعدة عسكرية بشروط صعبة إذ كان عليه أن يسدد تعويضات يومية لكل واحد منهما قدرها مائه قطعة ذهبية بالإضافة إلى دينارين عن كل جندي. وعليه أن يوفر للقوات النبيذ والمأكل، كما أن أية غنائم يستولون عليها

من البربر ستكون ملكا خالصا لهم. وفى إطار هذه الشروط دخل فرسان كلا الحاكمين ضمن صفوف قوات وديع. وصلت هذه القوات إلى طليطلة مرورا بمدينة سالم ومدينة سرقسطة حيث كان المهدى فى انتظارها. وتوجه الجميع إلى قرطبة. وقد بلغ تعداد القوات أربعين ألف رجل ربعهم من الجنود الفرنجة.

لم يكن لدى سليمان المستعين من قوات إلا مجموعات البربر ذلك أن القرطبيين رفضوا الانضمام إليهم فما كان منه إلا العمل على مواجهة تهديدات محمد المهدى وفى يوم الثانى والعشرين من مايو عام ١٠١٠م (٥ شوال ٤٠٠هـ) تقدم صوب طليطلة والتقى بمناوئيه بعد ذلك بعدة أيام فى منطقة تسمى «عقبة البقر» وهى عبارة عن قلعة للمراقبة تقع على بعد عشرين كيلو مترا شمال قرطبة. وفى الجنوب الغربى لبلدة أوبيخو Ovejo[١٦] كانت للبربر الغلبة فى البداية على الجنود الفرنجة حيث أحدثوا فى صفوفهم خسارة فادحة[١٧] ورغم النصائح التى أسدوها إلى سليمان المستعين الذى كان فى مؤخرة الجيش، ظن أنه قد قطع خط الرجعة على انسحاب قواته فأسرع بالهرب وتسبب ذلك فى تفكك الجيش. وتوفر الوقت لدى زاوى بن الزيرى ومن معه ليذهبوا إلى مدينة الزهراء ليأخذوا أسرهم معهم ويسافرو نحو الجنوب بينما أخذ إمامهم طريقه مسرعا نحو بلده شاطبة Jativa، وفى اليوم التالى دخل محمد الثانى المهدى ومعه وديع قرطبة دخول الظافرين. وعندئذ بدأت فترة ولايته الثانية.

كانت الفترة الثانية أقصر من الأولى. ولما كان بيت المال خاويا على عروشه فقد طلب من القرطبيين المال اللازم لسداد الأموال التى وعد بها اللذّين ساعداه من حكام قطلونية. كما حثه هؤلاء أيضا على المزيد من العمل فخرج مطاردا البربر الذين اتجهوا إلى الجزيرة وأعدوا العدة للرحيل إلى شمال أفريقيا إذا ما ازدادت الأمور سوءا. والتقى بهم فى ٢١ يونيو ١٠١٠م (٦ ذى القعدة ٤٠٠ هـ) عند أول نهر وادى يارو Gua-diaro[١٨] الذى يبعد عن رُندة Ronda بعض الشئ. وهذه المرة كان البربر هم الذين أوقعوا بمحمد المهدى ومن معه هزيمة نكراء حيث قتلوا ما لايقل عن ثلاثة آلاف من الجنود الفرنجة وقتلوا أمين الماليه اليهودى ويدعى/ رامون بورّيل Ramon Borrell وجمعوا غنائم طائلة ذلك أن المسيحيين كانوا يحملون فى أحزمتهم كميات كبيرة من الذهب والفضة. عاد المهزومون إلى قرطبة وعندما طلب المهدى من الجنود القطلانيين الخروج لمهاجمة البربر من جديد رفضوا وغادروا المدينة بعد أيام عائدين إلى وطنهم.

ولم يكن أمام العاهل الا التحصّن للدفاع واتخاذ التدابير اللازمة لتحمّل الحصار الذى سيقوم به البربر بعد استيلائهم على مقاطعة البيرة Elvira. فقام بحفر خندق على طول السور المحيط بالمدينة وتم حماية هذا الخندق بحوائط ساندة.

أدرك وديع ـ الرجل الذى كان وفيا لمحمد المهدى وفاء كاملا ـ أن هذا الأخير أخذ يقع فى نفس الأخطاء التى ارتكبها خلال فترة خلافته الأولى وأن لا شئ يمكن انتظاره من رجل يتسم بالاباحيه وعدم الذكاء ولا يتورع عن فعل أى شئ. وقد أثر عليه بعض السلافيين العامريين الذين كانوا يعيشون على السواحل الشرقية، مما جعله يقبل بقدوم بعضهم إلى قرطبة ومن بينهم الفتى خيران والفتى عنبر اللذان ذهبا إلى شاطبة Jativa. وقبل أن يصل البربر إلى قرطبة، قام وديع ورتب مع ذويه هؤلاء مؤامرة كان هدفها إزاحة محمد المهدى الذى لا حول له ولا قوة، عن العرش وإعادة الخليفة هشام الثانى إلى عرش الخلافة. وتم تنفيذ برنامج الخطة بدقة ففى ٢٣ يوليو (٨ ذى الحجة) تم اغتيال محمد بن هشام بن عبد الجبار على يد ضباط من الصقالبة داخل القصر وفى حضور المؤيد.

ـ الخلافة الثانية لهشام الثانى (١٠١٠- ١٠١٢م) حصار قرطبة :

أوضح هذا التحول السريع الذى حدث بتحريض من وديع أن الصقالبة لم يفقدوا حتى هذه اللحظة الأمل فى أن تمسك أيديهم بشئون إدارة الدوله. وأنهم لازالوا يعتبرون الخلفاء الطبيعيين لأولياء نعمتهم من العامريين. فهل كان وديع يريد أن يتولى منصب القائم بشئون القصر إلى جوار الخليفة الضعيف هشام الثانى كما فعلها المنصور منذ وقت طويل؟ هذا التصوّر يدخل فى دائرة الاحتمال، وعلى أى حال فقد جاء حزب الصقالبة ليواجه حزب البربر، وفى الوقت نفسه نجد أن الحزب العربى، أو بمقولة أدق الأندلسى ـ ابناء الأسر العريقة من علية القوم والفقهاء ... ظل فى دائرة الظل سواء كان السبب هو الأنانية أو الخوف أو اللامبالاه بما سيحدث فى المستقبل. لم تؤد عودة هشام الثانى إلى الخلافة إلى الوحدة المقدسة التى كان يرنو لها وديع فقد رفض البربر المنصور ومعهم إمامهم سليمان الاعتراف بالوضع الجديد إذ كان الأمويون فى العاصمة يتشككون فى نوايا مولى المنصور فأرسلوا إلى سليمان رسالة يعلنون فيها انضمامهم إليه دون تحفظ. أما هشام الثانى فقد ظل ألعوبة فى يد وديع الذى عين حاجبا كما كان على حاله أثناء حكم العامريين الثلاثة. وسرعان ما وصلت الأخبار بأن البربر يقتربون من العاصمة. هاجموا أولا مدينة الزهراء يوم ٤ نوفمبر

١٠١٠م (٢٣ ربيع الأول ٤٠١ هـ) وقضوا على حاميتها ومكثوا فيها حتى الربيع وقد ضيقوا الخناق على المدينة فقد كان هدفهم استسلامها جوعا. أدت هذه المحطة إلى قيام مجموعات من البربر باستغلال وقت الفراغ لإخضاع مناطق جيان Jaen وإلبيرة Elvira ومالقة والجزيرة لسيطرتهم وإعلان اعترافها بأن سليمان المستعين هو العاهل.

كانت الأمور تزداد سوءا كل يوم فى قرطبة عندما جاءت إليها سفارة من سانشو غرثية تطالب بالحصون التى وعدت بها قشتالة. وقام البربر بتحريض الرسل ضد هشام الثانى، ذلك أن الأقاليم الواقعة على الحدود ظلت على ولائها لسلطة وزيرها الأول وديع. ولم يكن أمام الخليفة وحاجبه إلا الإذعان لتلك الإهانة وحررا عريضة رسمية أعطيا بمقتضاها لسانشو غرثية حق ملكية بعض الحصون الواقعة على طول نهر الدويرة وبالتحديد شنت إشتبن وكلونيا وخشمة osma وغرماج. على أن الكونت القشتالى وعد بألا يقوم بأية عمليات عدوانية على منطقة الثغور الوسطى. هذه القلاع والحصون السابقة كانت تعيش فى القرن الماضى ترفرف عليها الراية البيضاء لبنى أمية(١٩).

ورغم الحصار الذى أخذ يضيق حول قرطبة ظل أهلها يعاندون فكرة السلام، ولو مؤقتا، مع البربر وهؤلاء من جانبهم لم يبد عليهم الاستعداد للدخول فى أى تفاوض. وكان السكان يتنادون بمحاربة قوات الحصار لكن آذانهم تصاب بالصمم عندما يطلب منهم الإسهام فى التسليح. ولما كان البربر قد استولوا على باقى احتياطى المؤن الموجودة فى الحقول المحيطة لم يجد الحصادون مناصا إلا الهرب إلى المدينة لينضموا إلى طابور الأفواه الجائعة. كانت خزائن بيت المال خاوية ولم يكن أمام وديع إلا بيع جزء من مقتنيات المكتبة العامرة التى جمعها الحكم الثانى فى قصره(٢٠) كان هدف وديع الحصول على المال.

مضت الشهور دون أن يكون هناك حل ما فانقضى الشتاء وبعده الربيع وشهد نهر الوادى الكبير فيضانا كبيرا قضى على ألفى منزل فى العاصمة وراح ضحيته عدة آلاف من النّاس وأثرت الأمطار الغزيره والمتواصلة على أسوار المدينة، ولم تعد هناك مؤن، وما بقى منها وصل سعره إلى أعلى درجة وحل وباء بالعاصمة خلال الصيف وضرب سكان العاصمة. ونظرا لتلك الظروف واستنادا إلى أن ليس هناك مخرج آخر اتخذ وديع قراره بالفرار، هكذا ببساطة، آملا أن تتحقق طموحاته السياسية بعد ذلك. لكن خطته فشلت ذلك أن أحد القرطبيين من ذوى الحمية ويدعى (ابن وداعة)(٢١) يرافقة بعض القتلة المأجورين ذهب إلى وديع فى منزله وأخرجه منه بعنف وأخذ يكيل له

السباب والشتائم وفى النهاية قطع رأسه يوم ١٦ أكتوبر ١٠١١م (١٥ ربيع الثانى ٤٠٢هـ).

تمكنت قرطبة من مواصلة المقاومة لمدة عام ونصف بفضل الإجراءات التى اتخذها ابن وداعة قاتل وديع والذى أصبح صاحب شرطة المدينة وساعده فى تلك المهام وزير يدعى ابن المناوى. كان كلاهما ينادى بالمقاومة حتى النهاية على أمل أن يهب المواطنون المقيمون فى مناطق الثغور لنجدة قرطبة والخليفة، وأرسلوا إلى زواى بن الزيرى عدة مقترحات حتى يتخلى عن حرب سليمان فكان ردّ رئيس الصنهاجة مهذبا لكنه أصر على مطالبه. وفى بداية صيف عام ١٠١٢م (ذو الحجة ٤٠٢ هـ) نصح أعيان الدولة هشام الثانى أن يسلم المدينة فى إطار شروط معينة تعتبر الحد الأدنى من المقبول به.لكن لم يأت الرد على الرسالة التى وجهها الخليفة إلى سليمانَ المستعين. وازدادت عدوانية البربر بمرور الأيام وجاء بعض قادتهم نحو أسوار قرطبة يتحدون أبطال المعسكر الآخر أن يخرجوا لقتالهم رجلا لرجل. وذات يوم مات حباسه بن مكسن ابن أخو زاوى بن الزيرى عندما دخل معركة غير متكافئة ضد مجموعة من القرطبيين، فأنتقم له ذووه انتقاما كبيرا خلال الأيام التالية؛ وكان المواطنون يقومون بطلعات متعددة ليروا فيما إذا كن الموقف قد انفرج أم لا، لكنهم يعودون خاسرين. وأخيرا جاء الفرج ففى يوم ٩ مايو عام ١٠١٣ (٢٦ شوال ٤٠٣ هـ) ذهب القاضى ابن ذكوان يرافقه بعض الفقهاء بالتوجه رسميا إلى معسكر البربر وطلبوا الأمان لأهالى قرطبة فأعطوه من جديد. وعندها قام أتباعه بالتجول فى المدينة وهم يسومون أهلها سوء العذاب وشفاء غليلهم من هؤلاء الذين قاوموهم مقاومة شديدة وسالت الكثير من الدماء فى هذه المدينة الجميلة ولم تسلم أى طبقة اجتماعية من سوء المعاملة من قبل المنتصرين الذين لم يتورعوا عن فعل أى شئ. وقد رسم لنا العظيم ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة» صورة عن تلك الأيام المأساوية حيث اغتيل الكثير من العلماء مثل كاتب التراجم ابن الفرضى ونهبت كافة القصور الأرستقراطية وأحرق كثير منها.

– وفاة الخليفة هشام الثانى والولاية الثانية لسليمان المستعين :

بعد أن استقر المقام بالمستعين فى القصر أمر بأن يمثل أمامه هشام الثانى المؤيد. ثم أنّبَه كثيرا وبعد أن تلعثم الخليفة ببعض عبارات الأعتذار مؤكدا أن سبب إعتلائه عرش الخلافة من جديد كان الضغط عليه وأنه تنازل للمرة الثانية عن الخلافة لصالح سليمان. فماذا فعل به سليمان عندئذ؟ نجد أن المؤرخين المسلمين يشيرون إلى

هذه النقطة باقتضاب شديد، كما نلاحظ عدم توافق الروايات فمن قائل بأن هشام أدين بالموت ومن قائل إنه استطاع الهرب والفرار صوب المشرق العربى حيث انتهت حياته ولا يعرف عن نهايته شئ. وعلى أى الأحوال فإن حفيد الناصر لم يظهر مرة أخرى على الساحة السياسية، كما تتوفر أسباب معقولة للميل بأنه قتل وأن الخبر لم يذع، فقد ظل اسمه يتردد على المنابر فى الكثير من مساجد الأندلس. كما أننا نعرف يقينا أن الشخص الذى أرادوا تقديمه فى أشبيلية على أنه هشام المؤيد لم يكن إلا شبيها أريد له الظهور لأسباب سياسية وأن الأموى الحقيقى كان قد مات منذ بضعة أعوام. ويرى ابن الخطيب أن محمدا(٢٢)، أحد ابناء المستعين، هو الذى أقدم على خنق هشام الثانى فى الثامن عشر من مايو عام ١٠١٣م (١٥ ذو القعدة ٤٠٣هـ) وأشاع نبأ تسهيل هربه وأنه عاش ردحا من الزمن فى المريّة عيشة ضنكا حيث كان يعمل فى مهنة السقّا حتى وافاه الأجل(٢٣). ومن المحتمل أن تكون الأحداث قد سارت على هذا النحو. والحقيقة أن رحلة العاهل الثالث قد انتهت بنفس الطريقة التى بدأت بها يوم أن تولى منذ زمن عرش الخلافة: أى نهاية قاتمة وشديدة التواضع. وفى نفس اللحظة التى بدأت فيها وصاية العامريين أيضا نجد أن خلف عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى كان يتأرجح فى مواقفه طبقا لمجريات الأحداث دون أن يحاول التعبير عن شخصيته. وعندما تم إقصاؤه للمرة الثانية وربما إلغاؤه كان عمره يناهر الخمسين عاما وإذا ما بحثنا فى التاريخ الأسلامى فلن نجد إلا القليل من هذه الشخصيات الضعيفة وغير واضحة المعالم.

امتدت ولاية سليمان المستعين إلى ما يقرب من ثلاثة أعوام قبل أن تنتهى نهاية مأساوية. ولسنا ندرى شيئا عن الأنشطة التى مارسها خلال هذه الأعوام؛ نعرف أن كانت له بعض القدرات. وإذا ما أخذنا برؤية كتاب ترجمته كان ذا ثقافة أدبية واسعة وكانت له موهبة قرض الشعر، لكن إذا نظرنا إليه كرجل دوله فلم يكن إلا أداة فى يد البربر الذين دفعوا به إلى الحُلم.

وعندما تولى الحكم للمرة الثانية احتفظ البربر بأعلى المناصب فى المملكة، ولما أدركوا بعد قليل أن الوحدة السياسية للأندلس قد انتهت منذ زمن طويل وأن الثغر الأوسط ومنطقة شرق الأندلس يرفضان الانصياع للخليفة. أوعزوا إلى سليمان بأن يصدر قرارا يضمن لهم مستقبلهم القريب وهو منحهم إقطاعيات فى المحافظات الوسطى والجنوبية التى تعترف بسلطته فأخذ الصنهاجة نصيب الأسد: إذْ سيطروا على محافظة ألبيرة بالكامل. أما المغراوة فقد أخذوا لأنفسهم الأحياء الشمالية فى العاصمة، أما بنو يقرو وبنو برزال فقد استولوا على جيان **Jaen** والأراضى التابعة لها.

أما بنو **Dammar y los Azdacha** فقد استولوا على مدينة صيدونيا **Sidonia** ومورو **Moron**. كما نودّ الإشارة إلى أن سليمان المستعين إتخذ قرارا بأن يظل العربى/ المنذر بن يحيى فى موقعه فى سرقسطة والثغر الأعلى. وهو رجل من الفرع التجيبى من بنى هاشم وهو ذلك الرجل الذى أيده فى قضيته وشارك فى الاستيلاء على قرطبة(٢٤).

ومنذ أن مات عبد الملك المظفر فإن المنطقة الداخلية فى المغرب التى كان يحكمها المغراوى المعز بن زيرى بن عطية كانت قد خرجت نهائيا من الحماية القرطبية، ولم يتبق إلا بضع حاميات على الشاطئ تتواجد فيها وحدات أندلسية، وهى سبته وطنجة وأرثيلا، كانت لاتزال تعترف فى البداية بالأمير المسلم الذى كان يمارس سلطاته فى جنوب أسبانيا وعندما قام سليمان المستعين بتوزيع الإقطاعات بين ضباطه من الصنهاجة والزناته فإنه وكل إدارة هذه الحاميات الأفريقية لاثنين من القادة اللذين انضما منذ فترة إلى صفوف البربر وهما على حمود وشقيقه الأكبر القاسم.

كانا الاثنين من الأدارسة الأصلاء ذلك أن جدهم حمود كان حفيد إدريس الثانى نفسه. وكانا مثل الكثيرين من أقاربهم من ذوى النسب العلوى قد جاءا للبحث عن الثراء فى أسبانيا دون أن يفقدا الصلة التى تربطهم بالأقليم الجبلى الواقع شمال المغرب والذى يحيط بمنطقة جبل طارق. كان على بن حمود هو أكثر الأخوين جرأة فلم يشعر نحو سليمان المستعين إلا بالقليل من الاحترام. ولهذا السبب فإن الحاشية البربرية التابعة للخليفة أصيبت بالمفاجأة عندما عرفت بأن العاهل قد عهد إلى علىّ حكم سبته وحكم الجزيرة وطنجة وأرثيلا إلى القاسم. كان علىّ يبدو فى صورة الرجل الذى استمع لوصية هشام الثانى وأنه عين من قبل الخليفة ليكون خلفا له بعد موته. وعلى أى الأحوال فإن الإدريسى لم يخف نواياه تجاه الأمير الذى عينه، بمجرد وصوله إلى مقر المنطقة التى يحكمها فأمر بقتل قاضى سبته محمد بن عيسى بن زاية(٢٥) وكذلك أمر بقتل/ ابن يربوع أحد أبرز فقهاء المدينة وكان الاتهام الموجه إليهما هو أنهما تحدثا عنه بسوء أمام المستعين. وقد جرى تنفيذ الحكم فى نهاية عام ١٠١٣م وبداية ١٠١٤م (٤٠٤هـ). إلا إقطاعاتهم أجرى على مفاوضات مع الصقالبة العامريين المتواجدين على السواحل الشرقية وخاصة مع الفتى خيران الذى أقام فى المرّية وفى صيف عام ١٠١٦م (نهاية عام ٤٠٦هـ) عبر الأدريسى مضيق جبل طارق وطلب من عامر بن فتوح حاكم مالقة أن يسلمه المدينة ففعل ثم توجه من هناك الى المنكب

Almuñecar حيث انضم إليه خيران واتخذا طريقهما إلى قرطبة أما أخوه القاسم فقد ظل فى الجزيرة مرابطا وعلى استعداد للتدخل إذا ما لزم الأمر.

لم يبد المستعين أية مقاومة تذكر أمام على بن حمدون، إذ فقد الأول عون أغلب كتائب البربر التى أخذت تعنى بشئونها الخاصة، فألحق على الهزيمة به وأسره بالقرب من العاصمة التى دخلها فاتحا فى أول يوليو ١٠١٦م (٢٢ محرم٤٠٧هـ) وأول ما فعله على هو المطالبة بأن يسلمون هشام الثانى حيا أو ميتا. ولما كان هناك شك فى اغتياله أراد التأكد من ذلك لاعلان مشروعية اغتصابه للخلافة. وبعد نبش قبر هشام الثانى والتعرف عليه وإعادة مواراة رفاته التراب للمرة الثانية فى المدافن الملكية التابعة لبنى أمية قام على بطعن المستعين طعنة قاتلة بعد أن ثبتت عليه تهمة قتل الخليفة. كما تعرض كل من أخيه عبد الرحمن ووالده الحكم لنفس المصير رغم براءتهما من أى تهمة وفى اليوم التالى قام على بن حمدون بتنصيب نفسه خليفة. واتخذ لنفسه اللقب الشرفىّ الذى كان لعبد الرحمن الناصر «الناصر لدين الله»(٣٦).

كانت هذه هى المرة الأولى التى يصعد فيها على كرسى الخلافة فى قرطبة عاهل من غير المروانيين، منذ قدوم الأسرة الأموية إلى أسبانيا. إلا أن أهالى المدينة أصابهم الضجر من عدم أهلية الحكام الذين تناوبوا السلطة منذ بضعة أعوام وبالتالى لا نرى أى رد فعل لهذه الخطوات، اللهم إلا شعور البعض بالسعادة لما حدث. كما وقعت أحداث جسام خارج العاصمة أثناء الفترة القصيرة التى تولى فيها سليمان المستعين وأوضحت هذه الأحداث بجلاء شديد التمزق الشديد الذى أصبحت عليه دولة الأندلس. وأنّ الوحدة الأسبانية الأسلامية قد تفككت وكيف أخذت تعم الفوضى التى أخذت تقوّض هذا البلد السيىء الحظ. تضاءل الأمل فى إعادة الأوضاع الى ما كانت عليه إذا استقر المقام بالصنهاجة فى شرق الأندلس أما الزناته فكانت لهم الناحية الغربية وأخذ الصقالبة يكسبون الأراضى الواقعة بين ألّمرية وبلنسية Valencia. وفيما يتعلق بمناطق الثغور نلاحظ أن الحكام المحليين لم يعترفوا بسلطة الحكومة المركزية لدرجة ظهور خليفة مناوئ فى المنطقة الشرقية. وقد شجع هذا أحد الصقالبة العامريين ويدعى مجاهد الذى أصبح سيد دانية Denia وسيد جزر البليار - كما سنرى فى الفقرات التالية - كما أنه وضع أحد قدميه فى جزيرة سردينيا. نودى بهذا الخليفة - عبد الله المؤيدى - أمير المؤمنين فى شهر ديسمبر عام ١٠١٤م (جمادى الثانية ٤٠٥هـ) لكن فترة ولايته كانت قصيرة ثم سقط بعد ذلك فى غياهب الظلمة التى أخرجه منها القدر لبعض الوقت.

٣- بنى حمود وآخر الأمويين القرطبيين (١٠١٦م - ١٠٣١م)

- حكم على بن حمود :

سرت فى أسبانيا فى ذلك الزمان نبوءة تقول «هناك متمرد يبدأ اسمه بحرف العين سوف يظهر فى سبتة ثم يحكم الأندلس» وقد أثرت هذه النبوءة كثيرا على هشام الثانى، وتمثلت فى الانقلاب الذى قام به على ابن حمود. إلا أن العاهل الجديد وهو رجل يزيد عمره على خمسين عاما، عند توليه الحكم، لم تكن تتوافر لديه من الصفات التى تسهم فى خلق قواعد صلبة لإرساء الحكم الذى اغتصبه دون عناء كبير. كان علىّ مثل باقى الأدارسة قد أخذ طباع البربر لدرجة أنه لم يكن يتحدث العربية إلا بصعوبة كما أنه كان يتحدث باللهجة الزناتية[٢٧] ومع هذا كان واعيا لمتطلبات عراقة الأصل وتأهله لشغل منصب الخلافة. ولهذا كرّس الشهور الأولى من حكمه (ثمانية أشهر) ليحظى بتقدير رعيته ولم يكن هناك شئ يسعد القرطبيين إلا تضييق الخناق على كتائب البربر التى كانت ترابط فى العاصمة رغم أنها لم تعد فى موقف يسمح لها بأن تفعل ما تريد. فالجرائم العامة كان يرتكبها البربر وهو موقنون بأن لاعقاب سيقع عليهم. أخذ الحمودى يطبق تلك العقوبات بصرامه بالغة لدرجة أنه أمر بقتل جندى لسرقته كمية من العنب. وحرص العاهل الجديد على التطبيق الحرفى للحدود الشرعية لدرجة أثارت حيرة المواطنين أنفسهم. لكن لم يطل الأمر بهذه النوايا الحسنة فقد اتخذ أهالى قرطبة موقفا متحفظا بشأن علىّ بن حمود، فأخذوا ينتقدونه ويفسرّون تصرفات أمرائه بطريقة ملتوية وأخذت الهمهمات تتحدث ضد هذا الأجنبى الذى اغتصب السلطة. ثم أخذ الأهالى يجاهرون بميلهم لقضية الأموى المرتضى وهو الرجل الذى حاول الصقالبة تزكيته فى المحافظات الساحلية فى الشرق.

وما حدث بعد ذلك هو تحول على بن حمود - فجأة عن السياسة المعتدلة التى فضل السير عليها منذ البداية وبمرور الأيام أخذ الزناته يستردون حصانتهم والمزايا السابقة التى كانوا عليها، وفى الوقت ذاته كان القرطبيون يعيشون فى ظل نظام إرهاب. كما أعلن أن البرجوازية مسئولة عن أية تصرفات يقوم بها العامة. وعمت الإجراءات المعتادة مثل إلقاء القبض بشكل متكرر على الأفراد ومصادرة الأسلحة والغرامات الباهظة ومصادرة الأموال. وقد خيم كل ذلك بثقله على أهالى المدينة، ولم يكن هناك مناص إلا مجئ المرتضى لإقصاء الطاغية عن كرسى الخلافة لكن صاحب الحق الأموى هذا تأخر وصوله. وعندئذ أعلن على بن حمود أنه عقد العزم على التوجه

إلى جيان Jaen لمهاجمته غير أنه كان بحاجة لبعض الوقت. وعندئذ قام ثلاثة من الخدم الصقالبة فى القصر بالهجوم على سيدهم. كان ذلك ليلة الثانى والعشرين من مارس عام ١٠١٨م (أول ذى القعدة عام ٤٠٨هـ) وقد هوجم وهو فى الحمامات الملكية وتركوه فاقد الوعى بعد أن ألقوا على رأسه جردلا نحاسيا ثقيلا ثم أجهزوا عليه بالخناجر وفروا هاربين دون جلبة. مرّ وقت قصير حتى اكتشف حريم على بن حمود وهو غارق فى بركة من الدماء فأسرع الزناته بإبلاغ أخيه الأكبر الذى كان قد ترقى وأصبح والى أشبيلية. فوصل القاسم بن حمود إلى قرطبة بعد سته أيام من مقتل أخيه ونصّب نفسه خليفه وتلقب بالمأمون.

– الأموى المرتضى والحمّوديان قاسم ويحيى :

كان القرطبيون ينتظرون النجدة من قبل من يطالب يكرسّ الخلافة، المرتضى، لكن حياته قد انتهت نهاية مأساوية قبل ان تبدأ وذلك خلال الأسابيع الأولى التى تلت اغتيال على بن حمود، وتولى أخوه القاسم عرش الخلافة. كان المرتضى أحد ابناء وأحفاد عبد الرحمن الناصر، ويدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك، وقد ذهب للعيش فى بلنسية، واكتشف وجوده الفتى الصقلبى خيران سيد المريّة. كان الصقلبى رجلا مثيرا للمتاعب ولا يعوقه أى رادع أخلاقى وكان كل همه تحقيق مآربه الشخصية فقد أيدّ فى البداية علىّ بن حمود ضد سليمان المستعين وظل على علاقة طيبه به طوال بضعه أشهر؛ وبعد ذلك صعد نجمه على أساس أنه هو الذى انتقم لمقتل هشام الثانى، إذ كان على رأس المجموعة التى كانت تهدف لطرد الأدريسّى المغتصب من قرطبة. ولهذا تحالف مع العربى التوجيبى/ منذر بن يحيى السرقسطى. كان هذ الأخير على استعداد لخيانة علىّ واتفق خيران ويحيى على تكوين جيش فى المنطقة الشرقية والثغر الأعلى، كما وعد كونت برشلونه الذى كان حليفا ليحيى بأنه سيزودهما ببعض القوات. تمركزت هذه القوات شاطبة Jativa حيث حضر الأموى بناء على تشجيع خيران له وأخذوا يستعدون للرحيل إلى قرطبة مروراً بجيان. وهى المنطقة التى فكر علىّ بن حمود الذهاب إليها لايقافهم. وبعد ذلك بشهر وبالتحديد يوم ٢٩ ـ ابريل عام ١٠١٨م (١٠ ذى الحجة ٤٠٨هـ) قام المتآمرون بالمناداة بخليفتهم الذى تلقب بالمرتضى. لكن لما كان هذا الأموى يتمتع بالحزم والإقدام فقد بدرت عنه منذ الأيام الأولى تصرفات توحى بقوة الشخصية وأنه لن يسمح بلعب دور غير معروف الملامح أرادوه له ـ خاير ومن يدورون فى فلكه. فلم يجد هؤلاء طريقا للتخلص منه إلا خيانته خيانة نكراء.

اتخذوا قرارهم بتأجيل مهاجمة المدينة وبدلا من ذلك هاجموا الصنهاجة المقيمين فى إلبيرة. ثم قام الجيش المكون من أربعة آلاف رجل هم جماع تحالفات كثيرة بالتوجه لحصار غرناطة التى حوّلها زاوى بن الزيرى ومن معه إلى عاصمة لهم. لم يستطع القائد الصنهاجى العجوز أن يواجه المرتضى إلا بألف فارس أحسن إعدادهم وهم أناس تتوفر فيهم روح الجندية. وبناء على دعوة رقيقة من الأموى يطلب منه فيها الانضمام اليهم كان رده ذكر آيات قرآنية(٢٨). ثم تبع ذلك التهديد والوعيد فكان مصير هذه الدعوات نفس السابقة عليها إذ كان رفض الزاوى واضحا إذ استخدم فى الرّد عبارات عنيفه تمثلت فى ذكر آيات من القرآن(٢٩). وعلى الجانب الآخر - صفوف الجيش المهاجم - نجد أن خيران أبلغ عن استعداده للأنشقاق والتخلى عن المرتضى. فعندما أصدر هذا الأخير أوامره بالهجوم على غرناطة قام الصنهاجة بالإغارة على المهاجمين بكل قوة مما جعلهم يفرون ثم أخذوا فى مطاردتهم محدثين فى صفوفهم خسائر فادحة. لم يعبأ كل من المنذر بن يحيى وخيران بالخليفة وتوجها إلى ألمريه مسرعين. أما الضباط الذين هم من أرغن **Aragon** ومن بينهم سليمان بن هود وحلفائهم من القطلانيين فقد عاد كل فريق إلى بلاده فى الشمال وهو يحمل على كتفيه ثقل الهزيمة. كان الفرار هو طريق المرتضى فقد لجأ إلى وادى آش **Guadix** حيث ذهب بعض رسل خيران للبحث عنه واغتياله(٣٠).

زادت المرارة فى حلوق القرطبيين للحظ المشئوم الذى تعرض له المرتضى وأخذوا يتساءلون فيما إذا كان الحمودى الجديد سوف يمارس طغيانه عليهم ويسير فى نفس الطريق الذى بدأه أخوه على. أما زاوى بن الزيرى الذى اعترف رسميا بخلافة القاسم بن حمود فقد أبلغه بأنباء انتصاره وأرسل إليه بجزء من الغنائم التى استولى عليها من معسكر المرتضى وكذا خيمة الاستعراض(٣١). انتاب الرعب أهالى قرطبة عندما شاهدوا هذه الهدايا غير أنه سرعان ما اكتشفوا أن مخاوفهم لا أساس لها من الواقع. وقد شهدت قرطبة اعتبارا من تلك اللحظة، ولمدة ثلاث سنوات، تهدئة واضحة للمشاعر، فالقاسم كانت تتوافر لديه بعض المهارات السياسية كما أن تقدم العمر به جعله يميل إلى الاعتدال وانتهى الأمر بأن أصبحت له شعبية فى قرطبة دون أن يسعى وراءها. إذا أعلن عفوا عاما عندما تولى الحكم وألغى أحكاما حديثة الصدور والتى كانت تحتم على البرجوازيين أن يقوم كل واحد بسداد عتاد جندى وإعاشته(٣٢)؛ وحتى يتخلص من الميليشيات البربرية قام بالبحث عن جنود فى الشمال الأفريقى وهم السودانيون واتخذهم حرسه الخاص. ونسب البعض إليه توجهه الشيعى لكن لم يفصح عن ماهية هذا التوجه أبدا. واجتذب الصقالبة إلى بلاطه واستقبل خيران وأكد له

وضعه في المرّية، أما بالنسبة للفتى ـ العامرى الآخر وهو زهير فقد منحه جيان وبياسة Baeza وقلعه رباح.

إلا أن هذا النظام لم يدم طويلا بسبب لبيراليته وسلميته. فقد كان للقاسم اثنان من ابناء أخيه على يظنان أن العم قد اغتصب منهما إرث والدهما على بن حمود: كان أولهما يدعى يحيي، وكان يعيش فى المغرب. أما الثانى فهو إدريس الذى أصبح سيد مالقة. تلقى يحيى رسائل من البربر فى قرطبة أعربوا له فيها عن نقمتهم لما فعله القاسم بهم وأعربوا عن مساندتهم له. وبناءً على ذلك تقدم يحيى نحو قرطبة فتخلى عمه القاسم عن هذه اللعبه فورا؛ ففى الخامس من أغسطس ١٠٢١م (٢٢ ربيع الثانى ٤١٢هـ) ترك العاصمة ولجأ إلى أشبيلية. ولم تمض ثمانية أيام حتى وضع البربر يحيى على كرسى الخلافة فى القصر ونصبوه خليفه وتلقب بـ المعتلى بالله. أما أهالى أشبيلية فقد أعلنوا القاسم أمير المؤمنين.

كان على يحيى بن على بن حمود أن يبقى فى قرطبة لمدة عام ونصف كيفما اتفق إلا أن الأمر انتهى به إلى موقف يستحيل معه الاستمرار إذ كان شديد الكبرياء لدرجة أثارت ضيق البربر منه، وعندما شعر بالتهديد لم يجد إلا الفرار وسيلة، واستقر به المقام فى مالقة فعاد عمه القاسم إلى قرطبة ليتولى السلطة يوم ٩ فبراير ١٠٢٣م (١٢ ذى القعدة ٤١٣هـ) إلا أن حكمه لم يدم إلا شهورا قلائل فقد خرج القرطبيون عن سكونهم وقرروا الرّد على الضربة بأخرى مماثلة وموّجهة للبربر الذين لم يستطع العاهل العجوز إيقافهم عند حدّهم. ففى بداية شهر أغسطس ساد المدينة عصيان عام، وحاول القاسم القضاء عليه فأمر بإغلاق أبواب المدينة لمنع وصول كافة أنوا ع المؤن والسيطرة على السكان جوعا لكنهم استطاعوا فتح الأبواب بالقوة، وأظهروا بذلك استعدادهم لاسترداد حريتهم مهما كلفهم من ثمن وفى التاسع من سبتمبر (٢١ جمادى الثانية) ترك القاسم قرطبة وهو عازم على عدم العودة ظنا منه أن أهالى أشبيلية سيرحبون به لكن لم يحدث ذلك فذهب إلى شريش Jerez وهنا جاء يحيى ابن أخيه على عجل لمحاصرته وإجباره على الاستسلام ثم ذهب به إلى مالقة وأودعه هو وابناؤه أحد السجون ثم أمر باغتياله بعد بضع سنوات.

الأمويّان المستظهر والمستكفى :

لا مناص أمامنا إلا مواصلة سرد الخطوط الرئيسية لهذه القصة المحزنة وغير الواضحة، فبعد أن رحل القاسم بن حمود عن قرطبة كان أهلها مستعدين لأن يتولى

أمرهم أحد الأمراء من بنى أمية، وقد كان هناك الكثير منهم، فتم الاتفاق على اختيار أحد الأمراء فى المسجد الجامع (٢ ديسمبر ١٠٢٣م - ١٦ رمضان ٤١٤هـ) كان هناك ثلاثة من سلالة عبد الرحمن الناصر وقد رشحوا لهذا المنصب، أولهم هو سليمان أحد ابناء عبد الرحمن الرابع المرتضى.. أما الثانى فهو محمد بن العراقى وثالثهم هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار شقيق محمد الثانى المهدى والمشهور بسوء سمعته، ولما كان الجميع يعرف أن الاختيار سيقع على أول المرشحين فقد تم تحرير وثيقة التنصيب مسبقا لكن الثالث دخل المسجد يرافقه عدد من المسلّحين وفرض نفسه على الحاضرين فتم تنصيبه واتخذ لنفسه لقب المستظهر بالله.

كان الخليفة الجديد شابا لا يكاد يبلغ سن الرشد وكان يتميز بثقافة واسعة إلا أنه غير أهل لممارسة أية سلطات على شعب غير مستقر الأوضاع ومستعد للأخذ بعصا التمرد ويبدو أن كانت له موهبة شعرية - إذ ترك لنا بعض القصائد الممتازة - وبعض صفات رجل الدولة. أحاط نفسه ببعض المستشارين من ذوى الخبرة مثل أبى عامر بن شهيد وعبد الوهاب بن حزم والكاتب الكبير على بن حزم. إلاأن هذا الخليفة الجديد كان فى حاجة لمزيد من الوقت حتى يسترد التقاليد التى كان عليها الخلفاء العظام من أسرته: فلم يمكث فى الحكم إلا سبعة وأربعين يوما، إذ كان بيت المال خاويا، وحصيلة الضرائب التى كانت تصله قليلة لدرجة لا تكفى سداد رواتب الموظفين الذين عينهم فلجأ إلى وسائل غير شرعية للحصول على الأموال اللازمة مما أفقده أية شعبية بين العامة وصغار البرجوازيين ولما كان فى حاجة الى الجند فقد رحّب بأن يكون من بينهم فرقة البربر جاءت لتقديم خدماتها. فكان هذا قرارا لا يتسم بالحكمة إذ أثار أهالى قرطبة عليه وأحاط السكان بالأفريقيين وعاملوهم أسوأ معاملة ثم دخلوا القصر. وحاول المستظهر الابتعاد عن غضب العامة بالهرب فى مخزن الخشب التابع للحمامات الملكية فاكتشف المتمردون وجود أموى آخر فى القصر، كان يخشى بدوره على حياته. هذا الأموى كان يدعى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله أحد أحفاد الناصر. فنصبه القرطبيون خليفة دون أن يطلبوا منه الظهور. حدث ذلك يوم ١٧ يناير ١١٠٢٤م (٣ ذى القعدة عام ٤١٤هـ) وكان أول إجراء اتخذه الخليفة الجديد الذى يلقب بالمستكفى بالله هو الاتيان بسابقه والأمر بقتله.

كان محمد الثالث المستكفى يبلغ من العمر خمسين عاما عندما تولى الخلافة. كما أن كتاب سيرته وجدوا فيه شبها كبيرا بالخليفة العباسى الذى كا يحمل نفس اللقب(٣٤). فهو ضعيف وكسول وإباحى بعض الشئ ويحيط نفسه بأناس فيهم غلظة

فكان مثار سخرية الرعية التى لقبته «بالخواف» و«السمين» بسبب جبنه وسمنته، استطاع هذا الخليفة أن يظل فى الحكم لأكثر من عام وهو يعايش التخبط. إذ أمر بشنق ابن عمه ابن العراقي وهو الذى الذى كان قد عينّه فى البداية كوريث له وبناء على أوامره فقد وضع كل من ابن حزم وزيرى عبد الرحمن المستظهر فى السجن. ثم كان الحظ حليف بعض عليه القوم فى هروبهم من قرطبة وتوجههم إلى مالقة مثل أبى عامر بن شهيد وقد أصبحوا تحت إمرة الحمودى يحيى هذا الأخير لم يكن فى عجلة من أمره لمعاودة الظهور. وبعد شئ من الوقت عرف ان ابن على بن حمود كان يستعد للسيطرة على العرش من جديد. إلا أنه لما كانت الاضطرابات تزداد سوءا لم يجد المستكفى، بضعفه وعدم وقدرته، مخرجا إلا الفرار قبل أن يتم إقصاؤه، وخرج متخفيا مرتديا زى امرأة من المغنيات وخرج من قرطبة فى ٢٦ مايو ١٠٢٥م قاصدا الثغر، وبعد ذلك بأسابيع أغتيل فى إقليش **Ucles** الكائنه فى محافظة قوينقة **Cuenca** حاليا. وكان اغتياله على يد أحد علية القوم الذين رافقوه فى رحلة الهرب.

من السهولة بمكان أن نعرف أن قرطبة لم تعد المدينة التى يتسابق عليها الأمراء سواء كانوا أمويين أم غيرهم للجلوس على عرش الخلافة الشاغر. وكل من أتى إلى القصر من سلالة «المهاجر» يعرف مسبقا أنه يعرض حياته للخطر مقابل لقب لا قيمة له ومقابل فوائد مادية ضئيلة، كما أن الأراضى التى سيحكمها لاتتعدى حدود محافظة متوسطة المساحة. ولم تعد كل من أشبيلية وغرناطة وجيان أو غيرها من المدن الواقعة فى الشرق تبدى أى اهتمام بالعاصمة القديمة للأندلس التى كانت منذ ذلك الحين تسيطر سيطرة كاملة على تاريخ أسبانيا الأسلامية. لكنها الأيام الخوالى. وهذا هو السبب الذى من أجله لم يبد يحيى بن على بن حمود أى عجلة للعودة من أجل شغل العرش الخالى. إذ كان جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية من مالقة وحتى شريش **Jerez** كان يدر عليه أرباحا أكثر مما يمكن أن يحصل عليه من هذه العاصمة التى خربت وانهارت قواها. انتظر سته أشهر ولم يفعل ذلك إلا لوقت قصير جدا. فوصل إلى قرطبة فى التاسع من نوفمبر ٢٥- ١١- ١٠٢٥م (١٦ رمضان ٤١٦هـ) ثم غادرها متوجها إلى مالقة فى أوائل مارس من العام التالى (٨ محرم ٤١٧هـ) وهو يشعر بسعادة لأن الوزير أبو جعفر أحمد بن موسى حل محله ووضع تحت إمرته عدة مئات من الجنود البربر.

وبعد مرور عدة شهور اتصل الفتيان الصقلبيان: خيران من المَرية ومجاهد من دانية **Denia** بأهالى قرطبة الذين سئموا من الحموديين واتفقا معهم على تكوين جيش

المجيئ إلى قرطبة لطرد نائب يحيى بن على بن حمود. لكن لم يحدث اتفاق بين الطرفين حول مسألة أن تكون قرطبة حكومة قادرة ومستقرة. فعاد خيران إلى المرّية يوم ١٩ يونيو ١٠٢٦م (٣٠ ربيع الثانى ٤١٧ هـ) كما عاد مجاهد أدراجه هو الآخر بعد وقت قصير. وتركا بذلك قرطبة لأهلها وهى غارقة فى الفوضى.

هشام الثالث المعتمد: إلغاء الخلافة الأموية :

يبدو أن كبار البرجوازيين من أهالى قرطبة، الذين ظلوا على موقفهم المحافظ وربما السلبى، قد شعروا بأن عليهم واجبا لابد لهم من القيام به وتحمل مسئولياتهم. فعلى الرغم من المجازر التى وقعت خلال السنوات الأخيرة وهجرة الكثير من الأسر التى أرهقتها الاضطرابات التى ساطت المدينة، كانت لا تزال هناك بعض الأسر العريقة التى عملت تحت رعاية خلفاء الزمن الجميل وكان رجالها قادرين على رفع أصواتهم حتى يسمعوا من يريدون له أن يسمع عندما كانت قرطبة تمر بفترة حرجة، وأن العناصر الانقلابية فى المدينة شعرت بأن الأحداث التى أشعلتها قد تجاوزت قدراتها. ورغم المتاعب الكثيرة التى تكبّدتها هذه الأسر منذ سنوات من جراء انضمامها للأسرة الأموية فإن هذه الأقلية من الرجال الحريصين والعقلاء الذين يمكن أن نبرز من بينهم أبو الحزم جوهر بن محمد بن جوهر. إذ أراد هذا القيام بمحاولة أخيرة ليضع على كرسى الخلافة أحد أمراء بنى أمية واتفق على أنه لا يكفى أن يحظى المرشح بتأييد القرطبيين فقط بل يجب الحصول على موافقة باقى الأقاليم والثغور وأن يعترف به القادة المستقلون من الصقالبة والأندلسيين المنتشرين فى كل مكان. الأمر ببساطة هو محاولة تقديمه على أنه بطل وطنى يكافح وجود البربر على أساس أنهم مصدر جميع البلايا التى تعانى منها أسبانيا الأسلامية منذ سقوط العامريين.

لم يكن من السهل العثور على أموى للقيام بهذا الدور المرتقب وبحيث يحظى برضى الجميع لكن بعد مشقة اتفق على أن يكون الشقيق الأكبر لعبد الرحمن الرابع المرتضى هو البطل الحزين للمغامرة الغرناطية وهو هشام بن محمد بن عبد الملك، الذى ولد فى ٩٧٥م (٣٦٤هـ) وكان يعيش فى قلعة ألبونت **Alpuente** الواقعة شمال غرب بلنسية فى ضيافة سيد عربى هو عبد الله بن قاسم الفهرى. لم يجد هشام أى استعجال لتولى منصب الخلافة فى قرطبة فقد تم تنصيبه خليفة خلال شهر يونيو ١٠٢٧م (ربيع الثانى ٤١٨هـ) واتخذ لنفسه لقب المعتمد بالله. إلا أنه ظل يعيش فى القلعة التى كان بها سابقا آملا أن تزول الصعاب التى نجمت عن اختياره خليفة. ويعد

عامين قرر الرحيل للاقامة في قصر الأجداد، فوصل إلى العاصمة في ديسمبر ١٠٢٩م (ذى الحجة ٤٢٠هـ) وكانت رحلته متواضعة لدرجة أنها لم تترك إلا انطباعا سيئا لدى حاشيته الجديدة.

لم يكن هشام الثالث المعتمد يختلف في شئ عن سابقيه إلا بدرجة واحدة، فالذين اتصلوا به وظنوا أنه سوف يوليهم المناصب الأساسية في الدولة سرعان ما أدركوا حقيقة حاكمهم، فقد اختار لرئاسة الوزارة رجلا لا نسب له ويتسم بالتآمر وشدة الطموح وكان يعمل في الحياكة قديما هذا الرجل يدعى حكم بن سعيد. وخوله الحاكم صلاحيات كاملة ولم يفكر الخليفة الا أن يتمتع ما وسعه بالفرصة السانحة التى يمثلها تواجده في قرطبة. لم يدخر الحكم بن سعيد أى جهد من جانبه حتى يزداد رضا سيده عنه إذ كان يقوم بنفسه بالإشراف على مائدة طعام الخليفة. وتنويع أصناف المأكولات وإحاطته بالاهتمام البالغ وجلب أجمل المغنيات والموسيقيين من ذوى الخبرة في التسلية أما باقى الوظائف الحكومية فقد وضع فيها شبابا لا يتسم بأية خبرات، وطبقا لعبارة رشيقة قالها ابن حيان[٣٥]. «لم يفكروا إلا في الكأس المستدير لشرب الخمر وارتياد حدائق الرياحين وطبخ نبات الترفاس والتسلّى بأعراض الناس».

ورغم أن شعبية الحكم بن سعيد أخذت تتضاءل فإنه لم يعدم الوسائل للإبقاء على نفسه في الحكم لمدة طويلة إذ استطاع، من خلال قرارات حكيمة، أن يجعل في بيت المال شيئا من المدخرات، كما أسكت احتجاجات بعض الفقهاء على المصدر غير الشرعى لهذه الأموال، بتوجيه التهديدات لهم. وخفتت حدة احتجاجات الطبقة البرجوازية ورغم ذلك فقد آتت ثمارها إذ وقعت عدة محاولات لحرمان الحكم من المساعدات التى استطاع الحصول عليها وكان ذلك من العامة وكتائب القصر إلا أنه لم يكن أمامه طريق آخر إلا تفريقهم وتطبيق العقوبات الضرورية. وللخروج من هذا الموقف نهائيا نجد أن أبا الحزم بن جوهر وباقى ممثلى كبار العائلات القرطبية حزموا أمرهم على اللجوء إلى الحل الذى لا مناص منه رغم مقاومتهم للموافقة عليه هو: العصيان المدنى. فقد تلقى شاب مروانى هو أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان، والذى كان ظهوره مناسبا في هذه الآونة، وعدا بأنه إذا ما استطاع إقصاء المعتد عن كرسى الخلافة وخلّص المدينة من الوزير المشئوم فسوف يتولى الخلافة هو. إلا أن الوعد كان كاذبا ذلك لأن البرجوازية القرطبية كانت قد حسمت أمرها بالتخلص نهائيا من الخلافة الأموية ـ فهى مجرد واجهة صورية لا تتسق مع الواقع دنيا ودينا ـ وأن يَحل محلها مجلس الأعيان بتولى إدارة المدينة ومساحة الأراضى الصغيرة التابعة لها.

كان أمية يتمتع بالجرأة أكثر من الفطنة فلم يخمن الدور الثانوى الذى طلب منه أن يلعبه وقام بتكوين جند من بين صفوف الكتائب غير الراضية عن الأوضاع والمحرومة من مرتباتها وتمركز معهم فى الشارع الذى يمر فيه الوزير ذاهبا إلى القصر. وعندما ظهر الحكم بن سعيد أصابوه بضربة قاتلة وألقوا بجثته فى الوحل وأكوام القاذورات بينما أخذوا يطوفون برأسه محمولة على رمح. حدث ذلك فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٠٣١١م (١٢ ذو القعدة ٤٢٢هـ). أثار هذا الاغتيال العامة من أهالى قرطبة المتعطشين للنهب فاندفعوا وراء أمية وأتباعه إلى القصر ودخلوه كالسيل الجارف لكن كانت لابى الحزم بن جوهر سلطة قوية فأوقف نهب القصر فى الحال ثم خطب فى الجماهير حطبة أوضح لهم فيها أنهم يبحثون عن تعاستهم بأيديهم إذا ما تركوا قيادة أمورهم ببساطة لأموى. أنصت الناس لندائه وانتهى العصيان دون إراقة دماء. وبعد أن فقد أمية طموحاته وآماله دعاه إلى الخروج من المدينة قبل فوات الأوان حفاظا على حياته. أما الخليفة المعتمد فقد اختبأ فى أحد المبانى الملحقة بالمسجد الجامع مستفيدا من الممر المقبى الذى كان يربط بين المسجد والقصر والكائن فوق شارع الجسر Puente. وبعد مشاورات مطولة استمرت يوما كاملا أبلغ أبو الحزم بن جوهر وباقى الأعيان العاهل المخلوع بقرارهم الذى يطلب منه مغادرة قرطبة دون إبطاء. كان احتجاج الخليفة شكليا لكنه قد اغتبط فى أعماقه لتمكنه من الخروج دون متاعب. وربما تم سجنه لبعض الوقت فى إحدى القلاع وإنتهى به الأمر إلى لاردة Leri-da فى الثغر الأعلى إلى جوار سليمان بن هود، حيث وافته المنية هناك بعد خمس سنوات من إقصائه. وبذلك انتهت سلسلة الخلفاء الذين حكموا الأندلس منذ أن حلّت الأسرة الأموية بالمغرب.

* * *

سقطت الخلافة الأموية فى أسبانيا الإسلامية فيما لايزيد عن ربع قرن وكأنها قلعة من ورق أقامها الأمويون بعد جهد جهيد على هذه الأرض وأسسّوها خير تأسيس. ومع ذلك فقد كانت الهزات العنيفة تزلزل كيانها. ويمكننا تخمين الأسباب التى أدت إلى هذا التهاوى السريع رغم أن المؤرخين العرب لا يكادون يشيرون إلى شئ منها وهى: ضعف هشام الثانى، والوصى العامرى الثالث واستمر الأمر كذلك حتى ذهب آخر ممثل للأسرة المروانية. كما كان التدخل المتزايد وغير المحسوب فى الشئون العامة للإماره من قبل البربر والصقالبة، وكذا الفوضى الواضحة التى كان عليها العامة فى قرطبة يضاف اليها كسل الطبقة البرجوازية ذلك أن الأمر ببساطة يعنى

التفكك التدريجي لنسيج المجتمع الأندلسى غير المتجانس مع ماصحب ذلك من إطلال العصبيات برؤوسها وكذا الحزبية السياسية.

ورغم هذه الأسباب التى عرضنا لها فإن سرعة تهاوى الحكم الأموى لازالت تثير التساؤل وربما أمكن لنا أن نفهم بشكل أفضل سبب الكارثة إذا ما كان التدهور بطيىء الإيقاع بالقول بأنه كانت هناك بعض التصدعات التى يتم ترميمها أو بعض التشققات الكبيرة التى لم تؤخذ فى الاعتبار عند بدايتها. كان من المنتظر أن تطول فترة التدهور بعد وصول الخلافة الأموية إلى أوج ازدهارها وقوتها وأن يكون سبب التدهور هو مجموعة من النكسات العسكرية أو قيام العدو المسيحى بالاستيلاء على بعض المناطق التابعة لأسبانيا الأسلامية. لكن لم يحدث شئ من هذا. فعندما تم إقصاء آخر خليفة أموى كانت قد مرت خمس وثلاثون سنة دون أن يقوم المسلمون فى الأندلس بتوجيه ضربات للمسيحية الأسبانية بعد الضربة المرّة والمهينة التى تمثلت فى الاستيلاء على شنت ياقب Santiago de compostela ونهبها التى ظلت ماثلة فى الأذهان حتى ذلك الحين. استطاع كل من عبد الرحمن الثانى، وخاصة فى السنوات الأخيرة لحكمه، والحكم الثانى، والمنصور بعد ذلك فرض سيادتهم على إجمالى شبه الجزيرة حيث كانت الممالك فى الشمال تعيش تحت تهديداتهم، كما أنهم كانوا الحكم فى الخلافات التى تحدث بين هذه الممالك. واستطاعوا أيضا إجهاض أى فتنة فى المهد. لم يتعرض النظام الاستبدادى، الذى تخللته بعض الفتن الداخلية، لهجمات ذات بال منذ أن قام أول الخلفاء الأسبان برفع علمه على أسوار طليطلة وببشتر Bobastro. وكانت الظواهر تشير إلى أن الدولة الأسلامية ستعيش مدة طويلة فقد تم تنظيمها جيدا وكانت إدارتها على أحسن وجه. كانت لها مواردها الكثيرة من خلال اقتصاد مزدهر وجبايا يتم تحصيلها بمقتضى العمليات العسكرية. لم تكن الدوله كأنها فطر ينمو فى الليل ويذبل فى صباح اليوم التالى طبقا لعبارة جميلة ساقها E.F.Goutier لتشبيه الأوضاع السياسية للبربر فى العصور الوسطى. ومع ذلك كان السقوط مدويا يذكرنا فى كثير من جوانبه بسقوط الأمبراطورية الرومانية مع الاختلاف بين الحالتين. وكان دوى السقوط أكثر وقعا من سقوط الممالك الأسبانية المغربية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، فقبل أن يذهب المرابطون عن الساحة شعروا بأن سلطانهم يغرق رويدا رويدا تحت وطأة أقدام المدّ الدينى الواسع المدى. أما الموحدون فقد تمت إزاحتهم بواسطة الضربات المتتالية التى كالتها لهم الممالك المسيحية وذلك قبل الترنح ثم التهاوى فى بؤرة السباق العقيم بين الأدعياء.

لم يكن أى من الأسباب المذكورة وراء سقوط الخلافة الأموية فلم تكن هناك أسرة جديدة أتت لتحل محلها وتسير على طريقها فى نفس الأرض وتتخذ نفس السياسه، بل حلت محلها سحابة مكوّنة من دويلات تتناطح فيما بينها معلنة أنها صاحبة الحق فى هذا الجزء أو ذاك من ميراث الخلافة. سوف تكون هذه الدويلات مستقلة منذ اللحظة الأولى لكن لن يكون هناك تضامن فيما بينها رغم أن الأقوى منها ضم إليه الأضعف وجلها أحيانا تدور فى فلكها.

ومما لاشك فيه أن التقاليد والتراث الأموى ظل حيا فى أغلب هذه الدويلات التى عاشت خلال القرن الحادى عشر وكانت هى الأساس الذى سار عليه الحكام ابناء «الفتنة» فى تنظيم بلاطهم وحكوماتهم لكن هذه التقاليد لم تحظ بالقوة اللازمة حتى يعود أمير أموى إلى السلطة ويتولى العمل على إعادة وحدة الأندلس. وسوف يكون هناك أجانب «المرابطون» يقومون باحياء هذه الوحدة قبل انتهاء القرن الحادى عشر ببضع سنوات وبذلك تحولت أسبانيا فى عملية تبادل سريع للأدوار إلى تابع للمغرب تلك المنطقة التى استطاعت أسبانيا الأسلامية السيطرة عليها وربطها بها منذ مائة عام.

وخلال هذه الفترة الانتقالية لم تظهر الخلافة الأموية فى المغرب، على أنها دولة تعيش فترة اضمحلال ولا مناص من تهاويها فى نظر أهل الشرق وباقى العالم الأسلامى. لكن الأمر الذى انتهى بالفعل كان تفوق الأندلس وسيطرتها على المجموعة الأيبيرية المتدة من البرانس وحتى الغرب الواقع على المحيط الأطلنطى أو المتد حتى السواحل الشرقية المطلة على البحر المتوسط. وأصبحت قوة الأسلام وسمعته فى عداد الذكريات التاريخية فى نظر كل الممالك الصغيرة مثل ليون وينبلونة وبرغش **Burgos**.

كان اسم الناصر والمنصور اللذان يعنيان باللغة العربية «صيحات النصر» هما المسيطران على كافة أنحاء أسبانيا خلال القرن العاشر. لكن اعتبارا من الآن وحتى تدخّل أمير الصحراء يوسف بن تاشفين نرى أن القرن الحادى عشر هو عصر فرناندو الأول والفونسو الرابع والسيد القمبيطور **El cid** الذى أُلفتّ بشأنه القصيدة الملحمية. وعلا نجم قشتاله هذا الأقليم الذى صنع أسبانيا وأخذ يرتفع شيئا فشيئا. أما نجم الأندلس المسلمة فقد أخذ يخبو كما أن تكاثر حالات كسوفه أعلنت عن غروبه الكامل وسقوطه فى بحر العدم.

هوامش الفصل السابع :

١) المصادر العربية: فيما يتعلق بإجمالى الفترة من ١٠٠٨- ١٠٣١م فإن المصدر الرئيسى هو إبن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٣٨- ١٥٢ إذ يروي بالتفصيل - نقلا عن المقتبس فى أغلب أجزائه - والكثير من الفقرات التى أوردها ابن حيان عن تلك الفترة نجدها مضمنّة أيضا فى الذخيرة لابن بسّام - الجزء الأول (طبعة جامعة فواد الأول - القاهرة) ص ٢٤- ٣٢ (ولاية سليمان المستعين) ٣٤- ٤٠ (ولاية عبد الرحمن المستظهر) ٧٨- ٨٣ (ولاية عليّ بن حمودّ ٢٧١- ٢٧٣) (يحيى بن على بن حمدون) ٣٧٩- ٣٨٣ (ولاية محمد المستكفى) ٣٩٧- ٤٠٤ (المرتضى والزواى بن زيرى) الجزء الثانى ص ١٢- ٧ (ولاية القاسم بن حمود). وهناك فقرات مطوله اعتمدت على إبن حيان زوردها إبن الخطيب الأعمال ص ١٠٤- ١١٤، ١٢٦، ١٦٣. انظر أيضا إبن الأبار «الحلة» ص ١٥٩- ١٦٤ (سيرة سليمان المستعين) ١٦٤- ١٦٦ (سيرة عبد الرحمن المستظهر) - إبن خلدون فى العبَر الجزء الرابع ص ١٤٨- ١٥٣ - عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ٢٨- ٤٠ من النص - وص ٣٣- ٤٩ من الترجمة - النويرى تاريخ أسبانيا ص ٢٢١- ٢٣٧ من النص - إبن الأثير الحوليات ص ٣٨٥- ٣٨٩، ٤٠٨- ٤١٢، ٤٢٠- ٤٣٧ - المقرّى نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٧٧- ٢٨٢- ٢١٥- ٣٢٠ انظر أيضا طوق الحمامة لابن حزم حيث توجد بعض التفاصيل الخاصة بالأوضاع فى قرطبة خلال الأعوام الأخيرة لخلافة الأمويين المراجع :

- Utilización exhaustiva de las fuentes árabes conocidas en su época por Dozy Hist. Mus. Esp,2. II, páfs. 281- 323- 46, que no sacrifiea ningún detalle. Véase asimismo A. PRIETO Vrves, Los rtyes de laijas, páfs. 13- s. M. Asin PALACIOS Abenházam de córdoba, I, Págs. 64- 85, ha trazado un cuadro de esta época, e cuya historia estuvo Ibn Hazm estreehamente mezelado Veease supra pag. 421 vn. 64.

٢) انظر Supra, pa 421 وملاحظة رقم ٦٤.

٣) هناك على سبيل المثال: ابن بسّام فى الذخيرة الجزء الأول - ص ٨٤- ٨٦، وإبن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٤٤- ٤٦ والنويرى في تاريخ أسبانيا ص ٢١- ٢٢٤ وابن خلدون فى العبر الجزء الرابع ص١٤٨- ١٤٩ والمقرّى نفح الطيب فى الجزء الأول ص ٢٧٧- ٢٧٨.

٤) ابن الأبار - الحلة ص ١٥٠ فقد ورد فى حديث - فيما معناه - أنه لن تقوم الساعة حتى يظهر رجل فى قحطان يقود الناس بعصاه».

٥) ابن عذارى - البيان الجزء الثالث رقم ٦٠، ٦١.

٦) Según los Annales complutenscs (abud HUICI, Crónicas latinas de la Reconqvista I, pagina 43. cf. Risco Historia de la ciudad y corte de león y de sus reyes, Madrid 1792, I, p, 246) Sancho Garcia penetnó el año 1009 en territorio musulmán hasta Molina (actual provincia de Guadalajara) "et destruxit terram Azencam".

٧) فيما يتعلق بخروج شنجول على رأس حملته انظر ما أورده إبن عذارى (البيان ج الثالث غير أنه غير موجود بالطبعة نظر لوجود أجزاء ناقصة من المخطوطة المستخدمة) وقد أورده ليفى بروفنسال.

٨) انظر Supra ص ٤٤٢- ٤٤٣ ورقم ١٠٦.

٩) ورد فى المقام الأول إبن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٦٥ ـ والمقرّى فى نفح الطيب Analectes الجزء الأول ص ٣٨٧- ٣٨٨.

١٠) ابن عذارى ـ البيان الثالث ص ٦٦.

١١) نفس المصدر ص ٦٨.

١٢) ابن حزم ـ كتاب الفصال طبعة القاهرة ١٣٢١هـ الجزء الأول ص ٥٩ حيث يؤكد أنه حضر عملية الدفن في السلسلة الجبلية المحيطة بقرطبة ـ أنظر Asin palacios إبن حزم القرطبى ـ الجزء الأول ص٦٩ رقم ٧٩.

١٣) حول «فحص السرادق» حيث كان يوجد متنزّة للأمراء الأمويين انظر ليفى بروفنسال «إسبانيا الأسلامية» القرن العاشر ص ١٤١-٢٢٥ ملاحظة رقم ٣ ـ وسوف نعود للحديث عن هذا المكان الذى تتجمّع فيه القوات عندما نقوم بدراسة تنظيم جيش الخلافة.

١٤) نلاحظ فى أغلب الفقرات الواردة فى الجزء الثالث من البيان لابن عذارى المتعلقة بالأنشطة التى قام بها سانشو غرثية خلال تلك الفترة أن هذا الكونت القشتالي يشار إليه دوما باسم ابن أم دونه وهذا الاسم هو اشتقاق محرّف من اسم أم جدة سانشو Mumma Domna وهذا حسب ما أكده لنا العلاّمة فى رسالة بعث بها عام ١٩٣٩. وها هو نص ما كتبه لنا المؤرخRamon Menendez Pidal الأسبانى: كان المؤرخون العرب على علم جيد بشجرة العائلة للكونت وبالتالى فالنسبة ابن مومة صحيحة ذلك أنها تشير إلى أم الجدة. فوالدة فرنان غونثاليث الكونت الأكبر ان اسمها Mumma Domna وهناك تنويعات من Munia Domna تطلق علي أناس كثيرين لكن لايرجع إليها ...».

انظر أيضا:

- V, G. CIROT, Inde onomastique et géograhique de la "Chronique léonaise", en Bull. Hisp., XXXVI, 1934, s.v.

١٥) أورد ابن حيان اسم هذه البلدة (من خلال إبن بسّام فى الذخيرة الجزء الزول ص ٣٠، ٣١ لكنه لا يظهر فى البيان لابن عذارى رغم أنه يورد لنا الواقعة بكل تفاصيلها. ورد أيضا فى إبن الأبار «التكملة» [طبعة مشتركة] رقم ٢٧٢٠ حيث يتحدث بشكل ثانوى عن هذه المعركة.

١٦) فيما يتعلق بهذا القعلة انظر:

- LÉvi- PROVENGAL, Esp. Mus. X. siécle, pág. 149 (reproducción de las ruinas del hisn omeya, ibid lám. V) ISRISI, Descr de l'Esp., tecto, páf, 213, trad., páf. 263 lo señala bajo el nombre de Dar al- baqar.

١٧) انظر إبن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٩٥ حيث أن الكونت Ermengol de urgel كان قد توفى فى معركة عقبة البقر. وهو خبر يبدو مؤكدا من خلال بيت من الشعر فى قصيدة لمدح سليمان المستعين قرضها ابن دراج القسطلى (ابن بسّام ـ الذخيره الجزء الأول ص ٥٢، ٢.١) وفى هذه القصيدة يتحدث الشاعر أيضا عن معركة كمانتيس ومعركة وادى ياره. وفيما يتعلق بمشاركة بعض أصحاب الألقاب ـ الكونت ـ من الفرتجة فى هذا الموضوع انظر Soldevila, Hist de catalunya pág 71.

١٨) دوزى ـ تاريخ أسبانيا الأسلامية ـ الجزء الثانى ص ٢٩٨. أخطأ عند القول بأن هذه المعركة وقعت فى أراضى أشبيلية وبالتحديد بالقرب من نقطة إلتقاء نهر الوادى الكبير ووادى ياره. ففى طبعة Gaspar لتاريخ أسبانيا للنويرى لم ترد الفقرات التى تشير إلى دوزى (نفس المصدر ٢.١).Remiro

١٩) وردت أسماء تلك الحصون فى :

- los Annales Compostellani (apuul Huici Crónicas latinasde la Reconquista, I. Pag, 61): "Era MXLLX (1011 J.C.) dederunt comiti sanctio san stephanum et chuniam et osman. et Gornnaz cf dedem et Berlangs., las eromeas arabes añaden que, como conseeucneia de wsta wntrega de plazas ruertes a sancho Garcia otro soberano, el "hijo de sancho hizo una petieión analoga, que fue satisfeha. Como esa filiación no puede aplicarse ni al rey de león ni al de Pamplona debe de tratarse de un conde gallego de la frontera de la Marca inferior.

٢٠) وهذا ما يؤكد خبر أورده ابن خلدون فى «العبر» الجزء الرابع ص ١٤٦ ونقلها عنه المقرّى «نفح الطيب» فى الجزء الأول ص ٢٥٠. أما فيمايتعلق بباقى مكتبة الحكم الثانى فقد نهب، طبقاً لرواية نفس المؤرخ، بعد ذلك بقليل عندما استولى البربر على قرطبة.

٢١) ابن الأبار الحلّه ص ١٥٧– ١٥٨: خصص هذا المؤرخ فقرات موجزة عن سيرة هذه الشخصية المسماه: أبو الحسن على بن وداعة عبد الودود السلامى.

٢٢) قام سليمان المستعين بتعيين ابنه هذا كوريث للعرش وكان هذا التعيين فى بداية شهر فبراير عام ١٠١٠م (١٥ جمادى الثانية عام ٤٠٠هـ. وقد أورد ابن الخطيب «الأعمال» ص ١٤٦– ٤٨ النص الكامل لمحضر التنصيب الذى تم تحريره بهذه المناسبة.

٢٣) ابن الخطيب «الأعمال» ص ١٤٠– ١٤١.

٢٤) يرجع الفضل فى هذه الأخبار عن ابن حمود إلى الأخبار والتى وردها ابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ١١٣ ـ انظر أيضا ابن الخطيب فى الأعمال ص ١٣٩.

٢٥) بالنسبة لهذا القاضى الذى عين لمدينة سبته من قبل عبد المالك انظر ابن بشكوال Sila n. 1190.

٢٦) طبقا لابن الأثير الحوليات ـ ص ٤٢٣، ٤٢٥ ـ فإن علّى بن حمود تلقب أيضا بالمتوكل على الله.

٢٧) ابن الخطيب ـ الأعمال ـ ص ١٤٢: حيث يشير المؤرخ إلى أنه عند قيام على بن حمود بقتل سليمان المستعين بيديه صاح، لايقتل السلطان إلا السلطان» وقد نطق بالسين على لهجة الزناته أى كأنها «ثاء» وطبقا لهذه الواقعة يمكن القول بأننا أمام أول استخدام للكلمة العربية «السلطان» فى الغرب بمعنى «العاهل» وليس بمعنى «القوة أو السلطة».

٢٨) القرآن الكريم سورة الحشر.

٢٩) القرآن الكريم سورة الطوّر.

٣٠) بالنسبة لهذه المغامرة التى قام بها المرتضى انظر - بالإضافة إلى المؤرخين العرب الذين رجع إليهم دوزى فى Rech3 Ipag 223- 3.

- (relato reproducido en Hist Mus. Esp' II, pág, 310. s) la nueva relación que figura en las "Memorias" del rey ziri Abd Allah de Granada (LEVI- PROVENCAL. Deur nouveaux frgments des "Mémoires. du roi ziride Abd Allah de Granade en Al-Andalus, VI, 1941, paginas 19- 21). En ninguna parte consta la fecha exacta de la derrota de al Murtada ante los muros de Granada.

٣١) سوف نرى فى حينه كيف أنه بعد ذلك بعدة سنوات من انتصاره على المرتضى، قرر القائد العجوز الزاوى بن زيرى مغادرة الأندلس والعودة إلى إفريقية عام ١٠٢٥م (٤١٦هـ) وترك هناك ابن اخيه حبوس بن مكسن ليتولى أمور الصنهاجة ويؤسس المملكة الزيرية فى غرناطة التى ظلت حتى نهاية القرن الحادى عشر.

٣٢) هكذا يمكن لنا أن نفسّر المصطلح «تقوية» الذين ورد عند ابن حيان وابن عذارى وهذا ما يختلف مع دوزى فى Suppl. Dict. ar. II pag 429 b حيث يرى ترجمته «تفتيش الدولة».

٣٣) لا يورد هذه النقطة إلا ابن الأثير فى حولياته ص ٤٢٥.

٣٤) حول هذا الخليفة العباسى الذى حكم من عام ٩٤٤ حتى ٩٤٩ (٣٣هـ- ٣٣٨هـ) أنظر مقال.

٣٥) ابن عذارى - البيان» الجزء الثالث ص ١٤٩ (نقلا عن ابن بسّام فى الذخيرة الجزء الثالث F. 142 vo مخطوطة Gotha.

٣٦) - Les siécles doscurs deu Maghreb, pág 12.



الفهرس



المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت . أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت: بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت . أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت · المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت · ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت · عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت · محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت . محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت · لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت · مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت · محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف · محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت · رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت . رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت · أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦- چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت . محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت . لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت . بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت . محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيكل الكسندر وفنادولينا	ت. أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت . أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت . بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت . محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت . شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت . لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت . عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت . أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت . نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان



١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف اليمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسه	يوحنا الأسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى

١٨٤– القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥– أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦– معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧– الأرضة	بُزرْج علوى	ت:علاء منصور
١٨٨– موت الادب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩– العمى والبصيرة	بول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠– محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١– الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت. مصطفى حجازى السيد
١٩٢– سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغي	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣– عامل المنجم	بيتز أبزاهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤– مختارات من النقد الأنجلو–أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥– شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦– المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت.أشرف الصباغ
١٩٧– الفاروق	شمس العلماء شبلي النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨– الاتصال الجماهيرى	ادوين إمزى وآخرون	ت:ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩– تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠– ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت. فخرى لبيب
٢٠١– الجانب الدينى للفسلفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢– تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣– الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤– تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥– الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى– سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦– الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧– ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨– شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩– السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠– مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت. يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١– فرديناند دوسوسير	جوناثان كللر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢– قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣– مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤– قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت. محمد محمود محى الدين
٢١٥– سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦– جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧– عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيث سميث	ت. وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨– رايولا	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩– بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠– الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١– شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

ف. كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
في المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
ح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٨.. - لجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت: جمال أحمد عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال	ارثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس التبريزى	جلال الدين مولوى رومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيرين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محمود
٢٤١- فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنال	ت: على عبدالرؤوف البمبى



طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٠٧٠ / ٢٠٠٠



HISTORYA DE ESPANA

Levi-Provencal

كثيرا ما أُثير الجدل ، وسيظل يُثار ، عمّا إذا كان الوجود الإسلامى فى إسبانيا قد أفاد تطورها القومى أو ألحق به الضرر ، وعن الحالة التى كان من الممكن أن يكون عليها هذا التطور لو لم يتخلله الإسلام ، لكن إذا كان التاريخ الفعلى « لما كان » لابد وأن يتأثر ببعدى الزمان والمكان اللذين يلفّان راصده ، فما بالنا - إذن - بكم الشطحات التى ستصاحب التاريخ الخيالى « لما كان يمكن أن يكون » !! أهلاً ومرحباً بألعاب العبقرية التى يمكن أن تكون موحية أو حتى خصبة ، لكن على ألا يُطلب منا الاشتراك فيها اليوم أو الجلوس على مقاعد قاعات تدرس فيها احتمالات تاريخ العالم منذ كليوباترا .

علينا أن نكتفى بما كان فعلاً . ربما تكون الصدفة (لو كان التاريخ يؤمن بالمصادفات) هى التى جعلت الإسلام يدخل إسبانيا ، أو - على الأصح - أن يدخل كثير من الإسبان فى الإسلام الذى ربطت الأندلس بماضيه السحيق (الشرق القديم) صلات طويلة وخصبة .

يتميز الفتح العربى لإسبانيا - من بين كل الفتوحات التى قام بها العرب فى نهاية القرن السابع الميلادى وأوائل الثامن بعيداً عن البحر الأحمر والخليج الفارسى - بالسرعة والجرأة والسهولة ، فقد أتيح للمسلمين بموجبه الاستيلاء على أغنى أرض حلموا بها فى نهاية مشوارهم تجاه غرب البحر الأبـ[illegible] المتوسط . كما أن اقتحامهم غير المتوقع لشبه جزيرة أيبيريا - من أعمدة هـ[illegible] حتى حائط جبال البرانس - قد أثار دهشة وفزع العالم المسيحى الغر[illegible] وتحير مؤرخو العصور الوسطى فى تحديد الظروف التى هيأت له .